تاريخ المغول وغزو الدولة الإسلامية

الدكتورة
إيناس حسني البهجي



بالعلم نرتقي
مركز الكتاب الأكاديمي

تاريخ المغول

وغزو الدولة الإسلامية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2016/4/1614)

956.026
البهجي، ايناس حسني
تاريخ المغول وغزو الدولة الإسلامية/ ايناس حسني البهجي عمان:مركز الكتاب الاكاديمي، 2016
()ص.
ر.إ.: 1614/ 4/ 2016
الواصفات: / الامبراطورية المغولية الأولى1163-1260 / التاريخ الإسلامي
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

الطبعة الأولى 2017

ISBN978-9957-35-208-0 (ردمك)

مركز الكتاب الأكاديمي
عمّان-وسط البلد-مجمع الفحيص التجاري
ص . ب : 11732 عمّان (1061) الأردن
تلفاكس: 96264619511+ موبايل: 962799048009+
الموقع الإلكتروني: www.abcpub.net
A.B.Center@hotmail.com / info@abcpub.net

تاريخ المغول

وغزو الدولة الإسلامية

الدكتوره

إيناس حسني البهجي



الإهـــــــــــداء

إلى اسرتي

د/ايناس

بسم اللـه الرحمن الرحيم

المقدمــة

هذا الكتاب يتحدث عن المشروع المغولي وعوامل الانتشار وتـداعيات الانكسـار، ففـي الفصـل الأول يتكلم عن غزو المغول لبلاد المسلمين، وعن أهميـة دراسـة تـاريخهم والتعريـف بهـم ومـوطنهم الأصلي والقبائل التي يتكون منهـا مجـتمعهم، وعـن حيـاتهم الإجتماعيـة، وديـنهم، وتـداعي المجتمـع المغولي قبيل جنكيز خان، والفوضى فيه ومحاولات توحيـد القبائـل المغوليـة، وأحـوال العـالم الإسـلامي قبيـل الغـزو المغـولي، كالخلافـة العباسـية، والأيـوبيين في مصر والشـام، وانتشـار الموبقـات، كـالخمر، والجواري، والغناء والطـرب. وفي المبحـث الثـاني، كـان الحـديث عـن ظهـور جنكيـز خـان عـلى مسرح الأحداث وعن نشأته وتربيته، وكفاح والدته وزواجه واختياره خاناً على المغـول، وعـن حروبـه وبدايـة توحيد القبائل تحت زعامته وبناء الإمبراطورية المغوليـة، وكانـت هنـاك وقفـات مهمـة عـن مقومـات المشروع المغولي في عهد جنكيز خان، كشخصيته وأهـم صـفاته، كالشـجاعة والسـخاء والكـرم والغـيرة، والقسوة والإخلاص لأصدقائه ومعرفته للرجـال وقيادتـه للقـادة، ودسـتور الدولـة (الياسـا)، ونصوصـه التاريخية وموقف الشريعة الإسلامية من الياسا، وأهمية كتابة أقوال ملـوك المغـول، وتنظـيم واجبـات خدمة الخان، والجـيش المغـولي، وأشـار الكتـاب إلى مجموعـة مـن وصـايا جنكيـز خـان لجيشـه، وإلى طريقة التسلح والتجهيز لدى المغول، وأساليب القتال والاتصالات في الجيش وفقـه القيـادة، ومـنهجهم في الحـرب وسـلوكهم مـع المغلـوبين والاهـتمام بـالخبرات، والاسـتفادة مـن الحكـماء وأصـحاب الـرأي وعقدهم للمجلس العام (الكوريلتاي) كل سنة وحضور أهل الحل والعقد من المغول فيه، وتقليـب الآراء وممارسـة حـق الحـوار والنقـاش والوصـول إلى أهـداف ثـم الاتفـاق عـلى التنفيـذ، والتحـرك مـن خـلال استراتيجية واضحة لدى قادة المغول، كما بين الكتاب عادات وتقاليد المغول الاجتماعيـة والخرافـات التـي انتشرت بينهم. وفي المبحث الثالث: فصل الكتاب الحديث عن إزالـة المغـول للدولـة الخوارزميـة، فلخـص تراجم سلاطين خوارزم وبين طبيعة الصدام بين الخـوارزميين والخلافـة العباسـية، وأسـباب الغـزو المغـولي

للخوارزميين، وتتبع الكتاب خط سير غزو المغول من بلاد ما وراء النهر واستيلاؤهم على مدينة أترار وجند وبنكت وخجنده وبخارى، وسمرقند، واجتياح الأقاليم الغربية من الدولة الخورزمية ووفاة محمد خوارزمشاه وتولى جلال الدين منكبرتي قيادة الجيوش الخوارزمية وحصار مدينة خوارزم واحتلالها، وذكر المؤلف وصف ابن الأثير لما حدث لخوارزم، وتحدث عن اجتياح خراسان والاستيلاء على بلخ واحتلال نسا والقضاء على أهلها ومذبحة مدينة مرو، والانتقام من أهالي مدينة نيسابور، وخضوع مدينة هراة، واحتلال إقليم غزنة ونهاية جلال الدين منكبرتي، ومقتله ووقفت على أسباب زوال الدولة الخوارزمية والتي من أهمها:

١. فشل الخوارزميين في ايجاد تيار حضاري.
٢. كره الشعب لنظام الحكام وعدم ولائه له.
٣. النزاع الداخلي في الأسرة الخوارزمية.
٤. ضعف النظام الحربي الخوارزمي.
٥. حب الدنيا وكراهية الموت.
٦. ترك الاتحاد والوقوع في ظلم العباد.
٧. أنانية محمد علاء الدين الخوارزمي وهزيمته النفسية.
٨. شخصية جلال الدين منكبرتي.
٩. قصر نظر الخليفة الناصر لدين الله العباسي.
١٠. غياب العلماء.
١١. المشروع المغولي.

كما أشرت إلى وفاة جنكيز خان.

وفي الفصل الثاني: كان الحديث عن سقوط بغداد. وفي المبحث الأول: تكلمت عن خلفاء جنكيز خان، وتقسيم ممالكه وانتخاب أوكتاي خاناً أعظم للمغول وعن مواصلة المغول زحفهم على البلاد الإسلامية، وفتحهم لأقاليم الصين الشمالية

وغزوهم لأوربا ووفاة أوكتاي قآن وعن النظم والإصلاحات التي تمت في عهده ومعاملته لرعاياه من المسلمين وعن تولي كيوك خان زعامة المغول وسياسته مع المسيحيين وعن وفاته واختيار منكو خاناً أكبر على العرش المغولي وإصلاحاته الداخلية وتسويته بين طوائف الإمبراطورية المغولية وحرصه على تكوين تحالف بين المغول والمسيحيين، بشرط ان يكون الخان المغولي سيد العالم الوحيد وأصدقاؤه يعتبرون أتباعاً له أما أعداؤه فينبغي استئصال شأفتهم، أو اخضاعهم، وبينت جهود هولاكو في القضاء على الإسماعيلية واقتلاع جذورهم وتحرك جيوشه نحو بغداد وحصارها واستباحتها ومقتل الخليفة المستعصم بالله، والخراب الحضاري الذي لحق ببغداد وما فعل التتار مع مكتبتها الهائلة وبينت حكومة هولاكو (الحكومة الأيلخانية بالعراق) وإدارتها في عهد الجويني ووفود الملوك والأمراء على هولاكو، وتأملت في أسباب سقوط الدولة العباسية ووقفت مع كل سبب والتي كان من أهمها:

١. غياب القيادة الحكيمة.
٢. إهمال العباسيين لفريضة الجهاد.
٣. إنعدام الوحدة السياسية في العالم الإسلامي.
٤. ضعف الجيش العباسي.
٥. ضعف عصبية الدولة.
٦. ضعف قيمة العهود.
٧. ضعف همم ملوك الأطراف.
٨. تنازلات سياسية دلت على الوهن العباسي.
٩. تعدد مراكز القوى.
١٠. احتلال خطوط الدفاع الأولى.
١١. دور النصارى في سقوط الدولة العباسية.
١٢. دور الحكام المسلمين في إسقاط الدولة العباسية.

١٣. ابعاد الكفاءات النادرة.

١٤. مناقشة العلويين.

١٥. الترف وأثره في زوال الدولة العباسية.

١٦. الوصول إلى آخر نقطة من الانحلال والتدهور.

١٧. تدهور الأوضاع الإقتصادية.

١٨. الصراع الداخلي في بغداد.

١٩. خيانات الشيعة((الوزير ابن العلقمي)).

٢٠. تمرس فرسان التتار وقوة الإمبراطورية المغولية.

وأشرت إلى نتائج سقوط بغداد، والتي منها:

١. زوال النفوذ الأدبي والروحي.

٢. بغداد مدينة ثانوية.

٣. تدهور العلوم ومكانة اللغة العربية

٤. البهجة والفرح لدى النصارى.

٥. القاهرة عاصمة الخلافة.

٦. انتشار الشيعة.

٧. تفجر طاقات الأمة (قانون التحدي).

وكان لهذا الحدث الجلل، تأثيره العميق في نفوس المسلمين جميعاً وكان أشد وقعاً وأعظم تأثيراً في نفوس الشعراء منهم، فنظموا المراثي التي تشيع الأسى في النفس وتثير الشجون، وكان من تلك المراثي مثل قول الشاعر شمس الدين الكوفي الواعظ حيث قال:

عندي لأجل فراقكم آلام

فإلام أُعذَل فيكم وأُلام

إلى أن قال:

إن كنـــــت مـــــثلي للأحبـــــة فاقـــــداً

أو في فـــــؤادك لوعـــــة وغـــــرام

قـــــف في ديـــــار الظـــــاعنين ونـــــادهم

يـــــا دار مـــــا ضـــــعت بـــــك الأيـــــام

وقال:

واللــــــه مـــــا اخـــــترت الفـــــراق وإنمـــــا

حكمـــــت عـــــليَّ بـــــذلك الأيـــــام

وفي الفصل الثالث: تكلمت عن دولة المماليك وعـن أصـولهم ونشـأتهم وعـن نظـام التـدريب والتربية والتعليم والمراحل التي يمرّون بها وعن نظام التخرج وانهاء الدراسة ولغتهم ورابطـة الاسـتاذية والزمالة بينهم وجهودهم في دحر الحملة الصليبية السابعة وصور من شجاعتهم وعن أسباب هزيمتهم ونتائجها والتي كان من أهمها:

١. ارتفاع شأن ومكانة المماليك.

٢. وعجز فرنسا عن تحقيق أهدافها.

وعن مقتل تورانشاه وزوال الدولة الأيوبية وكيفية مقتـل تورانشـاه؟ واسـباب سـقوط الدولـة الأيوبية والتي من أهمها:

١. توقف منهج التجديد والإصلاح.

٢. الظلم.

٣. الترف والانغماس في الشهوات.

٤. تعطيل الخيار الشوري.

٥. النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية.

٦. موالاة النصارى.

٧. فشل الأيوبيين في إيجاد تيار حضاري.

٨. ضعف الحكومة المركزية.

٩. ضعف النظام الإستخباراتي.

١٠. غياب العلماء الربانيين عن القرار السياسي.

١١. وفاة الملك الصالح نجم الدين وعدم كفاءة وريثه.

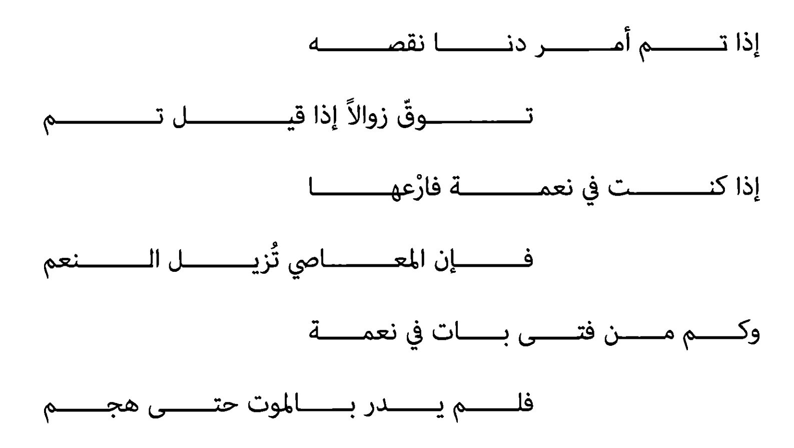
وكان حديثي عن شجرة الدر هل هي أيوبية أم مملوكية؟ وكيف تولت سلطنة مصر؟ وموقف الخليفة العباسي والعلماء وعامة الناس من توليها الحكم، وكيف خلعت نفسها ورشحت عزالدين أيبك لتولي السلطنة وتزوجته بعد ذلك؟ وبينت حكم الشريعة الإسلامية في تولي المرأة للولاية العامة، وأشرت للمخاطر التي تعرض لها عزالدين أيبك في حكمه، كالخطر الأيوبي والصليبي، ومحاولة لويس التاسع استغلال فرصة النزاع بين المسلمين، وتردد السفارات بين ملوك مصر والشام ولويس التاسع ومساعي الخليفة العباسي في الصلح بين المماليك والأيوبيين، وموقف المماليك من تمرد القبائل العربية في مصر، وتصدي عزالدين أيبك لخطر زملائه المماليك ومقتل الفارس أقطاي، ومقتل السلطان أيبك وشجرة الدر بعد ذلك.

وتحدثت عن سلطنة علي ابن المعز ثم تولي سيف الدين قطز، وترتيبه للأمور الداخلية.

وفي الفصل الرابع: كان الحديث عن معركة عين جالوت الخالدة وانكسار المغول، وتتبعت تحرك المغول بعد سقوط بغداد، وبينت كيف تم احتلال المغول لبلاد الشام والجزيرة، ووضحت مشروع الكامل الأيوبي لمواجهة التتار وكيف استشهد عند دفاعه البطولي عن ميّافارقين، فقد صمدت المدينة الباسلة وظهرت فيها مقاومة ضارية بقيادته ونظراً لطول الحصار الذي فرضه المغول على المدينة، نفذت الأرزاق من داخلها وعم القحط وانتشر الوباء وتهدمت الأسوار من شدة ضرب المنجنيقات حتى هلك أكثر سكان المدينة، فقد وقعت المجاعة فيها بسبب الحصار الطويل وفي عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م سقط آخر معقل للمقاومة في الجزيرة ودخل التتار ميّافارقين فوجدوا جميع سكانها موتى، ما عدا سبعين شخصاً نصف أحياء وقبضوا على الكامل

الأيوبي فعنقه هولاكو وأمر بتقطيعه وأخذوا يقطعون لحمه قطعاً صغيرة ويدفعون بها إلى فمه حتى مات ثم قطعوا رأسه وحملوه على رمح وطافوا به في البلاد وذلك سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م إلى أن وصل دمشق، فعلّقوه على باب الفراديس، حتى أنزله الأهالي ودفنوه.

وكان السلطان الناصر الأيوبي سلطان بلاد الشام متردد بين المقاومة والاستسلام، وكان متخوفاً من المغول، الذين هددوه بالرسائل وذكروه بما حدث لبغداد وخليفتها وجاء في رسائلهم للسلطان الناصر:... واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب فواقعه الندم واستوجب منا العدم وكان قد جمع ذخائر نفيسة وكانت نفسه خسيسة، فجمع المال ولم يعبأ بالرجال وكان قد نمى ذكره وعظم قدره ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال:



إذا تم أمر دنا نقصه
توقّ زوالاً إذا قيل تم

إذا كنت في نعمة فارْعها
فإن المعاصي تُزيل النعم

وكم من فتى بات في نعمة
فلم يدر بالموت حتى هجم

إذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض، ملك الملوك على وجه الأرض، تأمن شره، وتنل خيره، كما قال تعالى في كتابه العزيز:"وأن ليس للانسان إلا ما سعى* وأن سعيه سوف يرى* ثم يجزاه الجزاء الأوفى". ولا تعوق رسلنا عندك، كما عوقت رسلنا من قبل "فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان". وقد بلغنا تجار الشام وغيرهم انهزموا إلى كروان سراي[١]، فإن كانوا في الجبال نسفنها وإن كانوا في الأرض خسفناها.

---

١ كان هذا اسم مصر عند التتار.

هذه طرق من الحرب النفسية التي كان المغول يشنونها ضد أعدائهم. واستمر المغول في هجومهم على ديار المسلمين وسقطت حلب وسلمت دمشق وسيطر المغول على بلاد الشام وكانوا شديدي الوطأة على المسلمين، فبادروا إلى تدمير الاستحكامات والأسوار والقلاع في البلاد التي خضعت لهم مثل حلب ودمشق وحمص وحماة وبعلبك وبانياس وغيرها، وحققوا بذلك ما لم يستطع تحقيقه الصليبيون من قبل، ولقد مال المغول منذ اللحظة الأولى لغزوهم للشرق الأدنى إلى العنصر المسيحي النسطوري. وأصبح الملك الناصر مسلوب الإرادة مرعوباً ليس له رأي ووقع أخيراً في أسر هولاكو الذي قام بقتله فيما بعد عند سماعه لهزيمة المغول في عين جالوت.

كان من نتائج سقوط بلاد الشام في أيدي المغول وحلفائهم أن عم الرعب والخوف سائر أرجائها، فهرب الناس، باتجاه الأراضي المصرية وكانت القيادة الإسلامية بمصر تستقبل فلول المسلمين من العراق والشام وتجهز نفسها لمعركة فاصلة مع المغول وكان السلطان سيف الدين قطز على رأس السلطة في مصر وكان يدرك أن بقاء دولته الفتية يتوقف على إجتيازه ذلك الإمتحان الكبير المتمثل في الغزو المغولي للممالك الإسلامية الذي استشرى خطره، وأن يثبت أنه بحق أهل للثقة التي أولاها إياه الأمراء في مصر ورجل الساعة بالفعل بعد اجماعهم على عزل الملك المنصور علي ابن المعز أيبك وتنصيبه على دولة المماليك وأخذ سيف الدين في إعداد الجبهة الداخلية، وحرص على رص الصفوف والتصالح مع المخالفين، وحكّم الشريعة الإسلامية في دولته واستجاب لتعاليم وترشيد الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ورد على رسالة هولاكو بإعلان الحرب على المغول والقبض على رسلهم وضرب أعناقهم أمام أبواب القاهرة وعلق رؤوسهم على باب زويلة وأبقى على صبي من الرسل وجعله من مماليكه وكانت تلك الرؤوس أول ما علق في مصر من المغول، وشرع في إعداد العدة للمعركة الفاصلة واستطاع المسلمون بقيادة سيف الدين قطز تحقيق نصر ساحق على المغول وتمّ تطهير بلاد الشام من السيطرة المغولية، ورتّب سيف الدين قطز أمور الولايات الشامية، وبعد ذلك قصد البلاد المصرية وفي طريق عودته تمّ اغتياله على يد ركن الدين قطز ومجموعة من فرسان المماليك لأسباب تمّ

بيانها وتفصيلها في هذا الكتاب، وذكرت أهم العوامل التي ساهمت في تحقيق النصر في معركة عين جالوت والتي منها:

١.القيادة الحكيمة.

٢.توسيد الأمر إلى أهله.

٣.الجيش القوي.

٤.إحياء روح الجهاد.

٥.الإعداد وسنة الأخذ بالأسباب.

٦.عبقرية التخطيط.

٧.بعد نظر سيف الدين قطز وقيادته الحكيمة.

٨.توفر صفات الطائفة المنصورة.

٩.سنة التدرج ووراثة المشروع المقاوم.

١٠. الاستعانة بالعلماء واستشارتهم.

١١. الزهد في الدنيا.

١٢. صراعات داخل بيت الحكم المغولي.

١٣. سنة الله في أخذ الظالمين والطغاة.

وبينت أن الأسباب في انتصار المسلمين في عين جالوت متشابكة ومتداخلة، ويؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، وما ذكرنا من الأسباب ليس على سبيل الحصر وإنما هذا ما أمكن الوصول إليه ومع البحث والتنقيب في صفحات التاريخ، يمكن للباحثين والمهتمين أن يصلوا إلى المزيد، لكي نستخرج الدروس والعبر والسنن والقوانين المهمة في قيام الدول وسقوطها وانتصار الشعوب وهزيمتها، ومعرفة صفات قادة التمكين، وفقهاء النهوض قال تعالى: ((لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديث يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)) (يوسف، الآية:١١١).

ولخصت أهم النتائج والآثار المترتبة على انتصار المسلمين في عين جالوت فذكرت منها:

١.تحرير بلاد الشام من المغول.

٢.تحقق الوحدة بين الشام ومصر.

٣.خمود القوى المناوئة للمماليك.

٤.انتصار الإسلام على الوثنية.

٥.حدث حاسم في تاريخ البشرية.

٦.روح جديدة في الأمة.

٧.إنحسار المد المغولي.

٨.فشل التحالف بين الصليبيين والتتار.

٩.إضعاف الوجود الصليبي.

١٠. مدينة القاهرة عاصمة المماليك.

١١. ميلاد دولة المماليك الفتية.

١٢. الدور الرمزي للخلافة العباسية.

١٣. تطوير الجيش المملوكي وتحديث عتاده وأنظمته.

لقد تعرفت من خلال دراستي في هذا الكتاب على طبيعة المشروع المغولي ونقاط ضعفه وقوته، وكيف استباح العالم الإسلامي وتهاوت مدن المسلمين، كبخارى وسمرقند وكابل وبغداد وغيرها أمام جيوش المغول، فاستباحت الديار وهتكت الأعراض، وصودرت الممتلكات وغابت أسباب النصر، وتعمقت عوامل الهزيمة في الأمة أمام المشروع الغازي ومضت السنن والقوانين الإلهية وعملت عملها ولم تجامل أحد، وما تغيرت ولا تبدلت والناس في همّ وغمّ وذل وضعف وخور، وصغار، حتى استوعبت القيادة الإسلامية في مصر فقه المقاومة وادارة الصراع وعرفت كيف تدفع أقدار الله بأقداره من خلال سنن النهوض، وأسباب النصر، فكانت النتيجة المذهلة

في معركة عين جالوت لقد تحرك سيف الدين قطز من خلال مشروع اسلامي ملك مقومات الصمود والتحدي وحقق الانتصار، فكانت الرؤية واضحة والهوية صافية، والبعد العقائدي حاضر، والفقه السياسي ناضج، والقوة العسكرية متفوقة في مجاليها المعنوي والمادي، وعرف سيف الدين قطز مكانة العلماء في الأمة وقوة تأثيرهم ونفوذهم الروحي على الشعب فقربهم واحترمهم وفتح لهم أبواب التعليم والوعظ والإرشاد فقاموا بدور كبير في تعبئة الأمة ودفعها لكي تلتف حول المشروع الإسلامي الذي قاده سيف الدين قطز.

إن تاريخ الأمة ثروة فكرية لا تفنى، وكنوز علمية لا تنفذ، تمنحنا الأصالة وعز الإيمان وشرف الانتماء فيعيننا هذا المخزون الحضاري في تشكيل الحاضر واستشراق المستقبل واستئناف الحياة الكريمة في ظل مجتمع إسلامي تسوده العقائد الصحيحة وتزكيه العبادات السليمة وتحركه مشاعر رفيعه وتحكمه تعاليم الإسلام وتوجه اقتصاده وفنونه وسياسته على أننا إذا تلفَّتنا إلى الماضي فلا نلتفت إليه لنرجع القهقري ونمشي إلى الوراء، بل لنستمد منه القوة على السير سعياً إلى الأمام لنربط بين الماضي المجيد والمستقبل المشرق، إلى الأمام لنصل مجدنا الجديد بمجدنا التليد إننا نعلم أن الاستغراق في الماضي وحده نوم أو جمود والاستغراق في المستقبل وحده هوس وجنون، والاستغراق في الحاضر وحده عجز وقعود، ونحن نريد أن نستمد من الماضي دافعاً وحافزاً، ومن المستقبل موجّهاً ومرشداً ومن الحاضر عماداً وسناداً.

ونحن نعلم أن هذا المجد لا يعود بالأحاديث والخطب ونعلم أن السجين المصفّد بالاغلال لا يطلقه تذكر الحرية والتغني بلذاتها، وأن الجائع لا يشبعه تذكر موائد الماضي واستعراض ألوانها وأن الفقير لا يغنيه تذكر زمان غناه والزهو بما ضاع فيه، وأن الذلة لا تُدفَع عن الذليل بنظم قصائد الفخر بعزة جده، ولكننا نعلم أيضاً أن السجين الذي ينسى أيام الحرية يستريح إلى القيد ولا يجد حافزاً إلى الإنطلاق، وأن الفقير الذي ينسى زمان الغنى يطمئن إلى الفقر ولا يجد دافعاً إلى الإستغناء، وأن الذليل الذي ينسى عزة أبيه يألف الذل ولا يجد قوة على دفعه، فإذا اطمئنّنا إلى جلال ماضينا وحسبنا أن خطبة بتجميده ومقالة بالإشادة به تغنينا وتكفينا فلن يعود لنا هذا الجلال أبداً، وإن نسينا أننا أبناء سادة الأرض وأساتذة الدنيا لم يحرك أعصابنا شيء إلى

إستعادة هذا المجد، فلنأخذ من الماضي بقَدْر، نأخذ منه ما يدفع ويرفع وينفع، وندع منه ما يثبط ويُقعد وينيم إننا لا نريد أن نعود إلى الزمان الماضي، فالزمان يمشي أبداً لا يقف ولا يعود، ولا نعود إلى مثل معيشة الزمان الماضي، ونترك ثمرات الحاضر، ولكن نعود إلى المُثُل العلياء وإلى الفضائل التي لا تفقد قيمتها بمرور الزمن، فكما أن الذهب والألماس لا يغيرّه القِدَم ولا يصدأ كما يصدأ الحديد، فإن في المعاني ما هو كالألماس والذهب في المعادن[1].

نحن نريد أن نعود إلى حياة الإيمان، والتقوى، والإحسان والعدل، والعبودية الخالصة لله عز وجل والشريعة الحاكمة على الأفراد والشعوب والأمة والدول ونتحرر من أنواع الشرك ما ظهر منه وما بطن ونعمل لقول اللـه تعالى: "وعد اللـه الذين ءامنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون* وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون)) (النور، الآية : ٥٥ ـ ٥٦).

إن أمر النهوض بهذه الأمة والتصدي للمشاريع الغازية يحتاج إلى جميع أنواع القوى، على اختلافها وتنوعها، ولذلك اهتم القران الكريم اهتماماً كبيراً بإرشاد الأمة للأخذ بأسباب القوة وأوجب اللـه تعالى على الأمة الأخذ بأسبابها، لأن التمكين لهذا الدين طريقه للوصول إلى القوى بمفهومها الشامل وقد قال الأصوليون: وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[2].

إن القرآن الكريم أوجب على أتباعه إعداد القوة قال تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو اللـه وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللـه يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل اللـه يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون" (الأنفال، الآية : ٦٠) وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يحصّلوا كل أسباب القوة، فهم يواجهون نظاماً عالمياً وقوى دولية لا تعرف إلا لغة القوة، فعليهم أن

١ فصول في الدعوة والإصلاح صـ١٤.

٢ فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم صـ١٢٣.

يقرعوا الحديد بالحديد ويقابلوا الريح بالإعصار ويقاتلوا الغزاة بكل ما اكتشف الإنسان ووصل إليه العلم في هذا العصر من سلاح وعتاد واستعداد حربي لا يقصرون في ذلك ولا يعجزون[١].

إن قادة المماليك قدموا للأمة أعمالاً جليلة في الفداء والبطولة، فقد استطاعوا أن يقاوموا طوال فترة حكمهم عدوين غاشمين، كانت لهم أطماع في البلاد الإسلامية دينية وسياسية واقتصادية هما المغول والصليبيون، غير أنهم جميعاً لم يستطيعوا تحقيق رغباتهم ولا الوصول إلى اهدافهم إذ كان المماليك يقفون سداً منيعاً حماية للبلاد الإسلامية ودفاعاً عن الدين والأخلاق، فكان جهادهم في هذا المضمار من أعظم الأعمال التي قاموا بها وكانت وقائعهم مع أعداء الإسلام صفحات مضيئة ومشرقة يستفيد منها ويقتدى بها المسلمون كلما أرادوا العزة والكرامة، لقد استطاع المماليك أن يثبتوا كفاءتهم وشجاعتهم في الميادين العسكرية والسياسية، فنظر إليهم حكام الدول الإسلامية وشعوبها نظرة إكبار وإجلال في حين نظرت إليهم القوى الدولية الأخرى نظرة خوف واحترام، فحرصت على ملاطفتهم ومسالمتهم أو مهادنتهم اتقاء بطشهم وانتقامهم وبذلك تكون دولة المماليك قد فرضت احترامها على الأعداء والأصدقاء وتسابق الجميع في كسب مودتها وإقامة العلاقات معها، وشهدت القاهرة نشاطاً سياسياً ضخماً في تلك الحقبة من تاريخ المماليك[٢].

وقد وصف عصر المماليك بأوصاف واتهامات جائرة، فوصف بأنه عصر تدهور واضمحلال، وعصر تخلف وجمود وعصر إجترت فيه العلوم اجترارا، إلى غير ذلك من الأحكام التي انطلقت من أفواه المستشرقين خاصة، فعلى الرغم من أن الحقائق تشير إلى أن أضخم إنتاج فكري في العصور الإسلامية قد جاءنا من عصر المماليك إلا أن المستشرق الفرنسي جاستون فييت يعده إنتاجاً من الدرجة الثانية، ويقول عن ذلك: ولكن القاهرة لم تكن في أي وقت مضى مركزاً علمياً في مستوى بغداد وقرطبة، وكانت في القرنين الرابع عشر والخامس الميلاديين ـ الثامن والتاسع الهجريين مركزاً للسياسة والإدارة وبصفة خاصة للتجارة العالمية، ورغم أنها احتفظت

---

١ المصدر نفسه صـ٢٢٤.

٢ الحسبة في العصر المملوكي صـ٢٦٧.

بذوقها الفني الرفيع، فإنها في مجال الإنتاج الفكري كانت من الطبقة الثانية[١]، ويصف بروكلمان هذا الإنتاج بأنه، إنتاج يكاد يكون خلواً من الأصالة والإبداع بالكلية[٢]، وثم إننا نجد أن عدداً من الباحثين العرب والمسلمين قد انساقوا وراء آراء المستشرقين، فأصيبوا بداء الإعجاب بهم، فانطلقت أكثر أحكامهم من حدود آراء المستشرقين، ولم تنطلق من دراسة علمية متخصصة وموضوعية، وهؤلاء الباحثين الذين ساروا على نهج المستشرقين، كفيليب حتى ابتعدت أحكامهم عن الموضوعية وجاءت مطلقة، كما ورد في رأي بروكلمان الذي جعل العصر المملوكي بطوله وعرضه خالياً من الإنتاج الأصيل المبدع بالكلية وقاصرة كما جاء في رأي جاستون فييت الذي وصل إلى رأي لا أظن أن أحداً من الباحثين يسمع له فيه عندما قصر الحياة الفكرية على مقدمة ابن خلدون وحدها في عصر امتد قرابة قرون ثلاثة، وخلّف العشرات من العلماء الذين يُشار إليهم بالبنان ويعرفهم الصغير والكبير، لقد حاول غالبية المستشرقين أن يصفوا عصر المماليك بعصر الإنحطاط وتخلف وجمود بدافع من الجهل أو الحقد أو كليهما ثم تابعهم كالعادة بعض المؤرخين والعلماء المحسوبين على ثقافتنا وحضارتنا ورددوا هذه الأقاويل حتى وسموا عصر المماليك كله بالتخلف والإنحطاط والهجين والفوضى، والإنحلال، والواقع أن هذا الرأي الذي يؤيده غالبية المستشرقين ـ كما تتشدق به غالبية المستغربين من أهل المشرق ـ ينطلق من حقد الغربيين الدفين على المماليك الذين دمروا الصليبيين وأجلوهم عن الشام، كما دمروا حلفاؤهم المغول، وحفظوا لبلاد الشام والأماكن المقدسة فيها والحجاز إستقلالها قرابة ثلاثة قرون في فترة زمنية قياسية[٣].

إن الحقائق التاريخية تثبت للباحثين المنصفين، بأن عصر المماليك لم يكن بحال من الأحوال عصر إنحطاط، بل هو الذي ظهرت فيه حضارة عظيمة في مختلف نواحي الحياة، لقد كان عصر المماليك هو العصر الذهبي في العمارة الإسلامية، وهذا يبدو اليوم بوضوح تام في القاهرة التي سميت بمدينة الألف مئذنة والتي تنتشر فيها الآثار

١ القاهرة مدينة الفن والتجارة، مصفى العبادي صـ١٠٦ ـ ١٠٧.

٢ تاريخ الشعوب الإسلامية صـ٣٧١.

٣ العصر المفترى عليه عصر المماليك البحريةصـ١٣.

المملوكية الهائلة بدءاً من البيمارستان المنصوري إلى جامع السلطان حسن، وخانقاه بيبرس الجاشنكير ومسجد الأمير أيبك ومسجد الغوري وغير ذلك[1]، وأما الذين لم يزوروا القاهرة، فبإمكانهم مشاهدة الآثار المملوكية في دمشق مثل المدرسة الظاهرية، والجقمقية التي بجوارها، وبين هذه وتلك يمكنهم مشاهدة نموذج رائع من نماذج العمارة المملوكية وهو المئذنة الغربية من مآذن الجامع الأموي التي أمر ببنائها السلطان قايتباي بعد حريق الجامع الأموي ٨٨٤هـ وتم ذلك في بضعة شهور[2].

وفي ميدان الفكر قد امتاز العصر المملوكي بأنه عصر الموسوعات الكبرى في الآدب والتاريخ والتفسير والفقه والحديث وغيرها، ففي علوم الدين والفقه والحديث نجد الموسوعات الضخمة للإمام النووي وابن تيمية وابن رجب والبدر العيني وابن حجر، وفي التاريخ نجد اليونيني والبرزالي وابن كثير وابن خلدون وابن تغري بردي والنويري وفي الموسوعات العلمية نجد مسالك الأبصار، وصبح الأعشى، وخطط المقريزي وغيرها، وهؤلاء وأمثالهم حفظوا لنا التراث الإسلامي بالدرجة الأولى ثم زادوا عليه حتى أصبحنا اليوم نعرف أدق التفاصيل عن القاهرة في عصر المماليك، وهناك جانب آخر من الحضارة المملوكية لم يلتفت إليه الكثيرون ونعني به الجانب العسكري، ذلك أن الانتصارات المذهلة التي حققها المماليك على برابرة الشرق والغرب أي على المغول والصليبيين في غضون أربعة وأربعين عاماً فقط من سنة ٦٥٨هـ ـ ٧٠٢هـ فقد تحققت بسبب الشجاعة والعقيدة ونتيجة ازدهار ما يسمى بلغة اليوم بالصناعات الهندسية والعسكرية، التي مكنت المسلمين من تحرير قلعة عكا في فلسطين، وهو الفتح المبين الذي لم يكن في أهميته عن فتح القسطنطينية فيما بعد بشهادة الغربيين أنفسهم لقد كانت دولة المماليك من حيث طبيعتها إمتداداً طبيعياً للأيوبيين ولمن سبقهم من الملوك والسلاطين، فهي دولة عريقة الحضارة، أعجمية الحكام، تقود الجهاد الإسلامي في وجه الخطر الذي كان يتهدد المسلمين[3]، ومن الأوهام التي تأثر بها كثير من الباحثين هو أن تدمير المغول لبغداد عام ٦٥٦هـ ـ

---

١ المصدر نفسه صـ١٣.

٢ المصدر نفسه صـ١٣.

٣ العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية صـ١٤.

١٢٥٨م كان نهاية الحضارة الإسلامية، ولـذلك لا يتطرقـون إلى ذكـر شيء مـن إبـداعات عصر المماليـك وإنجازاته، وهذه فكرة خاطئة ووهم يتطلب الوقوف عنده كثيراً[١]، وسنجيب عنها بإذن اللـه تعـالى في كتبنا القادمة ونبين الحياة العلمية والفكرية وأشهر الأعلام في عهد المماليك.

إن هذه الأمة تنبض بالحياة، وقادرة على تجاوز المحـن العظيمـة، وأثبـت التـاريخ بشـواهده ووقائعه بأن طاقاتها الكامنة تتفجر عندما تتعرض للمخاطر والشدائد وحينئذ تستجمع قواها وتستثير كوامنها وتظهر ذخائرها وتتصدى للمشاريع الغازية والمصائب القاسية، بإيمان عظيم وصبر جميل حتى يجعل اللـه من ظلام ليلها صباحاً مشرقاً ونهاراً مضيئاً، قد رأينا الصـحابة الكـرام، وفتوحـاتهم الربانيـة وسار على هديهم التابعون بإحسان، ولمـا جـاءت جحافـل الصـليبيين والمغـول تصـدى لهـم السـلاجقة والزنكيين والأيوبيين والمماليك، وكان الإسلام هو المحرك لقادة الجهاد الإسلامي من أمثـال عـماد الـدين، ونور الدين، وصلاح الدين، وسيف الدين قطز، وركن الدين بيبرس، ومن سار على نهجهم، ولسان حـال المسلمين في الماضي وفي الحاضر والمستقبل .

---

١ المصدر نفسه صـ١٥.

الفصل الأول

المشروع المغولي وغزوهم لبلاد المسلمين

المبحث الأول

الجذور التاريخية للمغول

أولاً: أهمية دراسة تاريخ المغول: يصادف المؤرخ عقبات عسيرة عند محاولته دراسة تاريخ المغول، إذ أن سيرة القبائل البدوية تبدو كأنها لن تتسق أو تنتظم، فإن أحداث تاريخها بلغت من شدة الاضطراب، ما يجعل من المستحيل التماس خيط واحد يضم هذه القبائل بأسرها، فالأحداث الداخلية والحروب التي نشبت دائماً بين القبائل والتي لا بد للمؤرخ من تتبعها حتى يقف على ما يجري بين هذه القبائل من محالفات، كانت من العوامل التي تضلل المؤرخ وتعطله على المضي في دراسته، يضاف إلى ذلك ما أحاط بالتاريخ المبكر للمغول من الغموض والاختلاط بالأساطير، فضلاً عن الافتقار إلى السجلات والوثائق التي يصح الركون إليها[1]، ومن المتاعب التي يصادفها الباحث أيضاً امتداد واتساع الأراضي التي كانت تنزل فيها الشعوب المغولية، فليس لتاريخ المغول حدود جغرافية، فقد زالت الحواجز التي تحد من استقرارهم، وما اتصف به المغول من بسالة خارقة حملهم على أن يتغلبوا على أخطار الصحاري المترامية الأطراف وأن يجتازوا الجبال، وأن يعبروا البحار والأنهار وأن يقهروا قسوة المناخ، وأن يصبروا على ما تعرضوا له من الأوبئة والمجاعات، فلا يخشون المخاطر، ولا تصدهم المعاقل ولا يحركهم كل توسل للرحمة والرأفة وأينما سرح خيالهم سارت جموعهم، فكم من المدن الزاهرة اندثرت في ليلة واحدة، ولم يبق لها من الأثر سوى الخرائب والتلال التي أقامتها جثث الضحايا وما كان يعقب الغزوات المغولية من هدوء لم يكن في الواقع هو الهدوء الذي يسيطر على عالم سئم القتال والتقاتل، وحرص على أن ينعم من جديد بثمار المدنية، بل كانت الأنفاس الأخيرة التي تلتقطها الأمم قبل أن تتوارى وتختفى نهائياً[2]، ومن بواعث الاهتمام بدراسة تاريخ المغول، ما كان لهم من تاريخ بالغ الشدة، أو المساحات الشاسعة التي كانت مسرحاً لأعمالهم، فكل محاولة لتقدير طبيعة الدراسة وما نجم عنها من نتائج، سوف تكون شيقة ومثمرة، والمعروف أن المغول قاموا بغزو روسيا والمجر وسيليزيا، وما أوجدوه من تغييرات على

---

١ المغول والسيد الباز العريني صـ٢١.

٢ المصدر نفسه صـ٢٤.

مستوى الساحة الأوربية، وهذا التغيير يعكس أيضاً ما نشب من الحروب الصليبية بين المسلمين، والمسيحيين، وما كان من عداء بين البابوية والإمبراطورية، وما تعذر على أوربا والشام من تدمير قوة الحشيشية، كان أمراً بالغ السهولة عند المغول الذين دمروا معاقلهم ومواطنهم سنة ١٢٥٦م والواقع أن اسم المغولي كان مصدراً للرعب والخوف عند الأوربيين، فأضحوا عاجزين عن مقاومتهم ولو لم ينهض السلطان المملوكي قطز سنة ١٢٦٠م، لرد الغزاة في لحظة حاسمة، فليس ثمة أدنى شك في أن جانباً كبيراً من أوربا خضع لهم، على أن ما تعرضت له أوربا من خطر المغول، لم يبلغ من الشدة ما بلغه هذا الخطر في آسيا، فما حدث من تدمير بغداد وزوال الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨م واستئصال شأفة أسرة كين، سنة ١٢٣٤م وهي الأسرة التي كانت تحكم شمال الصين فضلاً عن غزو جنوب الصين وخوارزم وفارس وسائر الأقاليم المجاورة، وإقامة حكم المغول قي الهند، وهذا ليس إلا طائفة من الأحداث التي يكفي الواحد منها الدلالة على أهمية دراسة تاريخ المغول، ومن الظواهر الجديرة بالاهتمام، أنه كلما سقطت حضارة أو مدنية عقبها حركة إحياء ضخمة، تنبعث من بين أنقاض وآثار الحضارة التي دمرتها الغارات المتتالية، فمثلاً بعد استيلاء الرومان على بلاد اليونان، حدثت حركة إحياء في مجال الفنون والآداب وحدث بعد استيلاء العثمانيين على أملاك الدولة البيزنطية بأن ازداد الإقبال على دراسة كنوز المعرفة، وبعد دخول المسلمين لأسبانيا وفتحها وصل إلى أوربا في العصور الوسطى شعاع العلم والطب والفلسفة والشعر، وهذه النماذج تنطبق على المغول، إذ أن سقوط بغداد في أيامهم أدى إلى انتقال مركز الدراسات الإنسانية إلى مصر، وفي نفس الوقت تفرق العلماء والأدباء في أنحاء العالم الإسلامي، فزاد ذلك من قوة الجامعات والمدارس بالجهات التي حلوا بها [١]، يضاف إلى ذلك أن انتقال مركز الجاذبية من بغداد إلى القاهرة، هيأ للعالم الغربي أن يحصل على ثقافة الشرق[٢] وعلومه، بالإضافة إلى الاحتكاك في زمن الحروب الصليبية.

١ المغول، د. السيد الباز العريني صـ٢٦.

٢ المغول للعريني صـ٢٦.

ومن ناحية أخرى، يعتبر ظهور المغول بالغ الأهمية لما حدث في آسيا من تطورات أخـرى وأول هذه التطورات وأجدرها بالصدارة، ما جرى من توحيـد آسـيا، غـير أنـه لا يصـح تفسـير هـذا بـالمعنى المعروف لنـا الآن عـن الوحـدة السياسـية أو التجـانس فالحكومـة المغوليـة كفلـت السـلام والأمـن في إمبراطورية مترامية الأطراف، فالطرق سابلة مفتوحة، يطمئن المسافر إلى اجتيازها، مـا لم يصـادف أثنـاء سيره موكب جنازة لأحد الخانات وعندئذ يكون مصيره الموت المحقق[١]، ومن خصائص المغول أيضـاً، مـا اشتهروا به من التسامح الديني، على أن ما جرى من تعليل ذلك التسامح، بأنه يرجع إلى ما اشـتهر بـه المغول من عدم الاكتراث بالدين، يعتبر حكماً لا يسـتند إلى أسـاس متـين والـراجح أن هـذا التسـامح لم يكن المقصود منه سوى الإفادة من الأشخاص الأكفاء مهما اختلفت ديانتهم[٢].

ثانياًـ التعريف بالمغول:

ظهر المغول على مسرح أحداث التاريخ العـالمي في أواخـر القـرن السـادس الهجـري/ الثـاني عشر الميلادي ثم برزوا، كقوة عالمية ذات شهرة دولية واسعة النطاق خارج نطاق مـوطنهم الأصـلي ـ منغوليا في خلال العقدين الأول والثـاني مـن القـرن السـابع الهجـري/ الثالـث عشر المـيلادي وقـد استطاعوا أن يؤسسوا لهم أكبر إمبراطورية عالمية عرفها تاريخ البشرية في اقصر مدة، حيث تكونـت إمبراطوريتهم الواسعة الأرجاء، والمترامية الأطراف في خلال الثلاثة عقود الأخرى من الجزر اليابانيـة والمحيط الهادي شرقاً إلى قلب القارة الأوربية غرباً، ومن سيبريا وبحـر البلطيـق شـمالاً إلى الحـدود الشمالية للجزيرة العربية وبلاد الشام وفلسطين جنوباً ولقد عـرَّفهم مؤرخونـا، العـرب مـنهم عـلى وجه الخصوص والذين عاصروا أحداث ظهور المغول وغزواتهم للعالم الإسلامي بأنهم هـم، التـتر أو التتار وقد نهج منهجهم من جاء بعدهم من المؤرخين، بل وحتـى الأغلبيـة مـن مـؤرخي المغـول في عصرنا الحاضر، على أن هذه التسمية الخاطئة لم تقتصر فقط على المؤرخين المسـلمين مـن العـرب، بل وسار على ذلـك التعريـف الخـاطئ المؤرخـون والرحالـة الأوربيـين الأقـدمون مـنهم عـلى وجـه

١ المصدر نفسه صـ٢٦.

٢ المصدر نفسه صـ٢٦.

التخصيص، إلا أن المؤرخين الأوربيين المستشرقين الكبار، أمثال بريتسكنيدر وبارثولد الروسيين، وسيولر الألماني وبويل الإنجليزي وغيرهم، عرفوا الفرق بين التتار والمغول وذلك من خلال ما كتبه المؤرخ المسلم رشيد الدين الوزير، وخاصة ما كتبه في كتابه المشهور"جامع التواريخ"، ثم ما كتبه المؤرخون الصينيون، والتي ترجمت كتبهم إلى بعض اللغات الأوربية الحديثة، كالروسية، الألمانية والفرنسية، والإنجليزية، كما عرف المستشرقون ذلك أيضاً مما كتب باللغة المغولية، ويتمثل ذلك بصورة رئيسية بالكتاب المعروف بـ"التاريخ السري للمغلول أو تاريخ المغلول السري" بناء على هذا، نجد أن المغول شيء والتتار شيء آخر، ويمكن أن توجد صلة تعريفية بين الاثنين ـ المغول والتتار ـ فتقول بكلمات مقتصرة: أن التتار مغول وليس المغول تتراً، فالتتار شعبة متفرعة من المغول، وليس المغول فرع من التتار، فالأصل هنا هم المغول، وليس الأصل التتار، وعلى الرغم من أن التتار تفرعوا أصلاً من المغول، وأصبح لهم دولة مستقلة، سيطرت على المغول حقبة من الزمن ـ إلا أنه في الفترة التي نتكلم عنها الآن، وكما سيأتي بإذن الله، جاء المغول تحت زعامة جنكيز خان، فهزم التتار، فقتلوا رجالهم/ وسبوا نساءهم واسترقوا أطفالهم، ولهذا نجد أن التتار قد تلاشوا على يد الزعيم المغولي العظيم، وأصبح المغول هم أصحاب الدولة والغلبة، فأسسوا إمبراطورية لهم عرفت في التاريخ بالمغول وليست بالتتار[1].

ثالثاً: موطن المغول الأصلي:

عاشت القبائل المغولية في المنطقة الواقعة في وسط آسيا بين نهري "سيحون وجيحون" من الغرب حتى حدود الصين الجبلية من جهة الشرق ممتدة حتى أقصى الشمال الشرقي لآسيا[2]، وتوسع البعض في حدودها حتى امتدد بها إلى البحر الأدرياتيكي ويمكن هضبة منغوليا وسلاسل جبال "تيان شان" وجبال "التاي" وما بينهما من سهول وصحراء جنوبي وحول بحيرة "بايكال" وضفاف الأنهار الموجودة في تلك المنطقة[3]، الموطن الرئيس لهذه القبائل، التي كانت تستقر في السهول الواقعة بين

---

١ سقوط الدولة العباسية د. سعد الغامدي صـ٥٤.

٢ العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل الخالدي صـ١٩.

٣ المغول للعريني صـ ٥ ـ ٨، العالم الإسلامي والغزو المغولي للخالدي صـ١٩.

سلاسل الجبال ومناطقها الدافئة شتاءً حيث تتوفر المراعي لحيواناتهم، وفي الصيف يستقرون في المرتفعات وأعالي الجبال لمدة شهرين أو ثلاثة حيث تكون المنطقة باردة وتتوفر فيها المياه والمراعي.

إن بعد هذه المناطق الشديد عن البحار فضلاً عن ارتفاعها أسهم في أن يخصها بمناخ "قاري" ـ إذ تتراوح درجة الحرارة في معظم أجزائها ما بين ٣٨ فوق الصفر و٤٢ تحت الصفر ـ مما يؤدي إلى تجمد أنهارها وبحيراتها فترة طويلة من أشهر السنة، بالإضافة إلى الرياح الشديدة التي تهب من المنطقة الجنوبية في سيبريا الواقعة شمالاً[1]، وتنعكس هذه الحالة في فصل الصيف حيث ترتفع الحرارة وتهب الرياح الشديدة المحملة بالرمال[2] وفي هذه البيئة القاسية، كانت هذه القبائل التي تعيش على الصيد والرعي تجري وراء المياه القليلة في "صحراء جوبي" التي يعني اسمها الجدب والفقر[3]، وفي السهول بين الجبال وتعتلي المرتفعات وراء العشب والمرعى وكلما زحف الجفاف أو قلت الأعشاب انتقلوا إلى أرض مجاورة يدفعهم إلى ذلك تزايد عدد القطعان والماشية، وهذا الارتحال والتنقل هو القاعدة الطبيعية لحياتهم، وإذا احتبست الأمطار أو تعرضت المراعي للآفات وقلة الأعشاب تبعاً لذلك وجد الراعي نفسه أمام خطر فقدان ماشيته ـ وهي مصدر رزقه ـ ثم التعرض للمجاعة وهذا بدوره يدفعه إلى السرقة، والنهب والسلب ممن يجاورونه من السكان الذين يشتغلون في الزراعة، ومن هنا تقوم الحروب والغارات والاعتداءات والأخذ بالثأر[4]، وبالرغم من وحدة أصول هذه الأقوام، إلا أنه كانوا ينقسمون إلى قبائل عديدة تتزايد أعدادها يوماً بعد يوماً بحكم انقسامها على نفسها وانفصالها عن بعض حاملة أسماء جديدة، تفرعت إليها وعرفت بها[5].

---

١ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ١٩.

٢ المصدر نفسه صـ٢٠.

٣ المصدر نفسه صـ٢٠.

٤ المغول للعريني صـ١٣، العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٢٠.

٥ الحياة السياسية في العراق للدكتور القزاز صـ٥.

رابعاً: القبائل التي تكون منها المجتمع المغولي.

في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي "السادس الهجري" كان ينزل شمال منشوريا، ومنغوليا، وتركستان، قبائل بدوية متأخرة تتخذ من الرعي والصيد مهنة لها، تنتقل وراء العشب من مكان إلى آخر وتنتمي هذه القبائل من الناحية اللغوية إلى مجموعات: مجموعة تركيا، ومجموعات منغولية، ومجموعات تنفوذية، ويصعب على المؤرخ أن يفصل بشكل قاطع بين هذه المجموعات وذلك لأن صلات معينة قامت بينهم جعلت ألقابهم، وعاداتهم وكلامهم متقاربة، ومن هذه المجموعات:

أ. القبائل التركية:

ـ قبيلة توركش: وهذه القبيلة من أشهر القبائل التركية في الغرب، وكانت رؤساؤها يلقبون بلقب "خان" وبقية هذه القبيلة محافظة على استقلالها إلى أن قضى عليها العرب المسلمون بقيادة "نصر بن سيار"، ومن ولاة الدولة الأموية في عهد "هشام بن عبد الملك" عام ١٢١هـ ٧٣٩م.

ـ قبيلة القرغيز: وهم من الترك الذين كانوا ينزلون في أعالي نهر "ينسي"، وكان أميرهم يلقب بـ"خاقان" اشتهروا سياسياً حوالي سنة ٢٥٠هـ ٨٤٠م، حينما تغلبوا على "الأويغور" من منغوليا ولكن "الخطا" هزموهم وطردوهم من منغوليا في أوائل القرن الرابع الهجري، ثم احترفوا الزراعة، وبعد ذلك خضعوا للمغول زمن "جنكيز خان" سنة ١٢١٨م.

ـ قبيلة الأغوز "الغُز في اللغة العربية": وهم من القبائل التركية وذكرتهم نقوش "أرخون" في القرن الثاني الهجري "الثامن الميلادي" باسم "التغزغز" ـ أي القبائل العشرة ـ لأنهم كانوا يتألفون من عشر قبائل. دخل "الغز" إلى البلاد الإسلامية في نهاية القرن الرابع الهجري "العاشر الميلادي" وينتمي السلاجقة إلى قبيلة "الغز"، وقد أقاموا إمبراطورية امتدت من تركستان حتى حدود مصر[١].

ـ قبيلة القارلوق: أصبحت لهم أهمية سنة ١٤٩هـ "٧٦٦م" حينما احتلوا وادي نهر "جو" بعد سقوط إمبراطورية "خاقان" الترك الغربيين/ لم يتخذ أمراؤهم لقب "خاقان" وإنما

١ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٢٤.

اكتفوا بإتخاذ لقب "يبغوا"، وكانوا كفاراً حتى القرن الرابع الهجري "العاشر الميلادي" ويقول "ابن حوقل" ان بلادهم كانت تمتد من "فرغانة"[1] مسافة يجتازها المسافر في ثلاثين يوماً، ولقربهم من البلاد الإسلامية، تأثروا بالحضارة الفارسية، ولم يلبثوا أن اشتغلوا بالزراعة، وجرت الاشارة إليهم لآخر مرة في القرن الثالث عشر الميلادي "الرابع الهجري"[2]

ب ـ القبائل غير التركية:

الخطا (أو قرة خيتاوي) أو خيتاوي وكلها أسماء لشعب خيتاي:

الراجح أنهم من القبائل التونفوزية "ويرى البعض أنهم مغول" كانوا أعداءً للترك الذين ينزلون أقصى الشرق في المنطقة التي بلغها "الأتراك" في حملاتهم وفي بداية القرن الرابع الهجري "العاشر الميلادي" قام "الخيتاي" بحملات حربية من أجل التوسع، فاستولوا على شمال الصين، كما اخضعوا شمال منشوريا ووطدوا نفوذهم في جنوب الصين، بعد ذلك امتدت مملكتهم من بلاد القرقيز ـ على نهر ينسي ـ شمالاً حتى بلغ جنوباً، ومن خوارزم غرباً إلى بلاد الأويغور شرقاً وكانت "بالاساغن" عاصمتهم وكانت لقب ملكهم "الكورخان" ـ أي اخان الخانات ـ ولما تحطمت مملكتهم وحلت مملكة الأمير "كجلك" النايماني في جانب من أملاكهم، اتخذ آخر ملوك "قره خيتاي" العادات والملابس الإسلامية، وبقى إقليم ما وراء النهر في أيديهم، إلى أن انتزعه منهم علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة ٦١٢هـ وتداعت مملكتهم بفضل نشاط الأمراء المسلمين في الغرب، وطغيان المغول في الشرق[3].

ـ التتار: وكان التتار في القرن الثاني الهجري "الثامن الميلادي" قسمين: الأول: تسع قبائل، والثاني: ثلاثين قبيلة، وكانوا يسكنون جنوب غربي بحيرة "بايكال"حتى نهر "كيرولين"، وهم ثلاث أقسام:

التتار البيض: وهم الذين ينزلون خارج سور الصين.

التتار السود: وكانوا ينزلون شمال صحراء "جوبي"، وكانوا بدواً رحلاً.

---

١ فرغانة: بينها وبين سمرقند خمسون فرسخاً.

٢ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٢٥.

٣ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٢٥.

تتار الغابة: وكانوا يعيشون حول الروافد العليا لنهري "أونون" و"كيرولين"، ومارسوا حياة الصيد.

وعلى الغرم من أن المغول الذين قاموا بالغزوات والفتوح المشهورة في القرن السابع الهجري "الثالث الميلادي" كانوا يعرفون باسم "التتار" في كل مكان وكان يسحب هذا الاسم على أسلاف "جنكيز خان" وعلى النايمان فقد كان "التتار" قبائل مستقلة عن المغول، بينما صار اسم "مغول" يطلق على جميع الشعوب التي خضعت لجنكيز خان بعد قهرها، ولم تلبث لفظة "تتار" أن تغلبت عليها/ خاصة في الجهات الغربية من الإمبراطورية المغولية، وهنا ينبغي أن نوضح حقيقة هامة هو أن لفظي "المغول" و"التتار" اسمان لقبيلتين كانت تعيشان في القسم الشرقي من آسيا الوسطى وفي الشمال الغربي من الصين، على أنهار اولدزا وكيرولين، وأرخون، وأونون وسائر روافد نهر عامور[1].

ـ قبيلة الكرايت: أقاموا لهم مملكة احتلت المنطقة الممتدة من نهر أرخون وجبال كنتاري حتى سور الصين، وقد تغلبت على جميع العناصر المغولية، وتحولوا إلى النسطورية بين عامي ٤٠٠ـ ٤٠٢ هـ (١٠٠٧ـ ١٠٠٩م) على يد أسقف نسطوري مقيم في "مرو" ومنذ ذلك الحين صاروا يدينون" بالنسطورية" وفي القرن السادس الهجري" الثاني عشر الميلادي" اتخذوا زعماؤهم أسماء مسيحية وكان طغرل من أشهر ملوكهم استطاع أن يطرد عمه الذي كان ينافسه على العرش، وذلك بمساعدة رئيس مغولي هو" يوسحاي" والد"جانكيز خان" الذي ظل من أتباعه ـ واستطاع طغرل أن يهزم" التتار" وبذلك صار أقوى ملك في منغوليا ومنحه الإمبراطور"كين" لقب"وانج" واشتهر بـ"وانج خان"[2].

ـ قبيلة النايمان: يبدو من إسمهم أنهم مغول" نايمان" ــ معناها ثمانيةــ ولكن ألقابهم كانت تركية ولذا يصح اعتبارهم(تركاًــ مغول) كان النايمان يسكنون غرب

١ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٢٦.

٢ المصدر نفسه صـ٢٧.

منازل" الكرايت" وامتدت منازلهم حتى نهر" ارتيش". كانت ديانتهم" الشامانية" إلا أن النسطورية نفدت اليهم[١].

ـ قبيلة برجقين المغولية: كانت تسكن عند أنهار "تولا، أرنون، وكيرولين"، وإلى هذه القبيلة ينسب "جانكيز خان"، توالى نزول القبائل المغولية على ضفاف هذه الأنهار بالقرب من هذه القبيلة ابتداء من "كيرولين" شرقاً حتى بحيرة "بيكال" غرباً[٢].

كان المغول الأصليون ـ أجداد جانكيز خان ـ يشتغلون بالرعي ويعيشون على الصيد، وذلك لأن منازلهم كانت تقع بين السهول والغابات ويفصل نهر سرداريا "سيحون" بين العالم التركي المغولي والعالم الإسلامي ولهذا السبب ظل المغول الترك محافظين على تقاليد عنصرهم بأن بقوا وثنيين، أو بوذيين، أو نساطرة، وكانت الحضارة الصينية أشد الحضارات تأثيراً عليهم[٣].

خامساً: حياة المغول الاجتماعية:

كان المجتمع المغولي يقوم على الطبقية، فقد كانت القبيلة مقسمة إلى ثلاث طبقات(طبقة النبلاء، وكانوا يلقبون بالألقاب "بهادر" أي الباسل "وتوبان" ـ أي النبيل ـ "وستسن" ـ أي الحكيم ـ والطبقة الثانية هي طبقة الـ"نوكور" ـ أي الأحرار ـ وعلى هؤلاء كان يرتكز النظام العسكري والسياسي في منغوليا، زمن "جنكيز خان" وكانوا يؤلفون طبقة المحاربين والموالين له.

والطبقة الثالثة، هي طبقة العامة، وطبقة الأرقاء وكان لكل جماعة أو عشيرة من المغول رئيساً، قد يكون ملكاً "خان ، قان" أو زعيماً "باكي أو بكي، وبهذا اللقب اشتهر رؤساء قبائل الغابة أمثال "أويرات، ومركيت[٤]. وكانت بعض القبائل الصغيرة تلجأ أحياناً إلى إحدى القبائل الكبيرة على عادة البدو في كل مكان،وذلك لعجزها عن الدفاع عن نفسها كما حدث لقبيلة "الجلائر" في علاقاتها مع أجداد "جنكيز خان"، وما جرى أيضاً لقبيلتي "القنقران، والأويرات" حينما خضعتا لجنكيز خان، لقد أثرت البيئة

---

١ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٢٧.

٢ المصدر نفسه صـ٢٨.

٣ المصدر نفسه صـ٢٨.

٤ المصدر نفسه.

التي عاشت فيها تلك القبائل تأثيراً كبيراً على حياتهم الاجتماعية والاقتصادية، فمناخها القاري والسعي وراء الأعشاب لرعي الماشية والأغنام فرضت عليهم مع مرور الزمن نمطاً معيناً من الحياة، فقد عاش الترك المغول الذين أقاموا في منطقة الغابات، حول بحيرة "بايكال" ونهر عامور، عيشة المتبربرين ، ويعيشون على صيد الحيوانات في الغابات، وعلى صيد السمك في الأنهار والبحيرة، وأما الذين كانوا يعيشون في الاستبس فقد عاشوا على تربية الخيل والماشية والأغنام،يلتمسون العشب، ويسير الرجل في أثر قطعانه وتوزيع المراعي والمياه حدد مجال تحركهم في فصول السنة وكثيراً ما كانت تحركاتهم نحو المراعي سبباً في المنازعات والغارات والسلب والنهب وما كان يمارسه الرعاة من التدريب المستمر على ركوب الخيل والسعي لاكتشاف المراعي والمياه، واستخدام الأسلحة، وما يتصفون به من قوة الاحتمال، ومعاناة الجهد والتعب، والشجاعة، والميل إلى الحركة، وحب المخاطر، واتساع الأفق، وحب التسلط، كل ذلك جعل رجال هذه القبائل عبارة عن جنود بارعين وجيش جاهز في كل لحظة، وعندما جاء "جنكيز خان" واستطاع توحيد هذه القبائل تحت حكمه، نظم لهم نوعاً من الحياة الاجتماعية مستفيداً من التجارب التي عاشها والشدائد التي عاناها، وما قام به من حروب وغزوات، وكيف ما نظمه فيما يعرف بـ"الياسا"[1]ذلك لأنه كان حريصاً على جمع كلمة القبائل الخاضعة له، وعلى كبح جماحها، والزامها بالنزول على حكمه، فاشتمل هذا القانون على عقوبات بالغة الصرامة، حتى يقضي على أسباب الفوضى، ويعيد الأمن إلى نصابه، وتحدد في هذا القانون علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض، وعلاقة الفرد بالمجتمع وقد نجح جنكيز خان، في هذا الغرض واستطاع ان يحول جموع المغول إلى جيوش منظمة، تسير وفقاً لخطط حربية مرسومة وكان المغول يتخذون من لحوم الحيوانات على اختلافها من خيول وكلاب وذئاب وثعالب وفيران، وغذائهم قليل وخاصة في الشتاء إذ تقسوا عليهم الطبيعة، ولهم طريقة في حفظ اللحوم، وهي انه إذا مات عندهم حيوان قطعوا

١ الياسا: هي أحكام أو دستور "جنكيز خان" دونها له الاويغور بخطهم وهي مزيج من القوانين موضوعة على ارادة الخان المغولي تسجل العادات القبلية كان المغول يرجعون إليها عندما يجلس خان جديد للعرش وفي حالة تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال.

لحمه شرائح رقيقة وعلقوها في الشمس والهواء لتجف دون أن تعتريها العفونة وكانت ملابسهم بسيطة جداً تتفق والبيئة التي يعيشون فيها وكانت في الغالب مصنوعة من أصواف أو وبر الإبل أو من جلود الحيوانات ولم يكن فرق كبير بين ملابس الرجال وملابس النساء وكان من عادة المغول انهم لا يغيرون ملابسهم طول فصل الشتاء، وأما في الصيف فيكتفون لتغيرها مرة واحدة كل شهر، ومن عادتهم ألا يغسلوا ثيابهم أبداً بل يلبسونها حتى تبلى وكان من عادتهم ان يطلوا أجسادهم بالشحم اتقاء البرد والرطوبة[1].

سادساً: دين المغول:

وأما عن ديانتهم فإن دارس تاريخ هؤلاء الأقوام يجد صعوبة في التعرف على المبادئ الصحيحة، فبعض المراجع تذكر نتفاً قليلة لا تشفى غليلا وبعضهم لا يذكر شيئاً، فقد قال ابن كثير عن عقيدتهم: وهم مع ذلك يسجدون للشمس إذا طلعت، ولا يحرمون شيئاً، ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات والميتات[2]، ويحتوي"الياسا" كما ذكر ابن كثير نقلا عن الجويتي بعض المبادئ التي منها: .. أنه من زنى قتل محصناً أو غير محصناً، وكذلك من لاط قتل، ومن تعمد الكذب قتل، ومن سحر قتل، ومن بال في الماء الواقف قتل، ومن انغمس فيه قتل، ومن أطعم أسيراً أو رمى إلى أحد شيئاً من المأكول قتل، بل يناوله من يده إلى يده، ومن أطعم أحداً شيئاً فليأكل منه أولاً ولو كان المطعوم أميراً لا أسيراً ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل، ومن ذبح حيواناً ذبح مثله بل يشق جوفه ويتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولاً[3]. وقد جاء في حديث لأحد ملوكهم وهو "منكو خان" "١٢٥١م ـ ١٢٦٠م" في لقائه مع الرحالة "رويركي" قال: " نحن المغول نعتقد بأن هناك إلهاً واحداً له نحيا وله نموت وعندنا قلب يخفق بحبه، لكن الله أعطى اليد أصابع مختلفة كذلك أعطى الناس طرقاً مختلفة، فقد أعطاكم الكتاب المقدس، لكن المسيحيين لم يحافظوا عليه، وقد أعطى "الشماناس" ونحن نفعل ما يأمروننا

١ المغول في التاريخ للدكتور العباد صـ٣٣ إلى صـ٣٤.

٢ البداية والنهاية لابن كثير نقلا عن العالم الإسلام للخالدي صـ٣٢.

٣ بداية ونهاية "١٧ /١٦١ ـ ١٦٥".

به ونعيش بسلام[١]. وذكر الجويني: أن "جنكيز خان" لم يكن متحمساً لدين معين وأن أولاده مالوا مع رغباتهم فمنهم من مال إلى الإسلام ومن مال إلى المسيحية وآخرون إلى عبادة الأصنام، وغيرهم حسب قاعدة الآباء والأجداد[٢]، وأما ابن فضل الله العمري فيقول: الظاهر من عموم مذاهبهم الإدانة بوحدانية الله وأنه خلق السماوات والأرض[٣].

وفي تعريف الديانة الشمانية يقول الدكتور القزاز: كانت الديانة الرسمية للمغول تسمى"بالشامانزم" وتتمثل بعبادة مظاهر الطبيعة وخاصة الشمس، وتمتاز بشدة الطاعة لكهنتها الذين يتولون بدورهم الحياة الخاصة لأتباعها، كما يدل على ذلك حديث"منكوخان" إلى الرحالة"رويركي" الذي مر ذكره، ولم تستطع تعاليمها الصمود أمام الديانات الأخرى التي احتك بها المغول، الأمر الذي أدى إلى ذوبانها وتحول المغول عنها إلى البوذية في الصين، والإسلام في البلاد الإسلامية والمسيحية في روسيا[٤]. وأما أرنولد فقد كتب كانت"الشامانية" الديانة القديمة للمغول، الذين كانوا على رغم اعترافهم بإله عظيم قادر، لا يؤدون له الصلوات، وإنما كانوا يعبدون طائفة من "الآلهة" المنحطة وبخاصة تلك "الآلهة"الشريرة التي كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا لما كانوا يعتقدون فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم.

كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم، ولكي يوفق المغول بين هذه القوى السماوية والعالم السفلي كانوا يلجأون إلى القسيسين، وهم "الشامان" والسحرة أو إلى رجال الطب، الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب على عناصر الموتى وأرواحهم، ولم يكن دينهم معدوداً من تلك الأديان التي تستطيع أن تقاوم كثيراً جهود هذه الأديان الكثيرة الأتباع والأنصار ذات اللاهوت المنظم الذي يملك قوة الإقناع وسد حاجات العقل، وذات الهيئات المنظمة، للمعلمين الدينيين، ومن ثم تأثر المغول بديانات تلك

١ الحياة السياسية في العراق في العهد السيطرة المغولية د.القزاز صـ٢٠ ـ ٢١.
٢ المصدر نفسه صـ١٩، العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٣٣.
٣ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٣٣.
٤ المصدر نفسه صـ٣٤.

الشعوب[١]، فهذه عقيدة المغول المنحرفة والفاسدة[٢]، ويرى الباحث إسماعيل عبد العزيز الخالدي، بأن عقيدة المغول المشوهة والتي أشار إليها المؤرخون هنا وهناك ما هي إلا بقايا عقيدة صحيحة كانت صيحة جاءت عن طريق بعض الرسل، مصدقاً لقوه تعالي: "إن أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلافها نذير" ـ فاطر ، الآية: ٢٤ ـ ولكن الانحرافات البشرية المتمثلة في تدخل بعض الناس حكاماً أو زعماء، أو علماء ـ في العقيدة ـ بالإضافة أو الحذف إتباعاً للشيطان والهوى أو وصولاً إلى شهوة ، أو رغبة في انتقام أو إظهاراً لمكانة.. أو.. كل ذلك جعل هذه العقيدة تصل إلينا بشكل مشوه، ولكن الذي يتفحص هذه النتف القليلة يرجع أن هذه النصوص ما هي إلا بقايا عقيدة وصلتنا مشوهة، وهم يعترفون بوجود إله واحد وأنه خلق السماوات والأرض ولكنهم يشركون معه بعض المخلوقات مثل "الشمس" "والأرواح" وغيرها، وهم يستنكرون القتل والزنا واللواط، والكذب، والسحر، والتجسس، وكلها من صميم النواهي والمحرمات التي حرمها اللـه سبحانه وتعالى على عباده بواسطة الرسل الكرام، وإذا وجدنا العقاب قاسياً على بعض هذه الجرائم، فإن هذه القسوة علامة التشويه التي وضعتها يد الإنسان الظالمة ظانين أنهم بهذا إنما يكملون نقصاً أو يستفيدون من تجربة ، وخلاصة القول إن الأستاذ إسماعيل الخالدي رجح بأنه كان لهذه الأمة عقيدة صحيحة تشوهت مع مرور الزمن ثم ترك كثير من أوامرها إلى أن جاء "جنكيز خان" فأمر بكتابتها بالخط "الأويغوري" وكتبت بعد أن أضاف إليها ما يعتقد أنه ينفع أمته ويقوي ملكه[٣].

هذا وقد امتدت اليد الإنسانية إلى العقائد السماوية، بالتبديل والتحريف والتشويه، ابتداء من العقيدة التي أنزلت على آدم عليه السلام ومروراً بعقيدة إبراهيم وإسماعيل التي شوهت في الجزيرة العربية، وعقيدة موسى التي شوهت على أيدي اليهود، وانتهاء بعقيدة عيسى التي شوهت على أيدي "النصارى[٤]، وقد أكد القرآن هذه الحقيقة في أكثر من موضع وكفى به قولاً وفصلاً وذلك في مثل قوله تعالى: "يا

١ الدعوة إلى الإسلام، أرنولد صـ٢٥١.

٢ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٣٤.

٣ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ ٣٥.

٤ المصدر نفسه صـ٣٥.

أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على اللـه إلا الحق، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول اللـه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا باللـه ورسله، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خير لكم، إنما اللـه إلـه واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السماوات وما في الأرض وكفى باللـه وكيلا" ـ النساء، آية : ١٧١ ـ وقال تعالى عن اليهود: "فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه" ـ المائدة ، الآية : ١٣ ـ

سابعاً: تداعي المجتمع المغولي قبيل جنكيز خان:

الفوضى في منغوليا: الواقع أنه باستثناء الترك الأويغور والخطا اللذين استقروا في جنوب منطقة الاستبس، وباستثناء منغوليا الأصلية، هوت بقية منغوليا إلى حالة بالغة من الشدة والاضطراب والهمجية، فلم يكن بين التتار والمغول والكرايت، والنايمان ما كان معروفاً باسم مدن البلاط، فليست مدن الأويغور سوى معسكرات مدورة تقوم حول مخيم الزعيم، والواضح أن هذا المعسكر ينقض إذا ارتحل الزعيم أو الخان ـ على أنه حدث عند ولادة جنكيز خان، أنه لم يكن بالاستبس المغولي أو ما يليها من الغابات شيء من هذه المعسكرات، ففي منغوليا، في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، لا نكاد نلتقي إلا بالدساكر الصغيرة التي ينزلها جماعات قليلة من الأسرات التي تمتهن الرعي وفي كثير من الأحيان لا نصادف إلا سكرة واحدة، وهذا مثال إنما نلمسه في نوع الحياة السائدة، أثناء حداثة جنكيز خان وأخوته، حينما تخلى عنهم أعمامهم، وأضحوا مضطرين إلى ممارسة الصيد، وحياة الكفاف[1]، والواقع أن الروابط السياسية والاجتماعية تمزقت في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، بسبب الفوضى التي استمرت زمناً طويلاً، فلم يكن للمغول التايجيوت ولا غيرهم خانات، فعاشوا في فوضى شاملة، لما حدث من التنازع بين التايجوت وجنكيز خان، ولما وقع من الخصومة بين جنكيز خان وجاموكا، يضاف إلى ذلك ما نشب من التشاحن بين القبائل والعشائر المغولية على مواطن الرعي، ومواقع المعسكرات، ومن الدليل على ذلك ما كان من محاولات جنكيز خان، بعد وفاة أبيه، تجميع شتات العشائر، وما درج

---

١ المغول، د. السيد الباز العريني صـ٣٨.

عليه المغول من الزواج من خارج قبيلتهم أما عن طريق التراضي والمفاوضات وأما عن طريق الاختطاف مثلما حدث في زواج جنكيز خان، ووالده، كل ذلك أدى في ظروف كثيرة إلى الحروب[1].

محاولات توحيد القبائل المغولية: جرت محاولات عديدة قبل ظهور جنكيز خان، لتوحيد القبائل المغولية، غير أن هذه المحاولات ذهبت أدراج الرياح، وقد تحدث المؤرخون عن جد المغول، بدانتسار، الذي اشتهر بالمكر والخديعة واستطاع أن يفوز بالزعامة على قبيلة تعيش في الجهات المجاورة لمنازله على الشاطئ الشرقي لبحيرة بايكال ولم تلبث أسرات عديدة أن التمست حماية ابنه قيدو، فتزايد عدد رعاياه ولم يلبث أن اتخذ لقب خان، هذه كانت النواة الأولى لمملكة المغول وكان لقيدو ثلاثة أبناء، كان أكبرهم جداً لأسرة قيات التي ينتمي إليها جنكيز خان، بينما كان الثاني جداً لأسرة التايجيوت وشهد جنكيز خان في حداثته ما وقع بين الأسرتين من تنافس وتنازع وبلغت الملكية الأولى للمغول ذروتها زمن كايل حفيد قيدو، بعد أن توطدت العلاقة بين المغول وأسرة كين التي كانت تحكم بشمال الصين، نظراً لما تتعرض له من تهديد من جانب منغوليا غير أنه وقع من المشاحنات بين خان المغول"كايل" وملك الصين "تاي سونج" ما أدى إلى نشوب الحرب بينهما سنة ١١٣٥م، وحلت الهزيمة بجيش الصين سنة ١١٣٩م ويعتبر هذا التاريخ بداية لنهوض المغول وعلى الرغم من سيادة أسرة كين على منشوريا، وشمال الصين، فإنها أضحت تحس بخطر المغول بعد أن امتد سلطانهم نحو الشمال الغربي لمنغوليا، وبعد أن أخضعوا التتار النازلين على الضفة الجنوبية لنهر كيرولين، ولم يسع إمبراطور الصين الشمالية "التان خان" من أسرة كين إلا أن يثير العداء بين المغول والتتار، فنشبت معارك عديدة اشترك فيها "يسوكاي" من سلالة كايل والد جنكيز خان، والذي صرع أحد زعماء التتار واسمه "تيموجين" ولتخليد هذا الانتصار أطلق "يسوكاي" على ابنه عند ولادته اسم "تيموجين"، وهو الذي صار يعرف فيما بعد باسم "جنكيز خان"، وتلى ذلك فترة أضحى فيها للتتار النفوذ والسلطان بفضل مساندة أسرة كين بما بذلته لهم من الإمدادات الحربية، وبما لجأت

١ المصدر نفسه صـ٣٩.

إليه من أساليب السياسة والدهاء والمكر، فضلاً عن جيوش التتار، كل ذلك أدى إلى تداعي مملكة المغول الناشئة، وسيطرت التتار على شرق صحراء جوبي، بعد أن كان في حوزة المغول، وصار التتار مصدر خطر على أسرة كين ذاتها، فلم تلبث هذه الأسرة الملكية بالصين الشمالية أن انقلبت عليهم، فهيأت الفرصة لأن ينتصر جنكيز خان عليهم، وعلى الرغم من أن يسوكاي لم يكن إلا رئيس أسرة بورجقين، من عشرة قبات، فقد اشتهر يسوكاي بأنه كان محارباً شجاعاً وقائداً بارعاً، وسبق الإشارة إلى ما أحرزه من انتصار على أحد زعماء التتار، واسمه تيموجين، ثم نهض إلى مساعدة طغرل زعيم الكرايت في الغرب لاسترداد عرشه، وتحالف الاثنان على أن يكونا يداً واحدة، وأفاد جنكيز خان فيما بعد من هذا التحالف[١]، وقد تزوج يوسكاي بهادور "الباسل" من هوئيلون "يولون" من قبيلة المركيت وأنجب منها أربع أبناء أكبرهم تموجين، ثم جوش قسار وقاتشيون، وتيموجي فضلاً عن ابنة. وكان له من زوجتين أخريين بكتر ويلجوتاي[٢].

ثامناً: أحوال العالم الإسلامي قبيل الغزو المغولي.

كان العالم الإسلامي في المرحلة التي بدأ فيها ظهور المغول منقسماً إلى مجموعة من الممالك والدويلات الصغيرة بعضها قوي وبعضها ضعيف سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية، كما تميزت هذه الممالك والدويلات بالتنازع مع بعضها البعض من أجل السيطرة أو التوسع على حساب الأخرى[٣]، وكان الحكام المتنازعون يؤثرون مصالحهم الشخصية على مصالح المسلمين العليا متناسين قول الله تعالى: " ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم" ـ الأنفال ، الآية ٤٧ ـ وكانوا في سلوكهم الخاص ومعاملاتهم لشعوبهم أو لبعضهم بعضا قد تخلوا عن قواعد الإسلام ومبادئه وانحرفوا عنه انحرافاً شديداً وانتشرت بينهم الموبقات، من معاقرة للخمر، وقتل الوقت بحضور حفلات الرقص الماجن وارتكاب الفواحش، واللهو الخليع، وقد تبعهم في ذلك كبار قادتهم، وكثير من يلوذ بهم من الناس، ولما لا؟ والناس على دين ملوكهم،

١ المغول للعريني صـ٤٢.

٢ المصدر نفسه صـ٤٢.

٣ المغول والأوربيون والصليبيون، محمود عمران صـ١٥.

وكان من نتيجة تخليهم عن أخلاق الإسلام فقدان روح التضحية وحب الاستشـهاد مـما أضـعف الـروح المعنوية في حروبهم مع المغول وذلك هـو "الـوهن" الـذي حـذر منـه الرسـول الكـريم صـلوات اللــه وسلامه عليه حين قال: "يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول اللـه؟ قال: بل أنتم يومئذ كثر ولكنهم غثاء كغثـاء السـيل، ولينـزعن اللــه مـن صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن. قالوا وما الوهن يـا رسـول اللــه؟ قـال: حـب الدنيا وكراهية الموت[1]، وكانت الأمة قد تفرقت وتمزقت، ففي كـل ناحيـة سـلطان وفي كـل قبيلـة أمـير ورحم اللـه القائل:

مـــــــما يزهـــــــــدني في أرض أنـــــــــدلس

ألقــــاب معتصـــــم فيهـــــا ومعتضـــــد

ألقــــاب مملكـــــة في غـــــير موضـــــعها

كـــــالهر يحـــــكي انتفاخـــــاً صـــــولة الأســـــد

وانتهوا إلى بلاء شامل قال اللـه تعالى فيهم: "ألم تر إلى الـذين بـدلوا نعمـة اللــه كفـراً واحلوا قومهم دار البوار" ـ إبراهيم ، الآية ٢٨ ـ لقد غلبت عنـدهم المعيشـة، ورخـص الإنسـان وعمرت المراقص والحانات، وخربت دور العبـادة وقـل عـدد الملتـزمين مـن الحكـام وخاصـتهم بالفضائل، وأطلقوا العنان لشهواتهم وأكرموا أهـل النفـاق والكفـر فكـانوا كـما قـال اللــه عـز وجل: "وضرب اللـه مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقهـا رغـداً مـن كـل مكـان فكفـرت بأنعم اللـه فأذاقها اللـه لباس الجوع والخوف بما كـانوا يصـنعون" ـ النحـل ، آيـة ١١٢ ـ ومـا يعنينا من العالم الإسلامي في هذا الموضوع هو الجانب الشرقي منه، أما الغـربي منـه في المغـرب والأندلس فلقد كـان هنـاك أيضـاً الصراعـات الداخليـة بالإضـافة إلى مقاومـة حركـة الاسـترداد، والجانب الشرقي من العالم الإسلامي كانت تتقاسمه عدة دول، ففي بلاد فارس أو إيـران كانـت تقوم الدولة الخوزمية التي امتدت حدودها من جبـال أورال في الشـمال إلى الخلـيج العـربي في

١ سنن أبي داؤد عن ثوبان بإسناد صحيح، كتاب الملاحم.

الجنوب، ومن جبال السند شرقاً إلى حدود العراق غرباً، وفي العراق كان الخليفة العباسي في بغداد وله السيادة الروحية، أما القوة السياسية والعسكرية فقد زالت عن هذه الخلافة، ولم يعد لهذا الخليفة من القوة إلا أن يطلب الدعوة على المنابر في صلاة الجمعة أو المناسبات أو الأزمات بأن يوفق الله المسلمين، أو الاستنفار للجهاد[١]، أما الدولة الأيوبية في مصر والشام، فقد كان لها مشاكلها خاصة مع مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية على الساحل الشامي، ومما يزيد المشكلة تعقيداً أنه مع ظهور أخطأ المغول كانت الحملة الصليبية الخامسة قد استولت على برج مدينة دمياط عام ١٢١٨م، مما أدى إلى وفاة الملك العادل، ثم انقسام البيت الأيوبي إلى عدة ممالك أهمها مصر وعلى رأسها الملك الكامل ٦١٥ ـ ٦٣٦هـ / ١٢١٨ ـ ١٢٣٨م، ودمشق على رأسها الملك المعظم عيسى ٦١٥ ـ ٦٢٤هـ / ١٢١٨ ـ ١٢٢٧م. وكان هناك دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وهي الدولة التي ظلت في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية منذ نشأتها حتى نهايتها، يضاف إلى ذلك أخطار الصليبيين في بلاد الشام ثم العالم الغربي بعد سقوط القسطنطينية في أيدي الصليبيين من قوات الحملة الصليبية الرابعة، عام ١٢٠٤م[٢].

١ ـ طائفة الإسماعيلية الباطنية.

يعتبر الحسن الصباح المؤسس الحقيقي للطائفة الإسماعيلية في إيران، إذ أخذ في الاستيلاء على كثير من البلاد والقلاع المجاورة في "فوهستان" وكانت أهمها قلعة "الموت" التي استولى عليها سنة ٤٨٣هـ ـ ١٠٩٠م ـ فصارت عاصمة للإسماعيلية وقاعدة لملكهم، ولم يقف أمر "الصباح" عند هذا الحد، بل استطاع بمعاونة أتباعه ـ أن يستولي على المنطقة جنوبي بحر قزوين بأكملها[٣]، وقد اشتهرت الطائفة الإسماعيلية في التاريخ بأنهم قوم محاربون أشداء، بثوا الرعب في النفوس، وعاثوا في الأرض فساداً، وقاوموا سلاطين السلاجقة واهتزت بسببهم السلطنة والخلافة، فلا غرو إن كان العداء شديداً بينهم وبين سائر المسلمين، كان لهم جهاز رهيب، وتنظيم سري

١ المغول والأوربيون والصليبيون صـ١٦.

٢ فتح القسطنطينية، ترجمة الدكتور حسن حبشي صـ١١٤ وما بعدها.

٣ المغول في التاريخ للدكتور الصياد صـ٧٧ ـ ٧٨.

يتكون من طائفة من الشبان المغامرين الشجعان، الممتلئين قوة وحماسة وتضحية وتفانياً في الدفاع عن عقيدتهم، وكان هؤلاء الفدائيون يجيدون فن التخفي وساعدهم على ذلك طبيعة الدعوة الإسماعيلية الباطنية التي كانت تجري في سرية تامة، بحيث أنه كان يتعذر على المرء أن يميز الشخص الباطني من غيره، وكان أعضاء هذا الجهاز يختارون في سن مبكرة ويدربون تدريبات شاقة مضنية على استعمال السلاح، وأساليب القتال، وطرق الاغتيال وسفك الدماء[١]، وكانت القاعدة عندهم أنه إذا ظهر حاكم قوي في البلاد الإسلامية المجاورة، أسرع الفدائيون منهم إلى اغتياله ليأمنوا جانبه، وكان هدفهم الأول من وراء ذلك هو بث الرعب والفزع في نفوس الجميع ونشر الاضطرابات والفتن وإشاعة الفوضى في صفوف المعادين لمذهبهم، فراح ضحيتهم كبار الشخصيات في الدولة السلجوقية حتى جردوها من قوتها الفعالة وعقولها المدبرة، مما أدى بها إلى نهايتها المؤسفة، فلقد قتلوا أعظم وزراء السلاجقة على الإطلاق وأكبر عقلية مفكرة في دولتهم، ألا وهو الخواجة "نظام الملك"، وكان ذلك بأن تقدم إليه أحد الفدائيين من هذه الطائفة على هيئة رجل صوفي، وطعنه بخنجره طعنة نجلاء خر على أثرها صريعاً سنة ٤٨٥هـ ـ ١٠٩٢م ـ فكان أول شخصية كبيرة فقدها العالم الإسلامي بسبب هذه الطائفة الدموية[٢]. وقد قام الولاة والحكام المسلمون بتسليط بعض أفراد هذه الطائفة ضد بعضهم بعضاً، ومن أمثلة ذلك عندما قام الصراع بين الخلفاء العباسيين والسلاجقة، اتهم السلطان "مسعود" بأنه هو الذي أوعز إلى جماعة من الفدائيين بالتخلص من الخليفة "المسترشد" فقتلوه سنة ٥٢٩هـ ـ ١١٣٤م ـ ومثلوا به أشنع تمثيل، إذا أنهم قطعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً[٣]، كذلك قتل ابنه "الراشد" بمدينة "أصفهان" سنة ٥٣٢هـ ـ ١١٣٧م ـ لأن محاربة الخلفاء العباسيين هدف يتفق مع مبادئهم، كما سبق أن قامت هذه الطائفة باغتيال "أغلمش" نائب الخوارزميين في العراق العجمي، بإيعاز من الخليفة "الناصر"، وقد قام صراع بين الإسماعيلية والدولة الخوارزمية سبب للطرفين خسائر فادحة[٤]، كما

١ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٥٣.

٢ المصدر نفسه صـ٥٣.

٣ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٥٤.

٤ المصدر نفسه صـ٥٤ نقلاً عن سيرة جلال الدين منكبرتي صـ٥٥.

قامت هذه الطائفة بأعمال إجرامية ضد الطوائف الإسلامية التي تخالفهم في العقيدة، فأشاعوا الرعب والإرهاب، وظلموا وجاروا حتى لقد تمنى المسلمون زوال حكمهم، بل لقد شجعوا المغول وحثوهم على محاربتهم والقضاء عليهم، فقد ذكر "ابن طباطبا": حدثني الملك إمام الدين يحي بن الافتخاري قال: أذكر ونحن بقزوين إذ جاء الليل وجعلنا جميع مالنا من أثاث وقماش ورحل في سراديق لنا في دورنا غامضة خفية، ولا نترك على وجه الأرض شيئاً خوفاً من كبسات "الملاحدة" فإذا أصبحنا أخرجنا أقمشتنا فإذا جاء الليل فعلنا، كذلك، ولأجل ذلك كثر حمل "القزاونة" للسكاكين وكثر حملهم للسلاح، وما زال الملاحدة على ذلك حتى كان من أمر "شمس الدين" قاضي قزوين وتوجهه إلى "قا آن" وإحضار العسكر وتخريب قلاع الملاحدة ـ ما كان[1] ويذكر "الجوزجاني" أن القاضي شمس الدين أحمد الكافي القزويني كان على اتصال بالمغول، وكان إماماً كبيراً، ذهب مرة إلى "منكوخان" وطلب منه أن يضع حداً لشر الملاحدة، ويخلص الناس من فسادهم، وفي أثناء حديثه وبينما كان مندفعاً بحماسة المسلم المتدين صدرت منه كلمات جافة أغضبت "منكوخان"، وكان لها أثر عميق في نفسه إذ نسب إليه الضعف والعجز، لأنه لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه الطائفة الذين يدينون بدين يخالف ديانات النصارى والمسلمين والمغول، وما ذاك إلا لأنهم استطاعوا أن يغروا "منكوخان" بالمال بينما هم يتحينون فرصة ضعف دولته فيخرجون من الجبال والقلاع لينقضوا على البقية من المسلمين ويعفوا آثارهم، وخلاصة القول إن الطائفة الإسماعيلية كانت من أهم العوامل التي أسهمت في إضعاف المسلمين والدعوة الإسلامية ودعاة الإسلام وزيادة الفرقة بينهم وتدهورهم تدهوراً كاملاً سهل على المغول مهمة القضاء عليهم في الوقت المناسب[2].

٢ ـ الخلافة العباسية:

كانت علامات الضعف قد ظهرت على الخلافة العباسية في بغداد قبل ظهور خطر المغول، وهذا الضعف كانت له جذوره العميقة التي بدأت منذ سيطرة العناصر الفارسية بمنصب الوزارة في الخلافة العباسية، الأمر الذي أظهر خلافاً بين العرب

١ الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية صـ٢٥ ـ ٢٦.

٢ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٥٥.

والفرس وما تلى ذلك من أحداث أدت إلى دخول العناصر التركية إلى السلطة في بغداد، وبذلك أصبح يتطلع إلى السلطة ثلاثة عناصر، هي العرب والفرس والأتراك وقد نتج عن هذا كله طمع حكام بني بويه ـ الذين أقاموا دولتهم في جنوب غربي إيران في السلطة وكان لهم ما أرادوا حيث نجحوا في السيطرة على الخليفة في بغداد، وقد استأثر حكامهم بالسلطة، واتخذوا لقب السلطان وطغى نفوذهم على نفوذ الخلفاء العباسيين وكان بوسعهم إلغاء الخلافة العباسية تماماً، ولكنهم لم يقدموا على هذه الخطوة خشية العالم الإسلامي السني، لأن دولة بني بوية كانت من طائفة الشيعة، وكان لهذا كله أثره الكبير على هيبة الخلفاء العباسيين وبدأ حكام الولايات في الاستقلال، بولاياتهم، والاكتفاء بالولاء الأسمى للخلافة العباسية، ومن هنا تمزقت الروابط القوية التي تربط الخلافة بتلك الولايات، ومع هذه الحركات الاستقلالية أو الانفصالية بدأت ملامح فساد الإدارة داخل الخلافة، الأمر الذي أدى إلى محاولة البعض الإنفراد بالسلطة وتعرضت الخلافة العباسية، لسيطرة الأتراك السلاجقة ـ بعد أن أزالوا النفوذ البويهي من بغداد ـ وهم مسلمون من السنة، وقد سيطر هؤلاء على الخلافة واتخذ حكامهم لقب سلطان وعرف حكامهم الأوائل بإسم السلاطين العظام، وبقي الخليفة في بغداد أو بالأحرى في قصره لا حول له ولا قوة، وتصرف هؤلاء السلاطين في الأراضي والمدن ومنحوها إقطاعيات للأمراء وذوي الشأن، وعندما انهار سلطان السلاجقة العظام كانت أعالي الفرات وشمال الشام ثم جنوبه دويلات لا تتعدى المدينة وما حولها عمل الزنكيون على توحيدها ودخلت في صراع مع الدولة الفاطمية بمصر، وانفصلت أقاليم الدولة عن الحكومة المركزية في بغداد وأصبحت عاجزة عسكريا عن مواجهة أي غزو عسكري ولم يكن الخطر المغولي كأي خطر عادي[1]/ هذه هي أوضاع الخلافة قبل الحروب التي شنها المغول على البلاد الإسلامية ولا يمنع هذا من ظهور خليفة قوي تساعده بعض الظروف على القيام ببعض الإصلاحات، ولكنها صحوات تشبه صحوات الذي يعاني سكرات الموت[2]، ولم يكن بوسع الخليفة المستعصم (٦٤٠ ـ ٦٥٦هـ ١٢٤٢ ـ ١٢٥٨م) آخر خلفاء بني

---

١ المغول والأوربيون والصليبيون وقضية القدس صـ١٨.

٢ العالم الإسلامي والغزو الصليبي صـ٥٧.

العباس، وهو الرجل الضعيف الذي سيطر عليه رجال السوء أن يفعل شيئاً ضد هذا الخطر الجارف[1].

٣ ـ الأيوبيون في مصر والشام:

بعد أن توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م تفككت أملاكه، ووزعت بين أبناء البيت الأيوبي ذلك لأنهم اعتبروا مملكته تركة خاصة وقد قسمت إلى خمسة عشر قسماً، تزيد وتنقص حسب نتيجة المعارك التي كانوا يخوضونها ضد بعضهم بعضاً، أو ضد أعدائهم، إذا ما لبثت عوامل الانقسام والشقاق إن دبت بين أبناء صلاح الدين أنفسهم وانتهز الملك العادل تلك الفرصة، ورأى أن يجمع هذا الشتات تحت إمرته فلم يتردد في فرض سلطانه على مصر إلى جانب أملاكه في الشام، وهكذا لم يمض على وفاة "صلاح الدين" سوى سبع سنوات حتى طوى "العادل" معظم أولئك الأبناء فقد قال: إنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي مع الشيخوخة والتقدم، والملك ليس هو بالإرث وإنما هو لمن غلب[2]، ورغم كل ذلك فإن "العادل" لم يستطع أن يسيطر على كل ما تركه صلاح الدين، بل ظلت الدولة مقسمة إلى سبعة أقسام وكثيراً ما استقل بعضها استقلالاً تاماً عن مصر، وخضع لها البعض الآخر خضوعاً اسمياً، وكثيراً ما كان يحتدم النزاع بين حكام هذه البلاد فيستعين الواحد منهم على الآخر، بعدو ثالث، بل وصل الأمر إلى استعانة بعضهم بالصليبيين على أقاربهم من الأيوبيين[3]، وعلى هذا فإن بلاد الشام أيضاً كانت في حالة من الانقسام والحزازات والتباغض والشحناء أشد مما كانت عليه إيران، وخراسان والعراق، أضف إلى ذلك أن هذه البلاد كانت قد وصلت إلى حالة شديدة من الضعف نتيجة للحروب الصليبية التي خاضتها لمدة قرن من الزمان، تصد تلك الحملات، فلما شن "المغول" غاراتهم المدمرة على البلاد الإسلامية كان من الطبيعي أن يقف حكام تلك المناطق في حالة عجز تام عن مد يد العون لإخوانهم في الشرق، وكل ما فعلوه أنهم وقفوا يرقبون

---

١ المغول والأوربيون والصليبيون صـ١٨.

٢ السلوك لمعرفة السلوك (١ ـ ١٥٥).

٣ العالم الإسلامي والغزو الصليبي صـ٦١.

المعركة في غير اهتمام ولا بعد نظر منتظرين ما سيحل به[1]، كما أن سلاجقة الروم المسلمين كانوا في نزاع دائم مع الدولة البيزنطية ثم مع الصليبيين، فهم أول من تصدى للحملة الصليبية الأولى من القوى الإسلامية، كما أن حكام هذه الدولة كانوا في نزاع مستمر مع غيرهم من السلاطين المسلمين، ومن هذا العرض السريع يمكننا أن نتوقع النتيجة الحتمية للمعركة القادمة التي ستنشب بين المسلمين من ناحية وبين القبائل المغولية من ناحية أخرى[2]، ومن أراد التوسع فليراجع كتبي عن دولة السلاجقة وعصر الدولة الزنكية، وصلاح الدين، والحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة.

٤ ـ انتشار الموبقات في العالم الإسلامي:

قال تعالى: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً" ـ الإسراء ، آية ١٦ ـ ومن الموبقات التي انتشرت في العالم الإسلامي في ذلك العهد:

أ ـ الخمر: قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر اللـه وعن الصلاة فهل أنتم منتهون" ـ المائدة ، آية ٩٠ ، ٩١ ـ قالوا: انتهينا يا رب، وقام كل واحد منهم إلى ما عنده من الخمر، وسكبها فجرت في سكك المدينة[3]. وقد انتشر شرب الخمر بين الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة وعلية القوم، وبعض عامة الناس في تلك الفترة، وكان الذين يشتغلون في الحانات ـ رجالاً ونساءً ـ من غير المسلمين بل المشرفون عليها كانوا من اليهود والنصارى، وكانوا حريصين جداً على نشر هذه الآفات في المجتمع الإسلامي، ونشر الشعر الذي يدعو إلى الخلاعة وتلحينه وغنائه، ونشر الشراب ودفع الشباب إلى التفتيش عن المرأة وجمالها ووصلها، ذلك لأنهم يعلمون أن هذه هي أقصر الطرق إلى تسهيل القضاء على المسلمين وذلك بتحطيم المجتمع

١ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٦١.

٢ المصدر نفسه صـ٦٢.

٣ تفسير ابن كثير، لسورة المائدة الآية ٩٠ ـ ٩١.

الإسلامي من الداخل وذلك بدفع الشباب المسلم إلى إشباع البطن والفرج وحصر تفكيره ونشاطه في ذلك، وكانت الحانات مملوءة بالجواري الفاتنات، وغالباً ما كن أجنبيات من أجناس مختلفة، والشباب والشعراء يأتون إليهن، وكن يعرضن أنفسهن على الشباب والشعراء، بلا تحفظ، وبلا حشمة أو كرامة، وكن يتفنن في الحيل التي يجذبن بها الشباب، ويستكثرن من العشاق بطرق غير مستقيمة، فكن سبباً في كثير من الفجور والمجون وكل شيء حولهن يدفعهن إلى هذا السلوك الآثم[1]، وفي سبيل القضاء على الدعوة الإسلامية وتحطيم الإسلام في نفوس المسلمين حول بعض النصارى أديرتهم إلى دور للعبث واللهو الماجن، وساعدهم على ذلك ما كانت تحويه تلك الأديرة من خمور معتقة تقدمها لروادها، وكانت هذه الأديرة متناثرة في ضواحي بغداد وسامراء وفي طول البلاد الإسلامية وفي عرضها، فأكثر الشعراء والشباب من الاختلاف إليها طلباً للخمر والمجون، وأكثروا من التغني بها ووصف متاعهم بخمورها ونشوتها وسقاتها من الرهبان والراهبات، حتى لقد أُلفت الكتب في ذلك مثل كتاب "الديارات" "للشباشتي" وهو يكتظ بأشعار ابن المعتز وغيره، وكل لكل دير عيد تقريباً يخرج فيه الناس للهو والمجون، وكان هذه الأديرة تستغل أعياد النصارى لدعوة شباب المسلمين وتسهيل وصولهم إلى الموبقات، ومن تلك الأعياد "عيد الميلاد" الذي كان يكثرون فيه إيقاد الشموع والنيران وكنها عيد "الشعانين" أو عيد "الزيتونة"، وكان يقام في "أكتوبر" عيد للقديسة "أشموني" في "قُطرَبُّلْ" وهي قرية في شمال بغداد كانت أشبه بحانة للخمارين، وكان الناس يذهبون من بغداد وسامراء إلى هذا العيد عن طريق الدواب براً، والسفن في دجلة بحراً متنافسين فيما يظهرونه هناك من زيهم، وزينتهم، ومباهين بما يعدونه لقصفهم، وكان يضربون في شط القرية وديرها وحاناتها وأكنافها الخيم والفساطيط، وتعزف عليهم القيال، وهم يحتسون كؤوس الخمر، وبالمثل كانوا يسمعون في عيد "الزندورد" بالجانب الشرقي لبغداد[2]. بالإضافة إلى أعياد النصرانية التي كانت تقام فيها الحفلات الماجنة الداعرة أحيا الفرس أعيادهم القديمة، وأخذوا

---

١ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٦٩.

٢ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ ٦٩.

يحتفلون بها ويقدمون من الخمور والمأكولات ما لا يتصوره عقل[1]، ومنها "عيد النيروز" في أول الربيع وهو للسنة الفارسية "وعيد المهرجان" في أول الشتاء، ولا شك في أن كل ما ذكرناه أعد لانتشار المجون والخلاعة في "بغداد" "وسامراء"، بل وفي كثير من البلاد الإسلامية، إذ كانت الخمر منتشر إنتشاراً كبيراً ومعها القيان المبتذلات وعمَّ تبعاً لذلك الشعر الصريح بل المفرط في الإباحية وفي التعبير عن الغرائز الجسدية التي تدفع الشباب إلى الجري إلى إشباع غرائزهم تاركاً واجبه نحو الدعوة الإسلامية، والثغرة التي هو عليها ليؤتي الإسلام من ناحيته، فإنا لله وإنا إليه راجعون[2].

ب ـ الجواري والنساء: عن أبي سعيد الخضري رضي اللـه عنه عن النبي صلى اللـه عليه وسلم قال: "إن الدنيا حلوة خضرة وإن اللـه مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"[3]. لقد انتشر الرقيق في المجتمع، فقد كان موجوداً في كل مكان، في القصور والأكواخ والمصانع والمزارع، وكان منهم الزنجي الأفريقي والحبشي والتركي والصقلي ومنهم الصيني، والخرساني والأرمني، والبربري، فكان المجتمع الإسلامي في تلك الفترة يجمع كل الأجناس وقلد المسلمون الشعوب الأخرى فشاركوهم في تجارة الرقيق وخرجوا بها عن حدودها الشرعية، فبنوا لها في كل مدينة كبيرة سوقاً خاصة يقوم على مراقبتها موظف يسمى "قيم الرقيق"[4]. وقد انتشر الخصيان في المجتمع الإسلامي انتشاراً سريعاً مع أن الإسلام حرم الخصاء تحريماً قاطعاً، فكان العبيد يخصون خارج حدود الدولة الإسلامية ثم يجلبون ويباعون في أسواق الرقيق في بغداد، وغيرها من المدن الإسلامية، وكان عدد الجواري والإماء في البيوت والقصور أكثر من الخصيان والرجال الأرقاء، وكان كثير من الرجال يفضلونهن على الحرائر اللواتي كانوا يتزوجون بهن وهم لا يعرفونهن، بخلاف الجواري اللائى كن معروضات لهم في الأسواق وبيوت النخاسين، فكانوا يختارونهن على حسب وقوعهن في نفوسهم ومن أجل ذلك كان يندر تزوجهم بأكثر من واحدة من الحرائر، فقد كفاهم اتخاذ الإماء

---

١ تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني د. شوقي صـ٩٥.

٢ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٧٠.

٣ مختصر صحيح مسلم للحافظ المنزري (٢ ـ ٣١٠).

٤ تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني صـ٧١.

هذا التعدد، فأقبلوا عليه إقبالاً كبيراً متخذين من الخلفاء والأمراء وقدوة لهم، بل كانت أمهات عدد من الخلفاء أمهات أولاد[١]، خاصة التركيات، والروميات، وكن يتدخلن في شئون الحكم[٢]، وكان الناس يغدون ويروحون إلى سوق الرقيق، ودور النخاسين يتفرجون على الوافدات الجديدات من الجواري الحسان وكثيراً ما كانوا يحملون معهم الهدايا للجواري، وللنخاسين، وكان هذا يكلفهم كثيراً من الأموال وكانت الجواري يظهرن حبهن الشديد لهؤلاء الزوار وكلفهن بهم، وحزنهن لفراقهم أو لتأخرهم في الزيارة، وربما زودت الواحدة منهن من تظهر له الحب بخصلة من شعرها أو قطعة من ثيابها[٣]، وكان النخاسون في سبيل الحصول على المال والهدايا ـ يتغافلون عن سفاهة بعض الزوار الذين كانت تمت أيديهم للعبث بأجسادهن خاصة إذا كُن راضيات عن ذلك[٤].

ج ـ **انتشار الغناء والطرب:** وكان للجواري في ذلك الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير في شيوع الخلاعة والانحلال الخلقي بين الشباب، وكثير من الشيوخ، ومُجَّات الشعراء، إذ أصبحت قلوبهم مشغولة باللهو والطرب، والسعي وراء إشباع الغرائز، كما انتشر في العصر العباسي الثاني حب الغلمان والغزل بهم، واتخاذهم بدل الخليلات، وقد انتشرت هذه الموبقات بين قادة الجيش والسلاطين وقد قال أحدهم عن غلامه: ضياع هذا الغلام مني أشد عليَّ من أخذ بغداد من يدي، بل أرض العراق كلها[٥]، وكان أحدهم يقبل"المردان" من غير ريبه او خجل[٦]، وكانت تقام الحفلات والسهرات، للغناء والطرب وكان إذا طرب الملك أو السلطان أعطى عطاء لا يتصور[٧]، وكان للزانيات والفساق بيوت تكاد تكون معروفة للجميع، وتنتشر في بغداد وغيرها من البلاد الإسلامية الكبيرة وكان يردها عدد كبير من الناس يقتلون فيها ثروتهم وأعمارهم غير مبالين بدين ولا هيابين من سلطة ولم لا؟ والناس على

---

١ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٧٣.

٢ المصدر نفسه صـ٧٣.

٣ المصدر نفسه صـ٧٤.

٤ المصدر نفسه صـ٧٤.

٥ البداية والنهاية (٢٩١/١١) العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٧٥.

٦ البداية والنهاية (٢٩١/١١) العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٧٥.

٧ المصدر نفسه صـ٧٥.

دين ملوكهم[1]. ولم يقتصر الفساد على الجواري والغلمان بل تعداه في أوقات كثيرة إلى الحرائر، ولا شك في ذلك فقد قال رسول الله صلى عليه وسلم: "عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم" وكاد زمان آخر الخلفاء العباسيين ينقضي أكثره في سماع الأغاني ومما اشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوي الطرب وفي نفس الوقت وصل رسول "هولاكو" إلى صاحب الموصل نفسه يطلب منه منجنيقات، والآت حصار، فقال بدر الدين: انظروا إلى المطلوبين، وأبكوا على الإسلام وأهله[2].

ولا يعني هذا أن المجتمع الإسلامي كله انقلب إلى مجتمع فاسد بعيد عن الإسلام، فقد كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً وكانت طبقة العامة فيه ـ التي تمثل الأغلبية ـ حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه، وشعائره، ولم تكن تعرف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد في الأخلاق، إنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان، وكانت ساخطة سخطاً شديداً على المجَّان والمنحلين وكان المؤمنون يعمرون مساجد الله، وكان الدعاة إلى الله لا يزالون يُذكّرون الناس بالله واليوم الآخر وانهم معرضون يوم الحساب فإما الجنة والنعيم وإما النار والجحيم ونشأة في تلك الفترة طبقة من الزهاد، عاشوا معيشة كلها شظف وتقشف وتبتل وعبادة، ولا يخلو الفساد في عامة الناس ولكن الطبقة الفاسدة المترفة هي التي كانت تقود الأمة وتمسك بزمامها فقادتها إلى محاربة الفضيلة ونشر الرذيلة، تحقيقاً لرغبات هؤلاء المترفين وإرضاء لشهواتهم ثم سيطرت طبقة (العسكر) على أمور الناس فقادوهم إلى محاربة بعضهم بعضاً وصولاً إلى الحكم، ولتوسيع رقعة الأرض التي تحت أيديهم، فأضعفت هذه التصرفات الغبية الأمة الإسلامية وجعلتها هشة ضعيفة خائرة مثل بيت العنكبوت، فانهارت تحت ضربات أعدائها المتربصين بها من كل جانب[3]، كما سنبين بإذن الله في الصفحات القادمة.

---

١ العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٧٥ نقلا عن البداية والنهاية.

٢ الفخري في الآداب السلطانية صـ٢٩٠ العالم الإسلامي للخالدي صـ٧٦.

٣ العالم الإسلامي والغزو الصليبي صـ٧٦.

المبحث الثاني

ظهور جنكيز خان على مسرح الأحداث

أولا: نشأته وتربيته:

ولد جنكيز خان على نهر "أوتون" سنة ١١٥٥م، وفقاً لروايات كثير من المؤرخين، وهناك من يرى أنه ولد عام ١١٦٧م، وكان أبوه يسوكاي غائباً وقت ولادته، إذ كان يقاتل التتار، وقد صرع زعيم لهم اسمه تيموجين، وعاد يسوكاي مظفراً إلى منزله، فلقى مفاجأة سعيدة بأن زوجته، يولون، أنجبت له ابناً، وحينما فحص الطفل، لحظ بأن بداخل قبضة يده قطعة من الدم المتجمد، كأنها حجر أحمر، فتراءى للزعيم المغولي الذي يؤمن بالأساطير أن هذا الحدث يشير إلى أن ما أحرزه من انتصار على زعيم التتار، ولذا أطلق على ابنه اسم هذا الزعيم تخليداً لانتصاره، ولما بلغ تيموجين التاسعة من عمره صحبه أبوه يسوكاي لزيارة أخواله فالتقى أثناء الرحلة بأحد زعماء المغول القنقراد، فتنبأ لتيموجين بمستقبل باهر، وحرص على أن يزوجه من ابنته، بورتة، التي لم تتجاوز وقت ذاك العاشرة من عمرها، ولم يلبث يسوكاي أن مات أثناء عودته إلى دياره، وترددت الشائعات أن التتار دسوا له السم فمات سنة ١١٧٦م[١].

١ ـ كفاح والدة جنكيز خان:ساءت أحوال أرملة يسوكاي وأطفاله بعد وفاته، فالمعروف أن يسوكاي استطاع أواخر أيامه أن يجمع تحت سلطانه عدداً من القبائل الموالية، فضلاً عن قبيلة قيات التي يتولى زعامتها، ولم تلبث أحقاد خصومه بسبب ما أحرزه من انتصارات إن انطلقت بعد وفاته، وكان من أشد القبائل عداوة وضراوة قبيلة التايجيوت، التي أنكرت على تيموجين الزعامة، ولما احتج عليهم، أجاب العصاة المتمردون أن أشد الآبار عمقاً قد يصيبها الجفاف، وأن الحجارة صلابة وقد تنكسر، فلماذا نتعلق بك، كان لزاماً على زوجة يسوكاي أن تبذل كل ما تستطيع من جهد لتحصل على الزاد الضروري لأفراد أسرتها، فصارت تلتقط لهم الثمار، وما ينبت بالأرض من ثمار، ولم يطرق اليأس إلى قلوب أفراد هذه الأسرة، وأكبرهم لازال

١ المغول للعريني صـ٤٤.

حدثاً صغير السن، ومع ذلك فإن هذه الجماعة احتفظت، بما اشتهرت به قبيلتهم من الحماس والنشاط والصبر على تحمل المتاعب، فأخذ الصبيان يصيدون من نهر أنون ما يلزم لاعاشتهم، وحرصت يولون على أن تتوطد المودة بين أفراد الأسرة، فلما وقع الخصام بين أبناء يسوكاي الأشقاء وغير الأشقاء وأسفر هذا الشقاق عن مصرع بكتار، ابن يسوكاي من زوجة أخرى انفجرت يولون في وجه ولديها تيموجين وقسار، اللذين تسببا في هذا الحادث وقالت لهما: أيها القتلة، فحينما ولدت يا تيموجين كنت تقبض على قطعة دمٍ متجمدة، لستم إلا نمرة تنقض على فريستها ولستم إلا كالأسُد الغاضبة، ولستم إلا كالبزاة تحلق في الجوزاء فوق ظلالها، وكالأبل تقضم في أثناء غضبها أبنائها، وكالذئاب التي تنقض على فريستها في غمرة العاصفة، فليس لدينا، فيما عدا ظلالنا، رفاق، وما تعرضنا له من الشرور على أيدي التايجوت، بلغ من العنف ما لا نستطيع تحمله، فلا بد من الانتقام منهم، وتعرض تيموجين وأخوته وأمه لغارات التايجوت، الذين حرصوا على إذلالهم، فلم يسع تيموجين وأسرته إلا أن ينتقلوا بمعسكرهم إلى جبال بروقان كالدون،، إلى جبل كنتاي، الذي كان له من القداسة عندهم، ما حمل تيموجين على الاعتقاد بأنه هو الذي حماه وعصمه من الأعداء[1]، ولم يتخل البؤس عن تيموجين وأخوته، فكل ما كانوا يملكون لم يتجاوز تسع أفراس، وقع منها ثمانٍ في أيدي المغيرين دفعة واحدة[2].

٢ ـ تيموجين يطارد اللصوص: أصر تيموجين على أن يطارد اللصوص، حتى التقى بعد أربعة أيام بغلام تبدو عليه سمات النبل، اسمه بورتشو، أحس بالميل والعاطفة نحو تيموجين، فاشترك معه في البحث عن الأفراس، حتى عثرا عليها فساقاها بعد أن أظهرت براعة تيموجين في مراماة أعدائه وإجبارهم على أن يتخلوا عن اللحاق به، وكان من أثر هذه المغامرة أن توطدت الصلة بين تيموجين وبورتشو، وكانت بداية طيبة لأمجاد بورتشو المقبلة ونستطيع أن نستخلص من هذه الأفعال ما كان لتيموجين من الطباع والصفات، فما يبهرنا فعلاً، ما كان له من شخصية بلغت من القوة أنها فرضت نفسها على كل من تلتقي به، فمنذ هذه اللحظة انجذب إليه

١ المغول للعريني صـ٤٥.

٢ المصدر نفسه صـ٤٦.

بورتشو، وربط مصيره بمصير تيموجين، وسوف نلحظ ما يشبه ذلك، حينما إنحازت إلى تيموجين القبائل الواحدة بعد الأخرى، وقد جذبتها مواهبه في القيادة وإحساسه بالعدالة وإخلاصه لأصداقه واعترافه بما يؤدي له من خدمات، أضحت محبته لأصدقائه الأوئل مضرب الأمثال، ومن طباع سكان الخيام، المحبة الشديدة للأصدقاء التي لا يضارعها إلا الكراهية البالغة للخصوم[1]. ومن الدروس والعبر:

إن الزعماء يمرون بظروف قاسية تظهر حقيقة معدنهم ويتعلمون من أحداث الزمان ويتربون على تحمل المشاق، ومن أهم صفات قادة الأمم والشعوب والدول، الشجاعة والإقدام وأجادت المهارات اللازمة، مع شخصية كارزمية متفوقة على من حولها، مع الترفع عن المصالح الذاتية من أجل الصالح العام، ولا يخلو الزعيم من أخلاق يأسر بها الأتباع مع طموح كبير وإصرار لتحقيق الهدف.

٣ ـ زواج تيموجين وبذله يمين الولاء لزعيم الكرايت: أنجز تيموجين من الأعمال، ما جعله يفكر بعدها في الزواج، ولا سيما أن أباه عقد له خطبة على بورتة ابنة زعيم القنقرات النازلين على نهر كيرولين، وزاد في فرح صهره وسروره ما أصبح عليه تيموجين من متانة البناء والقوة، ولم يلبث أن انتقل تيموجين وزوجته وسائر أفراد أسرته إلى منبع نهر كيرولين، وارتفع شأن تيموجين، بعد أن نجا من مؤامرات التايجوت وأضحى الرجل القوي أن تنشده سائر القبائل، فصار في مقدوره أن يشترك في الأحوال السياسية، بأن يكون من البارزين من رجال المغول الذين يتنازعون السيطرة على شرق منغوليا وما اشتهر به تيموجين من روح عملية، أثارت فيه الميل إلى السلطان، وحملته على أن يفكر في الإفادة من مركز قوي، بأن يعقد معاهدات واتفاقيات خارج قبيلته، وإذ أسهم أبوه يسوكاي في توطيد مركز زعيم الكرايت، حتى صار من أقوى ملوك الاستبس، حرص تيموجين على أن يسير على نهج أبيه، فتوجه إلى حيث ينزل طغرل على نهر تولا، وبذل له يمين الولاء بأن يكون من أتباعه وخاطبه:سبق أن توطدت أواصر المحبة بينك وبين أبي، فأنت الآن في مقام أبي وارتاح طغرل لهذه التبعية، ووعد بأن يساعده بأن يجتمع تحت زعامة تيموجين من جديد،

---

١ المغول للعريني صـ٤٦.

سائر رجال العشيرة الذين هجروا منزله أثناء حداثة سنه والواقع أن أحوال تيموجين أخذت تستقر، وذاع أمره، وسعى الناس من القابئل المختلفة لكسب صداقته، فصار جيلمي، الذي تقدم به أبوه لأن يكون خادماً له، من أخلص الرفاق، شأنه في ذلك شأن بورتشو، وبفضل نصائح طغرل ملك الكرايت، والذي دان له تيموجين بالتبعية، إنحاز إليه زعيم مغولي آخر، اسمه جاموكا، رئيس قبيلة جاجيرات، فقام بهما من المحبة والود ما جعل منهما أخوين، غير أن النزاع لم يلبث أن دب بينهما، فانفرط عقد التحالف، وانحاز إلي كل منهما جماعة من الموالين له، وإذ جرى التنبؤ بأن زعامة القوم سوف تؤول إلى تيموجين، ازداد انحياز القبائل والعشائر إلى جانبه، ومن الذين انحازوا إليه، أربعة أمراء من المغول يجري في عروقهم الدم الملكي بعد أن انفصلوا عن جاموكا[1].

ثانيا : اختيار تيموجين خانا على المغول:

اجتمع الأمراء الأربعة وتشاوروا بينهم، واستقر أمرهم باعتبارهم يمثلون أقدم الأسرات الملكية، وأعرقهم نسباً، على أن يختاروا تيموجين خانا على المغول، والمعروف أن تيموجين ينتمي إلى هذه الأسرة، غير أنه لم يكن له من الحقوق في ولاية الحكم، ما يفوق حقوق التاي الذي كان ابن قوتولا، آخر حاقان للمغول. ومع ذلك فإن ما كان من ولاء وإخلاص بين تيموجين وبين هؤلاء الأمراء تمثل فيما جرت به الرواية من أنهم خاطبوه: لقد قررنا بأن ننادي بك خانا، وسوف نكون في المقدمة عند خوض المعارك ضد عدد لا حصر له من الأعداء، فما نسبيه من النساء الجميلات، والفتيات الحسناوات، وما يقع في أيدينا في الجياد الأصيلة، سوف نبذله لك، وما نحصل عليه من الصيد، سوف نجعله لك فإذا حدث أن عصينا أوامرك أثناء الحرب أو برمنا بك أثناء السلم، فلتفرق بيننا وبين زوجاتنا وتنتزع منا متاعنا، ولتهجرنا ولتجعلنا منبوذين، وقد التزموا هذا القرار، واختاروا تيموجين خانا وأطلقوا عليه اسم جنكيز خان، والواقع إن ما حدث من اختيار جنكيز خان ليتولى الحكم، وهو الانتخاب الذي اشترك فيه التان ابن قوتولة، والأمراء الذين يمثلون الأسر الملكية

---

١ المصدر نفسه صـ٤٦.

السابقة ولم يكن غرض منه سوى وقف ما حدث من تشتت العشائر، والقبائل المغولية وإعادة السيادة إلى أسرة قيات، وترقب الفرصة المواتية للانتقام من التتار ، فاختار أقاربه وبنو عمومته، لما لمسوه فيه من أنه زعيم في الحرب والصيد، وما اشتهر به الخان الجديد من العبقرية في التنظيم والشدة في التزام النظام يعتبر من أهم صفاته[1]، وكانت الأخلاق القيادية بارزة في جنكيز خان، كالمكر، والدهاء وسعة الحيلة، والكرم والوفاء لأصدقائه المخلصين، وممارسة الشورى مع من حوله من القادة المعاونين.

١ ـ حروب جنكيز خان وبداية توحيد القبائل تحت زعامته:

حرص جنكيز خان على أن يوزع بين أنصاره الموالين له الوظائف الأساسية الحربية والمدنية، فجعل من أقرب الناس إليه، وأشهرهم في الرماية حرساً خاصاً له، وخص آخرين بأمر توفير المؤن والسقاية وإعداد العربات، والتماس المراعي، والإشراف على الخدام، ورياضة الخيل، ونقل الأوامر الملكية والمحافظة على النظام عند انعقاد مجلس أعيان القبيلة (قوريلتاي) ولم ينس أمور بورتشو وجيلمي، فمن المأثور عن جنكيز خان أنه قال: إنني لا أنسى أنكما كنتما رفيقي حينما لم يكن لي رفاق، ولذا جعلت لكما الرياسة على جميع هؤلاء، ثم وجه الخطاب إلى رعاياه، إنكم جميعاً تخليتم عن جاموكا، وحرصتم على الانحياز إلى جانبي، فأنتم جميعاً يا أصدقائي القدامي، خير رفاق لي في المستقبل[2]، وقام جنيكز خان بإرسال الرسل إلى رؤساء القبائل القوية المجاورة، يخبرهم بأنه قد نُصَّب أميراً على القبائل التي قبلت به وكان أول من راسلهم طوغرل[3] خان صديق والده بالأُخُوة و((جاموكا)) صديقه بالأخوة كان جواب الأول الموافقة والتأييد، وجواب الثاني الاستهزاء والغضب، حسداً لجنكيز خان وغيرة منه بعد أن أصبح جنكيز خان أميراً، وزادت قوته، أخذ خصومه ينصبون له العداء حسداً له، فلم ينتقل "جنكيز خان" إلا بأسلوب القتال، فعندما ينتقل بعشيرته من مراعيها الصيفية إلى مراعيها الشتوية يتخذ تشكيل القتال، فيقسم قوته إلى

---

١ المغول للعيربي صـ٤٩.

٢ المغول للعريني صـ٣٩.

٣ كان من عادة أشراف المغول أن ينتخب أحدهم صديقاً له يؤاخيه وكانوا يطلقون على هذا الأخ اسن ((آندا)) ومعنى هذه الأخوة أن يصبح الاثنان كشخص واحد ويضحي أحدهما بحياته في سبيل الآخر.

أقسام أربعة: المقدمة، المجنبة، والمؤخرة، وفي وسطهم تسير الماشية وعربات العائلات[1].

أ ـ معركة العجلات: في إحدى المرات، وبعد مسيرة طويلة بالطريقة الآنفة الذكر، أخبرت الكشافة التي أمام المقدمة بوجود غبار كثيف في الأفق ينحدر بسرعة وإذا بقبيلة "تيدجون" المؤلفة من ثلاثون ألف يقودهم "تارجو تاي" قرر "جنكيز خان" القتال فوراً وكانت قوات "جنكيز خان" المحاربة تتألف من الخيالة فقط، وهي على نوعين:

١. الخيالة الثقيلة: يرتدي رجالها الدروع الحديدية والخوذ الفولاذية وخيولهم مكسية بوشاح من الجلد المدبوغ السميك، وكان سلاحهم الرماح وترساً صغيرة، يتقون بها ضربات الأعداء.

٢. الخيالة الخفيفة: يكسو رجالها وخيولها دروع من الجلد المدبوغ فقط، وكانت خيول هذا الصنف من الضامرات خيول السباق، وكان سلاحهم القسي والنبال، وكان تسليح العدو وتجهيزاته شبيهة بما لدى جنكيز خان.

قسم جنكيز خان رجاله إلى سرايا، وكل سرية من ألف محارب، منظمين بعشرة صفوف، في كل صف مائة محارب، أما (تارجو تاي) فقد تقدم بسراياه وكل سرية تتألف من خمسمائة محارب منظمين بخمسة صفوف، في كل صف مائة محارب، وكان الصفان الأولان من الخيالة الثقيلة، والصفوف الثلاثة الأخيرة من الخيالة الخفيفة[2].

أسند "جنكيز خان" جناحه الأيمن إلى غابة كثيفة كانت في ميدان القتال، وجمع جميع العجلات التي تركبها نساؤهم وتحمل أمتعتهم، وشكل منهم مربعاً كبيراً، أسند إليه في جناحه الأيسر ووضع النساء والأطفال في العجلات، تاركاً أمر حراستهم لصبيان القبيلة، بعد أن سلحهم بالقسي والنبال، ووضع الخيالة الخفيفة في الأمام، عكس عدوه وجعل الخيالة الثقيلة في الخلف[3].

---

١ الغزو المغولي لديار الإسلام، الفريق ركن د. محمد فنحي أمين صـ٣٩.

٢ الغزو المغولي لديار الإسلام صـ٤٠.

٣ المصدر نفسه صـ٤١.

هجمت خيالة "تارجو تاي" الثقيلة على خيالة "جنكيز خان" الخفيفة فاستقبلتها هذه برشقات هائلة من سهامها، وأوقعت فيها الهلاك والدمار ولم تنجح هذه الخيالة في اختراق صفوف "جنكيز خان" لأن عمقها كان عشرة صفوف، ففشل هجومها وحاولت الخيالة الخفيفة إصلاح هذا الفشل، فتغلغلت بين صفوف الخيالة الثقيلة المعادية المتقدمة المكدسة أشلاؤها على الأرض، عندئذ أطلق "جنكيز خان" خيالته الثقيلة لمقابلتها، ففعل الرمح والسهم فعله في هذه الصفوف وكانت هزيمة الأعداء، لقد سميت هذه المعركة بمعركة العجلات[١]. وكانت هذه المعركة قاسية، دامت طيلة النهار، حتى حلول الظلام، انتصر فيها "جنكيز خان" وكان هذا الانتصار الأول له، وأصاب عدوه (٥ ـ ٦) ألف قتيل، واقتيد إليه (٧٠) رئيساً بسلاسل سيوفهم، وألقوا عند قدميه، وسيوفهم وكنانهم معلقة في رقابهم، ويذكر أن "جنكيز خان" أمر بقتل هؤلاء الـ٧٠ قتلة غريبة، وذلك بغليهم في القدور أحياء[٢]. فافتتح بذلك إثارة الخوف والرعب في نفوس الخصوم، وصار ذلك من لوازم حكومته وترتب على هذا الصدام إن انصاع لأوامر جنكيز خان القبائل التي تحالفت عليه[٣].

ب ـ **صراع التحالفات:** اقتضت مصلحة "جنكيز خان" أن يتحالف مع طوغرل خان وذلك للقضاء على التتار أعداء الاثنين، فنجح الاثنان في حربهما مع التتار وقضيا عليهم ولا سيما قبيلة المركيت، وجانب من قبائل النايمان والمعروف أن النايمان أضعفهم ما وقع من نزاع بين ملكهم "تايانك خان" وأخيه "بويوروف" الذي تعرض لهجوم جنكيز خان وطغرل وساعد على ذلك ما وقع من أحداث في منغوليا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، أثارتها سياسة الحكومة الصينية فضلاً عن عوامل محلية، إذ انتهجت أسرة كين في الصين الشمالية، السياسة التي درجت عليها أسرات صينية عديدة وهي سياسة الإيقاع بين القبائل، وبين الزعماء وحرص ملك الصين الشمالية على أن يتخذ من الكرايت والمغول حلفاء له، وفي سنة ١١٩٤م تقرر مصير الحرب لصالح الحلفاء، وعلى سبيل المكافأة حظي ملك

---

١ سميت بذلك لأن جنكيز خان استخدم العجلات لحماية جناحه الأيسر المكشوف.
٢ المصدر نفسه صـ٤١.
٣ المغول للعريني صـ٥٠.

الكرايت بلقب "وانج"، وظفر ابنه بترقية في سلك الجيش، بأن صار "سنجون"، وحاز جنكيز خان أيضاً لقباً من ألقاب التشريف، غير أنه لم يضارع في الرفعة الألقاب الأخرى، على أن القبائل التي أحست بالتهديد من جانب جنكيز خان، ألفت حلفاً، دخل فيه، قبائل جاسيرات والمركيت والتايجيون والقنقرات والتتار، ومن ملوكهم "توكتا" ملك المركيت وجاموكا ملك الجاسيرات، واتفق هؤلاء الحلفاء على أن يختاروا جاموكا كروخان إمبراطور على القبائل التركية المغولية وذلك سنة ١٢٠١م، ولم يلبث الجيش الذي حشده جاموكا أن انهزم وتبدد سنة ١٢٠١ ـ ١٢٠٢م، غير أن جاموكا نجح فيما بعد في اكتساب ثقة سنجون ووالده طوغرل خان، وفي تحولهما عن حليفهما السابق جنكيز خان[١].

جـ ـ حرب جنكيز خان مع ملك كرايت: في سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م كان المسيطر على قبائل الترك المشارقة (وانج خان) من قبيلة كرايت أو كريت أو القاريات التي تدين بالنصرانية، وكان جنكيز خان من غير قبيلته، ولكنه مؤيد له وملازم له منذ الطفولة، لم يرق انتصار جنكيز خان في عيون رؤساء قبائل الكرايت حلفائه فأضمروا له الشر سراً ووشوا عنه إلى وانج خان حتى اتهمه الأخير بالخيانة، وهم باعتقاله، وأرادوا قتله بزعامة "توكتابك بن طوغرل بك"، و(جاموكا) عدو جنكيز خان اللدود وفي مساء أحد الأيام، بينما كان جنكيز خان مع ستة ألف من محاربيهم تصحبهم العائلات معسكراً في أحد المناطق، أخبرته دورياته بأن قبائل الكرايت تتجمع، وتتقرب من معسكرهم دلالة على عزمهم الهجوم ليلاً على المعسكر، وقرر جنكيز خان التملص من عدوه لأنه ضعيف تجاه خصمه من ناحيتي القوة والسرعة، لأن العائلات برفقته، تركب العجلات التي تسحبها الثيران، والعجلات التي تجرها الجمال، في هذا الوقت، انضم إلى جنكيز خان غلامان من خدم وانج خان، فأعلماه بالقضية وأن وانج خان يريد القبض عليه[٢].

وضع جنكيز خان خُطَّته وطلب من قادته تنفيذها حرفياً بكلِّ دقة وهُدُوء وانتظام وكانت خطته:

١ المغول للعريني صـ٥١.

٢ الغزو المغولي لديار الإسلام صـ٤٢.

أ ـ سحب الماشية والعائلات على أن تركب عجلات الجرِّ الخفيفة التي تجرُّها الجمال، وتسير إلى موضع مستور إلى خلف منطقه المعسكر بـ ١٢ كم.

ب ـ ترك الخيام منصوبة، والنار مضرمة فيها، والعجلات بثيرانها، كما لو كان المعسكر آهلا.

ج ـ قيام "جنكيز خان" وجماعة بستر انسحاب الماشية والعائلات في صباح اليوم التَّالي، انحدرت قبائل الكرايت إلى معسكر جنكيز خان ولما رأوا المعسكر خالياً وأدواته فيه، اعتقدوا بأن جنكيز خان قد فرَّ برجاله وعائلاته خوفاً وفزعاً، ما جعلهم يتباطئون في تعقبهم، كان جنكيز خان مُتخفياً مع رجاله وراء أرض مرتفعه، يفصلها عن أعدائه، نهر صغير، تاركاً أمر مراقبة الجبهة للخفراء، ولمَّا تقدَّمت خيَّالة"الكرايت" الخفيفة منها تسبق الثقيلة، انقض"جنكيز خان" وجماعته فجأة ـ عليهم وقتلوا جميع مقدِّمة العدوِّ، وأبادوهم دون أن يكون للقسم الأكبر علم بذلك. وبعد مدة ظهر وانج خان وقادته يقودون القسم الأكبر من قوَّاته وهكذا فقد دنت ساعة المعركة الحاسمة فوضع جنكيز خان خطَّته كالآتي:

أ ـ الهجوم عل أعدائه قبل مهاجمتهم له.

ب ـ عدم القيام بهجوم جبهوي، لأنَّ أعداءه أقوى منه.

ج ـ الإستفادة من الأرض جهد الإمكان، لتلافي نقض العدد في هذه الأثناء، هجمت خيَّالة العدوِّ وأربكت"جنكيز خان" حيث استدعى أشجع قادته، وحامل لواء القبيلة(جلدار)، وكلفَّة بإحاطة جناح العدوِّ الأيسر واحتلال تلِّ"جويتا" الكائن خلف هذا الجناح، ونجح جلدار بحركته، مما أجبر قوَّة الكرايت على الانسحاب قليلاً، بينما كانوا في أوج هجومهم واستمر القتال حتى حلول الظلام، حيث قام جنكيز خان بهجوم عنيف ستر به انسحاب جلدار وتحت جنح الظلام وانسحب"جنكيز خان" برجاله شرقاً، لعلمه بأنه لا يستطيع منازلة أعدائه صباح اليوم التَّالي وهو بقوته هذه وبعد انسحاب جنكيز خان انقسمت جُوبي إلى معسكرين متنافسين:

أ ـ معسكر"وانج خان" ومن انضمّ إليه بعد انتصاره على جنكيز خان.

ب ـ معسكر جنكيز خان ومن توافد إليه لإسناده وقرّر جنكيز خان إبادة خصمه، فجهَّز حملة قوية، وتقدَّم نحو معسكر وانج خان دون سابق إنذار، ولكي يتأكد من عدوِّه استخدم" الرّتل الخامس" فأرسل أحد قادته المشهورين بصفة لاجئ، حاملاً معه أحد أعلام" جنكيز خان" لكي يتظاهر بأنه جاء لاجئاً، هَرَبا من سوء معاملة جنكيز خان له ولما وصل هذا الرسول إلى معسكر وانج خان لم يقتنع الأخير بادِّعاء الرّسول، فأراد التأكد من صحة المعلومات فأرسل معه عدداً من رجال خيالته لاستطلاع المنطقة من على قمم مشرفة بالقرب من معسكر وانج خان وعلى تل مشرف بجواره، أراد رسول جنكيز خان أن يعطي إشارة لسيده تدله على معسكر الأعداء ولما لم يتمكن من ذلك، ابتكر حيلة وطبقها بسرعة وهي ركز علم جنكيز خان الذي استصحبه معه على قمة التل، ثم ترجل عن جواده، ماسكاً حافر حصانه بيده، ولما سئل عما يفعل، أجاب: أنه وجد حجراً في حافر حصانه، وقبل أن ينتهي هذا الرسول من رفع الحجر الموهوم من حافر حصانه كانت مقدمة جنكيز خان قد أطبقت على رجال وانج خان وأسرتهم، ولم يعد رسل وانج خان[1] بنتيجة استطلاعه، بل جاءت خيول جنكيز خان على حين غرة، فأعملت السيوف في رقاب رجاله[2].

جرح وانج خان وابنه توكتا بك، وفرا هاربين، ونهبت العشيرة وسبي النساء ووقع جاموكا بيد جنكيز خان، فأمر بخنقه بخيوط من الحرير[3]، وقطعت أوصاله وأعضاء جسمه[4]، كما قتل وانج خان وابنه بعد فرارهما من قبل أتباعهما وأرسل رأس الأب بصفيحة من فضة هدية إلى جنكيز خان[5]، وبذلك انقرضت قبيلة القاربات، وأخذت القبائل الضعيفة منها والقوية على اختلاف أديانها تعرض الطاعة والإخلاص لسيد آسيا الجديد، جالبة معها كل ما لديها من آثار المدينة وخلاصة العلوم، وبعد هذا أنعم جنكيز خان على الغلامين اللذين أعلماه بهجوم وانج خان

---

١ الغزو المغولي لديار الإسلام صـ٤٥.
٢ الغزو المغولي لديار الإسلام صـ٤٥
٣ المغول للعريني صـ٥٢.
٤ الغزو المغولي لديار الإسلام صـ٤٥.
٥ المصدر نفسه صـ٤٥.

وذريتهم، فجعلهم (ترخانية) ـ أي أحرار ـ لا يكلفون بشيء من الحقوق السلطانية، وما يغنمونه من الغزوات تكون لهم بالكامل، ولا يأخذ منهما أي شيء للملك، كما أعطاهم الحق لدخولهم إلى الملوك بدون إذن، وعدم معاقبتهم على إي ذنب إلى تسعة ذنوب[1].

ومن الذين وقعوا في أسر جنكيز خان تاتأنجو، وهو من الأويغوريين وكان يعمل كاتباً لملك النايمان، فأدخله جنكيز خان في خدمته، وقرر استخدام الأويغورية، وتولى هذا الرجل تعليم هذه اللغة وكتابتها لأبناء جنكيز خان وأبناء الطبقة الراقية من المغول، وكان لهم نفوذا قوي على أكوتاي بن جنكيز خان وخليفته في الحكم[2].

ثالثاً: مملكتا، النيمان وخضوعهما تحت سيطرة جنكيز خان.

كان النيمانيون يمثلون إحدى القوى الكبرى التي جابهت المغول في ظهوره وبروزهم كقوة عالمية ذات إمبراطورية شملت معظم أراضي قارة آسيا وأجزاء كبيرة من أوربا، والنيمان يرجعون في أصلهم إلى العنصر التركي، وقد كانت أراضي (النيمان) قديماً تعد ضمن الحدود التقريبية التالية، حيث يحدها من الشمال أراضي قبائل (القرقيز)، كما تحدها من الجنوب ممتلكات قبائل (الاويغوريين)، أما حدودها من الشرق ملاصقة لأراضي قبائل (كرايت) و(المركيت)، أما من الناحية الغربية، فيحدها (القراخطائيون)، وكان ملوكهم أو خاناتهم يسمون (كوتشلوك خان)، وهي كلمة تعني العظيم، الجبار، القوي. الخ، كما يخبرنا بذلك رشيد الدين، وأما طريقة حياتهم ونظام مجتمعهم، وعاداتهم وتقاليدهم فقد كانت شبيهة من المجتمعات المجاورة لها، كالمغول وغيرهم من القبائل البدوية الرعوية الأخرى[3].

وقد كانت دولة (النيمان) من أكبر الدول في وسط آسيا وذا سلطان واسع ويحكمها ملك واحد، إلا أنه في الوقت الذي ظهر فيه جنكيز خان، على رأس قبائل المغول، نجد أن المملكة النيمانية مقسمة إلى قسمين، شرقي وغربي، ويحكمها أخوين كل واحد مستقل عن الثاني، فكان (بويرون خان) يحكم مملكتهم الغربية،

---

١ المصدر نفسه صـ٤٥.

٢ المغول للعريني صـ٥٣.

٣ سقوط الدولة العباسية للقحطاني صـ٧٣.

و(بيبوقاتايانك) يحكم المملكة الشرقية، ونظراً لمتاخمة الحدود الشرقية لمملكة (النيمان) الشرقي لحدود (كرايت) و(المركيت)، فقد كان من نتائج كارثة معركة (وركو) وقتل (أونك خان) أن أصبحت الأراضي (النيمانية) مفتوحة على مصراعيها أمام اللاجئين من قبيلة كرايت الهاربة من سيف جنكيز خان، فنتج عن ذلك تجدد الصراع بين جنكيز خات من ناحية وملكي (النيمان) الأخوين من ناحية أخرى، فقد انتهى ذلك الصراع الدامي المرير بزوال الدولتين (النيمانيتين) والقضاء بصورة نهائية على استقلالهما كقوتين مستقلتين في وسط قارة آسيا، فقد قتل الأخوين على التوالي، وامتصت إمبراطورية جنكيز خان الشابة الناهضة المملكتين والتهمت أراضيهما لتصبح جزء لا يتجزأ من أراضي دولة المغول.

وفي عام ٦٠٢هـ لشهر رجب، سنة ١٢٠٦م فبراير ـ مارس، عقد جنكيز خان مجلساً عاماً، واجتماعاً عمومياً، حيث تم تنصيبه كخان أعظم على جميع ساكني الخيام في منغوليا وما جاورها في البلدان وفي هذا الاجتماع، أعلن جنكيز خان عن خطة جديدة لفتوحاته وقرر الخروج خارج نطاق منغوليا، ونشر في هذا الاجتماع قوانينه المشهورة في التاريخ، المعروفة بالياسا[١].

رابعاً: بناء الإمبراطورية المغولية:

لم تقتصر جهود جنكيز خان على توحيد القبائل المغولية، بل كانت خطوة التوحيد نقطة انطلاق لبناء إمبراطورية تشمل معظم أنحاء العالم المعروف آنذاك، فكان عليه لتحقيق مشروعه الطموح، أن يتحرك في جميع الاتجاهات، وأن يواجهه خصوصاً متعددي الجنسيات والثقافات وتحرك جنكيز خان لتحقيق أهدافه وفق سير العمليات العسكرية المركزة والشديدة التعقيد، وذلك حسب ما يلي:

١ـ الجبهة الصينية:

ـ العمليات العسكرية ضد بلاد الصين الشمالية:

١ المصدر نفسه صـ٧٦.

أ ـ مملكة التانغوت:

هاجم جنكيز خان أولاً مملكة التانغوت، أو مملكة سي ـ هيا، في التبت وهي اضعف الممالك الثلاث التي تقاسمت النفوذ في الصين، فبإستيلائه على هذه المملكة يستطيع ان يتحكم بطريق الصين إلى تركستان ويحاصر من جهة الغرب مملكة كين، العدو التقليدي للمغول.

قام جنكيز خان بثلاث غزوات ضد مملكة التانغوت في السنوات ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م، ٦٠٤هـ/١٢٠٧م، ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م فاكتسح جميع أراضيها ولكنه لم يفلح في دخول عاصمتها ننج ـ هسيا التي حاصرها طويلاً، ولم يفك عنها الحصار إلا بعد أن وافق عاهلها على القبول بالسيادة المغولية على أراضيه عام ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م، ودفع الجزية لجنكيز خان[١]، وبذلك أصبح جنكيز خان سيد مملكة التانغوت، أي إقليم كانسو الصيني الحالي، وسهوب أوردوس وألدشان التي كانت تعتبر منطقة حدودية مع الصين، فكان على القائد المغولي، إذا ما أراد أن يتخذ لنفسه موطئ قدم في أراضي الصين أن يهاجم مملكة كين التي كانت تتبع لها بعض طوائف الترك والمغول[٢].

ب ـ مملكة كين"مملكة الذهب":

واجهت جنكيز خان، في هجومه على مملكة كين القوية، صعوبات لم يصادفها خلال غزوه لمملكة التانغوت، وتتمثل تلك الصعوبات بالتحصينات المنيعة، وحروب الحصار التي لم يكن جيشه قد اعتاد عليها بعد، إضافة إلى وجود سور الصين العظيم، وحصونه الممتدة من الشرق إلى الغرب، مما شكل خط دفاع مستمر لحماية مملكة الذهب، وتوجهت أنظار جنكيز خان أولاً إلى التحالف مع قبائل الأنغوت المقيمة شمال سور الصين في منغوليا الداخلية حالياً،ونجح في إقامة حلف مع ملكها، بعد أن وافق على تزويج إحدى بناته للملك الأونغوتي الذي كان يعتبر، نظراً لموقع مملكته الإستراتيجي، والمعاهدات المعقودة بينه وبين ملك كين حارساً للحدود الصينية،

---

١ جنكيز خان قاهر العالم صـ ٢٣٨، حروب المغول د. حطيط صـ ٢١.

٢ حروب المغول د. حطيط صـ ٢١.

ومراقباً أميناً فيما وراء السور العظيم ولهذا، فعندما حالف جنكيز خان مملكة الأنغوت، بدا وكأنه فكك وسائل دفاع مملكة كين، دون أدنى جهد ممكن، وأوصل حدود إمبراطوريته إلى الخطوط الأمامية من مواقع الخصوم[1].وكان جنكيز خان لديه بدائل متعددة لتحقيق أهدافه، فإذا عجز عن تحقيقها بالقوة فالحل بالسياسة والحيلة والرأي. وفي عام ٦٠٧هـ / ١٢١١م، جمع جنكيز خان جيشاً عظيماً في منغوليا الشرقية، على ضفاف نهر كيرولين استعداداً للهجوم على بكين، وبطبيعة الحال لم يجد جنكيز خان صعوبات تذكر في اختراق دفاعات الأتراك والأنغوت المتحالفة معه (كما أسلفنا)، ووصل جيشه إلى شمال الصين، وخرب البلاد التي اجتاحها، من دون أن ينجح في الاستيلاء على مدنها الرئيسية، فقد كان ينقصه المهارات الهندسية لذلك، كما وقف جيشه طويلاً وهو ينتظر أمام قلاع سور الصين ومضى عاما ٦٠٨هـ / ٦٠٩هـ / ١٢١١م /١٢١٢م، ولم يستول جنكيز خان سوى على مراكز قليلة الأهمية، لكون تلك البلاد صعبة التضاريس، وتتخللها سلاسل جبلية متداخلة، ويمر سور الصين خلالها، من خليج بتشيلي إلى النهر الأصفر، ثم إلى الشمال من بكين وتاتونج، عند شمال شان سي، فاكتفى القائد المغولي بإحراز بعض الانتصارات غير الحاسمة، كما حصل عام ٦٠٧هـ / شباط ـ آذار ١٢١٣م في معركة جبل يي ـ هو الواقع بين بكين وكالجان وتحين جنكيز خان الفرصة السانحة، في ربيع الأول ٦٠٨هـ / ١٢١٢م عندما ثار أحد أمراء الخطاي[2]الخاضعين لسيادة كين، وأعلن تأييده للفاتح المغولي، فأسرع الأخير إلى دعم الأمير الثائر وأرسل أحد أعوانه القائد "جيبي" إلى إقليم لياو ـ يانج جنوب منشوريا، لكن القوة المغولية انهزمت أمام أسوار مدينة لياو ـ يانج، فتراجع جيبي إلى منطقة مجاورة ليعيد تنظيم قواته، ثم باغت المدينة واحتلها وأعلن يي ـ لو ـ ليو ملكاً على شعب الخطاي تحت السيادة المغولية[3]. وفي عام ٦١٠هـ/١١٢٣م، توجه جنكيز خان إلى الصين للمرة الثانية وكان هدفه السيطرة على طريق كالجان ـ بكين الإستراتيجي، فاستولى على هسوان ـ هوا، وهي أول مدينة

---

١ جنكيز خان قاهر العالم صـ ٢٤٠، حروب المغول صـ ٢٤٠.

٢ الخطاي: قبيلة من أصل مغولي، سيطرت على بكين مدة قرنين من الزمن قبل أن تخضع لملوك باكين، وقد تحينت هذه القبائل فرصة قدوم أنسابهم المغول للانتقام من ملوك كين.

٣ حروب المغول د. أحمد حطيط صـ ٣٦.

حصينة على هذا الطريق وسقطت بيده، تباعاً، باور ـ آن، وهواي ـ لاي، ثم اجتاز ممر تشو ـ يونج ـ كوان"نان ـ كو" المظلم، جنوب غربي هواي ـ لاي، الذي تتحكم فيه حصون منيعة تسيطر على المنطقة التي ينحدر منها السور العظيم نحو بكين، ثم وصل جنكيز خان إلى مدخل سهل شرقي الصين الكبير الممتد من بكين إلى نان ـ كنج، فسيطر بذلك على الطريق المؤدية إلى الأراضي الصينية وفي المنطقة الشمالية الشرقية استولى على قلعة كويبي ـ كو التي تتحكم بالممر الرئيسي ما بين جيهول "شانغ ـ تي" وبكين في الشمال الغربي للبلاد، استولت قواته على تا ـ تونغ المعقل الهام الذي يقع بين خطي سور الصين، ويسيطر عل إقليم شان ـ سي انتهز جنكيز خان حالة الفوضى الناتجة عن قيام أحد الأمراء بقتل ملك الذهب وي ـ شاو، في ربيع الآخر ٦١٠هـ/آب/أيلول ١٢١٣م، وقام بهجوم واسع على وسط مملكة كين من ثلاثة محاور.

ـ قاد بنفسه الجيش الأوسط ومعه ابنه تولوي"تولي" وزحف من السهل العظيم، سهل الصين الشرقي إلى وسط الصين، متجنبا الهجوم على بكين بعد أن وضع قوات قبالتها، ثم انعطف إلى الجنوب، فنهب المدن تباعاً، بدءاً من باو ـ تونج جنوباً حتى بكين شمالاً، ومن بكين قطع جنكيز خان مسافة جاوزت ٣٠٠ميل من الشمال إلى الجنوب ولم يتوقف إلا عند وصوله إلى هو ـ باي، على النهر الأصفر حيث لم تستطع خيوله عبور النهر لغزارة مياهه وسرعة جريانه وبعد ذلك توجه جنكيز خان إلى المنطقة الجنوبية الشرقية ووصل إلى سهل شانتونج الخصيب، وأحتل مدينة تسي ـ تان ثم انتقل إلى مرتفعات تاي ـ شان وسار نحو الشرق وسيطر على مدينة لان ـ شان على الجانب الأقصى لحدود إقليم شانتونج، فسقطت بيده القلاع الصينية الواحدة تلو الأخرى[١]، باستثناء بعض الحصون المنيعة التي عجز عن اقتحامها، ثم رجع سور الصين العظيم، بعد ان نهب سهل الصين الشرقي[٢].

ـ أما الجناح الأيمن من الجيش، الذي قاده جوجي وجغتاي وأوكتاي، أولاد جنكيز خان، فسار إلى القطاع الغربي من هو ـ باي عن طريق بوا ـ تنبح وشانتو،

---

١ حروب المغول د. أحمد حطيط صـ٣٦.

٢ حروب الغول صـ٢٦.

واقترب من هواي ـ كنج في مقاطعة هانون، شمال النهر الأصفر، وعبر آخر التلال المنخفضة في تاي ـ هانج وصعد بعدها إلى إقليم شان ـ سي، ثم توجه عبر حوض نهر"فن" الذي يقسم الإقليم المذكور إلى قسمين في مجراه المتجه من الشمال إلى الجنوب، وبسط سيطرته على المدن الواقعة على ضفتيه"فن" وفي جواره وهي مدن: باي ـ بانج، فن ـ تشي، وهسن ـ تشو، كما استولى على مدينة تاي ـ يوان، حاضرة إقليم شان سي، ثم رجع إلى سور الصين العظيم عن طريق تاي تشو وتاتونج.

ـ أما الجيش الثالث الذي قاده قاسار أخو جنكيز خان فسار بمحاذاة بكين متبعاً الطريق الساحلية شمالاً وأخضع المنطقة الواقعة ما بين شان ـ هاي كوان وجيهول" شانغ تي" ثم توجه للسيطرة على منشوريا العليا، في إقليم نهري نوتي وسنجاري وصولاً إلى نهر آمور وفي عام ٦١١هـ/١٢١٤م انتهز جنكيز خان فرصة مبادرة إمبراطور الصين إلى عرض الصلح على ان يضم جنكيز خان كافة البلاد التي فتحها في الصين سواء كانت داخل سور الصين أم خارجه، فأعلن جنكيز خان موافقته على طلب الإمبراطور وما إن اجتاز القائد المغولي سور الصين، في طريق عودته إلى منغوليا، من ممر تشو ـ يونج ـ كوان، حتى عدل الإمبراطور عن فكرة الصلح وشرع في تحصين قلاعه وحصونه، ونقل عاصمة ملكه إلى مدينة كاي فونج، في جنوبي البلاد، لتكون أقرب إلى ساحة القتال تاركاً بكين في عهدة ولده، فما كان من جنكيز خان إلا ان استدار بجيوشه وعاد مسرعاً إلى الصين واشتبك مع الجيش الصيني في معركة فاصلة سقطت على أثرها بكين في أيدي المغول عام ٦١٢هـ/١٢١٥م[١].

خامساً: مقومات المشروع المغولي في عهد جنكيز خان:

كان جنكيز خان يتحرك من خلال مشروع يخدم أهداف المغول في التوسع والسيطرة والنفوذ والهيمنة على قيادة العالم آنذاك وقد لاحظت في دراستي أهم مقومات المشروع المغولي والتي منها:

١. شخصية جنكيز خان: كانت شخصية جنكيز خان قيادية من الطراز الأول سمحة له بالتغلب العسكري على كل من وقف في وجهه من دول العالم

١ حروب المغول صـ٢٨.

وشعوبه في القرن الميلادي الثالث عشر، وقد أقام من نفسه حاكماً على نصف العالم المعروف في ذلك الزمن، وأثار لدى البشر خوفاً رهيباً استمر قائماً في أعماق النفوس أجيالاً عديدة، كان اسمه تيموجين، أي الرجل الفولاذي، ويعرفه التاريخ باسم جنكيز خان وكان هذا القائد المغولي نابغة في:

- التنظيم وبناء الجيش.
- الاستراتيجية.
- التكتيك.
- التخطيط.
- معرفة الرجال.
- اختيار الأعوان.
- اكتشاف نقاط الضعف لدى الآخرين وتسخيرها لصالحه وهذه المميزات كلها هامة للعسكريين والمدنيين على سواء، والعاقل من يسعى إلى المعرفة مهما يكن مصدرها، لأن المعرفة قوة، ولأنها نبراس يبدد ظلام الجهل والارتجال[١]، ويهدي إلى معرفة الحقائق وأسرار التاريخ، وقيام الدول، وتوسع الحضارات.

كان هذا الزعيم المغولي طويل القوام، متين البنية، قوي البدن أصلع الرأس باستثناء بعض الشعر الرمادي اللون، وعيناه كعيني الهر وكان لا يتكلم غير المغولية بالإضافة إلى عبارات صينية وفي حياته الخاصة، كما في حياته العامة، فإنه نادراً ما كان يتطرف في تصرفاته، الخاصة ولذلك احتفظ بنشاطه العقلي والبدني، حتى النهاية، ويذكر الباحثون بأنه لم ينغمس قط في التطرف الجنسي وكانت المتع المفضلة لدى جنكيز خان لعبة البولو ورحلات الصيد، وكان في كليهما مبدعاً ولم يكن غريباً عن ملذات الخمرة، ويشترك في هذه المتعة مع جميع بني قومه، ولكن على عكس ابنه وخليفته أوغوداي، فإنه لم يسمح للشراب بأن يكون متسلطاً عليه وكان يعبر عن رأيه في هذه العادة بقوله: إذا المرء لم يستطع الامتناع عن الخمرة، فليكتف بالشرب ثلاث

---

١ جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله صفا صـ٢٣.

مرات في الشهر وإن هو فعل اكثر من ذلك فإنه يرتكب جريمة بحق نفسه، وإذا شرب مرتين في الشهر فلذلك افضل، وإذا شرب مرة واحدة في الشهر فلذلك اعظم فضلاً، وإذا لم يشرب المرء خمراً بالمرة فذلك يكون عملاً عظيماً يستحق الثناء والتقدير[1].

ـ **شجاعته:**كان يتمتع بشجاعة فائقة ويقدر الشجاعة لدى الأصدقاء والأعداء على السواء وقد شق طريقه إلى السلطة بالعمل ضد أناس كانوا على شجاعة خارقة، ومن الأمثلة على إعجابه بالشجاعة أنه في نهاية المعركة التي أنتصر فيها على السلطان الخوارزمي جلال الدين، عند نهر السند عام ١٢٢١م فقد بلغ إعجابه بشجاعة خصمه الشاب، رغم ما اعتراه من أسف لفراره بالقفز مع جواده إلى النهر إلى حد حمله على أن يهتف قائلاً كمثل هذا يجب أن تلد النساء وقد اعتبر جلال الدين صنواً له في الشجاعة والإقدام[2]، وسأله (بالاخراجا) يوماً وكان قائداً أسيراً لديه قائلاً له: إنهم يدعونك بطلاً عظيم القدرة فما هو دليلك على ذلك؟ فأجاب جنكيز خان في صباي، كنت يوماً أسير على جوادي وحيداً في الفلاة وقد اعترضني ستة رجال كانوا يكمنون لقتلي عند مخاضة وقد هاجمتهم بسيفي تحت وابل سهامهم، وقتلتهم جميعاً، وتابعت طريقي دون أن أصاب بأذى، وقد مررت بطريق عودتي، بالمكان الذي قتلت فيه أولئك الأعداء فوجدت خيولهم طليقة ومن لا يعتني بها، فاستوليت عليها. قص جنكيز خان هذه الحادثة كجواب على سؤال (بالاخراجا) وكدليل على شجاعته وبأسه والأهم من ذلك أنه كان يؤكد بهذه القصة اعتقاده بأنه يتمتع بحماية سماوية: لقد قررت السماء ـ على حد قولهم ـ أنه لن يموت قتلاً وقد قتل جميع أعدائه واستولى على خيولهم[3].

ـ **السخاء والكرم:** كان سخياً في مكافأة ضباطه لكل عمل يظهرون فيه شجاعة فائقة، وكان معروفاً بالجود والكرم، ومما ذكره الجويني عنه في هذا الخلق، أنه قدم له بعض الفلاحين بالصين ثلاث بطيخات، فلم يتفق أن عند جنكيز خان أحد من الخزاندرية فقال لزوجته "خاتون": أعطيه هذين القرطين اللذين في أذنيك، وكان

١ جنكيز خان صـ ٣٦.

٢ المصدر نفسه صـ٢٧.

٣ المصدر نفسه صـ٢٧.

فيهما جوهرتان نفيستان جداً فشحت المرأة بهما وقالت: انظر إلى غيره، فإن هذا لا يدري ما هما، فقال: أدفعيهما إليه فإنهما لا يبيتان هذه الليلة إلا عندك، وهذا الرجل لا يمكننا أن ندعه يذهب عنا مقلقل الخاطر وربما لا يحصل له شيء بعد هذا، وإن هذين لا يمكن أن أحداً إذا اشتراهما إلا جاء بهما إليك، فانتزعتهما فدفعتهما إلى الفلاح، فطار عقله بهما، وذهب بهما فباعهما لبعض التجار بألف دينار، ولم يعرف قيمتها فحملها التاجر إلى الملك فردهما على زوجته[1]. واجتاز يوماً في سوق، فرأى عند بقال عناباً فأعجبه لونه، ومالت نفسه إليه فأمر الحاجب أن يشتري منه ببالس، فاشترى الحاجب منه بربع بالس، فلما وضعه بين يديه أعجبه وقال: هذا كله ببالس؟ فقال: وبقي منه هذا وأشار ما بقي معه من مال، فغضب وقال: متى يجد من يشتري منه مثلي، تمموا له عشرة بوالس[2]. وأهدى له إنسان رمانة فكسرها وفرق حبها على الحاضرين، ثم أمر له بعدد حبها بوالس وأنشد الجويني عند ذكر هذه الحادثة:

فلذلك تزدحم الوفود ببابه

مثل ازدحام الحب والرمان

ـ غيرته: كان مفرطاً في الغيرة على كل شيء يعتبره ملكاً له، فبعد احتلال مدينة جورخند، عام ١٢٢١م، تقاسم أولاده: جوشي، وجغطاي وأوغوداي، جميع الغنائم والأسلاب بينهم، دون أن يرفعوا منها شيئاً كحصة لأبيهم، وعند عودتهم إلى المقر الإمبراطوري وجدوا أباهم في حالة الغضب الشديد واستحال عليهم أن يقابلوه وفي آخر الأمر رأى الأوخونات: موخالي، ويوركوجي، وشيكي أن عليهم أن يتدخلوا في الأمر، فذهبوا إلى مقابلة جنكيز خان يعاتبونه على موقفه قائلين: لقد غلبنا الخوارزميين أولادك وكل في المدينة ملك يديك، وقد انتصرنا في هذه الحرب بمعونة السماء والأرض، ونحن ضباطك، مفعمون فرحاً واغتباطاً، لماذا أنت غاضباً على هذه الصورة؟، لقد اعترف أولادك بخطئهم وهم خائفون، لقد أعطوا إنذاراً للمستقبل، أسمح لهم الآن أن يمثلوا في حضرتك، خف غضب جنكيز خان بعد هذه الكلمات،

١ البداية والنهاية (١٦٧/١٧).

٢ المصدر نفسه (١٦٧/١٧).

ووافق على استقبال أولاده، إلا أن غضبه عاوده للحال عند رؤيتهم، وأخذت أجساد الأمراء الثلاثة تتصبب عرقاً وعندئذ بادر ثلاثة أفراد من الحرس الخاص بالتوسط بدورهم قائلين: أولادك هم كصقور ولم يتلقوا غير أول تدريبهم، أنهم يخوضون أول حروبهم، فإذا أنت ثابرت على معاملتهم على هذا النحو، فقد تتحول عواطفهم عنك في المستقبل، هناك أعداء من مشرق الشمس إلى مغربها، فارسلنا ضدهم وسنقاتلهم كالكلاب التيبيتية، وإذا ساعدتنا السماء وانتصرنا، فسوف نأتيك بكل ما يملكون من ذهب وفضة وحرير، وفي الغرب هناك خليفة بغداد، فأرسلنا ضده وكان أن زال غضب جنكيز خان وعفا عن الأمراء[1].

ـ قسوته وفظاعته: ارتكب جنكيز خان فظائع رهيبة ومذابح عديدة مريعة تقشعر لذكرها الأبدان، وهذه الأعمال الوحشية لم تكن غريبة على المجتمع المغولي في ذلك العصر وفي (البيليك) ـ أي الأقوال المأثورة عن جنكيز خان ـ ما يلقي الضوء على هذه الناحية من مسلكه، فقد جاء فيها عن لسانه: إن أعظم مسرة للمرء هي هزيمة أعدائه، طردهم أمامه، الاستيلاء على كل ما يملكون، رؤية أعزائهم يبكون، امتطاء خيولهم، ضم نسائهم وبناتهم بين ذراعيه. وكان جنكيز خان بمثل هذه الأحاسيس، يعبر عن مشاعر بني قومه وعادات عصره وبيئته[2].

ـ إخلاصه لأصدقائه: كان صديقاً مخلصاً لكل أولئك الذين كانوا يخلصون في خدمته، ولنا في معاملته لضباطه أحسن مثال على ذلك، وكان يمدهم بالنصائح القيمة، ومن الأمثلة على ذلك: وصيته لسوبوداي، عندما أرسله ضد المركيت عام ١٢١٦م والتي جاء فيها: سيكون عليك، لبلوغ هدفك، أن تسير عبر مضائق جبلية عالية وأنهار كثيرة، وكلما طالت الطريق كلما دعت الحاجة إلى مداراة خيالتك والاقتصاد في مؤونتك حتى لا ترهق خيلك قبل أن تدرك العدو وعليك أن تنتبه دائماً لكلي لا يتسبب اللجام أو الحزام تحت الذيل بجرح مطاياك، وإذا خالفك أحد فابعث به إلي إذا كنت أعرفه وإلا فعاقبه بنفسك. ولما كان ولده البكر جوشي موجوداً مع الجيش بصفة قائد أسمى فربما يكون جنكيز خان قد استهدفه بهذه

---

١ جنكيز خان صـ٢٨.

٢ المصدر نفسه صـ٢٨.

الكلمات وخاصة ما كان منها متعلقاً بالصيد، لأن جوشي كان مغرماً به بصورة مفرطة، ولم يكن هناك أدنى شك بأن القائد الفعلي للحملة كان سوبوداي، القائد العظيم والجنرال الخبير المجرب. وكان جنكيز خان يشجع على النجاحات التي يحققها القادة ويهتف بها، ففي عام ١٢٢٣م، أثنى علناً على سوبوداي للنتائج المذهلة للحملة التي قادها مع زميله جيبة ـ توفي عام ١٢٢٢ ـ منذ صيف عام ١٢٢٠ إلى شتاء عام ١٢٢٢ في غرب إيران، وجورجيا، والقوقاز، وروسيا الجنوبية، وبلغاريا الكبرى، ومما قاله علناً بهذه المناسبة: لقد نام سوبوداي على ترسه، وفاز في معارك دموية عنيفة، وعرض حياته لأعظم الأخطار والمهالك في سبيل عائلتنا، وإنا لراضون عنه أشد الرضى، وبعد سنين من ذلك التاريخ نوه بموخالي ـ وهو جنرال عظيم أيضاً ـ على نفس الصورة لإنجازاته المدهشة في الصين[1]، وكان يتصرف بوعي كبير عند حصول ما لم يكن يتوقعه، كأن يمنى أحد جنرالاته بالهزيمة مثلاً، ومن ذلك أنه بعد أن تفقد ميدان القتال في وادي بيروان في أفغانستان، حيث مني ابنه بالتبني شيكي كوتوكو بهزيمة على يد السلطان الخوارزمي جلال الدين، فإنه لم يعمد إلى لوم أو تعديد للهفوات والأخطاء وإنما اكتفى فقط بانتقاد اختيار القائد لميدان المعركة، ثم وجه كلامه إلى من كان حوله قائلاً: إن من عادة شيكي كوتوكو أن ينتصر دائماً، ولم يسبق له أن ذاق مرارة الهزيمة وقسوتها والآن، وبعد أن عانى من ذلك، فإنه سيكون أكثر حذراً واحتراساً وحتى مخالفات الضباط، وهي تعاقب عادة بصرامة، فإنه يعالجها أحياناً برفق وتساهل، ومن ذلك أنه في عام ١٢٢٠م عندما أرسل سوبوداي وجيبة وتوكوشار إلى مطاردة سلطان خوارزم فقد أمرهم جميعاً أن يسيروا خلال ممتلكات عاهل هرات أمير الملك دون الإساءة إلى أحد من السكان، وقد تقيد سوبوداي وجيبة بهذا الأمر، لكن توكوشار سمح لجنوده بنهب جزء من الإقليم ولما بلغ جنكيز خان ذلك مال في بادئ الأمر إلى إعدام الجنرال المخالف، لكنه عاد فعدل عن ذلك بعد تفكير، واكتفى فقط بتوجيه لوم عنيف إلى توكوشار، وبعث إليه بضابط يشاركه في القيادة[2]، وهكذا بالثقة، والإقرار بالفضل، والتحرر من الغيرة والحسد اللذين أضرا

١ جنكيز خان صـ٣٠.

٢ المصدر نفسه صـ٣١.

كثيراً بالعلاقات بين الأسكندر المكدوني ونابليون بونابرت مع جنرالاتهما، وباستطاعته السيطرة على الغضب، اكتسب جنكيز خان لنفسه وعائلته وفاء لا حدود له، وولاءً مطلقاً من كل أولئك الذين عملوا معه، وكان هؤلاء جميعاً يتقيدون بعزم وتصميم، في تنفيذ أوامره وتعليماته، ونادراً ما فشلوا في تذليل الصعوبات والتغلب على الموانع والمشاق[1].

ـ معرفته للرجال وقيادته للقادة: تميز جنكيز خان بمعرفته الفائقة للرجال وقدرته على قيادة القادة، ولذلك نبغ في الإمبراطورية المغولية، قادة عظام خاضوا حروباً كبيرة بتخطيطهم وعلى مسئوليتهم الكلية وكان هؤلاء القادة عندما يكونون برفقة جنكيز خان، فإنهم كانوا يساهمون إلى حد كبير ولاشك، بوضع الخطط وتنفيذها تحت إشرافه المباشر، وكانت جميع العمليات الرئيسية التي جرت في حياته تصدر عن قراراته ولذلك يعود له الفضل الأول في جميع انتصارات المغول المدوية التي جعلته على مثل تلك الشهرة من القيادة المتفوقة، إذا رجعنا حروب الإمبراطورية المغولية، فمنذ عام ١٢٢١م إلى خريف عام ١٢٢٢م عندما كان أعظم جنرالاته بعيداً عنه، موخالي في الصين، وسوبوداي وجيبة في روسيا في أوربا الشرقي، فإن جنكيز خان لم يحتل خوارزم وخراسان فحسب، بل سار بعد ذلك منتصراً خلال جبال أفغانستان المخيفة، دون أن يتعرض جيشه ولو مرة إلى خطر من أي نوع، وبعد موته، وحتى بقيادة أشهر الجنرالات وأولاده وأحفاده فإن المغول لم يحققوا إنجازات مثيلة لإنجازاتهم أثناء حياته وتحت قيادته، وقد استطاع جنكيز خان انتزاع الإعجاب والتفاني من الفريق القيادي الذي كان معه من أمثال وزيره الصيني الحكيم يلوي ـ تشو سي ـ ومن تلك الكوكبة الفريدة من القادة اللامعين الذين أحاطوا به، من المغول: بوكورجي، موخالي، سوبوداي، جيبة وساموخا وغيرهم كثير، مما يدل أن جنكيز خان لم يكن وحده شخصية كبيرة فذة فحسب، بل أن فراسته ومعرفته بالرجال، واختيارهم ما هي إلا العبقرية بعينها[2]، ومن الأدلة على معرفته بالرجال اختياره أثناء حياته خليفته، ودلَّ هذا الاختيار على حكمته واتساع أفقه وقوة فكره

---

١ جنكيز خان صـ٣١.

٢ المصدر نفسه صـ٣٢.

ونفاذ بصيرته، فلم يغتر بما اشتهر به تولوي من مواهب عسكرية أو بما اتصف به جغتاي من صرامة، يستطيع أن يفيد منها في تحقيق المبادئ الأساسية التي ينطوي عليها نظام جنكيز خان، بل ركز اهتمامه في أوكتاي الذي تعلقت به القلوب، لما اشتهر به من طلاقة الوجه والسخاء ونظراً لأن ما اشتهر جنكيز خان من قوة الإرادة، التي لم يرثها أحد من أبنائه، كان لا بد أن يشترك جميع أفراد الأسرة بعد وفاته في إدارة البلاد، إذ أن وحدة الإمبراطورية لا يحفظها إلا رجل يتصف بقوة الإرادة، والتفكير السليم، ويتحلى بخلال خلقية تجعله مقبولاً عند الناس[1].

ـ رجل دولة وسياسة: لم يكن جنكيز خان رجل حرب متفوقاً فحسب، بل كان إلى جانب ذلك رجل سياسة ودولة، وكان من خصاله البارزة العزم الذي لا ينثني والمقدرة على ألا يتعدى حدود إمكاناته الشخصية، وفي حين كان عظيم المطامع، فقد كان مع ذلك حريصاً على أن تكون مشاريعه أبداً في حدود إمكاناته إنه لم يمن قط بأية هزيمة، ولا أصيب بكارثة، وقد ترك لأولاده إمبراطورية مترامية الأطراف شاسعة الأرجاء، وأقوى جيش في ذلك العصر، وإذا قارنا بين جنكيز خان وبعض القادة وتاريخ الإنسانية رأينا الفرق الكبير، فمثلاً نابليون بونابرت ألمع القادة الأوربيون تراجع عاجزاً أمام مدينة صغيرة كعكا وتخلى عن جيش كامل في مصر، وارتكب حماقة في أسبانيا وخلف جيشاً كبيراً في ثلوج روسيا وانتهى أخيراً إلى الهزيمة الساحقة في ميدان واترلو، ومات سجيناً لدى ألد أعدائه في جزيرة نائية، وقد تحطمت إمبراطوريته تحت سمعه وبصره، ومزق دستوره وحرم ولده من الوراثة في حياته، وإذا تحولنا إلى الاسكندر الكبير، ذلك الفتى المنتصر، الذي فتح العالم في زمانه بعبقريته أخذ جنرالاته حالاً بعد موته يتقاتلون على وراثته ويضطرون ابنه الرضيع إلى الفرار ليقتل مع أمه وجدته لأبيه، وأما جنكيز خان، فقد جعل من نفسه سيداً مطلقاً على الأرض من كوريا حتى أرمينيا، ومن التبت سقف العالم حتى الفولغا وخلفه ولده دون أي احتجاج، وعاش حفيده، قبلاي خان، حاكماً على نصف العالم[2].

---

١ المغول للعريني صـ١٥٥.

٢ جنكيز خان صـ٣٣ ، ٣٥.

2 ـ دستور الدولة (الياسا):

اقتضت حياة المغول رغم بدائيتها وبساطتها أن تكون لهم قبل جنكيز خان مجموعة من الآداب والتقاليد، ولكنها لم تكن مدونة، لأنهم كانوا يجهلون الكتابة، فلما جاء جنكيز خان، أعاد النظر في هذه العادات، ورد بعضها وقبل معظمها وأضاف إليها بعض الأحكام والقواعد وجعل لها صبغة رسمية، وأمر بأن يتعلم الأطفال المغول الخط الأويغوري، كما أمر بأن تدون تلك النظم والأحكام بهذا الخط، وأن يحتفظ بها في خزائن أمراء المغول[1]، وقد أطلق على كل حكم من هذه الأحكام والقواعد اسم (ياسا)، وهي كلمة مغولية تأتي بمعنى حكم وقاعدة وقانون، وتكتب بصورة مختلفة في الكتب العربية والفارسية فنجد ياسا وياسه ويساق وياساق ويسق، وتطلق على الحكم الذي صدره الملك أو الأمير، ولما كان كتاب الياسا يشتمل على جزء كبير من الأحكام التي تتعلق بالجزاء والعقاب وغالباً ما يكون ذلك بإعدام الشخص المذنب، صار أحد معاني هذه الكلمة (ياسا) القتل والموت[2]، وأما مجموع هذه الأحكام المكتوبة التي أقرها جنكيز خان فإنه يطلق عليها (كتاب الياسا الكبير)[3]، وكان جنكيز خان يعتقد بأن تعاليم الياسا صالحة لكل زمان ومكان، وفرضها على الجميع بدون استثناء، بما هو نفسه وأفراد سلالته[4]، يقول الراهب المؤرخ للإنوكاربيني، في هذه الصدد، أنه جرى تطبيق الياسا بصرامة، وأن هذا التطبيق جعل من المغول أكثر شعوب العالم طاعة لرؤسائهم إلى حد يفوق طاعة الرهبان لأمراء الكنيسة، وكانت الياسا أول خطوة اتخذها جنكيز خان لإضعاف النزعات والميول الإقطاعية الضارة بالوحدة[5]، لقد رأى الخان الأعظم للمغول، أنه لا يمكن جمع كلمة هؤلاء القبليين المتعطشين للدماء إلا بتشريع قانون يلتفون حوله، وينزلون جميعاً على حكمه، ولابد أن تكون مواد هذا القانون مشتملة على عقوبات فيها جد وصرامة توقع على المذنبين في غير ما شفقة ولا رحمة، لأن هؤلاء الأتباع إن تركوا وشأنهم

1 المغول في التاريخ صـ338 ، تاريخ المغول عباس إقبال صـ113.
2 المصدر نفسه صـ338 انظر الدولة العربية الإسلامية صـ473.
3 المصدر نفسه صـ39.
4 جنكيز خان صـ104.
5 المصدر نفسه صـ104.

يحيون حيتهم القديمة، فإنهم يعودون إلى ما كانوا عليه من الفوضى، وقتل بعضهم البعض والتطاحن من أجل الأسلاب والمراعي، ولكن، إذا كانت الياسا قد فضت النزاع والخصام بين المغول الذين كانوا يعيشوا من قبل كقطعان الذئاب التي لا ضابط لها ولا رابط، فإنها من جهة أخرى قد حولتها إلى جيوش منظمة، تعرف كيف ترسم خططها بدقة وإحكام، وتغير على الأمم المتحضرة كأنها الإعصار المدمر أو كأسراب الجراد التي تنزل على الحقول المورقة، فتلتهمها التهاماً وتأتي على كل ما فيها[1].

وقد تعود المغول أن يرجعوا إلى نصوص الياسا يستشيرونها، ويعملون وفق ما تشير به وذلك في الأحوال الآتية:

- عندما يجلس خان جديد على عرش المغول.
- عندما يعقد مؤتمر عام يحضره الأمراء لمناقشة السياسة العامة للدولة.
- في حالة تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال[2].

لقد أصدر جنكيز خان مجموعة القوانين المعروفة بالياسا، والتي نسخت كل ما سبق من قوانين العرف في الإستبس، لكي يربط أقاليمه معاً، في ظل حكم موحد، وهذه الياسا التي صدرت مجزأة طول حكم جنكيز خان حددت ما لرؤساء العشائر من حقوق وامتيازات وما هو مقرر للخان من شروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات، وقواعد نظام الضرائب فضلاً عن مبادئ القانون الجنائي والمدني والتجاري، وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول: إن هذا القانون قد نظم علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض، كما حدد علاقة الفرد بالمجتمع وتتلخص أحكام الياسا في أمور ثلاثة هي:

1. الخضوع لجنكيز خان.
2. والاتحاد في قبيلة واحدة، أي اندماج خمسون قبيلة من قبائل المغول في مشروع واحد.
3. والعقاب الصارم لكل مخطئ[1].

---

1 المغول د. فؤاد عبد المعطي صـ339.

2 المصدر نفسه صـ338.

أ ـ نصوص تاريخية عن الياسا:يحدثنا المقريزي عن الياسا فيقول: إن جنكيز خان القائم بدولة التتـار في بلاد الشرق لما غلب الملك أونك خان، وصارت له الدولة قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سـماه ياسه، ومن الناس من يسميه يسق، والأصل في اسمه ياسـه، ولمـا تـم وضـعه، كتـب ذلـك نقشـاً في صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه، فالتزموه بعده حتى قطع اللـه دابرهم، وكان جنكيز خان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض، كما تعرف هـذا إذا كنـت أشرفـت عـلى أخبـاره، فصـار الياسـا حكماً باتاً بقي في أعقابه لا يخرج عن شيء من حكمه[1]. وقال: وأخـبرني العبـد الصـالح الـداعي إلى اللـه أبو هاشم أحمد بن البرهـان ـ رحمـه اللــه ـ أنـه رأى نسـخة مـن الياسـه بخزانـة المدرسـة المستنصرية بغداد ومن جملة ما شرعه جنكيز خان في الياسه:

١. أن من زنى قتل، ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن.
٢. ومن لاط قتل، وتعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصـمان وأعان أحدهما على قتل الآخر.
٣. ومن بال في الماء أو على الرماد قتل.
٤. ومن أعطى بضاعة فخسر فيها، فإنه يقتل بعد الثالثة.
٥. ومن أطعم أسير أو كساه بغير إذنهم قتل.
٦. ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يد قتل.
٧. وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويُمْرَس قلبه إلى أن يموت، ثم يؤكل لحمه وأن من ذبـح الحيوان كذبيحة المسلمين ذبح.
٨. ومن وقع حمله أو قوسه أو أي شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حالـة القتـال، وكـان وراءه أحد، فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم ينزل، ولم يناوله قتل.
٩. وشرط أن لا يكون على أحد من ولـد عـلي بـن أبي طالـب ـ رضي اللــه عنـه ـ مؤنة ولا كلفة وأن لا يكون عـلى أحـد مـن الفقـراء ولا القـراء ولا الفقهـاء ولا

---

[1] الخطط للمقريزي المجلد الثالث، الجزء الأول صـ١٤٦ ـ ١٤٧.

الأطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلي الأموات كلفة ولا مؤنة.

١٠. وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى، وجعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى.

١١. وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولاً، ولو أنه أمير، ومن يناوله أسير وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه، بل يشركه معه في أكله وألزمهم أن لا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه ولا أحد ناراً ولا مائدة، ولا الطبق الذي يؤكل عليه وأن من مرَّ بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل، ويأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منعه.

١٢. وألزمهم أن لا يدخل أحد منهم يده في الماء ولكنه يتناول الماء بشيء يغترفه به، ومنعهم من غسل ثيابهم، بل يلبسونها حتى تبلى.

١٣. ومنع من أن يقال لشيء أنه نجس، وقال: جميع الأشياء طاهرة، ولم يفرق بين طاهر ونجس.

١٤. وألزمهم أن لا يتعصبوا لشيء من المذاهب، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب، وإنما يخاطب السلطان ومن دونه، ويدعى باسمه فقط.

١٥. وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أرادوا الخروج إلى القتال، وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره وينظر الإبرة والخيط، فمن وجده قد قصر في شيء مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه.

١٦. وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف في مدة غيبتهم في القتال.

١٧. وجعل العساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقدمون بها إلى السلطان ويؤونها إليه.

١٨. وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده،.

١٩. ورتب لعساكره أمراء، وجعلهم أمراء أولوف وأمراء مائتين وأمراء عشروات.

٢٠. وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب، وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه، فإنه يلقى نفسه إلى الأرض بين الرسول، وهو ذليل خاضع حتى يمضي فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه.

٢١. وألزمهم ألا يتردد الأمراء لغير الملك، فمن تردد منهم لغير الملك قتل، ومن تغير عن موضعه الذي يرسم له بغير إذن قتل.

٢٢. وألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته.

٢٣. وجعل حكم الياسه لولده جغتاي بن جنكيز خان، فلما مات التزم من بعده أولاده وأتباعه حكم الياسه، كالتزام أول المسلمين حكم القرآن وجعلوا ذلك ديناً، لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه[١].

ب ـ ما كتبه المؤرخ الفارسي الجويني عن الياسا: قبل المقريزي ٨٤٥هـ بما يزيد عن قرن ونصف، كتب المؤرخ الفارسي عطا الملك الجويني ت ٦٨١هـ عن الياسه بتفصيل أكثر ولكن عبارة المقريزي تعتبر في الحقيقة خلاصة وافية لما جاء عند الجويني، على أن الأخير قد زاد في الحديث عن ناحية هامة لها أكبر الأثر في حياة المغول العسكرية هي مباريات الصيد[٢]، التي كانوا يعنون بها عناية كبيرة كلما فرغوا من القتال، إذ كانت في الحقيقة هي رياضتهم المحببة إلى نفوسهم، ولكنهم كانوا يتخذونها وسيلة لإعداد أنفسهم إذا ما جد الجد ودعوا لحمل السلاح وخوض غمار المعارك، فهم في حلبات الصيد يدربون أنفسهم على ما سيفعلونه في وقت الحرب، ويقفون صفوفاً منتظمة كما يقفون في ميادين القتال تماماً ويأخذون منهم الآلات والأسلحة اللازمة للتدريب على استعمالها، وهم بالإضافة إلى هذا مكلفون بتسقط أخبار الأعداء والتجسس عليهم، يقول بارتولد: ومن الوسائل القيمة التي تعمل على حفظ النظام وتدريب الجند واختبارهم، حملات الصيد التي كانت تعد على نطاق واسع، وفيها تراعى جميع الأوامر الخاصة بالنظام الحربي بنفس الدقة التي تراعى بها إبان الحرب[٣]. وكان يشرف على ميادين الصيد كبار الأمراء الذين يصطحبون معهم

---

١ المغول د.الصياد صـ٣٤٢.

٢ تاريخ جهانكشاي للجويني (١٩/١ ـ ٢١) المغول للصياد صـ٣٤٢.

٣ دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ج ٧ العدد الرابع صـ ١٣٧ مادة جنكيز خان المغول صـ٣٤٣.

الخوانين والسراري، ويتزودون بمختلف المأكولات والمشروبات، وتمتد هذه المباريات من شـهر إلى ثلاثـة أشهر وعلى الجنـود المشـتركين فيهـا أن يبـاشروا الصـيد في تـأن وحـذر وأن ينظـروا إلى الحيوانـات كـما ينظرون إلى أعدائهم، فلو فرض وأن جندياً قد أخطأ في إصابة الهدف فإنه يعاقـب عـلى ذلـك بـالضرب بالعصا، وكثيراً ما يكون العقاب بالقتل، بل إنهم كانوا لا يـترددون عـن توقيـع الجـزاء عـلى أي شـخص ينسب إليه الإهمال والخطأ مهما كان هذا الخطأ بسيطاً تافهاً، بعد ذلك توفد الرسـل إلى الخـان وهـي تحمل إليه تقارير مفصلة عن كل ما دار في هذه المباريات التي تشبه إلى حد كبير مناورات الجيوش في العصور الحديثة، وذلك للإبقاء على تدريب الجند ومن حملات الصيد أيضاً، يحصل المغول على اللحوم اللازمة لمد الجيش والبلاد، وكانوا إذا ما قتلوا عدداً كبيراً من حيوانات الصيد، أكلوا أكبر قدر من لحمها يمكنهم أكله، وذلك حتى يبعدوا عنهم شبح الجوع في الأيام العجاف التي تنتظرهم[1]، والمغول يعتـبرون الصيد جزء لا يتجزأ من حياتهم، ويحرصون على ممارسته منذ الصـغر ويـروى أن جنكيـز خـان سـقط ذات يوم من فوق جواده، وأصيب حين كان يصطاد خنزيراً برياً وشاء حسن حظه ألا يهاجمه الخنزيـر وهو ملقى على الأرض، إذ كان قد انتحى جانباً فقال له الكاهن: كـان ذلـك نـذيراً لك،لقـد فعلـت شراً برغبتك في قتل روح حيّ ولولا رحمة السماء لنطحك الخنزير وقضى عليك. فرد جنكيز خان عليه قائلاً: لقد أدركت ذلك شخصياً، وأعلم أن نصيحتك تستهدف الخير ولكنا نحن المغول قد اعتدنا منذ حـداثتنا أعمال الصيد وليس من السهل علينا أن نغير عاداتنا[2]. وكان للمغول نظم وقواعد يلتزمونها أثناء الصيد، ويقومون بتنفيذها بكل دقة[3].

جـ ـ من أخلاق المغـول: نـصّ جنكيـز خـان في الياسـا عـلى أنـه يمقـت السرقـة والفحش مقتاً خاصاً، وإن عقاب مرتكبيها الإعدام وصرَّح بأنه يغضب إذا علم بولـد لا يطيع أبويه، أو بأخ صغير يخالف أمر أخيه الأكبر، أو بافتقار الزوج إلى الاعـتماد عـلى زوجته أو بمخالفة المرأة لزوجها أو بتمنـع الغنـي عـن إعانـة الفقـير أو بعـدم احـترام

١ المغول للصياد صـ٣٤٣.

٢ المصدر نفسه صـ٣٤٤.

٣ المصدر نفسه صـ٣٤٤.

المرءوسين لرؤسائهم، ونهى أتباعه عن الإغراق في شرب الخمر فقال: إن الرجل السكران كالرجل المضروب على أم رأسه، يفقد عقله وكفاءته فاشربوا ثلاث مرات في الشهر الواحد لا أكثر والأفضل ألا تشربوا أبدا، ولكن من الذي يستطيع الإحجام عن الشراب مطلقاً[1]؟.

د ـ موقف الشريعة الإسلامية من الياسا: إن المتأمل في نصوص الياسا يلاحظ أن بعضها يوافق الشريعة الإسلامية الغراء، ولكن أكثرها مخالف لها، فالشريعة الإسلامية تقوم على احترام حقوق الفرد، وتمنع الطغيان والاستبداد وتدعو إلى السعي والكفاح لينتفع الناس بتجاربه، ويجد ثمرة عمله، أما الياسا، فإنها تقوم على أسس جائرة ظالمة، تلغي شخصية الفرد، وتحجر على حريته، وتكبله بقيود الذل والعبودية، وإذا كان المغول يعتبرون الكذب جريمة بنص القانون، فإنهم أحلوه لأنفسهم، لا سيما في وقت الحروب، وذلك على سبيل الخديعة والتفرقة بين المتحاربين من الأعداء ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن المغول تحللوا من المواثيق ونكثوا بالعهود لما ركب في نفوسهم من اللؤم والغدر والميل إلى الانتقام، فمثلاً كان الترك ـ من بين سائر القوميات ـ أقرب إلى المغول، بل كانت منهم كتائب بجيش جنكيز خان، وكانت التقاليد البدوية في آسيا الوسطى، تزيد الترك قرباً من المغول، ورغم هذا كله لم يحاول المغول الاتحاد مع الترك، وإشراكهم معهم في الفتح ولم تكن المحادثات التي يجرونها أحياناً مع الترك إلا ضرباً من الخدع الحربية المألوفة عندهم، فقد كانوا يحاولون بتأكيداتهم الكاذبة لأواصر الصداقة ـ أن يفرقوا أعداءهم ثم يجهزوا عليهم واحداً فواحداً، ونحن نعلم أن جنكيز خان أكد صداقته لأم السلطان محمد خوارزشاه مستغلاً الجفوة التي كانت بينها وبين ابنها، وذلك لكي يحول بينها وبين التدخل في الحرب، إذ كانت تحت إمرتها عدد من الكتائب ومع هذا فقد كان مصيرها الأسر والنفي، حيث ماتت في أرض الغربة ذليلة مهانة[2]. وفي غرب آسيا لعب حفيد جنكيز خان "هولاكو" نفس الدور، ففي وقت ما، كان يجري المحادثات مع الإسماعيلية ومع الخليفة العباسي، ولكنه ما لبث بعد ذلك أن استأصل شأفتهم جميعاً.

---

١ المصدر نفسه صـ٣٤٤.

٢ المغول للصياد صـ٣٤٦.

١. تفاني الفرد في سبيل المجموع: وإذا كان المغول ينادون بالتعاون، فإنما يقصدون التعاون الذي يقوم على تفاني الفرد في سبيل المجموع، وعدم الاعتراف بأي حق للمرء في حريته الشخصية، فنصت الياسا على ألا ينفرد أحد بكل شيء وغيره يراه، بل عليه أن يشركه معه في أكله، ولا يجوز أن يتمتع أحد بالشبع دون أصحابه، بل يقسم الطعام بالتساوي، ومن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويؤاكلهم من غير إذنهم وليس لأحد منعه، فمثل هذه النصوص الجائرة تكشف لنا عن روح هذا المجتمع التعاوني الشاذ الذي يحرم الإنسان نتيجة سعيه وكفاحه[١].

٢. الإباحية: ودعت الياسا إلى الإباحية إذا ألزمت التتار عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه ولأولاده وفي هذا هدم لكيان الأسرة التي هي عماد الاستقرار[٢].

٣. أكل المحرحمات: والحقيقة أن كثيراً من عادات المغول وطباعهم كانت تدعو إلى الاشمئزاز، وتثير في نفوس المسلمين النفور، والكراهية لمنافاتها لتعاليمهم، فكانوا على استعداد لأن يأكلوا كل ما حرمه الإسلام، بل انهم لا يتورعون عن أكل الحيوانات الدنسة وكانوا يكرهون الاستحمام والاغتسال، وحرموا غسل الأيدي والثياب في المياه الجارية، ولذلك كانوا يتركون الثياب حتى تبلى ومن خالف هذه التعليمات اعتبر مجرماً خارجاً على القانون وعقوبته الإعدام، كذلك اعتبروا ذبح الحيوان بقطع حلقه من الجرائم التي لا تغتفر أيضاً، فحرموا على المسلمين ذبح حيواناتهم وفقاً للطريقة التي أجازها الشرع واستعاضوا عن ذلك بطريقتهم الوحشية الخاصة التي تقوم على تعذيب الحيوان، دون أن تأخذهم به شفقة ولا رحمة، فكانوا يشقون بطن الحيوان، ثم يمدون أيديهم إلى جوفه، فإذا وصلوا إلى قلبه امسكوه ونزعوه من مكانه[٣].

---

١ المغول للصياد صـ٣٤٦.

٢ العرب والتتار صـ ٣٢ ـ ٣٣، المغول للصياد صـ ٣٤٦.

٣ تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية صـ ٥٦١.

٤. تأثر مسلمي المغول بالياسا:يقول القلقشندي: ثم الذي كان عليه جنكيز خان في التدين، وجرى عليه أعقابه بعده، الجري على منهاج ياسة التي قررها، وهي قوانين ضمنها من عقله وقررها من ذهنه، رتب فيها أحكاماً وحدد فيها حدوداً ربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية وأكثرها مخالف لذلك وسماها الياسة الكبرى وقد اكتتبها وأمر أن تجعل في خزائنه توراث عنه في أعقابه، وأن يتعلمها صغار أهل بيته إلى غير ذلك من الأمور التي رتبها مما هم دائنون به الآن، وربما دان به من تحلى بحلية الإسلام من ملوكهم[١]. إن ما صرح به القلقشندي من أنه ربما دان بالباسا من تحلى بحلية الإسلام، ليطابق الحقائق التاريخية تمام المطابقة، فقد اعتنق الإسلام ((بركة)) خان القبيلة الذهبية في القيجاق ولم يكن الخان وحده هو المسلم بل كان نساؤه ورجال حاشيته مسلمين، وكان لكل أمير عنده، ولكل خانون مؤذن وإمام، وكانت مدارس تحفيظ القرآن كثيرة، وعلى الرغم من هذا، فإن هؤلاء المغول المسلمين، كانوا لا يزالون متمسكين بكثير من عادات التتر وتقاليدهم المتبعة في منغوليا مما تضمنته الياسا، فمن ذلك عادة تتعارض مع تقاليد الإسلام، وهي عدم استعمال مياه النهر لا للغسل ولا للاغتسال، وقد نُبه على السفراء الذين كان يرسلهم السلطان الظاهر بيبرس إلى بلاط "بركة" لتوثيق الروابط بين الطرفين ـ بألا يغسلوا ملابسهم في الاوردو ولكنهم كانوا يغسلونها خفية، إذا ما اشتدت حاجتهم إلى ذلك[٢].وأما المغول الذين قدموا إلى مصر وعاشوا فيها، فكانوا متأثرين بالمدنية الإسلامية قبل أي اعتبار آخر، ومع هذا كانوا لا يزالون في بعض شئونهم ـ يتبعون نصوص الياسا[٣]) وكانوا إنما رُبوا بدار الإسلام ولُقنوا القرآن وعرفوا أحكام الملة المحمدية، فجمعوا بين الحق والباطل، وضموا الجيد إلى الرديئ[٤].والواقع أن نصوص الياسا كانت محترمة جداً لدى المغول إلى درجة تبلغ التقديس، فكانت عندهم بمثابة القرآن عند المسلمين بحيث أنه لا يجرؤ شخص حتى السلطان نفسه على مخالفة أحكامها، أما

---

١ صبح الاعشى (٤/٣١٠ ـ ٣١١)، المغول للصياد صـ ٣٤٧.

٢ المغول صـ ٣٤٨.

٣ المصدر نفسه صـ ٣٤٨.

٤ المصدر نفسه صـ ٣٤٩.

إذا خرج عليها أي شخص آخر مهما كانت منزلته فإنه يكون عرضة للامتهان والعقاب[1].

هـ ـ تيمور لنك يتمسك بالياسا: كذلك ظلت أحكام الياسا موضع عناية الأقوام التركية حتى بعد أن زالت دولة الأيلخانين في إيران، فقد سار عليها التيموريون، وكانوا يتبعون تعاليمها في إدارة دفة السياسة وشئون الحكم، وفي الولائم والحفلات يقول ابن عربشاه: وكان تيمور معتقداً للقواعد الجنكز خانية وكذلك كل الجغتاي وأهل الدست والخطا وتركستان وأولئك الطغام كلهم يمشون قواعد جنكيز خان ـ لعنه الله ـ على قواعد الإسلام، ومن هذه الجهة أفتى كل من مولانا وشيخنا حافظ الدين البزازي ـ رحمه الله ـ ومولانا وسيدنا وشيخنا علاء الدين محمد البخاري ـ أبقاه الله ـ وغيرهما من العلماء الأعلام وأئمة الإسلام بكفر تيمور، وبكفر من يقدم القواعد الجنكيز خانية على شريعة الإسلام، ومن جهات أخر أيضاً. وقيل إن شاه رخ أبطل التوراة والقواعد الجنكيز خانية وأمر أن تجري سياستهم على جداول الشريعة الإسلامية، وما أظن لذلك صحة، فإن ذلك عندهم صار كالملة الصريحة والاعتقادات الصحيحة[2].

و ـ تسجيل أقوال ملوك المغول: درج المغول على تسجيل أقوال ملوكهم وتعليقها بعد موتهم، لكنهم لم يكونوا أحراراً في كتابة كل ما قاله هؤلاء الملوك، فكانوا يدونون فقط ما يجيزه الخان، وهذا القسم من أحاديث المغول كان يقدره رعاياهم وينزلونه من أنفسهم منزلة التوقير والاحترام، وكانوا يطلقون عليه كلمة (بيليك) بمعنى (حكمة). وقد جمعت حكم جنكيز خان وصارت مرجعاً لجميع الطوائف المغولية، يستشهدون بها، يستشيرونها في مختلف شئون حياتهم، كما يستشيرون أحكام الياسا من هذه الحكم التي وردت على لسان جنكيز خان.

- لا يؤذ بعضكم بعضاً في أمور الدنيا، فإذا شعر بعضكم بألم من الآخر فليسارع لإزالته حالاً لتكونوا بمأمن من شرور الأعداء.

---

١ المصدر نفسه صـ ٤٩.

٢ المغول صـ٣٥٠ للصياد.

- إن من يدبر بيته أحسن تدبير، يتمكن من إدارة المملكة.
- من تمكن من إدارة عشرة أفراد وأحسن سوقهم، يتيسر له سوق جيش عظيم.
- من تمكن من نظافة بيته، يستطيع أن يحرس حكومته من السراق وأهل الشقاء[١].

٣ ـ تنظيم واجبات خدمة الخان: بعد أن نجح جنكيز خان في توحيد القبائل، بدأ في وضع نظام للبلاد، وقد حدد هذا النظام في مجموعة وظائف، يتولى أمر كل وظيفة شخص أو أكثر، وإذا كانت هذه الوظائف من الوظائف الهامة أو الحساسة تولى أمرها أحد أقارب الخان الأعظم، وكانت هذه الوظائف كما يلي:

- أربعة أشخاص لحمل السهام والأقواس.
- ثلاثة أفراد يتولون الإشراف على الطعام والشرب.
- فرد واحد يتولى إعداد المراعي للأغنام والماشية وثلاثة للمحافظة على هذه المراعي.
- شخص واحد لإعداد العربات العسكرية ووسائل النقل والحمل[٢].
- فرد واحد للإشراف على الموظفين والخدم في قصر الخان.
- أربعة أفراد يتولون الحراسة بالتناوب وحمل السيوف.
- اثنان يتوليان أمر المحافظة على الخيول.
- أربعة أشخاص لتبليغ رسائل الخان.

اثنان من النبلاء للمحافظة على النظام في اجتماعات المغول[٣].

وكان لحرس الخان الأعظم شأن كبير في دولة المغول، فقد كان الجندي الواحد منهم أعلى مرتبة من قائد الألف رجل في الجيش، ويتم اختيار هؤلاء بعناية، وكان يتولى أمر الحراسة منهم مجموعتان أحدهم للنهار وأخرى لليل، وقد بلغ حوالي عشرة آلاف ممن عرفوا بالقوة وشدة البأس، ومن هؤلاء يتم اختيار ألف رجل يسمى كل واحد منهم (بهادر) ــ أي الشجاع المبارز ـ وهؤلاء الألف يقومون بخدمة الخان

---

١ المصدر نفسه صـ٣٥١ للصياد، تاريخ العراق بين احتلالين (١٣١/١ ـ ١٣٣).
٢ المغول والأوربيون والصليبيون وقضية القدس صـ٣٩.
٣ المغول والأوربيون والصليبيون صـ٣٩.

ويلازمونه ولا يخرجون للقتال إلا مع الخان نفسه ولا يتلقون الأوامر إلا منه، بالإضافة إلى الخان الأعظم وحراسه، كانت هناك طبقة الأمراء وهم معفون من الضرائب ولهم حق الاستيلاء على الغنائم أثناء الحروب، وكان هؤلاء الأمراء لا يستأذنون عند الدخول على الخان وكان من عادة الخان إكرامهم وذلك بأن يقدم لهم الشراب بنفسه[١]، واعتبر كافة المغول جنوداً في الجيش وعليهم حمل السلاح إذ ما دعت الحاجة، ولذلك اعتبر المغولي راعياً للأغنام والماشية في السلم جندياً في أوقات الحرب، وكان على الجميع تدريب أنفسهم وإعداد الأسلحة اللازمة للقتال، وقد عرف المغول جميعاً بالطاعة العمياء لقوادهم، كما عرفوا بالخيانة وعدم الوفاء بالعهود في أعدائهم، ومن كانوا يحاربون دون رحمة لا فرق بين الأطفال أو النساء أو الشيوخ، أو المريض ولذلك اتسمت حروبهم بالقسوة والتدمير والتخريب[٢].

واستطاع جنكيز خان أن يكسب احترام جيشه، فقد كان يعتبرونه رئيسهم الأعلى، يقدسون أوامره، وينزلون على طاعته، كما رفعوه إلى مرتبة التأليه، ولم يكن أحدهم يستطيع مخالفة الخان الأعظم ويعكس النظام العسكري الذي وضعه جنكيز خان مهارته وكفاءته ودهاءه[٣].

أ ـ تنظيم الجيش المغولي: لقد نظَّم (جنكيز خان) جيشه على التدرج العسكري كالآتي:

- التوكان (تومان): يتكون من عشرة آلاف شخص (محارب) ويسمى فائدة (نُويان)، أو (نوين).
- الكوكبة: تتألف من خمسين شخصاً (مُحارب) ويُسمَّى آمره (يوزباشي).
- المقدِّمة: تتألف من خمسين شخصاً (مُحارب) ويُسمَّى آمره (أونباشي).
- الجماعة: تتألف من عشرة أشخاص (محاربين) وتعتبر هذه أصغر وحدة مقاتلة، قد يجوز تجزئتها، فتقاتل وتعيش وتموت سويّة[٤].

---

١ المصدر نفسه صـ٣٩.

٢ المصدر نفسه صـ٣٩.

٣ قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته السياسية النبراوي صـ٧٢.

٤ الغزو المغولي لديار الإسلام د.محمد فتحي صـ٨٦.

كانت جميع الوحدات مزوَّدة بخيول من لـون واحـد وبمعـدَّل خمسـة خيـول احتياطيَّـة لكـلِّ محارب؛ إذا إنَّ الجواد كان السلاح الرئيسي في جيش المغول، فكانت جيوشهم تتألف من الخيالـة فقـط عدا المدفعية والهندسية التي كانت أدواتها تُحمل عـلى عجـلات، ولا يُوجـد مُشـاة بينهـا كانـت هـذه الخيَّالة مقسَّمة إلى ثلاثة أنواع:

- السرايا الفدائيَّة، واجبها"فتح المعركة" وذلك بالشروع بالقتال والاشتباك مع العدو
- سرايا الصاعقة وهي الخيَّالة الثقيلة، واجبها التغلغل في صفوف الأعداء واستثمار الفوز.
- السَّرايا الخفيفة، وهي من الخيَّالة الخفيفة، واجبها المطاردة، وستر الجناحين في القتال.

كان سلاح خيَّالة الصَّاعقة(الثقيلة) السيف وقوسين للسِّهام وسهاماً كافية، وفأساً ثقيلة.

أما تجهيزاتهم؛ فكانت الـدروع الجلديَّـة لحمايـتهم وحمايـة خيـولهم وخـوذ فولاذيـة مظلَّـة فولاذية ـ أيضاًـ لحماية الرأس والرَّقبة وحقيبة للسهام واقية ضد الرطوبة، يحفظ فيها الجندي سهامه الاحتياطية مع مسَن لسنِّ السِّهام، وحَدِّها، وأوتاراً احتياطية للأقواس، بالإضافة إلى ذلك، كـان المقاتـل يحمل حبلاً طـويلاً ذا أُنشـوطة يسـتخدمه في جـرِّ أدوات الحصـار، أو سـحب العجـلات الغاطسـة في الأوحال، أو المنقلبة أو العاطلة عن السَّير. وكان يحمل المقاتل ـ أيضاً إناء لغلي الحليب وحقيبة يضـع فيها أرزاقه الاحتياطيّة من اللحم المجفَّف والخبز واللبن الخاثر، الـذي يضـعه في إنائـه، ويضـع فوقـه الماء، ويغليه، ويستعمله كالحليب، وقربة صغيرة للماء، أما سلاح السَّرايا الفدائية، والخيَّالـة الخفيفـة، فكان الرمح مع القوس وكانت تجهيزاتهم تُشبه الخيَّالة الثقيلة عدا الفأس الثقيلة والحبـل ذي الأنشـطة إلا أن فرقة الحرس تمتاز عن بقيَّة الخيَّالة بالترس الذي كـان يحملـه الخيَّـال ليـتلافى بـه ضربـات سُـيوف الأعداء وكان لكل فارس في الجيش أربعة أو خمسة خيول احتياطية عـدا الـذي يركبـه وكـانوا يعتمـدون في جميـع عمليَّـاتهم الحربيـة عـلى خطَّـة حـركتهم الرَّائعـة، وتحركـاتهم الخاطفـة وكـان لجنكيـز خـان

احتياط عام كما كان له محاربون للمحافظة على مصالح الإمبراطوريَّة في الخلف، ومحاربون آخرون لإدارة المقاطعات المحتلة كما كان لديه هيئة خاصة للاستخبارات، وأنشأ(رتلاً خامساً) في الدول المجاورة ـ معتمداً ـ في ذلك على الهدايا والوعود والزواج وأخيراً شكل جيشاً بقيادة معونه(جيي نويان) تحت تصُّرف الإمبراطور الصيِّن (إمبراطور الكين) لمقاتله سُلالة السُّنج وهكذا، تمكن" جنكيز خان" من التَّعرف على إمبراطوريَّة الكين، وأساليبها، وخُططها وكشف سرِّ قلاعها، وحصونها، ونقاطها الحيويَّة، ومواردها الإقتصادية[1].

ب ـ من وصايا جنكيز خان لجيشه:

- يُمنع اتِّصال قائد التُّومان"النُّيان" بآخر مثله وليس له أمر على الآخرين.
- عدم تقصير الفرد في تجهيزاته من الخيط والإبرة إلى ملابسه، وإلى كل ما يكون مسؤولاً عنه من تجهيزات، والمخالف يعاقب بأشد العقوبة.
- المعاقبة ـ بشدَّة ـ لكل من لم يسمع كلام أبيه من الأولاد، والأخ الأكبر من أخوته، والزوجة من زوجها.
- يجب مراعاة السّلسلة في تنفيذ وإصدار الأوامر فالفرد لا يراجع إلا آمره، وهكذا إلى أعلى الرتب.
- المعاقبة ـ بشدة ـ لكل من يسرق ويقطع الطريق، أو يقوم بجريمة.
- يكلف بالقيادة من كان عاقلاً شجاعاً، ويجعل الأفراد من سائر الناس، وأما الضعفاء، والعجزة فيتخذهم رعاة، فيوزع الأعمال بهذه الصورة.
- على جميع القادة من أدنى مستوى إلى أعلى مستوى مواجهة جنكيز خان في السنة مرة، ليتلقوا منه الأوامر، ويصغوا إلى نصحه،وقال إن من فعل ذلك تمكن من أن يصير قائداً لجيش عظيم[2].

---

١ الغزو المغولي لديار الإسلام صـ٨٦،٨٧.

٢ الغزو المغولي لديار المسلمين صـ٨٧.

ج ـ التسلح والتجهيز: كان الجواد في الجيش المغولي يعتبر السلاح الأساسي، ويُسلَّح المقاتل بسيف ورمح وقوسين، أحدهما للرَّمي أثناء رُكُوب الخيل، والثاني للرَّمي بدقة، كما كان يُجهَّز الثلاث جُعب مُعبَّأة بسهام مختلفة، وبأدوات حفر خفيفة وأرزاق احتياطية، وقُربة تُعلَّق بذيل الجواد، لوضع أجهزته فيها، وتساعده في اجتياز الأنهار والتُّرع والجداول المائية، وكان المقاتل يتدرَّع بدرع من الجلد[1]، وأمَّا القادة فبالإضافة إلى الأسلحة فكانوا يزودون بجلد رقيق مُستدير، تحيط حافته عُري يربط فيها حبل، بحيث يصبح جيباً مستديراً يُلقون فيه ملابسهم، وأسلحتهم وغيرها من الأمتعة، حتى يمتلئ تماماً، ويقفل، ثم يضعون وسط كل هذا أسرجتهم وأمتعتهم بالقارب إلى ذيل الجواد، ويكلِّف رجل بالساحة، ويجر الجواد خلفه، ويزودون ـ أحياناً ـ بمجاذيف تعينهم على العبور، ثم يدفعون الخيل الباقية لتشبع ذلك الجواد، وأما المقاتلون الآخرون، فكان يحمل كل منهم قربة متينة الحياكة يضع فيها كُلَّ أمتعته، ثم تُعقد فوهتها، وتربط بذيل جواد لعبور النهر، كما تستخدم هذه القربة نفسها لخزْن الماء حين اجتياز الصَّحاري[2].

د ـ أساليب القتال: كان الجيش المغولي يتقدم بقيادة جنكيز خان على جبهة عريضة وبثلاثة أرتال: جناح أيمن، وجناح أيسر ووسط كان الجناحان الأيمن والأيسر يتقدمان على مستوى واحد تقريباً في حين كان وسط الجيش يتقدم متأخراً قليلاً عن الجناحين الأوَّلين، بحيث يسمح له بمساندة أي منهما، دون أن يعرض نفسه للصدمة المعادية، كما يسمح ـ في الوقت نفسه ـ للجناحين الآخرين بتطويق مؤخرة العدو إذا تعرض الوسط للمهاجمة، لقد اعتمد جنكيز خان في بناء جيشه على مبدأ الشعب المسلح، كما اعتمد خطط الحرب الخاطفة، وكانت المسافة الأرتال الثلاثة لا تتعدى مسيرة يوم واحد، وكان جنكيز خان يتقدم بجيشه ليلاً ونهاراً، فقد تمكن جيشه من قطه مسافة ١١٣٠كم في خمسة عشر يوماً أثناء حملته على بولونيا ومسافة ٤٥٠كم في مدة ثلاث أيام أثناء حملته على هنغاريا، وقبل وصوله إلى هدفه بأيام قليلة كان تقدمه ليلاً فقط، وفي منتهى الكتمان، ثم يعقب ذلك التسلل هجوم عنيف ومفاجئ فجراً،

---

١ المصدر نفسه صـ٨٨.

٢ المصدر نفسه صـ٨٨.

وكان يستخدم إشارات الميدان أثناء القتال، وكان يستعمل الأعلام نهاراً والمصابيح أو إضرام النار ليلاً، ولقد استخدم جنكيز خان في حروبه جميع خطط المخادعة والمباغتة، وكان يعقد المعاهدات مع خصومه لشلهم وبذل الشقاق في المملكة التي يريد دمارها قبل إعلان الحرب عليها، وكان يرسل عناصر من استخباراته لشن حرب نفسية على أعدائه قبل أية معركة، وكان يستخدم حرب الصاعقة لقهر جيوش أعدائه، وعلى الرغم من أن جنكيز خان سفاح ووثني، إلا أنه إمتاز بالزعامة والقيادة وتمكن من تأليف أقوى جيش، وتأسيس أقوى إمبراطورية عرفها تاريخ القرون الوسطى[1].

هـ ـ الاتصالات في الجيش المغولي: لقد اهتم جنكيز خان كثيراً بالاتصالات، لقد كانت الاتصالات في الجيش المغولي، كالآتي:

ـ الاتصالات بين التشكيلات، وكانت تقام بأسلوبين ـ الأول: بواسطة المخابرة البصرية، وتتم نهاراً لاعطاء الإشارة بالعلم الذي حمله حامل العلم المرافق لقائد التومان، وليلاً بواسطة فانوس أحمر، وكانت إشارة واحدة من العلم أو الفانوس كافية لتحريك السراية بالنظر إلى الحركة المطلوبة. الثاني: الاتصالات بين مقر الجيش في الجبهة ومجلس الحرب الأعلى في العاصمة (قرة قورم) وتتم هذه بواسطة آمر خط المواصلات، وكالآتي: كان الطريق بين الجبهة والعاصمة يقسم إلى قواطع، يكون مركز كل منها في أكبر مدينة في ذاك قاطع، كان (الداروجا) أو آمر خط المواصلات آمراً لمركز الاتصالات أو كما يسميه المغول (يام)، يوجد في هذا المركز آمر مركز الاتصالات، وكاتب لتسجيل وقت مرور السعاة ومغادرتهم المركز، والأشخاص الذين مروا بهم في ذهابهم إلى الجبهة أو إيابهم إليها، وعدد من الأشخاص لحراسة المركز، وعدد كبير من الخيول السريعة التي كان كثير منها مسرجاً متهيئ للحركة، كانت واجبات الرجال المخصصين بواجبات المراسلة من أولئك الذين يستطيعون قطع (٨٠ ـ ١٠٠كم) في اليوم الواحد، وكان قد تم تخصيص (٣٠٠ ألف) جواد لإدامة هذه الاتصالات[2].

---

١ الغزو المغولي لديار الإسلام صـ٩٠.

٢ الغزو المغولي لديار الإسلام صـ٩١.

و ـ **القيادة:** كان جنكيز خان يعين قادته من بين حرسه الخاص، وبهذا الأسلوب، جعل قيادة القوات العسكرية في جميع أنحاء الإمبراطورية الشاسعة بأيدي رجال يعرفهم جنكيز خان معرفة شخصية مباشرة، وقد جربهم بنفسه، وأن ما قام به أولئك القادة من أعمال مجيدة بالنسبة للمغول خير دليل على مقدرته على اختيار قادته[1]، وكان يقول: إن من يدبر بيته أحسن تدبير يتمكن من إدارة المملكة، وقال أيضاً: من تمكن من إدارة عشرة أفراد، وأحسن سوقهم تيسر له جيش عظيم[2]، ولم يكن قادة المغول أكثر من منفذين ماهرين بإرادة إمبراطورهم[3]، وكان يقتطع الوحدات من جيشه ويجحفلها من جديد طبقاً لمتطلبات الأحوال والظروف، وكان يتخذ إجراءاته سريعاً، ويتحاشى نتائج الفشل الذي قد تتعرض له قواته أحياناً ، ولقد أعطي لقب (النوين الأكبر) لأصغر أبناء جنكيز خان (تولوي) والذي كان اليد اليمنى لأبيه في الشئون العسكرية، كما حمل لقب (نوين) اخوة جنكيز خان الأصغران وهما (تموغا) و(بلغوطاي)، لم يتمتع أحد من صلب اخوة جنكيز خان بحقوق الإمارة، إلا سلالة (جوجي قسر) بينما دخل الباقون طبقة الأرستقراطية ـ النبلاء ـ وحمل أعضاء الأرستقراطية العسكرية لقب (طرخان)، ويتمتع حامل لقب طرخان بالامتيازات الآتية: الاعفاء من الضرائب، لهم الحق في الغنائم التي تقع في أيديهم في الحرب والصيد، واستطاعتهم دخول البلاط في أي وقت يشاؤون، دون إذن خاص، غير مسئولين عن جريمة يرتكبونها، إلا عند الجريمة التاسعة (الجرائم التي عقوبتها الإعدام)، يأخذون موضع الشرف في المآدب، ويقدم لكل منهم كأس من النبيذ، وكان في عهد جنكيز خان ثلاثة من قادة التومانات أحدهم (موقالي)، وكان يقود الميسرة أو الجبهة الشرقية، والثاني (بوكورجي) قائد الميمنة أو الجبهة الغربية، والثالث (أنايا) يقود قوة الوسط، وكان الأمراء ـ النويد ـ يكونون أعلى طبقة أرستقراطية في البلاد، أما الكتل الشعبية، فإنها لم تكن سوى أداة في أيدي مساعدي جنكيز خان[4].

---

١ المصدر نفسه صـ٩١.

٢ المصدر نفسه صـ٩١.

٣ المصدر نفسه صـ٩٢.

٤ الغزو المغولي لديار الإسلام صـ٩٣.

٤ ـ **أساليبهم في الحرب وسلوكهم مع المغلوبين:** قبل أن يقوم المغول بغزو إقليم من الأقاليم، كانت تطرح الخطة الحربية ـ التي سوف يتبعونها ـ على بساط البحث في جلسة "القوريلتاي" حتى إذا ما أستقر الرأي على الغزو، أطلق المغول جواسيسهم في بلاد العدو، فيجمعون الأخبار من هنا وهناك، ويستقصون حالة الجيش، ويختبرون حصون المدن، ثم يعودون بهذه المعلومات إلى بلادهم ويطلعون قادة الجيش عليها وبعد ذلك يرسل الخان رسلاً من قبله إلى حكام الأقاليم وسكان المدن يدعونهم إلى التسليم والنزول على طاعته وكانت أعمال المغول الإرهابية تلقي الفزع في نفوس سكان البلاد التي يزمعون الإغارة عليها وكانت قلوبهم تنخلع رعباً وفزعاً حينما يوجهون إليهم إنذارهم المعتاد، "ولسنا نعلم ماذا تفعل بكم الأقدار إذا لم تسرعوا إلى تقديم الخضوع والاستسلام والله وحده هو الذي يعلم ما هو نازل بكم[١]، فإذا رفضوا التسليم وأصروا على المقاومة، تقدم المغول لمحاربتهم، حتى إذا ما شارفوا أبواب المدينة، دعوا الناس للمرة الأخيرة إلى الدخول في طاعتهم، فإذا خرج عظمائهم وذوو الرأي فيهم، وحملوا إليهم الهدايا والتحف، وقبلوا تزويد الجيش المغولي بما يحتاج إليه من مؤن، فإن المغول لا يتعرضون لهم بالأذى، ويكتفون بأن يرسلوا إلى المدينة حاكماً من قبلهم، يصدر الخان مرسوماً بذلك حتى يكون لهذا الحاكم الاحترام والمهابة في النفوس وكان التسليم في هذه الحالة معناه التبعية المطلقة[٢]، وتسليم عشر خيرات الإقليم أو المدينة.أما إذا اتخذ السكان طريق العصيان، وسلكوا سبيل المقاومة خسر المغول خسارة قليلة أمام المدينة المحاصرة، فإنهم لا يعقدون مع أهلها صلحاً في حالة عجزهم على مواصلة القتال واضطرارهم إلى التسليم، بل يصدر الخان أوامره بقتل جميع السكان، لا فرق عنده بين صغير وكبير، ولا بين رجل وإمرأة، كذلك يأمر قواته بتخريب المدينة وإباحة القتل العام، والطريقة المتبعة في ذلك، أن يدعو المغول الأهالي بالخروج إلى ظاهر المدينة، ويبقوا على الصناع وأرباب الحرف وبعد ذلك يرسلونهم إلى تركستان ومنغوليا، ويختارون من بين الأسرى من يصلح للقتال، فيكونون منهم قوات غير نظامية، يطلقون عليهم اسم

١ تاريخ جهانكشاي (١٨/١)للجويني، المغول للصياد صـ ٣٦٤.

٢ المصدر نفسه صـ ٣٦٥.

(حشر) ثم يعملون سيوفهم في الباقين، فإذا أصر أهالي المدينة على المقاومة، رغم فرض الحصار عليها مدة طويلة فإن المغول يهاجمونها ويستولون عليها عنوة، أما إذا التقى المغول بجنود أعدائهم في أرض سهلة، فإنهم يهاجمونهم ليلاً ونهاراً حتى ينهكوا قواهم، وتكون النتيجة أما أن يستسلموا لهم، وأما يلوذوا بالفرار، وبعد المعركة يعطي الخان كل محارب من جنوده نصيباً عادلاً من الغنائم والأسلاب، كما يترجل عن حصانه ليعطيه من هو في حاجة إليه[1]. وكانت طريقة القتال التي سلكها المغول وجميع البلاد المتحضرة (الصين وغرب آسيا ثم في روسيا فيما بعد) واحدة على الدوام، فقد كانوا في كل مكان يسوقون سكان القرى العزل أفواجاً لشد أزرهم في حصارهم للمدن الحصينة، واعتاد المغول عند اقتحام الحصون أن يجعلوا هؤلاء السكان التعساء في المقدمة لكي يتلقوا هم السهام المنهالة عليهم، وليمهدوا الطريق للجيش الذي يتبعهم وكانت الأعلام في بعض الأحيان توزع عليهم لإيهام العدو بأن الجيش وافر العدد، ويقال إن عدد المغول عند حصار (خنجد) كان عشرين ألف فقط، بينما كان عدد الأسرى الذين أجبروا على مصاحبة الجيش خمسين ألف نسمة[2]، كذلك كان هؤلاء الأسرى يكلفون بحفر الخنادق، ونصب أدوات الحصار وما يراه المغول ضرورياً من الأعمال الحربية العنيفة الشاقة والأسرى المغلوبون على أمرهم من جراء ذلك معرضون للأخطار الجسيمة، دون أن يجدوا سبيلاً للفرار، إذ أن أعين المغول من ورائهم ساهرة عليهم، حتى إذا ما أنهك الأسرى قوى أعدائهم، يجيء دور المغول للإجهاز عليهم[3]. ووصف ابن الأثير المؤرخ المعروف ذلك وقال: وكانت عاداتهم إذا قاتلوا مدينة، قدموا معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون، فإن عادوا قتلوا، فكانوا يقاتلون كرهاً، وهم المساكين، كما قيل كالأشقر، أن تقدم ينحر وأن تأخر يعقل، وكان هم يقاتلون وراء المسلمين، فيكون القتل في المسلمين الأسارى، وهم بنجوة منه[4]. وكذلك برع المغول في الالتجاء إلى وسائل الخداع والتمويه، فكانوا إذا حاصروا مدينة من المدن وطال حصارهم لها دون جدوى

---

١ المغول للصياد صـ٣٦٥.

٢ المصدر نفسه صـ٣٦٥، دائرة المعارف الإسلامية صـ١٣٧.

٣ المغول صـ٣٦٧ للصياد.

٤ المصدر نفسه صـ ٣٦٧.

تظاهروا برفع الحصار عنها، والعودة من حيث أتوا، حتى إذا اطمأن أهالي المدينة إلى رحيل أعدائهم وألقوا سلاحهم، عاد إليهم المغول، وانقضوا عليهم فجأة قبل أن يستعدوا فتسقط المدينة في أيديهم على الفور[1].

٥ ـ **الاهتمام بالخبرات:** بالرغم مما اشتهر به جنكيز خان من الصلابة والعناد في سياسته فإنه لم يغفل الإفادة من تجارب المتحضرين، إذ تلقى المساعدة من أرباب الخبرة والمرشدين وذوي الاطلاع فيما يتعلق بالشئون الإدارية والمخابرات التي تساعده على القيام بأعماله الحربية، والمعروف أن تنظيم الإدارة المدنية عند جنكيز خان في مستهل حكمه كان أمراً بالغ الصعوبة، فلا شك أن المغول وقتذاك لم يبلغوا من المستوى الحضاري ما بلغته القبائل التي خضعت لهم كالكرايت والنايمان، ولذا أضحت الحاجة ماسة إلى الإفادة من الشعوب الخاضعة الموالية له عقب توحيد منغوليا، وكان التجار المسلمون أول من ظهر في بلاد المغول من أصحاب الحضارات، بل أن ثلاثة من المسلمين كانوا من أشد الناس إخلاصاً لتيموجين (جنكيز خان) في الأيام الحالكة التي صادفها في حياته المبكرة، وهؤلاء هم: جعفر خوجا، وحسن، ودانشمند الحاجب، وأفاد جنكيز من حسن ودانشمند في حملته على مملكة خوارزمشاة بما قاما به من مفاوضات باسم سيدهما مع السكان الأصليين، بل حدث حينما عزم جنكيز خان على مهاجمة الصين الشمالية، أن أنفذ إلى الملك التون خان، رسولاً اسمه جعفر، ولم يلبث أن نقل إلى جنكيز خان أحوال البلاد ووصف الطريق الذي سلكه، فأفاد جنكيز خان من هذه المعلومات في حملته التي انتصر فيها على التون خان، واتخذ جنكيز خان له مستشارين من الموالين له على اختلاف عناصرهم، ومن هؤلاء: محمود يلواج من المسلمين، وتا ـ تا ـ تونجا من الأويغوريين، ولي ليو تشو تساي، من الصينيين وهو الذي خدم آخر ملوك النايمان وعلّم أبناء جنكيز خان الكتابة الأويغورية والراجح أن محمود يلواج هو محمود الخوارزمي، أحد السفراء الثلاثة الذين وجههم جنكيز خان إلى محمد خوارزمشاه، سنة ١٢١٨م ومنذئذ ظل يعمل مستشاراً لجنكيز خان، فعينه حاكماً على إقليم ما وراء النهر بعد سقوطه في أيدي

---

١ المصدر نفسه صـ٣٦٧.

المغول فأحسن إدارته. وليو تشو تساي الخيتائي الصيني، فكان من أهالي الصين الشمالية وقد شغل أبوه منصب الوزارة لأسرة كين، وأشتهر يي ليو تشو تساي بثقافته العالية ـ يأتي عنه الحديث منفصلاً ـ حيث استفاد جنكيز خان من خبرته وأفكاره في إدارة الدولة، فقد أقام جنكيز خان أصول الإدارة المغولية على أفكار وثقافات الآخرين التي استفادها من الخبراء والمستشارين من الشعوب والأمم الأخرى، كالحضارة الصينية والاويغوريين[1]وغيرها.

٦ ـ **حكيم من الصين:** وقع على يلوي شو تسي أن يلعب دوراً هاماً وصعباً أثناء قيام الإمبراطورية المغولية، فقد حظي بإعجاب جنكيز خان منذ أن وقعت عينه عليه وكان أول فيلسوف صيني يلتحق بالجيش المغولي ولم يجعل المغول الأمور ممهدة أمام هذا الطالب للفلسفة والطب والفلك وحدث مرة أن سخر ضابط معروف بمهاراته في صنع الأقواس بالصيني العالي القامة والطويل اللحية، يقول له: ما هي الفائدة من وجود رجل كتب مع محاربين؟ فرد الصيني: إن صنع أقواس جيدة يحتاج إلى نجار، وأما عند ما يستدعي الأمر إدارة إمبراطورية، فالحاجة تدعو إلى صاحب حكمة، وصار حظيا لدى جنكيز خان وأثناء حروبه الكثيرة والطويلة، بينما كان المغول يجمعون الأسلاب والغنائم، كان هذا الحكيم يجمع الكتب والجداول الفلكية والأعشاب الطبية، وقد سجل جغرافية الحملات والمعارك والمواقع، وعند ما اجتاحت الجيش موجة من الوباء، فقد تأمنت له الفرصة عندئذ للأخذ بثأره من الضباط الذين كانوا يهزأون به وبكتبه لقد سقاهم من ماء أعشابه وجعل الله لهم فيه شفاء.

كان جنكيز خان يقدره لعلمه ونزاهته، ولم يترك الحكيم الصيني فرصة تمر إلا حاول فيها إيقاف القتل الذي كان يفرش طريق الجيش المغولي، وتقول أسطورة إن جنكيز خان شاهد مرة في مضائق جبال هملايا السفلى، حيواناً عجيباً بشكل أيل، لكن أخضر اللون وبقرن واحد لا غير، فاستدعى هذا الصيني ليسأله عن ذلك الحيوان، فأجاب هذا بصوت خفيف وقور: هذا هو كيو ـ توان. إنه مخلوق يعرف جميع اللغات الأرضية، ويحب الأحياء من بني الإنسان، ويشمئز كثيراً من أعمال

١ المغول للعريني صـ ١٥٢.

التقتيل. إن ظهوره هو بلا شك تحذير لك أيها السيد الخان، ودعوة إلى الكف عن اتباع هذا السبيل[1]، وتعتبر كتابات الحكيم الصيني ـ ليو تشو تسي من أدق المصادر وأوثقها، ويرجع إليه الفضل فيما كان للمدينة الصينية من تأثير على جنكيز خان وفي حد المذابح التي كان يجريها المغول في السكان بعد الاستيلاء على بلادهم وفي انقاد الكتب من النهب والحريق الذي تعرضت له المدن على أبدي المغول ومن مظاهر اهتمامه أيضاً، ما أجراه من أبحاث لاستخلص عقاقير طبية، لمكافحة ما يصدر عن جثث الضحايا من أوبئة وعلى الرغم من إخلاص بي لوي تشو تسي لدولة المغول، ولأسرة جنكيز خان، فإنه لم يستطع أن يخفي شعوره وعاطفته حينما يطلب الرأفة بمدينة أو إقليم، حل به قضاء المغول وحكمهم ويشير إلى ذلك اوكيتاي ابن جنكيز خان بقوله: ألا تزال تبكي على هؤلاء القوم. ومع ذلك كان لوساطته الفطنة الحكيمة أهمية في وقف إجراءات يتعذر تلافيها أو إصلاحها، فنظراً لأنه ينتمي أصلاً للعنصر المغول ولأنه تشبع بالحضارة الصينية يعتبر وسيطاً طبيعياً بين عنصر المغلوبين على أمرهم وبين الطغاة المغول، على أنه ما كان ليسعى مباشرة عند المغول للدفاع عن قضية إنسانية، خوفاً من أنه لا يجري الاستماع إليه، بل حرص على أن يثبت لهم أن الرأفة من دواعي السياسة السليمة وبذلك كان يحقق غرضه، فما كان يرتكبه المغول من همجية ووحشية، ويرجع إلى ما اشتهروا به من الجهل، وحدث في أثناء الحملة الأخيرة التي قادها جنكيز خان على كانسو، أن أشار قائد مغولي إلى أنه لا جدوى من الرعايا الصينيين الجدد، لأنهم ليسوا صالحين لاستخدامهم في الحرب ولذا يحسن استئصال شأفة كل هؤلاء السكان، الذين يبلغ عددهم نحو عشرة ملايين نسمة، حتى يصبح تحويل جانب من الأرض إلى مراعي لخيل العساكر، وأعرب جنكيز خان عن تقديره لهذه النصيحة غير أن الحكيم الصيني لم يلبث أن أعلن للمغول الذين لا يرتابون في إخلاصه مطلقاً ما يعود عليهم من المزايا باستغلال الأراضي الخصبة والإفادة من هؤلاء الرعايا المجدين وشرح أن ما يفرض من الضرائب على الأرض، ومن مكوس على المتاجر سوف يتحصل منها كل سنة نحو ٥٠٠ ألف أوقية من الفضة، و٨٠ ألف ثوب من الحرير، ٤٠٠ ألف غرارة من الحبوب، فكسب بذلك

١ جنكيز خان صـ٣١٩.

المعركة، وعهد إليه جنكيز خان أن يضع على هذه القواعد مقدار ما يتحصل من الضريبة[1]. ومما يـذكر لجنكيـز خـان تقـديره واحترامـه واسـتفادته مـن المـتحضرين والمثقفـين وأصـحاب الخـبرات وفي عهـد أوغوداي، خليفة جنكيز خان وابنه، كان هذا الصيني يدير الإمبراطورية بمفرده تقريباً، وقد اسـتطاع أن يأخذ أمر تنفيذ العقوبات من أيدي الضباط المغول القساة القلب ليضـع ذلـك في أيـدي قضـاة عيـنهم لهذا الواجب، كما عين جباة ضرائب لصالح الخزينة، وكانت شجاعته وحكمته وسرعة خـاطره، وذكـاؤه يستدعي إعجاب القادة المغول وكان يعرف كيف يؤثر فيهم، فمثلاً كان الخاقان أوغـوداي مـدمناً عـلى الشراب بكثرة وكان للحكيم الصيني رغبة كبيرة في أن يظل هذا الخاقان عـلى قيـد الحيـاة أطـول مـدة ممكنة ولما رأى أن نصائحه لأغوداي واعتراضه على إغراقه في شرب الخمر لا تجـدي فتـيلاً، جـاءه يومـاً بوعاء من حديد تحتفظ به الخمرة، وقد تآكلت حافته بفعل الكحول، عرض هذا الوعاء عـلى العاهـل المغولي وهو يقول: إذا كانت الخمرة تحدث مثـل هـذا التـأثير في الحديـد، فـاحكم بنفسـك كيـف يكـون تأثيرها في أحشائك وتأثر أوغوداي بهذه البرهنة، فاعتدل في شرابه، ومرة غضـب أوغـوداي لعمـل قـام بـه الوزير الصيني وأمر بإلقائه في السجن، ولكنه غير رأيه بعد فترة وأمر بالإفراج عنه ولكن الصيني لم يرغـب في مغادرة السجن، وأرسل أوغوداي يستفسر عن السبب الذي منعه عن الظهور في الـبلاط فأجـاب: أنـت جعلتني وزيراً لك وأنت وضعتني في السجن، إذن فإني مذنب، وأنت أطلقت سراحي، إذن فأنا بـرأي، إنـه لسهل عليك أن تجعل مني ألعوبة في يديك ولكن كيف أستطيع بعد ذلك أن أديـر شـؤون الإمبراطوريـة؟ وأعيد بعد ذلك لوظيفته وكان بعض الضباط المغول يتهمونه باطلاً بجمع ثروة كبيرة مـن وراء عملـه مـع جنكيز خان وأوغوداي ولذا عمدوا بعد موته إلى تفتيش مسكنه لكي لا يجـدوا مـن الـثروة المزعومـة غـير أدوات موسيقية متحفية ومخطوطات، وخرائط وجداول وحجارة عليها كتابات منحوتة[2].

٧ ـ الكوريلتاي "المجلس العـام" وأركـان الدولـة:كـان المجلـس العـام "الكوريلتـاي" يعقد كل عام وكان المكان، الذي اختير لانعقاد آخر كوريلتاي في حياة جنكيز خان، مرجعـاً

١ المغول للعريني صـ ١٥٢.
٢ جنكيز خان صـ ٣٢٠.

تبلغ دائرته ٤٠ كلم تقريباً، وكان مكان مثالياً، وفقاً للتفكير المغولي، فالعشب يغطي الأرض على جوانب النهر والكلأ وفير والصيد كثير، وكان الوقت أوائل الربيع وهو الشهر المفضل لاجتماع الكوريلتاي وأخذ قادة الجيش يفدون في المواعيد المحددة، ولم يتأخر قليلاً سوى سوبوداي المستدعى من أوروبا، لقد قدموا من جميع أركان المعمورة المعروفة، جنرالات، خانات، ملوك وسفراء، قاموا برحلة طويلة للوصول إلى مجلس نبلاء الإمبراطورية المغولية وقد أحضروا معهم عدداً كبيراً من البطانة والحاشية وكانت المركبات القادمة من الصين مجرورة بالبقر ومغطاة بالحرير وكانت ترفرف فوقها الأعلام المغتنمة وكانت مركبات الضباط القادمين من سفوح التيبيت مسقوفة مذهبة ومبرنقة، مجرورة بجمال التيبيت(الياك)، ذوات القرون العريضة والأذيال الحريرية البيضاء، العظيمة القيمة لدى المغول، الذين يستعملونها زينة للرايات والأعلام، وجاء تولي أمير الحروب، قادماً من خراسان جالباً معه عدداً كبيراً من الجمال البيضاء وجاء جغطاي، هابطاً من ثلوج الجبال يقود مائة ألف رأسي من الخيل هدية لأبيه، كان الجميع يرتدون ألبسة من ذهب وحرير ومعاطف من فراء السمور، ويتدثرون إضافة بأردية من جلود الذئاب وقاية لملابسهم الثمينة وكانت الخيل، عوضاً عن الجلد المبقع بفعل الأنواء والمناخات، مبردعة بقمصان من الزرد المجلجل، وسروجها تلمع بالفضة المجلوة وتخطف الأبصار بأضواء الجواهر النفيسة واجتمع الكل في فسطاط أبيض كان من الضخامة بحيث يستوعب ألفي شخص، وكان للفسطاط مدخل لا يستعمله سوى الخاقان، وكان الجنود حاملوا التروس من الشدة والصرامة بحيث لم يكن قط ليجرؤ أحد على المجازفة بالاقتراب من مقر جنكيز خان وكما فعلوا في مناسبات سابقة، فقد أتوا معهم بهدايا للخاقان، بأحسن أسلابهم من الخيل والنساء والأسلحة وبالكنوز الملتقطة بعناية عن خزائن نصف العالم تقريباً ويقول مؤرخ مغولي إنه لم يسبق قط أن شاهد المغول مثل هذه الفخامة والأبهة من قبل. أمراء الإمبراطورية يشربون الآن، عوضاً عن حليب الأفراس، خمر العسل ونبيذ فارس الأبيض المعتق وكان جنكيز خان محباً لنبيذ شيراز[١]. جنكيز خان يجلس الآن على العرش الذهبي الذي كان للسلطان محمد الخوارزمي، وقد جئ به من سمرقند

١ جنكيز خان صـ٣٢٨.

وكان إلى جانبه تاج وصولجان السلطان الراحل، وعندما اجتمع الكوريلتاي في أول جلساته، واستهل جنكيز خان أول جلسة بأن أعطى للحضور خلاصة عن حملات السنوات الثلاثة الأخيرة إلى أن قال: لقد جنيت سطوة عظيمة، وسلطاناً كبيراً بفضل"اليسا" وعليكم جميعاً أن تعيشوا في طاعة القوانين[1]، لم يتبجح جنكيز خان الداهية بإنجازاته، وكان الشيء الأهم في نظره، والوجب تحقيقه، هو الخضوع لدستور الإمبراطورية المغولية(الياسا)، إنه لم يعد بحاجة إلى توجيه نصح لضباطه، ولا إلى قيادتهم بنفسه، فهم الآن قادرون على شن الحروب على مسئوليتهم وكان يرى بوضوح مدى الخطر الكبير الذي كان من المتوقع أن ينجم عن وقوع التفرقة والتراع فيما بينهم وقد التفت إلى أولاده الأشقاء الثلاثة وقال: ـ لا تسمحوا أبداً للخصومات أن تحل بينكم! وجرت حفلات ومآدب لمدة شهر، ثم انفرط عقد الحشد، فغادر جغطاي إلى جباله وتوجه آخرون في طريقهم إلى كراكوروم وعلى رأسهم جنكيز خان وكان سوبوداي يسير إلى جانبه ويحدثه عن مغامراته في عالم الغرب وكرّس جنكيز خان بعد ذلك مابقي من حياته لتوطيد دعائم إمبراطوريته العظيمة، التي امتدت من كوريا حتى الخليج العربي، وجرى تنظيم الإدارة بصورة كاملة، دقيقة ومنظمة بإشراف الحكيم الصيني يلوي شو تسي وربما كان الشيء الأكثر إلفاتاً للنظر، في هذه الإمبراطورية تعدد الديانات، وقد جمع جنكيز خان حوله مستشارين من جميع الأديان وثنين ومسيحيين وبوذيين ومسلمين[2].

٨ ـ **الاستراتيجية المغولية:** كان المغول على مقربة من الحضارة الصينية، لذا فإن تأثير الثقافة الصينية المتفوقة على المجتمع المغولي أمر لا يمكن إهماله ، وهناك احتمال بأن يكون جنكيز خان قد تأثر، بالتفكير العسكري الصيني في مجال المحاربة وسبب ذلك أن جنكيز خان، بعد أن نجح في تدمير إمبراطورية كين الصينية، التي كانت تعرف بالإمبراطورية الذهبية أكره عدداً كبيراً من العلماء والعسكريين وأصحاب الحرف والفنون الصينيين على العمل في خدمته، وكان المغول ولا شك حتى قبل اجتيازهم لجدار الصين الكبير، قد تأثروا بمن كانوا يزورهم من الصينيين من تجّار وعلماء

---

١ المصدر نفسه صـ٣٢٨.

٢ المغول صـ٣٥٩ للصياد.

ومنفيين سياسيين وعسكريين فارين من حاميات الحدود والسر في ذلك النجاح العجيب للمغول في قيادة الجيوش، هو تفهم الكامل لطبيعة الحرب، فلقد قاتلوا بدهاء غير معطين غير إمهال، ينتزعون المبادرة ويحتفظون بها دون تراخ أو مهادنة، ويعملون في نفس الوقت على تسكين مخاوف الخصم بحمله على شعور بالأمن الكاذب وذلك قبل أن يتحركوا منقضين عليه كالصاعقة، لقد كان المغول يعدون بعناية ودقة خططهم لكل حرب في المجلس العام (الكوريلتاي) الذي كان نوعاً من مجلس حربي أيضاً، لقد كانوا يرسلون العملاء والجواسيس إلى أراضي العدو ليأتوا بأعلام عن أموره العسكرية، والسياسية والاقتصادية، والجلوغرافية وكانوا يستعملون بحذق ودهاء تكتيكات ما يعرف اليوم باسم الرتل الخامس، ويتعاطون المحاربة النفسية، وقد استخدموا في الصين وأوربا الشرقية، سياسة الإرهاب الكلية، وادَّعوا في فارس وبلاد ما وراء النهر، بأنهم غضب الله وكان يترك لقادة الميدان، بعد وضع الخطة، كامل الحرية في استخدام مواهبهم ومبادراتهم، في نطاق حدود واسعة لتنفيذ الاستراتيجية العامة عند بداية فصل الحصاد، وبينما يكون الفلاحون في البلد الضحية، غارقين عاكفين على حصاد مزروعاتهم، وإذا بهم يفاجئون بنزول المغول عليهم كالجراد، لالتقاط حاجتهم من الحبوب، ولإتلاف ما يزيد عن هذه الحاجة[١].

وقد وصف كاتب أوربي أسلوب القتال والمحاربة المغولية ووقعه على الأوربيون كما يلي: إن أوربا تدرك اليوم معنى المحاربة المغولية وأبعادها، كانت تعليمات جنكيز خان تقضي بأن يعم الرعب والهلع جميع الأرجاء عقب الضربة الأولى، وأن يعمّ الشلل الأرض ومن عليها بإثارة إحساس بالعجز التام كالذي تحدثه كارثة طبيعية لا رماد لها ولا وقاية منها، وبحيث يكون الشعور بأن كل مقاومة لن تكون سوى الجنون المطبق بعينه، إن الشياطين أخوان الشياطين، وقد أرسلهم الله غضباً ولعنة[٢].لقد اظهر جنكيز خان للعالم بصورة دراماتيكية، وكشف عن القيمة الحقيقية للمزج العسكري من الاستعداد والإعلام، والانضباط، والحركية وضربة المطرقة والدروس المستفادة من حروب جنكيز خان من حيث الجوهريات لا تزال

١ جنكيز خان صـ١٦٧.
٢ جنكيز خان صـ١٦٨.

اليوم صالحة كما كانت في أيامه ولـذلك أن واضـعي نظريـة القتـال الميكانيكيـة الحديثـة والـداعين إلى حرب الدبابات ومنظريها، كالجنرال فوللر والسير ليدل هارت وآخرين قد لجأوا إلى حروب جنكيز خان، ليستوحوا منها التوجيه والإرشاد[١].

إن الدرس الجوهري الذي نتعلمه من الإسـتراتيجية المغوليـة وإنجازاتهـا العسـكرية يتمثـل في واقع أنه ما لم يكن الجيش مجبولاً ومشرباً بروحية واحدة شاملة مـن التفـاهم، والانسـجام، والمسـعى الواحد والتكرس للهدف والغاية، ابتداء من القائد الأعـلى حتـى جنـدي الصـف، فـإن ذلـك الجـيش لا يستطيع أن يقاتل ويفوز[٢].

لقد تميـز التخطـيط الاسـتراتيجي المغـولي بـالتركيز عـلى المؤسسـة العسـكرية والتـي اشـتهرت بالعمليات الحركية السريعة الخاطفة، واستعمال الخداع والمخاتلة على سلم كبير وإخضاع المجتمع كله لأغراضها الخاصة وجني طاقة عمل ضخمة من شدة الانضباط والتقيد بالقوانين والسهر على تطبيقهـا، وتتميز هذه العسكرية أيضاً في الأمور التالية:

١. تأمين الإعلام الاستراتيجي اللازم لمناورات المخادعة والتضليل، بقصد تشتيت العدو.
٢. توسيع الخلافات الداخلية لدى الخصم.
٣. استغلال السرعة وطاقة الاحتمال للمناورة والمفاجأة.
٤. تجنيد الطاقة البشرية المحلية المغلوبة، لتغطية الخسائر في الصفوف وتدثيرها.
٥. احتلال المدن قبل أن تظهر فيها أية مقاومة جدية.
٦. التنسيق الصحيح، وفي حينه، بين مفارز متباعدة.

وهذه الميزات جميعها تؤدي إلى الحفاظ على الطاقـة البشريـة المحـدودة وإلى الانتصار، ولم يقم النجاح العسكري المغولي على كفاءة واحدة ، وإنما قام عـلى اشـتراك وتعاون من جميـع الكفـاءات، ولـو غـير مغوليـة، كـان الصـينيون ينتجـون مهندسـين أفضل/ والأتراك خيالة أسرع، والمسـلمون أكـثر بطولـة، إلا أن المغـول كـانوا يظهـرون

١ المصدر نفسه صـ ١٦٩.
٢ المصدر نفسه صـ١٧١.

جميع إمكانياتهم وخواصهم، المادية والروحية والنفسية، في نموذجية عسكرية صالحة لشعب مكرَّس بكليته للحرب، لقد حول المغول رابطة قبيلة طوعية إلى دولة عسكرية عديدة الأوجه والأدوار، وحافظوا جيوشهم قوية بالانضباط الصارم وافتراس العدو، وكانت الشبكات البريدية ومحطاتها المرحلية تسمح بالاستجابة عاجلاً إلى كل تحد على حدودهم المترامية الأطراف، وكانت استراتيجيتهم ذاتية المنبع، قامت وتطورت، حسب الاستطاعة التكتيكية والإمكانات الاستراتيجية المتاحة لهم[١].

٩ ـ عادات وتقاليد اجتماعية: كان للمغول عادات وتقاليد اجتماعية سار عليها جنكيز خان وأبناؤه من بعده، ونظراً لغربتها وطرافتها، نشير إلى أهمها، لكونها جزء من مقومات المشروع المغولي في عهد جنكيز خان، فمن المعروف عن المغول أنهم كانوا يسكنون الخيام، كما هو المتبع عند البدو، وكانوا يسمون أمكنة إقامتهم في المصايف والمشاتي ((يورث)) أو ((أوردو))، وجرياً على هذه العادة كانوا يختارون أماكن معينة يقضون فيها الصيف، يقال لها ((بيلاق))، وأخرى يمضون فيها الشتاء تسمى ((قيشلاق))، واستمروا يسيرون على هذا التقليد حتى بعد أن فتحوا كثيراً من البلاد المتمدنة، واضطروا إلى سكن العواصم، فكانت لهم أمكنة يقيمون فيها صيفاً وأخرى يقيمون فيها شتاء وهذه الخيام في المصايف والمشاتي، كانت تتخذ صفة المدينة الكبيرة إذ أنه بالإضافة إلى كثرة الخيام والأكواخ، فإن السكان الذين يصحبون الخان، كانوا يمثلون جميع الطوائف من قواد الجيوش لإلى القضاة والكتاب والصناع والتجار وغيرهم، وكان أرباب الحرف والصناعات يزاولون عملية البيع والشراء، ويمدون هذه المدن المتنقلة بما يلزمها من الحاجيات، وكانت عادة المغول في حالة حدوث أمر هام، كتنصيب ملك جديد أو القيام بحملة حربية أن يدعى أمراء المغول وأقاربهم إلى الاجتماع بواسطة رسل يقام لهم ((إيلجيان)) مفرد ((يلجي)) أي مبعوث أو سفير للتشاور في مختلف المسائل المطروحة على بساط البحث. وهذه المجالس يقال لها بالمغولية ((قوريلتاي))، وأما عن الزواج، فقد كان للخان أن يتزوج بمن يشاء من النساء، وكان يأخذ بمبدأ تعدد الزوجات والعادة المتبعة أنه إذا تغلب على ملك أو

---

١ جنكيز خان صـ ١٧٤ ، ١٧٥.

أمير أو عقد معه اتحاداً أو تحالفاً، فإنه كان يتزوج من ابنته أو أخته وأمه إذا تغلب عليه وقتله، فكان يتزوج من امرأته، وكان جنكيز خان يسير على تلك الطريقة، ويقال إن عدد زوجاته كان يزيد عن ٥٠٠ زوجة، وكان المغول يفضلون أبناءهم من الزوجة التي يؤثرونها على غيرها من النساء، وبعد موت الخان كانت تئول جميع نسائه إلى أكبر أبنائه، وله الحق في أن يتزوج بمن يشاء منهن، وذلك باستثناء والدته، كما أن له أن يمنحهن لأصدقائه أو يطلق سراحهن[1]، وأما مجموع الأبناء والأقارب والأشخاص الذين هم من عشيرة الخان أو الأمير، فقد كان يطلق عليهم كلمة ((أُرُوغ)) بمعنى ((عشيرة)) أو ((سلالة))، أما رعايا الخان الذين يخضعون لسيطرته، فقد كان يطلق عليهم لفظة ((أولوس))[2].

١٠ ـ **الخرافات بين المغول:** كان المغول يعتقدون أن للشياطين تأثير كبير على حياتهم، وكانوا يخشون السحر، ويخافونه وقد تضمنت الياسا أحكاماً شديدة رادعة توقع على كل من يتهم بالسحر والشعوذة بقصد الأضرار بالغير وكانوا ينظرون إلى طائفة الكهنة من البوذيين على أنهم وحدهم هم الذين يستطيعون إبطال تأثير السحر ودفع ضرره، ويعرف كل واحد منهم باسم ((بخش))، والساحر الملم بضروب السحر يقال له ((قام))، ولقد كان هؤلاء الكهان يزعمون أنهم يستطيعون تسخير الشياطين، كما أن ذوي الأرواح الشريرة يألفونهم ويأتمرون بأمرهم، وأنهم قديرون على التنبؤ بالغيب عن طريق تحضير الشياطين والأرواح، فعند قصف الرعد أو ظهور البرق، كانوا يقفون مشدوهين صامتين كأن على رؤوسهم الطير، وإذا اتفق أن أصابت صاعقة شخصياً ولم يهلك، فإن أفراد أسرته وقبيلته يطردونه على الفور، ولا يصرحون له بالعودة إلى الخيمة قبل مضي ثلاث سنوات، والغريب أنهم كانوا يتصورون أنه إذا جلس شخص في الماء وقت الربيع أو الصيف، أو غسل يده في النهر و وضع الماء في أواني ذهبية أو فضية، أو ألقى بلباس مغسول في الصحراء، فإنه ينتج عن هذا كله رعد وبرق كثير، وهو أخشى ما يخشاه المغول، وتجنباً لكل هذا، نصت الياسا على عقوبات قاسية تنفذ فوراً فيمن يقترف هذه الخطايا وهكذا كان المغول يخشون قوة السماء الأبدية ـ كما كانوا يسمونها ـ أكثر من أي آخر، فمن السماء تأتي

---

١ المغول للصياد صـ٣٥٢.

٢ المصدر نفسه صـ٣٥٢.

الأعاصير والرعد والبرق والعواصف الثلجية، ومن السماء أيضاً يأتي دفء الربيع الذي يهب الحياة والأمطار التي تغذي الحشائش وفي بعض الأوقات كان جنكيز خان يتجه بمفرده إلى قمة جبل مرتفع ليتضرع إلى هذه القوة الخفية في السماء قائلاً: ابعث إلي بأرواح طبقات الهواء العليا لتصادقني، أما على الأرض فأبعث إلي برجال يكونون عوناً لي[1]، كذلك وقر في نفوس البعض منهم أنه بدون التمتمات والطقوس والخزعبلات التي يلجأ إليها الساحر، لا يمكن أن ينزل المطر والثلج وكانوا يعاملون المرضى معاملة قاسية وكانت عاداتهم عندما يمرض أحد منهم، يعزل عن مرقده وتوضع علامة على مسكنه تشير إلى وجود مريض في الداخل، وإلى عدم دخول أحد عليه، ولا يزور المريض أحد أبداً إلا من يتولى خدمته وقد توضع حربة خارج خيمة المريض، تلف حولها قطعة من الصوف الأسود وبذلك لا يجرؤ شخص غريب على دخولها وعندما تشتد علة المريض، يتركه الجميع، لأنه ليس مصرحاً لمن يشاهد موته أن يدخل قصر الإمبراطور، أو مسكن عظيم من العظماء حتى يبزغ القمر الجديد، فكأنهم بسلوكهم هذا ينظرون إلى المريض نظرتهم إلى ملوث نجس[2]. وهكذا ذاعت تلك الخرافات، وانتشرت بين أقوام المغول انتشاراً عجيبا، وقد تحدث عنها اغلب المؤرخين والرحالة[3]، وكان المغول يقدرون الأشخاص الذين يؤدون لهم خدمات جليلة، أو يقدمون لهم مساعدات قيمة في أوقات المحنة والشدة واعترافاً بهذه المنة، كانوا يعنون بمثل هؤلاء الأشخاص، ويتعطفون عليهم وهذا العطف والتقدير يسمى بالمغولية "سيورغاميش" ويهبونهم الأراضي والأملاك ليستغلونها، ولينتفعوا بما تدره عليهم، ثم تئول تلك الأملاك إلى أعقابهم بالوراثة ويعرف هذا في المغولية بما يسمى ((سيورغال)) وأحياناً كانوا يعطونهم لوحات شبيهة بالميداليات في العصر الحديث وهي من الذهب أو الفضة أو الخشب حسب مقام كل شخص، وهي في حجم كف اليد، وينقش عليها اسم الله واسم الخان، وأسمى الأنواع منها ما كانت تزينها صورة الأسد، وأما إذا شك الخان في أحد أتباعه، فإنه يقيله إلى المحاكمة لمحاكمته[4]، وكان المغول يعتقدون أنه لا يصح أن يوجد إلى جانب حاكم آخر على ظهر الأرض ينازعه

---

١ المغول صـ ٣٥٥.

٢ المصدر نفسه صـ ٣٥٦.

٣ المصدر نفسه صـ ٣٥٦.

٤ المغول للعريني صـ ٣٥٨.

السيطرة والسلطان ((رب في السماء وحاكم في الأرض))، وكانوا يعتقدون أن الخروج على طاعة جنكيز خان ومخالفة أوامره، يعد جرماً عظيماً لا يغتفر في نظر المغول، ذلك لأن أوامره في عقيدة هؤلاء القوم إنما تصدر من السماء، فعصيان رئيسهم، إنما عصيان لله، وكان ينظر أيضاً إلى أفراد أسرته تلك النظرة القدسية، فالدنيا تقوم وتقعد إذا اعتدى على واحد منهم أو أصيب بأذى، وأن تخريب مدينة ((نيسابور)) وجعل أعاليها أسافلها بسبب قتل ((طغاجار)) صهر جنكيز خان، وتسوية ((باميان)) بالأرض على إثر قتل ((موتوجن)) ابن ((جغتاي)) وحفيد جنكيز خان، ليؤيد هذه الحقيقة[1].

لم يكن المغول يعرفون البلاط والعاصمة في بداية أمرهم، لذا فلم تكن لديهم مراسم محددة للتتويج والاستقبال الرسمي والمجلس الملكي العام، بل كانت مراسم هذه الرسميات تتسم بالبساطة، وبعد وفاة جنكيز خان وعندما أراد كبار رجال العشيرة تتويج ابنه ((أقطاي خان)) عليهم، قاموا أولاً بتحديد يوم السعد عن طريق السحرة والمنجمين، ثم رفعوا قلانسهم حسب عاداتهم، ثم أمسك ((جغتاي)) يد أخيه اليمنى وأمسك "أوتكين)) شقيق جنكيز خان يد "أقطاي" اليسرى وأجلساه على العرش، وقدم تولي له شراباً ثم جثا الحاضرون جميعاً على الأرض ثلاث مرات احتراماً وهنأوه وهم راكعون، وبعد انتهاء مراسم التتويج خرج "أقطاي" من المعسكر في معية سائر الأمراء، وجثوا أمام الشمس ثلاث مرات، ثم جلسوا لتناول الشراب والاحتفال ، وبعد انتهاء الحفل، ظل المغول يطهون الطعام لثلاث أيام متوالية على روح جنكيز خان، واختاروا أربعين فتاة من نسل الأمراء وأركبوهن في كامل زينتهن وألبسوهن أفخر الثياب وزينوهن بأقيم أنواع الجياد، ولكنهم قتلوهن في النهاية، كما قتلوا أجيادهن معتقدين أن في ذلك الإجراء إرضاء لروح جنكيز خان[2]. هذه بعض الخرافات والعادات والأعراف التي شكلت وكانت جزء من المشروع المغولي.

---

١ المغول للصياد صـ١٤٣.

٢ المغول للصياد صـ٣٥٧.

المبحث الثالث

إزالة المغول للدولة الخوارزمية

اتفق الجغرافيون المسلمون في تحديدهم لإقليم خوارزم، فذكروا أن حدوده من الغرب بلاد الترك الغزية.ومن الجنوب خراسان، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر ومن الشمال بلاد الترك أيضاً[1]، واعتبر الاصطخري إقليم خوارزم من أقاليم ما وراء النهر، بينما عده جغرافي آخر من أهل القرن الخامس الهجري من مدائن خراسان[2]، ولعل السبب في إضافته إلى خراسان في القرن الخامس يرجع إلى خضوعه للسلاجقة في سنة ٤٣٠هـ /١٠٣٨م[3]، وهذا تحديد فرضه الواقع السياسي لا الواقع الجغرافي وأما ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م، فقد ذكر عن هذا الإقليم إنه منقطع عن خراسان وعن ما وراء النهر[4]، وأما خوارزم في وقتنا فتقع ضمن الاتحاد السوفيتي ـ سابقاً ـ ووزعت بين جمهوريتين هما اوزبكستان وتركمانستان السوفيتين[5]سابقاً، وذلك بعد غزو الروس لها وخلعهم أميرها خان خيوة السيد عبد الله خان بهادر في سنة ١٩٢٤م[6].

أولاً: سلاطين خوارزم:

ينسب سلاطين الدولة الخوارزمية في الأصل إلى أنوشتكين وهو عبد تركي كان مملوكاً للأمير السلجوقي بلكباك، اشتراه من بلاد الغور[7]التي تقع في أفغانستان الحالية ويبدو أن هذا الأمير السلجوقي قد رأى في أنوشتكين ملامح نجابة اتضحت في تكوينه الجسمي المنسق، وصفاته النفسية الهادئة، ومن ثمة قدمه إلى بلاط السلطان السلجوقي ((ملكشاه)) حيث حظي بوظيفة الساقي[8]. وقد هيأت له هذه الوظيفة فرصة الترقي حتى عين شحنة على إقليم خوارزم، سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م، فاستمر مداوماً عليها

١ الدولة الخوارزمية د. نافع العبود صـ ١١.
٢ آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان صـ ١٤.
٣ أخبار الدولة السلجوقية صـ ١٧.
٤ معجم البلدان (٤/ ٤٠٠)، الدولة الخوارزمية صـ ١١.
٥ الدولة الخوارزمية صـ ١٢.
٦ المصدر نفسه صـ ١٢.
٧ نهاية الأرب (٢٩٧/٢٧)، الأتراك الخوارزميون صـ ١١.
٨ مفرج الكروب (٣٢٢/٤).

حتى وفاته في سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م، ولما كان انوشتكين قد أرسل أكبر أبنائه قطب الدين محمد إلى مدينة مرو ليتلقى آداب الرئاسة ورسوم الإمارة، فقد أتاح ذلك لقطب الدين فرصة الترقي حين رأي الأمير السلجوقي ذاد حبشي الذي كان يحكم خراسان من قبل السلطان السلجوقي، بركياروق تعيينه والياً على إقليم خوارزم، ولقبه خوارزم شاه سنة ٤٩٠هـ[١]، وفي نفس العام آلت إمارة خراسان إلى الأمير سنجر السلجوقي من قبل أخيه السلطان بركياروق في خامس جمادي الأولي وأبقي قطب الدين محمد في منصبه، فظل هذا الأمير طوال فترة ولايته على إقليم خوارزم ٤٩٠/٥٢١هـ تابعاً لسنجر وملتزماً بطاعته[٢]، وقد يرجع ذلك في الغالب إلى ما كان عليه قطب الدين محمد من كياسة وفطنة وعرفان بالجميل للسلاجقة أصحاب الفضل عليه وعلى أبيه، كما يرجع أيضاً لما كانت عليه دولة السلاجقة من قوة آنذاك وبخاصة الفترة الأولى من حكم السلطان سنجر السلجوقي ولم يستطع آتسز بن قطب الدين محمد ((٥٥١/٥٢٢هـ)) أن يصبر على هذه الطاعة طويلاً، فخرج على إطارها منذ عام ٥٣٠هـ ودخل في صراع طويل مع السلطان سنجر، فنجم عن ذلك تعرض مدينة خوارزم للحصار السلجوقي ثلاث مرات في أعوام ٥٣٣هـ ٥٣٨، ٥٤٢هـ وفي كل مرة كان آتسز يضطر إلى إعلان الخضوع والتماس العفو وتقديم الهدايا، وكان السلطان السلجوقي سنجر يقبل ذلك منه[٣]. وفي الحقيقة لم يكن السلطان سنجر متفرغاً لمواجهة عصيان آتسز فقد تعرض جيشه الضخم لهزيمتين فادحتين: الأولى أمام قبائل القراخطاي الوثنيين الذين كانوا يحكمون تركستان ويهددون المدن الإسلامية في بلاد ما وراء النهر، وقد وقعت هذه الهزيمة سنة ٥٣٦هـ عند قرية قطوان التي تقع على خمسة فراسخ من سمرقند حيث هلك جيش سنجر ووقع قواده في الأسر وكذلك زوجته وهرب هو بنفسه إلى مدينة ترمز، فسقطت بذلك بلاد ما وراء النهر كلها في أيدي القراخطاي[٤]. وعلى الرغم من أن آتسز كان ضالعاً في استحضار القراخطاي تحريضهم ضد السلطان سنجر بدافع الانتقام منه، إلا أنه اضطر أمام تفاقم خطرهم،

---

١ الدولة الخوارزمية والمغول حافظ حمدي صـ١٩.

٢ تاريخ إيران بعد الإسلام صـ٢٨٣.

٣ الأتراك الخوارزميون، صبري سليم صـ١٩.

٤ المصدر نفسه صـ١٩.

وتهديدهم لإقليم خوارزم إلى مصالحتهم على أن يدفع خراجاً سنوياً مقداره ثلاثون ألـف دينـار[1]. وأما الهزيمة الثانية لسنجر فكانت أمام قبائل الغز التركمانية التي كانت تقيم حول مدينة بلخ، وقد وقعـت هذه الهزيمة عند مدينة مرو سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، وفيها قتـل قـواد سـنجر، ووقـع هـو مـع زوجتـه في الأسر[2]، وقد أدى ضعف السلاجقة في إيران إبان الفـترة الأخـيرة مـن حكـم سـنجر إلى اخـتلال التـوازن العسكري والسياسي في آسيا الوسطى ففي الشرق تفـاقم خطـر القراخطـاي في تركسـتان وبـلاد مـا ورء النهر، وفي الجنوب إزدادت سطوة قبائل الغز وبخاصة في كرمان ومكـران، وفي الشـمال ظهـرت أطـماع الخوارزميين في الاستيلاء على إقليم خراسـان بثرواتـه الطبيعيـة، وعـلى هـذا لم تتوقـف وفـاة السـلطان الخوارزمي آتسز في التاسع مـع جـمادي الآخـرة سـنة ٥٥١هــ/١١٥٦م[3]، أو وفـاة السـلطان السـلجوقي سنجر بعده في الرابع عشر من ربيع الأول سنه ٥٥٢هـ/١١٥٧م[4]، حتمية الصراع بين الطرفين، فقـد شرع أيل أرسلان بن اتسز ٥٥١ هـ ـ ٥٦٨هـ في بسط سلطانه على غـربي خراسـان عقـب وفـاة سـنجر وبعـد ذلك تمكن السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش بن ايل أرسلان(٥٦٨هـ ، ٥٩٦هـ) من هزيمة السلطان السلجوقي طغرل الثالث عند مدينة الري في شهر ربيع الأول سنه ٥٩٠ هـ ١١٩٣م، فأزال بذلك سلطان السلاجقة عن العراق[5]، فأصبحت أملاك الدولة الخوارزمية متاخمة لأرضي الخلافة العباسية[6].

ثانياً: الصدام بين الخوارزميين والخلافة العباسية:

ولم يؤدي هذا التجـاور المكـاني إلى نتيجـة حاسـمة تـرضي الطـرفين فالخليفـة العباسي الناصر لدين(٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ) والذي حرّض الخوارزميين في محاربة السلاجقة أملاً في أن يخلصوه من سيطرتهم قـد أدرك بجـلاء أنـه اسـتبدل خصـماً هرمـاً بـآخر فتى عنيـد، فهـؤلاء الخـوارزميين القـادمون مـن الشرق لـن يكتفـوا بـاحتلال أمـلاك

١ المصدر نفسه صـ٢٠، تاريخ إيران بعد الإسلام صـ٣٨٥.
٢ سلاجقة إيران والعراق، عبد المنعم حسنين صـ١٣١.
٣ السلاجقة في التاريخ والحضارة، أحمد حلمي صـ١١٨.
٤ العبر للذهبي (١٤٨/٤)
٥ الأتراك الخوارزميون صـ٢١.
٦ المصدر نفسه صـ٢١.

السلاجقة فحسب وإنما لتمتد أطماعهم إلى نيل ما كان لهؤلاء السلاجقة من مظاهر السيادة على بغداد نفسها والتي تمثلت في فرض اسمهم على الخطة والسكة ودار خاصة للسلطان الخوارزمي تطاول دار الخلافة العباسية وتعلوا عليها[١].

ولم يتغير وفاة السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م شيئاً من الناحية السياسية، إذ لما تولى ابنه علاء الدين محمد مكانه"٥٩٦هـ ـ ٦١٧هـ" عاود الخوارزميين المطالبة بكل ما كان للسلاجقة من مزايا لدى الخلافة العباسية، فوجد الخليفة الناصر نفسه مضطراً إلى إتباع نهجه القديم، فشرع في استعداء الغوريين على الخوارزميين[٢]، ثم أمعن في ذلك فعمل على إثارة الأمراء والحكام المحليين في غربي إيران ضدهم، بل أنه تحالف أيضاً مع جلال الدين الحسن الثالث الإسماعيلي (٦٠٧ ـ ٦١٨هـ) صاحب قلاع الإسماعيلية في قهستان، وآلموت، ورودبان، وكان قد تظاهر بترك مذهب الإسماعيلية واعتناق مذهب أهل السنة والجماعة[٣]، وعلى هذا فقد شرع الخوارزميون في أحكام سيطرتهم على إيران كلها، فبالشمال تم الاستيلاء على إقليم مازندران الواقع جنوبي بحر قزوين، وضمه سنة ٦٠٦هـ إلى دولتهم[٤]، وفي الجنوب جرى الاستيلاء على إقليم كرمان سنة ٦٠٧هـ ثم إقليم مكران سنة ٦١١هـ وتضمن ذلك الساحل المطل على المحيط الهندي بما فيه ميناء هرمز التجاري المهم[٥]، وفي أقصى الشرق كان الخوارزميون قد نجحوا في احتواء مدينتي هرات وبلخ سنة ٦٠٣هـ وهما من أملاك الدولة الغورية[٦] التي سقطت عاصمتها غزنة في أيديهم سنة ٦١٢هـ[٧] فآل حكمها إلى جلال الدين منكبرتي أكبر أبناء السلطان الخوارزمي علاء الدين بن تكش، وموجز القول هنا، أن الدولة الخوارزمية قد بلغت آنذاك أقصى اتساعها وأصبح اصطدامها بالخلافة

١ المصدر نفسه صـ٢١.
٢ الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي صـ٣٧.
٣ تاريخ إيران بعد الإسلام صـ٣٣٢ عباس إقبال.
٤ الخوارزميون الأتراك صـ٢٢.
٥ المصدر نفسه صـ٢٣.
٦ المصدر نفسه صـ٢٣.
٧ المصدر نفسه صـ ٢٣.

العباسية وشيكاً[1]. وبالفعل سار السلطان الخوارزمي سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م صوب الغرب على رأس حملة وجهتها بغداد ولم يجد السلطان الخوارزمي حرجاً في أن يعلن إسقاط اسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله من الخطبة، مستنداً إلى فتوى أصدرها جماعة من علماء بلاد ما وراء النهر، قضت بعدم أهليته للخلافة، وبالتالي فقد اختار هو واحداً من سلالة أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب في مدينة ترمذ، ويدعى علاء الدين أبو المكارم محمد بن أبي جعفر بن طاهر الحسيني ونصبه خليفة وخطب له على المنابر ونقش اسمه على السكة ، ولم يكن بوسع الخليفة العباسي أن يقف مكتوف اليدين حيال هذا التحدي الخطير من قبل الخوارزميين بعد أن رأى بنفسه تهاوي حلفائه تباعاً تحت وطأتهم[2]، فبادر للاستعداد لهذا الخطر الداهم وعجز الخوارزميون عن تحقيق هدفهم في الاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وإسقاط الخليفة العباسي الناصر لدين الله، إذا هبت على جيوشهم عند أسد آباد الذي تقع غربي همذان عواصف ثلجية عنيفة أهلكت أعداداً كبيرة من الجند والدواب والمؤن، وأطمعت فيهم الأكراد من ساكني إقليم الجبال المجاور، فلم يجد السلطان الخوارزمي مناصاً من العودة من العودة إلى بلاده[3].

ثالثاً: أسباب الغزو المغولي للخوارزميين:

فكر جنكيز خان في أن أفضل طريقة لإسقاط الخلافة العباسية في العراق هي التمركز أولاً في منطقة أفغانستان وأوزبكستان، لأن المسافة ضخمة بين الصين والعراق، ولابد من وجود قواعد إمداد ثابتة للجيوش المغولية في منطقة متوسطة بين العراق والصين، كما أن هذه المنطقة التي تعرف بالقوقاز غنية بثرواتها الزراعية والاقتصادية، وكانت من حواضر الإسلام المشهورة وكنوزها كثيرة، وأموالها وفيرة، هذا بالإضافة لا يستطيع ـ تكتيكياً ـ أن يحارب العراق وفي ظهره شعوب مسلمة تحاربه أو تقطع عليه خطوط الإمداد، كل هذه العوامل جعلت جنكيز خان يفكر أولاً في خوض حروب متتالية مع هذه المنطقة الشرقية من الدولة الإسلامية، والتي تعرف

---

١ المصدر نفسه صـ٢٣.

٢ الأتراك الخوارزميون صـ٢٤.

٣ المصدر نفسه صـ

في ذلك الوقت بالدولة الخوارزمية، وكانت تضم بين طياتها عدة أقاليم إسلامية هامة مثل أفغانستان وأوزبكستان والتركمنستان وكازاخستان وطاجكستان وباكستان وأجزاء من إيران، وكانت عاصمة هذه الدولة الشاسعة هي مدينة أوجندة في تركمنستان حالياً، وكان جنكيز خان في شبه اتفاق مع ملك خوارزم ((محمد بن خوارزم شاه)) على حسن الجوار، ومع ذلك فلم يكن جنكيز خان من أولئك الذين يهتمون بعقودهم، أو يحترمون اتفاقياتهم، ولكنه عقد هذا الاتفاق مع ملك خوارزم ليؤمن ظهره إلى أن يستتب له الأمن في شرق آسيا، وأما وقد استقرت الأوضاع في منطقة الصين ومنغوليا، فقد حان وقت التوسع غرباً في أملاك الدولة الإسلامية[1]، وحتى تكون الحرب مقنعة لكل الطرفين، لابد من وجود سبب يدعو إلى الحرب، وإلى الادعاء بأن الاتفاقيات لم تعد سارية، وقد بحث جنكيز خان عن سبب مناسب[2]. وانتظر حتى جاء ذلك السبب الرئيسي سيأتي الحديث عنه بإذن الله، ولكن ثمة أسباب خفية كانت هي البواعث لهذا الغزو، من أهمها:

١. الجدب الذي كان يسود أقاليم آسيا الشرقية، حيث كانت حاضرة جنكيز خان ((قراقورم)) وما ترتب عليه من قحط نشأت عنه حاجتهم الدائمة إلى الكثير من المواد الغذائية اللازمة لحياتهم وحياة دوابهم، كما كانوا في حاجة ماسة إلى اقتناء ما يقيهم عاديات الطبيعة من ملبوسات وغيرها، وكان لقيام علاء الدين محمد خوارزمشاه بمنع الميرة عنهم من الكسوات والأقوات وغيرها، وسده طرق التجارة في وجوههم، أثره في توجيه أنظارهم إلى الدولة الخوارزمية[3].

٢. حالة اليقظة والنشاط المغولي:كان المغول في هذه الفترة في حالة يقظة ونشاط، يعيشون أمجاد انتصاراتهم السابقة في الصين وغيرها، وبسبب ذلك، وضعوا لأنفسهم خطة للسيطرة على المناطق المجاورة لهم، وقد سمعوا عن سعة الدولة الخوارزمية التي غدت أملاكها مجاورة لهم، وعن ثراءها الضخم وحضارتها الرائعة يطلعوا إليها[4].

---

١ تاريخ الدولة المغولية في إيران صـ٥٠.

٢ قصة التتار د. راغب السرجاني صـ٢٢.

٣ الكامل لابن الأثير (١٢ ـ ١٤٩)، عودة الروح للخلافة صـ١٨٠.

٤ الدولة الخوارزمية حافظ حمدي صـ٦٧، عودة الروح للخلافة صـ١٨٠.

٣. مقتل بعض تجار المغول: وأما السبب المباشر والرئيسي، فإنه مقتل بعض رجال المغول الذي أشعل الحرب: كان جنكيز خان قد أرسل إلى علاء الدين محمد خوارزمشاه عند عودته إلى مدينة بخارى، بعد محاولته الفاشلة لغزو بغداد سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م وفداً من ثلاث تجار مسلمين هم: محمود الخوارزمي، على خواجة البخاري، يوسف كنكا الأتراري، محملين بالهدايا من منتجات آسيا الوسطى رغبة في قيام علاقات تجارية وطيدة تخدم الطرفين[١]. وأرسل مع الوفد رسالة وصفها بعض المؤرخين بأنها رقيقة من مغولي ذلك الوقت، يعرض فيها المسالمة والموادعة وعقد اتفاق تجاري بين البلدين، وفيما يلي نص الرسالة: ((ليس يخفى علينا عظيم شأنك، وما بلغت من سلطانك، وقد علمت بسطة ملكك، وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندي مثل أعز أولادي وغير خافٍ عليك أيضاً أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لي قبائلهم، وأنت أخبر الناس بأن بلادي مثارات العساكر، ومعادن الفضة، وأن فيها الغنية عن طلب غيرها، فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد، عمت المنافع وشملت الفوائد[٢].)) وبغض النظر عن الجدل الذي ثار حول هذه الرسالة بين بعض الكتاب، وهل كان مدلولها يحتوي على ازدراء شأن الأمير الخوارزمي أو على إطراء له وملاطفة، فإن الذي حدث هو أن علاء الدين خوارزمشاه أظهر استياءه منها، وبيت نية العدوان على جنكيز خان، واستدعى أحد رسله وهو محمود الخوارزمي، وانفرد به دون سائرهم، ووعده بالإحسان إن صدقه فيما يسأله، وأعطاه من معضدته جوهرة نفيسة علامة الوفاء بما وعد، وشرط عليه أن يكون عيناً له على جنكيز خان، فأجابه إلى ما سأل رغبة ورهبة[٣]، ثم بدأ يستخبره عن حقيقة ما جاء في رسالة جنكيز خان إليه، فلما صدقه الجواب غضب الأمير الخوارزمي وعاد يسأل عن عدد عسكر جنكيز خان في حدة هنا أعرض الرسول

١ عودة الروح للخلافة الإسلامية صـ١٨١.

٢ سيرة السلطان جلال الدين صـ٨٣.

٣ سيرة السلطان جلال الدين صـ ٨٤، ٨٥.

عن الإجابة الصحيحة إبقاء على حياته وطلباً للسلامة، ورد في حذق وكياسة: ليس عسكره بالنسبة إلى هذه الأمم والجيش العرمرم إلا كفارس في خيل، أو دخان في جنح ليل، ولكن علاء الدين خوارزمشاه عرف رغم هذه الإجابة، حقيقة موقفه، فصرف الرسل لما طلبوه من الموادعة والموافقة على تردد التجار بين البلدين[١].

٤. تردد التجار بين الطرفين ومقتل تجار المغول: على إثر توقيع هذا الاتفاق التجاري حمل جنكيز خان بحزم على تأمين التجارة بين شرق آسيا، حيث ممتلكاته وغربها، حيث دولة خوارزم وما يليها غرباً، وسعى جاداً لتوسيع نطاقها، وتأمين طرقها من قطاع الطرق، وتزويد المسالك الرئيسية بحراس سماهم ابن العبري ((قراقجية)) ـ أي مستحفظين ـ لخفر التجار وصيانتها أثناء مرورها بها، وأصدر أوامره إلى هؤلاء المستحفظين بمرافقة كل أجنبي يحمل تجارة حتى يوصلوه إلى معسكرات المغول[٢]. لقد حرص جنكيز خان على البعد الاقتصادي وبناء قوة اقتصادية سارت التجارة بين شرق آسيا وغربها بنظام تام، وحدث في هذا العام أن وصلت إلى بلاد جنكيز خان قافلة تجارية قوامها ثلاثة من أهل بخارى يحملون بضائعهم من الثياب المذهبة والكرباس[٣]، وغيرها مما يليق بخانات المغول، وكان عند أحدهم ويدعى أحمد، ثوب رآه المستحفظون يليق بمقام جنكيز خان نفسه، لذا قادوهم إلى بلاطه، فلما مثل أحمد بين يديه طلب ثمناً باهظاً لبضاعته التي تعلق بها جنكيز خان، الأمر الذي أغضب الخان، وحمله على مصادرة بضاعة أحمد وتوزيعها بين أفراد حاشيته وزج هذا التاجر في السجن، أما صاحباه، فقالا: عندما سئلا عما يطلبانه ثمناً لبضاعتهما: هذا كله إنما أتينا به لنقدمه خدمة للخان، لا لنبيعه عليه[٤]، ولم تجد محاولة حملهما على تقييمه عندئذ أمر جنكيز خان بإعطائهما ثمناً مجزياً من الذهب والفضة، عن بضاعتهما، ورق

---

١ تاريخ الحلفاء للسيوطي صـ٤٦٩، عودة الروح للخلافة صـ١٨٢.

٢ سيرة السلطان صـ٨٥، عودة الروح للخلافة صـ١٨٣.

٣ الكرباس : لفظ فارسي معرب، معناه الثوب الخشن.

٤ تاريخ مختصر الدول ابن العبري صـ٤٠٠.

للتاجر أحمد فعامله بالمثل[1]، وعفا عنه وأصدر جنكيز خان عقب أوامره إلى الأولاد والخواتين والأمراء أن ينفذوا معهم جماعة من أصحابهم ومعهم بواليش الذهب والفضة، ليجلبوا من طرائف البلاد ونفائسها ما يصلح لهم، وقد اختلف المؤرخون في عدد هؤلاء التجار، وبينما ذكر النسوي أنهم أربعة، قال ابن العبري أنهم مائة وخمسون تاجراً ما بين مسلم ونصراني وتركي[2]، وقدرهم الجويني بأربعمائة وخمسين رجلاً كلهم من المسلمين[3]. بينما لم يشر ابن الأثير ولا ابن خلدون إلى أي عدد لهم[4]، ومهما يكن أمر عددهم فإن جنكيز خان بعث معهم رسولاً مغولياً من قبله يحمل رسالة إلى السلطان محمد خوارزمشاه يقول فيها: إن التجار وصلوا إلينا وقد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين[5]، وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف، فينبغي أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين، وتنحسم مواد النفاق من ذات البين[6].

5. قتل التجار المغول ومصادرة أموالهم: وصل تجار المغول إلى مدينة أترار الواقعة في أقصى الحدود الشرقية للدولة الخوارزمية، وكان تعد مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربها، وكان بها حاكم من قبل خوارزمشاه يدعى ينال خان، وهو ابن خال خوارزمشاه، في عشرين ألف فارس، يقول النسوي فشرهت نفسه الدنيئة إلى أموال أولئك، وكاتب السلطان مكاتبة خائن مائن، يقول إن هؤلاء القوم قد جاءوا إلى أترار في زي التجار وليسوا بتجار، بل أصحاب أخبار، يكشفون منها ما ليس بوظائفهم[7]، وأخذ يحسن له القضاء عليهم، ويغريه بما معهم من أموال، ويطلب، إذنه في مصادرتهم وقتلهم، ولم يزال كذلك حتى أذن له خوارزمشاه في الاحتياط عليهم إلى أن يرى فيهم رأيه، غير أن ينال خان تعدى حدوده، فلم يكتف بالاحتياط عليهم ، وانتظار رأي أمير خوارزم فيهم، بل تجاوز ذلك

١ تاريخ مختصر الدول صـ٤٠٠، عودة الروح للخلافة صـ١٨٤.
٢ عودة الروح للخلافة صـ١٨٤.
٣ المصدر نفسه صـ١٨٤.
٤ المصدر نفسه صـ١٨٤.
٥ الدولة الخوارزمية صـ٧٠.
٦ تاريخ مختصر الدول صـ٤٠٠ ـ ٤٠١، عودة الروح للخلافة صـ١٨٥.
٧ سيرة السلطان جلال الدين صـ ٨٥ ـ ٨٦، تاريخ الخلفاء صـ١٦٩.

فقبض عليهم وخفى بعد ذلك أثرهم، وانقطع خبرهم، وتفرد المذكور بتلك الأموال المعدة والأمتعة المنضدة مكيدة منه وغدراً[1].

هذا ما يقوله النسوي، ويؤيده السيوطي، أما ما يقوله غيره، من المؤرخين فيختلف عنه من عدة وجوه نعرض لها فيما يلي:

أ ـ يذكر النسوي أن ينال خان رغب، في كتابه إلى السلطان، أن يؤذن له في مصادرة أموالهم وقتلهم، على حين يقول غيره أنه لم يفعل أكثر من أنه رفع الأمر إليه بعد وصولهم، وسأله رأيه فيما يفعل بهم.

ب ـ بينما يذكر النسوي أن السلطان أمر بالاحتياط عليهم حتى يرى رأيه فيهم، وأن ينال خان تعجل وتجاوز صلاحياته فقتلهم دون إذن السلطان[2]، يذهب غيره إلى القول: إن خوارزمشاه أمر أولاً بالاحتياط عليهم، ثم أتبعه بأمر قتلهم ومصادرتهم.

جـ ـ يذكر النسوي أن ينال خان استأثر بأموالهم لنفسه دون السلطان، ويروي غيره أنه بعد أن قتلهم سير ما معهم إلى السلطان الذي فرقه على تجار بخارى وسمرقند، وأخذ ثمنه منهم[3]، وقد علق فامبري على مقتل أولئك التجار بقوله: وإنا لنرى الجويني على حق حين يقول: إن دمهم أهرق، ولكن كل قطرة منه قد كفر عنها بسيل جارف من الدماء وأن رؤوسهم قد سقطت، ولكن كل شعرة فيها قد كلفت مئات الألوف من الناس حياتهم[4]. ولم ينج من أولئك التجار إلا واحد أتيح له الهرب من محبسه، ولما وصل إلى بلاط جنكيز خان نقل إليه ما شاهده من مأساة أصحابه التجار[5].

٦ ـ الدبلوماسية المغولية لحل المشكلة: رأى جنكيز خان أن يسوي هذا الأمر مع الخوارزميين بالطرق السلمية فأراد أن يستطلع حقيقة الأمر ولم يستعجل وحرص

---

١ عودة الروح الخلافة الإسلامية صـ١٨٦، تاريخ مختصر الدول صـ٤٠٠.

٢ العبر (٥١٩/٥) عودة الروح الخلافة صـ١٨٦.

٣ سير أعلام النبلاء (٢٢٣/٢٢) كيف دخل التتار بلاد المسلمين د.سليمان العودة صـ٢٣.

٤ تاريخ بخارى صـ١٥٨ عودة الروح للخلافة صـ ١٨٧.

٥ تاريخ بخارى صـ١٥٩ عودة الروح للخلافة صـ ١٨٧.

على حل المشكل بالطرق السلمية، وهذا يدل على حكمته وبعد نظره، كما يظهر من خلال الأحداث بأنه كان لخوارزمشاه هيبته عند جنكيز خان فعمل على تدميرها نفسياً وسياسياً وعسكرياً وأخلاقياً، فأرسل ابن كفرج بغرا، وفي صحبته اثنان من المغول، رسلاً من قبله يطلبان تفسيراً وإيضاحاً لما حدث، وبعث معهم رسالة إلى علاء الدين محمد خوارزمشاه يقول فيها: إنك قد أعطبت خطك ويدك بالأمان للتجار،، وألا تتعرض إلى أحد منهم،فغدرت ونكثت، والغدر قبيح، ومن سلطان الإسلام أقبح، فإذا كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك فسلم ينال خان إليَّ لأجازيه على ما فعل، حقناً للدماء، وتسكيناً للدماء، وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غوالي الأرواح، وتتعضد معها عوامل الرماح[١], وبلغ من استياء علاء الدين محمد من هذه الرسالة أن أمر بقتل ابن كفرج بغرا، أما الرسولان اللذان صحباه، فقد أطلق سراحهما، وسمح لهما بالعودة إلى الخان ليرويا له ما حدث[٢]، ولما وصل نبأ العدوان إلى جنكيز خان قال غاضباً: لا تجتمع شمسان في سماء واحدة ولا يجوز أن يبقى خاقانان على أرض واحدة، وأرسل إلى خوارزمشاه رسالة مقتضبة تنذره بسوء عاقبة ما فعل (أنت الذي اخترت الحرب، ولا مرد للقدر، وأننا نجهل العاقبة، وعلمها عند الله[٣]). وهكذا نجد أن علاء الدين محمد خوارزمشاه قد حدد بهذه السياسة غير الرشيدة، موقف المغول تجاه الخوارزميين، ولم يتح لهم أي مجال للبحث على أمل للعيش معهم في سلام، ولم يترك أمامهم إلا سبيلاً واحدة هي الحرب[٤]، ويؤكد برو أن مسئولية علاء الدين عن خطر الغزو المغولي الذي تعرض له المسلمون بقوله: والرأي السائد أنه لم يكن هناك ما يحول دون وقوع غارة المغول، ولكنها من غير شك سهلت ويسرت حدوثها بواسطة ما عرف عن ملك خوارزم علاء الدين محمد من طمع وخيانة وتردد، وأما خيانته فظاهرة، لأنه أقدم على قتل رسل المغول وتجارهم، فأعطى بذلك لجنكيز خان الحجة الدامغة لتبرير الهجوم عليه، كذلك من أنهم عند أول صدمة تلقاها من المغول أسرع إلى إظهار الفزع والخوف بدل

١ مختصر تاريخ العرب، سيد أمير صـ٣٤٣ عودة روح الخلافةصـ١٨٧.
٢ تاريخ الخلفاء صـ١٦٩ للسيوطي، عودة روح الخلافة صـ١٨٨.
٣ هارلود لام، جنكيز خان صـ٩٧، عودة روح الخلافة صـ١٨٨.
٤ عودة روح الخلافة صـ١٨٨.

ما كان يبديه من غطرسة وتحدٍ[1]. ولم يكن إقدام علاء الدين محمد على قتل تجار ورسل المغول هو العامل الوحيد الذي أثار المغول وشجعهم على غزو الأقطار الشرقية للدولة الإسلامية، بل أن قضاء الأمير الخوارزمي على حكام جميع البلاد التي استولى عليها في توسعه شرقاً وغرباً، قوي عزمهم على الزحف على هذه الأقطار، وبسط سيطرتهم عليها، يقول ابن الأثير: فإن هؤلاء التتار إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع، وسبب عدمه أن خوارزمشاه محمداً كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها أفناهم، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً[2]، وهناك من يرجع سبب الغزو المغولي إلى تحريض الخليفة العباسي الناصر لدين الله جنكيز خان على غزو الدولة الخوارزمية، وقد جاء اتهام الناصر بذلك في ابن الأثير، حيث قال: وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتار في البلاد، وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم[3]. وقد تابع ابن الأثير في هذا الاتهام فريق من المؤرخين الأقدمين كابن الوردي وابن الفرات[4]، كما جاء الاتهام في كتب بعض المستشرقين، ومن هؤلاء براون، فقد أورد هذا الاتهام في معرض حديثه على الناصر وعلاقته بخوارزمشاه بقوله: وأخذ يشجع المغول على مهاجمته[5]، ومن بينهم هارولد لام وكارتن فقد ذكرا أن الخليفة عرض على جنكيز خان في رسالته أن يقوم هو بمهاجمة الدولة الخوارزمية من الشرق، ويتولى الناصر مهمة مهاجمتها من الغرب، وبذلك يطبقان عليها[6]. إن من يتأمل ما ذكره ابن الأثير يتضح له كراهيته للخليفة الناصر، لذا وصمه بهذا الاتهام تشهيراً به، ولما أحس الأمر قد ينكشف وتتضح براءة الناصر، نسب روايته إلى مصدر مطعون في صدقه، وهو العجم أي الخوارزميين، ومما يجدر ذكره أن هناك مؤرخين غير ابن الأثير عاصروا هذه الفترة،

---

١ تاريخ الأدب في إيران صـ٥٥٦ ـ ٥٥٧.
٢ الكامل (١٢ ـ ١٤٩)، عودة الروح للخلافة صـ١٨٩.
٣ عودة الروح للخلافة صـ١٨٩، الدولة الخوارزمية صـ٤٠.
٤ الإعلام للزركلي (١ ـ ٦)، عودة الروح للخلافة صـ١٩٠.
٥ عودة الروح للخلافة صـ١٩٠.
٦ هارولد لام جنكيز خان صـ٩٠، ٩١، عودة الروح صـ١٩٠.

ولم يشيروا إلى اتصال الناصر بالمغول، من أمثال النسوي، وسبط ابن الجوزي، وابن شداد، وأبي شامة، ويليهم ابن واصل، واليونيني، وابن طباطبا، ولا نغفل أن المؤرخين الصينيين الذين رافقوا حملة جنكيز خان وأولاده وأرخوا لهم تاريخهم، لم تكن مدوناتهم مجهولة للمؤرخين المسلمين الذين خدموا المغول فيما بعد[1]، ولذلك فإنا نرجح عدم صحة اتهام الناصر بتحريض المغول على غزو الدولة الخوارزمية، أو تسببه بأية صورة في وقوع ذلك الهجوم، ونرى أن ما فعله خوارزمشاه كان وحده كافياً لقيام جنكيز خان بذلك الغزو المدمر لشرق بلاد الإسلام[2].

رابعاً: غزو المغول بلاد ما وراء النهر والعراق العجمي:

١ ـ بلاد ما وراء النهر: كان علاء الدين محمد خوارزمشاه قد بعث ـ على إثر مقتل تجار المغول وهو مقيم بمدينة بخارى ـ بعض جواسيسه إلى بلاط جنكيز خان، للوقوف على مدى استعداد المغول للحرب، فقضوا مدة طويلة، استطاعوا خلالها أن يؤدوا المهمة التي عهد إليهم بها، وقالوا بعد عودتهم: ان عدد المغول لا يبلغه الحصر، وأنهم من أصبر الناس على القتال، وأعرفهم بفنونه ولهم مصانع للسلاح، تكفي حاجتهم منه، ومواد تموينهم وافرة، وأوضح أولئك الجواسيس أن حقائق الأمور هناك تشير إلى أنه لا قبل لأحد بمقاتلة المغول[3]. ودرس علاء الدين محمد خوارزمشاه بإمعان هذه المعلومات، فأدرك فداحة ما وقع فيه من خطأ بقتله تجار المغول ورسلهم، وندم على ذلك، ولكن ليست ساعة مندم، ثم أخذ يعمل فكره ويدبر أمره[4]، واستشار رجلاً يثق به ويدعي الشهاب الخيوفي الفقيه، فلما مثل بين يديه قال له: قد حدث أمر عظيم لابد من الفكر فيه، وإجالة الرأى فيما نفعل وذلك أنه قد تحرك إلينا خصم من الترك في عدد لا يحصى[5]. فأشار عليه الخيوفي بإعلان النفير العام، ودعوة من بقي من ملوك الأطراف ليلحقوا به في جيوشهم، فإذا اكتملت تعبئة الجيوش سار بها إلى جانب نهر سيحون حيث حدود دولته

١ الحياة السياسية في العراق في العصر الأخير للقزاز صـ٢٣١.
٢ عودة الروح للخلافة الإسلامية صـ١٩١.
٣ الكامل لابن الأثير (٩ ـ ٣١٣)، عودة الروح صـ٣٦٤.
٤ الكامل لابن الأثير (١٢) ١٤٩ ـ ١٥٠) عودة الروح صـ٣٦٤.
٥ عودة الروح صـ١٩٣.

الشرقية مع المغول[1]، غير أن أمراء وأرباب المشورة في دولته رأوا عكس هذا الرأي، وأشاروا بأنه من الأصوب ترك المغول حتى يعبروا سيحون، ويتقدموا في الوهاد، والصحارى والمضايق والوديان التي يجهلون مسالكها، حتى إذا وصلوا بخارى كان التعب قد أخذ منهم كل مأخذ، وبذلك يمكن الظهور عليهم، وإفناؤهم عن بكرة أبيهم[2]، ولم يلبث خوارزمشاه أن عمل على تجهيز جيشه للقاء المغول[3]، وبينما كان خوارزمشاه يسير في اتجاه الشرق، مجداً في طلب المغول عقب استعداده على هذا النحو، كان جنكيز خان يعبيء جيشاً كبيراً، ويلقي في جنده عند بداية الزحف غرباً هذه الأوامر الصارمة: سيروا معي لنمحق بقواتنا الرجل الذي ازدرى بنا واحتقرنا، إنكم ستشاركونني في انتصاراتي، وليكن قائد العشرة آمر الحظيرة منكم منتبهاً مطيعاً، كقائد العشرة آلاف: قائد الفرقة، ومن يخالف أو يفشل في إنجاز واجبه سيفقد حياته ونساءه وأولاده[4].

أ ـ الاستيلاء على مدينة أترار: بدأ جنكيز خان غزوه شرق الدولة الإسلامية في عام ٦١٥هـ/١٢١٨م، فقد وصل إلى حافة نهر سيحون على مقربة من مدينة أترار على رأس جيش قوامه نحو ستمائة ألف[5] من خيرة جنده، وكانت غاية الجيش في المرحلة الأولى الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، المحصورة بين نهرسيحون في الشرق، وجيحون في الغرب، لذا وضع خطته على أساس الأطباق على هذه البلاد من أربعة جوانب، بحيث يتعذر على الجيش المدافع صد الهجوم[6]،، وهكذا تحركت الجيوش الأربعة في وقت واحد للانقضاض على بلاد ما وراء النهر والاستيلاء عليها وبدأ الخوارزميون بمهاجمة قوات المغول، وسرعان ما قامت الحرب سجالاً بين الفريقين، وكان الجانب المغولي فيها بقيادة أحد أبناء جنكيز خان، وقدر عدد القتلى من المسلمين عشرين ألفاً، ومن المغول بما لا يحصى كثرة

١ الكامل (٣٣١/٩)، عودة الروح صـ١٩٣.
٢ عودة الروح للخلافة الإسلامية صـ١٩٣.
٣ الكامل في التاريخ (١٥٠/١٢)، عودة الروح للخلافة صـ١٩٣.
٤ عودة الروح صـ١٩٤.
٥ المصدر نفسه صـ١٩٤.
٦ سيرة السلطان جلال الدين صـ١٠٠، عودة الروح صـ١٩٥.

وفي الليلة الرابعة من القتال افترق الجيشان، ورجع المسلمون إلى بخارى حيث أمر خوارزمشاه أهلها وأهل سمرقند بالاستعداد للحصار، وترك في بخارى عشرين ألفاً وفي سمرقند خمسين ألفاً، ثم عاد إلى خوارزم وخراسان ليجمع العساكر[1]، كانت مدينة أترار محصنة تحصيناً قوياً، وبها حامية قوامها خمسون ألف رجل يعاونها جيش آخر بنحو عشرة آلاف على رأسهم ((فراجة)) وزير الأمير محمد خوارزمشاه، ودام الحصار خمسة أشهر، مما ترتب عليه عجز الجيش الخوارزمي عن المقاومة، ثم هزيمته، وبذلك تيسر لقوات المغول الاستيلاء على مدينة أترار التي تعد مفتاح ما وراء النهر[2]، لقد كان هجوم المغول على هذه المدينة عنيفاً، فقد كانوا يتوقون للثأر من ((ينال خان)) حاكم هذه المدينة وقاتل التجار، لقد استولوا على هذه المدينة عنوة سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م) ونهبوها وطاردوا سكانها، وقد تقهقر ينال خان إلى قلعة المدينة واحتمى بها نحواً من شهر، فقد في أثناءه معظم رجاله، ومع ذلك ظل يدافع دفاع اليائس المستميت، ولما وجد نفسه محاصراً من كل جانب قذف بنفسه إلى سقف أحد المنازل، فتبعه جنديان مغوليان وهو لا يملك أن يدافع عن نفسه إلا بقذفهما بالحجارة التي كان يناوله إياها بعض النسوة، وأخيراً وقع في أيدي المغول الذين قادوه إلى معسكر جنكيز خان الذي كان في ذلك الوقت أمام مدينة سمرقند، ولكي ينتقم جنكيز خان منه عمد إلى التنكيل به، فأمر بعض رجاله أن يصهروا كمية من الفضة ويسكبوها في عينيه وأذنيه، وهكذا نفذ جنكيز خان وعيده في قاتل تجاره ورسله، وبسقوط أترار سقط مفتاح بلاد ما وراء النهر[3].

ب ـ الاستيلاء على مدينة جند: أما عن الجيش الثاني الذي كان تحت قيادة جوجي أكبر أبناء جنكيز خان، فكانت قبلته مدينة ((جند)) إحدى معاقل المسلمين على نهر سيحون، وقد وصل هذا القائد إلى هذه المدينة بعد أن استولى على كثير من المعاقل والمدن الواقعة على نهر سيحون، وتمكن بذلك من السيطرة على كل مجرى

---

١ الكامل في التاريخ (٣٣١/٩ ـ ٣٣٢) عودة الروح صـ١٩٥.

٢ عودة الروح للخلافة الإسلامية صـ١٩٥.

٣ الدولة الخوارزمية للمغول حافظ أحمد صـ١٣٩.

هذا النهر تقريباً، فلما اقترب من مدينة جند غادرها حاكمها ليلاً تاركاً لسكانها أمر الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم، وقد نصب المغول المجانيق حول المدينة استعداداً لتحطيم أسوارها، وإزاء هذا الاستعداد من قبل المغول انقسم الأهالي على أنفسهم، فرأى فريق منهم ضرورة الدفاع عن المدينة، ورأى فريق آخر لا فائدة من الدفاع وآثر أن يسلم المدينة في الحال، لعل الأهالي يجدون في ذلك خير شفيع ينجيهم من الوقوع تحت سيوف المغول، والظاهر أن هذا الرأي كان يناصره أكثرية السكان بدليل أن المغول لم يجدوا مقاومة ما داخل المدينة، وهم يدكون أسوارها من جميع جهاتها، وأخيراً سلمت المدينة وسلم من سلم من أهلها، وقُتل من قتل المغول، وبعد أن وضع جوجي على المدن المفتوحة حكاماً مخلصين، أصدر أوامره لجنوده بالعبور إلى إقليم خوارزم[١].

ج ـ الاستيلاء على بنكت وخجنده: أما ثالث جيوش جنكيز خان التي سيرها للاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، فقد سار إلى مدينة بنكت على نهر سيحون و((خجندة)) إلى الجنوب منها، وقد تمكن المغول من دخول مدينة بنكت بعد أن سلمها الأهالي، وكان المغول قد أمنوهم على حياتهم، لكن هؤلاء المغول الذين لا يعرفون معنى للعهود والمواثيق، لما دخلوا المدينة فصلوا الجند عن المدنيين واعملوا القتل في رقاب الفريق الأول، واختاروا من الفريق الثاني خيرة شبابه لينتفعوا به في أعمالهم الحربية، ثم سارت هذه الفرقة المغولية نحو الجنوب ميممة شطر مدينة خجندة الواقعة على نهر سيحون، وهي مدينة جميلة اشتهرت بحدائقها وانتعاش التجارة فيها، كما اشتهرت بشجاعة أهلها وقوة بأسهم، ومما يسترعي النظر أن ((تيمور ملك)) قائد الحامية الخوارزمية فيها، فضل أن يغادر المدينة مع ألف من جنوده إلى جزيرة صغيرة في وسط النهر، بعيد عن شاطئيه، حتى يكون في مأمن من غارات المغول، وعلى بعد كافٍ من مرمى سهامهم، وقد سار ما يزيد على عشرين ألف جندي مغولي، من أولئك الذين انتصروا انتصاراً مبيناً على الخوارزميين في مدينة أترار وغيرها من المدن، يتبعهم خمسين ألفاً من خيرة شباب

١ الدولة الخورازمية والمغول صـ١٤٠.

الخوارزميين، لمساعدة هذه الفرقة المغولية التي كانت تحاصر ((تيمور ملك))، وقد كلفت هذه الجموع بإحضار الأحجار من الجبال المجاورة وإلقائها في النهر، ليكونوا بذلك طريقاً يستطيع المغول أن يعبروا منها إلى هذا الخوارزمي الذي كان معتصماً في جزيرته على أن ((تيمور ملك)) صمم على إفساد خطتهم، فصنع اثني عشرة سفينة كبيرة غطى جدرانها بالجلود، وكان يرسل في كل يوم ستاً من هذه السفن للإغارة على المغول الذين كانوا يعملون في هذا الطريق الموصل إلى الجزيرة فيرمونهم بسهامهم، ولكن ((تيمور ملك)) وجد في النهاية أن مقاومته لن تجدي نفعاً فصمم على الهرب، وبعد أن شحن جنوده وأمتعته في سبعين مركباً، سار في النهر متجهاً نحو الشمال على أن المغول كانوا يراقبونه من جانبي النهر، وقد علم وهو يسير في النهر أن جوجي بن جنكيز خان قد حشد قوة كبيرة من المغول على مقربة من جند على جانبي نهر سيحون، وأنه سد هذا النهر بقنطرة من السفن، واضطر ((تيمور ملك)) أن يترك النهر إلى الساحل حيث امتطى جواده وقاتل أعداءه قتال اليائس، ومع ذلك استطاع أن يخدع مطارديه وأن يصل في النهاية إلى مدينة خوارزم حيث كان يرابط جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين خوارزمشاه[1].

د ـ استيلاء المغول على بخارى: كانت مدينة بخارى من بين مدن بلاد ما وراء النهر التي طمع المغول في الاستحواذ عليها، فنزل جنكيز خان بظاهرها في أواخر عام ٦١٦هـ/١٢١٩م وبدأ لفوره يضرب حصاراً محكماً عليها، وكانت القوة الإسلامية التي وكل إليها أمر الدفاع عنها تتكون من عشرين ألفاً[2]. واستمر الهجوم على بخارى ثلاثة أيام، وهي الآن ((في دولة أوزبكستان حالياً))، وهي بلدة الإمام الجليل والمحدث العظيم محمد إسماعيل البخاري صاحب صحيح البخاري. وبعد ثلاثة أيام ظهر بعدها للجيش الخوارزمي المدافع ضعفه وقلة حيلته، وعندئذ قرر التقهقر إلى خراسان، التماساً للنجاة، ولكن كيف السبيل إلى الانسحاب مع هذه الصفوف المتراصة من الجيش المغولي؟ لقد عول الجيش

---

١ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٤٤.

٢ سيرة السلطان جلال الدين صـ١٠٠، عودة الروح صـ١٩٨.

الإسلامي على مواصلة الحرب، وحقق شيئاً من النجاح، لكنه أرغم أخيراً على الارتداد، ولم يزل يطاردهم المغول على مقربة من نهر جيحون حتى أنزلوا بهم هزيمة ساحقة ولم ينج من القتل إلا شرذمة يسيرة[1]، وأحس الخوارزميون الذين بقوا في المدينة ـ إثر ذلك ـ أن قوتهم ضعفت وبدأ اليأس يدب في نفوسهم وهم يرون خيرة الجند يغادرها، فأرسلوا قاضي المدينة بدر الدين يعرض تسليم المدينة ويطلب الأمان، فأجابه جنكيز خان إلى ذلك، وفتحت أبوابها رابع ذي الحجة سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م[2]. ودخل جنكيز خان المدينة ومر أمام مسجد هاشم دخله ممتطياً جواده وسأل عما إذا كان هذا هو قصر السلطان، فلما قيل له أن هذا إنما هو بيت الله، نزل إلى أرض المسجد وصعد المنبر وصاح قائلاً بأعلى صوته لقد قطع العلف أعط الخيل طعاماً. وقد فهم المغول من هذه العبارة أن جنكيز خان يشير إلى جنده بأن ينهبوا المدينة، وقد حمل المغول إلى فناء المسجد عدة صناديق تحوي نسخاً كثيراً من القرآن الكريم وقعت تحت حوافر الخيل، كما أهان المغول الدين الإسلامي، بإحضارهم قرب الخمر إلى المسجد، كما أحضروا المغنين من المدن المختلفة، وأخذوا يشربون ويطربون[3]، وأعيان البلد وكبار الأئمة يقومون بخدمة الجند في مجالس الشراب أو يؤدون لهم الرقصات وفق رسم المغول على توقيع الآلات الموسيقية، وكان من هؤلاء الفقهاء الأجلاء من دفع به كذلك ليسوس البغال[4]. وخرج جنكيز خان بعد ذلك وجمع سكان المدينة وطلب منهم أن يعينوا لهم أكثر هذا الجمع ثراء، فعينوا له مائتين وعشرين بينهم ثمانون من الأغراب، فطلب منهم أن يقتربوا منه، وأخذ يتحدث إليهم، وبعد أن بين لهم أن الغرض من حملته هو أن يثأر من السلطان الخوارزمي قال: لقد ارتكبتم خطأً فاحشاً، وإن الرؤساء هم المجرمون، وإذا سألتموني عن نفسي قلت لكم إنني نقمة الله على الأرض، فإذا لم تكونوا مجرمين فإن الله ما كان يسمح لي بأن أعاقبكم[5]،

١ الكامل في التاريخ (٩ ـ ٣٣٢)، عودة الروح صـ١٩٨.

٢ الكامل في التاريخ (٩ ـ ٣٣٢)، عودة الروح صـ١٩٨.

٣ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٤٤.

٤ تاريخ بخارى صـ١٩٩، عودة الروح للخلافة صـ١٩٩.

٥ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٤٤.

وبعد أن فرغ جنكيز خان من حديثه أمرهم أن يخرجوا كنوزهم المدفونة وألا يبالوا بما ليس مدفوناً لأنه يستطيع أن يعثر عليه ، وقد ترك جنكيز خان كل رجل من هؤلاء الأغنياء في حراسة رجل مغولي على أنه وجد أن هناك أربعمائة فارس خوارزمي لم يخرجوا من المدينة مع سائر رجال الحامية فأرغمهم على الالتجاء إلى القلعة، وقد جند المغول من سكان المدينة من يقدر على حمل السلاح وساروا إلى القلعة وحاصروها وبعد أن أحدثوا في حوائطها عدة ثغرات دخلوها، وحينئذ لم يتركوا فيها شخصاً واحداً على قيد الحياة، على أن هذه الحامية الصغيرة دافعت عن نفسها بكل شجاعة أحد عشرة يوماً، وقتلت عدداً كبيراً من المغول، كما قتلت عدداً كبيراً من السكان الذين استخدموا في الحصار[1]. ويظهر أن جنكيز خان ركب رأسه عندما سقط عدد كبير من المغول ضحايا في ساحة القتال، فأمر جميع السكان أن يخرجوا من المدينة مجردين من أموالهم، لا يحمل أحداً منهم غير ملابسه التي يرتديها ثم دخل المغول المدينة فأعملوا فيها النهب وقتلوا من صادفهم من السكان[2]، ووصف ابن الأثير ما فعله المغول في بخارى فقال: ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه وأحاط جنكيز خان بالمسلمين، فأمر أصحابه أن يقتسموهم، فاقتسموهم، فكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان، وتفرقوا أيدي سبأ، وتمزقوا كل ممزق، واقتسموا النساء أيضاً، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس[3]. وأما ابن كثير فقد قال: فقتلوا من أهلها خلقاً لا يعلمهم إلا الله ـ عز وجل ـ وأسروا الذرية، والنساء، وفعلوا مع النساء الفواحش في حضرة أهلهن، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل، ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب وكثر البكاء والضجيج بالبلد[4]. ومما هو جدير بالذكر أن المغول أشعلوا النار في المدينة فاحترقت بأسرها، إذ أن معظم مبانيها كانت من الخشب، ولم يبق من مباني المدينة إلا تلك المبنية من الآجر، وأخيراً نزح من بقي من أهلها إلى إقليم خراسان، وهكذا شرد المغول أهالي مدينة

---

١ المصدر نفسه صـ١٤٥.

٢ المصدر نفسه صـ١٤٥

٣ الكامل (٩ ـ ٣٣٣)، عودة الروح صـ٢٠٠.

٤ البداية والنهاية (١٧ ـ ٨٠).

بخارى الذين اشتهروا بولعهم بالعلوم والفنون، ومما هو جدير بالذكر أن أحد سكان هذه المدينة لما وصل إلى إقليم خراسان أجمل ما أحدثه المغول في مدينته في هذه العبارة القصيرة التي عبر فيها تعبيراً صادقاً عما حدث: ((أتوا فخربوا وأحرقوا وقتلوا ونهبوا ثم ذهبوا[1]))، وقد أصبحت مدينة بخارى أطلالاً بالية واستمرت على هذا النحو حتى أخذ جنكيز خان نفسه في إصلاحها وإعادة بنائها، قبل موته بزمن قصير[2].

هـ ـ اجتياح سمرقند ٦١٧هـ: فبعد أن دمر التتار مدينة بخارى العظيمة، وأهلكوا أهلها وحرقوا ديارها ومساجدها ومدارسها انتقلوا إلى المجاورة ((سمرقند)) وهي أيضاً في دولة أوزبكستان الحالية واصطحبوا في طريقهم مجموعة كبيرة من آثار المسلمين من مدينة بخارى، وكما يقول إبن الأثير: فساروا بهم على أقبح صورة، فكل من أعيى وعجز عن المشي قتل[3]، وكانوا يصطحبون الأسارى معهم لأسباب كثيرة منها:

ـ كانوا يعطون كل عشرة من الأسارى علماً من أعلام التتار يرفعونه، فإذا رآهم أحد من بعيد ظن أنهم من التتار وبذلك تكثر الأعداد في أعين أعدائهم بشكل رهيب، فلا يتخيلون أنهم يحاربونهم، وتبدأ الهزيمة النفسية تدب في قلوب من يواجهونهم.

١. كانوا يجبرون الأسارى على أن يقاتلوا معهم ضد أعدائهم ومن رفض القتال أو لم يظهر فيه قوة قتلوه.

٢. كانوا يتترسون بهم عند لقاء المسلمين، فيضعونهم في أول الصفوف كالدروع لهم، ويختبئون خلفهم، ويطلقون من خلفهم السهام والرماح وهم يحتمون بهم.

٣. كانوا يقتلونهم على أبواب المدن لبث الرعب في قلوب أعدائهم، وإعلامهم أن هذا هو المصير الذي ينتظرهم إذا قاوموا التتار.

---

١ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٤٥.

٢ المصدر نفسه صـ١٤٥.

٣ الكامل في التاريخ نقلاً عن قصة التتار د. السرجاني صـ٣٠.

٤. كانوا يبادلون بهم الاسارى في حال أسر الرجال من التتار في القتال، وهذا قليل لقلة الهزائم في جيش التتار[١].

كانت سمرقند من أكبر مدن بلاد ما وراء النهر وأعظمها على الإطلاق، فهي حاضرة هذا الإقليم، وكانت إلى جانب ذلك مركزاً مهماً للتجارة، ولذلك أحيطت بأسوار ضخمة، يعلوها عديد من الأبراج، للدفاع عنها، وكانت حاميتها عندما فر منها محمد خوارزمشاه ـ غرباً تتألف من خمسين ألف مقاتل من الخوارزمية على ما يذكر ابن الأثير[٢]، ويرى ابن العبري، أنها كانت أربعين ألف فارس، وكان جنكيز خان على علم بكل هذه الاستعدادات الدفاعية، لذا وضع خطته الأصلية على أساس أنه سيخوض عند أسوارها حرباً شديدة قاسية، فرتب أموره على أن تلتقي كل قواته ـ والتي بدأ بها غزو بلاد ما وراء النهر من شرق أترار، عند سمرقند، واصطحب معه عدداً كبيراً من أسرى بخارى ليستعين بهم في عملية الحصار[٣]، ولما يبغ مشارف سمرقند وجد أن جنوده من الكثرة بحيث أنه استغنى عن ثلاثين ألف منهم، عهد إليهم مطاردة الأمير علاء الدين محمد خوارزمشاه[٤]، ومهد جنكيز خان للاستيلاء على سمرقند بإخضاع جميع المناطق التي كانت تحيط بها إخضاعاً يتعذر معه أن يستفيد خصومه منها أثناء حصاره لها، ونجح في تحقيق هذه الغاية[٥]، وكان الخان المغولي يقدر أن حصن المدينة لن يتيسر له فتحه قبل بضعة سنوات، مستنداً في هذا الاعتقاد إلى ما أبداه قائدا حاميتهما من ضروب الشجاعة، فضلاً عما أنزلاه بقوات المغول من خسائر، لكنه رأى أن يتولى بنفسه قيادة الهجوم على هذه المدينة[٦]، فحالفه النجاح في الاستيلاء على بعض أبوابها مما ترتب عليه قيام قادة الجيش الخوارزمي، فبينما رأت أكثرية الحامية التي تنحدر من أصل تركي ضرورة التسليم، رأى الفريق الآخر ضرورة القتال، وارتدوا إلى القلعة محاربين[٧]. ووافق جنكيز خان على فكرة

١ قصة التتار د. السرجاني صـ ٣١.
٢ الكامل (٩ ـ ٣٣٣)، عودة الروح صـ٢٠١.
٣ الكامل (٩ ـ ٣٣٣)، تاريخ بخارى صـ١٧٣، عودة الروح صـ٢٠١.
٤ تاريخ بخارى صـ١٧٣، عودة الروح صـ٢٠١.
٥ تاريخ بخارى صـ١٧٣، عودة الروح صـ٢٠١.
٦ الدولة الخوارزمية صـ١٢٤، عودة الروح صـ٢٠٢.
٧ الحياة السياسية في عهد السيطرة المغولية صـ٣٣ ـ ٣٤.

التسليم، ووعد هؤلاء الأتراك بأنهم سيدخلهم في جيشه، لذا خرجوا إليه مع عائلاتهم، وانضموا إلى عسكر المغول، وأراد جنكيز خان أن يؤكد ـ عملياً ـ وعوده، فأمر حلق شعورهم على عادة المغول ـ خداعاً وتمويهاً ـ غير أنهم ما كاد المساء يقبل حتى قتلوا منهم ثلاثين ألفاً من أبرزهم أمراؤهم[1]، وكان من أكثر ذلك أن أيقن أهل المدينة ومن بقي من أفراد حاميتها بالهلاك فأوفدوا في اليوم الرابع للقتال قاضي المدينة وبعض علمائها، يعرضون على جنكيز خان التسليم، مشترطين أن يأمنهم على حياتهم، فأجابهم الخان إلى ما طلبوا، وحينئذ فتحت الأبواب على أن المغول لم يرعوا عهدهم إذ أمروا السكان بالخروج من المدينة، ثم وضعوا السيف فيمن لم يخرج، واستولوا على قلعتها، ونهبوا البلد، وأحرقوا الجوامع، وكان ذلك في المحرم سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م وأرغم جنكيز خان القادرين من أهل سمرقند على حمل السلاح جنوداً في صفوف المغول، وبعث مهرة البستانيين من أهلها إلى ((قراقورم))، لتزيينها بمنتزهات على نحو مغاني سمرقند[2]، كما ألحق مهرة الصناع وبخاصة نساجو الحرير والقطن بخدمة زوجات جنكيز خان وأقربائه كرقيق، وسير بعضهم مع الخان إلى خراسان[3]، وسمح لخمسين ألفاً من السكان بالعودة إلى المدينة بعد أن دفعوا مائة ألف قطعة ذهبية[4]، وقد قدر ابن العبري هذه الفدية بمائتي ألف دينار، قام بجمعها اثنان من كبار رجال سمرقند، وهكذا تم استيلاء المغول على هذه المدينة في أوائل سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، ووصف ابن الأثير ما أحدثه المغول في المدينة فقال: فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخر قتلوه فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان، ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارى من النهب والقتل والسبي والفساد، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع، وافتضوا الأبكار، وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال وقتلوا ما لم يصلح للسبي[5]، ورغم ما حدث من تخريب في هذه المدينة فقد فرض جنكيز خان على أهلها جزية

---

١ تاريخ بخارى صـ١١٦، عودة الروح صـ٢٠٢.

٢ تاريخ بخارى صـ١٧٤، عودة الروح صـ٢٠٣.

٣ عودة الروح صـ٢٠٣.

٤ الدولة الخوارزمية صـ١٤٧.

٥ الكامل في التاريخ (١٢ ـ ١٦٩)، الدولة الخوارزمية صـ١٤٧.

سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار[1]، ولكي ندرك ما حل بحاضرة بلاد ما وراء النهر إثر الغزو المغولي نورد ما ذكره شانج شون، وهو أسقف صيني صحب جنكيز خان في غزواته وكتب مؤلفاً بالصينية عن هذه الرحالة، فقد ذكر أن مدينة سمرقند كانت قبل اكتساح الدولة الخوارزمية تضم أكثر من مائة ألف أسرة، ولكن بعد استيلاء المغول على هذه المدينة لم يبق فيها سوى ربع عدد سكانها، وذكر أن كثيرين من العمال الصينيين انتشروا في هذه المدينة، ورغم أن الممتلكات ظلت في أيدي المسلمين فإن إدارتها كانت تحت إشراف جيش الاحتلال المغولي[2]. وبعد سقوط عاصمة السلطان محمد، سمرقند، وهروب الشاه الخوارزمي من وجه القوات المغولية، أصبحت أراضي الأسرة الخوارزمية مفتوحة على مصراعيها دون حامٍ ضد قوات جنكيز خان التي أصبحت حرة تسير عبرها طولاً وعرضاً دون أن تجد معارضاً لها، لذلك فلا عجب أن نجد المدن والمقاطعات تتساقط واحدة تلو الأخرى، في أيدي القوات المغولية المنتصرة الزاحفة وما أن قارب فصل ربيع ذلك العام حتى أكمل المغول فتحهم لجميع أراضي السلطان محمد في إقليم ما وراء النهر، من مدينة جند في الشمال إلى بخارى وسمرقند في الجنوب، فبناكت وخنجد في الوسط[3]. وهكذا بانهيار جميع بلاد ما وراء النهر انهارت خطوط الدفاع التي اعتمد الجيش الإسلامي عليها، وتيسر للمغول بعد ذلك الاستيلاء على أقاليم شرق الدولة الإسلامية الباقية من غير عناء[4].

٢ ـ **اجتياح الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ووفاة محمد خوارزمشاه:** يبدو أن الضربات التي أنزلها المغول ببعض أجزاء الدولة الخوارزمية، وانتهت بسقوط حصون ومدن أترار وبجند وبنكت وخجندة وبخارى، وغيرها، كان لها تأثير بالغ في نفس علاء الدين محمد خوارزمشاه فعوَّل بعد وصوله إلى سمرقند من بخارى على الرحيل إلى مكان أمين يجير فيه أمره أو يبحث عن إمكانية التصدي لهذا العدو الغاشم، لذا عقد في سمرقند مجلساً ضم وزراءه وكبار قواده للبحث فيما

١ الدولة الخوارزمية صـ١٤٨.

٢ المصدر نفسه صـ١٤٨.

٣ سقوط الدولة العباسية صـ١٢٣.

٤ عودة الروح للخلافة صـ ٢٠٣.

يمكن عمله لمقاومة المغول، وظهر في هذا الاجتماع اتجاهان: أولهما يرى عدم جدوى الدفاع عن بلاد ما وراء النهر، وأن يركز الخوارزميون اهتمامهم على حماية الأقاليم التي تقع غربي جيحون، وثانيها يفضل الإنسحاب جنوباً إلى غزنة[١]، وقد استصوب خوارزمشاه الرأي الأخير، وتوجه نحو غزنة، وبينما هو سائر إليها قدم عليه وهو بمدينة بلخ وزير ابنه ركن الدين قد وجهه إلى أبيه لينتفع بخبرته في ظاهر الأمر وللتخلص من حكمه واستبداده في الحقيقة، فلما اكتشف الوزير ما يراد به احتال ليرجع إلى العراق العجمي موطنه الأصلي، لذا استغل ثقة علاء الدين محمد خوارزمشاه فيه، وعرض عليه المسير إلى العراق العجمي حيث يجد فيه المال والرجال والدرع الواقي من المغول، فقبل الأمير الخوارزمي مشورته وسار إلى نيسابور إحدى مدن خراسان، غيرأنه لم يقم بها إلا فترة قصيرة، إذ بلغه أن المغول قد عبروا نهر جيحون، وأصبحوا على مقربة منه، وأنهم يجدون في البحث عنه، فلم يكن في وسعه حينئذ إلا أن يغادر نيسابور ويأخذ طريقه شطر العراق العجمي[٢]. وكانت قوات المغول تتعقب علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي فر هارباً من سمرقند إلى خراسان، فلما وصلت هذه القوات إلى نيسابور وجدوه قد غادرها فأخذوا يتبعون أثره، واستطاع المغول على مقربة من الري أن يوقعوا بجيش خوارزمشاه الرئيس، الأمر الذي جعل الأمير الخوارزمي يفكر في الالتجاء إلى خليفة بغداد رغم ما بينهما من عداء، فسار حتى نزل ((بمرج دولة آباد)) من أعمال همذان، ووصل معه من جيشه زهاء عشرين ألف فارس، فواجه زحف القوات المغولية[٣]، مما اضطره إلى الاتجاه إلى إقليم مازندرات جنوبي بحر قزوين، ووصل إلى مرسى يعرف ((باب سكون))، يقول النسوي: وظل في إحدى قرى هذا الميناء يصلي بالناس في المسجد وينذر لله لئن كتبت له السلامة وأعيد له ملكه ليقيمن العدل، إلى أن انكشف أمره، وهاجم التتار موضعه، وعندئذ ركب البحر إلى قلعة أمينة في إحدى جرز بحر الخزر[٤]، تدعى جزيرة ((أوغر تشالي))، أو

١ عودة الروح صـ٢٠٤.

٢ الكامل (٣٣٣/٩).

٣ الكامل (٣٣٣/٩ ـ ٣٣٤)، عودة الروح صـ٢٠٥.

٤ سيرة السلطان صـ١٠٦.

جيركن الحالية، على خلاف في ذلك[1]، وقد رمى المغول زورقه بالسهام، فلمأ أخطأته تحمس بعضهم فسبح خلفه حرصاً على أخذه فغرقوا، ووصل خوارزمشاه لمأمنه عليلاً، وما لبث أن فارق الحياة في تلك الجزيرة في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م[2].

وقد وصف النسوي حالة علاء الدين في أيامه الأخيرة فقال: حدثني غير واحد ممن كانوا مع السلطان في المركب، قالوا: كنا نسوق المركب وبالسلطان من علة ذات الجنب ما أيسه من الحياة، وهو يظهر الاكتئاب ضجيراً ويقول: لم يبق لنا مما ملكناه من الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر، فما الدنياالساكنها بدار لا ركون إليها إلا سوى انخداع واغترار، ما هي إلا رباط يدخل من باب ويخرج من باب، فاعتبروا يا أولى الألباب، وقد وصل علاء الدين أخيراً إلى إحدى الجزر الصغيرة طلباً للأمان، وأقام في إحدى الخيام، على أن الأهالي الذين يقيمون على شاطئ مازندران كانوا يأتونه بما يلزمه من مأكل وما يحتاجه من ضرورات الحياة، وفي نظير ذلك كان السلطان يوصي بإقطاعهم الإقطاعات، ولما إستعاد جلال الدين منكبرتي أملاك أبيه بعد بضعة سنين أقر هذه الإقطاعات لأصحابها، ونلاحظ أن كل من كان معه علامة من علاء الدين كان جلال الدين منكبرتي يقطعه إقطاعاً، ولما أحس علاء الدين أن المرض يشتد عليه يوماً بعد يوم وأن أمه تركان خاتون قد وقعت أسيرة في أيدي المغول، استدعى أبناءه جلال الدين منكبرتي وأزلاغ شاه، وآق شاه، ووكل أمور دولته إلى ابنه جلال الدين، بعد أن أعلن أنه الوحيد الذي يستطيع حماية الدولة الخوارزمية[3]، ومما قاله لأبنائه، هذه العبارة التي ذكرها النسوي: إن عري السلطنة قد انفصمت والدولة قد وهنت قواعدها، وتهدمت وهذا العدو قد تأكدت أنيابه وتشبثت بالملك أظفاره، وتعلقت أنيابه، وليس يأخذ بثأري منه إلا ولدي منكبرتي، وها أنا موليه العهد، فعليكما بطاعته[4]، وبعد أن قضى علاء الدين في هذه الجزيرة شهراً، قضى نحبه ودفن فيها، ومما يؤسف له أن أتباعه عجزوا عن إيجاد كفن يكفنونه به حتى أن شمس الدين

---

١ تاريخ بخارى صـ١٧٧، عودة الروح صـ٢٠٥.

٢ سيرة السلطان صـ١٠٧ ، ١٠٨.

٣ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٥١.

٤ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٥٢.

محمود وكان من المقربين إليه خلع قميصه وكفنه به، ويروى السيوطي أنه كفن بشاش فراش كان معه[1]»، وقد وصف ابن الوردي حالة السلطان علاء الدين خوارزمشاه في أواخر أيامه فقال:

وفـــــــارق المســـــــكين أوطانـــــــه

وملكـــــه ممتحنـــــاً بـــــالمرض

وكـــم حـــوى مـــن جـــوهر مـــثمن

فـــما فـــدى الجـــوهر هـــذا العـــرض

وقد ذكر النسوي الذي عاصر هذه الحوادث، وخدم في بيوتات الخوارزميين بعض أبيات تصور حال علاء الدين في أيام سطوته الأولى وحاله بعد أن مالت به الأيام أبدع تصوير:

أذل الملـــــوك وصـــــاد القـــــروم

وصـــير كـــل عزيـــز ذلـــيلا

وحـــف الملـــوك بـــه خاضـــعين

وزفـــوا إليـــه رعـــيلا رعـــيلا

فـــما تمكـــن مـــن أمـــره

وصـــارت لـــه الأرض إلا قلـــيلا

وأوهمـــــه العـــــز أن الزمـــــان

إذا رامـــه ارتـــد عنـــه كلـــيلا

أتتـــــه المنيـــــة مغتاظـــــة

وســـلت عليـــه حســـاما صـــقيلا

[1] تاريخ الخلفاء للسيوطي صـ١١٣.

فلـــم تغـــن عنـــه حـــماة الرجـــال

ولم يجـــد قيـــل عليـــه فقـــيلا

كـــــذلك يفعــــل بالشــــامتين

ويفنـــيهم الـــدهر جـــيلا فجـــيلا[1]

وكان هدف المغول القبض على علاء الـدين محمـد خوارزمشـاه، لكـنهم لم يسـتطيعوا تحقيـق هذه الأمنية، ومع ذلك فإنهم استولوا على كثير من المدن والبلدان التي صادفتهم وهم يطاردونه، ومن أبرزها ((مازندران)) ذات القلاع التي اشـتهرت بمناعتهـا وحصـانتها ولم يلاقـوا في الاسـتيلاء عليهـا سـنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م مقاومة تذكر[2]، كذلك اتجهت بعض القوات المغولية إلى الري فوصلتها على حـين غفلـة من أهلها، وما لبثت أن استولت عليها وعاشت فيها نهباً وسلباً[3]، ولم يقم المغول في الري بعد استيلائهم عليه بل مضوا مسرعين في أثر خوارزمشاه ينهبون كل مدينة أو قرية يمرون عليها، ويضعون السـيف في رقاب أهلها، ولا يبقون على شئ فيها، فلما وصـلوا ظـاهر همـذان التقـى بهـم رئيسـها يعـرض علـيهم الصلح، ويقدم إليهم الأموال والثياب والدواب وغير ذلك من الهدايا الثمينة، فوافقوا عـلى مـنح أهلهـا الأمن وما رووا عنها إلى زنجان فاكتسحوها، ثم اتجهوا إلى مدينة قـزوين فتصـدى لهـم أهلهـا وأخـذوا يذودون عنهـا في قتـال عنيـد انتهـى بهـزيمتهم ودخولهـا في حـوزة المغـول[4]، ثـم اتجـه المغـول إلى إقلـيم أذربيجان، وقبل أن يصلوا إلى عاصمة الإقليم مروا بمدينة سنجار فنهبوها وقتلوا كثيراً من أهلها ثـم سـاروا إلى قوس فامتنع أهلها عنهم، ولم يزالوا يحاصرونها حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها[5]،ولما وصـلوا إلى المدينـة ((تبريز))صانعهم صاحبها أوزبك بـن البهلـوان، وقـدم لهـم كثـيراً مـن الهـدايا، متمثلـة في المـال والثيـاب

١ سيرة السلطان جلال الدين صـ٤٨، الدولة الخوارزمية صـ١٥٣.

٢ عودة الروح للخلافة صـ٢٠٦.

٣ تاريخ الخميسي (٣٦٨/٢)، عودة الخلافة صـ٢٠٦.

٤ العبر للذهي (٦٤/٥ ـ ٦٤٥) عودة الروح صـ٢٠٧.

٥ تاريخ ابن خلدون (٥٢٠/٥)، عودة الروح صـ٢٠٧.

والدواب، وأعلن تبعية بلاده لهم[1]، على أن المغول ما لبثوا أن اضطروا بسبب برد الشتاء القارس إلى الرحيل عن تبريز واتجهوا عبر سهول موقان إلى السواحل الغربية لبحر قزوين طلباً للدفء، وإذ هم يقيمون في هذه السواحل عقد حكام جورجيا معاهدة دفاعية مع أتابكية أذربيجان ومع الملك الأشرف موسى بن الملك العادل صاحب بلاد الجزيرة وخلاط للانقضاض على المغول، وحددوا بدء الهجوم بفصل الربيع، غيرأن المغول فطنوا إلى ما يدبر ضدهم، وعمدوا إلى القيام بهجوم على هذه القرى، فشتتوا شملها، واستولوا على حصون جورجيا وخربوها، كما توغلوا في أراضيها حتى وصلوا إلى حاضرتها ((تفليس)) وكان ذلك في ذي القعدة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م[2]، ولما تم للمغول الاستيلاء على إقليم جورجيا عادوا ثانية إلى إقليم أذربيجان الذي انتفض عليهم، وما كادوا يصلون إلى ((تبريز)) حاضرة هذا الاقليم حتى أعلن أهلها الاستسلام، وتعهدوا بدفع جزية كبيرة، ثم اتجهت قوات المغول صوب مراغة إحدى أمهات هذا الإقليم، وكانت تحكمها أميرة اتخذت إحدى القلاع حصناً لها، وشرعت تقاوم هجوم المغول الذين ضربوا على هذه المدينة حصاراً محكماً، استخدموا فيه مجانيقهم، وما لبثت المدينة أن سقطت في أيديهم رابع صفر سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م، يقول ابن الأثير: ووضعوا السيف في أهلها، فقتل منهم ما يخرج عن الحد والإحصاء، ونهبوا كل ما صلح لهم وما لا يصلح لهم أحرقوه[3]، وكي يتأكد المغول من فناء جميع أهلها أمروا بعض الأسرى المسلمين أن ينادوا في شوارعها بأن المغول قد رحلوا، فلما اطمأن من اختفى من أهلها في الدروب والآجام وخرجوا من مخابئهم قبض المغول عليهم وقتلوهم عن آخرهم[4]، لقد تعرض شرق الدولة الإسلامية لهذا الغزو المغولي، على هذه الصورة المروعة، ومع ذلك فإن خليفة بغداد الناصر لدين الله لم تبد منه أية محاولة لصده، كما لم يستمع إلى الرسل الذين قدموا إليه من البلاد التي نكبها المغول، وقد حمل موقف الخليفة السلبي من هذه البلاد، وعدم الإسهام في نجدتها بعض المؤرخين على اتهامه بالاتصال بالمغول، وتحريضهم على

---

١ عودة الروح صـ٢٠٧.

٢ المصدر نفسه صـ٢٠٧، مرآة الجنان (٣٧/٤ ـ ٣٨).

٣ مرآة الجنان لليافعي (٣٧/٤ ـ ٣٨)، عودة الروح صـ٢٠٨.

٤ الدولة الخوارزمية صـ١٣٤ ـ ١٣٥.

غزو الدولة الخوارزمية على أن الخليفة الناصر بدأ يشعر بخطر الزحف المغولي عندما رحل المغول عن مدينة مراغة، وقصدوا مدينة إربل، فأثار بعض أمراء المسلمين الخاضعين له، وقد عبر ابن الأثير عما انتاب أهل الموصل من الخوف حين شرع المغول في الزحف على مدينة أربل بقوله: ووصل الخبر إلينا بذلك بالموصل، فخفنا حتى إن بعض الناس هم بالجلاء خوفاً من السيف[١]، وانزعج الخليفة الناصر حين علم بزحف المغول على مدينة إربل، وكان يلي إمارتها حينئذ مظفر الدين كوكبري من قبل خليفة بغداد، فقد خشي الناصر أن يتجه قواد المغول إلى العراق العربي عن طريق دقوقا بدلاً من إربل، بعد أن يكتشفوا وعورة مسالكها، وصعوبة الوصول إليها، لذا بعث برسل تحمل أوامره إلى كل من مظفر الدين كوكبري صاحب إربل، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، والملك الأشرف موسى صاحب بلاد الجزيرة، يأمرهم بالتوجه إلى مدينة دقوقا في عسكرهم ليصدوا المغول إن هم عدلوا عن إربل إليها، توطئة لاقتحام العراق العربي، فسير بدر الدين بعض فرق جيشه إلى دقوقا، وغادر مظفر الدين إربل في صفر سنة ٦١٨هـ١٢٢١م مع عساكره وتبعهم جمع كثير من العساكر المتطوعة أما الملك الأشرف فاعتذر عن الحضور بنفسه في عسكره إلى دقوقا بوصول الملك المعظم عيسى بن الملك العادل من دمشق، يستنجده على الفرنج الذين كانوا وقتذاك قد استولوا على دمياط[٢]، ووصلت قوات أمراء إربل والموصل والجزيرة إلى دقوقا حيث سير الخليفة الناصر إليهم جيشاً قوامه ثمانمائة فارس[٣]، بقيادة مملوكه قشتمر، وأسند الخليفة إلى الأمير مظفر الدين كوكبري قيادة القوات الإسلامية ووعده بمده بالعسكر غير أن حكام المسلمين عجزوا عن إعداد القوة اللازمة لمواجهة المغول، ولم يكد يصل إلى المغول نبأ تجمع القوى الإسلامية للقائهم حتى رجعوا القهقرى وهم يحسبون أن عسكر المسلمين يتبعهم، ورحلوا إلى العراق العجمي، أما العسكر الإسلامي فأقام عند دقوقاً فترة تبين له أثناءها أن العدو قد انصرف عنهم، كما أن المدد الموعود به لم يصل إليهم، لذلك تفرقوا، وعاد الجميع إلى

١ عودة الروح صـ٢٠٩، الكامل (١٥٥/١٢ ـ ١٥٦).

٢ مرآة الجنان (٣٨/٤ ، ٤٨)، عودة الروح صـ٢١٠.

٣ الدولة الخوارزمية صـ١٣٥ ـ ١٣٦.

بلادهم سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م[١]، وقضى المغول الفترة التالية متنقلين بين المدن الإسلامية المختلفة في العراق العجمي وأذربيجان وأران وجورجيا مدمرين مخربين ما بقي من مدنها، حاملين ما يستطيعون حمله من خيراتها، ثم عبر القائدان المغوليان المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى بلاد القفجاق وروسيا، وسار المغول بقيادة هذين القائدين إلى بلغاريا وأوصلوا الرعب إلى أقصى حدود أوروبا[٢].

٣ ـ استيلاء المغول على خوارزم: كان إقليم خوارزم من الأقاليم التي تسيطر عليها تركان خاتون أم السلطان علاء الدين خوارزمشاه فقد كان نفوذها في هذا الإقليم يفوق نفوذ السلطان نفسه، وذلك بفضل أتباعها المخلصين من قبيلة كانكالي التي تسكن السهول الواقعة شمال خوارزم وشمال شرقي بحر قزوين، وبرغم هذا الشقاق الذي قام بين علاء الدين وأمه، فإنه لما رأى الخطر ماثلاً أمام عينيه، أرسل إليها في خوارزم يطلب منها أن تتقهقر هي وحاشتها إلى إقليم مازندران، جنوب بحر قزوين، حرصاً على حياتها، كما نرى جنكيز خان يرسل إليها عندما سمع بذلك الشقاق الذي قام بين علاء الدين وأمه، يستميلها إلى جانبه، ووعدها بأن يترك لها ما بيدها من أملاك بعد أن يتم فتوحاته، على أن السلطانة لم تهتم بما جاء في هذه الرسالة[٣]، ولما علمت تركان خاتون بتقهقر السلطان علاء الدين محمد، عزمت في أواخر سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م على مغادرة إقليم خوارزم مع وصيفاتها، ومع أبناء علاء الدين، وحملت معها كل ما يمكن حمله من كنوز، وقبل أن ترحل ارتكبت عملاً بربرياً فاحشاً ذلك أنها أمرت بقتل أولئك الأمراء الذين كان علاء الدين قد استولى على أملاكهم، والذين كانوا في سجون خوارزم، فقتلت أبناء طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة في العراق وأمراء بلخ وترمذ وباميان وابني آخر ملوك الدولو الغورية، وكثيرين من الأمراء الآخرين[٤]. رحلت التركان خاتون من إقليم خوارزم بغية الالتجاء إلى العراق العجمي، ثم اعتصمت وهي في الطريق بإحدى قلاع مازندران الحصينة ، وقد استولى القائد المغولي ((سوبوتاي)) في أثناء مطاردته علاء الدين

---

١ عودة الروح صـ٢١٠.
٢ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٥٨.
٣ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٦١.
٤ المصدر نفسه صـ١٦١.

خوارزمشاه على هذه القلعة، التي سلمت بعد ثلاثة أشهر حين نفذ ما أدخره المحاصرون من مياه للشرب، ووقعت تركان خاتون أسيرة في أيدي المغول الذين قادوها هي وحاشيتها وأبناء علاء الدين إلى معسكر جنكيز خان، وقد ظلت تركان خاتون أسيرة في أيدي المغول حتى رحلوا إلى بلادهم وصحبوها معهم إلى هناك، حيث ماتت سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م، وأما أبناء علاء الدين الصغار فقد قتلهم جنكيز خان رغم حداثة سنهم، كما أعطى أبنه جغطاي اثنتين من بنات علاء الدين، فتزوج واحدة وأعطى الثانية لأحد رجاله المقربين، كما أعطى جنكيز خان ابنة ثالثة من بنات علاء الدين لحاجبه دانشمند[١]، وهكذا خلا إقليم خوارزم من الحكام الخوارزميين وبات ينتظر مصيره المحتوم على أيدي المغول[٢].

أ ـ انتقال جلال الدين منكبرتي من خوارزم: بعد وفاة علاء الدين في الجزيرة المنعزلة في بحر قزوين على نحو ما رأينا عبر أولاده الثلاثة جلال الدين منكبرتي، وأزلاغ شاه، وأق شاه، عبروا البحر إلى إقليم خوارزم حيث استقبلوا بمظاهر الفرح والسرور إذ كانت حاضرة هذا الإقليم في فوضى مستمرة منذ غادرتها تركان خاتون التي انشغلت بنفسها، وفاتها أن تعين حاكماً على هذا الإقليم، وقد وصف النسوي وصول جلال الدين منكبرتي وأخويه إلى إقليم خوارزم في عبارة نوردها في هذا المقام: لما اندرج السلطان إلى رحمة الله ودفن بالجزيرة، ركب جلال الدين البحر إلى خوارزم بأخويه المذكورين (أزلاغ شاه وأق شاه) وتباشر الناس بقدومهم تباشر من أعضل داؤه، فظفر بدوائه، واجتمعت عندهم من العساكر السلطانية زهاء سبعة آلاف فارس[٣]. وعلى الرغم من أن جلال الدين منكبرتي وأخويه استطاعوا أن يجمعوا جيشاً كبيراً لمواجهة المغول، فقد كان من سوء حظ الخوارزميين أن هذا الجيش كان يتكون من تلك القبائل التركية التي تنتمي إليها تركان خاتون والتي لم ترض عن تولي جلال الدين منكبرتي الحكم بعد أبيه، وقد أراد جلال الدين أن يخضع هذه الجيوش الثائرة بالقوة فتآمروا على قتله، ولم يجد جلال الدين مخرجاً إلا الفرار والنجاة بنفسه

١ المصدر نفسه صـ١٦١.

٢ المصدر نفسه صـ١٦٢.

٣ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٦٢.

من الهلاك، ففر إلى خراسان بصحبة ثلاثمائة فارس تحت إمرة ((تيمور ملك)) حاكم مدينة خنجده، وكان قد فر إلى إقليم خوارزم بعد غزو المغول مدينته كما رأينا، وقد عبر جلال الدين هذه الصحراء التي تفصل إقليم خوارزم عن خراسان في ستة عشر يوماً، وصل بعدها إلى الأراضي القريبة من مدينة نسا[١]. وأما الجند المتآمرون فقد بقوا في خوارزم بعد رحيل جلال الدين عنها، ولكنهم ما لبثوا أن رحلوا أيضاً إلى خراسان بعد أن سار إليهم المغول، وبرحيل جلال الدين منكبرتي عن إقليم خوارزم ضاع آخر أمل في إنقاذ هذا الاقليم إذ لم يعد هناك من قوة تستطيع أن تقف في وجه التيار المغولي، وكان في قدوم أولاد علاء الدين خوارزمشاه مدينة خوارزم وجمعهم الجيوش الكثيرة فيها، ما استلفت نظر جنكيز خان، فسير إلى هذه المدينة جيشاً تحت قيادة أبنائه جوجي وجغتاي وأغطاي الذين كانوا قد أتموا فتح بلاد ما وراء النهر بالاشتراك مع جيوش جنكيز خان، ولكي يحاصر جنكيز خان أبناء علاء الدين من كل جهة أمر جيوشه في خراسان بأن تقف على الحدود الجنوبية[٢] للصحراء التي تفصل خوارزم عن خراسان، وقد عسكر سبعمائة فارس بالقرب من مدينة نسا، ولما أرادا الاشتباك معهم حلت بهما الهزيمة، ثم وقعا في الأسر، وقد قطع المغول رأسيهما ورشقوهما في سهمين، ثم طافوا بهما في أنحاء هذه المقاطعة إمعاناً في السخرية في الخوارزميين، وإرهاباً للأهالي المتمردين، وفي هذه الأثناء ذو القعدة سنة ٦١٧هـ / مايو سنة ١٢٢٠م كان الجيش المغولي يتقدم نحو مدينة خوارزم، حاضرة الإقليم المسمى بهذا الاسم، وتقع مقربة من مصب نهر جيحون في إقليم صحراوي، إذ لا نجد فيما عدا هذه المدينة وما يحيط بها من مدن صغيرة وقرى متناثرة إلا أراضٍ صحراوية[٣].

ب ـ حصار مدينة خوارزم: كانت الجيوش المغولية تحت قيادة جوجي وأغتاي من أبناء جنكيز خان، كما ذكرنا، ولكن القيادة العليا كانت في يد جوجي أكبر ابنائه، وهكذا كان المغول أقوياء بروحهم المعنوية وبرجالهم وبمؤازرة جنكيز خان لهم، أما الجيوش الخوارزمية، فكانت لا ضابط لها، وخاصة بعد أن فر جلال الدين منكبرتي

١ المصدر نفسه صـ١٦٣.

٢ المصدر نفسه صـ١٦٣.

٣ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٦٤.

وأخواه، كما كانت أكثرية هذه الجيوش من قبيلة كانكالي التركية وهي لا تعدو مـن الجيـوش المرتزقـة التي لا يهمها في كثير أو قليل أن تدافع عن الأراضي الخوارزمية، وصل القوات الثلاثة إلى المدينة وطلبوا من أهلها التسليم ووعدوهم حسن المعاملة وأعلنوهم جوجي أن أباه أعطاه إقلـيم خـوارزم ليحكمـه وأنه حريص على أن يبقي حاضرة هذا الإقليم من التخريب، كما أخـبرهم أنـه حـذر جنـوده إلا يمسـوا هذا الإقليم بأذى[1]. هذا إلى أن السلطان المتوفى علاء الدين خوارزمشاه كان قـد أرسـل إلى أهـالى هـذه المدينة على إثر تقهقره وفراره ينصحهم بالتسليم وعدم المقاومة، صوناً لأرواحهم، وقد جـاء في رسـالته لهم ما يأتي: إن لأهل خوارزم علينا وعلى سلفنا من الحقوق المتلاحقة والسوالف الحاضرة والسابقة مـا يجب علينا النصح لهم، والإشفاق عليهم، وهذا العدو عدو غالب، فعليكم بالمسـالمة والطريـق الأرفـق ودفع الشر بالوجه الأوفـق[2]. ورغـم تحـذير جـوجي ونصـح السـلطان الخـوارزمي انقسـم السـكان إلى معسكرين: فريق منهما يؤمن بضرورة التسليم وفريق آخر يرى ضرورة المقاومة والدفاع عـن وطـنهم، وقد انتصر أنصار الرأي الثاني ووقفت المدينـة موقـف الـدفاع، واسـتعد السـكان للمقاومـة، ولمـا أدرك المغول عزم الخوارزميين على المقاومة استعدوا بدورهم للقتال فنصبوا حـول المدينـة آلات الحـرب مـن مجانيق ومتاريس وغيرها، ولما كانت الأراضي المحيطة بالمدينة فقـيرة مـن الأحجـار التـي يحتـاج إليهـا المغول في أعمال الحصار التي يقذفونها على المدن المحاصرة بواسطة المجانيق فقد اقتلعـوا عـدداً كبـيراً من أشجار التوت وقطعوا سيقانها قطعاً مستديرة تركوها فترة من الـزمن في المـاء حتـى ازدادت قـوة، واستطاعوا بعد ذلك أن يستعملوها في مجانيقهم لتحطيم أسـوار المدينـة[3]، وبيـنما كانـت اسـتعدادات المغول قائمة على قدم وساق، وصل كثير مـن أسرى الـبلاد الخاضـعة الـذين اسـتغلهم المغـول في حفـر الخنادق حول المدينة الذين أنجزوا هذا العمل في غضون عشرة أيام[4].

---

١ المصدر نفسه صـ١٦٤.

٢ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي صـ٩٣.

٣ سيرة السلطان جلال الدين منكبتي صـ٩٣.

٤ الدولة الخوارزمية صـ١٦٥.

جـ ـ هجوم على المدينة واحتلالها: ولما اطمأن المغول إلى استعداداتهم الحربية قام ثلاثة آلاف منهم بهجوم كان النصر فيه حليف الخوارزميين فظنوا أن انتصارهم أصبح من الأمور المحققة، وساعد ذلك على تقوية روحهم المعنوية، على أن هزيمة المغول في هذه المرة ترجع إلى تلك الفوضى التي حلت بالجيوش المغولية، نتيجة لخلاف نشأ بين جوجي وجغتاي ابني جنكيز خان، ورغم هذا النزاع، استمر حصار هذه المدينة ستة أشهر أرسل قوات المغول في خلالها إلى جنكيز خان وكان إذ ذاك أمام مدينة الطالقان في أعالي نهر جيحون ـ يطلبون منه مدداً يعوض ما خسروه أمام مدينة خوارزم، كما نقلوا إليه أنباء الخلاف الذي نشأ بين ابنيه، وما أدى إليه من شقاق وفساد وفوضى في صفوف الجيش المغولي، وقد استاء جنكيز خان عندما سمع هذه الأنباء، فأرسل المدد وبعث أوامره بإسناد قيادة الجيش إلى ابنه الثالث أجتاي، وأمره أن يصلح من أمر أخويه، ولما أعاد القائد الجديد تنظيم جيشه وقضى على تلك الفوضى التي انتشرت في صفوف الجيش أمر جنده بالهجوم على المدينة، واستطاع المغول في النهاية أن يخترقوا أسوارها وأن يرفعوا أعلام النصر على هذه الأسوار، ثم أشعل المغول النار في منازل المدينة ومبانيها، وعلى الرغم من نجاح المغول في اختراق حصون المدينة صمم الخوارزميون على الاستماتة في الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم، وقد ساهم النساء والأطفال في هذا الجهاد[1]، واستمرت مقاومة الخوارزميين على هذا النحو سبعة أيام، وأخيراً وجد السكان أنفسهم قد تجمعوا في أحياء ثلاثة، وبعد أن أعيتهم الحيلة وضاقت بهم السبل عرضوا على المغول التسليم، فأرسل الفقيه ((عالي الدين))، محتسب خوارزم إلى قائد الجيش المغولي الذي أولاه احترامه وأمر بأن تفرد له خيمة خاصة، ولما آن الوقت الذي مثل فيه الرسول الخوارزمي في حضرة القائد المغولي قال له: إننا شاهدنا من هيبة الخان، وقد آن أن نشاهد من مرحمته، فغضب القائد المغولي وقال: ماذا رأوه من هيبتي، وقد أفنوا الرجال وطاولوا القتال؟ فأنا الذي شاهدت هيبتهم وها أنا أريهم هيبتي[2]. وقد أمر القائد المغولي الأهالي بالخروج من المدينة، وطلب من أصحاب الحرف أن يقضوا في مكان منعزل،

١ المصدر نفسه صـ١٦٦.

٢ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي صـ٩٤.

فمنهم من فعل ونجا من الموت، ومنهم من امتنع وظن أن هؤلاء سيؤخذون إلى بلاد المغول وأن الباقين سيتركون أحياء، وقد صدقت نبوءة الخوارزميين عن رحيل أصحاب المهن والحرف إلى بلاد المغول وكذبت نبوءتهم الثانية، إذ أعمل المغول السيف في رقاب من بقي من السكان، وكان على كل جندي من المغول أن يقتل أربعة وعشرين رجلاً خوارزمياً، فإذا علمنا أن الجيش المغولي كان يتكون من مائة ألف رجل أدركنا ذلك العدد الغفير من السكان الذين كان نصيبهم الهلاك[1]. وأخيراً لم يبق من السكان في المدينة إلا الفتيات الصغيرات والأطفال الذين استرقهم المغول[2].

د ـ وصف ابن الأثير لما حدث لخوارزم: ولكي يجهز المغول على المدينة ويجعلوها أثراً بعد عين، فتحوا سدود نهر جيحون فغرقت المدينة وتهدمت أبنيتها وأصبحت كأن لم تغن بالأمس، وقد صور ابن الأثير ما اصاب هذه المدينة تصويراً دقيقاً في هذه العبارة: ثم أنهم فتحوا السد الذي يمنع ماء جيحون عن البلد فدخله الماء، فغرق البلد جميعه، وتهدمت الأبنية، وبقي موضعه ماء ولم يسلم من أهله أحد البتة فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله منهم من يخافي ومنهم من يهرب، ومنهم من يخرج ثم يسلم، ومنهم من يلقي نفسه بين القتلى فينجو، وأما أهل خوارزم، فمن اختفى من التتار أغرقه الماء وقتله الهدم، فأصبحت خراباً يباباً[3]. وفي نفس الوقت الذي سيطر فيه المغول على إقليم خوارزم نرى جنكيز خان يتم إخضاع المدن الواقعة في أعالي نهر جيحون، ومن أشهرها ترمذ وبلخ ومن الطريف المؤلم أن جنكيز خان لما استولى على مدينة ترمذ، امر بإخراج جميع السكان من المدينة وأمر جنده بقتلهم جميعاً، وقد حدث أن هم أحد المغول بقتل امرأة عجوز فأرادت هذه المرأة أن تفتدي نفسها بجوهرة ثمينة كانت تمتلكها، فلما طالبها المغول بهذه الجوهرة ذكرت أنها ابتلعتها في جوفها، فشق المغولي بطن المرأة وأخرج الجوهرة من جوفها، وقد انتشر الخبر سريعاً بين المغول فظنوا أن السكان جميعاً قد خبأوا الجواهر في بطونهم، لذلك أمر جنكيز خان بشق جميع بطون الموتى للبحث عما عسى أن يكون

١ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٦٦.

٢ المصدر نفسه صـ١٦٦.

٣ الكامل (١٨٢/١٢)، الدولة الخوارزمية صـ١٦٧.

فيها جواهر[1]، وبعد استيلاء المغول على إقليمي ما وراء النهر وخوارزم، استطاعوا أن يحيطوا تماماً بإقليم خراسان حيث وجهوا ضربتهم التالية، فاستولوا على مدن هذا الإقليم المدينة تلو الأخرى، ولم يقف في طريقهم عائق أو يمنعهم مانع[2].

٤ ـ اجتياح خراسان:صدرت الأوامر لتولوي بن جنكيز خان بالسير إلى إقليم خراسان في خريف عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠/ ويظهر أن جنكيز خان كان ينوي غزو هذا الإقليم بنفسه بدليل أنه عبر إلى الضفة الغربية لنهر جيحون وسار إلى مدينة بلخ، إحدى المدن الغنية الواقعة على الضفة الغربية لنهر جيحون، ابتغاء الاستيلاء عليها[3].

أ ـ الاستيلاء على بلخ:لم تكن مدينة بلخ محصنة تحصيناً يكفل لها الصمود أمام الجيوش المغولية، وترجع شهرة هذه المدينة إلى أنها كانت من أمهات المدن الخوارزمية، فضلاً عن قيمتها التجارية بسبب وقوعها على إحدى الممرات التجارية الهامة في وسط آسيا، وكانت هذه المدينة عامرة بمبانيها آهلة بسكانها حتى قيل أنه كان بها ألف ومئتان من المساجد الكبيرة ومثلها من المساجد الصغيرة، كما كان بها حمامات عديدة خاصة بالأجانب والتجار الذين يفدون على المدينة[4]، وبرغم تسليم هذه المدينة في سنة ٦١٨ هـ /١٢٢١م لم يعفها جنكيز خان من التخريب، كما لم يعف أهلها من القتل ثم اكتفى بالزحف عند هذه المدينة وقنع بإرسال ابنه تولوي إلى خراسان على رأس جيش مكون من سبعين ألفاً، ويظهر من تغيير جنكيز خان خطته الحربية انه أراد أن يؤمن أملاكه وجيوشه في هذه النقطة[5].

ب ـ احتلال نسا والقضاء على أهلها: سارت طلائع جيش تولوى إلى خراسان في سنة ٦١٧ هـ ـ ١٢٢٠م وكانت تتكون من عشرة الآلف جندي بقيادة توجاش زوج ابنة جنكيز خان، وقد سار القائد إلى مدينة نسا ولما قربت إحدى كتائبه

---

١ الدولة الخوارزمية والمغول صـ ١٦٧.
٢ المصدر نفسه صـ ١٦٧.
٣ المصدر نفسه صـ ١٦٧.
٤ المصدر نفسه صـ ١٦٧.
٥ المصدر نفسه ١٧٢.

من المدينة سلط المسلمون سهامهم على رجالها فقتل عدد كبير، كما قتل بلجوش قائد هذه الكتيبة ولما وصل توجاشر بجيوشه، أمر بأن ينصب حول المدينة عشرون منجنيقاً، وبعد خمسة عشر يوماً استطاع المغول أن يحدثوا ثغرة في حوائطها واحتلوها ليلاً، ولما طلع النهار بدأوا يثأرون لمقتل القائد بلجوش، فأخرجوا جميع السكان وأمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر، كما أمروا بربط ذراعي كل رجل وراء ظهره، ثم قتل المغول جميع النساء والرجال والأطفال حتى قيل إن عدد من قتل من سكان هذه المدينة بلغ أكثر من سبعين ألفاً و وقد وصف النسوي هذه الحادثة وصفاً يثير الحسرة والألم حيث قال: فساقوهم إلى فضاء وراء البساتين، كأنهم قطعان الضأن تسوقها الرعاة، ولم يمد التتار أيديهم إلى سلب ونهب إلى أن حشروهم إلى ذلك الفضاء الواسعة بالصغار والنساء والضجيج يشق جلباب السماء والصياح يسد منافذ الهواء، ثم أمروا، بأن يكتفوا بعضهم بعضاً ففعلوا ذلك خذلانا، وإلا فلو تفرقوا وطلبوا الخلاص عدواً من غير قتال والجبل قريب، لنجا أكثرهم، فحين كتفوا جاءوا إليهم بالقوس وأضجعوهم على العدى وأطعموهم سباع الأرض وطيور الهوى، فمن دماء مسفوكة وستور مهتوكة وصغار على ثدى أمهاتها المقتولة متروكة وكان عدة من قتل بلسان أهلها ومن انضوى إليها من الغرباء ورعية بلدها سبعون ألفاً[1]، ويروي النسوي أن المغول انتشروا في خراسان وكانوا كلما حلوا ببلد جمعوا الفلاحين وقادوهم كالأغنام لمساعدتهم في حصار الأماكن التي يرغبون في الاستيلاء عليها وقد استولى الرعب والفزع على النفوس حتى كان الأسير أحسن حالاً ممن أقام في منزله لأنه أصبح لا يعرف شيئاً عن المصير الذي سيؤول إليه وكان المغول يرغمون حكام المقاطعات وأتباعهم على الاشتراك في أعمال الحصار، ومن أبى منهم قتل شر قتله[2].

جـ ـ مذبحة مدينة مرو: ذهب إلي مدينة مرو جيش كبير من التتار على رأسه بعض أولاد جنكيز خان واستعانوا في هذه الموقعة بأهل بلخ المسلمين، وتحرك الجيش المغولي بقيادة تولوي واستطاع المغول إبادة عشرة آلاف رجل من الخيالة التركمان كانوا يعسكرون على مقربة من المدينة، فاستدرجوهم إلى كمين وقتلوا عدداً كبيراً

١ الدولة الخوارزمية صـ١٧٢.

٢ المصدر نفسه ١٧٣.

منهم وفر الباقون بعد أن غنم المغول منهم عدداً كبيراً من قطعان الماشيةالتي نهبوها من مدينة مرو، وفي اليوم التالي أول محرم سنة ٦١٨هـ ـ ٢٥ فبراير سنة ١٢٢١م ـ سار تولي في خمسمائة من الخيالة لاختيار حصون المدينة ولم يمض أسبوع حتى تجمعت الجيوش المغولية التي أخذت في الهجوم على هذه المدينة، وكان أمام المحاصرين منفذان للنجاة، ولكن المغول فطنوا إلى هذين المنفذين وقضوا الليل على حراسة الأسوار والمنافذ ليحولوا دون خروج الأهالي والجيوش الخوارزمية منها، وفي اليوم التالي أرسل حاكم المدينة وكان يطلق عليه ((مدير الملك))، كبار رجال الدين إلى تولوي يعرضون التسليم، بشرط أن يؤمن من في داخل المدينة فودعهم المغول بتلبية مطالبهم حتى أن مدير الملك خرج بنفسه إلى معسكر المغول يحمل الهدايا إلى تولوي، الذي أكد له سيثبته في حكم هذه المدينة وأعيانها ليخلع عليهم الخلع ويمنحهم الهبات، فأرسل مدير الملك في استدعائهم، ولما حضروا إلى معسكر المغول ربطهم تولوي ومعهم مدير الملك، وطلب منهم أن يعدوا[1] له قائمتين طويلتين.

١. أما القائمة الأولى: فتضم أسماء كبار التجار وأصحاب الأموال في مدينة مرو.
٢. أما القائمة الثانية: فتضم أسماء أصحاب الحرف والصناع المهرة، ثم أمر ابن جنكيز خان أن يأتي المغول بأهل البلد أجمعين فخرجوا جميعاً من البلد حتى لم يبق فيها ولا واحد، ثم جاءوا بكرسي من ذهب قعد عليه ابن جنكيز خان ثم أصدر الأوامر الآتية:

- أن يأتوا بأمير البلاد وبكبار القادة والرؤساء فيقتلوا جميعاً أمام عامة أهل البلد، وبالفعل جاءوا بالوفد الكبير وبدءوا في قتله واحداً واحداً بالسيف والناس ينظرون ويبكون.
- إخراج أصحاب الحرف والصناع المهرة، وإرسالهم إلى منغوليا الاستفادة من خبرتهم الصناعية هناك.
- إخراج أصحاب الأموال وتعذيبهم حتى يخبروا عن كل مالهم، ففعلوا ذلك، ومنهم من كان يموت من شدة الضرب ولا يجد ما يكفي لافتداء نفسه.

---

١ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٧٥.

- دخول المدينة وتفتيش البيوت بحثاً عن المال والمتاع النفيس حتى إنهم نبشوا قبر السلطان ((سنجر))أملاً في وجود أموال أو ذهب معه في قبره، واستمر هذا البحث ثلاثة أيام.
- الأمر الخامس، أمر ابن جنكيز خان، أن يُقتل أهل البلاد أجمعون، وبدأ المغول يقتلون كل سكان مرو، الرجال والنساء والأطفال، وقالوا إن المدينة عصت علينا وقاومت، ومن قاوم فهذا مصيره[1].

وهكذا أصبحت مدينة مرو أثراً بعد عين وهلك سكانها أجميعن الذين قدرهم ابن الأثير بسبعين ألفاً، وأما الجويني فقدر هذا العدد في كتابه تاريخ جهان كشاي فذكر أنه بلغ مليوناً وثلاثمائة ألف رجل عدا الجثث التي كانت في أماكن خفية[2].

د ـ الانتقام من أهالي مدينة نيسابور: سار توجاشر بعد مذبحة نسا إلى مدينة نيسابور سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م وعزم على الاستيلاء عليها وقد هاجمها بالفعل ولكنه قتل بعد ثلاثة أيام بسهم من سهام أعدائه، وقد وجد القائد الذي حل محله في القيادة أنه لا يملك القوة الكافية للاستيلاء على هذه المدينة فرفع عنها الحصار، تاركاً هذه المهمة الشاقة إلى أن يأتي جيش تولوي وتفرغ للاستيلاء على بعض الحصون المجاورة[3]، وبعد مقتل أهالي مدينة مرو تحرك تولوي إلى مدينة نيسابور على مسيرة اثني عشر يوماً من مدينة مرو.

وأراد تولوي أن يثأر لموت ((توجاشر)) الذي قتل أمام أسوار هذه المدينة عندما حاول الاستيلاء عليها قبل وصول تولوي بجيوشه، وأما الأهالي فقد أساءوا إلى فصائل المغول التي كانت تظهر تباعاً بالقرب من المدينة، ثم أخذوا أهبتهم للاستعداد عندما علموا أن المغول سيهاجمون المدينة، ولما رأى الأهالي المحاصرون وقواد الجيوش الخوارزمية الجيوش المغولية وقد أحاطت بالمدينة من كل جانب، فقدوا رباطة جأشهم وأرسل الأهالي نواباً عنهم من الأئمة وكبار رجال المدينة، وعلى رأسهم قاضي القضاة في خراسان إلى المعسكر المغولي وعرضوا على تولوي التسليم وتعهدوا بأن

١ قصة التتار د.راغب السرجاني صـ٤٧.
٢ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٧٥.
٣ المصدر نفسه صـ١٧٤.

يؤدوا للمغول ضريبة سنوية، ولكن تولوي الذي كان صدره يغلي ونفسه تتحرق شوقاً للانتقام لمقتل زوج شقيقته توجاشر، رفض كل العروض التي عرضها عليه أهالي هذه المدينة[1]، وفي اليوم التالي تفقد تولوي جنده الذين كانوا يرابطون حول المدينة وأخذ يشجعهم، حتى إذا ما حل اليوم الثاني عشر من شهر صفر سنة ٦١٨هـ/٧ أبريل سنة ١٢٢١م أمر بمهاجمة المدينة من كل مكان واستمر القتال طول النهار والليل، ثم استطاع المغول أن يخترقوا الحصون ويحدثوا في حوائطها ثغرات عديدة مكنتهم من دخول المدينة من جميع جهاتها وأصبحت شوارعها ومنازلها مسرحاً للحروب، وأخيراً تمكن المغول من احتلال المدينة، وأخذوا يثأرون بمقتل توجاشر، وقد دخلت زوجة ذلك القائد وهي ابنة جنكيز خان المدينة يصحبها عشرة آلاف رجل وقتلوا كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال، ولم يتركوا حتى القطط والكلاب[2]، ومما يدل على أن المغول كانوا يتحرقون شوقاً للتنكيل بسكان نيسابور أن تولوي رأى بعض السكان يلتمسون النجاة بالرقاد بين جثث القتلى، فلكي لا يترك فرصة لأحد منهم للنجاة، أمر بقطع جميع رؤوس القتلى ووضع هذه الرؤوس في جانب والأجساد في جانب آخر[3]. وقد استمر تخريب المدينة خمسة عشر يوماً زالت فيها معالمها، ولم يبق المغول إلا على أربعمائة رجل من أصحاب الحرف والمهن للانتفاع بهم، ولكي يطمئن تولوي إلى القضاء على جميع سكان المدينة ترك بعد رحيله عنها عدداً من الجنود قتل السكان الذين قد يظهرون بعد رحيل الجيش المغولي، وقد ظهر فعلاً عدد منهم أجهز عليهم الجيش المغولي»، ومما هو جدير بالذكر أن سقوط هذه المدينة حدث بعد وفاة علاء الدين خوارزمشاه بشهرين[4].

هـ ـ خضوع مدينة هراة: سار الجيش المغولي بعد الإجهاز على نيسابور إلى مدينة هراة إحدى مدن خراسان الهامة، ووجه قائده، وهو في طريقه إليها، طائفة من جنده إلى مدينة طوس فدمرتها وخربت مشهد علي بن موسى الرضي وهارون

---

١ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٧٦.

٢ المصدر نفسه صـ١٧٧.

٣ الكامل في التاريخ (١٨١/١٢) الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٧٧.

٤ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٧٧.

الرشيد[1]، وأرسل تولوي عندما وصل إلى مشارف هراة ينذر أهلها بالتسليم فأجابوه، بقتل رسوله إليهم، واستعدوا للدفاع عن مدينتهم التي ما لبثت أن هوجمت من جميع جهاتها في وقت واحد، وبعد حصار دام عشرة أيام على رواية ابن الأثير[2]، وثمانية أيام على رواية غيره[3]، طلب أهلها التسليم على أن يؤمن المغول حياتهم ووافق تولوي على هذا الطلب مكرهاً، لأن إنقساماً خطيراً حدث في جيشه ومع ذلك لم يف بوعده للأهالي، فقد قتل منهم نحو اثني عشر ألفاً، ثم ولى عليها حاكماً عسكرياً مسلماً، وغادرها بأمر من أبيه جنكيز خان ليلحق به عند مدينة الطالقان[4]. على أن هراة ما لبثت أن ثارت على الحكم المغولي على إثر سماع أهلها خبر انتصارات جلال الدين منكوبرتي التي أحرزها على المغول في إقليم غزنة، الأمر الذي جعل المغول يجردون عليها حملة قاسية، افتتحتها عنوة، وأنزلت بها كثيراً من السلب والنهب، ثم جعلتها طعاماً للنيران[5]. وهكذا خضع إقليم خراسان للمغول، ومما هو جدير بالذكر أنه في الوقت الذي غزا فيه المغول خراسان تركت إحدى القبائل التركمانية التي كانت تسكن بالقرب من مدينة مرو أملاكها تحت تأثير الفزع من ناحية المغول وهاجرت غرباً إلى أرمينية، وبعد ذلك بثمانية أعوام أغار المغول على هذا الإقليم فتركت هذه القبيلة هذا المكان وسارت إلى آسيا الصغرى واستطاع قائدها ((أرطغرل)) مع رجاله الذين كانوا يكونون أربعمائة وأربعين عائلة، أن يقيموا في إحدى المقاطعات التابعة لسلطان السلاجقة الروم في إقليم أنقرة على حدود الدولة البيزنطية، وتحولت الزعامة إلى عثمان الذي استطاع في سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، بعد أن دب الضعف إلى السلاجقة في آسيا الصغرى، أن يكوّن له دولة على أنقاض هذه الدولة السلجوقية، واتخذ لنفسه لقب ((سلطان)) ويعتبر عثمان هذا المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية.

---

١ الكامل في التاريخ (٣٤٣/٩) الدولة الخوارزمية صـ١٥١.

٢ الكامل في التاريخ (٣٤٣/٩)، عودة الروح صـ٢١٩.

٣ الدولة الخوارزمية صـ١٥٢، عودة الروح صـ٢١٩.

٤ الكامل في التاريخ (٣٤٣/٩)، عودة الروح صـ٢١٩.

٥ عودة الروح صـ٢١٩، الكامل (٣٤٣/٩).

٥ ـ **احتلال إقليم غزنة:** لما بلغ جنكيز خان أن جلال الدين منكوبرتي وصل إقليم غزنة في جيش كبير، أسرع في المسير إلى هذا الإقليم، وحاصر في طريقه قلعة باميان الحصينة ببعض جيشه الذي كان قوامه ستين ألف مقاتل على حين أرسل معظمه للقاء جلال الدين، وما لبثت قواته أن اقتحمت هذه القلعة، ودخلت المدينة، وهدمت ما بها من جوامع وقصور وأزالت معالم الحياة فيها[١]، ولما أتم جنكيز خان إحراز ذلك النصر الحاسم على مدينة باميان جاءته، الأنباء بأن جلال الدين تمكن من دحر جيش المغول في السهول القريبة من مدينة بيروان بالقرب من مدينة غزنة، فسار جنكيز خان بمن معه لملاقاته، وكان جنكيز خان قد أرسل في وقت سابق بعض قواته لترابط بالقرب من مدينة كابل وعهد إليها مراقبة تحركات جلال الدين، وتقديم أية مساعدة تحتاج إليها طليعة جيشه التي كانت تحاصر قلعة ((قندهار))، فلما حلت بتلك الطليعة الهزيمة على أيدي جلال الدين منكبرتي، اتجهت هذه القوات المغولية نحو بيروان القريبة من غزنة، ونشب القتال بينها وبين الجيش الإسلامي في السهول المحيطة بهذه المدينة[٢]، ووصل جلال الدين بعد نتصاره في قندهار إلى مدينة غزنة وأخذ يجمع حوله الجيوش استعداداً للقاء المغول، فوافاه للخدمة سيف الدين بقراق الخليجي، وأعظم ملك صاحب بلخ، والأميران: مظفر ملك والحسن قزلق في زهاء ثلاثين ألف فارس، ومعه من عسكره وعسكر أمين ملك مثلها، وهكذا تيسر لجلال الدين أن يجمع جيشاً قوامه ستون ألف مقاتل، ثم سار لملاقاة الجيش المغولي الذي يقوده تولوي بن جنكيز خان، واستمر القتال يوماً، ثم افترق الجيشان عند الليل ليستأنفا القتال في الغداة،ورغم حيل المغول لإرهاب الجيش الإسلامي فقد كان لشجاعة جلال الدين أثرها في هزيمة المغول وفرارهم أمام فرسان الخوارزميين[٣]، وقد وصف النسوي انتصار الخوارزميين على المغول وصفاً أقل ما يقال عنه أنه يعبر تعبيراً صادقاً عن نفسية الخوارزميين في ذلك الوقت، فقد جاء في وصف هذا الانتصار ما يلي: فلما اشتبك الجمعان حمل جلال الدين بنفسه على قلب تولي خان، فبدد نظامه، ونثر تحت

١ عودة الروح صـ٢٢١.

٢ الكامل (٣٤٣/٩) عودة الروح صـ٢٢١.

٣ عودة الروح صـ٢٢٢.

قوائم الخيل أعلامه وألجأه إلى الانهزام، وإسلام المقام، وتحكمت فيهم سيوف الانتقام، وركب جلال الدين أكتاف المغول يفصل بالأسياف مجامع الأكتاف، وكيف لا وقد فجعوه بأخوته وأبيه ومملكته وذويه، فترك لا والد ولا مولود ولا عابد ولا معبود، تلفظه النوادي إلى البوادي، وقتل تولي خان في وهج القتال، وكثر الأسر[1]، وقد انتقم الخوارزميون من المغول انتقاماً شديداً فكانوا يدقون الأوتاد في آذان الأسرة، وجلال الدين ينظر إليهم، ويعلو وجهه البشاشة بما ظفر[2]. وكان من أثر ذلك النصر الذي أحرزه جلال الدين في هذه المعركة أن ثارت على المغول بعض المدن الإسلامية التي كانت قد خضعت لهم، وسلمت من تدميرهم، مثل مدينة هراة، غير أن ثورتها أخمدت في مهدها، كما دب الخوف في قلوب المغول الذين كانوا يحاصرون قلعة ((ولج))، واضطروا إلى رفع الحصار عنها[3]، وكان انتصار جلال الدين على المغول في سهول بيروان انتصاراً مؤقتاً، فبينما كان يوزع الغنائم على قواته وجنوده اشتد النزاع بين قائدين من كبار قواته على حصان عربي كان كل منهما يريده لنفسه، وبلغ من شدة الخلاف أن ضرب أحدهما الآخر على رأسه بسوط كان يحمله، ولم يرض السلطان عن هذه الإهانة، ولم يقبل القائد المعتدي أن يعتذر عما بدر منه، وكانت النتيجة أن انسحب القائد الآخر بجنوده إلى مدينة ((بيشاور)) إلى حدود الهند، وانضم إليه عدد كبير من الجنود الغورية من مدينة غزنة بعد أن خابت جميع جهود السلطان لاعادتهم[4]، وبينما كانت قوات المسلمين على هذه الحالة من الفرقة والانقسام إذ وصل جنكيز خان إلى غزنة وهو مصمم على الانتقام لهزيمة جيشه التي حدثت عند مشارف مدينة بيروان، ولم يكن من الرأي في شي أن يجازف جلال الدين بحرب المغول، وجيشه في هذه الحالة، لذا آثر الإنسحاب إلى السهل الواقع غربي نهر السند، وأخذ يعاود مكاتبة المنشقين ويستميلهم إليه[5]، ورتب الأمير الخوارزمي سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م ما بقي معه من الجيش ترتيباً حسناً، فأسند قيادة الميمنة لقائده آمين

---

١ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي صـ٨٠ ـ ٨١.
٢ الدولة الخوارزمية صـ١٨٥.
٣ عودة الروح للخلافة الإسلامية صـ٢٢٢.
٤ الدولة الخوارزمية والمغول صـ١٨٧.
٥ سيرة السلطان جلال الدين صـ١٥٦ ـ ١٥٧.

ملك وأمره بجعل ظهره إلى منعطف نهر السند، كما أمر قائد الميسرة بالاستناد إلى أحد مرتفعات الجبال في هذه المنطقة، وبقي هو في القلب، ثم نشب القتال، وكادت الهزيمة تلحق بالمغول في البداية، لكنهم ما لبثوا أن اجتاحوا القوات الإسلامية من الخلف، كما هاجموا الميمنة من الإمام مما أدى إلى هزيمة المسلمين[1]، على أن جلال الدين رغم ذلك لم يستسلم، بل ظل يقاتل وليس معه سوى سبعمائة رجل في شجاعة نادرة، وصفها ابن الأثير بقوله: اعترفوا كلهم أن كل ما مضى من الحروب كان لعباً بالنسبة إلى هذا القتال[2]، وكان هدف جلال الدين من هذا القتال اليائس إحداث ثغرة في صفوف المغول، يتيسر له ولجيشه الهرب منها، غير أنه اضطر إلى أن يولي وجهه شطر نهر السند، وقذف بنفسه وبحصانه فيه من ارتفاع عشرين ذراعاً، واستطاع بهذه الوسيلة أن يعبر النهر إلى الجانب الشرقي، وقد قتل عدد كبير من جنوده وغرق أولئك الذين حاولوا العبور إلى الضفة الشرقية، كما أسر أحد أبنائه وكان في السابعة من عمره، ثم قتله جنكيز خان بين يديه، ولما اقترب جلال الدين من نهر السند، رأى والدته وأم ابنه وحريمه يصحن بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر، فأمر بهن فغرقن، وهذه من عجائب البلايا ونوادر الرزايا[3]. ومن الطريف أن جلال منكبرتي احتفظ بذلك الجواد الذي عبر به نهر السند، وكان سبباً في إنقاذ حياته دون أن يركبه حتى استعاد بلاده بعد رحيل جنكيز خان عنها. وكانت الجيوش المغولية تتوق إلى اللحاق بجلال الدين، وهمَّ كثير منهم بعبور النهر غير أن جنكيز خان أسرع ومنع جنوده من تنفيذ هذا العمل، ولما علم جنكيز خان أن عدوه قد أمر بأن يلقي كل ما كان يملكه من ذهب وفضة في نهر السند حتى لا يقع غنيمة سهلة في يد المغول، أرسل بعض رجاله فغاصوا في النهر وأمكنهم أن ينتشلوا بعض هذه الأموال[4]. وبرغم حرج موقف الخوارزميين في هذه الموقعة، ورغم تلك الهزيمة التي حلت بالسلطان الخوارزمي وجنوده، استطاع أربعة آلاف من الجنود الخوارزميين أن ينجوا بأنفسهم بعبورهم من الضفة الشرقية حيث وصلوا، حفاة عراة، كأنهم أهل النشور حشروا

---

١ عودة الروح للخلافة صـ٢٢٣.

٢ الكامل في التاريخ (٣٤٤/٩)، عودة الروح صـ٣٢٤.

٣ تتمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي صـ١٥٥.

٤ الدولة الخوارزمية صـ١٨٧.

فبعثوا من القبور[1]. ومن الطبيعي أن يفرح السلطان جلال الدين بلقاء هذا العدد من جنـوده[2]، ومـا لا لا شك فيه أن جلال الدين، في الفترة التي قضاها في بلاد الهند، كثيراً ما كان يظهر بمظهر الكسير الذليل من هول ما أصاب دولته عامة، وأصابه خاصة، بعد موقعة السند وقد نظم ابن الـوردي أبياتـاً وصـف فيها جلال الدين ودولته وكيف انحدر هو ودولته إلى هاوية عميقة، بعد أن قدر لهذه الدولة أن تصل إلى ذروة المجد وقد جاء في هذه القصيدة ما يلي:

مـــن ملـــك الـــدنيا ودانـــت لـــه

فالجهـــل كـــل الجهـــل أن يحســـدا

بقـــــدر مـــــا ترفـــــع أصـــــحابها

تحطهـــم فـــالرأي قـــرب المـــدا

ويـــــلي عـــــلى المغـــــري بعليائهـــــا

سيضـــحك اليـــوم ويـــبكي غـــدا

تعطيـــــــه كالمشـــــــفق لكنهـــــــا

تـــبطش في الأخـــذ كـــبطش العـــدا

مبتـــــدأ حلـــــو لمـــــن ذاقـــــه

ولكـــن انظـــر خـــبر المبتـــدأ

غـــــــدارة خوانـــــــة أهلهـــــــا

مـــا زهـــد الزهـــاد فيهـــا ســـدى[3]

1 سيرة السلطان جلال الدين صـ85.

2 الدولة الخوارزمية صـ188.

3 تتمة المختصر في أخبار البشر صـ155.

لقد كان جلال الدين مضرب المثل في الشجاعة والإقدام، وأعجب خصمه وعدوه جنكيز خان، وقال: هكذا يكون الرجال الشجعان[1]. وقال لرجال دولته: ما أسعد الأب الذي ينجب رجلاً قوياً شجاعاً كهذا، أي جلال الدين، لأن الرجل الشجاع يقدر الرجل الشجاع ولو كان ألد خصومه[2]، كان إقليم غزنة آخر أقطار شرق الدولة الإسلامية التي غزاها المغول في عهد الناصر لدين الله الخليفة العباسي، وبعد أن اطمأن جنكيز خان إلى تمكنه من السيطرة على هذه البلاد، وانتقم من قاتلي تجاره ورسله في مدينة أترار[3]، وأكد المغول سيطرتهم على المناطق الإسلامية الشاسعة ما بين الصين والعراق فثبتوا أقدامهم في كل بقاع الدولة الخوارزمية، وهذا يشمل الآن أسماء الدول الآتية من الشرق إلى الغرب:

١. كازخستان،
٢. قيرغيزستان،
٣. طاجيكستان،
٤. أوزبكستان،
٥. تركمنستان،
٦. باكستان، باستثناء المناطق الجنوبية فيها والمعروفة بإقليم كرمان،
٧. أفغانستان،
٨. معظم إيران، باستثناء الحدود الغربية لها مع العراق، والتي يسكنها الإسماعيلية،
٩. أذربيجان،
١٠. أرمينية،
١١. جورجيا،
١٢. الجنوب الغربي لروسيا[4].

١ الدول المستقلة في المغرب الإسلامي صـ١٨٨.
٢ المصدر نفسه صـ١٨٩.
٣ عودة الروح صـ٢٢٤.
٤ قصة التتار صـ٦٥.

٦ ـ **نهاية جلال الدين منكبرتي:** لم يقدر للسلطان الخوارزمي الأخير جلال الدين منكبرتي ٦١٧ ـ ٦٢٨هـ أن يصمد أمام المغول أيضاً، فعلى الرغم من انتصاره عليهم عند سهل بيروان القريبة من كابول سنة ٦١٨هـ إلا أنه اضطر إلى الفرار إلى بلاد الهند عبر نهر السند أثر اختلاف قواد جيشه، وتفرق جنده وبالتالي هزيمته أمام جيش جنكيز خان في نفس العام[١]، وقبل أن يخرج السلطان جلال الدين من الهند سنة ٦٢١هـ قرر أن تكون وجهته إلى أقصى الغرب، وبمعنى آخر فإنه آثر أن يضع نفسه وما تبقي من جيشه في أبعد نقطة عن متناول جيوش المغول، ومن ثم فقد اجتاز الصحراء القاحلة التي تفصل بين الهند وإقليم كرمان الذي سارع حاكمه براق الحاجب بإعلان ولائه للسلطان الخوارزمي، بل أنه عرض إحدى بناته عليه ليتزوجها، فقبل السلطان ذلك منه، وتكرر الإجراء نفسه مع سعد اللـه أتابك إقليم فارس، وعلاء الدين حاكم إقليم يزد[٢]. وكانت الخطوة التالية لدى جلال الدين هي الاستيلاء على مدينة أصفهان عاصمة إقليم الجبال الذي يتحكم في المنطقة الغربية من إيران، ومن ثمة انتقل إليها فدانت له، ولما كان أخوه غياث الدين ـ الذي كان يحكم تلك المنطقة من قبل أبيهما السلطان علاء الدين ـ وتوطد حكمه فيما بعد انسحاب المغول منها عائدين باتجاه الشرق، فقد أعلن بدوره انضواءه تحت راية أخيه، فقد أصبح غربي إيران بأكمله واقعاً تحت سلطان جلال الدين الذي أضحت مملكته الجديدة متاخمة لأملاك الخلافة العباسية، وقد ساعدت الظروف السياسية جلال الدين كثيراً، إذ توفي خصم الخوارزميين العنيد الخليفة الناصر لدين اللـه في شوال سنة ٦٢٢هـ ولم يمكث ابنه الظاهر في الخلافة سوى تسعة أشهر، إذ توفي في رجب سنة ٦٢٣هـ[٣]، فآلت الخلافة إلى ابنه المستنصر سنة ٦٢٣هـ/٦٤٠هـ الذي لم يكن يرى الدخول في مواجهات عسكرية ضد الخوارزميين ومن ثمة فقد استقبل في قصر الخلافة في بغداد رسول جلال الدين[٤]. ومن ناحية أخرى انشغل المغول في وفاة الخاقان الأعظم

١ الأتراك الخوارزميون صـ٢٥.

٢ كنز الدرر وجامع الغرر (٧ ـ ٢٦١).

٣ الأتراك الخوارزميون صـ٢٧.

٤ المصدر نفسه صـ٢٨.

جنكيز خان سنة ٦٢٤هـ[١]، وانهمكوا في الإعداد للقوريلتاي ((المؤتمر العام الذي يناط بـه اختيـار الخـان الجديد))، مدة عامين أدار خلالهما تولوي ابن جنكيز خان دفة الأمور حتى تم انتخـاب أوكتـاي ثالـث أبناء جنكيز خان خاقاناً أعظم مكان أبيه سنة ٦٢٦هـ ـ ١٢٢٩م[٢]. وفي تلك الأثناء كـان السـلطان جـلال الدين قد انطلق شمالاً إلى أذربيجان التي دانت له، فواصل الزحف شمالاً حيث هزم الكرج المسـيحيين واستولى على عاصمتهم تفليس، وانتقم منهم بما ارتكبوه من فظائع في حق المسلمين وبخاصة في إقلـيم أذربيجان المجاور[٣].

أ ـ بداية النهاية لجلال الدين منكبرتي: وجاء اسـتهلال الخـوارزميين في الثـامن والعشريـن مـن جمادى الأولى سنة ٦٢٧هـ على مدينة أخلاط التابعة ـ آنذاك ـ للملك الأشرف بن العادل الأيـوبي بدايـة لنهاية سلطان جلال الدين منكبرتي الذي تعـرض جيشـه لهزيمـة مريـرة أمـام تحـالف جـيش الأيـوبيين وسلاجقة الروم في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٦٢٧هـ على مقربة من أذربيجان، فانهزم السلطان إلى أذربيجان وأرسل جنوده إلى صحراء موغان لينالوا قسطاً من الراحة[٤]. ولم يضيع الإسـماعيلية في آلمـوت الفرصة السانحة ـ بعد أن ذاقوا الأمرين على يد السلطان جلال الدين من قبل حتى إذ اضطرهم إلى دفـع أتاوة سنوية له، فراسلوا المغول حتى ينهضـوا للقضـاء عليـه، قبـل أن يسـترد قوتـه، وفي الحقيقـة لم يكـن المغول في حاجة إلى تحريض من الإسماعيلية أو غيرهم، وقد جاء إنتخـاب أوكتـاي بـن جنكيـز خـان سـنة ٦٢٦هـ خاناً أعظم للمغول إيذاناً بتنفيذ استراتيجية مغولية جديـدة تمثلـت في غـزوات عسـكرية متواليـة على جبهات ثلاث هي جنوبي الصين، وغربي إيران، وشرقي أوربا، وبالتالي أصبح غربي إيران بخاصة الشمال الغربي هدف أساسي للمغول، حيث يكمن عدوهم اللدود السلطان الخوارزمي جـلال الـدين وسرعـان مـا بادر هذا الأخير ـ رغم الخـلاف ـ إلى مكاتبـة الخليفـة العبـاسي المسـتنصر بالـلـه، والملـك الأشرف الأيـوبي صـاحب دمشـق والجزيـرة والسـلطان عـلاء الـدين كيقبـاذ سـلطان سـلاجقة الـروم، وغـيرهم مـن

١ جامع التواريخ رشيد الدين صـ٢٨.
٢ الأتراك الخوارزميون صـ٢٨.
٣ المصدر نفسه صـ٢٨.
٤ المصدر نفسه صـ٢٨.

أمراء المسلمين، حكام ميافارقين وماردين وآمد يستنجد بهم كي يرسلوا إليه جيوشاً من عندهم تعاونه على مجابهة هذا الخطر الذي يتهدد المسلمين جميعاً، فأحجم هؤلاء كلهم عن مناصرته[1].

ب ـ اختلال في التوازن العسكري: أسفرت الهزيمة السابقة عن نتائج خطيرة أثرت على ما تلاها من أحداث، فقد أصيب الجيش الخوارزمي بنكسة فادحة، تمثلت في آلاف القتلى والأسرى، وفي اضطراب نظامه وفقدان السيطرة عليه ، وسقوط هيبته بين القوى العسكرية المجاورة له بعد أن كانت تخشى بأسه وسطوته، وقد أدى هذا الاختلال في التوازن العسكري إلى ظهور مؤشرات سياسية لدى القوى السياسية في المنطقة فقد أيقن معظم أمراء الجزيرة أن الموقف الجديد يحتم عليهم سرعة الانضواء تحت الهيمنة الأيوبية التي يمثلها الملك الأشرف المقيم بدمشق، والمؤيد من قبل أخيه الكامل في مصر، ومن جانب آخر أصبح الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام سلاجقة الروم كي تمتد أطماعهم إلى كثير من المدن التي كانت خاضعة لسلطان الخوارزميين شرقي مدينة أخلاط[2]، كذلك لم تتأخر مملكة الكرج المسيحية عن إزالة السيطرة الخوارزمية عن أراضيها وبخاصة العاصمة تفليس[3]، ولم تلبث بعض المدن المهمة مثل تبريز وكنجة أن أظهرت عصيانها للخوارزميين واجترأت على قتل البعض منهم، وشرعت طائفة الإسماعيلية في آلموت في المماطلة في أداء الأتاوة المقررة عليها من قبل السلطان الخوارزمي[4]. وأما الخطر الأكبر وهو المغول فقد أصبح هجومه وشيكاً جداً بعد أن وصلت طلائع جيشهم إلى مدينة الري، وانفتح الطريق أمامهم، نحو إقليم أذربيجان حيث تناثرت بقايا الجيش الخوارزمي المهزوم، كل هذه المؤثرات كانت تنبئ بزوال الدولة الخوارزمية وأفول نجم سلطانها الأخير جلال الدين منكربتي[5].

جـ ـ الأخطاء التي وقع فيها جلال الدين منكبرتي في مرحلته الأخيرة: كانت المؤشرات تتسارع لتدلنا على حتمية زوال الدولة الخوارزمية، وأفول نجم سلطانها

---

١ الأتراك الخوارزميون صـ٣٠.
٢ المصدر نفسه صـ٣٠.
٣ المغول للعريني صـ١٨٠.
٤ الأتراك الخوارزميون صـ٣١.
٥ الأتراك الخوارزميون صـ٣١.

الأخير جلال الدين منكبرتي الذي قد كان وقع ـ عقب هزيمته السابقة ـ في أخطاء عديدة منها:

ـ ضعف نظام استطلاعه، فقد وقعت إحـدى سرايـاه في أيـد المغـول عنـد مدينـة الـري، بيـنما أعطت سرية أخرى معلومات خاطئة عن عـودة المغـول، وتخاذلـت الثالثـة، فلـم يـذهب أفرادهـا إلى مازندران أو خراسان، كما أمر بذلك السلطان الخوارزمي نفسه.

ـ إعتقاده الخاطئ أن المغول سيقضون الشتاء بالعراق العجمي، وأنهم لن يتعدوه في أذربيجان إلا في الربيع، فكانت مباغتتهم له على غير استعداد منه فاضطر إلى ترك نسائه بالعراق على مقربة من مدينة تبريز وسارع هو إلى موقان ليجمع عساكره المتفرقة هناك[١].

ـ إلحاحه في مكاتبة الملك الأشرف الأيوبي صاحب الجزيرة وأخلاط رغم نصح خلصائه له بعـدم جدوى ذلك، خاصة وأنه ـ أي جلال الدين ـ قد دخل بزوجـة الملـك الأشرف الكرجيـة ـ نسـبة إلى بـلاد الكرج ـ في ليلة اقتحامه مدينة أخلاط، وأصر على الاحتفاظ بهـا حتـى بعـد انهزامـه مـن جـيش الملـك الأشرف وحلفائه سلاجقة الروم سنة ٦٢٧هـ[٢].

ـ تجريده ستة آلاف فارس خوارزمي/ رغم حرج موقفه بعـد الهزيمـة السـابقة واقـتراب خطـر المغول منه للهجوم على مدن خرتبرت وملطية وأرزنجان انتقاماً من خصمه علاء الدين كيقباذ سـلطان سـلاجقة الـروم، فأغـار هـؤلاء الفرسـان الخـوارزميين عـلى تلـك المـدن الروميـة وسـاقوا إلى المعسـكر الخوارزمي الكثير من الغنائم حتى بيعت عشرون غنماً بدينار[٣]، وكشف هذا الإجراء من قبل السـلطان الخوارزمي عن فقده بصيرته السياسية إذ أنه بذلك قد بدد أية بارقة أمل في احتمال حـدوث تغيـير في موقف سلاجقة الروم معه في صراعه المحتوم ضد المغول المتجهين نحوه[٤].

١ تاريخ إيران بعد الإسلام عباس إقبال صـ٤٠٤.

٢ الأتراك الخوارزميون صـ٣٢.

٣ الأتراك الخوارزميون صـ٣٢.

٤ المصدر نفسه صـ٣٢.

ـ انخداع السلطان الخوارزمي برسالة الملك الأرتقي المسعود بن أرتق صاحب آمد الذي أخذ يحرضه على غزو بلاد سلاجقة الروم واعداً إياه بالمساعدة العملية في هذا الغزو بإمداده بخمسة آلاف فارس من قبله، وبالفعل عزف السلطان الخوارزمي عن الإتجاه إلى مدينة أصفهان عاصمة إقليم الجبال وغير مساره نحو آمد، فلما طارده المغول التجأ إليها طالباً الاحتماء بأسوارها، رفض الملك المسعود فتح أبوابها له، وقذفه أهلها بالحجارة، فارتد عنها حسيراً، مضطراً إلى مواجهة المغول وحده.

ـ وضع ثقته المطلقة في"أوتر خان" الذي كان يصله بقرابة من ناحية الخؤولة إلا أنه كان يخادعه خوراً وجبناً، فأوهمه مرة أن المغول قد رجعوا من عند حدود منازجرد وأشار عليه في أثناء الفرار إلى آمد التي رفضت استقباله، بالعودة من نفس الطريق الذي سلكه المغول إليه، فرجع برأيه ليكون هلاكه في جميع الوجوه بتدبيره، كما يقول النسوى ثم تركه في نهاية المطاف ليلقى مصيره وحده وتوجه هو إلى الملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين لما كان بينهما من مكاتبات[١]، وقد وقع جلال الدين في بعض الأمور والأخطاء الشنيعة والتي منها:

ـ انكبابه على تعاطي الخمر مع ندمائه وخاصته في ساعات الحرج التي أحدق فيها المغول به، حتى أوشك بعضهم أن يدخل عليه خيمته، وهو نائم سكران لا يملك من أمر نفسه شيئاً، مخالفاً بذلك تعاليم الدين الإسلامي من ناحية، وشرف الجندية الذي يلزم القائد وجنده ـ في ميدان الحرب ـ بإعمال العقل والتركيز بدلاً من الوقوع تحت طائلة التخاذل والتشويش من ناحية أخرى[٢].

ـ حادثة خادمه قلج وهو فتى خصي جميل الصورة، كان جلال الدين يرعاه فاتفق أن هذا الخادم مات، فأظهر الهلع والجزع عليه ما لم يسمع بمثله وأمر الجند والأمراء أن يمشوا في جنازته رجالة، ومشى بعض الطريق راجلاً فألزمه أمراءه ووزيره بالركوب، فلما وصل إلى تبريز أرسل إلى أهل البلد فأمرهم بالخروج على البلد لتلقي تابوت الخادم، ففعلوا، فأنكر عليهم حيث لم يبعدوا ولم يظهروا من الحزن والبكاء،

١ المصدر نفسه صـ٣٣.

٢ المصدر نفسه صـ٣٣، سيرة جلال الدين منكبرتي صـ٣٧٥.

أكثر مما فعلوا وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم أمراءه فتركهم ثم لم يدفن ذلك الخصي واستصحبه معه حيث سار وهو يلطم ويبكي ثم امتنع عن الأكل والشرب وكان إذا قدم له طعام يقول: احملوا منه إلى قلج ولا يتجاسر أحد أن يقول أنه مات، قتل القائل فكان يحملون إليه الطعام ويعودون ويقولون: إنه يقبل الأرض ويقول: إنني الآن أصلح مما كنت، فلحق أمراءه من الغيظ والأنفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز إلى وزيره، فبقي حيران لا يدري ما يصنع ولا سيما لما خرج المغول عليه[١]. وأما الوزير فقد انسحب صوب حيزان، فأعاد تعميرها وجاهر بالعصيان فيها وبادر إلى مكاتبة الملوك وإصلاح حاله معهم على أن يملك آران، وأذربيجان بنفسه، ثم يقيم لهم الخطبة فيهما، فكاتب علاء الدين كقيباذ والملك الأشرف باذلا الطاعة لهما وناعتاً سلطانه جلال الدين بالظالم المخذول في كتبه، وقد تمادى الوزير في عصيانه حتى أنه قبض على كل من عبر بحدود قلعته من أصحاب السلطان في أثناء الجفلة من المغول، ووضعهم تحت العذاب ثم استلب أموالهم[٢]، بل أنه كاتب حسام الدين قلج أرسلان أكبر أمراء التركمان في آران يأمره بالاحتراز على ما عنده من حرم السلطان وخزائنه، وإنه إن حضر السلطان بنفسه لم يسلمها إليه[٣]، فاضطر جلال الدين إلى مراسلة الوزير واستمالته ومخادعته إلى أن حضر عنده، فلما وصل إليه أبقاه أياماً ثم قتله[٤].

ـ إصداره الأمر ـ لما داهمه المغول آخر مرة ـ إلى قائد جيشه أورخان أن يفارقه بمن معه من العسكر حتى يتبعه المغول ويخلص هو بمفرده، وقد أخطأ في ذلك ـ كما يقول النسوي ـ فإن أورخان لما فارقه انضوى إليه من شذاذ العسكر خلق ، ووصل إلى أربل ومعه أربعة آلاف فارس، وساق إلى أصفهان وملكها زماناً إلى أن قصدها المغول، وظل على قيد الحياة بفارس إلى سنة ٦٣٩هـ وهي نفس السنة التي كتب فيها النسوي كتابه المشهورسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي[٥]

---

١ الكامل في التاريخ (١٢ ـ ٤٩٦)، الأتراك الخوارزميون صـ٣٤.

٢ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي صـ٣٥٧.

٣ المغول صـ١٧٦، الأتراك الخوارزميون صـ٣٥.

٤ الأتراك الخوارزميون صـ٣٥.

٥ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي صـ٤٩٧.

د ـ مقتل جلال الدين منكبرتي: حرص أوكتاي على إتباع وصية والده جنكيز خان في الاستمرار في إنجاز مخططاته في الاستيلاء على العالم، فعهد إلى قائد مغولي بارز يدعى ((جرماغون)) بقيادة حملة مغولية جديدة تتجه نحو الغرب للقضاء على جلال الدين وحينما اقتربت جيوش المغول وشعر جلال الدين خورازمشاه بالخطر يطبق عليه وأحس بضعفه أمامهم، أخذ يكاتب سلاطين المسلمين وحكامهم، يستنجدهم ويدعوهم لنجدته والوقوف في وجه أعداء الإسلام، ومما كان يقوله لهم في كتبه حسب رواية المؤرخ الوزير عطا ملك الجويني: إن جيشاً جراراً من عساكر التتار كأنه النمل والثعابين من حيث الكثرة والقوة قد تحرك نحونا، فإذا ترك وشأنه فسوف لا تصمد أمامه القلاع والأمصار، وقد تمكن الرعب في قلوب الناس في هذه المنطقة، فإذا هزمت وخلا مكاني بينكم، فلم تستطيعوا مقاومة هذا العدو، وإذن فأنا لكم بمثابة سد الأسكندر، فليسارع كل منكم إلى إمدادنا بفوج من الجنود، حتى إذا ما وصلهم نبأ إتفاقنا وإتحادنا فترت قوتهم وفت في عضدهم فيتشجع جنودنا ونقوى عليهم[١]، وبالرغم من خطورة ذلك الوضع لم يستجب لاستغاثات جلال الدين خوارزمشاه، لا خليفة بغداد، ولا سلاطين المسلمين، وحكامهم، بل تركوه وحده يواجه مصيره المحتوم، وفي تلك الأثناء كان المغول يستهدفون جلال الدين ويركزون جهودهم للقضاء عليه، وفهاجم جرماغون أقاليم جلال الدين واستولى على الري ثم همدان وواصل الزحف حتى حدود أذربيجان، وكان جلال الدين خوارزمشاه، يناوش عسكر المغول وينسحب من موضع لآخر وهم يلاحقونه حتى إنتهى به المطاف في موضع في أعالي دجلة، وهناك وقف جلال الدين للمغول وقفته الأخيرة واشتبك معهم في معركة قاسية إنتهت بتمزيق جيشه بعد أن تكبد خسائر فادحة بالأرواح، غير أن جلال الدين نجا وتمكن من الفرار من ساحة المعركة، وظل يتنقل مختفياً من مكان إلى آخر، حتى دخل جبال الأكراد، وكان ذلك في سنة ٦٢٨هـ[٢]، وانتهى به الأمر إلى الوقوع في قبضة بعض هؤلاء الأكراد، فقتله أحدهم في منتصف

١ العراق بين سقوط الدولة العباسية والعثمانية صـ١٠١.

٢ المصدر نفسه صـ١٠١.

شوال سنة ٦٢٨هـ أغسطس سنة ١٢٣١م[١]. وهنأ جماعة من الأعيان الملك الأشرف صاحب دمشق بمقتل جلال الدين فأجابهم قائلاً: تهنئونني بهذا سوف ترون غب هذا، والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار لبلاد الإسلام، ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين ياجوج وماجوج[٢]. وأمر الملك شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب ميافارقين بإحضار من قتله فأحضروه فأقر بقتله، وأحضر فرسه وسرجه وسيفه، وكان ((أوتر خان)) السابق ذكره وجماعة من خواص السلطان الخوارزمي قد وصلوا إلى شهاب الدين غازي، فأنزلوا في قصره فأمر شهاب الدين بحمل جثمان السلطان جلال الدين ليلاً من القرية، فلما جاءوا قال لأوترخان: أنظر هل هو هذا؟ فلما رآه بكى وقال: نعم، فدفنوه ليلاً، وأخفوا قبره مخافة أن ينبش[٣].

هـ ـ **التمزق الخوارزمي:** بعد هزيمة المغول للخوارزميين ومقتل جلال الدين تفرقت جموع الخوارزميين وتمزقت في كل وجه، فقد انسحب خال جلال الدين ومن معه إلى الملك الظاهر شهاب الدين غازي، صاحب ميافارقين، على حين اتجهت زوجة السلطان وسراريه وخدامه وقطعة كبيرة من عسكره إلى مدينة حران وطلبوا أماناً من الأمير صواب نائب الجزيرة من قبل الأيوبي الكامل، فأمنه ثم غدر به، فنهبهم عسكره وأخذوا أموالهم، وأحيط بزوجته في قلعة حران، ثم استدعيت إلى دمشق فأقامت بها[٤]، وأما حظية السلطات التي كان قد تركها مع أحد أصحابه قبيل هجوم المغول، فإنه لما سمع بفقد السلطان وصح ذلك عنه، أخذها ومضى بها إلى بغداد، وأهداها إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله، فكانت عنده من أجل حظاياه إلى أن ماتت في أيامه[٥]، وتوزعت طوائف أخرى من الخوارزميين ما بين نصيبين والموصل، وسنجار وإربل، وغير ذلك من البلاد فتخطفهم الملوك والرعايا، وطمع فيها كل أحد حتى الفلاح والبدوي وغيرهم، وقصد الجزء الأكبر من الخوارزميين بلاد سلاجقة الروم، فأقطعهم السلطان علاء الدين كقيباذ بن كيخسرو بلاداً لمعيشتهم

١ الأتراك الخوارزميون صـ٣٥.
٢ العراق بين سقوط الدولة العباسية والعثمانية صـ١٠٢.
٣ الأتراك الخوارزميون صـ٣٦.
٤ المصدر نفسه صـ٣٧، التاريخ المنصوري صـ١٥٧.
٥ مفرج الكروب (٤ ـ ٣٢٣).

واستخدمهم على حين انهزم كثيرون منهم إلى ترابزون ـ الواقعة على الساحل الجنوبي للبحر الأسود ـ وبلاد الكرج المجاورة[1]، وهكذا تبعثرت بقايا الخوارزميين في عدة أنحاء من الشرق الأدنى الإسلامي، فكان من المتوقع ذوبانهم في إحدى هذه الأنحاء، أو كلها، غيرأن الظروف السياسية التي أحاطت بالشرق الأدنى الإسلامي آنذاك هيأت لهم الفرصة في الاستمرار كقوة عسكرية مؤثرة تدخلت في أدق الصراعات السياسية والعسكرية، حتى توافق لها استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة ٦٤٢هـ فظل في أيدي المسلمين حتى قيام الحرب العالمية الثانية[2]. وقد بينت نهاية الخوارزميين في كتابي عن الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة.

خامساً: أسباب زوال الدولة الخوارزمية:

إن أسباب سقوط الدولة الخوارزمية كثيرة، جامعها الابتعاد عن تحكيم شرع الله في النظم السياسية والمالية والاجتماعية والعسكرية والأخلاقية..الخ، فعندما يغيب شرع الله في أمور الحكم يجلب للأفراد والدولة والشعوب المنضوية تحتها تعاسة وضنكاً في الدنيا، والمعروف أن السبب في زوال الدولة الخوارزمية وجلب كارثة المغول على الأمة، هو خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه وذلك أنه أمر بقتل التجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة، ولما أرسل إليه جنكيز خان سفيراً يسأله عن سبب قتل التجار، قتله أيضاً، فاشتعل جنكيز خان غضباً، وقام بحملة هوجاء على مملكة خوارزمشاه ثم على عالم الإسلام كله[3]، وإذا تأملنا في القرآن الكريم في ضوء سنن الله الخالدة لنتائج الأعمال والأخلاق، وإزدهار الأمم وإنحطاطها الذي أشار إليه القرآن، لا سيما ما ذكره في بدء سورة الإسراء من تدهور بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض، وعلوهم وتمردهم، وما جرى ذلك من زحف الملوك الظالمين، وتسلطهم على بني إسرائيل وخراب المسجد الأقصي، يبدو أن السبب الحقيقي في هذه الفتنة الكبرى والمحنة التي أصيب بها العالم الإسلامي، ليس أن يقترف

١ مفرج الكروب (٤ ـ ٣٢٥).

٢ الأتراك الخوارزميون صـ٣٨.

٣ رجال الفكر والدعوة في الإسلام (١ ـ ٢٧٠).

ملك أو حاكم من خطأ في التدبير والسياسة فيتدفق سيل عرم من المحن والبلاء، ويفاجئ العالم الإسلامي وتصاب الأمة الإسلامية بهذه الفتنة العمياء، ـ التي لم تكن تتوقعها ولا تستحقها، لمجرد أن يخطئ فرد من أفرادها، وإذا حملنا نبراس القرآن في يدنا، واستعرضنا أوضاع المسلمين الخلقية والدينية، والمدنية والسياسية في ذلك العصر تحقق لنا كالشمس في رابعة النهار، أن هذه الحادثة المشئومة لم تكن مفاجئة وإنما هناك أسباب أكثر عمقاً وأصالة مما ظنه الناس وذكروه[1]، إن هلاك الأمم وسقوط الدول وزوال الحضارات لا يحدث عبثاً في حركة التاريخ، بل نتيجة لممارسة هذه الأسرة الحاكمة أو الدولة أو الأمة الظلم والانحراف، وبعد أن يعطوا الفرصة الكافية، حتى تحق عليهم الكلمة فيدفعوا ثمن إنحرافهم وإجرامهم وطغيانهم وفسقهم، والآيات صريحة في ذلك، إذا أنعم على دولة نعمة أيا كانت فهو لا يسلبها حتى يكفر بها أصحابها[2]، قال تعالى: "ذلك بأن اللـه لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الأنفال،آية:٥٣)، والآيات في هذا كثيرة، سواء ما يخص الفرد أو الأمة، بل إن القرآن الكريم ليذكر أن بعض ما يصيب الأمم والأفراد من استدراج حين يمهلهم اللـه تعالى وتواتيهم الدنيا، وتفتح عليها خيراتها فينسوا مهمتهم وما خلقوا له، بل ينسون المنعم جل جلاله، وينسون ما عندهم لجهدهم وذكائهم وقد يفلسفون الأمر فيقولون لو لم نكن نستحق هذه النعم لما مُنحت لنا وفي هؤلاء يقول تعالى:"فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيءٍ حتى إذا فرِحوا بما أُوتوا أخذنهم بغتة فإذا هم مبلسون* فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين*" (الأنعام آية ٤٤ـ٤٥) والمهم أن اللـه تعالى لا يحجب نعمة عن أحد، بل يوزعها على المؤمن والكافر ثم يراقب الكل فيها فمن طغى وظلم ومن كفر بها واستعملها استعمالاً سيئاً فإن العقاب العادل سينزل به في الوقت المناسب وقد يطول ذلك العهد قبل نزول العقاب ولكنه يكون في الطريق وبعد هذا وذلك فإنه"لا يكلف اللـه نفساً إلا وُسعها" (البقرة، آية: ٢٨٦).

١ رجال الفكر والدعوة في الإسلام (١ ـ ٢٧١).

٢ في التفسير الإسلامي للتاريخ نعمان السامرائي صـ ٨٨.

ومن الملاحظ في دراسة أسباب سقوط الدول والحضارات بأنها لا تسقط بسبب واحد، بل تتجمع عدة أسباب لقيامها، وعدة أسباب لتدهورها وسقوطها، بعضها يعمل ببطء بينما البعض الآخر بسرعة أكبر، ولا تسقط الدولة بضربة واحدة بل بتضافر جملة من العوامل[١]، وهذا ما حدث للدولة الخوارزمية التي زالت من الوجود في المشرق الإسلامي بعد الإجتياح المغولي لديار المسلمين وأهم هذه الأسباب في نظري.

١ ـ فشل الخوارزميين في إيجاد تيار حضاري: صدر عن الملوك الخوارزميين خطأ كبير وذلك أنهم بذلوا كل قواهم في توسيع رقعة الملك، ودعمه وقمع الحصون، ولم يبذلوا أي إهتمام بتبليغ رسالة الإسلام إلى ذلك القسم البشري الذي يعيش بجوار حدودهم، وكان بنفسه عالماً مستقلاً، وبصرف النظر عن الدافع الديني والواجب الإسلامي، كان مُقتضى الحزم السياسي وبعد النظر، أن يعنوا بإيجاد الإنسجام العقائدي مع هذه الدنيا الإنسانية الواسعة، وبذلك يكونوا قد أقاموا حولهم سياجاً، يحفظهم عن ذلك الخطر الذي لم يواجههم وحدهم فحسب، بل اكتسح المسلمين كلهم[٢]، ولم يستطع الخوارزميون أن يقدموا مشروعاً حضارياً يجدد حيوية الدولة ويرسم أهدافها ويدفعها بقوة نحوها، وإنما دخلوا في أنفاق مظلمة انتهت بزوال دولتهم، لقد اتسعت الأرض التي يقومون فوقها، ولم يستطيعوا تحويل المناوئين لهم إلى عاملين معهم في مجال الدعوة ونشر الإسلام ودعوة الأمم وتعليمها وتربيتها على الإسلام الصحيح وتعليم الشعوب دين الله سواء باللغة العربية وبترجمة حقيقة الإسلام للغات الشعوب المسلمة، فقد كان المطلوب منهم تحقيق التوازن بين الدولة والدعوة، والأرض والعقيدة، والسياسة والفكر، وكانت هذه رسالة عظمى، لم يتقدم فيها الخوارزميون كما تقتضي الظروف والتحديات ، وكما تقتضي الملائمة للتحدي، وهذا الخطأ الكبير، فحقيقة الأمرأنهم لم يبعثوا بتيار حضاري يتمم تيارات الفتوحات

---

١ في التفسير الإسلامي للتاريخ للسمرائي صـ١٢٨.

٢ رجال افكر والدعوة (١/٢٨٠).

ويكمله، ويمتص كل حركات الخروج والفتن فهكذا التاريخ الحضاري دائماً إما أن تتقدم أو تموت ولا سكون في تاريخ الإنسانية[١].

٢ ـ كره الشعب لنظام الحكم وعدم ولائه: لم يستطع سلاطين الخوارزميين توحيد شتات العالم الإسلامي في المشرق، بل كان حكمهم بغيضاً في جميع أقاليم شرق العالم الإسلامي ولم يحظ حكمه بالقبول في بلاد الجبل، ولا بلاد خراسان، وأقاليم مقاطعاته وأصقاع مدنه وتوابعها، كما لم يحظ الاحترام في بلاد الغور، ولا في بلاد أفغانستان، وكان مكروهاً مبغوضاً في ما وراء النهر، فلم ينسوا مجزرة أهالي سمرقند، التي بلغ عدد المذبوحين قرابة مائتي ألف إنسان، كما لم يتعاون السكان بجميع فئاتهم وطبقاتهم مع السلطان الخوارزمي ولا حتى مد يد الغوث له، أثناء هروبه ومطاردة المغول له، وشق ((جبه نويان، وسوبتاي بهاري)) مملكة الشاه الخوارزمي من شرقها إلى غربها يطاردون سلطانها، ولم يحظ بعون أحد، لا من جنده، ورجال عسكره، وحمياتهم في المدن التي مر بها، ولا من إدارات حكومته ومواطني هاتيك المدن وأقاليمها، كانوا ينظرون إليه ويدلون المغول على الطريق الذي سلكها، والسبل التي سار إليها محاولة منهم بمساعدة المغول لاصطياده، فشعبه لم يكن راضياً عنه، وعلماء دولته يكنون له كرهاً عميقاً، وعلى اختلاف مذاهبهم شافعية أم أحناف كان يسجنهم ثم يقتلهم ثم يلقي بهم في ماء جيحون، وعلى رأسهم برهان الدين محمد أحمد المعروف بـ((صدر جيهان)) وأبو سعيد مجد الدين البغدادي وجلال الدين، إمام سمرقند، وابنه شهاب الدين، وأخيه أوحد الدين ، وأما الحكام القراخانيون، فقد صفاهم واحداً واحداً، بالتعاون مع أمه نفوا بعضهم إلى مدن موبوءة، بقوا فيها حتى ماتوا، وآخرون زجوا بهم في السجون ثم قتلوهم، والقوا بجثثهم في ملء جيحون، مثل السلطان عثمان الذي ذبح كما تذبح الشاه، وتاج الدين بلكا خان، الذي قتله جلاد الشاه جيهان بهلوان، فحز رأسه دونما ذنب اقترفه، وهكذا فعل مع بقية الأمراء، والحكام وعلية القوم في مملكته، وكان الشعب لا يكن حباً له، بل كرهاً عميقاً قد تأصل في نفوسهم، لظلمه وجبروته وتعسف جنده بهم في شتى مناطق البلاد التي

١ بنو أمية بين السقوط والانتحار صـ٩٨، الدولة الأموية للصلابي (٥٨٢/٢).

أخضعها بالحديد والنار بجنده الأتراك: لقد كانت الرحمة والشفقة بعيدتين كل البعد عنهم، وكانت تصرفاتهم الرعناء، وجلافتهم الهمجية وعنفهم وأرواحهم الشريرة هي التي تسببت في سقوط أسرة السلطان[1]، وأما جلال الدين بن السلطان علاء الدين، فقد كان هو الآخر مبغوضاً، مكروهاً، لأنه أحاط نفسه بجند شبه مرتزقة، فلم يتعاون الحكام المسلمون غرب إيران مثل السلاجقة والأيوبيين، وحاكم بغداد العباسي، مع جلال الدين لغلوه في التكبر والغطرسة، ومحاولة فرض نفوذه، وتكوين مملكة له في المنطقة بالقوة، وعلى حساب الشعوب والملوك الآخرين[2].

٣ ـ النزاع الداخلي في الأسرة الخوارزمية: إن سنة الله تعالى ماضية في الشعوب والأمم لا تتبدل ولا تتغير، ولا تجامل وقد جعل الله سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم وزوال الدول الاختلاق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فإن من كان قبلكم اختلقوا فهلكوا" وفي رواية ((فأهلكوا))، "وعند ابن حبان عن ابن مسعود رضي الله عنه، فإنما أهلك من كان قبلكم بالاختلاق[3]".

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي أسباب الاختلاق المذموم لأن الاختلاق كان سبباً في ضياع الدولة الخوارزمية وهلاكها وإندثارها وكان لهذا الاختلاف الذي وقع فيه البيت الخوارزمي أسبابه منها: ضعف الوازع الديني والأنانية وحب الذات والتكالب على المصالح الدنيوية والتناحر من أجلها والحرص على السلطة والجاه والمنصب، فهذه الأسباب كانت وقوداً للمنازعات والخلافات التي وقعت بين أفراد البيت الخوارزمي فكانت من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف وتلاشي الدولة، وقد استقرأ هذه الحقيقة ابن خلدون حيث ذكر أن من آثار الهرم في الدولة انقسامها وأن التنازع بين القرابة يقلص نطاقها كما يؤدي إلى قسمتها واضمحلالها[4]. لقد بدأ الخلاف المؤثر في الأسرة الخوارزمية بالصراع بين علاء الدين الخوارزمي ووالدته تركان خاتون التي كونت لها عصبية قوية

١ أوضاع الدول الإسلامية للغامدي صـ٢٧٥، الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند د. حذيفة الغامدي صـ٥٥٨.
٢ الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند صـ٥٥٩.
٣ صحيح البخاري بشرح العسقلاني (٩ /١٠٢،١٠١).
٤ الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم صـ١١٨.

من قوات عشيرتها حتى أصبح نفوذها في الدولة لا يقل عن نفوذ السلطان نفسه، من ذلك أنه كان إذا حدث حادث من جهة من جهات الدولة، أو عرضت مشكلة من المشاكل وصدر فيها حكمان متناقضان أحدهما من السلطان والآخر من تركان خاتون، نظر في تاريخ كل من الحكمين ونقض أحدثهما[1]. وهذا ينافي تماماً ما يجب أن يكون في مثل هذه الأحوال من حيث احترام أوامر السلطان مهما كان تاريخ الأوامر التي تصدرها تركان خاتون ولذلك نرى أن نفوذ هذه السلطانة وعشيرتها قد توغل في الدولة مما أضعف هيبة حكامها، وفضلاً عن ذلك فإن السلطان علاء الدين خوارزمشاه كان لا يخالف لأمه أمراً، لكونها أمه، وبسبب كثرة أمراء الدولة وحكامها الذين كانوا من عشيرتها، ولنضرب مثلاً لقوة تركان خاتون وتغلغل نفوذها في الدولة، فقد أمكنها أن ترفع أحد المقربين إليها وهو نظام الملك إلى منصب الوزارة ورغماً عن السلطان الذي لم يكن يميل إليه بسبب تجرده من الصفات الخلقية التي يجب أن يتحلى بها صاحب هذا المنصب، ففضلاً عن أنه كان من الرجال المرتشين، فإنه عرف أيضاً بالتلكؤ في البت فيما يعرض عليه من الأمور، وقد حدث أن كان علاء الدين في مدينة نيسابور وأسند منصب القضاء فيها إلى صدر الدين الجندي، الذي كان من بيت تقلد كثير من أفراده كثيراً من وظائف الدولة، كما كان من أهل العلم والفضل، وبعد أن قلده علاء الدين هذا المنصب حذره من أن يرسل الهدايا إلى الوزير، كما يفعل أكثر الحكام، ولكن القاضي أدرك ما يترتب على عدم إرسال الهدايا إلى الوزير، وخاصة بعد أن هدده هذا بسوء المصير، وحدث بعد ذلك أن أرسل القاضي إليه فعلاً كيساً مختوماً به أربعة آلاف دينار مخالفاً في ذلك أوامر السلطان، ولما علم علاء الدين ذلك، أرسل إلى الوزير يطلب منه الهدية، فاضطر أن يرسلها إليه مختومة كما وصلته، ولما مثل القاضي في حضرته سأله عن نوع الهدية التي أرسلها إلى الوزير، فأجاب القاضي بأنه لم يرسل شيئاً وأقسم برأس السلطان على ذلك، فلما واجهه بالهدية أسقط في يده واعترف بالأمر، وحينئذ أصدر السلطان أمره بعزله وعزل الوزير[2]، والمهم من هذا كله، أن أحداً لم يجرؤ على أن يفاتح الوزير المعزول بخبر

---

١ سيرة جلال الدين منكبرتي صـ٤٢.

٢ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي صـ٢٨ ـ ٢٩.

عزله ولم يستطع السلطان تنفيذ ما أمر به، ونلاحظ تركان خاتون عهدت بعد ذلك إلى نظام الملك لإدارة أملاك ابنها ((أزلاغ شاه)) الذي كان يحكم إقليم خوارزم، وسار الوزير في حكم هذا الإقليم سيرة تتفق مع طبيعته الشريرة، ونهب بعض أموال هذه الأقاليم، ولم علم السلطان بذلك ثارت ثائرته وأوفد أحد قواده إلى إقليم خوارزم، وأمره بأن يحضر إليه رأس الوزير، وكان طبيعياً ألا يرضي هذا الأمر أم السلطان وأمرت باستدعاء هذا القائد عقب وصوله وأمرته بأن يحضر إلى الديوان عندما يكون الوزير هناك وأن يجيبه باسم السلطان ويقول له: إن السلطان يقول لي ما لي وزير غيرك فكن على رأس عملك فليس لأحد في سائر أقاليم الملك أن يخالف أمرك وينكر قدرك، وقد اضطر القائد أن ينفذ ما أمر به واستمر نظام الملك يتمتع بسلطة واسعة رغم غضب السلطان عليه، كما استمرت أوامره نافذة في خوارزم وخراسان ومازندران[١]، لقد كان نفوذ تركان خاتون الكبير في شؤون البلاد وانعدام الوفاق بينها وبين ابنها قد زلزل أساس الدولة الخوارزمية، خاصة أن تركان خاتون وجنودها المرتزقة من عشيرة قنقلي قد وضعوا الممالك الأصلية في الدولة الخوارزمية تحت إدارتهم المستقلة وعينوا أقرباءهم في إدارة معظم شؤون الممالك المفتوحة أيضاً ولم يكن السلطان محمد حيلة حتى في اختيار ولي عهد مملكته ووزيره سوى النزول على رغبة والدته[٢]، وكانت دائرة قوة تركان خاتون هي ولاية خوارزم وكان معظم الجيش وقادته ورجال الدولة في تلك المنطقة إما من أتراك قنقلي أو من خواص الملكة وغلمانها وقد تم تعيين نظام الملك محمد بن صالح في منصب الوزارة واختيار أوزلاغ شاه ولياً لعهد خوارزمشاه بأمر منها وعلى خلاف رغبة السلطان محمد، فعلى الرغم من أن ولديه جلال الدين وركن الدين كانا أكبر من ابنه الثالث أوزلاغ، فقد تنازل السلطان عن ولاية عهده للأخير بعد إصرار تركان خاتون، ولُقب بأبي المظفر قطب الدين، وذلك لأن والدة أوزلاغ كانت من قبيلة تركان خاتون نفسها وكان أهلها كأهل تركان خاتون من الأتراك ذوي النفوذ وكانوا من أعوان والدة خوارزمشاه، وهكذا، فعند عودة جلال الدين إلى خوارزم وإعلان خلع أوزلاغ وتعيينه بدلاً منه

---

١ الدولة الخوارزمية والمغول صـ٢٣٥.

٢ تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان صـ ١٢٦.

كان أول من شق عصا الطاعة عليه وأدى إلى فساد أمره وفراره من خوارزم هو خال أوزلاغ شاه "قُتلُغ خان" وكانت تركان خاتون تناصب السلطان جلال الدين العداء، وحين فر من خوارزم نصحها أحد خواصها بالفرار واللحاق بجيش جلال الدين، إلا أن تركان خاتون رفضت النصيحة وقالت الوقوع في أسر جنكيز خان أفضل كثيراً من العيش في ظلال جلال الدين وموجز القول: إن هذه المرأة الأنانية المتعطشة للدماء وأقربائها من الأتراك كانوا من الأسباب الرئيسية لفساد أمر خوارزمشاه وكان كثير من الخلل الذي أصاب دولته ناتجاً عن استبدادها وعن الفجوة التي تفصل بينها وبين ابنها[١].

٤ ـ **ضعف النظام الحربي الخوارزمي:** كانت نظم الخوارزميين الحربية وخططهم التي أعدوها للدفاع عن دولتهم قبيل الغزو المغولي من العوامل الرئيسية التي أدت إلى انتصار المغول، ففضلاً عن أن الجيش الخوارزمي الذي اعتمد عليه علاء الدين كان يتكون من التركمان وقبائل كانكالي، أما التركمان فهم سلالة الأتراك الغز الذين أخضعوا فارس تحت زعامة السلاجقة، وأدى استيطانهم في هذا الجزء من العالم الإسلامي واختلاطهم بالعناصر الفارسية والعربية، إلى تغيير صفاتهم الجثمانية وعاداتهم ولغتهم، أما قبائل "كانكالي" فيرجع أصلهم إلى السهول الواقعة شمالي إقليم خوارزم وفي شمال شرقي بحر قزوين وقد اندفعوا إلى أراضي الخوارزمية على اثر تصاهرهم مع سلاطين هذه الدولة فقد تزوج السلطان علاء الدين تكش من تركان خاتون ابنة أحد زعماء هذه القبائل وكان من اثر ذلك أن هاجر كثير من رجال هذه القبائل من أقرباء تركان خاتون وأفراد عشيرتها إلى أراضي الدولة الخوارزمية ودخلوا في خدمة علاء الدين محمد خوارزمشاه وخاصة بعد أن منحهم السلطان بعض الأقاليم ليحكموها باسمه، وأطلق أيديهم فيها، ومما لا شك، أن قوة الخوارزميين قد تضاءلت أمام هذه الارستقراطية العسكرية، وشعر الأهلون فعلاً، وكذا السلطان بالحاجة إلى التحفظ في إشباع رغبات هؤلاء الجند الذين كانت محبتهم له مزعزعة الأركان، وطاعتهم له لا تقوم على شعور ينم عن الإخلاص، فلما شعروا بنوايا

---

١ تاريخ المغول عباس إقبال صـ ٨٥.

السلطان نحوهم عمدوا إلى إرهاب الأهالي المسالمين ونهب حوانيتهم في الطرقات[١]، وتفنن هؤلاء الجند الغرباء في تعذيب الأهالي وسلكوا في ذلك سبلاً متعددة، فاضطرب الأمن في البلاد واضطربت معه أحوال الدولة السياسة والاجتماعية[٢]. لقد كان جنود الأتراك مصدر قلق واضطراب للدولة الخوارزمية فإن هؤلاء الجند لم يهتموا كثيراً بالدفاع عن هذه الدولة شأنهم في ذلك شأن الجنود المرتزقة الذين يوكل إليهم أمر الدفاع عن شعب غريب عنهم وكانوا يدركون أنهم إذا انتصروا في ميدان القتال فلن يعود عليهم هذا النصر بخير كثير، ثم إن الجيش الخوارزمي كان ينقصه النظام والطاعة للقواد والقدرة على تحمل الصعاب، تلك الصفات التي كانت من أهم مميزات الجيش المغولي، وأهم من ذلك كله فقد فقد علاء الدين خوارزمشاه ثقة شعبه، فلم يشاركوه بقلوبهم في الاستعداد لمواجهة هذا الخطر الداهم، ولم يسارعوا للانضمام تحت لوائه، كما لم يساعدوه في جمع المال اللازم للإنفاق على جنوده، هذا فضلاً عن أن القدرة على تجنيد السلطان لمن يشاء من رعيته لم تتوفر، وأما ناحية الخطة الحربية التي اتبعها علاء الدين خوارزمشاه، فنرى أنها كانت خطة غير موفقة، إذ بدلاً من أن يجمع جيشاً واحداً يقف به في وجه المغول نراه يوزع قواته على المدن المختلفة في بلاد ما وراء النهر، فمثلاً نراه يضع في مدينة بخارى عشرين ألف رجل، وفي سمرقند خمسين ألفاً،كما نراه يضع في مدينة أترار التي تعتبر مفتاح هذا الإقليم عشرين ألفاً، ونراه أيضاً يرسل دعاته إلى أقاليم الدولة الخوارزمية المختلفة لجباية الضرائب منها، معلناً أنه سيصنع في كل إقليم جيشاً يعادل ما يجمع من هذا الإقليم من أموال، وهكذا نرى تفرق الجيش الخوارزمي بين المدن الخوارزمية المختلفة، مما سهل على المغول القضاء على المدن واحدة تلو أخرى، ولو أن علاء الدين جمع جيوشه وقابل بها المغول دفعة واحدة، لربما سهل عليه القضاء عليهم وبسبب تجمع الجيوش الخوارزمية في داخل المدن، نرى علاء الدين يعمل جاهداً على تحصين تلك المدن وتقوية حوائطها، حتى يكون الجنود وهم في داخل الأسوار في مأمن من غدر أعدائهم، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله في مدينة سمرقند إذ أنه رغم إتساع هذه

١ الدولة الخوارزمية والمغول صـ ٢٣٦.

٢ المصدر نفسه صـ ٢٣٣.

المدينة نراه يشرع في بناء سور حولها ليكون وسيلة قوية من وسائل الدفاع، ولكي يحصل على المال اللازم لهذا المشروع نراه يوزع عماله في الأقاليم لجمع الضرائب باسم عمارة سور سمرقند، واستطاع بعد ذلك أن يجمع المال اللازم لهذا المشروع وفي وقت قصير، ولكن الغزو المغولي المفاجئ منعه من إنجاز مشروعه، ويذهب المؤرخون مذاهب شتى في تعليل السبب الذي دفع علاء الدين إلى توزيع قواته على هذا النحو في داخل المدن الخوارزمية، فيرى جيبون أنه قد ظن أن المغول سيملون حصار هذه المدن العديدة، ومن ثم يعودون إلى بلادهم دون أن ينالوا من هذه المدن منالاً[1]، ويرى سيكس أن علاء الدين خوارزمشاه ظن في ذلك الوقت أن جنكيز خان سيكتفي في البلاد الإسلامية بنهب ما تصل إليه أيديه من الغنائم والأسلاب ثم يعود من حيث أتى[2]، وهذا يخالف طبعاً ما عزم عليه جنكيز خان من إخضاع أقاليم آسيا الغربية، ويرى فلادمير ستوف أن السلطان الخوارزمي كان لا يثق بقواته ولذلك كان يخشى أن يتجمع عدد كبير من رجاله تحت قيادة رجل واحد فتنقلب عليه هذه الجيوش تحقيقاً لرغبة قائدها قد تحدثه نفسه بعصيان السلطان، فوق ما تقدم فإن القوات الخوارزميين لم يكونوا من الكفاية والمقدرة بحيث يستطيع قائد واحد منهم أن يقود جيشاً كبيراً، أضف إلى ذلك أن علاء الدين وجد أنه من الصعب عليه أن يلتقي بأعدائه في العراء، ولذلك فضل التحصن في المدن، ومما تقدم أن نظام الخوارزميين الحربي كان مرتبكاً ومضطرباً، وأن قوتهم وزعت وتفرقت، ولذلك سهل على المغول إخضاع المدينة تلو الأخرى وإبادة الحامية بعد الحامية، كما سهل عليهم بعد إنهيار بلاد ما وراء النهر التي ركز الخوارزميون فيها وسائل دفاعهم أن يزيلوا الدولة الخوارزمية ويخربوا ما عمَّره المسلمون من مدنها، ويجعلوا منها أطلالاً لا تجد من يبكيها[3].

٥ ـ **حب الدنيا وكراهية الموت:** كان حب الدنيا مهيمناً على القيادة والشعب في ذلك الوقت، وقد دبت الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين، وتعلقوا بدنياهم الذليلة

١ الدولة الخوارزمية والمغول صـ٢٣٧.

٢ الدولة الخوارزمية والمغول صـ٢٣٧، ٢٣٨.

٣ المصدر نفسه صـ ٢٣٨.

تعلقاً لا يُفهم ورضوا أن يبقوا في قراهم ومدنهم ينتظرون الموت على أيدي الفرق المغولية، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال: "يوشك الأمم أن تتداعى عليكم، كما تتداعى الأكلة على قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت[1]". لقد سيطر حب الدنيا على القلوب، وكره المسلمون الموت في سبيل الله، فأصبحوا كالغثاء الذي يحمله السيل، إذا توجه شرقاً شرقوا معه، وإذا توجه السيل غرباً غربوا معه، لا رأي ولا هدف ولا طموح، ونزع الله عز وجل مهابة المسلمين من قلوب التتار، فما عادوا يكترثون بالأعداد الغفيرة وألقى في قلوب المسلمين الوهن والضعف والخور حتى كانت أقدام المائة من المسلمين لا تقوى على حملهم إذا واجهوا تترياً واحداً ولا حول ولا قوة إلا بالله[2]. يقول أبو الحسن الندوي: وقد دخل رعب التتار في قلوب المسلمين إلى حد أن أحد التتار دخل بعض الأحيان في سكة من سكك مدينة حيث وجد مائة رجل من المسلمين فقتلهم جميعاً، وأتى على آخرهم دون أن يتجرأ أحد منهم لمقاومته[3]. وذات مرة دخلت امرأة تتارية بيتاً متزينة بزي الرجال وقتلت جميع أفراد الأسرة، وعرف أحد المسجونين الذي كان معها أنها امرأة فقتلها، وقد حدث بعض الأحيان أن تتارياً أسر مسلماً وقال له ضع رأسك على هذا الحجر حتى آتي بالخنجر فأذبحك، وخضع له المسلم ولم يسعه أن يبرح مكانه ذاك ثم أتى التتاري بالخنجر من المدينة وذبحه[4]. كان غارة التتار فتنة عظيمة، ومحنة كبيرة، هزت العالم الإسلامي هزاً عنيفاً، وتركت المسلمين مبهوتين مشدوهين واستولى الرعب والخوف على العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وغلب على الناس اليأس والتشاؤم، فكانوا يعتبرون التتار بلاءً سماوياً ومقاومتهم مستحيلة، وانهزامهم فوق القياس، حتى ساد المثل ((إذا قيل لك التتار انهزموا فلا تصدق))، فكل بلاد أو دولة توجهوا إليها عرف أنها أبيدت وخربت، ولم يبق فيها شيء من مقدسات المسلمين إلا

١ سنن أبو داؤد نقلاً عن قصة التتار صـ٤٠، ٤١.
٢ قصة التتار صـ٤١.
٣ رجال الفكر والدعوة (١ ـ ٢٨٢).
٤ المصدر نفسه (١ ـ ٢٨٢)، نقلاً عن الكامل في التاريخ.

وانتهكت حرمتها، فكان اتجاه التتار إلى جهة يرادف معنى التدمير والإبادة والذلـة، وانتهـاك الأعـراض، ولا شك أن العالم الإسلامي كله ولا سيما الجزء الشرقي منه وقع تحت هذه الفتنة العمياء عـلى بكـرة أبيه، إن المؤرخ يشغل بتسجيل كل لون من ألوان الأحداث والوقائع، وتمر به مناظر كثيرة لإبادة الأمـم والبلدان حتى يتعود احتمال كل ذلك، فيجري قلمه بتسجيل هذه الحوادث من غير أن يرق لـه قلبـه، وتدمع له عينه، ولكن المؤرخ الشهير ابن الأثير لم يتمكن من إخفاء شعوره الجريح وتألمه النفسي حينما وصل إلى ذكر حادث التتار[1] حيث قال: لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثـة اسـتعظاماً لها كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر رجـلاً، فمـن الـذي يسـهل عليـه أن يكتـب نعـي الإسـلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذلك؟ ويا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبـل هـذا، وكنـت نسـياً منسياً، إلا أني حثَّني جماعة من الأصدقاء على تسيطرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن تـرك ذلـك لا يجـدي نفعاً، فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى، والتي عقمـت الأيـام والليـالي عن مثلها وعمت الخلائق وخصَّت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلـق اللـــه سـبحانه وتعـالى آدم إلى الآن لم يبتلوا مثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن مـا يقاربهـا ولا يُـدانيها، ولعـل الخلـق يرون مثل هذه الحادثة، إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا ألا ياجوج ومـاجوج، وهـؤلاء لم يُبقـوا عـلى أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنَّة، فإنا لله وإنا إليه راجعـون ولا حول ولا قوة إلا باللـه العلي العظيم، لهذه الحادثة التي استطار شررُها وعمَّ ضررُها، وسـارت في البلاد كالسحاب استدبرته الرياح[2]، ويقول مؤلف ((مرصـاد العبـاد)) الـذي شـهد هـذه الوقعـة بعينه وما دار في مولده الري وموطنه همدان من حوادث فظيعة بعينه ومن التخريب والتـدمير: استولى الجيش التتاري ـ خذلهم اللـه ودمرهم ـ سنة ٦١٨هـ على بلاد الإسلام، لا يعـرف نظـير لما قام به هؤلاء الوحوش من الفتنة والإفساد، والقتل والهدم والإحراق وما ظهر مـن أولئـك الملاعـين من فظائع تقشـعر منهـا الجلـود في أي عصر مـن عصـور التـاريخ، لا في الإسـلام ولا في الجاهليـة،

١ المصدر نفسه.

٢ الكامل في التاريخ (١٤٧/١٢ ـ ١٤٨) رجال الفكر والدعوة في الإسلام (٢٨٣/١).

فقد قتلوا وأسروا في ((ري)) وحدها التي هي مولودي أكثر من سبعمائة ألف مسلم، إن الفتنة التي أثاروها في العالم الإسلامي والمصيبة التي أنزلوها على المسلمين لا تسع الكلمات أن تصورها، وهذه الحادثة أغنى من أن تشرح للناس، وعياذاً بالله، إذا لم تتحرك حميَّة الإسلام وغيرته في ملوك المسلمين وسلاطينهم، ولم يذكروا أنهم مسئولون عن الأمة لقوله صلى الله عليه وسلم: "الأمير راع على رعيته وهو مسئول عنها"، وإذا لم تنبعث فيهم أريحيتهم ورجولتهم لكي يتحدوا على كلمة واحدة وينقادوا لما أمرهم الله به في قوله تعالى: "انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله"التوبة ، ٤١، وإذا لم يستعدوا ببذل النفس والمال والملك لكي يدفعوا هذه الفتنة، وإن ذلك كله يدل على أن المسلمين سيفاجأهم الذل والنكسة، وترتمي بلاد الإسلام في أحضان الكفر، وأخشى أن المسلمين الذين كانوا لا يحملون إلا الإسم، سيفقدون الإسم والرسم كليهما نتيجة لما ندعيه ولا نعمل به[1].

٦ ـ ترك الاتحاد والوقوع في ظلم العباد: ((غياب العدل)) إذا الفرقة هي طريق الانحطاط، فإن الوحدة هي سبيل الارتقاء وتبوء المكانة الفاضلة بين الأمم والشعوب، وهي الوسيلة لقيادة البشرية إلى الحضارة الربانية الرشيدة، وقد أرشدتنا التعاليم الشرعية إلى وحدة الصف وإتحاد الكلمة والرجوع إلى شرعه وتحكيم الكتاب والسنة فيما بيننا، قال تعالى: "وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب" الشورى ، آية ١٠، وقال تعالى: "فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا" النساء ، آية ٥٩، فقد عطل شرع الله تعالى، وترتب على ذلك الفرقة والتشتت والتشرذم بين ممالك المسلمين، ولم يستطع المسلمون أن يعملوا بقول الله تعالى: "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين" الأنفال ، آية ، ٤٦، فجعل الله عز وجل الفشل قريناً للتنازع والمسلمون كانوا في تنازع مستمر، وخلاف دائم، وعندما كانت تحدث بعض فترات الهدنة في الحرب مع التتار كان المسلمون يغيرون على بعضهم، ويأسرون بعضهم، ويقتلون بعضهم، وقد علم يقيناً أن من كانت هذه

---

١ رجال الفكر والدعوة (١ ـ ٢٨٤).

صفتهم فلا يكتب لهم النصر أبداً، فالمسلمون كـانوا ـ في تلـك الآونـة ـ يهلـك بعضـهم بعضـاً، ويسـبي بعضهم بعضاً، فلا عجب أن غلب عليهم جيش المغول أو غيرهم، يقـول ابـن الأثـير: وكـان محمـد بـن خوارزمشاه قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقي وحده سلطان البلاد جميعها، فلما إنهـزم من التتار لم يبق في البلاد من يمنعها ولا من يحميها[1]، لقد قطع محمد الخـوارزمي كـل العلاقـات بينـه وبين من حوله من الأقطار الإسلامية، لم يتعاون معها أبداً، بل على العكس قاتلها الواحدة تلو الأخـرى، وكان يقتل ملوك هذه الأقطار ويضمها إلى مملكته، ولا شك أن هذا خلف أحقاداً كبيرة في قلوب سكان هذه البلاد، وهذا ليس من الحكمة في شئ. انظروا إلى رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم عنـدما كـان يفتح البلاد كان يولي زعماء هذه البلاد عليها ويحفظ لهم مكانتهم ويبقي لهم ملكهم، فيضـمن بـذلك ولائهم وحب الناس له، فأبقى على حكم البحرين ملكها المنذر بـن سـاوي ، وأبقـى عـلى حكـم عـمان ملكيها جيفر وعباد، بل وأبقى على اليمن واليها باذان بن سامان الفارسي عنـدما أسـلم وهكـذا، وهـذا بخلاف ما فعله السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي، فقد كان حـاكماً بقوتـه لا يحبـه النـاس ، فلـما احتــاج إلى النــاس لم يجــدهم، ولمــا احتــاج إلى الأعــوان افتقــر إلــيهم، ولم تكــن الصراعــات بــين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية فقط، بل قامت الدولة الخوارزمية نفسها على صراعـات داخليـة، ومكايد كثيرة ومؤامرات عديدة، فلم تتوحد القلوب بهذا البلد، وانعكس ذلك عـلى الصـفوف، وكانـت النتيجة الهزيمة الساحقة أمام المغول، وما كان للنصر أن يتحقق والأمة عـلى هـذا النحـو[2]، قـال تعـالى: "إن الـلـه يحب الذين يقاتلون في سـبيله صـفاً كـأنهم بنيـان مرصـوص" الصـف آيـة ، ٤، وأمـا جـلال الدين عندما دخل أخلاط التابعة للأيوبيين عام ٦٢٧هــ وضـع السـيف في أهلهـا وفعـل في ذلـك فعـل التتار، فقتل كل من وجد في البلـد، فكـانوا قـد قلـوا، فبعضـهم كـان فـارق خوفـاً بعـد الحصـار الأول، وبعضهم مات في البلد جوعاً، وبعضهم صعد إلى القلعة مع من صعد إليها من الأمراء والأجناد، وكانت الأقوات قد قلت، بل عدمت بأخلاط، حتى أكل أهلها البغال والكلاب والسنانير، كـان يصـطادون الفـأر

١ الكامل في التاريخ نقلاً عن قصة التتار صـ٣٨.

٢ قصة التتار صـ٣٩.

ويأكلونه، وصبروا صبراً لم يصبرها محاصر خوفاً من جلال الدين وما يعرفونه منه من إقدامه على سفك الدماء، ولما فتحت سبي عسكره الحريم، وباعوا الأولاد كما يفعل بالكفرة، ونهبت الأموال، وجرى منه نظير ما جرى من التتار، فلا جرم أن الله سبحانه عاقبه ببغيه ولم يمهله وقلع شأفته[١]، كان الأجدر به عدم الدخول في صراع مع القوى الإسلامية في الشام وغيرها، وكان عليه أن يعمل على لملمة الدولة ويبني جيشه على أسس عقائدية وأخلاقية، لقد كان جلال الدين يفتقد للحكمة والبعد السياسي ومكارم الأخلاق، التي يستطيع أن يكسب بها الأبطال والقادة والملوك، ولم يكن جلال الدين رجل المرحلة المطلوبة، وسترى بإذن الله تعالى الفرق الكبير بين جلال الدين منكبرتي وصفات سيف الدين قطز الذي حقق الانتصار على المغول في معركة عين جالوت، إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة، يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر له أي الذي قدره الله بموجب سنته العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك، كالظلم الذي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله[٢]، فقال تعالى: "ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون" الأعراف: الآية ، ٣٤، قال الألوسي رحمه الله في تفسير هذه الآية: "ولكل أمة أجل" أي لكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أي وقت معين مضروب لاستئصالهم[٣]، ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين، ولكننا لانعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين وهو محدد عند الله تعالى[٤]: "ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائمٌ وحصيد * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم

١ مفرج الكروب (٤ ـ ٢٩٦).
٢ السنن الإلهية د. عبد الكريم زيدان صـ١٢١.
٣ تفسير الألوسي (١١٢/٨).
٤ السنن الإلهية صـ١٢١.

آلهتهم التي يدعون من دون الـلـه من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهـم غـير تتبيـب * وكـذلك أخـذ ربك إذا أخذ القُرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد" هود: آية ١٠٠ ـ ١٠٢.

إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الـلـه ليس مقتصراً على مـن تقـدم مـن الأمـم الظالمـة، بـل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة، فـلا ينبغـي أن يظـن أحـد أن هـذا الهـلاك قـاصراً بأولئـك الظلمة السابقين، لأن الـلـه تعالى لما حكى أحوالهم قال: "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمـة" هود: آية ، ١٠٢، فبين الـلـه تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التـي أدت إلى هلاكهـم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد، الآية تحذر من خطـورة الظلـم، فالدولـة الكـافرة قـد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس، والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولـة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته هلاك الدولة لكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامهـا للرعية وتظالم الناس فيما بينهم[١]، قال تعالى: "وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون" هـود: آية ، ١١، قال الامام الرازي في تفسيره: إن المراد من الظلم في هذه الآية: الشرك والمعنى: أن الـلـه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فـيما بيـنهم، يعامـل بعضـهم على الصلاح وعدم الفساد[٢]. وفي تفسير القرطبي قوله: بظلم أي بشرك وكفر "وأهلها مصلحون" أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق، ومعنى الآية: أن الـلـه تعالى لم يكن ليهلكهم في الكفر وحده حتـى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس الميكيال والميزان/ وقوم لوط باللواط[٣]، قال ابن تيميه في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: وأمور الناس أن تستقيم مع العدل الذي يكـون فيه الاشتراك في بعـض أنـواع الإثـم أكـثر مـما تسـتقيم مـع الظلـم في الحقـوق، وإن لم تشـترك في إثم، لهذا قيل إن الـلـه يقـيم الدولـة العادلـة وإن كانـت كـافرة ولا يقـيم الظالمـة وإن مسـلمة، ويقال: إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تـدوم مـع الظلـم والإسـلام، وذلـك أن العـدل نظـام

١ المصدر نفسه صـ١٢١.

٢ تفسير الرازي (١٦/١٨)؟؟؟؟؟.

٣ تفسير القرطبي (٩ ـ ١١٤).

كل شئ، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة[1]، ولقد حدثت مظالم عظيمة في عهد الخوارزميين، من سفك الدماء بغير حق، وقتل للمسلمين، واجتياح المدن الإسلامية ومحاصرتها واستباحتها، كان الجيش الخوارزمي يضرب به المثل في النهب والقتل، وعمل كل قبيح، وكان الزنا فيهم فاشٍ، واللواط غير معذوق بكبر ولا بصغر والغدر خلق لهم، أخذوا تفليس بالأمان، ثم غدروا وقتلوا وسبوا، كانت عساكر جلال الدين أوباشاً فيهم شر وفسق وعتو[2]. لقد ساهمت المظالم التي ارتكبها الخوارزميون في زوال دولتهم من الوجود.

٧ ـ أنانية محمد علاء الدين الخوارزمي وهزيمته النفسية: ظهرت أنانية محمد علاء الدين في إهتمامه بتأمين نفسه وأسرته ومقربيه وتهاونه في تأمين شعبه، وحافظ جداًعلى كنوزه وكنوز آبائه، وأهل الحفاظ على مقدرات وأملاك شعبه وعادة من يسقط أمثال هؤلاء القواد أمام المحن والشدائد والفتن والمصائب التي تعصف بالأمم والشعوب والدول، وعادة ما تنهزم الشعوب التي تقبل بهذه الأوضاع المغلوبة دون إصلاح، لقد فر السلطان محمد علاء الدين خوارزم من نيسابور واتجه التتار خلفه مباشرة يطاردونه من مدينة في فرار مخزٍ فاضح ووصل إلى جزيرة في بحر قزوين، ونجحت خطة محمد الخوارزمي في الفرار، ورضي بالبقاء في تلك القلعة مع الفقر الشديد والحياة الصعبة وهو الملك الذي ملك بلاداً شاسعاً وأمولاً باهظة ولكن رضي بذلك لكي يفر وينجو بنفسه، وهذا مرض قلبي أخلاقي في الأساس، وما هي إلا أيام حتى مات محمد علاء الدين محمد خوارزمشاه في هذه الجزيرة وحيداً طريداً شريداً فقيراً، وصدق الله: "إينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة" النساء : آية، ٧٨. كان الأولى للسلطان الخوارزمي أن يموت رافع الرأس ثابت الجأش، مطمئن القلب في ميدان الجهاد، وأن يموت مقبلاً لا مدبراً[3]، ولكنها الأنانية البغيضة والهزيمة النفسية التي أصيب بها ذلك السلطان الخوارزمي، لقد دب الرعب والخوف في قلبه

١ رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية صـ٤٠.

٢ سير أعلام النبلاء (٢٢ ـ ٣٢٨).

٣ قصة التتار صـ٣٦ ، ٣٧.

من استبسال جنود المغول وحنكتهم في الحرب، وبعد عودته من سمرقند أخذ يشيد مراراً وتكراراً بثبات المغول في القتال ومعرفتهم بفنون الرماية والقتال بالسيف، وهو ما أخافه لدرجة أعجزته عن الصمود أمامهم، بل أن في فراره كان يحذر الأهالي من المغول ويدعوهم للتسليم لهم وطاعتهم، وكان لخوفه وفراره تأثير سيء على الجنود وأهالي البلاد، وأدى إلى انفراط عقد الجيش وضعف روح الدفاع والقتال والجهاد عند الأهالي[1]، فهروب السلطان من الميدان من أسباب زوال الدولة الخوارزمية.

٨ ـ **شخصية جلال الدين منكبرتي:** بعد أن رجع جنكيز خان إلى بلاده عاد جلال الدين من الهند، وكون في الجزء الغربي من أقاليم الدولة الخوارزمية حكومة مهيضة الجانب، ولم يكن في وسع هذا السلطان الذي ركز جهوده للانتقام من حكام البلاد المحيطة بدولته وعلى رأسهم الخليفة العباسي بسبب عدواتهم لأبيهم، والذي كان فوق ما تقدم على توسيع رقعة بلاده على حساب ما يجاورها من حكام البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، لم يكن في وسع هذا السلطان أن يعمل على توثيق روابط الود والإخاء بينه وبين هؤلاء الجيران، ولذلك قضى فترة من الوقت استطاع فيها، على قصرها، أن ينهك القوى الإسلامية ويضعفها،كما أثار نفور المسلمين منه وسخطهم عليه، فانفضوا من حوله، فضلاً عن هذا فإنه لم يحسب حساباً للمغول، الذين انصروفوا عنه وعن العالم الإسلامي إلى حين، بسبب تفرغهم لمشاكلهم الداخلية في ذلك الوقت، وكان الواجب على جلال الدين منكبرتي وقد عاد إلى بلاده وتربع على عرشها أن يستفيد من أخطاء أبيه وهفواته السياسية، فيعمل على اكتساب إرضاء جيرانه في الخارج، ويكون حلفاً إسلامياً يقف به في وجه المغول، وكان يجب عليه أيضاً أن يعمل على كسب محبة رعيته حتى يضمن ولاء الأهالي إذا ما ظهر الخطر المغولي من جديد، ولكن على العكس من ذلك نراه لا يترك قوة من القوى الموجودة في ذلك الوقت إلا ناصبها العداء، خارج دولته وداخلها، ففي الخارج اعتدى على أملاك الخليفة، وأملاك الأمراء المسلمين في بلاد ما بين النهرين، كما غزا أذربيجان وجورجيا وأذل أهليهما لسلطانه، وناصب طائفة الإسماعيلية العداء فألبت عليه

١ تاريخ المغول عباس إقبال صـ١٣٠.

أعداءه وشجعت المغول على إعادة غزو أراضي الدولة الخوارزمية[1]، وقد وصف ابن الأثير سياسة جلال الدين منكبرتي الخارجية منذ ظهوره على المسرح التاريخي من جديد، وصفاً يعبر تعبيراً صحيحاً عما جلبته عليه هذه السياسة من أضرار، فقال: وكان جلال الدين سيء السيرة، قبيح التدبير لملكه، لم يترك أحداً من الملوك المجاورين له إلا عاده ونازعه الملك وأساء مجاورته، فمن ذلك أنه أول ما ظهر في أصفهان وجمع العساكر قصد خوزستان، فحصر مدينة ششتر وهي للخليفة فحصرها وسار إلى دقوقا فنهبها وقتل فيها، فأكثر وهي للخليفة أيضا، ثم ملك أذربيجان وهي لأوزبك فملكها وقصد الكرج ((جورجيا)) وهزمهم وعاداهم ثم عاد الملك الأشرف صاحب أخلاط، ثم عاد علاء الدين صاحب بلاد الروم، وعاد الإسماعيلية، ونهب بلادهم وقتل فيهم، فأكثر وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة، كذلك غيرهم فكل من الملوك تخلى عنه ولم يأخذ بيده[2]، وهكذا كان من أثر عداوة جلال الدين لهذه القوى المحيطة بدولته أنها رفضت أن تمد له يد المساعدة، عندما داهمه المغول بغزوهم المفاجئ[3]. وأما في الداخل فنرى جلال الدين يحاول أن يكون الحاكم المستبد في دولته، فانقض عنه اخوة غياث الدين تتبعه قوة كبيرة من رجال جيشه في الوقت الذي كان يتحتم عليه ، يستفيد بمجهود كل رجل في دولته كذلك نرى كبار رجال الدولة ينفضون من حوله يحيطونه بشبكة من الدسائس والمؤامرات، ويشعلون عليه نيران الثورة في البلاد الخاضعة، كما حدث في أذربيجان[4]. ولم يهتم جلال الدين بتكوين جيش يستطيع أن يواجه به العدو المغولي إلا عندما دقت الساعة وظهر المغول فجأة في الميدان فأخذوه على حين غرة قبل أن يتمكن من إصلاح شئونه الداخلية و الخارجية، فكانت النتيجة أن اكتسح المغول الدولة الخوارزمية من جديد سنة ٦٢٨هـ /١٢٣١م، وزالت هذه الدولة بزوال آخر شخصية خوارزمية من سلالة نوشتكين[5]. مدح الذهبي جلال الدين منكبرتي وقال: السلطان الكبير جلال الدين منكوبرتي ابن

١ الدولة الخوارزمية والمغول صـ٢٣٩.
٢ الكامل في التاريخ (١٢ ـ ٢٣٠).
٣ الدولة الخوارزمية صـ٢٤٠.
٤ الدولة الخوارزمية والمغول صـ٢٤٠.
٤ المصدر نفسه صـ ٢٤٠.

السلطان الكبير علاء الدين محمد ابن السلطان خوارزمشاه الخوارزمي، تملك البلاد، ودانت له الأمم، وجرت له عجائب وعندي سيرته في مجلد كان جلال الدين أسمر تركياً قصير منعجم العبارة، يتكلم بالتركية، وبالفارسية، وأما شجاعته فحسبك ما وردته من وقعاته فكان أسداً ضرغاماً وأشجع فرسانه إقداماً لا غضوباً ولا شتاماً وقوراً، لا يضحك إلا تبسماً، ولا يكثر كلاماً، وكان يختار العدل غيرأنه صادف أيام الفتنة فغلب وجرت له أمور يطول شرحها ما بين ارتقاء وانخفاض، وهابته التتار ولولاه لداسوا الدنيا وقد ذهب إليه محي الدين بن الجوزي رسولاً وجده يقرأ في مصحف ويبكي، ثم اعتذر عما يفعله جنده بكثرتهم، وعدم طاعتهم[١].

٩ ـ قصر نظر الخليفة الناصر لدين الله العباسي: استطاع غياث الدين أخو جلال الدين ان يتملك منطقة شمال إيران نتيجة الفراغ النسبي الذي تركه التتار في هذه المنطقة وسيطر على مدن الري وأصفهان، ووصلت سيطرته إلى إقليم كرمان في جنوب إيران، وأصبحت سيطرة غياث الدين بن خوارزمشاه على مناطق شمال وغرب وجنوب إيران،أما المنطقة الشرقية والشمالية الشرقية من إيران وهي إقليم خراسان بكامله، فكانت تحت السيطرة التترية، وبذلك يصبح غياث الدين بمثابة حائط صد بين التتار والخلافة العباسية، وكان ذلك في الفترة التي انقطع فيها جلال الدين في الهند.

كان من المتوقع من الناصر لدين الله الخليفة العباسي في ذلك الوقت أن يساعد غياث الدين في تثبيت سيطرته على هذه المناطق، وكان المفروض عليه أن يتناسى الخلافات القديمة بينه وبين مملكة خوارزم، وذلك لأنهم الآن يواجهون عدواً مشتركاً وهم المغول، كان ذلك فرض الوقت عليه، إن لم يكن بسبب دوافع الدين والأخوة والنصرة للمسلمين ، فليكن بسبب الأبعاد الاستراتيجية الهامة وراء تثبيت قدم غياث الدين في هذه المنطقة، ذلك لأن غياث الدين هو الذي يقف مباشرة في مواجهة التتار ويُعتبر البوابة الشرقية للخلافة العباسية في بغداد وإن استطاع التتار أن يقهروا غياث الدين فستكون المرحلة الثانية هي الخلافة العباسية، لكن الخليفة العباسي الناصر لدين

١ سير أعلام النبلاء (٢٢ ـ ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨).

الـلـه لم يكن يدرك كل هذه الأبعاد[1]، لقـد كـان يعـاني مـن قصر النظـر ومـن أمـراض النفـوس، كحـب الانتقام، والمكر بالمسلمين، ولم ينس خلافاتـه القديمـة مـع المملكـة الخوارزميـة وأراد أن يقـوض أركـان السلطان هناك، ناسياً أنهم بينه وبين التتار، وعمل على إذكاء وإشعال فتنة داخليـة بـين غيـاث الـدين وخاله ((ايغان طائسي))، وكان رجلاً كبيراً وصاحب رأي في الحرب، يعمل أمـيراً في جـيش غيـاث، وكـان الأخير لا يقطع أمراً دون مشورته، فراسله الخليفة الناصر لدين الـلـه ، ورغبة في الانقـلاب عـلى غيـاث الدين وعظم له الاستيلاء على الملك، وبذلك يضمن الخليفة ولاء ايغان طائسي له، ويبعد غيـاث الـدين عن الحكم، ولم يهمه تلك الفتنة التي ستدور في الأرض المجاورة لـه، والتـي تعتـبر العمـق الاسـتراتيجي الهام له ونجح في مشروعه التآمري واندلعت الحرب بـين غيـاث وخالـه ودارت مجـزرة بـين المسـلمين، وسقطت الأعداد الغفيرة من المسلمين قتلى بسيوف أخوانهم، وانهزم ايغان طائسي خال غيـاث الـدين، وقتل من فريقه عدد ضخم، وأسر الباقون، وفر هو ومن بقي معه إلى أذربيجـان ولا حـول ولا قـوة إلا بالـلـه[2].

إن الخليفة العباسي لم يقم بواجبه في دعم المسلمين ضد المغول، بـل كـان معـول هـدم لمن تصدى للمقاومة، وهذا الخليفـة ذمَّـه المؤرخـون وتنـاولوا أعمالـه وأخلاقـه بالنقـد الـلاذع، يتحدث عنه المؤرخ ابن الأثير فيقول: وكـان قبـيح السـيرة في رعيتـه، فتخُـرب في أيامـه العـراق، وتفرَّق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم، وكان يفعل الشئ وضده، فمـن ذلـك أنـه عمـل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان فبقيت مدة، ثـم قطـع ذلـك، ثـم عمـل دور الضيافة للحجاج، فبقيت مدة ثم أبطلها، وأطلق بعض المكوس التي جدَّدها ببغداد خاصـة ثـم أعادها، وجعل جُلَّ همه في رمي البندق والطيور المناسـيب وسراويـلات الفتـوة، فأجابـه النـاس بالعراق وغيره إلى ذلك فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور[3]. فكان هذا الخليفـة خصماً للخـوارزميين ولم يقـف معهـم في التصـدي للمغـول، بـل عمـل عـلى إثـارة الفـتن داخـل

١ قصة التتار صـ٦٨.

٢ قصة التتار صـ٧٠.

٣ الكامل في التاريخ (١٨١/١٢) رجال الفكر والدعوة (٢٧٥/١).

صفوف المسلمين، فكان ذلك من أسباب زوال الدولة الخوارزمية ولا شك أن اعتداءات الخوارزميين السابق على الخلافة ببغداد من أسباب ضعفهم وعدم الوقوف معهم.

١٠ ـ **غياب العلماء:** في تحقيق الأمة للانتصارات الكبرى نجد مكانة العلماء والفقهاء لدى الحكام وفي وجدان الشعوب واضحة المعالم، بل نلاحظ الكتابات عن أهمية الجهاد وفضائله، وسيرة الرسول في الغزوات وتاريخ صدر الإسلام وإنتصارات الأمة على أعدائها، ويتحرك الخطباء والعلماء والفقهاء في أوساط الناس، ويخرجون مع الجند في المعارك ويشاركون بأنفسهم في قتال الأعداء في الدولة الخوارزمية لا مكانة للعلماء والفقهاء، بل عطلوا عن دورهم، فهذا من أسباب زوال الدولة الخوارزمية.

١١ ـ **المشروغ المغولي:** أخذ جنكيز خان قائد المشروع المغولي بأسباب النجاح المادية والقانونية، من قيادة متزنة ووضوح في الهدف، وإعداد الأفراد ومحاربة أسباب الفرقة داخل الشعوب المغولية والأخذ بأصول الاجتماع والاتحاد والوحدة وتقسيم الأدوار، والتخطيط السليم، والادارة الناجحة، والتنظيم المحكم وغيرها من الأسباب، وبالإضافة إلى تدهور أوضاع البلاد الإسلامية لتركهم شريعة ربهم ويمكن إجمال نجاح المشروع المغولي على الدولة الخوارزمية في النقاط التالية:

١. حنكة جنكيز خان وثباته وصبره وتواضعه.
٢. إطلاعه الكامل على أوضاع ممالك خوارزمشاه، واستغلال معلومات التجار المسلمين والمترجمين والعارضين بالمسالك والطرق.
٣. الياسا الجنكيزية وأحكامها الصارمة في حفظ النظام بين المغول وإخضاعهم جميعاً لأمر واحد.
٤. الاتفاق التام بين قواده وأبنائه، حيث لم يكن لأي منهم رأي بعد رأي جنكيز خان، وكانوا جميعاً أدوات لتنفيذ أهدافه، ولم تكن تساور أياً منهم فكرة الاستقلاق أو التفوق على الآخر.

٥. وحدة اللغة والعادات والتقاليد ووحدة الهدف بين جنود جنكيز خان وهو ما كان الخوارزميون يفتقرون إليه[١].

٦. قوة النظم الاجتماعية والحربية عند المغول مقارنة بالخوارزميين، فقد اهتموا بالكيف لا بالكم، فالسلطة العليا كانت في الخان الأعظم فهو المرجع الأخير في كل صغيرة وكبيرة، وهو الذي يشرف على تنظيم الجيش وإعداده ورسم الخطط والمواقع الحربية واختيار الأوقات المناسبة لها وكان الجيش المغولي منظماً أحسن تنظيم[٢]، وقد مر معنا ذلك هذه هي أهم أسباب سقوط الدولة الخوارزمية، وهي متداخلة ومتشابكة يؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالسبب السياسي يؤثر في العامل العسكري، ويتأثر به وهكذا.

سادساً: وفاة جنكيز خان:

أمضى جنكيز خان شتاء عام ١٢٢٥ إلى ١٢٢٦م والصيف التالي في مقره العام عند نهر تولا من إمبراطوريته الكبيرة، وكان محاطاً برفاق موثوقين، كال لهم المديح وقال لهم: لقد ساعتموني وجعلتموني قادراً على العمل الصحيح الذي يجب عمله، وأمسكتم بيدي بعيداً عن عمل الأمر الخطأ، وبفضل هذا السلوك من جانبكم فقد بلغت المرتبة العالية[٣].

كان هناك عمل ينتظر التنفيذ، وكان ذلك معاقبة ملك الطانغوط عاهل شي ـ شيا ((أوهسي ـ هسيا)) المتاخمة للتيبت لرفضه، إرسال جيشه للاشتراك في الحرب ضد خوارزم، وكان جنكيز خان يوم تحرك باتجاه الغرب قد قطع على نفسه عهداً بمحاسبة الملك الطانغوطي على ذلك الرفض رغم أنه تابع له، وحشد عام ١٢٢٦م كل جيوشه ضد الطانغوط، ولكن الثأر وحده لم يكن الدافع على محاربة أولئك القوم، بل كانت هناك أسباب وجيهة أخرى تدعو إلى إخضاع تلك المنطقة، كان صينيو إمبراطورية كين، الإمبراطورية الذهبية، بعد مغادرة جنكيز خان للصين قد نجحوا فاسترجعوا قسماً كبيراً من أقاليمهم، وكان موخولي الجنرال المغولي العامل في الصين نيابة عن

١ تاريخ المغول، عباس إقبال صـ١٣١.
٢ الدولة الخوارزمية والمغول صـ٢٤٠ ـ ٢٤٤.
٣ جنكيز خان صـ٢٧٥.

جنكيز خان، مشتبكاً في قتال مرير متواصل معهم، وأدرك جنكيز خان أن العوامل الجغرافية تجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، توجيه ضربة مميتة إلى الصينيين الذاهبيين بينما السلطة المغولية غير مستقرة ووطيدة في بلاد الطانغوط وكان اهتمامه بهذا الأمر من الشدة بحيث لم يلجأ لتحقيقه إلى أي من جنرلاته، وإنما عمد رغم تقدم سنه إلى قيادة الجيش بنفسه ويدلنا هذا القرار أنه كان لايزال مالكاً لجميع قواه البدانية والعقلية وبدأت الحرب في خريف عام ١٢٢٦م وكانت البداية ناجحة، غير أنه في فصل الشتاء وفي إحدى مناورات الصيد، جمح جواد جنكيز خان مرعوباً ببعض الخيول المتوحشة التي كانت وفيرة في تلك الأنحاء وألقى بالخان المغولي أرضاً وأصيب جنكيز خان على أثر ذلك بمرض شديد، الأمر الذي دعا أولاده المرافقين له والمتقدمين سناً من جنرالاته إلى التشاور فيما بينهم حول ما يجب عليهم عمله، قال أحدهم: الطانغوط شعب حضري يسكن المدن لا يغادرها، ومن الممكن أن نعود الآن إلى الوطن، لنرجع إلى هذا المكان بعد أن يستعيد الخان عافيته، ووافق المجتمعون على هذا الرأي، ولكن جنكيز خان رفض وقال: إذا نحن ذهبنا فسيظن الطانغوط يقيناً بأننا نخاف منهم، إنني أبقي للعلاج والشفاء في هذا المكان ولن نبرحه، وسنبدأ فنبعث إليهم برسالة، لنرى ما هو الجواب الذي سيعطونه، وقد وجهت إلى ملكة طانغوط الرسالة التالية: وعدت بأن تكون يدي اليمنى، ولكنك رفضت أن تذهب معي إلى محاربة الخوارزميين، وأضفت الإهانة إلى هذا العصيان، والآن وبعد أن افتتحت بلاد خوارزم فقد جئت أطلب منك ترضية، وكان جواب العاهل الطنغوطي على هذه الرسالة عبارات تحقير وإهانة، وقد غضب جنكيز خان لذلك غضباً شديداً، وهتف صارخاً: أمن الممكن بعد هذه الإهانة أن نذهب بعيداً؟ إني لن أذهب ولو كان وراء ذلك موتي. إني أقسم على هذا بالسماء الأبدية، وقد وفى بقسمه، فدمّر مملكة الطانغوط ودولتهم ولكنه مات في سياق ذلك، كان جنكيز خان مريضاً منذ سقطته الأخيرة عن ظهر الجواد أثناء الصيد وكان يشعر أن المرض يمتص منه الحياة[١]، ولما اشتد المرض عليه وعرف أن منيته قد حانت استدعى أولاده فأوصاهم أن يخلف ابنه أوكتاي لمزية رأيه المتين، وعقله الرزين، فجعله ولي عهده، فوافقوا على اختياره ، وهذا نص

١ جنكيز خان صـ٢٧٧ ، ٢٧٨.

وصيته لأولاده: اعلموا يا أولادي الجياد أنه قد قرب سفري إلى دار الآخرة، ودنا أجلي، وأنا بقوة الآلهة والتأييد السماوي، استخلصت مملكة عريضة بسيطة، بحيث يسلك من وسطها إلى طرف منها مسيرة سنة من أجلكم يا أولادي فهيأتها لكم، فوصيتي لكم أنكم تشتغلون بعدي بدفع الأعداء ورفع الأصدقاء وتكونون جميعاً على رأي واحد، حتى تعيشوا في نعمة ودلال وتتمتعوا بالمملكة[1]. وهناك في أقليم كان سو الصيني الحديث غير البعيد من مدينة تسن جو أسلم جنكيز خان الروح في النصف الأول من رمضان عام ٦٢٤هـ الموافق أغسطس ١٢٢٧م وقد حمل جثمانه إلى منغوليا ودفن في المنطقة التي يخرج منها نهر أونون وكورلين وبقي موضع الدفن سراً من الأسرار كما هي عادة المغول.

١ المغول في التاريخ د. العباد صـ١٣٨.

الفصل الثاني

سقوط بغداد على أيدي المغول

المبحث الأول

خلفاء جنكيز خان

أولاً: تقسيم ممالك جنكيز خان:

كـان لجنكيـز خـان زوجـات ومحظيـات كثـيرات ولكنـه كـان يفضـل علـيهن جميعـاً زوجتـه المسماة"يَسُونجين بَيْكي" ولهذا كان يعز عليه أبناءه من هذه الزوجـة ويقـدمهم عـلى أبنائـه الآخـرين، وقد أنجب جنكيز خان تسعة أولاد من بينهم أربعة كانوا من زوجته يسونجين وهؤلاء الأبنـاء الأربعـة هم: جوجي وجغتاي وأوكَتاي وتوُلوُي، وكان أبوهم جنكيز خان يعهد إليهم بجلائل الأعمال، كـما كـان يعتمد عليهم اعتمداً كلياً في إدراة إمبراطوريته المترامية الأطراف، فمثلاً نراه يكلف أكبر أبنائه"جـوجي" بالإشراف على شئون الصيد وتنظيم القصور وتزيينها، وأما ابنه الثـاني"جغتـاي" فقـد وكـل إليـه تنظـيم شئون القضاء والعمل على تنفيذ أحكام جنكيز خان وقوانينه وتوقيع الجزاء والعقاب عـلى المقصريـن، وجعل ابنه الثالث"أوكتاي" يختص بالشئون المالية والإدارية، ويقوم بتنظيم شئون الملك، وتدبير مصالح الناس، وفوض إلى ابنه تولوى مباشرة شئون الدفاع وإعداد الجيوش، وكان يدعى"الغ نويان[١]"، وقد رأى جنكيز أن خير وسيلة لتدريب أبنائه عـلى مبـاشرة مهـام الحكـم وتحمـل المسـؤوليات، هـو أن يقسـم إمبراطوريته بينهم وهو على قيد الحياة وقد تم التقسيم على النحو التالي:

١. كان نصيب جوجي وهو أكـبر أبنـاء جنكيـز خـان، الـبلاد الواقعـة بـين نهـر ارتـش والسـواحل الجنوبية لبحر قزوين وكان تلك البلاد عامة القبجاق ويطلق عليه إسم القبيلة الذهبيـة نسـبة إلى خيم معسكراتها ذات اللون الذهبي، وكان غالب أهلها مـن الأتـراك والـتركمان[٢]، ولمـا كـان جوجي قد توفي قبل وفاة أبيه قرر جنكيز خـان أن تكـون هـذه المنـاطق مـن نصـيب حفيـده "باتو بن جوجي" الذي اشتهر برقة العاطفة وعذوبة الحديث وشدة التعقل وأصبح رأس بيـت جنكيز خان وقام بدور حاسم فيما نشب من منازعات على ولاية العرش للإمبراطورية.

---

١ معنى الغ نويان، الأمير الكبير.

٢ السلوك للمقريزي نقلا عن المغول د. الصياد صـ١٦٤.

٢. اختص جغتاي ببلاد الأويغور، وأقاليم ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنه.

٣. نال أوكتاي ولي العهد، قسماً يقل عن نصيب إخوته وكان ينحصر في مناطق جبال تار باجاي، وأطراف بحيرة ألاجول وحوض نهر اليميل الذي يصب في تلك البحيرة ويقع غربي منغوليا.

٤. منغوليا، المنطقة الأصلية لجنكيز خان وآبائه وأجداده والتي تشمل وديان أنهار كرولين وأونن وأرخن ومنطقة قراقورم كانت من نصيب تولوي أصغر أبناء جنكيز خان، وقد استمر يحكم الإمبراطورية مدة عامين ٦٢٤ ـ ٦٢٦ هـ (١٢٢٧ ـ ١٢٢٩م) بصفته وصياً على العرش، طبقاً للعرف المغولي، وذلك بمساعدة ثلاثة من المستشارين إلى أن أنتخب الخان الجديد خلفاً لجنكيز خان[١].

ثانياً: إنتخاب أوكتاي خاناً أعظم للمغول:

بعد وفاة جنكيز خان وظل العرش خالياً من ملك لمدة عامين، وأخيراً رأى الأمراء الكبار ضرورة التعجيل بتنصيب خاناً جديداً، حتى تنصلح الأمور ولا يتطرق الفساد والخلل إلى أساس الملك، وقد استقر رأيهم على إتخاذ هذه الخطوة، فأوفدوا الرسل إلى الجهات والأطراف وصاروا يمهدون لعقد مجلس الشورى ((القوريلتاي))، ووفد على منغوليا الأمراء وقواد الجيش وظلوا هناك ثلاثة أيام في متعة وأنس وطرب، وشرعوا بعد ذلك في تبادل وجهات النظر بخصوص اختيار الخان الجديد، فاجتمعوا على تولي أوكتاي عرش الخانية، ولكنه حاول التنحي والاعتذار بأنه غير آهل لتولي هذا المنصب الخطير، وأن أخاه ((تولوي)) أجدر منه بمباشرة هذا الأمر، والالتزام به، لأنه الأخ الأصغر، وطبقاً لتقاليد المغول ورسومهم يقوم مقام الأب ويتعهد داره ةلأنه كان ملازماً لأبيه ليلاً ونهاراً ويعرف الأصول والقوانين ، غير أن أخوته وأقاربه، أغلقوا أمامه كل باب للاعتذار وأصروا عليه على أن يقبل هذا المنصب، وذكروه بوصية أبيه في هذا الشأن، فنزل على مشئتهم آخر الأمر، وعندئذ أخذ ((جغتاي)) يد أخيه ((أوكتاي)) اليمنى وأخذ تولوي يده اليسرى وأمسك عمه ((أوتجكين) بحزامه وأجلسوه على سرير الخانية ورفع الحاضرين داخل البلاط

---

١ المغول للصياد صـ١٦٥.

وخارجه وأعلوا تنصيب أوكتاي ((حاقانا)) أي خاناً أعظم للإمبراطورية المغولية، وذلك في القوريلتاي الذي عقد لهذا الغرض في ربيع سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) بعد ذلك قام الخان بتوزيع الأموال على الأقارب والعشائر. وطبقاً للرسوم والعادات المتبعة عند المغول، أمر بتقديم الأطعمة لمدة ثلاثة أيام متتالية صدقة على روح جنكيز خان، كذلك اختار أربعين فتاة حسناء من نسا الأمراء الذين كانوا يلازمونه وألبسوهن أفخر الثياب وزينوهن بالمرصعات والجواهر، ثم أرسلوهن على جياد أصيلة إلى جنكيز خان[1] ـ قتلوهن وذلك على على حد زعمهم ومعتقدهم ـ وعلى أثر تولية أوكتاي عرش المغول، قرر أن تكون كل الأحكام التي أمر بها جنكيز خان نافذة المفعول، وأن تبقى مصونة بعيدة عن التغيير والتبديل كذلك أصدر عفوا شاملاً عن جميع الأشخاص الذين ارتكبوا ذنوباً قبل جلوسه على العرش وهدد بانزال العقاب الصارم على كل من تحدثه نفسه بمخالفة القوانين بعد ذلك واهتم اهتماماً كبيراً باكمال الفتوحات التي بدأها والده جنكيز خان فكون الجيوش اللازمة لغزو إيران وأوربا والصين[2].

ثالثاً : المغول يواصلون زحفهم في البلاد الإسلامية:

لقد كان انتخاب أوكتاي بن جنكيز خان لأعظم للمغول إيذاناً بشن حملة جديدة على ممالك الدولة الخوارزمية والقضاء عليها نهائياً، على أن المغول الذين كانوا لا يزالون يحتلون منطقة ما وراء النهر، قاموا قبل ذلك بعدة حملات منظمة عل قوات السلطان جلال الدين منكبرتي، كانت تسفر تارة عن انتصار جلال الدين وتارة أخرى على انتصار المغول[3]، ولكنها على كل حال لم تؤد إلى نتيجة حاسمة، إلى أن عهد ((أوكتاي)) إلى قائده المشهور ((جُز ماغون نويان)) بقيادة الحملة على إيران، فسار على رأس جيش كبير تعداده ٥٠٠٠٠ جندي، مصطحباً معه عدداً من أمهر قادة المغول، وقد قدم الجميع إلى تركستان حيث طلبوا المدد من أمراء المغول وحكامهم في خوارزم، وبالإضافة إلى ذلك أضيفت إلى هذا العدد الكبير قوات أخرى غير نظامية

١ المغول صـ١٦٧ للصياد.

٢ المصدر نفسه صـ١٦٧.

٣ المصدر نفسه صـ١٧١.

من أسرى الأعداء، فبلغ عدد الجميع ١٠٠٠٠٠ جندي[١]، واستطاع المغول تدمير جيش جلال الدين منكبرتي كما مرَّ معنا، وبعد أن تخلصوا من أخطر عدو استطاع أن يواجههم ببسالة أصبح الطريق أمامهم ممهداً للفتح والغزو دون أن يعوقهم عائق، أو تقف في طريقهم عقبة، فاستطاعوا في يسر وسهولة أن يشنوا حملاتهم على معظم البلاد الإسلامية[٢]، وينشروا فيها الخراب والدمار، وكان هناك قائد خوارزمي اسمه ((أورخان)) وهو الذي استطاع أن ينقذ حياة جلال الدين عندما هاجمه المغول في آخر مرة قبل أن يفر منهزماً إلى كردستان كان هذا القائد لا يزال على قيد الحياة بعد مقتل جلال الدين، فسار على رأس ٤٠٠٠ جندي من الجنود الخوارزميين وصلوا إلى إربل، ومن هناك أسرع أورخان بمفرده إلى إصفهان حيث لقي حتفه على يد المغول وبعد ذلك تفرقت البقية الباقية من جنود جلال الدين علي جبال كردستان والجزيرة والشام، فقتل بعضهم على يد الأكراد وأعراب البدو واختار الباقون أن يعملوا كجنود مرتزقة في خدمة سلاطين الأيوبيين وسلاجقة الروم وصاروا لفترات طويلة سبباً في إثارة كثير من المتاعب في البلاد التي يعملون فيها[٣].

وقسم المغول قواتهم إلى ثلاثة جيوش رئيسية: فتح الجيش الأول ديار بكر، وأرزن الروم وميافارقين وماردين ونصيبين وسنجار، وقد تقدم هذا الجيش حتى بلغ ساحل الفرات، واشتط جنود المغول في القتل والسلب والنهب دون أن يجرؤ أحد من سكان هذه المناطق على مقاومتهم أو حتى مجرد سماع اسمهم وقد استولى الرعب والفزع على قلوب الأهالي إلى الحد الذي يتضح فيما ساقه ابن الأثير من قصص تذكي لهيب الأسى في النفوس وتثير الشجون، تلك القصص التي قد يتوهم القارئ أنها سيقت على سبيل المبالغة لولا أنها جاءت على لسان مؤرخ يعتبر ثقة[٤] فيما رواه، يقول: ولقد حكى عنهم حكايات يكاد سماعها يكذب بها من الخوف الذي ألقاه الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس حتى قيل إن الرجل منهم كان يدخل القرية

١ المصدر نفسه صـ١٧١.
٢ المغول للصياد صـ١٧٩.
٣ المغول للصياد صـ ١٧٩.
٤ المصدر نفسه صـ١٧٩.

أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد ولا يتجاسر أحداً أن يمد يـده إلى ذلك الفارس[1].

وأما الجيش الثاني فقد قصد مدينـة ((بـدليس)) وبعـد أن أحرقهـا اسـتولى عـلى بعـض القـلاع المحيطة بخلاط وغيرها.

وسار الجيش الثالث إلى منطقة أذربيجـان، وشرع يفـتح مـدنها الواحـدة تلـو الأخـرى، وأخـيراً صمم عل احتلال حاضرتها تبريز، فسلمت دون مقاومة في أوائل سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٢م، وذلك لأن الأهالي هناك لم يكونوا على وفاق مع السـلطان جـلال الـدين وعنـدما تأكـدوا مـن ضـعفه ثـاروا عـل الحكـام الخوارزميين وقتلوهم وقطعوا رؤوسهم وأرسلوها إلى المغول تقرباً إليهم، لهذا لم يكـد الجـيش المغـولي يقترب من أبواب تبريز حتى سارع الأهالي إلى تقديم فروض الطاعة، وقدموا مختلف الهـدايا مـن مـال وقماش إلى قواد المغول كما قبلوا شحنة من قبلهم، وتعهدوا بأن يدفعوا لهم جزية كبيرة كل سنة، فـما كان من المغول إلا أن وافقوا على هذه العروض، ودخلوا المدينة، ولكنها سلمت من التخريب، والتدمير إذا قيست بغيرها من المدن[2]، وفي عام ٦٣٢ ـ ٦٣٣هـ (١٢٣٤ ـ ١٢٣٥م) دخل المغول إقليم إربـل وغـزو حاضرته، إلا أن أهالي المدينة أسرعوا إلى القلعة، وتحصنوا فيها، فحاصرهـا المغـول أربعـين يومـاً وأخـيراً افتدى الأهالي أنفسهم بمبلغ كبير من المال ورحل المغول عنها عندما سمعوا أن المدد قد جـاء مـن بغداد، وبعد ذلك انتقلت القوات المغولية إلى العراق فية سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٦م) وواصـلت زحفهـا شمالاً حتى وصلت مدينة (سامراء)، فلما شعر الخليفة يتهدده الخطر، أسرع وأعلـن الجهـاد بعـد أن جمع مجلساً من العلماء أفتوا بأن الغزو في سبيل الـلـه خير من الحج إلى بيت الـلـه، فكان أن تجمع جيش كبير بقيادة مجاهد الدين الدواتدار[3]، واستطاع أن يهزم المغول بـالقرب مـن تكريـت ما بين دجلة وجبل ((حَمْرَين)) وأن يفك أسر عدد كبير مـن المسـلمين كـانوا قـد وقعـوا في أيـدي المغول أثناء قتالهم في إربـل، واقـام المسـلمون الاسـتحكامات المنيعـة حـول بغـداد وعـاد المغـول

١ المصدر نفسه صـ١٨٠.
٢ المغول صـ١٨٠.
٣ المصدر نفسه صـ١٨١ الدويدار في الأصل بمعنى الكاتب والمنش.

الكرة وقصدوا بغداد عام ٦٣٥هـ/١٢٣٧م حيث هزموا المسلمين في الخانقين، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وعاد الباقون إلى بغداد[١]، واستمر المغول في مهاجماتهم لجورجيا وأرمينية ودمروا وخرّبوا ولكن المغول عادوا وأحسنوا معاملة أرمينية وجورجيا وسلكوا معهما نفس السلوك الذي سلكوه مع فارس وكرمان وكذلك سيطرة المغول سيطر كاملة على الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية، دون أن يجدوا أدنى مقاومة، فسلمت سجستان وغزني وكابل وحدود السند، واستطاع المغول السيطرة على سلاجقة الروم عام ٦٤٠هـ/١٢٤٣م بعد انتصارهم عليهم في معركة عنيفة بموضع"كوسة طاغ" ووضع الأناضول بعدها في قبضة المغول وخضع السلطان غياث الدين لخان المغول وألتزم بدفع جزية سنوية له[٢].

١. فتح أقاليم الصين الشمالية: بعد وفاة جنكيز خان نجحت أسرة كين في استرداد جزء كبير من مملكتهم، واتخذت مدينة كاي فونج في هونان عاصمة لها، فلما تولى أوكتاي حكم المغول أعد العدة لفتح هذه البلاد، فسير جيوشه إليها سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م، وذلك في نفس الوقت الذي كان جنوده في إيران يتعقبون السلطان جلال الدين منكبرتي وقد تحرك أوكتاي بنفسه مع أخويه جغتاي وتُولي إلى سهل ((هوانج هو)) الذي يطلق عليه المغول ((فزاموران)) ثم قسموا قواتهم إلى جيشين رئيسيين: هجم أحدهم من الشمال بقيادة أوكتاي، واختار الآخر الهجوم على الجنوب بقيادة أخيه تولوي، وقد أسفرت المعارك عن انتصار المغول على قوات الصينيين انتصاراً ساحقاً وانتزعوا منهم مساحات شاسعة من الأراضي، وبعد ذلك عهد المغول إلى قائدهم المشهور ((سبوتاي)) بفتح العاصمة ((كاي فونج))، وسقطت هذه العاصمة الكبيرة في أيدي المغول وقتل معظم سكان المدينة ولم يفلت منهم إلا القليل وكان ذلك في سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م، وعلى أثر ذلك تقدم الوزير الحكيم ((يي ليو جوتساي)) إلى أوكتاي ملتمساً ألا يأمر بتدمير المدينة، بل يلحقها بالأملاك المغولية، واستجاب

١ الحوادث الجامعة لابن الفوطي صـ١١٣، المغول للصياد صـ١٨١.

٢ المغول صـ١٨٣.

لطلبه[1]، وعند قيام المغول بحملتهم على الصين الشمالية كان حكام الصين الجنوبية من أسرة ((سونج)) يقدمون المساعدات للمغول طمعاً في أن يكون لهم نصيب في أراضي الصين الشمالية، فلما خابت آمالهم، نشبت الحرب بينهم وبين المغول وكانت هذه فرصه سانحة لهم للقضاء على هذه الأسرة أيضاً، وضم أملاكها إلى حوزتهم ولكن تم هذا في عهد خلفاء أوكتاي[2].

٢. المغول في أوربا: بعد أن عاد أوكتاي من الصين مظفراً، كون جيشاً عظيماً تعداده ١٥٠٠٠٠ جندي أسند قيادته العليا إلى باتو بن جوجي، وكلفه بفتح بلاد الروس والجركس والبلغار واقاليم أوربا الشرقية، وكان القائد المغولي المشهور ((سبوتاي)) يتولى القيادة الفعلية وقد تمكن هذا الجيش من الاستيلاء على كل المنطقة الواقعة بين جبال الأورال وشبه جزيرة القرم التي كانت موطناً للباشقرد والبلغار، وهزم حكام روسيا، وأحرق مدينة موسكو، ودمر مدينتي سوزدال وفلاديمير، فاشتعلت النيران في سوزدال على حين شهدت فلاديرير عند سقوطها عنوة أفظع المناظر، إذ دارت المذبحة في كل السكان الذين لجأوا إلى الكنيسة وسط لهيب النار، وبعد ذلك إنسابت الجيوش المغولية إلى مملكة أوكرانيا، فقلبوا هذه المناطق رأساً على عقب وعاثوا فيها تخريباً وفساداً، واستولوا على عاصمتها ((كييف)) في سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠م) ودمروها تدميرا كاملاً ثم نهبوا إمارة غاليسيا الروسية، وبذلك سقطت في أيديهم روسيا بأكملها، واستمرت تلك المناطق الشاسعة خاضعة للمغول مدة قرنين ونصف ٦٣٦هـ ـ ٨٨٦هـ وبعد أن تم فتح روسيا، انقسمت جيوشهم إلى قسمين: زحف القسم الأول على بولندا، وتوجه القسم الثاني إلى المجر. وقد تمكن القسم الأول من التغلب على جيش متحالف من البولونيين والألمان يبلغ تعداده ٣٠٠٠٠ جندي، واستولى المغول على مدينة ((بِرسلاو)) وتقدموا حتى مدينة برلين، بعد أنزلوا بالسكان الفناء والهلاك وبالمدن الخراب والدمار وفي هذا الاقليم وحده، جمعوا أكياساً ملأوها بآذان ضحاياهم وقتلاهم فبلغ مجموعها ٢٧٠٠٠٠ أذن أخذوها معهم

---

١ المصدر نفسه صـ١٨٥.

٢ المصدر نفسه صـ١٨٦.

دليلاً على ما كانوا يفخرون به من بأس وسطوة[1]. وأما القسم الثاني فقد تغلب أيضاً في نفس الوقت على المجريين واستولى المغول على عاصمتهم ((بِست)) وتقدموا إلى فيينا من جهة وإلى سواحل بحر الأدرياتيك من جهة أخرى، وبينما المغول سائرون في فتوحاتهم على قدم وساق في أوربا إذا بالأنباء ترد إلى أوربا تعلن وفاة أوكتاي في سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م واستدعاء باتو وسبوتاي لحضور القوريلتاي والاشتراك في انتخاب الخان الجديد، وبذلك سلمت أقاليم غرب أوربا من خطر محقق كان ينتظرها على أيدي هؤلاء المغول[2]..

٣. وفاة أوكتاي قاآن: كان أوكتاي ولوعاً إلى أقصى حد بالشرب والإدمان على الخمر وقد تسبب هذا في ضعفه يوماً بعد يوم، ولم يتيسر الخاصة ولا الأصفياء منعه من ذلك، بل كان يكثر من الشراب رغماً عنهم وعندما كانت جيوشه تحارب في أوربا، ظل مدة سبع سنوات عاكفاً على اللهو والمتعة والشراب إلى أن أثر هذا على صحته، وفي إحدى الليالي عندما حان أجله، أفرط في الشراب، فتوفي وهو نائم وكان ذلك في سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م[3].

٤. النظم والإصلاحات التي تمت في عهد أوكتاي: قام أوكتاي بعدة إصلاحات في البلاد المغلوبة على أمرها فقد ترك زمام الأمور في الصين في يد وزيره الحكيم ((يي ليو جوتساي)) الذي استطاع أن ينشئ في هذا الاقليم إدارة حازمة منظمة، مستعيناً في ذلك بالكتاب والعمال من الصينيين والأويغوريين والإيرانيين وأهل التبت، كذلك نجح في تنظيم الشئون المالية، وضبط عمليات الداخل والخارج، وإلى هذا الوزير يرجع الفضل في إعداد ميزانية ثابتة للإمبراطورية المغولية، إذ ألزم الصينيين بأن يأدوا ضرائب معينة نقداً ونوعاً، بما يجري تقديره من اثواب الحرير وكميات الحبوب على حين يدفع المغولي عشرة في المائة مما يحوزه من قطعان الخيل والماشية والغنم، ثم أنه شيد في مدينة بكين ((خان باليغ)) مدارس لتخريج شباب ذوي خبرة وكفاءة، وفيها كانوا يدرسون تعاليم كونفوشيس[4]،

١ تاريخ مختصر الدول لابن العبري صـ٢٤٨، المغول للصياد صـ ١٨٧.
٢ المغول للصياد صـ١٨٨.
٣ المغول للصيام صـ١٨٨.
٤ المصدر نفسه صـ١٨٩.

ولما تم لأوكتاي فتح الصين الشمالية ولي عليها"محمود يلواج" كما نصب ابنه"مسعود بيك" حاكماً على إقليم ما وراء النهر، فقام الأب والابن بتعمير ما خربه المغول، وأخلصاً في خدمة الناس وإصلاح أحوالهم وإدارة تلك المناطق أحسن إدارة[1]، وكان أوكتاي يميل إلى التعمير والتشييد وشرع في عام ٦٣١هـ/١٢٣٤م في بناء عاصمة جديدة له وأمر بتشييد قصر شامخ في العاصمة الجديدة يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه رمية سهم بعيد المدى، وأقاموا في وسطه مقصورة عالية وأنجزوا ذلك المبنى في أكمل صورة وأتم نسق، ثم عكفوا على زخرفتة وتزيينه بمختلف فنون النقش والتصوير وامر بأن يبني كل من الإخوة والأبناء وسائر الأمراء والملازمين له دوراً فخمة حول هذا القصر فامتثلوا جميعاً الأمر وعندما تمت هذه المباني واتصل بعضها ببعض كونت مجمعاً عمرانياً رائعاً وكان ذلك بإشراف أمهر المهندسين الصينيين الذين قد أحضرهم معه[2]، وطور أوكتاي نظام البريد وفكر في حفر الآبار على امتداد دروب الصحراء في آسيا الوسطى[3].

٥. معاملة أوكاتي لرعاياه من المسلمين: كان أوكتاي ملكاً كريماً نبيل الخلق، طيب المعاملة للمسلمين على حين أن أخاه جغتاي، كان لا يكف عن إيذاء المسلمين، وإلحاق الضرر بهم، وكان يود أن يستأصل شأفتهم من سائر البلدان، وتنفيذاً لهذه السياسة درج على تحريض كبار الشخصيات المغولية من الأمراء والقواد لكي يوشوا بالمسلمين عند أوكتاي حتى يتغير عليهم ويعمل على الخلاص منهم، وذات يوم جاء راهب بوذي إلى الخان وقال له: إنه رأى جنكيز خان في المنام، وأنه يأمر ابنه أوكتاي بضرورة العمل على هلاك المسلمين في جميع الأقطار ويوصيه بألا يتردد لحظة واحدة في تنفيذ هذا المر لأن المسلمين أصبحوا الآن كثرة، وسوف يكون على أيديهم القضاء على ملك المغول، فلما سمع أوكتاي هذا الحديث، وكان ذكياً ومحباً للمسلمين، أدرك بفراسته على الفور أن هذا

---

١ المصدر نفسه صـ١٨٩.

٢ المصدر نفسه صـ١٩١.

٣ المغول د.العريني صـ١٦٢.

الكلام كذب ومحض افتراء، وأنه من إيحاء أخيه الظالم جغتاي، ثم دعا أوكتاي إلى عقد اجتماع كبير حضره كبار الشخصيات من المغول وحكام الممالك وأمر باستدعاء ذلك الراهب، وكلفه بأن يعيد سرد رسالة جنكيز خان على مسمع من الحاضرين ففعل، بعد ذلك قال أوكاتي: ينبغي أن تكون لكل دعوى حجة وبرهان حتى يتبين الصدق من الكذب، والصحة من السقم فأمن الجميع على ما قال أوكتاي، ثم توجه الخان إلى الراهب وسأله: أتعرف المغولية أم التركية أم الإثنين معاً؟!..فأجاب الراهب: إنني أعرف التركية فقط، عندئذ قال أوكاتي: إن جنكيز خان كان لا يعرف سوى المغولية وأنت لاتعرف سوى التركية، فبأية لغة إذن بلغك هذا الأمر: هل بالمغولية أو بالتركية[1]، فلما تأكد الراهب أنه قد افتضح أمره، لم يحر جواباً، واعتراه الخجل وعلى هذا اتضح للجميع كذبه ونفاقه ولكن أوكتاي لم يدع هذه الفرصة تمر دون أن يلقن هذا الراهب درساً لاذعاً في الأخلاق فقال له: إنني لن أستبيح دمك احتراماً لأخي جغتاي، فعد من حيث أتيت، وقل لجغتاي وزمرته: أن كفواً أيديكم عن إيذاء المسلمين لأنهم إخوتنا وأصدقاؤنا وقد استمدت مملكتنا القوة منهم وبعونهم أصبح العالم مسخراً لنا وطوع أمرنا. ويروى أيضاً أن المغول كانوا أصدروا قراراً بألا يذبح أي شخص الخراف والحيوانات الأخرى التي يؤكل لحمها كذبيحة المسلمين، بل تشق صدورها وأكتافها، وذات يوم اشترى رجل مسلم خروفاً من السوق، وأخذه إلى البيت، وأوصد الأبواب، ثم سَمّى ـ الله ـ وهم بذبحه، واتفق أن راه في السوق رجل تركي من القبجاق، فتعقبه وتسلق السطح، وقيد ذلك المسلم وسحبه إلى بلاط القآن، فأرسل القآن نوابه للتحقيق، وعندما أطلعوه على ما جرى قال: إن الرجل الفقير قد احترم القانون، وهذا التركي ترك القانون، لأنه صعد إلى دار الفقير، وبهذا نجا المسلم وقتل القبجاقي[2].

١ المغول د.الصياد صـ١٩٣.

٢ جامع التواريخ (٦٢/٢ ـ ٦٣) المغول للصياد صـ١٩٤.

٦. كيوك خان (٦٤٤ ـ ٦٤٧هـ = ١٢٤٦ ـ ١٢٤٩ م): على أثر وفاة أوكتاي، اضطربت أحوال المغول، واختلفوا على من يخلفه على العرش، فالأمير "باتو" ملك خانات روسيا ووداي القبجاق وأحد كبار الأمراء البارزين في أسرة جنكيز خان لم يكن يميل إلى أن يتولى عرش المغول أحد من أسرة أوكتاي، كذلك كان يرغب"كوتان" الابن الثاني لأوكتاي في تولي هذا المنصب بعد أبيه، وكان هناك فريق آخر يرى التقيد بوصية الخان الراحل، واختيار حفيده الطفل"شيرامون" ليكون خاناً، أعظم للمغول، ونظراً لمرور وقت طويل دون أن يستقر المغول على رأي معين بخصوص هذه المسألة وبسبب غياب كيوك الابن الأكبر عن المقر الأصلي للمغول، تهيأت الفرصة للطامعين في تولي هذا المنصب وكان من بينهم أوتجكين أخو جنكيز خان، إذ أراد أن يغتصب العرش بالقوة، وتوجه لتنفيذ هذه الخطة إلى معسكر القآن بجيش جرار مزود بالعدة والعتاد، فهاج الجند والأتباع، وما أن علمت توراكينا بهذا التدبير، حتى بادرت بإرسال الرسل إلى أوتجكين تعتب عليه في رفق، وتعمل على استمالته إلى جانبها، فنجحت في هذا السبيل، إذ ندم أوتجكين ومهد سبيل الاعتذار، ثم قفل عائداً إلى موطنه، ولكن توراكينا خاتون لم تأبه بهذه المحاولات، وصممت على أن يتولى ابنها كيوك هذا المنصب، ولبلوغ الغاية، صارت تبذل قصارى ما في جهدها لمدة تربو على أربع سنوات في سبيل اجتذاب الأقارب والأمراء بأنواع التحف والهدايا حتى ضمت الأغلبية إلى صفها، وصاروا رهن إشارتها، كذلك سنحت لها الفرصة للتخلص من كبار الشخصيات والولاة الذين كانوا ضد سياستها وكانت لها حاجبة تدعى"فاطمة" أصلها من مشهد طوس، ثم ألحقت بخدمتها، وكانت هذه المرأة غاية في الذكاء والكفاءة وموضعاً للثقة التامة، وكاتمة أسرار الخاتون، وكان عظماء البلاد يتخذونها أداة لتحقيق أغراضهم، فأخذت توراكينا خاتون تعزل بمشورة تلك الحاجبة الأمراء وأركان الدولة ممن كانوا يتقلدون المناصب الكبرى في عهد أوكتاي وعندما تأكدت"توراكينا خاتون" من أنها أصبحت تملك الورقة الرابحة ووجدت أن الظروف كلها مهيأة لنجاح خطتها، أرسلت الرسل إلى كبار

الشخصيات المغولية من جميع الأطراف والأمصار لحضور جلسة القوريلتاي التـي سـوف ينصـب فيها كيوك رسمياً خاناً أعظم[1].

٧. اختيار كيوك خان خاناً أعظم للمغول: وفي عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م انعقـد القوريلتـاي عـلى ضـفاف إحدى البحيرات غرب منغوليا، فاقترح أغلب الحاضرين انتخاب كيوك خاناً، أعظم للمغول ولكنه يعتذر محتجاً بضعفه ومرضه وفي النهاية قبل أن يتقلـد هـذا المنصـب نـزولاً عـلى رغبـة الأمـراء بشرط أن يكون الحكم وريثاً في سلالته، فوافق الجميع على ذلك، عندئذ خلـع الأمـراء قلانسـهم، وحلوا أحزمتهم، وأجلسوا كيوك عـلى العـرش ثـم أخـذوا الكـؤس، وركعـوا أمـام عرشـه، وأعلنـوا انتخابه رسمياً خاناً للمغول واستمروا يحتفلون بهـذه المناسـبة مـدة أسـبوع وكـان كيـوك يقـوم بتوزيع الأموال على الأمـراء ورؤسـاء الفـرق، وتـذكر المصـادر التاريخيـة أن القـآن عامـل رسـول الخليفة معاملة حسنة ولكنه سلمه رسالة كلهـا تهديـد ووعيـد، أمـا ممثلـوا الإسـماعيلية، فـراح يصب عليهم جام غضبه، وصرفهم أذلاء مهانين، ورد على زعيمهم رداً جافـاً إلى أقصى حـد[2]، كـان كيوك خان، رجلاً مغامراً محارباً ميالاً إلى الغزو والفتح، فهو أقرب الشبه إلى جده جنكيز خان ولم يكد يستقر في الحكم حتى لفت نظر الأمراء والنبلاء ضرورة مراعاة أحكام الياسا وتجنب الخروج عليها أو تحريفها وتأويلها وامـر بمعاقبـة الـذين قصروا في أداء واجـبهم أو ارتكبـوا مخالفـات في المدة السابقة على توليته، كذلك كلف أمـراءه وقـواده بتجـيش الجيـوش لفـتح الصـين الجنوبيـة وعهد بهذه المهمة إلى القائد المغولي سبوتاي، واوفـد"ايلجيكتـاي" إلى إيـران لفـتح بقيـة الممالـك الإسلامية، وجعل له السلطة العليا في الإشراف على شـئون الـروم والكـرج والموصـل وديـار بكـر، ونصّب محمود، حاكماً على ممالـك الخطـا، وولى الأمـير مسـعود بيـك، حـاكماً عـلى مـا وراء النهـر وتركستان، وعين الأمير أرغون والياً على بلاد خراسـان والعـراق وأذربيجـان وشروان واللـور وكرمـان وفارس وطرف الهند، وقلد السلطان"ركن الدين" سلطنة الروم لأنه قدم إلى منغوليا بمناسبة تنصـيبه

---

١ المغول للصياد صـ١٩٦.

٢ المصدر نفسه للصياد صـ١٩٦.

إمبراطوراً للمغول وعزل أخاه الأكبر"عز الدين" وقرر أن يكون داود الصغير المعروف بـابن فيـز ملكاً محكوماً لداود الكبير صاحب تفليس[١].

أ ـ سياسـة كيـوك خـان مـع المسـيحيين: كانـت توراكينـا خـاتون تـدين بالمسـيحية، ولهـذا عهـدت إلى الأمير"قداق" المسيحي بالإشراف على تربية ابنها كيوك منذ الصغر، ولما اعـتلى عـرش المغـول قـرب إليـه"جينقـاي" الـذي كـان يعمـل مستشـاراً ووزيـراً لأبيـه، وكـان مـن قبيلـة كرايـت، يـدين أيضـاً بالمسيحية، ولم يكتف كيوك بهذا، بل قلده منصب الوزارة، فكان لهـذين الـرجلين تـأثير كبـير عـلى الخان المغولي، إذ صار يعطف عطفاً شديداً على رعاياه من المسـيحيين مـن أمثـال الأرمـن والكـرج والروس[٢]، ويذكر المؤرخ بروان أن الجمعية العامة التي تمّ فيها انتخـاب كيـوك قـد امتـازت بـوفرة عدد من حضرها من ممثلي الدول الأجنبية والشعوب الخاضعة لنفوذ المغـول فقـد حضرهـا اثنـان من الكهنة بعث بهـما البابـا بخطابـات يرجـع تاريخهـا إلى أغسـطس سـنة ١٢٤٥م= ٦٤٣هـــ وقـد استقبل هذان الكاهنان خير استقبال[٣]، غـير أن كيـوك عنـدما قـرأ رسـالة البابـا طلـب إلى البابـا أن يعترف بسـيادته العليـا وأن يقـدم إليـه مـع سـائر أمـراء الغـرب ليحلفـوا لـه يمـين التبعيـة، فلـما عاد"يوحنا" إلى البابا في نهاية سنة ١٢٤٧م قدم إليه هذه الرسالة المخيبة للآمال، وأرفق بهـا تقريـراً مفصلاً ذكر فيه أن المغول لم يخرجوا إلا للغزو والفتح[٤]. وخلاصـته القـول أنـه في عصر كيـوك خـان ارتفع شأن المسيحيين على حين أنه لم يرتفع صوت للمسلمين وذلـك بتـأثير أمـه مـن جهـة وكانـت تدين بالمسيحية وبتأثير وزيريه المسيحيين من جهة أخرى، كذلك وجد الأطباء المسـيحيون الطريـق ممهداً للإشراف على الشئون الطبية في البلاط المغولي وكان من أثر هذه السياسة أن شـاعت بعـض التقاليد المسيحية في الأوساط المغولية[٥].

١ تاريخ مختصر الدول صـ٢٥٧، المغول صـ١٩٨.
٢ المغول للصياد صـ١٩٩.
٣ المصدر نفسه صـ٢٠٠.
٤ المصدر نفسه صـ٢٠٠.
٥ المغول، للصياد صـ٢٠١.

ب ـ وفاة كيوك خان، ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩م: اضطربت أحوال المغول، واختلفوا على من يخلفه على العرش فالأمير"باتو" ملك خانات روسيا ووادي القبجاف، وأحد كبار الأمراء البارزين في أسرة جنكيز خان لم يكن يميل إلى أن يتولى عرش المغول أحد من أسرة أوكتاي[1]، ولم يحضر إلى منغوليا لحضور جلسة القوريلتاي التي نصب فيها كيوك رسمياً خاناً أعظم وعندما تولى كيوك خان الحكم أخذ على عاتقه أن يخضع"باتو" بسبب الموقف العدائي منه بصفة خاصة ومن أسرة أوكتاي بصفة عامة ولكنه لم يكد يصل إلى حدود سمرقند حتى وافاه الأجل المحتوم في ربيع الثاني سنة٦٤٧ هـ/١٢٤٩م، أما والدته توراكينا خاتون، فقد توفيت قبله بعدة أشهر[2].

٨. اختيار منكو خاناً أكبر على العرش المغولي: على أثر وفاة كيوك خان، أراد أوكتاي وأتباعه أن يقيموا"شيرامون" إمبراطوراً للمغول ولكن لاتخاذ هذه الخطوة، كان لابد من الحصول على موافقة الأمير"باتو" باعتباره أكبر الأمراء سناً ومقاماً فأصبح من حقه النظر في اختيار الملوك وتنصيبهم وعلى هذا أرسلوا إليه يطلبون أن يحضر إلى منغوليا لعقد القوريلتاي وتنصيب الخان الجديد، فرد عليهم معتذراً بعدم قدرته على السفر إلى منغوليا بسبب مرضه، وفي نفس الوقت وجه الدعوة إلى كبار الأمراء والقواد للحضور إلى القبجاق حيث يقيم، والإشتراك في القوريلتاي لانتخاب الخان، ولكن أبناء أوكتاي وجغتاي عارضوا هذا الإقتراح، وأصروا على أن يعقد القوريلتاي في المقر الأصلي لجنكيز خان جرياً على العادة المتبعة وعلى هذا امتنعوا على الذهاب إلى القبجاق واكتفوا بأن أنابوا عنهم بعض المندوبين وأما منكو وإخوته فقد لبوا دعوة باتو، وأسرعوا إلى القبجاق حيث عقد القوريلتاي ونودي بمنكو إمبراطوراً على المغول وتلقب بلقب"منكو قآن" وبهذا انتقل الحكم إلى أولاده تولوي الذين يمثلون الفرع الثاني من أسرة جنكيز خان ولكن لما لم يكن جميع الأمراء ممثلين في هذا الإجتماع، أُتفق على أن يعقد القوريلتاي مرة ثانية في مطلع السنة الجديدة ويحضره الأمراء والعظماء

١ المصدر نفسه صـ١٩٥.

٢ المصدر نفسه صـ١٩٥.

لإقرار تنصيب"منكّو" خاناً أعظم للمغول بصفة رسمية وعقد القوريلتاي مرّة أخرى في شهر ذي الحجة ٦٤٨هـ/ابريل١٢٦٠م في منطقة قراقورم، وذلك رغم أنف المعارضين وفيه أعلن انتخاب منكو رسمياً ولكن المناوئين لسياسة منكو لم يخضعوا لهذا القرار، وحاولوا تدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم بالقوة، فعلم بذلك منكّو في الوقت المناسب وتمّ القبض على المتآمرين قبل تنفيذ خططهم، ولما حقق معهم اعترفوا بجرمهم وكان منكو قآان ينوي الصفح عنهم إلا أن الأمراء حذروه مغبة التهاون معهم، وأصروا على ضرورة الاقتصاص منهم، وأخيراً طلب مشورة محمود يلواج، فسرد إليه قصة الأسكندر وأرسطو ومؤداها أنه عندما استولى الأسكندر على أكثر ممالك العالم، أراد أن يسير نحو الهند، غير أن أمراء الدولة وأركانها خرجوا على طاعته وتخلفوا عن متابعته، وأخذ كل منهم يعلن الاستقلال والاستبداد، فعجز الأسكندر عن علاج هذه الوضع وأرسل رسولاً إلى وزيره أرسطو الذي لا نظير له، وأطلعه على عصيان أمرائه وتمردهم، وسأله عن إيجاد حل لهذه المسألة فدخل أرسطو مع الرسول إحدى الحدائق، وأمر بأن تُجتَثَّ الأشجار الكبيرة من جذورها وأن تغرس شجيرات صغيرة، فقال الأسكندر: لقد أجاب، وأنت لم تفهم مقصوده، وأهلك الأسكندر ـ على الفور ـ الأمراء المستبدين، ونصب أبناءهم في أماكنهم، فاستحسن منكوقاآن هذا القول وأمر بضرب أعناق الأمراء المعتقلين ووضع جمعاً آخر في مكانهم.[1]

أ ـ إصلاحات منكوقاآن الداخلية:

اهتم منكوقاآن بالإصلاحات الداخلية والنظم الإدارية عناية كبيرة فنجح في هذا السبيل نجاحاً منقطع النظير، وكان من أحسن الحكام الذين ساسوا المغول سياسة بارعة ، ورغم حرصه على التمسك بأحكام الياسا والمحافظة على آداب المغول، فإنه نظراً لطول معاشرته للأمم المتمدنة ولكثرة إختلاطه بالمتحضرين في الأمم المغلوبة، فقد تأثر نوعاً ما وكان يكره الترف، وينكر المباذل، وليس له هواية سوى الصيد، ومن صفاته أنه كان بالغ النشاط بارعاً في تسيير الإدارة متوقد الذكاء، جندياً باسلاً

١ المغول للصياد صـ٢٠٩ جامع التواريخ ٢٩٦/٢١ ـ ٢٩٧.

وسياسياً ماهراً، وبهذه الخصال أعاد القوة والحيوية إلى ما أقامه جده جنكيز خان من نظم ووهب الإمبراطورية المغولية أساليب إدارية محكمة، وجعل منها دولة بالغة القوة[1].

ب ـ تسويته بين طوائف الإمبراطورية المغولية:

كان لا يفرق بين طائفة وأخرى، وعامل المسيحيين والمسلمين والبوذيين على قدم المساواة وكفل الحرية للجميع، إذ سمح للواحد منهم بأن يناظر الآخر يجادله في المسائل الدينية في حرية تامة، وعلى الرغم أن منكو كان يدين بعقيدة أسلافه الشامانية، فإنه كان يشهد الأعياد البوذية والمسيحية والإسلامية دون تفرقة أو تمييز، إذ سلم بوجود إله واحد يعبده كل إنسان حسبما شاء[2]، ومنكو قاآن في هذا يسير على سياسة والدته ((سُرقويتي بيكي)) التي أثرت فيه تأثيراً كبيراً، فمع أن هذه المرأة كانت تدين بالمسيحية، إلا أنها سلكت سلوكاً حسناً مع الرعايا المسلمين، وكانت شديدة العطف عليهم، لا سيما الأئمة ومشايخ الإسلام، إذ أغدقت عليهم الكثير من العطايا والهبات، ولم تقف عند هذا الحد بل أنها أقامت في بخارى مدرسة عل نفقتها الخاصة، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة وولت عليها شيخ الإسلام سيف الدين الباخرزي، وعينت المدرسين، ورعت شئون الطلبة، وكانت تتصدق على الفقراء والمساكين من المسلمين، وقد استمرت على هذا النحو من فعل الخيرات إلى أن توفيت في شهري ذو الحجة سنة ٦٤٩هـ[3] مارس ١٢٥١م[4].

جـ ـ مشروع التحالف بين المغول والمسيحيين:

قابل منكوقاآن سفير لويس باحترام وأكرم وفادته وسمح له بأن يناظر العلماء البوذيين والمسلمين في حرية تامة، إلا أنه لم يعطه جواباً مقنعاً فيما يتعلق بتكوين إتحاد مع المسيحيين، بل أنه طلب إليه أن يسارع لويس مع جميع الملوك المسيحيين إلى الدخول في طاعته، وقد مكث ((روبروق)) خمسة أشهر في قراقوم وفي النهاية عاد إلى

---

١ المغول صـ٢١٠
٢ المصدر نفسه صـ ٢١١.
٣ المصدر نفسه صـ٢١١.
٤ المصدر نفسه صـ٢١١.

الشام حيث قابل لويس في مدينة عكا وقدم إليه الرسالة[1]، كان الخان المغولي الكبير لا يقبل أن يكون سيد في العالم سواه، وكانت سياسته الخارجية بالغة البساطة، إذ أن أصدقاءه يعتبرون أتباعاً له، أما أعداؤه فينبغي استئصال شأفتهم، أو إخضاعهم حتى يكونوا أتباعاً له، وكل ما استطاع ((وليم روبروق)) أن يحصل عليه، هو أنه استخلص وعداً صادقاً بأن يتلقى مساعدة طالما قدم أمراؤهم لبذل الولاء لسيد العالم. على أن ملك فرنسا لم يستطع التفاوض على أساس هذه الشروط وغادر ((روبروق)) قراقوم في أغسطس عام ١٢٥٤م عائداً إلى بلاط باتو بعد أن اخترق آسيا الوسطى، ومن ثم إجتاز القوقاز وبلاد السلاجقة بالأناضول إلى أرمينية ومنها إلى عكا ولقى ((روبروق)) في كل مكان من الاحترام والتبجيل ما يليق برسول يقصد الخان الكبير، ومهما يكن من أمر فإن هذه الرحلة قد أمدت ((وليم روبروق)) بمعلومات كثيرة مفيدة عن المغول، ووصف لنا عاداتهم وطبائعهم وحياتهم الإجتماعية، وغير ذلك مما صادفه في رحلته، كما وصف جميع القبائل والجماعات التي كان يتكون منها العنصر المغولي والتي أخضعها جنكيز خان[2].

د ـ سياسة منكوقاآن الخارجية: في السنة التالية لحكم منكوقاآن، وبعد أن استقرت الأحوال الداخلية وتخلص من جميع المناوئين لسياسته، وجه عنياته نحو الغزو والفتح والعمل على توسيع رقعة الإمبراطورية، فصمم على فتح البلاد التي لم يتيسر فتحها من قبل وقد دفعه هذا التصميم إلى تجهيز حملتين كبيرتين، نصب أخاه الأصغر ((هولاكو)) على رأس إحداهما وعهد إليه بالقضاء على الإسماعيلية وإخضاع الخليفة العباسي، ونصب أخاه الأوسط ((قوبيلاي)) على رأس الحملة الأخرى بفتح أقاليم الصين الجنوبية، واستعد منكوقاآن نفسه للسير بحملة أخرى بقصد الاستيلاء على بعض الأقاليم في هذه البلاد الفسيحة[3].

---

١ الدولة الخوارزمية والمغول صـ٢٤٨، المغول ٢١٢ للصياد.

٢ تاريخ مفصل إيران، عباس إقبال (١٦٠/١).

٣ المغول للصياد صـ٢١٦.

هـ ـ وقفة للتحليل:

١. وصلت حدود دولة التتار في عام ٦٣٩هـ من كوريا شرقاً إلى بولندا غرباً، ومن سيبيرا شمالاً إلى بحر الصين جنوباً وهو إتساع رهيب في وقت قياسي وأصبحت قوة التتار في ذلك الوقت هي القوة الأولى في العالم بلا منازع.

٢. تولى قيادة التتار بعد ((أوكتاي)) ابنه ((كيوك بن أوكتاي))، وقد كان لهذا الخاقان الجديد الرأي في تثبيت الأقدام في البلاد المفتوحة بدلاً من إضافة بلاد جديدة قد لا يقوى التتار على حفظ النظام فيها، والسيطرة على شعوبها وجيوشها، ومن ثم فقد توقفت الفتوحات التتارية، وفي عهد هذا الخاقان، وإن ظل التتار يحافظون على أملاكهم الواسعة.

٣. ابتلع التتار في فتوحاتهم السابقة النصف الشرقي للأمة الإسلامية، وضموا معظم الأقاليم الإسلامية في آسيا إلى دولتهم وقضوا على كل مظاهر الحضارة في هذه المناطق، كما قضوا تماماً على أي نوع من المقاومة في هذه المناطق الواسعة، وظل الوضع كذلك لسنوات كثيرة لاحقة.

٤. ظل القسم الأوسط من العالم الإسلامي ـ والذي يبدأ من العراق إلى مصر ـ مفرقاً مشتتاً، لا يكتفي بمشاهدة الجيوش التتارية وهي تسقط معظم ممالك العالم في وقتهم، وإنما إنشغل أهله بالصراعات الداخلية فيما بينهم وإزداد تفككهم بصورة كبيرة، كذلك كان القسم الغربي من العالم الإسلامي الذي يضم ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وغربي أفريقيا مفككاً تماماً.

٥. ذاق الأوربيون النصارى من ويلات التتار وذبح منهم مئات الآلاف، ودمرت كنائسهم وأحرقت مدنهم، بل هددوا تهديداً حقيقياً أن يصل التتار إلى عقر دار الكاثوليكية النصرانية في روما.

٦. ومع أن النصارى رؤوا أفعال التتار إلا أن ملوك النصارى في أوربا الغربية (فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وإلمانيا) كانوا يرون أن هذه مرحلة مؤقتة سوف تقف عند فترة من الفترات.. ولذلك كان ملوك الصليبيين على إستعداد كامل للتعاون مع التتار[١] ضد المسلمين.

---

١ قصة التتار صـ٩٣.

٧. ـ أخذت عقائد الجيش التتاري في التغير بعد الحملات التي وجهوها إلى أوربا، فقد تزوج عدد كبير من قادة المغول من فتيات نصرانيات، وبذلك بدأت الديانة النصرانية تتغلغل نسبياً في البلاط المغولي، وهذا ساعد أكثر على إمكانية التعاون بين التتار والصليبيين.

٨. إستمرت الحروب الصليبية الأوربية على المسلمين في مصر والشام، وكانت مصر والشام في ذلك الوقت تحت حكم الأيبوبيين، ولكن كانت هذه هي آخر أيام الأيوبيين، وقد دار الصراع بينهم وبين بعضهم، وأصبح المسلمون بين شقي الرحى بين التتار من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى، ولم يمتنع المسلمون من الصراع فيما بينهم.

٩. في سنة ٦٤٠هـ توفي المستنصر بالله الخليفة العباسي، وتولى الخلافة ابنه ((المستعصم بالله)) وكان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثين عاماً، وهو وإن كان قد اشتهر بكثرة تلاوة القرآن وبالنظر في التفسير والفقه، وكثرة أعمال الخير، إلا أنه لم يكن يفقه كثيراً في السياسة، ولم يكن له علم بالرجال، فاتخذ بطانة فاسدة، وإزداد ضعف الخلافة عما كانت عليه وسنأتي بإذن الله تعالى بذكره بالتفصيل.

١٠. لم يبق فاصلا بين المغول والخلافة العباسية في العراق إلا شريط ضيق في غرب إقليم فارس (غرب إيران الآن)، وهو على قدر من الأهمية وإن كان ضيقاً، إذ كانت تعيش فيه طائفة الإسماعيلية الشيعية الخطرة، وكانوا أهل حرب وقتال، ولهم قلاع وحصون، فضلاً عن طبيعة المكان الجبلية، وكانوا على خلاف دائم مع المذهب السني وكراهية شديدة له وكانوا يتعاونون مع أعداء الإسلام كثيراً، فمرة يراسلون التتار ومرة الصليبيين، وكان المغول يدركون وجودهم، ومع ذلك فهم لا يطمئنون لهم، وما كانوا يرغبون في بقاء قوة ذات قيمة في أي مكان على ظهر الأرض[١].

---

١ قصة التتار د. راغب السرجاني صـ٩٤.

رابعاً : هولاكو والقضاء على الإسماعيلية:

لم يكن أمام المغول بعد استيلائهم على أملاك الدولة الخوارزمية أي قوة تستطيع اعتراض طريقهم نحو الغرب وكان الحكام المسلمون يعرفون تمام المعرفة أهمية الدولة الخوارزمية، كحاجز قوي بينهم وبين المغول وعلى كل فقد حرص منكو خان على إعداد حملة هولاكو إعداداً محكماً يكفل لها النجاح، فقد ارسل المرشدين ليختبروا الطريق الذي سوف تمر منه عساكر هولاكو من قراقورم حتى شاطئ نهر جيحون، فأقاموا الجسور على الأنهار العميقة، وعلى مجاري المياه السريعة[1]، ثم رسم لأخيه الخطة التي كان عليه أن يتبعها حيث قال له: إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها فينبغي أن تسير من توران إلى إيران وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه في الكليات والجزيئات وخص كل من يطيع أوامرك ويتجنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر بلطفك وبأنواع عطفك وأنعامك، أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به، وابدأ بإقليم قهستان في خراسان، فخرب القلاع والحصون، فإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرض له مطلقاً، أما إذا تكبر وعصى فالحقه بالآخرين من الهالكين، كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد، وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً، وأن تخفف عن الرعية التكاليف والمؤن، وأن ترفه عنهم، وأما الولاية الخربة، فعليك أن تعيد تعميرها في الحال، وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة، وشاور دقوز خاتون في جميع القضايا والشئون[2]، وخرج هولاكو على رأس جيشه من قراقورم عاصمة المغول في سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م وفي طريقه لقي مساعدة كاملة من أمراء المغول الذين أعدوا له المأكل والمشرب في جميع المراحل وحرصوا على أن ينظفوا الطريق التي تقرر أن يسلكها جيش هولاكو من الحجارة والأشواك كما أعدوا السفن له لعبور الأنهار الكبيرة، كما قام الأمراء

١ جامع التواريخ(٢٣٥/١) جهاد الممالك ضد المغول صـ٤٦.

٢ جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين صـ٤٧.

والنبلاء في تلك النواحي بحشد أعداد كبيرة من الجند للإنضمام إلى جيش هولاكو[1]، وفي شهر شعبان سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م وصل جيش هولاكو إلى سمرقند، وأمضى بها أربعين يوماً ثم توجه إلى مدينة كش، وهناك وصله كافة الأمراء والأكابر في خراسان وقدموا خضوعهم وهداياهم له وأقام بهذه المدينة قرابة شهر وجه خلالها عدة رسائل إلى الملوك والسلاطين في البلاد المجاورة طلب منهم معاونته في تحطيم قلاع الإسماعيلية والقضاء عليهم وفي مقابل ذلك تعهد لهم بأن يبقيهم على ولايتهم ولا يتعرض لهم بسوء، وهددهم بأن امتناعهم عن مساعدته يجرهم إلى الهلاك وأنه سينزل بهم ما ينزل بالإسماعيلية[2].

١ ـ نشأة قلاع الإسماعيلية: حرص الفاطميون على نشر دعوتهم الإسماعيلية في أرجاء الدولة الإسلامية، ولقيت دعوتهم نجاحاً في فارس والعراق، وإزداد نفوذ الإسماعيلية في عصر السلطان السلجوقي ملكشاه، حتى استولوا على أصبهان، ونشروا فيها دعوتهم في عهد زعميهم أحمد بن عبد الملك بن عطاش، ومن تلاميذه الحسن بن الصباح من أصل يمني، نزح أبوه إلى الكوفة، ثم إلى قم، ومن قم، إلى الري، حيث ولد الحسن وعرف أصول الدعوة من عبد الملك بن عطاش ـ داعية المذهب في العراق ـ ومن سنة ٤٧١هـ وصل إلى مصر، بعد رحلة مليئة بالأخطار هدفه مقابلة المستنصر ـ الإمام الفاطمي ـ وبقي في مصر أكثر من سنة، لم يحظ خلالها بمقابلة الإمام، وغادر مصر في سفينة مع جماعة من الفرنجة، وأدى هياج البحر إلى إتجاه السفينة إلى حلب، ومنها عاد إلى أصفهان، ومنها إلى قلعة آلموت، وطارده نظام الملك الوزير السلجوقي الكبير مؤسس المدارس النظامية التي تحدثنا عنها في كتابنا السلاجقة، وتمكن أنصاره من السيطرة على آلموت ـ أي عش العقاب ـ واستولى على القلعة سنة ٤٨٣هـ[3]، ولما استقر الحسن الصباح في آلموت أرسل الدعاة إلى الأطراف وكان الحسن الصباح يدعو إلى نزار بن الخليفة المستنصر لأن المستنصر قد خلع ابنه الأكبر نزار من ولاية العهد، وأسندها إلى ابنه المستعلى،

---

١ المصدر نفسه صـ٤٧.

٢ جامع التواريخ(٢٤٠/١) جهاد المماليك ضد المغول صـ٤٧.

٣ الدول المستقلة في المشرق صـ١٩١.

ورفض الحسن الصباح خلع الابن الأكبر نزار، لأن ذلك يتنافى مع عقائد المذهب الإسـماعيلي، الـذي يعطي ولاية العهد للإبن الأكبر، وكان الحسن الصباح في مصر أثناء خلع المستنصر للإبن الأكبر نزار، ولما رفض هذا الإجراء سجن في مصر، ثم غادرها، ودعا إلى نزار في البلاد التي سيطر عليهـا[١]، وعمـل الحسن بن الصباح على توسيع رقعة دولته بعد وفاة السلطان ملكشاه، وكان دولة الحسن الصباح على العقيدة الإسماعيلية الشيعية متطرفة في العقيدة، وانحرفوا عن الإسـلام الصـحيح، وللـرد عـلى مـزاعم الإسـماعيلية الباطنيـة ألـف أبـو حامـد الغـزالي كتابـه الموسـوم بفضـائح الباطنيـة داحضاً لإدعاءاتهم[٢]، وقد فصلت الحديث عنه في كتابي عن السلاجقة.

٢ ـ اقتلاع جذور الدولة الاسماعيلية:في ذي الحجة سنة ٦٥٣هــ /ينـاير ١٢٥٦م، اصـدر هولاكـو أوامـره بتوقف جميع السفن والزوارق، وإقامة جسر على نهر جيحون حيث عـبرت قواتـه النهـر متوجهـة إلى قلاع الإسماعيلية ونزل في مرعى شبورقان بالقرب من مدينة بلخ وامضى هولاكو الشتاء هنـاك[٣]، ثم وصل هولاكو بعد ذلـك عـلى رأس الجـيش الـرئيسي إلى قـلاع الإسـماعيلية الحصـينة، واسـتطاع بالحيلة تارة، وبالقوة تارة أخرى أن يستولى عليها الواحدة تلو الأخرى حتى أنتهى من آخر قلاعهم قلعـة المـوت في أواخـر سـنة ٦٥٤هــ/١٢٥٧م حيـث لم يسـتطع زعـيم الإسـماعيلية ركـن الـدين خوارزمشاه، مقاومة هولاكو، فاستسلم له وقبل الأرض أمامه وبذلك تمكن المغول من الاستيلاء على كل قلاع الإسماعيلية التي بلغ عددها نحو المائة، والتـي اتخـذها هـؤلاء الإسـماعيليون أوكـاراً لهـم سنين طويلة، ولم يكتف هولاكو بلاستيلاء على قلاع الإسماعيلية في تلك المناطق بل طلب مـن ركـن الدين خورشاه تسليم جميع قلاع الإسماعيلية في بلاد الشام، فاستجاب له وراسل مندوبين من قبله إلى بلاد الشام ومعهم رسل هولاكو لدعوة النـاس هنـاك إلى التسـليم عنـدما تصـل إلـيهم الرايـات المغولية[٤].

١ تاريخ مصر، ابن ميسر صـ٢٦ وما بعدها.
٢ دولة السلاجقة للصلابي صـ١٣٠.
٣ جهاد المماليك للغامدي صـ٤٨، نقلاً عن جامع التواريخ.
٤ المصدر نفسه صـ٤٩.

خامساً: تحرك الجيوش المغولية نحو بغداد:

بعد أن قضى هولاكو على طائفة الإسماعيلية، سار لتحقيق هدفه الثاني، الذي رسمه له أخوه منكو خان، وهو الإستيلاء على بغداد، والقضاء على الخلافة العباسية، التي أدركتها الشيخوخة وظهرت عليها مظاهر الضعف والإنهيار، والواقع أن جذور الضعف والتفكك قد امتدت إلى جسم الخلافة العباسية قبل مجئ المغول بمدة طويلة بسبب عوامل كثيرة ذكرنا بعضها في ما مضى وسنذكر البعض الآخر بإذن الله تعالى. لقد تفككت الروابط القوية التي كانت تربط الخلافة العباسية بمختلف الأمصار الإسلامية، حيث نشأت دول عديدة وإمارات مستقلة في قلب الخلافة العباسية وأطرافها وعندما بدأ المغول زحفهم على الممالك الإسلامية في الشرق كان الخليفة العباسية في ذلك الوقت هو المعتصم بالله (٦٤٠/١٢٤٢م/٦٥٦هـ /١٢٥٨م)[١].

١ ـ سير الحملة إلى بغداد:

بعد أن حقق هولاكو خان هدفه الأول، وهو القضاء على طائفة الإسماعيلية سار لتحقيق هدفه الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية وفي رمضان سنة٦٥٥هـ/١٢٥٧م أرسل هولاكو رسولاً إلى الخليفة مصاغة في قالب من التهديد والوعيد جاء فيها: لقد أرسلنا إليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة وطلبنا مدداً من الجند، ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند وكانت آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة، فلم ترسل إلينا الجند والتمست العذر ولا بد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام، ما حل بالعلم والعالمين على يد الجيش المغولي، منذ عهد جنكيز خان[٢]، إلى اليوم، والذي حاق بأسر الخوارزمية والسلجوقية وملوك الديالمة والاتابكية وغيرهم ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة، وذلك بحول الله القديم الدائم، ولم يكن باب بغداد مغلقاً في وجه أية طائفة من تلك الطوائف، واتخذوا منها قاعدة ملكاً لهم، فكيف يغلق في وجهنا رغم مالنا من قدرة وسلطان؟ ولقد نصحناك من قبل، والآن نقول لك احذر الحقد، والخصام ولا تضرب المخصف

---

١ جهاد المماليك صـ٥٠.

٢ المصدر نفسه صـ٥٤.

بقبضة يدك ولا تلطخ الشمس بالوحل فتتعب، ومع هذا فقد مضى ما مضى، فإذا أطاع الخليفة، فليهدم الحصون ويردم الخنادق، ويسلم البلاد لابنه، ويحضر لمقابلتنا، وإذا لم يرد الحضور فيرسل كلاً من الوزير وسليمان شاه، والدواتدر، ليبلغوه رسالتنا دون زيادة أو نقصان فإذا استجاب لأمرنا فلن يكن واجبنا أن نكن له الحقد، وسنبقي له على دولته وجيشه ورعيته، أما إذا لم يصغ إلى النصح وآثر الخلاف والجدال، فليعين الجند وليعين ساحة القتال فإننا متأهبون لمحاربته وواقفون له على استعداد، وحينما أقود الجيوش إلى بغداد، مندفعاً بثورة الغضب، فإنك لو كنت مختفياً في السماء أو في الأرض فسوف أنزلك من الفلك الدوار وسوف ألقيك من عليائك إلى أسفل كالأسد، ولن أدع حياً في مملكتك وسأجعل مدينتك واقليمك وأراضيك طعمة للنار، فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء، وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله[1]. ورفض المعتصم بشدة ورد على هولاكو برسالة كلها احتقار قال فيها: أيها الشاب الحدث المتمني قصر العمر، ومن ظن نفسه محيطاً ومتغلباً على جميع العالم مغتراً في يومين من الإقبال، متوهماً أن أمره قضاء مبرم، وأمر محكم، لماذا تطلب مني شيئاً لن تجده؟ ألا يعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب وأنه من الملوك إلى الشحاذين ومن الشيوخ إلى الباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي. إنني حينما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور في إيران ثم اتوجه منها إلى بلاد توران، وأضع كل شخص في موضعه، وعندئذ سيصير وجه الأرض مملؤ بالقلق والاضطراب، غير أني لا أريد الحقد والخصام ولا أن أشتري ضرر الناس وإيذائهم، كما أنني لا أبغى من وراء تردد الجيوش أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح أو القدح خصوصاً وأنني مع الخاقان هولاكو خان قلب واحد ولسان واحد، وإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم، فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان، وإن كنت تريد الحرب والقتال، فلا تتواني لحظة ولا تعتذر، إذا استقر رأيك على الحرب، أن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة وهم متأهبون للقتال، وأنهم ليثيروا الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان[2]. وصل

١ جامع التواريخ نقلاً عن المغول للصياد صـ٢٥٦.

٢ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، محمد ماهر حمادة صـ٣٤٧.

رسل الخليفة إلى هولاكو، فلما اطلع هذا على رسالة الخليفة، وعلم بما لحق رسله من أذى العامة في بغداد، غضب غضباً شديداً، وأعاد رسل المعتصم، وحملهم رسالة أخرى تتضمن إنذاراً نهائياً له، صيغ في لهجة شديدة عنيفة، إذ يقول: لقد فتنك حب الجاه والمال، والعجب والغرور بالدولة الفانية، بحيث أنه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير وإن في أذنيك وقراً، فلا تسمع نصح المشفقين ولقد انحرفت عن طريق آباك وأجدادك، وإذن فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد، ولو جرى سيل الفلك على شاكلة أخرى فتلك هي مشيئة الله العظيم[1]، وقبل أن يقدم هولاكو على غزو بغداد، استشار المنجمين، فيما يتعلق بأحكام النجوم وطوالع السعد والنحس، أما الفلكي حسام الدين الذي جاء برفقة هولاكو من قبل خان المغول الأعظم ((منكوقاآن)) فقد كان سنياً يعطف على الخليفة العباسي ويحرص على أن يمنع هولاكو من الاقدام على غزو بغداد، فراح يؤكد له أن هذه الحملة تحدث خلالا في نظام الكون، فضلاً على أنها سوف تكون وبالاً على الخان نفسه، فكان مما قاله له: الحقيقة أن كل ملكٍ تجاسر ـ حتى هذه اللحظة ـ على قصد الخلافة والزحف بالجيش على بغداد لم يبق له العرش ولا الحياة، وإذا أبى الملك أن يستمع إلى نصائحي، وتمسك بمشروعه فسينتج عنه ستة مصائب كبيرة:

- تموت الخيول كلها، ويمرض الجنود.
- لن تطلع الشمس.
- لن ينزل النبات في الأرض.
- لن ينزل المطر.
- تهب رياح شديدة، ويعاني العالم من الزلازل.
- يموت الخان الأعظم في هذا العام[2].

---

١ جامع التواريخ نقلاً عن المغول للصياد صـ٢٥٦.

٢ المغول صـ٢٥٩.

وأما الأمراء فقد قالوا: إن الذهاب إلى بغداد هو عين المصلحة، وبعد ذلك استدعى هولاكو خان ((نصير الدين الطوسي)) لاستشارته، ولما كان يكره الخليفة، ويعمل على إسقاطه، فقد نقض كل ما قاله حسام الدين، وطمأن هولاكو بأنه لا توجد موانع تحول دون إقدامه على الغزو، ولم يقف عند هذا الحد، بل يؤيد وجهة نظره بالحجج القوية التي تكذب نبوءة حسام الدين، فذكر أن الكثيرين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ماتوا في الدفاع عن الدين، ومع ذلك لم تقع أية كارثة، وإذا قيل أن ذلك خاص ببني العباس، فإن الكثير من الناس قد خرجوا على هذه الأسرة وقتلوا منهم بعض الخلفاء، دون أن يحدث أي خلل، وأخذ نصير الطوسي يتمثل بطاهر بن الحسين قائد المأمون الذي قتل محمد الأمين، وبالأمراء الذين قتلوا المتوكل والمنتصر والمعتز وغيرهم[١].

٢ ـ حصار بغداد:

وعلى إثر ذلك أصدر هولاكو أمره بأن تتحرك جيوش المغول من أطراف بلاد الروم عن طريق إربل والموصل متجهة نحو بغداد لتحاصرها من الجهة الغربية، وتنتظر حتى تصل إليهم جيوش هولاكو من الناحية الشرقية، أما كيتوبوقا أحسن قواد هولاكو فقد إتجه بالجناح الأيسر إلى العاصمة العباسية عن طريق لورستان، وخوزستان، كما أنفذ إليها بعض أمراء المغول عن طريق كروستان الحالية، وفي أوائل المحرم سنة ٦٢٥هـ/١٢٥٧م نزل هولاكو من همذان إلى دجلة عن طريق كرمانشاه وحلوان، وكان معه في تلك الغزوة الأمير أرغون والخواجة نصير الدين الطوسي والوزير سيف الدين البينكجي[٢]، وعلاء الدين عطاء الجويني، وقد استطاع هولاكو أن يستميل إلى جانبه سكان الأماكن الجبلية المتاخمة للعراق بواسطة الأموال التي كان يبذلها لهم، كما استطاع أن يضم إليه كثير من جنود سليمان شاه[٣]. وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والأتابك أبو بكر في إقليم فارس ممن أمدوا هولاكو بالمال والرجال، ولما انتهى حشد القوات المغولية وأقام هولاكو معسكره في ظاهر بغداد من

١ المصدر نفسه صـ٢٦٠.

٢ المغول للصياد صـ٢٦٠.

٣ المصدر نفسه صـ٢٦١.

الرق، حاول الجيش الذي أعده الخليفة بقيادة مجاهد الـدين آيبـك الدوانـدار الصـغير أن يحـول دون استقرار المغول في أماكنهم، فكان نصيبه الهزيمة المنكرة، وقتل عدد كبير من الجنود لقـوا حـتفهم عـلى يد المغول، فلم يسع مجاهد الدين إلا الحرب مع قليـل مـن أتباعـه، وفي يـوم الثلاثـاء ٢٢ مـن المحـرم ٦٥٦هـ/١٢٥٨م أحكم الحصار حول مدينة بغداد، واستمر حتى نهاية هذا الشهر، وفي خلال تلك الفترة كان المغول يطلقون يد التخريب في المدينة، ويفتحـون الأبـراج حتـى اسـتولوا بهجماتهـم عـلى القسـم الشرقي من التحصينات[1].

٣ ـ مفاوضات النهاية:

ولما رأى الخليفة حرج موقفه، أراد أن يهد المغول ويثنيهم عن عزمهم على إتمام الفـتح وذلـك بإرسال الرسل والهدايا، ولكن هولاكو لم يستجب لهذا النداء[2]، ولجأ الخليفـة إلى صـديقه مؤيـد الـدين العلقمي الشيعي وسأله ماذا يفعل؟ واشار إليه الوزير أن يخرج لمقابلة هولاكو بنفسه لكي يجري معه مفاوضات، وذهب الرسل إلى هولاكو تخبره بقدوم الخليفة، فأمر هولاكو أن يأتي الخليفـة ولكـن لـيس وحده، بل عليه أن يأتي معه بكبار رجال دولته، ووزرائه وفقهاء المدينة، وعلماء الإسلام، وأمـراء النـاس والأعيان، حتى يـحضروا جميعـاً المفاوضـات وبـذلك تصـبح المفاوضـات ـ كـما يـزعم هولاكـو ـ ملزمـة للجميع، وجمع الخليفة كبار قومه، وخـرج بنفسـه في وفـد مهيـب إلى خيمـة هولاكـو خـارج الأسـوار الشرقية لبغداد، خرج وقد تحجرت الدموع في عينيه، وتجمد الدماء في عروقه، وتسـارعت ضربـات قلبـه، وتلاحقت أنفاسه، لقد خرج الخليفة ذليلاً مهيناً، وهو الذي كان يستقبل في قصره وفـود الأمـراء والملـوك، وكان أجداده الأقدمون يقودون الدنيا من تلك الدار التي خرج منها الخليفة الآن، وكان الوفد كبـيراً يضـم سبعمائة من أكابر بغداد، وكان فيه بالطبع وزيره مؤيد الدين العلقمي، واقترب الوفد من خيمة هولاكـو، ولكن قبل الدخول على زعيم التتار اعترض الوفد فرقة من الحرس الملكي التتاري، ولم يسمحوا لكـل الوفـد بالـدخول عـلى هولاكـو بـل قـالوا: إن الخليفـة سـيدخل ومعـه سـبعة عشر رجـل فقـط، أمـا البـاقون

١ المصدر نفسه صـ٢٦٢.

٢ المصدر نفسه صـ٢٦٢.

فسيخضعون ـ كما يقول الحرس ـ للتفتيش الدقيق، ودخل الخليفة ومعه رجاله وحجب عنه بقية الوفد، ولكنه لم يخضعوا لتفتيش أو غيره، بل أخذوا جميعاً للقتل!! قتل الوفد بكامله إلا الخليفة والذين كانوا معه قتل كبراء القوم، ووزراء الخليفة، وأعيان البلد، وأصحاب الرأي، وفقهاء وعلماء الخلافة العباسية، ولم يقتل الخليفة لأن هولاكو كان يريد استخدامه في أشياء أخرى، وبدأ هولاكو يصدر الأوامر في عنف وتكبر واكتشف الخليفة أن وفده قد قتل بكامله وعرف أن التتار وأمثالهم لا عهد لهم ولا أمان "لا يرغبون في مؤمن إلاً ولا ذمةً" التوبة : آية ، ١٠ وصدرت الأوامر من هولاكو إلى الخليفة:

أ ـ على الخليفة أن يصدر أوامره لأهل بغداد بالقاء أي سلاح، والامتناع عن أي مقاومة، وقد كان ذلك أمراً سهلاً، لأن معظم سكان المدينة لا يستطيعون حمل السلاح، ولا يرغبون في ذلك أصلاً.

ب ـ يقيد الخليفة العباسي، ويساق إلى المدينة، يرسف في أغلاله، وذلك لكي يدل التتار على كنوز العباسيين، وعلى أماكن الذهب والفضة والتحف الثمينة وكل ما له قيمة نفيسة في قصور الخلافة وفي بيت المال[1].

جـ ـ يتم قتل ولدي الخليفة أمام عينيه، فقتل الولد الأكبر أحمد أبو العباس وكذلك قتل الولد الأوسط عبد الرحمن أبو الفضائل ويتم أسر الثالث مبارك أبو المناقب، كما يتم أسر أخوات الخليفة فاطمة وخديجة ومريم.

د ـ أن يستدعي من بغداد بعض الرجال بعينهم وهؤلاء هم الرجال الذين ذكر ابن العلقمي أسماءهم لهولاكو، وكانوا من علماء السنة، وكان ابن العلقمي يكن لهم كراهية شديدة، وبالفعل تم استدعاؤهم جميعاً فكان الرجل منهم يخرج من بيته ومعه أولاده ونساؤه فيذهب إلى مكان خارج بغداد عينه التتار بجوار المقابر، فيذبح العالم كما تذبح الشاة، وتؤخذ نساؤه وأولاده إما للسبي أو للقتل، لقد كان الأمر مأساة بكل المقاييس وذبح على هذه الصورة أستاذ دار الخلافة الشيخ محي الدين يوسف بن الشيخ بن الفرج بن الجوزي، وذبح أولاده الثلاثة عبد الله، عبد

---

١ قصة التتار صـ١٤٩، ١٥٠.

الرحمن، وعبد الكريم، وذبح المجاهد مجاهد الدين آيبك زميله سليمان شاه اللذان قادا الدعوة إلى الجهاد في بغداد، وذبح شيخ الشيوخ ومؤدب الخليفة ومربيه صدر الدين علي بن النيار، ثم ذبح بعد هؤلاء خطباء المساجد والأئمة وحملة القرآن، وكل هذا والخليفة حي يشاهد ورأى أن هولاكو يتعامل تعاملاً ودياً مع ابن العلقمي الوزير الخائن وأدرك بوضوح العلاقة بينهما وانكشفت أمامه الحقائق بكاملها، وعلم النتائج المترتبة على توسيد الأمر لغير أهله، ولكن بعد فوات الأوان[1].

٤ ـ استباحة بغداد:

بعد أن ألقى أهل المدينة السلاح وبعد أن قتلت هذه الصفوة، وبعد إن إنساب جند هولاكو إلى شوارع بغداد ومحاورها المختلفة، أصدر هولاكو أمره الشنيع باستباحة بغداد[2]، وأتوا على كل ما فيها، فخربوا المساجد بقصد الحصول على قبابها المذهبة وهدموا القصور بعد أن سلبوا ما بها من تحف نادرة وأباحوا القتل والنهب وسفك الدماء، وكان استهتار المغول بالنفوس بالغاً حد الفظاعة، فيروى أن أحدهم دخل زقاقاً، وقتل أربعين طفلاً شفقة منه ورحمة حين علم أن أمهاتهم قتلن من قبل[3]، ويقدر المعتدلون من المؤرخين عدد القتلى بنحو ثمانمائة ألف نسمة[4]، ولم يقتصر التتار على قتل الرجال الأقوياء فقط، وإنما كانوا يقتلون الكهول والشيوخ، وكانوا يقتلون النساء إلا من استحسنوه منهن، فإنهن كانوا يأخذونها سبياً[5]، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة، وقد استمرت هذه الغارة أربعين يوماً، اندلعت فيها ألسنة النيران في كل جانب، فالتهمت كل ما صادفها، وأتت على الأخضر واليابس، وخربت أكثر الأبنية وجامع الخليفة، ومشهد الإمام موسى الكاظم، وقبور الخلفاء في الرصافة[6]، وعندما دخل هولاكو مدينة بغداد، قصد قصر الخلافة، وجلس

١ قصة التتار صـ١٥١.
٢ المصدر نفسه صـ١٥١.
٣ المغول للصياد صـ٢٦٥.
٤ دول الإسلام الذهبي (٢ ـ ١٢٣)، المغول للصياد صـ٢٦٥.
٥ قصة التتار صـ٢٦٥.
٦ بغداد في عهد الخلافة العباسية ترجمة بشير فرنسيس صـ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

في الميمنة، واحتفل مع الأمراء بذلك اليوم، وأمر بإحضار الخليفة، وقال له: أنت المضيف ونحن الضيوف فيجب عليك أن تقوم بواجب الضيافة، فصدق الخليفة قوله، وكان يرتعد فرقاً وخوفاً واستولت عليه الدهشة واعتراه الذهول، لدرجة أنه لم يعد يعرف أين وضع مفاتيح خزائنه، فأمر بكسر الأقفال، وإخراج ألفين من الثياب، وعشرة آلاف دينار، ونفاس ومرصعات، وجواهر عديدة، قدمها هدية لهولاكو خان الذي لم يعر تلك الأشياء التفاتاً، ووزعها على أتباعه، ثم قال للخليفة: هذه الأموال التي تملكها على سطح الأرض أمرها واضح، وهذه تعد غنيمة، فتكون من نصيب جنودنا، والآن نريد أن تكشف لنا عن الأموال والدفائن، فما هي وأين توجد؟ عندئذ اعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب وسط القصر، فلما حفروا ذلك المكان وجودوه مملوءاً بالذهب الإبريز، وكانت كل قطعة منه تزن مائة مثقال، ثم أمر هولاكو بأن يحصوا حرم الخليفة وحاشيته، فوجدوا سبعمائة من النساء والسرايا وألفاً من الخدم[١]، وعندما وقف الخليفة على تعداد نسائه قال في تضرع: أمنحني تلك النسوة اللائي لم يكن يطلع عليهن ضوء الشمس ولا نور القمر، فأمر هولاكو بأن يختار من بينهن مائة من النسوة ممن هن من اقاربه والمحببات إليه، ثم رجع إلى معسكره ليلاً وفي الصباح كلف قائده ((سونجاق)) بأن يذهب إلى المدينة ليضبط أموال الخليفة ويخرجها، فجمع هذا كل ما كان الخلفاء العباسيون قد ادخروه خلال خمسة قرون[٢]. وأخيراً بعد أن سفك هولاكو من الدماء ما سفك، وبعد أن خرب ما خرب، أصدر أمره بالكف عن القتل، وبأن ينصرف كل إلى عمله، يقول ابن كثير: ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، ولقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد، فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى[٣].

---

١ تاريخ مختصر الدول صـ٢٧١، المغول صـ٢٦٦.

٢ جامع التواريخ صـ٣٠٠ ـ ٣٠٢، المغول للصياد صـ٢٦٦.

٣ المغول للصياد صـ٢٦٦، البداية والنهاية (١٣ ـ ٢٠٣).

٥ ـ مقتل الخليفة المعتصم بالـلـه:

عامل هولاكو الخليفة معاملة سيئة للغاية، بحيث أنه حرم عليه الطعام، فلـما أحـس الخليفـة بالجوع طلب طعاماً، فقدم له هولاكو طبقاً مملوءاً بالـذهب، وأمـره أن يأكـل، فقـال الخليفـة: كيـف يمكن أكل الذهب؟ فرد عليه هولاكو: إذا كنـت تعـرف أن الـذهب لا يؤكـل فلـماذا احتفظـت بـه ولم توزعه على جنودك حتى يصونوا لك ملكك الموروث من هجمات هذا الجيش المغير؟ ولم لم تحول تلـك الأبواب الحديدية إلى سهام، وتسرع إلى شـاطئ نهـر جيحـون لتحـول دون عبـوري؟ فأجـاب الخليفـة: هكذا كان تقدير الـلـه[1]. فقال هولاكو: وما سوف يجري عليك أنما هو كذلك تقـدير الـلــه. وفي روايـة أخرى أن هولاكو عندما وجه هذه الأسئلة إلى الخليفة لزم الصمت ولم يحر جوابـاً[2]. وأمـا عـن الكيفيـة التي قتل بها المستعصم، فإنها لازالت مسألة يكتنفهـا الغمـوض، إذا تضـاربت فيهـا روايـات المـؤرخين، ولعل أبا الفداء يمثل لنا اختلاف الروايات بخصوص قتل المستعصـم تمـثيلاً واضـحاً حـين قـال، ولم يقـع الاطلاع على كيفية قتله، فقيل خنق، وقيل وضع في عدل ورفسـوه حتـى مـات، وقيـل غـرق في دجلـة، ويختم عبارته بقوله: والـلـه أعلم بحقيقة ذلك[3]، واشتهرت بين المؤرخين قتـل المستعصـم في غـرارة تـم رفسه إلى إن مات. والسؤال المطروح لم اختار هولاكو هذه الطريقة في قتـل المستعصـم، قيـل في تبريـر ذلك أمور منها:

أ ـ شق على مستشـاري هولاكـو خـان مـن المسـلمين أن يـراق دم الخليفـة وهـو أمـير المؤمنين وزعيمهم الديني فحذروا الخان المغولي أن يقـدم عـلى تلـك الفعلـة، حتـى أنهم ليرون أن أحد المنجمين قال لهولاكو: إذا قتل الخليفة، فإن العـالم يصـير اسـوداً مظلماً وتظهر علامات القيامة[4]، وفي هذه المرة أيضاً نفى نصير الـدين الطـوسي هـذا الادعاء وأيد رايه ببراهين عملية تثبت أن عـدة خلفـاء مـن بنـي العبـاس قتلـوا ولم

١ المغول صـ٢٦٧ للصياد.

٢ المصدر نفسه صـ٢٦٧.

٣ المختصر في أخبار البشر (٣ ـ ٢٠٣)، المغول صـ٢٦٨.

٤ مجالس المؤمنين صـ٤٠٠ للششتري، المغول للصياد صـ٢٦٩.

يحدث خلل يذكر، فلما صمم هولاكو على قتله، احترز من أن يريق دمه فقتله بالطريقة السالفة الذكر.

ب ـ قتل هولاكو المستعصم دون أن يريق دمه، لا خوفاً من تحذير العلماء المسلمين وإنما جرياً على عادة المغول، كما اشار إلى ذلك النويري إذا يقول: وجيئ بالخليفة إلى هولاكو فأمر أن يجعل في جولق ويداس بأرجل الخيل، ففعل به ذلك حتى مات، كما ذكرناه في أخبار الدولة العباسية، ومن عادة التتار أنهم لا يسفكون دماء الملوك والأكابر غالباً[1]. ويقول ابن خلدون: وقبض على المستعصم فشدخ بالمعاول في عدل تجافياً عن سفك دمه بزعمهم[2]. كان جنكيز خان يمارس تقاليد قومه التي كانت تحرم إراقة دم زعيم أي قبيلة يجري في عروقه الدم الملكي ويستعملون طريقة خمد الأنفاس تحت ضغط أقمشة ثقيلة.

وعلى هذا يبدو أن السبب الثاني هو الأرجح، لأن المغول حتى في دفنهم للمستعصم، جروا على سننهم وتقاليدهم، إذ دفنوه في مكان مجهول، لدرجة أن السيوطي ينقل عن الذهبي قوله: وما أظنه دفن، ويقول ابن الغوطي: أمر السلطان ـ أي هولاكو ـ بقتله، فقتل يوم الأربعاء الرابع عشر صفر ولم يهرق دمه، بل جعل في غراره ورفس حتى مات ودفن وعفي أثر قبره[3]. والمعروف في سلاطين المغول وأمرائهم أنهم كانوا يدفنون موتاهم في موضع بعيد عن العمران، ويجعلون قبورهم من الأسرار المخفية وهكذا ظل المغول محافظين على هذا التقليد حتى جاء السلطان غازان خان (٦٩٤ ـ ٧٠٣هـ) واعتنق الإسلام، فأبطل هذه العادة، وبنى لنفسه مقبرة كبيرة لتكون مقر دفنه، فكان بذلك أول سلطان من سلاطين المغول، يدفن في مقبرة ظاهرة[4].

---

١ نهاية الأرب في فنون الأدب نقلاً عن المغول صـ٢٦٩.

٢ العبر وديوان المبتدأ والخبر (٥ ـ ٥٤٣).

٣ المغول للصياد صـ٢٧٠.

٤ المصدر نفسه صـ٢٧٠.

٦ ـ الخراب الحضاري:

بعد أن أتم هولاكو وجيشه المغولي التتاري، قتل أهالي بغداد، وعمرانها ومعالمها الحضارية ووسائل تلك الحضارة الإنسانية، فأمر هولاكو، قادته وجيوشه بعد القتل والذبح، نهب بغداد فعاث جند المغول والتتار فساداً في المدينة التي ما كفوا عن ضربها بالمنجنيقات إلا بعد أن رأوا أكثر مساكنها وأسواقها أصبحت ركاماً، حتى المساجد والجوامع والمدارس والمكتبات وأشعلوا النيران فيها أيضاً، بحيث ظلت النيران تتأجج ليالي عديدة تسطع وهاجة في حلك الظلام، وقد نهب المغول كل التراث الذي امتلكه الخلفاء العباسيون وأهالي بغداد من أثاث وسجاد وأقمشة من حرير وأقطان وكتان، وقساطيط، وسروج الخيل وأفرشة وبسط، ((ودام القتل والنهب أربعين يوماً[1] وبعد هذه الأربعين يوماً من التخريب والتمزيق أصبحت بغداد في حالة من الدمار والخراب لا تصدقها العيون، حدثنا أحد العلماء الذين زاروها بعد تلك الكارثة الكبرى فقال: وافيتها بلدة خالية، وأمة بالية، ودمنة حائلة، ومحنة جائلة، وقصوراً خاوية، وعراصاً باكية، وقد رحل عنها سكانها وبات عنها قطانها وتمزقوا في البلاد، ونزلوا بكل وادٍ، وقصورها المشيدة مهدومة، ونعماؤها مسلوبة معدومة، موحشة لفقد قطانها باكية، تسفي عليها الرياح السافية فهل نرى لهم من باقية؟ فوقفت أبكيها ,اندب ربوعها ومن كان فيها:

وأنـــــدب أطلالهـــــا تـــــارة

وأبـــكي عـــلى فرقـــة الظاعنينـــا

فلـــو ذهبـــت مقلـــة بالبكـــاء

لفـــرط الغـــرام لكنـــا عمينـــا[2]

---

١ مآثر الأنافة في معالم الخلافة (٩١/٢).

٢ بغداد مدينة السلام وغزو المغول صـ٢٥٥.

وقد استهدفت مكتبة بغداد العظيمة وهي أعظم مكتبة على وجه الأرض في ذلك الزمان، وهي الدار التي كانت تحوي عصارة فكر المسلمين في أكثر من ستمائة عام، جمعت فيها كل العلوم والآداب والفنون وعلوم شرعية كتفسير القرآن أو الحديث والفقه والعقيدة، والأخلاق ومن علوم حياتية، كالطب والفلك والهندسة والكيمياء والفيزياء والجغرافيا وعلوم الأرض، ومن علوم إنسانية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب والتاريخ والفلسفة، وغير ذلك، هذا بالإضافة إلى ملايين الأبيات من الشعر، وعشرات الآلاف من القصص والنثر، فإن إضفت إلى كل ما سبق الترجمات المختلفة لكل العلوم الأجنبية سواء اليونانية أو الفارسية أو الهندية أو غير ذلك، علمت حجم الخسارة الحضارية التي منيت بها الإنسانية، لقد كانت مكتبة بغداد مكتبة عظيمة بكل المقاييس ولم يقترب منها في العظمة إلا مكتبة قرطبة الإسلامية في الأندلس، وسبحان الله لقد مرت مكتبة قرطبة بنفس التجربة التي مرت بها مكتبة بغداد، وعندما سقطت قرطبة في يد نصارى الأندلس سنة ٦٣٦هـ قبل سقوط بغداد بعشرين سنة فقط قاموا بحرق مكتبة قرطبة تماماً، وقام بذلك أحد قساوسة النصارى بنفسه، وكان إسمه ((كمبيس)) وحرق ما وقعت عليه يده، من كتب بذلت فيها آلاف الأعمار وأنفق في سبيل كتابتها الكثير من المال والعرق والجهد[١]. كانت مكتبة بغداد أسسها الخليفة العباسي هارون الرشيد، والذي حكم الدولة الإسلامية من سنة ١٧٠هـ إلى سنة ١٩٣هـ ثم إزدهرت المكتبة جداً في عهد المأمون خليفة المسلمين من سنة ١٩٨هـ إلى ٢١٨هـ وما زال الخلفاء العباسيون بعدهم يضيفون إلى المكتبة الكتب والنفائس حتى صارت داراً للعلم، لا يتخيل كم العلم بداخلها، وقد حوت ملايين المجلدات ملايين الكتب في مكتبة واحدة في زمانٍ ليس فيه طباعة، وكانت مكتبة بغداد تشتمل على عدد ضخم من الحجرات، وقد خصصت كل مجموعة من الحجرات لكل مادة من مواد العلم، فهناك حجرات لكتب الفقه، وحجرات لكتب الطب، وأخرى لكتب الكيمياء ورابعة للبحوث السياسية، وكان في المكتبة المئات من الموظفين الذين يقومون على رعايتها ويواظبون على إستمرار تجديدها، وكان هناك ((النساخون)) الذين ينسخون من كتاب أكثر من

---

١ قصة التتار صـ١٥٩.

نسخة، وكان هناك ((المناولون)) الذين يناولون الناس الكتب من أماكنها المرتفعة، وكان هناك ((المترجمون)) الذين يترجمون الكتب الأجنبية، وكان هناك ((الباحثون)) الذين يبحثون لك عن نقطة معينة من نقاط العلم في هذه المكتبة الهائلة، وكانت هناك غرف خاصة للمطالعة، وحلقات النقاش والندوات العلمية وغرف خاصة للترفيه والأكل والشرب، ومكان إقامة لطلاب العلم الذين جاءوا من مسافات بعيدة، لقد حوت هذه المكتبة عصارة الفكر الإنساني، وكان المأمون يشترط على ملك الروم في معاهداته معه بعد إنتصارات المأمون المشهورة عليه أن يسمح للمترجمين المسلمين بترجمة الكتب التي في مكتبة القسطنطينية، وكان لخلفاء بني العباس موظفون يجوبون الأرض بحثاً عن الكتب العلمية بأي لغة لتترجم وتوضع في مكتبة بغداد بعد أن يتولاها علماء المسلمين المتخصصون بالنقد والتحليل، لقد ترجمت في مكتبة بغداد الكتب المكتوبة باللغات اليونانية والسريانية والهندية والسنسكرتية والفارسية واللاتينية وغيرها[1].

ـ ماذا فعل التتار مع مكتبة بغداد الهائلة؟: حمل التتار الكتب الثمينة، ملايين الكتب القيمة، وألقوا بها جميعاً في نهر دجلة، وألقى المغول بمجهود القرون الماضية في نهر دجلة، وتحول لون المياه إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب حتى قيل الفارس المغولي كان يعبر فوق المجلدات الضخمة من ضفة إلى ضفة أخرى، وهذه جريمة في حق الإنسانية، وتكررت عبر التاريخ في الأندلس في مكتبة قرطبة وغرناطة وطليطلة وأشبيلية وبلنسية وسرقسطة وغيرها، في مكتبة طرابلس اللبنانية فأحرقوا ثلاثة ملايين كتاب وفعلها الصليبيون والنصارى في فلسطين، في مكتبة غزة والقدس وعسقلان، ثم فعلها بعد ذلك المستعمرون الأوربيون الجدد والذين نزلوا إلى بلاد العالم الإسلامي في القرن التاسع، ولكن هؤلاء كانوا أكثر ذكاء، فإنهم سرقوا الكتب ولم يحرقوها، ولكن أخذوها إلى أوربا، ومازالت المكتبات الكبرى في أوربا تحوي مجموعة من أعظم كتب العلم في الأرض، ألفها المسلمون على مدار عدة قرون متتالية، ولا يشك أحد في أن أعداد الكتب الأصلية الإسلامية في مكتبات أوربا تفوق كثيراً أعداد هذه المراجع

---

١ قصة التتار صـ١٦١.

الهامة في بلاد المسلمين أنفسهم. لقد كان هم الغزاة على طول العصور أن يحرموا هذه الأمة من اتصالها بأي نوع من أنواع العلوم، إما بحرق الكتب أو بإغراقها في الأنهار أو بسرقتها أو بتغيير مناهج التعليم ـ حالياً ـ حتى تفرغ من كل ما هو قيم وثمين، كل ذلك لأن الغزاة يعرفون جيداً قيمة العلم في دين الإسلام، ويعرفون قيمة المسلمين إذا ارتبطوا بالعلم[1]، وبعد أن فرغ المغول من تدمير مكتبة بغداد انتقلوا إلى الديار الجميلة، وإلى المباني الأنيقة فتناولوا جلها بالتدمير والحرق، وسرقوا المحتويات الثمينة فيها، أما ما عجزوا عن حمله من المسروقات فقد أحرقوه وظلوا كذلك حتى تحولت معظم ديار المدينة إلى ركام، وإلى خراب تتصاعد منه ألسنة النار والدخان، واستمر هذا الوضع الأليم أربعين يوماً كاملة وامتلأت شوارع بغداد بتلال الجثث المتعفنة واكتست الشوارع باللون الأحمر، وخاف هولاكو على جيشه من انتشار الأوبئة المتعفنة فأصدر هولاكو بعض الأوامر الجديدة:

أ ـ يخرج الجيش التتاري بكامله من بغداد وينتقل إلى بلد آخر في شمال العراق، لكي لا يصاب الجيش بالأمراض والأوبئة وتترك حامية تتارية صغيرة حول بغداد، فلم يعد هناك ما يخشى منه في هذه المنطقة.

ب ـ يعلن في بغداد أمان حقيقي، فلا يقتل مسلم بصورة عشوائية بعد هذه الأربعين، ليقوموا بدفن موتاهم، وتنظيف المدينة من الجثث.

جـ ـ أصدر هولاكو قراراً بأن يعين مؤيد الدين العلقمي الشيعي رئيساً على مجلس الحكم المعين من قبل المغول على بغداد على أن توضع عليه بالطابع وصية مغولية[2].

٧ ـ مؤيد الدين العلقمي، حاكم بغداد:

لم يكن مؤيد الدين إلا صورة للحاكم فقط، وكانت القيادة الفعلية للمغول، وتعرض للإهانة من قبلهم لتحطيم نفسيته ولكي يصبح تابعاً ذليلاً لهم، وحصل له من الإهانة في أيامه والقلة والذلة، وزوال ستر الله، ما لا يحد ولا يوصف، رأته إمرأة

---

١ قصة التتار صـ ١٦٣.

٢ المصدر نفسه صـ١٦٣.

وهو راكب في أيام التتار برذوناً وسائق يضرب فرسه فوقفت إلى جانبه وقالت: يا بن العلقمي هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟ فوقعت كلمتها في قلبه وانقطع في داره إلى أن مات كمداً في مستهل جماد الآخر من هذه السنة، وله من العمر ثلاث وستون سنة، ودفن في قبور الشيعة، وقد سمع بأذنيه ورأى بعينيه من الإهانة من التتار والمسلمين ما لا يحد ولا يوصف. وتولى بعده ولده الوزارة، ثم أخذه الله إليه سريعاً، وقد هجاه بعض الشعراء فقال:

يا فِرْقة الإسلام نوحوا واندبوا

أسفاً على ما حل بالمستعصم

دست الوزارة كان قبل زمانه

لابن الفرات فصار لابن العلقمي[1]

٨ ـ حكومة هولاكو (الحكومة الإيلخانية بالعراق):

بعد سقوط بغداد باشر هولاكو بتدعيم سلطته في العراق وتنظيم الإدارة فيها، فأرسل قوات عسكرية نحو الفرات الأوسط، واستقبلهم السكان في الحلة والكوفة، ونصبوا لهم جسوراً للعبور، ومن هناك انحدرت تلك الفرقة العسكرية نحو واسط، وكان فيها جمع من بقايا عسكر المماليك، فاشتبكوا معهم في قتال شديد إنتهى بتصفية عساكر المماليك وقتل عدد كبير من سكان المدينة، وبعد ذلك سار عسكر المغول نحو خوزستان، وهم يتعقبون فلول المماليك الهاربين، وإنتهت تلك العمليات بالقضاء على أكثرية المماليك بينما استسلم الباقون، في تلك الأثناء أقر هولاكو أسس إدارة العراق التي تركها بيد العراقيين، إذ لم يدخل تعديلات كبيرة على إدارة البلاد عدا الإدارة العسكرية وواجبات الشرطة، التي سلم أمرها إلى علي بهادر الخراساني الذي عينه بمنصب الشحنة ((ما يقابل الحاكم العسكري))، وقد أبقى هولاكو على مؤسسة الديوان وأقر فخر الدين ابن الدامغاني في منصب صاحب الديوان، وأبقى كذلك

---

١ البداية والنهاية (١٧ ـ ٣٨٠).

على منصب الوزارة، وأقر الوزير المستعصم مؤيد الدين بن العلقمي الأسدي في ذلك المنصب، غير أن أيام هذا الوزير لم تطل بعد تلك النكبة، إذ اعتلت صحته وغلب عليه الحزن والكآبة حتى توفي في مستهل جماد الثانية من تلك السنة، أي بعد سقوط بغداد بثلاثة اشهر تقريباً، فخلفه في منصب الوزارة ولده عز الدين أبو الفضل، وجرى تقسيم العراق إلى خمس مناطق إدارية بدلاً من سبعة، كان يدير كل منطقة منها مسئول بمنصب ((الصدر))، كان يرتبط به عدد من النواب والنظار، وكانت المناطق كما يلي:

- الأعمال الشرقية، وكانت تشمل الخالص والبندنيجين وطريق خراسان.
- الأعمال الفراتية.
- الأعمال الكوفية والحلية.
- الأعمال البصرية والواسطية.
- أعمال دجيل والمستنصرية.

ولا بد من الإشارة هنا إلى ذلك التفسيم كان يتلاءم مع التقسيم الجغرافي للمناطق الزراعية في العراق.

وعين هولاكو نجم الدين أحمد بن عمران صدراً للأعمال الشرقية، وكان من أهل باجسري[1].

وتاج الدين علي بن الدوامي صدراً للأعمال الفراتية، وكان يشغل في عهد المستعصم منصب صاحب الباب، وعز الدين بن أبي الحديد، لمنصب كاتب السلة، غير أن أيامه هو الآخر لم تطل، فقد توفي بعد فترة قصيرة، وكان كاتب السلة يرتبط بصاحب الديوان، وبحكم وظيفته يطلع على أسراره إدارة الدولة وقد اكتسبت كتابة السلة أهمية كبيرة في العهد الإيلخاني حتى صار يطلق على صاحبها ((كاتب العراق)) الذي كان يشغل أحياناً منصب صاحب الديوان، وأما الوظائف الدينية فكان على راسها منصب قاضي القضاة، فقد أحضر القاضي عبد المنعم البندنيجي

١ العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية صـ١٣٨.

عند هولاكو، فأقره عل منصب قاضي القضاة، وأما الأوقاف فإن جميع الأوقاف الإسلامية في الدولة الإيلخانية وضعت تحت إشراف نصير الدين الطوسي، وفي بغداد جرى تعيين شهاب الدين بن عبد الله صدراً للوقوف، فأشرف على ترميم جامع الخليفة الذي تعرض للحريق، وترميم مشهد الإمام الكاظم موسى بن جعفر، وعلى فتح المدارس والربط وإثبات الفقهاء والصوفية وإدرار المشاهرات والأخباز عليهم، وبعد أن أقر أسس إدارة العراق، عاد هولاكو إلى إيران، إذ أصبحت خراسان في تلك الأيام قاعدة النفوذ المغولي، ومركز دولة هولاكو الإيلخانية التي حكمت ثمانين عاماً، بينما أصبح العراق إقليماً تابعاً لتلك الدولة[١]. وكانت الدولة الإيلخانية بفارس والعراق تمتد من نهر جيحون إلى المحيط الهندي، ومن السند إلى الفرات، وبعض أراضي آسيا الصغرى، وكان حكام إيران يحملون إيلخان للدلالة على تبعيتهم للخاقان الأعظم في الصين، وتعاقب على حكم إيران الإيلخانات حتى سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م، حيث زالت دولتهم[٢].

ـ إدارة العراق في عهد الجويني: في ذي الحجة سنة ٦٥٧هـ أي بعد سقوط بغداد بسنة واحدة توفي الوزير عزالدين أبو الفضل ابن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الأسدي، فتولى بعده أمر الديوان في بغداد المؤرخ علاء الدين عطاء ملك الجويني، وكان من أسرة إيرانية عريقة في الآداب والإدارة، ولها مكانة مرموقة في إيران، بتعيينه خرج أمر الوزارة من يد عرب العراق، إذ إرتبطت إدارته بصورة أوثق بالإدارة المركزية في إيران، كان الجويني من عمال الديوان للأمير المغولي أرغون حاكم إيران، وقد قام الجويني بعدة اسفار في بلاد المغول، واطلع بصورة مباشرة على أحوالهم وأحوال بلادهم، ودرس أحوال الأقوام التركومغولية وتمكن من أن يجمع مادة تاريخية وفيرة كتب على أساسها بالفارسية تاريخ تلك الأقوام، وسمى ذلك الكتاب ((تاريخ جهانكشاي)) ـ أي تاريخ فاتح العالم ـ ويعني به جنكيز خان، وقد أصبح كتابه هذا المرجع الرئيسي لتاريخ المغول، غير أن أحداث ذلك الكتاب، تقف بعد ذكر وقائع حروب هولاكو مع الإسماعيلية في بلاد الجبل إذ كان الجويني

---

١ المصدر نفسه صـ١٣٩.

٢ الدولة المستقلة في المشرق صـ٢٠٥.

مصاحباً له في تلك الحروب، وكان الجويني ممن صاحب هولاكو في زحفه نحو بغداد[١].

٩ ـ وفود الملوك والأمراء على هولاكو:

أوقع سقوط بغداد العالم الإسلامي في فزع وذهول وحيرة، فسار حكامه المستضعفون إلى الطاغية هولاكو يقدمون له فروض الطاعة والتهنئة ويتملقونه خوفاً من بطشه وإتقاء شره، فكان ممن حضر لتهنئته في مراغة في أذربيجان أتابك الموصل الهرم ((بدر الدين لؤلؤ))، وأرسل أبو بكر أتابك فارس إبنه للغرض نفسه، وصل كذلك إلى معسكر هولاكو بالقرب من تبريز إثنان من سلاطين سلاجقة الروم، وهما الأخوان المتنافسان: السلطان عز الدين كيكاوسي الثاني، والسلطان ركن الدين قلج أرسلان الرابع، أما عز الدين فكان يرتجف رعباً، لأن جنوده حاولوا أن يصمدوا أمام القائد المغولي ((بايجونويان)) فدحرهم في ((آقسرا))، فلما سقطت بغداد على يد هولاكو أحس عز الدين بحرج مركزه وخشي بطش الخان، فحاول أن يخلص نفسه من تلك الورطة بنوع مبتكر من التملق الذي حمل طابع الخضوع والذلة وذلك أنه رسم صورته على نعل زوج من الأحذية وقدمها للخان الساخط قائلاً له: عبدك يأمل أن يتفضل الملك فيشرف رأس عبده بوضع قدمه المباركة عليها[٢]، فرق له قلب الطاغية هولاكو ورفعت دوقوزخاتون من قدره، وتشفعت له، فعفا عنه الإيلخان، ولا شك أن ذلك الموقف المخزي يصور لنا الحد الذي بلغه بعض الحكام المسلمين من الاستذلال والمهانة[٣].

سادساً: سقوط الدولة العباسية وترجمة للخليفة المستعصم بالله:

قال ابن كثير المستعصم بالله أمير المؤمنين، آخر خلفاء بني العباس بالعراق، وهو أبو أحمد عبد الله بن أمير المؤمنين، المستنصر بالله أبي جعفر منصور بني الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن أمير المؤمنين المستنجد بالله أبو المظفر يوسف

١ العراق بين سقوط الدولة العباسية والدولة العثمانية صـ١٤٠، ١٤١.

٢ المغول للصياد صـ٢٧٩.

٣ المصدر نفسه صـ٢٧٩.

بن أمير المؤمنين المقتفى لأمر الـلـه أبي عبد الـلـه محمد بن أمير المؤمنين المستظهر بالـلـه أبو العبـاس أحمد بن المقتدى بأمر الـلـه أبو القاسم عبد الـلـه بـن الأمـير الـذخيرة أبـو العبـاس أحمـد بـن الأمـير إسحاق بن المقتدر بالـلـه أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالـلـه أبي العباس أحمد بني الأمير الموفـق أبي أحمد طلحة بن المتوكل على الـلـه أبي الفضل جعفر بن المعتصم بالـلـه أبي إسحاق محمد بـن الرشـيد أبي محمد هارون بن المهدي أبي عبد الـلـه محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الـلـه بن محمد بـن عـلي بن عبد الـلـه بن العباس بن المطلب بن هاشم الهاشمي العباسي مولده سنة تسع وستمائة وبويـع لـه بالخلافة في العشرين من جماد الأولى سنة أربعين، وكان مقتله في يوم الأربعـاء الاربـع عشر مـن صـفر سنة ست وخمسين وستمائة، فيكون عمره يوم قتل سبعة وأربعين سنة، رحمه الـلـه تعالى ، وقـد كـان حسن الصورة جيد السيرة صحيح السريرة صحيح العقيدة، مقتـدياً بأبيـه المسـتنصر في المعدلـة وكـثرة الصدقات وإكرام العلماء والعباد، وقد استجاز له الحافظ بن النجار من مشايخ خراسان، مـنهم المؤيـد الطوسي وأبو روح عبد المعز بن محمد الهرَويُّ، وأبو بكر القاسم بن عبـد الـلــه بـن الصَّـفَّار وغـيرهم، وحدَّث عنه جماعة منهم مؤدِّبه شيخ الشيوخ صدر الـدين أبـو الحسـن عـلي بـن محمـد بـن السَّـيَّار، وأجازه للإمام محي الدين بن الجوزي والشيخ نجم الدين الباذراني وحدَّثا عنه بهذه الإجازة، وقـد كـان رحمه الـلـه تعالى سنياً على طريقة السلف واعتقاد الجماعة، كما كان أبوه وجدَّه ولكن كـان فيـه لـين وعدم تيقظ ومحبة للمال وجمعه، ومن جملة ذلك أنه غلَّ الوديعة التي استودعه إياهـا النـاصر داود بن المعَظَّم، وكانت قيمتها نحواً من مائة ألف دينار، فاسـتقبح هـذا مـن مثـل الخليفـة،وهو مسـتقبح ممن هو دونه بكثير، بل من أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك كما قال تعالى: "ومـنهم مـن تأمنه بدينار لا يودِّه إليك إلا ما دمت عليه قائماً" آل عمران : الآية ، ٧٥.

قتلته التتار مظلوماً مضطهداً في يوم الأربعاء رابع عشر صفر من هذه السنة وله من العمر ستة وأربعون سـنة وأربعـة أشـهر، وكانـت مـدة خلافتـه خمـس عشرة سـنة وثمانية أشهر وأياماً فرحمه الـلـه وأكرم مثواه، وبل بالرحمة ثراه، وقد قتل بعده ولدان، وأسر الثالث، مع بنات ثلاث من صلبه وشغر منصـب الخلافـة ولم يبـق في بنـي العبـاس من سدَّ مسدَّه، فكان آخر الخلفاء من بني العباس الحـاكمين بالعـدل بـين النـاس، ومـن

يُرتجى منهم النوال ويُخشى منهم البأس وخُتموا بعبد الله المستعصم سبعة وثلاثين خليفة، فكان أولهم عبد الله السفاح بويع له بالخلافة وظهر ملكه وأمره في سنة سنتين وثلاثين ومائة، بعد انقضاء دولة بني أمية، وآخرهم عبد الله المستعصم وقد زال ملكه وانقضت خلافته في هذا العام أعني سنة ستَّ وخمسين وستمائة، فجملة أيامهم خمسمائة سنة وأربعة وعشرون سنة، وزلت يدهم عن العراق والحكم بالكلية سنة وشهور في أيام البساسيري بعد الخمسين وأربعمائة ثم عادت كما كانت ولم تكن أيدي بني العباس حاكمة على جميع البلاد، كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار[1].

وقد خرج عن بني العباس بلاد المغرب ملكها في أوائل الأمر بعض بني أمية ممَّن بقي معهم من ذرية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، ثم تغلب عليه الملوك بعد دهور متطاولة، وقارن بني العباس دولة المدَّعين أنهم من الفاطميين ببلاد مصر وبعض بلاد المغرب وما هنالك، وبلاد الشام في بعض الأحيان والحرمين في أزمان طويلة[2].

واستمرت دولة الفاطميين قريباً من ثلاثمائة سنة حتى كان آخرهم العاضد الذي مات بعد ستين وخمسمائة في الدولة الصلاحية الناصرية المقدسية، وكانت عدة ملوك الفاطميين أربع عشرة ملكاً مختلفاً، ومدة ملكهم تحريراً من سنة سبع وتسعين ومائتين إلى أن توفي العاضد سنة بضع وستين وخمسمائة، والعجب أن خلافة النبوة التالية لزمان رسول الله كانت ثلاثين سنة، كما نطق بهذا الحديث الصحيح، فكان فيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، ثم علي، ثم ابنه الحسن بن علي ستة أشهر حتى كملت بها ثلاثون، كما قررنا ذلك في دلائل النبوة، ثم كانت ملكاً، فكان أول ملوك الإسلام من بني أبي سفيان معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية ثم ابنه يزيد، ثم ابن ابنه معاوية بن يزيد ابن معاوية، وانقرض هذا البطن المفتتح بمعاوية المختتم بمعاوية، ثم ملك مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، ثم ابنه عبد الملك، ثم الوليد بن عبد الملك، ثم أخوه سليمان،

---

١ البداية والنهاية (٣٦٧/١٧).

٢ البداية والنهاية (٣٦٧/١٧).

ثم ابن عمه عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن عبد الملك، ثم هشام بن عبد الملك، ثم الوليد بـن يزيـد، ثم يزيد بن الوليد، ثم أخوه إبراهيم الناقص، وهـو ابـن الوليـد أيضـاً، ثـم مـروان بـن محمـد الملقـب بالحمار، وكان آخرهم، فكان أولهم اسمه مروان وآخرهم اسمه مروان، وكـان أول خلفـاء بنـي العبـاس اسمه السفاح واسمه عبد اللـه، وكان آخرهم المستعصـم واسـمه عبـد اللــه، وكـذلك أول الفـاطميين اسمه عبد اللـه المهدي وآخرهم عبد اللـه العاضد، وهذا اتفاق غريب جداً قل من يتنبَّه له[1]. واللـه سبحانه أعلم.

وهذه ارجوزة لبعض الفضلاء انتظم فيها ذِكرَ جميع الخلفاء:

الحمـــــــــد لله العظـــــــــيم عَرْشُــــــــــهُ
القـــــاهر الفـــــرد القـــــويِّ بطشُـــــــةً

مقلِّـــــــــبِ الأيـــــــام والـــــــدُّهور
وجـــــــامع الأنـــــــام للنُّشُـــــــور

ثـــــم الصـــــلاةُ بـــــدوام الأبـــــد
عـــــلى النبـــــيِّ المصـــــطفى محمـــــد

وآلـــــــه وصـــــــحبه الكِـــــــرام
الســـــــادة الأمـــــــة الأعـــــــلام

وبعـــــد هـــــذا هـــــذه أُرجـــــوزة
نظمتهـــــا لطيفـــــة وجيـــــزة

نظمـــــت فيهـــــا الراشـــــدين الخلفـــــاء
مـــن قـــام مـــن بعـــد النبـــيِّ المصـــطفى

[1] المصدر نفسه (٣٦٨/١٧).

ومـــــن تلاهـــــم وهَلُـــــمَّ جَــــرًّا

جعلتهــــا تــــبصرة وذكــــرى

لـــــيعلم العاقـــــلُ ذو التَّصــــوير

كيـــف جـــرت حـــوادث الأمـــور

وكـــــلُّ ذي مقـــــدرة ومُلــــك

معرَّضــــون للفَنَــــاء والهُلْــــكِ

وفي اخـــــتلاف الليــــل والنهــــار

تــــبصرة لكـــــلِّ ذي اعتبــــار

والملــــــك للجبــــار في بــــلاده

يورثــــه مـــن يشــــاء مـــن عبــاده

وكـــــل مخلــــوق فللفنــــاء

وكـــل ملــــك فــــإلى إنتهــــاء

ولا يــــدوم غــــير ملــــك البــــاري

ســـــبحانه مــــن مَلِــــكِ القهــــار

منفـــــرد بــــــالعزِّ والبقــــاء

ومــــا ســـواه فــــإلى إنقضــــاء

أول مـــــن بُويِــــع بالخلافـــــة

بعــــد النبــــي ابــــنُ أبي قحافــــة

أعنــــي الامــــامَ العــــادلَ الصــــديقا

ثــــم ارتضى مــــن بعــــده الفــــاروق

ففـــــــــتح الـــــــــبلاد والأمصــــــــــار

واستأصـــــــلت ســــــيُوفُه الكُفــــــارا

وقـــــــام بالعـــــــدل قيامـــــــا يُــــــرضِي

بـــــــذاك جبـــــــارَ الســـــــماء والأرض

ورضي النــــــاس بــــــذي النـــــورين

ثـــــم عـــــليٍّ والـــــد السِّـــــبْطين

ثـــــم أتـــــت كتائـــــب مـــــع الحســـــن

كـــــادوا بـــــأن يُجَـــــدِّدوا بهـــــا الفـــــتن

فأصـــــــلح اللـــــــه عـــــلى يديـــــه

كـــــما عـــــزا نبيُّـــــنا إليـــــه

وأجمـــــع النـــــاس عـــــلى معاويـــــة

ونقـــــل القصـــــة كُـــــل روايـــــة

فمهـــــد الملـــــك كـــــما يريـــــد

وقـــــام فيـــــه بعـــــده يزيـــــد

ثـــــم أنـــــه وكـــــان بـــــرّاً راشـــــداً

أعنـــــي أبـــــا لـــــيلى وكـــــان زاهـــــداً

فـــــترك الإمـــــرةَ لا عـــــن غلَبَـــــة

ولم يكـــــن منـــــه إليهـــــا طلبـــــة

وابـــــن الـــــزبير بالحجـــــاز يـــــدأب

وفي طلـــــب الملـــــك وفيـــــه يـــــنصر

وبالشـــــــــام بـــــــــايعوا مروانــــــــــا

بحكـــــم مـــــن يقـــول كـــــن فكانــــــا

ولم يـــــــدم في الملــــــك غــــــير عـــــام

وعافصـــــــــته أســـــــهم الحـــــــمام

واســـــــتوثق الملـــــــك لعبـــــد الملـــــك

ونــــــارَ نجـــــمُ ســـــعده في الفَلَـــــكَ

وكـــــــلُّ مـــــن نازعــــــه في الملـــــك

خـــــرَّ صريعـــــاً بســـــيوف الهُلْـــــك

فقتـــــــل المُصْـــــــعَبَ بـــــــالعراق

وسَّـــــــير الحجـــــاج ذي الشـــــــقاق

إلى الحجــــــاز بســـــــيوف الـــــنِّقم

وابـــــن الـــــزبير لائـــــذٌ بـــــالحرم

فجـــــــاء بعـــــد قتلـــــه بصـــــلبه

ولم يَخَــــفْ في أمــــره مــــن ربـــــه

وعنـــــــدما صــــــفت لـــــه الأمــــور

تقلبــــــــت لحينــــــه الــــــدهور

ثـــــم أتى مــــن بعـــــده الوليـــــد

ثـــــم ســـــليمان الفتـــــى الرشـــــيد

ثـــم اســـــتفاض في الـــــورى عـــدل عمـــــر

تـــابع أمـــــر ربــــه كـــما أمـــــر

وكـــــان يُـــــدْعى بأســـــبحٍّ القـــــوم

وذى الصــــــلاة والتُّقــــــى والصــــــوم

فجـــــــاء بالعـــــــدل وبالإحســــــــان

وكــــفَّ أهـــــل الظلـــــم والطُّعيـــــان

مقتـــــــــدياً بســـــــــنة الرســـــــول

والراشـــــــدين مـــــن ذوي العقـــــول

فجُـــــرِّع الإســـــلام كـــــأسى فقـــــده

ولم يـــــرَوا مِـــــثْلاً لـــــه مـــــن بعـــــده

ثـــــم يزيـــــد بعـــــده هشـــــام

ثـــــم الوليـــــد فُـــــتَّ منـــــه الهـــــام

ثـــــم يزيـــــد وهـــــو يـــــدعى الناقصـــــا

فجـــــاءه حِمامُـــــهُ معافِصـــــاً

ولم تَطُـــــل مَـــــدة إبـــــراهيما

وكـــــان كـــــل أمـــــره ســـــقيما

وأســـــند الملـــــك إلى مروانـــــا

فكـــــان مـــــن أمـــــوره مـــــا كانـــــا

وأنقـــــرض الملـــــك عـــــلى يديـــــه

وحـــــادث الـــــدهر ســـــطا عليـــــه

وقتلـــــه قـــــد كـــــان بالصَّـــــعيد

ولم تفـــــده كـــــثرة العديـــــد

وكـــــان فيـــــه حتـــــف آل الحكـــــم

واســـــتُنزعت عـــــنهم ضُروب الـــــنِّعم

ثـــــم أتى ملـــــك بنـــــي العبـــــاس

لا زال فينـــــا ثابـــــتَ الأســـــاس

وجـــــاءت البيعـــــة مـــــن أرض العجـــــم

وقلَّـــــدت بيعـــــتهم كـــــلُّ الأمـــــم

وكـــــل مـــــن نـــــازعهم مـــــن أمـــــم

خـــــرّ صريعـــــاً لليـــــدين والفـــــم

وقـــــد ذكـــــرت مـــــن تـــــولىّ مـــــنهم

حـــــين تـــــولى القـــــائم المستعصـــــم

أولهـــــم ينعـــــت بالســـــفاح

وبعـــــده المنصـــــور ذو النجـــــاح[1]

ثـــــم أتى مـــــن بعـــــده المهـــــدي

يتلـــــوه مـــــوس الهـــــادي الصَّـــــفيُّ

وجـــــاء هـــــارون الرشـــــيدُ بعـــــده

ثـــــم الأمـــــين حـــــين ذاق فقـــــده

وقـــــام بعـــــد قتلـــــه المـــــأمون

وبعـــــده المعتصـــــم المكـــــين

١ البداية والنهاية (٣٧١/١٧).

واســـــتخلف الواثـــــق بعـــــد المعتصـــــم

ثـــــم أخـــــوه جعفـــــر مُـــــوفِي الـــــذِّمم

وأخلـــــــص النيـــــــة في التوكـــــــل

لله ذي العـــــــرش القـــــــديم الأول

فـــــــأدحض البدعـــــــة في زمانـــــــه

وقامـــــــت السُّـــــــنَّةُ في أوانـــــــه

ولم يُبَـــــــقِّ بدعـــــــة مُضِـــــــلَّة

وألـــــــبس المعتـــــــزليَّ ذِلَّـــــــة

فرحمـــــــة اللـــــــه عليـــــــه أبـــــــداً

مـــــا غـــــار نجـــــم في الســـــماء أو بَـــــدا

وعنـــــدما استشـــــهد قـــــام المنـــــتصر

والمســـــتعين بعـــــده كـــــما ذُكِـــــر

وجـــــاء بعـــــد موتـــــه المعتـــــز

والمهتـــــدي المكـــــرَّمُ الأعـــــزُّ

وبعـــــده اســـــتولى وقـــــام المعتمـــــد

ومهـــــد الملـــــك وســـــاس المعتضـــــد

والمكتفـــــي في الصـــــحف العليـــــا سُـــــطر

وبعـــــده ســـــاس الأمـــــور المقتـــــدر

واستوســـــق الملـــــك بعـــــزّ القـــــاهر

وبعـــــده الـــــراضي أخـــــو المفـــــاخر

والمتُّقـــــي مـــــن بعـــــده والمســـــتكفي

ثـــم المطيـــع مـــا بـــه خُلْـــفِ

والطـــــائع الطـــــائع ثـــــم القـــــادرُ

والقـــام الزاهـــد وهـــو الشـــاكر

والمقتـــــدي مـــــن بعـــــده المســـــتظهر

ثـــم أتى المسترشـــــدُ المـــــوقَّرُ

وبعـــــده الراشـــــدُ ثـــــم المقـــــتضي

وحـــين مـــات اســـتنجدوا بيوســـف[١]

والمســـــتضى العـــــادل في أفعالـــــه

الصـــادق الصـــدوق في أقوالـــه

والنـــــاصر الشـــــهمُ الشـــــديد البـــــاس

ودام طـــول مُكثـــه في النـــاس

ثـــــم تـــــلاه الظـــــاهرُ الكـــــريمُ

وعَدْلـــه كـــلٍّ بـــه علـــيم

ولم تطُـــــل أيامـــــه في المملكـــــة

غـــيرَ شـــهور واعترتـــه الهلكـــة

وعهـــــده كـــــان إلى المســـــتنصر

العـــادل الـــبَرِّ الكـــريم العـــنصر

---

١ البداية والنهاية (٣٧٢/١٧).

دام يســــــوسُ النـــــاس ســـــبْع عشرة

وأشــــــهرا بعزمـــــــات بـــــرّة

ثـــــم تَـــــوُفِّي عــــام أربعينــــــا

وفي جـــــمادى صـــــادفَ المنونــــا

وبــــــايع الخلائـــــــقُ والمُستعصـــــما

صــــلىَّ عليـــــه ربُّنــــا وســــلَّما

يبعــــثُ نُجــــب الرّســــل مــــن الآفــــاق

يقضــــــون بالبيعــــــة والوفــــاق

وشرّفــــــوا بــــــذكره المنــــــابرا

ونشرو مـــــن جُـــــودِهِ المفـــــاخرا

وســــار في الآفـــاق حســـنُ ســـيرته

وعدلــــــه الزائــــــد في رعيتيــــــه[1]

قال الشيخ عماد الدين ابن كثير: ثم قلت أنا بعد ذلك أبيتاً:

ثــــم ابــــتلاه اللــــه بعــــد التتــــار

أتبــــاع جنكيــــز خــــان الجبَّــــار

صــــحبه إبــــنِ ابــــن لــــه هولاكــــو

فلــــم يكــــن مــــن أمــــره فكــــاك

فمزقـــــــوا جنــــــوده وشـــــمله

وقتلــــــوه نفســــــه وأهلــــــه

---

١ البداية والنهاية (٣٧٣/١٧).

ودمـــــــــروا بغـــــــــداد والـــــــــبلادا
وقتّلــــــوا الأحفــــــاد والأجـــــــدادا
وانتهبـــــــوا المـــــــال مــــــع الحــــــريم
ولم يخـــــــافوا ســـــــطوة العظـــــــيم
وغـــــــــرَّهم إنظـــــــاره وحلمـــــــــه
ومــــــا اقتضـــــاه عدلـــــه وحكمـــــه
وشــــــغرت مـــــــن بعــــــده الخلافــــــة
ولم يـــــؤرِّخ مثلهــــا مـــــن آفــــة
ثـــــم أقــــام الملـــــك أعنـــــى الظـــــاهرا
خليفـــــة أعنـــــي بـــــه المســــــتنصرا
ثـــــم وَلِي مــــــن بعــــــد ذاك الحــــاكم
قســـــيم بيـــــبرس الإمــــام العــــالم
ثـــــم ابنُــــــه الخليفــــــة المســــــتكفي
وبعــــــض هــــــذا للبيــــــب يكفـــــي
ثـــــم وَلِي مـــــن بعــــــده جماعـــــة
مـــــا عنـــــدهم علـــــم ولا بضـــــاعة[١]
ثـــــم خليفـــــة الوقــــــت المعتضــــــد
ولا يكــــــاد الــــــدِهر مثلـــــه يَجـــــد

١ البداية والنهاية (٣٧٣/١٧).

في حســــن خُلْــــق واعتقـــــاد وجَـــــلى

كيــــف لا وهــــو مــــن الشُّــــمِّ الأُلى

ســـــــادوا الــــــبلاد والعبـــــاد فضــــــلاً

وملئُــــوا الأقطـــــار حِكَـــــما وعـــــدلا

أولادِ عـــــــم المصـــــــطفى محمــــــــد

وأفضـــــل الخلــــق بـــــلا تــــردُّدِ

صـــــــلىَّ عليــــــه ذو الجــــــلال

مــــا دامــــت الأيـــــام والليـــــالي[1]

سابعاً: أهم أسباب سقوط الدولة العباسية:

إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا وهلاكا وعذاباً في الآخرة وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والإجتماعية والسياسية والاقتصادية وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شون حياتهم قال تعالى: "فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يُصيبهم عذاب أليم" (النور ، آية : ٦٣)، لقد ابتعدت الأمة الإسلامية مع حكامها في أواخر الدولة العباسية عن شرع الله وانغسمت في حياة المادة وأصيب بالقلق والحيرة والخوف والجبن، وإنهارت أمام غزو المغول، وتصدعت خطوط الدفاع المقدمة، ولم تستطع أن تقف وقفة عز وشموخ واستعلاء وإذا تشجعت في معركة من المعارك ضعفت قلوبها أمام الأعداء من أثر المعاصي، وأصبحت في ضنك من العيش "ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا" (طه ، آية : ١٢٤). لقد أصيبت الأمة بحكامها وشعوبها إلا ما رحم الله في الجانب الشرقي منها في بلاد ما وراء النهر، وإيران والعراق بالتبلد وفقد الإحساس بالذات ومات ضميرها الروحي، فلا أمر بالمعروف تأمر به ولا نهي عن المنكر تنهي عنه، وأصابهم ما أصاب بني

---

١ المصدر نفسه (٣٧٤/١٧).

إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: "لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون" (المائدة ، آية : ٧٨ ـ ٧٩).

فإن الأمة عندما لا تعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذون على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضاً، ثم ليلعنكم كما لعنهم[١]".

إن حكام المسلمين في بلاد ما وراء النهر وإيران والعراق تحققت فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله، قال تعالى: "ذلك بأن الله لم يكن مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الأنفال ، آية : ٥٣) ، كما أن المجتمعات التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله، وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة، لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم، لقد كانت ممالك المسلمين في تلك الديار مليئة بالاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض، وتعطلت أحكام الله بينهم، ونشبت حروب وفتن وبلايا، تولدت على أثرها عداوة وبغضاء بسبب الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسوله سهلت مهمة المغول في بخارى وسمرقند، وأفغانستان وإيران، والعراق فأصبحت شوكتهم تقوى، وحصلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن ملوك تلك البلدان وحرموا من التمكين وأصبحوا في خوف وفزع من أعداهم، وبعض المدن تبتلي بالجوع بسبب حصار المغول لهم، وكم قتل المغول من المسلمين وكم سبوا من نسائهم.

إن الابتعاد عن شرع الله تعالى، وعدم الأخذ بسنن الله في إدارة الصراع ترتب عليه انتقاص الأرض وضياع الملك، وتسلط الكفار، وتوالي المصائب.

إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عصي الله تعالى ممن يعرفونه سلّط عليهم من لا يعرفونه، ولذلك سلط الله المغول على المسلمين،

---

١ سنن أبي داود، ك الملاحم رقم الحديث ٤٦٧٠.

وعندما تحرك الفقهاء والعلماء، بمصر والتفوا حول دولة سيف الدين قطز وتعاهدوا على نصرة دين الله، نصرهم على المغول في عين جالوت يأتي الحديث عنها بإذن الله مفصلاً.

إن الذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

ـ معاندة الرسل والكفر بما جاؤوا به[1].

ـ كفر النعم بالبطر والأثر، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعمة الله واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه ملوك المسلمين وأمراؤهم واتقنوه اتقاناً عجيباً في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ الأمة[2].

لقد تعدد أسباب سقوط الدولة العباسية، فقد تطاول عليها الزمن وأدركتها الشيخوخة، وبدت عليها مظاهر الإنهيار قبيل حملة هولاكو، وكانت جذور العنف تمتد في جسم هذه الدولة قبل ذلك بمدة طويلة لأسباب كثيرة يأتي بينها بإذن الله تعالى من أهمها:

١ ـ **غياب القيادة الحكيمة:** لم تكن شخصية الخليفة المستعصم بالله تمثل القيادة الحكيمة الراشدة، بل كان ضعيف الشخصية ولم يكن الرجل المناسب في المكان المناسب، لقلة خبرته وعدم إهتمامه بأمور دولته، ففي الوقت الذي كانت الأخبار تصل إليه تباعاً باقتراب جيوش المغول، لم يتخذ الاستعداد الكافي لمواجهتها قبل أن يستفحل خطرها[3]، لم يكن على مستوى من التيقظ والهمة، بل كان قليل المعرفة والتدبير والتيقظ، نازل الهمة،، محباً للمال، مهملاً للأمور، يتكل فيها على غيره، ولو لم يكن فيه إلا ما فعله مع الملك الناصر داود في الوديعة لكفاه ذلك عاراً وشناراً.

---

١ تاريخ دولتي المرابطين والموحدين للصَّلاَّبي صـ١٤٢.

٢ تاريخ دولتي المرابطين والموحدين صـ١٤٢.

٣ جهاد المماليك صـ٣٥١، قضايا ومواقف من التاريخ العباسي صـ٢٠٤.

فكان الضعف القيادي في شخصية المستعصم من الأسباب والمقدمات في زوال الدول العباسية، لم يحسن اختيار الوزراء، وليست له قدرة على المتابعة والمحاسبة وكان يقاد ولا يقود، وكان سلوكه هذا سبباً لجرأة بعضهم عليه واستغفاله وتحديه فازدادت الفتن في زمانه وازداد التذمر وازداد تدهور الحياة الاقتصادية وانتشار الغلاء وسيطر اللصوص والشطار العيارون ينهبون ويسلبون أمام الشرطة وصاحبها أو بالتواطؤ معه والخليفة لا يحاسب صاحب الشرطة ولا يحاسب الوزير الذي هيمن على جميع الأمور في البلاد وولاياتها التي انفصلت واستقلت، والوزير ابن العلقمي يمهد للانقلاب، حتى يسهل تمرير المؤامرة لازالة السيادة الإسلامية، واسقاط الخلافة[1]، لقد غابت القيادة الحكيمة الربانية والتي تحدث عنها المولى عز وجل في كتابه وبين صفاتها وأخلاقها لكي تعمل الأمة على إيجادها، ولكن الأمة تركت حقها في الاختيار، وتأثرت مع الزمن والوقت بمعاول هدم روح المبادرة، والمحاسبة والمتابعة والوقوف ضد أخطاء الحكام، وأصبح الخليفة محمي بقداسة وهمية صنعت لهذا المنصب مع مرور الزمن، والابتعاد عن روح الشريعة ومقاصدها الغراء وإلا فالمعايير والصفات للقيادة الحكيمة بينها المولى عز وجل في سورة الكهف في قصة ذي القرنين وفي سيرة داود وسليمان عليهما السلام، وغيرها فقد بين المولى عز وجل من خلال الحديث عن ذي القرنين معالم التمكين عنده لكي يقتدي حكام الأمة بهذه النماذج وتحدث عن معالم التمكين والتي من أهمها:

١. دستوره العادل: قال تعالى: " فأما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً, وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا" ((الكهف، آية: ٨٧، ٨٨)).

٢. اهتمامه بالعلوم المادية وتوظيفها للخير:فقد وظف عدة علوم في دولته القوية من اهمها علم الجغرافيا حيث نجد أن ذا القرنين كان على علم بتقسيمات الأرض وفجاجها وسبلها، ووديانها وجبالها وسهولها، لذلك استطاع أن يوظف هذا العلم في حركته مع جيوشه شرقاً وغرباً وشمالا وجنوبا، وكان صاحب خبرة

---

[1] بغداد مدينة السلام غزو المغول صـ١٢٥.

ودراية بمختلف العلوم المتاحة في عصره يدل على ذلك، اختياره للخامات ومعرفته بخواصها، واجادته لاستعمالها والاستفادة منها، فقد استعمل المعادن على احسن ما خلقت له ووظف الإمكانات على خير ما أتيح له "آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً" (الكهف ، الآية : ٩٦).

٣. كان واقعياً في قياسه للأمور وتدبيره لها، فقد قدّر حجم الخطر، وقدّر ما يحتاجه إليه من علاج، وذكر القرآن الكريم أخلاقه القيادية من الصبر والمهابة والشجاعة والتوازن في شخصيته وكثرة ذكره لخالقه وعفته عن أموال الناس ورحلاته الجهادية في سبيل الله والمفاهيم الحضارية التي مارسها في حياته ومن أراد التوسع فليراجع كتابي ((فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم))[١].

هذه المعايير والمقاييس والأخلاق في الاختيار الحاكم غابت عن المسلمين وتولى منصب الخلافة من ليس بأهل لها، وبالتالي ساهم ضعف الخليفة في سقوط الدولة العباسية.

٢ ـ إهمال العباسيين لفريضة الجهاد: إن أخطر العوامل التي أسقطت خلافة العباسيين إهمالهم لفريضة الجهاد، فبعد المعتصم المتولي أمور الدولة سنة(٨٣٣هـ) لم نسمع عن معارك ذات شأن قامت بها الدولة، ولم يكن مبدأ ((الجهاد الدائم)) حماية لهذه الدولة المترامية الأطراف أحد أركان السياسة العباسية، لقد تقوقعوا في مشاكل الدولة الداخلية، فحصرتهم مشاكلها وماتوا ببطء، ولو أنهم وجهوا طاقة الأمة نحو ((الجهاد)) ضد الصليبيين، لتغير أمر الحركات الهدامة التي قدر لها أن تظهر وتنتشر، وذلك أن هذه الحركات لا تنتشر إلا في جو مليء بالركود والفساد والمناخ الوحيد الصالح للقضاء عليها هو المناخ القتالي الذي يكشف المعادن النقية، ويذيب المعدن الرخيص، لقد كانت الحاجة الإسلامية ملحة إلى ضرورة رفع راية الجهاد، وكانت الدولة الإسلامية التي تعرضت للإنشقاق والتمزق تحتاج إلى هذا الصمام ليحميها من جو السكوت والاستسلام، لكن العباسيين غزوا في عقر دارهم فذلوا، ولم يرفعوا راية

---

١ فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم صـ١٦٣ ـ ١٨٤.

الجهاد ضد الغزو الخارجي، فارتفعت رايات العصيان الداخلي وكان بإمكانهم أن يشغلوا الأجناس المختلفة التي ضمتها الدولة في هذه الحروب الجهادية المستمرة ضد الغزاة وضد الوثنيات المختلفة، لكنهم لم يفعلوا فتحركت النعرات القومية الجاهلية لتفتت الدولة وتقسم جسمها تحت رايات مختلفة ليس لها بالإسلام أو بالجهاد صلة، وفي سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) كان هولاكو ـ حفيد جنكيز خان ـ يدمر الذين اتجهوا إلى كل السبل إلا سبيل الجهاد، وحاولوا العلاج بكل الوسائل إلا الوسيلة الإسلامية الخالدة القوية، وقد هاجم هولاكو بغداد وهد أسوارها وأعمل المنجنيق فيها، وحصد بغداد، حتى لم يعد ممكناً الإقامة فيها لشدة روائحها المنفرة، وعندما خرج الخليفة المستعصم إليه مستسلماً بصحبة ثلاثمائة من اصحابه وقضاته دون شرط، أمر هولاكو بقتلهم جميعاً، وطويت صفحة الخلافة العباسية، ذلك أن أسلوب الأحلام الرومانتيكية الساذجة ليس وسيلة البقاء أو تشييد الحضارات، فالذين لا يملكون إرادة الهجوم، يفقدون القدرة على الدفاع[١]، لقد عطلت الدولة العباسية هذه الفريضة وتخلت عن أهدافها والتي من أهمها:

أ ـ إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض قال تعالى: "إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً" (النساء ، الآية : ١٠٥).

ب ـ دفع عدوان الكافرين قال تعالى: "فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً" (النساء ، الآية : ٧٤).

جـ ـ رد اعتداء الكفار في ديار المسلمين: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" (البقرة ، الآية : ١٩٠).

وغير ذلك من الأهداف، فكان لإهمال فريضة الجهاد وعدم الاهتمام بأهدافه من أسباب زوال الدولة العباسية.

---

١ دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية صـ١٢٧.

٣ ـ **إنعدام الوحدة السياسية في العالم الإسلامي:** بدأ الضعف يتسرب إلى جسم الدولة العباسية المترامية الأطراف في العقود الأخيرة من القرن الثاني للهجرة، الثامن الميلادي، عندما بدأت بعض الولايات البعيدة عن مركز الدولة في بغداد تنفصل مكونة دولاً مستقلة وتعجز الخلافة عن إعادتها للسيطرة المركزية فقد تأسست دولة الأدارسة أقصى المغرب عام ١٧٢هـ ـ ٨٠٠م ثم قامت الدولة الفاطمية على إنقاض دولة الأغالبة في تونس عام ٢٩٧هـ/٩٠٩م وفي مصر قامت الدولة الطولونية عام ٢٥٤هـ/٨٦٨م، أعقبتها الدولة الإخشيدية عام ٣٢٣هـ/٩٣٥م وفي عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م استولى الفاطميون على مصر وجعلوا القاهرة عاصمة دولتهم، وهكذا خرج المغرب الإسلامي ومصر بشكل تدريجي من حيث الزمان والمكان عن نطاق الدولة العباسية، وظهرت خلافة جديدة تسيطر على النصف الغربي من العالم الإسلامي وتسعى للسيطرة عل النصف الشرقي الذي أصابه من أصاب النصف الأول من حيث قيام الدول المستقلة، فقد قامت الدولة الظاهرية في خراسان عام ٢٠٥هـ/٨٢٠مـ وتبعتها الدولة الصفارية عام ٢٥٤هـ/٨٦٧م، ثم غلبت على المنطقة الدول السامانية التي تأسست عام ٢٠٤هـ/٨١٩م في بلاد ما وراء النهر ثم امتد نفوذها لتشمل جميع البلاد التي كانت تتبع للدولة الصفارية، وكان نفوذ الخلافة العباسية يتحول من سلطة سياسية إدارية روحية إلى سلطة روحية فقط، ولم يبق للخليفة سوى ذكر اسمه في خطب الجمعة متبوعاً باسم السلطان الغالب على البلاد، ويعود السبب الرئيسي في ضعف الخلافة العباسية وتلاشي سلطتها[١] إلى أسباب كثيرة ليس هنا مجال بحثها، وقد تمكن الأتراك في عهد المعتصم (٨١٨ ـ ٢٢٧هـ)، وكانت لهم حظوة في عهده وقربهم وأسند لهم المناصب العليا في مركز الدولة والولايات، واعتمد عليهم في حراسة قصره، حتى تطاولوا على الناس وكثرت شواكي الناس من ظلمهم في بغداد، فبنى لهم المعتصم مدينة سامراء وجعلها عاصمة لهم ومن حوله حاشيته من الأتراك، وزاد نفوذهم وصاروا وحدهم المتسلطين على أمور الخلافة والدولة حتى أصبحوا هم الذين ينتخبون الخليفة الذي يريدون، يعزلون من لا يوافق رغباتهم وأهوائهم ، وفي عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م استولى البويهيون الشيعة على العراق

١ دور نور الدين محمود في نهضة الأمة صـ٢٥.

وأضافوه إلى دولتهم التي تأسست قبل ذلك في فارس، وصاروا هم المتسلطين على شئون الخلافة وتعسفوا في معاملة الخليفة حتى أنهم عذبوا بعض الخلفاء وسجنوا بعضهم، وقتلوا البعض الآخر، وكان بإمكانهم القضاء على الخلافة العباسية والدعوة للخلافة الفاطمية في العراق وباقي المشرق الإسلامي خاصة بعد إستيلاء الفاطميين على مصر، لكنه لم يفعلوا ذلك ليس حفاظاً على الخلافة العباسية، بل حفاظاً على سلطانهم ودولتهم من أن تزول لصالح الفاطميين، الذين تمكنوا من بسط سيطرتهم على بلاد الشام وشبه جزيرة العرب، وأخذوا يبثون دعاتهم في العراق لإنهاء الخلافة العباسية وضم باقي المشرق الإسلامي لدولتهم، وفي عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م استغل أحد دعاتهم ضعف سلطة البويهيين وأثار فتنة في بغداد وتمكن خلالها مع مؤيديه من القاء القبض عل الخليفة وحبسه، فاستنجد الخليفة بالسلطان طغرل بك سلطان السلاجقة الذين كانوا قد أسسوا دولتهم عام ٤٢٧هـ/١٠٣٧م في بعض مناطق خراسان، ثم توسعوا جنوباً وغرباً في أراضي الدولة البويهية التي كانت قد ضعفت، كما تقدم وسارع سلطان السلاجقة إلى استغلال الفرصة فتوجه إلى العراق وقضى على الفتنة وعلى الدولة البويهية وأعاد للخليفة إعتباره ولكن البساسيري التي تأثر بدعوة الفاطميين استولى على بغداد بعد أن غادرها طغرل بك ٤٥٠هـ/١٠٥٨م وأقام الدعوة فيها للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، إلا أن طغرل بك عاد إلى بغداد من جديد وقضى على داعية الفاطميين، واستقرت الأوضاع في العراق لصالح دولة السلاجقة السنيين، الذين أظهروا قدراً كبيراً من الاحترام للخليفة، ولكنهم أبقوه رمزاً دينياً بدون قوة وصلاحيات، وعندما اجتاح الصليبيون بلاد الشام عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م كانت الخلافة العباسية عاجزة تماماً عن القيام بأي رد فعل سوى توجيه الرسل إلى سلاطين السلاجقة لمعالجة الأمر[١]. وأصبحت العلاقة بين السلاجقة والخلافة العباسية بين مد وجزر إلى نهايتها ومجيء الخوارزميين كقوة جديدة اصطدمت بالخلفاء العباسيين وقد بينا ذلك، وفي عهد المستعصم بالله العباسي آخر خلفاء العباسيين وبالرغم من المتاعب والمحن التي أحاطت بالخلافة العباسية فإن المصادر لم تشر إلى أية محاولة من الخليفة العباسي المستعصم بالله في الاتصال بالقوى

١ دولة السلاجقة للصلابي صـ٥٥٩.

الإسلامية وبالأخص الإيوبيين في الشام والمماليك في مصر، إذ يبدو أنه كان واهماً بأن تلك القوى ستكون رهن إشارته عند الحاجة لها، يدلنا على ذلك تلك الرسالة التي رد بها الخليفة على تهديدات هولاكو، والتي ذكر فيها بأن كل القوى الإسلامية تنتظر إشارة بسيطة منه للوقوف في وجه المغول متناسياً بأن الأيوبيين والمماليك كان لديهم من المشاكل ما يمنعهم من تقديم أي مساعدة لبغداد[1].

٤ ـ **ضعف الجيش العباسي:** في أواخر عهود الخلافة العباسية، بدأ التفكك يدب في كيان الدولة، وبدأت الولايات تنعزل أو يستغل بها ولاتها جزياً أو كلياً، فينتبه خليفة ويهمل خليفة آخر شأن الجيش، أو ينتبه الخليفة نفسه في فترة لهذا الجيش، ويهمله في فترة أخرى، وكان آخر من سجل نقطة تحول في تجديد الحياة إلى الجيش العباسي وبث الحيوية في تنظيماته هو الخليفة المستنصر بالله أبو الخليفة المستعصم بالله وذلك بعد أن تمزقت الدولة العباسية، وبدأت السيادة الإسلامية العباسية تفقد نفوذها وأخذ التشرذم ينتاب هذه الدولة ومع مجيئ الخليفة المستنصر بالله رفع عدد جنوده إلى مائة ألف جندي للتمكن من صد زحف المغول المحتمل ومحاولة ردهم عن تخوم الدولة ومقاتلتهم واستخلاص الأراضي التي بسطوا هيمنتهم عليها، لكن بطانة الخليفة المستعصم بالله، لم تلتفت إلى هذا الأمر وتركت مهمته إلى الخليفة الذي اقتنع برأي وزيره الفارسي ابن العلقمي بانقاص عدد الجند إلى عشرين ألف فقط، ولم تحرك بطانة الخليفة ولا أمراء الجند ساكناً في هذا الحدث المهم والكبير بالرغم من وجود خطر داهم أصبح عاصمته همذان، وهي قاعدة الانطلاق العسكري بالرغم من نهشه المتفاوت لتخوم الدولة العباسية الضيقة الحدود، إذ كان الخليفة قد أهمل حال الجند ومنعهم أرزاقهم وأسقط أكثر من دساتير ديوان العرض فآلت أحوالهم إلى سؤال الناس وبذل وجوههم في الطلب في الأسواق والجوامع، ونظم الشعراء في ذلك الأشعار[2]، ويقول ابن كثير: وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمه من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر بالله قريباً من مائة ألف مقاتل منهم الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل

---

١ جهاد المماليك صـ٥٣ للغامدي.

٢ بغداد مدينة السلام صـ١٣٩.

في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتر وأطمعهم في أخذ البلاد.. وأن يبيد العلماء والمفتين[1]، وكان النظام مفقوداً في جيش الخليفة ومني بفقدان الوحدة في قيادته، فكان له عدة قوات، كل يعمل على شاكلته وبرأيه الخاص، خلافاً لما كان عليه الحال لدى المغول فقد كان النظام سارياً فيه بفضل توحيد قيادته العليا وحصرها بشخص السلطان يؤازره ديوان شورى الحرب وكان مؤلفاً من كبار قادة المغول وأمرائهم من مهام هذا الديوان تقرير الخطط الحربية ولم يكن للخليفة المستعصم ولا لقادة جيشه عناية بفن الإستطلاع أو الوقوف على الحقائق في بلاد الأعداء، بل كان خليفة بغداد يجهل أو يتجاهل كل شيء من هذا القبيل وأما المغول فكانت لهم عناية بالغة بهذا الفن وكان لجيشهم عيون يعولون عليها في مواصفاتهم بحقائق الأحوال ومن تفننهم في ذلك استعمال طلائعهم العسكرية في التجسّس وربما تكرّر ذلك منهم سنين طويلة ويُعزى ظفرهم في كثير من الحروب إلى عوامل من جملتها اهتمامهم بتسقط انباء الأعداء، فوجدو أن الدولة العباسية حدودها شاغرة وأنظمتها فاسدة وجيوشها خائرة وبالجملة فقد ظهر الفساد في الدولة من قرنها إلى قدمها[2].

٥ ـ **ضعف عصبية الدولة:** قامت الدولة العباسية على فكرة إسلامية شاملة ولم تكن لها عصبية قومية متحدة الأوصال وثيقة العرى وإنما كان الإسلام هو الذي جمع بين القوى القومية المتعددة الأجناس، وكان بنو العباس يسندون أمر وزاراتهم إلى رجل يختارونه من الموالي ويجعلون قيادة جنودهم إلى موالي وإلى عرب ولكنهم كانوا تحت تأثير الظنون والريب التي تحوم حول عقولهم من استبداد الموالي بالسلطان فمتى شموا من وزير أو قائد من الموالي الخراسانيين رائحة من ذلك عاجلوه وانظر مافعله المنصور بقائد الجيوش العباسية أبي مسلم الخراساني وزيره الأول ولأبي مسلم ماله من السابقة وحسن الأثر في إحياء الدولة ولكن ذلك لم ينفعه أمام ريب أبي جعفر وغيرته على ملكه أن يشاركه فيه أحد ولا يمكن أن نبرئ أبا مسلم من قصد تحويل السلطان إلى قومه وليس بنو العباس في نظره إلا واسطة ولما قتل أبو مسلم قام بالثأر

١ البداية والنهاية(١٩٦/١٣)، بغداد مدينة السلام صـ١٣٩.

٢ خلفاء بني العباس والمغول اسقطوا بغداد صـ٥٦٨، ٥٦٩.

له قائد فارسي على دين قومه من الوثنية سنباذ وجمع لذلك جموعاً عظيمة وكاد يزلزل بلاد خراسان لولا أن غولب بالعصبية العربية ـ الممزوجية بالعقيدة الإسلامية ـ فإن أبا جعفر أعدله جمهور بن مرار العجلي وهو من رجال ربيعة فكسر قوته وقام يطلب بثأره أيضاً الراوندية، فقضى عليهم قائد من زعماء ربيعة وهو معن بن زائدة الشيباني والخلاصة أن الدولة العباسية ابتدأت على عصبية يتحد دينها وتختلف عناصرها ولبعض هذه العناصر أغراض لا تتفق مع سيادة الدولة وعظم شأنها ونفوذ خلفائها وحدث صراع بين العصبيات الجزئية على حساب العصبية الكلية التي كان يجمعها الإسلام، وحدث صراع بين عصبية الأجانس والقوميات أضحت بني العباس، بعد فقدان توازن القوى وما ترتب عليه من إختلال في النفوذ، أو المقام الديني حفظ هذه الدولة من الفناء مع هذا الضعف المتوالي، فدخل في عصبية الدولة العباسية الفرس وأصبحوا أصحاب النفوذ ثم الأتراك، ثم البويهيون ثم السلاجقة، كما مرَّ معنا وحاول خلفاء الدولة العباسية بعد ضعف السلاجقة أن يستيقظوا من السبات الطويل، وفوجئوا بخروج سيل المغول الجارف والعصبية القائمة عليها الدولة في حالةمن التردي والضعف، والهوان[١].

٦ ـ **ضعف قيمة العهود:** الوفاء بالعهد خلق إسلامي أصيل حافظ عليه المسلمون وبذلوا دونه أموالهم وأنفسهم، شهد لهم بذلك الفرس والروم والبربر وغيرهم من الأمم، قال تعالى: "وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً" (الإسراء ، الآية :٣٤)، وقال تعالى: "وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون) (النحل ، الآية ٩١)، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي شددت في وجوب الوفاء بالعهد واعتبارها أساساً تقوم عليه الأمة الإسلامية وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون، ولما جاءت الدولة العباسية، وقد ظهرت على أيدي قادة الدولة حوادث متكررة تدل على أنه ليس للعهود في نظر خلفائها قيمة، فقد قتل المنصور في حياة السفاح ابن هبيرة بعد أن أمن أماناً لا شك ولا حيلة فيه، وكان الذي أشار بقتله أبو مسلم الخراساني مشيد الدولة العباسية

---

١ الدولة العباسية للخضري صـ٤٨٠.

وكانوا لا يحبون أن ينفذوا أمراً دون مشورته، ثم أعاد المنصور هذه الرواية نفسها مع أبي مسلم بعد أن أمنه ثم فعل مثل ذلك مع عمه عبد الله بن علي بعد أن أمنه ,اعلن رضاه عنه ولذلك لما كاتب المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن وقال إنه يعطيه الأمان، أجابه محمد بقوله: وأما أمانك الذي عرضت فأي الأمانات هو أمان ابن هبيرة أم أمان أبي مسلم أم أمان عمك عبد الله بن علي والسلام، وهذه كلمة شديدة الوقع سيئة التأثير وصمة عار في تاريخ الدولة العباسية، فهذا الذي حصل في صدر الدولة كان مجرئاً لمن أتى بعد ذلك أن يحاولوا التخلص مما تقضي به العهود إذا رأوها مخالفة لمصالحهم، ولا سيما العهود التي تعقد لتولي الخلافة، فإنهم جعلوها من الأشياء التي يسهل حلها وإن كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق، فعل ذلك المنصور مع عيسى بن موسى الذي عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور، فقدم عليه ابنه محمد المهدي وهذا التقديم وإن كان قد تم بطلب عيسى ورضاه إلا أن نعرف كيف توصل المنصور إلى الحصول على هذا الرضا من الإساءات المتكررة لعيسى والتهديد المتواصل حتى همَّ الرجل أن يخلع طاعة المنصور ويفتن الأمة، وفي رأيي أنه لو وجد نصراء لفعل وإن كان قد أثر عنه شعر يفيد أنه آثر مصلحة الأمة على مصلحة نفسه وهو قوله:

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما

إما صغار وإما فتنة عمم

وقد هممت مراراً أن أساجلهم

كأس المنية لولا الله والرحم

وفعل الأمين ذلك مع أخيه المأمون فأدى ذلك للفتنة الشعواء التي كانت بين سنة ١٩٤هـ إلى ١٩٨هـ قاست الأمة في أثنائها مصاعب هائلة ولم يوجد منهم من هاب ذلك الفعل محافظة على العهود والمواثيق ومن البديهي أن أمثال هذه العهود ليست قاصرة على المتنازعين بل تتعداهم إلى القادة والأمراء، فهؤلاء ينشقون أيضاً ويستسهلون الإقدام على فك تلك القيود التي حلفوا الإيمان الوثيق على الوفاء بها، وكتب الرشيد أماناً ليحي بن عبد الله وأكد فيه غاية التأكيد ولما إرتاب منه، صار

يبحث في الوجوه التي يبطل بها الإيمان، وجعل فقهاء وقته الواسطة في ذلك، فمنهم من أبت عليه شيمته ودينه أن يسترسل في الدين مع الأهواء، ومن سارع إلى هوى الخليفة، وصار يبدي الأوجه التي ينتقص منها الأماني، كل هذا من العيوب التي شقت عصا البيت وتعدت إلى فرقة الأمة فأضعفت عصبية الدولة وآل الأمر لخلفائها إلى أن تكون قوتهم مستمدة من المتغلبين عليهم[1].

٧ ـ **ضعف همم ملوك الأطراف:** في مقابل قوة هؤلاء المغول وشدة بأسهم وإجتماع كلمتهم فقد ساهم في سرعة إنتشارهم وسيطرتهم على مدن العالم الإسلامي وحواضره ضعف ملوك الإسلام في تلك الفترة بعامة، وإنشغالهم عن الجهاد باللغو واللعب، وهذا المؤرخ ابن الأثير ـ يرحمه الله ـ ينعي على الإسلام وأهله، ويصف أحوال ملوكه قبيل وفاته بسنتين فيقول معلقاً على أحداث سنة ٦٢٨هـ ما نصه: "فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدين، بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته، وهذا أخوف عندي من العدو، وقال تعالى: "واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منك خاصة" (الآية ، الآية : ٢٥)"[2]. وليست أوضاع الخلافة العباسية ولا الخلفاء العباسيين بمعزل عن هذا الوضع المتردي، فقد انحسر سلطان الخلافة وإنكمشت حدود العباسيين، واستقل غيرهم بالسلطة في حكم أجزاء من العالم الإسلامي، وهو أمر لم يكن سائغاً في ظل حكم الدولة الأموية، هذا فضلاً عن اشتغال الخلفاء العباسيين بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات[3]. هذه الحقائق يجليها لنا ابن كثير عليه رحمة الله في محاولة منه لتلمس أسباب نهاية الدولة العباسية على أيدي التتار فيقول: ولم تكن أيدي بني العباس حاكمة على جميع البلاد، كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار، فإنه خرج عن بنو العباس بلاد المغرب وكذلك أخذت من أيديهم بلاد خراسان وما وراء النهر وتداولتها الملوك دولاً بعد دول حتى لم يبق مع الخليفة منهم إلا بغداد وبعض بلاد العراق، وذلك لضعف خلافتهم وإشتغالهم

---

١ الدولة العباسية صـ٤٩٠.

٢ الكامل في التاريخ (١٢ ـ ٤٩٧)، كيف دخل التتار بلاد المسلمين صـ٣٩.

٣ كيف دخل التتار بلاد المسلمين صـ٤٠.

بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات[1]. ويقول قطب الدين اليونيني: ".. إنما قدموه على عمه الخفاجي لما يعلمون من لينه وإنقياده وضعف رأيه ليستبدوا بالأمور وإذا صح ما ينسب إليه "ابن العبري" من ضعف الهمة وزهده بأقطار الخلافة عدت بغداد فهي طامة كبرى، إذ ينسب إلى "المستعصم" قوله: إن بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا أيضاً يهجمون عليَّ وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي[2]، وعلى كل حال إن ضعف المستعصم معروف حتى عند "التتار" ولذا كانوا يسمونه "الأبله"، ولم يقف هذا الضعف والهوان عند حدود دول المشرق الإسلامي أو ينتهي بضعف مركز الخليفة العباسي وضمور سلطان الخلافة العباسية، بل جاوز ذلك إلى ملوك وسلاطين المسلمين في بلاد الشام ومصر، فقد ذكر ابن كثير ـ في أحداث سنة ٦٥٨هـ ـ أن سلطان دمشق وحلب ((الملك النصر بن عبد العزيز))، وملك الكرك والشوبك ((الملك المغيث بن العادل)) قد عزموا على قتال المصريين وأخذ مصر منهم، ومعهما الأمير ركن الدين ((بيبرس البندقداري))[3]، وقبل ذلك ذكر الذهبي أن عسكر الناصر سنة ٦٥٦هـ عليهم ((المغيث)) صاحب الكرك ليأخذوا مصر، فالتقاهم ((المظفر قطز)) وهو نائب للمنصور علي ولد المعز بالرمل وأسر جماعة أمراء فضرب أعناقهم[4]، وقبل ذلك كذلك وفي سنة ٦٤٢هـ كان حصار الخوارزمية على ((دمشق)) في خدمة صاحب ((مصر)) واشتد القحط حتى التقى بهم ((الشاميون)) ومعهم عسكر من ((الفرنج)) بين عسقلان وغزة فانهزم الجمعان وحصدت الخوارزمية الفرنج واندك صاحب ((حمص)) ونهبت خزائنه وبكى وقال ـ معبراً عن سر الهزيمة ـ: قد علمت بأن لا نفلح لما سرنا تحت الصلبان، قال ابن الأثير واصفاً أحوال المسلمين في هذه الفترة بشكل عام: فمن سلم من المسلمين من هاتين الطائفتين ((التتار والفرنج)) فالسيف بينهما مسلول والفتنة قائمة على ساق[5]، وإذا

١ البداية والنهاية (١٣ ـ ١٩٥)، كيف دخل التتار بلاد المسلمين صـ٤٠.
٢ تاريخ مختصر الدول صـ255.
٣ البداية والنهاية (١٣ ـ ٢٠٧)، كيف دخل التتار صـ٤٢.
٤ سير أعلام النبلاء (٢٣ ـ ١٨١)، كيف دخل التتار صـ٤٣.
٥ الكامل في التاريخ (١٢ ـ ٣٦١)، كيف دخل التتار صـ٤٣.

علم ذلك كله أمكن تصور سرعة إنتشارهم وضعف المقاومة أمامهم، وملء الرعب في قلوب الناس من حولهم، واللـه غالب على أمره[١].

٨ ـ تنازلات سياسية دلت على الوهن العباسي: بعد أن كان كل ملوك الأرض وسلاطينها يخافون أو يحترمون الخلفاء العباسيين ويهابون دولتهم، فيقدمون لهم الجزية والهدايا أو يتهادون على قدم المساواة تعبيراً عن الود وحسن الجوار ودفعاً للمخاطر، صار الخلفاء العباسيون المتأخرون هم الذين يقدمون الهدايا والأموال المقاربة للجزية لهولاكو، ليس تعبيراً عن الود أو حسن الجوار إنما دفعاً لشره، وخوفاً من مداهمته، وقد كان المستنصر باللـه يقدم هذه الهدايا والأموال والجواري والغلمان والخيول العربية الأصيلة إلى هولاكو، كما كان الخلفاء العباسيون المتأخرون يقودون إلى أصحاب الولايات والإقطاعات التي انفصلت عن الدولة واستقل بها أصحابها ويتجنبون إغضابهم مع حزم وحنكة الخليفة المستنصر باللـه، إلا أنه مع ذلك يصانع التتار ويهاديهم، فلما ولي المستعصم باللـه أشير إليه بقطع أكثر الجند، وأن مصانعة التتار وحمل المال إليهم يحصل به المقصود، ففعل ذلك[٢]، وكانت مصانعة التتار بطريقة تدل على الخور والضعف وعلى سوء إدارة الوزير العلقمي وخبثه وعماية القضاء وأمراء الجند وعدم فطنتهم، وحدث تواطؤ على إسقاط الدولة بعد إيقاع الخليفة في مأزق الخوف، والخلافة أصبحت هدفاً للمغول الذين أيقنوا بضعف روح الممانعة والمدافعة والمغالبة أمام التنازلات السياسية الغير محكمة والخالية من الدراسة والنظر الاستراتيجي والتخطيط السليم، فكان ذلك من أسباب السقوط العباسي.

٩ ـ تعدد مراكز القوى: لم يكن زمام الأمور في بغداد مركزاً في يدٍ واحدة، بل كانت هناك سلطات مختلفة متعارضة كل منها يجور على السلطة الأخرى، ويتدخل في عملها، ولم تكن هناك رابطة تجمع الحكام ومن بينهم تصريف شئون الدولة، بل كانوا متنازعين متباغضين، كل منهم ينقم على الآخر ويدبر ضده المؤامرات، ويسفه رايه عند الخليفة، وفوق كل هؤلاء كان الخليفة مسلوب الإرادة ضعيف الشخصية، لا يستطيع أن يوقف كل واحد منهم عند حده، فترتب على ذلك أن اتسعت شقة

١ كيف دخل التتار صـ٤٣.
٢ بغداد مدينة السلام وغزو المغول صـ١٤١.

الخلاف بين الساسة، واستحكم العداء بينهم، خصوصاً بين مؤيد الدين العلقمي وزير المستعصم وكان شيعياً، وبين مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير، وكان سنياً، فقد حدث قبيل حملة هولاكو خان أن جمع الدواتدار الصغير حوله كثيراً من الرعاع والمشاغبين والسفلة وأخذ يهدد الأمن ويضع الخطط لخلع الخليفة وإحلال آخر محله، فلما علم الوزير بتلك المؤامرة، أخبر الخليفة على الفور بما يدبر ضده وطلب إليه أن يقضي على تلك الفتنة في مهدها، ولكن الخليفة جرياً على سياسة التهاون وعدم المبالاة، لم يصغ إلى نصيحة وزيره وأمن الدواتدار على حياته، وأمر بذكر إسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة، ولا شك أن تصرف الخليفة على هذا النحو ليدل على سوء الحالة التي وصلت إليها الخلافة في هذا العهد، وإنها لا محالة قد أذنت بالسقوط والزوال، ومنذ وقوع هذا الحادث والوزير والدواتدار كلاهما يكيد للآخر عند الخليفة مما كان له أثره السيئ في إضطراب الأمور، وتقويض الدولة العباسية[١].

١٠ ـ **إحتلال خطوط الدفاع الأولى:** وقع الخلفاء العباسيون في خطأ إستراتيجي كبير لما تركوا الدولة الخوارزمية تدافع الغزو المغولي وحدها، فكان من الطبيعي أن تنساب جيوش المغول نحو أملاك الدولة العباسية وتجتاح كل ما في طريقها، كان الواجب على الخلفاء العباسيين التصدي لمشاريع جنكيز خان وأولاده وأحفاده الهادفة للسيطرة على ديار المسلمين، وهذا لم يحدث وتركوا الدولة الخوارزمية تتآكل وتحترق أمامهم ولم يقوموا بواجبهم الجهادي والإسلامي نحو إخوانهم في العقيدة، إن صراع الأمم، وتصادم الحضارات والدول، يخضع لسنن الله الجارية في تحقيق الإنتصار، ولا يعتمد على العواطف والانتساب إلى البيت النبوي الشريف، بل بالاقتداء بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في الأخذ بالسنن وإدارة الصراع مع المشاريع الغازية، وكان من المفروض أن ينتبه الخليفة العباسي المستعصم بالله ووزراؤه وكتاب ديوانه وحجابه وأمراء جنده إلى ما يحدث حولهم من محاولات هولاكو وهو يهدد ويتوعد ويسخر خاصة بعد أن تمكن هولاكو من السيطرة واكتساح الكثير من أقاليم الخلافة العباسية وتمكن من عزلها عنها، فإذا بالخلافة تعاني من عملية تجريد

١ المغول للصياد صـ٢٥٣.

الخليفة العباسي من كل حلفائه أو حماته المتاخمين لحدود العراق التي أصبحت قريبة جداً من الخطر الدائم، كما تعاني من ضعف سيطرة الخليفة على اصحاب الولايات بفعل خوفهم من هولاكو، فتفشت العلاقات بين الخلافة العباسية والولايات المتاخمة وانحازوا إلى هولاكو يصانعونه لكف شره، فكانوا يرسلون إليه الهدايا والأموال، حتى أنه في سنة ٦٥٥هـ توجه العزيز بن الملك الناصر إلى هولاكو بهدية حسنة جليلة وكان في خدمته سيف الدين إبراهيم الحاكي الحافظي[١]، لقد كان تحرك هولاكو بجيشه المغولي عسكرياً سريعاً ومنظماً ومكشوفاً، وبعد رسائل التهديد أيضاً، وكان الخليفة المستعصم مستغرقاً في قداسة البيت العباسي وأحلامه التاريخية، ورد بهذا الرد العجيب الغريب في تمجيد بني العباس، فقال: لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين على الأحوال، إذ أن كل ملك ـ حتى هذا العهد قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد، كانت عاقبته وخيمة، ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين، فإن أبناء هذا البيت محكم للغاية وسيبقى إلى يوم القيامة.. إلى أن قال: فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر، فاشتد غضب هولاكو خان بسبب هذا الكلام وأعاد الرسل قائلاً:

ـ إذهب واصنع من الحديد المدن والأسوار.

ـ وأرفع من الفولاذ الأبراج والهياكل.

ـ واجمع جيشاً من المردة والشياطين.

ـ ثم تقدم نحوي للخصام والنزال.

ـ فسأنزل لك ولو كنت في السماء.

ـ وسأدفع بك غصباً إلى أفواه السباع[٢].

كان الأحرى بالخليفة المستعصم بالله وبطانته أن يتشاوروا في الأمر لدفع هذا البلاء بأسلم الطرق وأقومها وأقواها والتي من أهمها دعم الخطوط الأمامية بالسلاح

١ بغداد مدينة السلام صـ١٥٩.

٢ جامع التواريخ نقلاً عن بغداد مدينة السلام صـ١٥٢.

والرجال والعتاد لكي تقاوم المغول، ولكن المصالح الشخصية والصراعات الداخلية الدائرة والمؤامرات الخبيثة، كانت كلها تدور في فلك الجهالة السياسية التي يتمتع بها الخليفة ورجاله[1].

إن زحف هولاكو بجيوش المغول، ليس جديداً وإنما هو إمتداد لعدد من السنين وهذا الامتداد الزمني لا شك لم يخف على الخليفة وساسة البلاد، وكانت أحداث المغول ووقائعهم بالمسلمين تجلب إنتباه الغافل ويعلمها القاصي والداني، كان الحدث الجلل وهو الغزو المغولي يقتضم أجزاء الدولة ويقسمها ويمزقها شر ممزق، ولا وجود لمشروع مقاوم للغزو ويقوده الخليفة بل الحمى مستباح نتيجة للخور والجبن والجهل السياسي والعسكري الذي تميز به الخليفة المستعصم بالله العباسي فترك خطوك الدفاع الأولى للأمة تواجه مصيرها بدون دعم مادي و معنوي يذكر.

١١ ـ دور النصارى في سقوط الدولة العباسية: كان جيش هولاكو خان في غزواته الكبرى ضد أراضي الدولة الإسماعيلية، وأراضي الخلافة العباسية والشام وفلسطين يضم بين صفوف قواته أعداداً كبيراً من المسيحيين النسطوريين وعلى رأسهم قائده الكبير ((كدبوقا نوبان))، وكان المغول يقومون بفتوحاتهم وغزواتهم لأقطار شتى من المحيط الهادي شرقاً والهند الصينية في الجنوب الشرقي إلى أراضي البولندية، وقلب أوربا غرباً، ومن سيبيريا بحر البلطيق شمالاً، إلى شبه القارة الهندية وشمال الجزيرة العربية جنوباً، بدافع المكاسب المادية ولتوسيع رقعة أراضيهم في سبيل تكوين إمبراطوريتهم العالمية التي كانوا يتوقون بتلهف إلى تكوينها[2]، وكان من ضمن الجيوش الغازية لبغداد المسيحون ((الجرجانيون)) الكرج حيث أسهم أولئك بكتائب عسكرية وغيرها من مؤن وعتاد حربي، وكان ذلك من ضمن الانقياد للإمبراطورية المغولية التي فرضت على أتباعها التبعية والخضوع، تحت سلطان القاآن في قراقوم والتي فرضت عليهم المساهمة في حملات اسيادهم العسكرية ضد أعدائهم[3]، وقد نال المسيحيون من سكان بغداد إحترام المغول وحفظت أعراضهم وأموالهم ولم يتعرضوا

١ بغداد مدينة السلام صـ١٦٠.

٢ سقوط الدولة العباسية صـ٣٢٠.

٣ المصدر نفسه صـ٣٢٣.

لدمار المغول، بل حفظت منازلهم وحرست من قبل جنود المغول أثناء إجتياح بغداد، وقد إلتجأ بعض المسلمين إلى بيوت النصارى في بغداد هرباً من السيف المغولي، وقد نجا من نال الحماية المسيحية في بغداد من مذبحة المغول الفظيعة[1].

١٢ ـ دور الحكام المسلمين في إسقاط الدولة العباسية: عندما توجه هولاكو بجيوشه للقضاء على الإسماعيلية والدولة العباسية كانت كتائب بعض حكام المسلمين تحت لوائه، حيث تغلغلت أسباب الضغف المعنوي في نفوس أولئك الأمراء والتي منها:

- ضعف الوازع الديني عند كثير من الأمراء.
- الأنانية وحب الذات.
- الجبن والخور الذي أصاب كثيراً من الناس.
- الحرص على المصالح الدنيوية.
- ضعف عقيدة الولاء والبراء.

لقد ارتكب بعض حكام وأمراء المسلمين خيانة عظمى للأمة الإسلامية ولدينهم وعقيدتهم وذلك بالمشاركة الفعالة مع المغول في حملتهم الشنيعة على الدولة العباسية ومن أشهر هؤلاء الحكام:

أ ـ براق حاجب وخلفاؤه: كان حاكم كرمان والأراضي التابعة لها، براق حاجب، من أول الحكام المسلمين، الذين ساهموا مع المغول إبان حملتهم على بغداد، ومن المعروف أن اقليم كرمان كان جزءاً من أراضي الدولة الخوارزمية، وكان هذا الإقليم يحكمه الأمير غياث الدين الابن الثاني للسلطان محمد خوارزمشاه، وقد استناب هذا الأمير شخصياً، براق حاجب هذا، ليقوم بإدارة شئون الإقليم نيابة عنه، وبعد الخلاف الذي نشب بين الأخوين، غياث الدين وأخيه الأكبر جلال الدين، هرب الأول إلى إقطاعه السابق ((كرمان)) حيث كان به نائبه الأول على كرمان، براق حاجب، فما كان من الأخير إلا أن قام باغتيال سيده، فقطع رأسه وأرسله إلى

[1] المصدر نفسه صـ٣٢٤.

((القآن)) المغولي ((أكتاي)) في ((قرا ـ قروم)) وأعلن خضوعه تحت سلطان المغول وجعل من نفسه جاسوساً يطلع أسياده الجدد بأخبار الأقطار الغربية وما كان يجري فيها من تطورات سياسية وعسكرية، تخدم غرض المغول وتوسعهم المستمر في سبيل إنشاء إمبراطوريتهم العالمية، فقد أخبرهم بنشاطات سيده السابق جلال الدين منكبرتي وقدم لهم معلومات هامة ساهمت في القضاء على الدولة الخوارزمية، وظل براق حاجب على ولائه التام للمغول وشارك بجنوده في حملات التتار ضد ديار المسلمين، فشارك في حملة المغول ضد أراضي السلاجقة في آسيا الصغرى وبعد وفاة براق حاجب في سنه ٦٣٢هـ/١٢٣٤م أصبح خلفاؤه من بعده وهم ركن الدين خواجة الحق _٦٢٣ ـ ٦٥٠هـ) / ١٢٣٤ ـ ١٢٥٢م وقطب الدين محمد (٦٥٠ ـ ٦٥٥هـ/ ١٢٥٢ ـ ١٢٥٧م، يتنافسان فيما بينهم في تقديم الولاء والطاعة للمغول، كما أصبحا متنافسين على حكم إقليم كرمان، وأخذ كل واحد من جانبه يذهب إلى منغوليا ويعلن أنه سيكون أكثر من منافسه خضوعاً، وطاعة ((للقآن)) في ((قرا ـ قروم)) ويطلب أن يقبله المغول نائباً لهم ((على أراضي ولاية كرمان)) إذا ما أنعموا عليه بحكم ذلك الإقليم[1].

وعندما وصل المغول إلى منطقة شرق إيران، في حملتهم الغربية الكبرى بقيادة هولاكو، وشرعوا في هجومهم العام الكاسح، ضد أراضي وقلاع الدولة الإسماعيلية قام قطب الدين محمد، حاكم كرمان في ذلك الوقت، بإرسال قوات خاصة من بلده لتشارك في الحرب تحت رعاية المغول وقد كانت قوات حكومة كرمان المسلمة مع قوات ((بَرْد)) في القوة والكثرة بحيث كانت تكون كتيبة عسكرية مستقلة بذاتها وأصبحت تحت قيادة هولاكو، وتشارك في حربه، ضد حكومة العباسيين، والمسلمين في العراق، والجزيرة والشام[2].

ب ـ أتابك إقليم فارس: أعلن أتابك فارس خضوعه تحت السلطة المغولية، في نفس الوقت الذي خضع فيه جاره، براق حاجب كرمان لنفوذهم وحافظ على ولائه للمغول وكان يرسل ممثليه إلى البلاط المغولي في ((قرار ـ قروم)) بصفة دائمة وفي كل

١ سقوط الدولة العباسية صـ٣٥٤.

٢ المصدر نفسه صـ٣٥٥.

مناسبة، وعندما وصل هولاكو ـ على رأس حملة المغول الغربية ـ إلى إقليم ما وراء النهر، ذهب إلى هناك أتابك فارس نفسه أبو بكر (حسب رواية الجورجاني أو ابنه سعد ((حسب رواية رشيد الدين)) للترحيب بمقدم القائد المغولي، والبذل من نفسه ما يستطيع تقديمه للمغول في حملتهم هذه، وأرسل ـ فيما بعد ـ كتيبة عسكرية خاصة يتكون جل أعضائها من الفرسان، لتلتحق بجيش هولاكو ليس فقط ضد الإسماعيليين والخلافة العباسية، بل ليشاركوا مع المغول في حروبهم الهمجية ضد المسلمين في الجزيرة وأراضي الشام ومصر، وبعد أن أسقط المغول والمسلمون وغيرهم بقيادة هولاكو خان، بغداد وأطاحوا بالدولة العباسية، قام حاكم إقليم فارس المسلم، هذا بإرسال ابنه سعد بن أبي بكر، إلى القائد المغولي، ليهنه بنجاح حملته ضد الخليفة، ويتلقى أوامره التالية، ثم لكي يقوم بخدمته نيابة عن والده[1].

جـ ـ بدر الدين لؤلؤ وأتابكية الموصل: وهو الملقب بالملك الرحيم، ملك الموصل نحواً من خمسين سنة وهو الذي أزال الدولة الأتابكية عن الموصل ـ وهم أسياده وكان فيه نزعة تشيع إذا كان يبعث في كل سنة إلى ((مشهد علي)) قنديلاً ذهباً زنته ألف دينار، قال ابن كثير: وهذا دليل على قلة عقله وتشيعه[2]، وأما أصله فكان أرمينياً حتى نقل عنه الذهبي أنه كان يحتفل لعيد الشعانين لبقايا منه من شعار أهله وكان يمد سماطاً عظيماً للغاية ويحضر المغاني وتدار في غضون ذلك أواني الخمور ويتخاطف الناس ما ينثره من الذهب في ذلك اليوم، فمقت لإحياء شعار النصارى وقيل فيه:

وأما عن مساهمته في دخول التتار بلاد المسلمين فقد ذكر الحافظ ابن كثير أن جنود التتار حين نازلت بغداد سنة ست وخمسين وستمائة جاءت إليهم إمداد الموصل، يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتار ومصانعة لهم[3]، وقال الذهبي عنه: وكان يصانع التتار وملوك الإسلام[4]،

١ سقوط الدولة العباسية صـ٣٥٧.
٢ البداية والنهاية (١٣/٢٠٣).
٣ البداية والنهاية (١٣/١٩٠).
٤ سير إعلام النبلاء (٢٣/٣٥٦).

بل نقل بعض المؤرخين أن ((صاحب الموصل)) كان من بين المحرضين لهولاكو على قتل الخليفة العباسي، وحين انفصل هولاكو خان عن بغداد ـ بعد الوقعة الفظيعة ـ سار الملك الرحيم إلى خدمته طاعة له ومعه الهدايا والتحف، فأكرمه واحترمه ورجع من عنده فمكث بالموصل أياماً ثم مات[1]، ونقل الذهبي أنه قلد هولاكو جوهرة يتيمة قدمها هدية له وطلب أن يضعها في إذن هولاكو فأتكا ففرك أذنه وأدخل الحلقة في أذنه وأن الملك الرحيم عاد إلى بلاده ((الموصل)) متولياً من قبل هولاكو، وقرر عليه مالاً يحمله[2]، بل زاد مستوى العلاقة بين الملك الرحيم واسرته وبين التتار حتى بلغ المصاهرة، فقد تزوج ولده الملك الصالح إسماعيل ابنة هولاكو، لكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ أغضب الصالح إسماعيل ابنة هولاكو وأغارها، فنازلت التتار الموصل، واستمر الحصار عشرة اشهر، ثم أخذت، وخرج إليهم الصالح بالأمان فغدروا به واستباحوا الموصل[3].

د ـ **السلاطين السلاجقة في آسيا الصغرى:** كان من جملة المسلمين الذي دخلوا تحت لواء هولاكو عند غزوه للدولة العباسية سلاطين السلاجقة في آسيا الصغرى وكان التنافس بين الأمراء والسلاطين السلاجقة في آسيا الصغرى، على أشده، في تقديم الخضوع والطاعة للخان المغولي، فقد كان عز الدين كيكاووس الثاني وركن الدين قيليج أرسلان الرابع، يتنافسان حتى في الخضوع الذليل للمغول، وسلكا سبلاً شتى في إذلال النفس لتقديم فروض الطاعة المطلقة أمام السلطات المغولية ليحوزوا على رضائها، فقد ذهب ركن الدين شخصياً إلى منغوليا وكان من جملة الحكام الذين حضروا في بلاط الخان ((كويوك)) للتعبير عن ولائهم ووفاهم والإخلاص المطلق لذلك الخان في منغوليا[4]، وعندما وصل هولاكو خان إلى إقليم ما وراء النهر، وهو في طريق تنفيذ حملته ضد طائفة الإسماعيليين في إيران والخليفة في العراق وأراضي الشام ومصر، ذهب ذلك المتنافسان السلجوقيان ((عز الدين وركن الدين)) وحضرا

---

١ البداية والنهاية (٢٠٣/١٣)، كيف دخل التتار بلاد المسلمين صـ٥٢.

٢ سير أعلام النبلاء (٣٥٧/٢٣).

٣ المصدر نفسه (٥٣/٢٣).

٤ سقوط الدولة العباسية صـ٣٦٧.

عنده للتعبير له عن وفائهما، وكل واحد منهما يمعن في التذلل، وأنه على أتم استعداد لتقديم خدمات للمغولأفضل مما يقدمه خصمه، لعله يحظى برضى الأمير القائد.

هـ ـ بعض المشاركين الآخرين: لم يكن هؤلاء الحكام المسلمون هم الوحيدين الذين شاركوا مشاركة فعالة في حملة المغول ضد مسلمي العراق والجزيرة والشام وفلسطين، بل كان هناك مسلمون آخرون، فرادى وجماعات من الأقطار الإسلامية قد جندهم حكام المغول أو النواب الممثلين للسلطة المغولية ((مسعود يلواتش)) ((حاكم إقليم التركستان وأرضي ما وراء النهر)) ((وأرقون آقا)) ((حاكم المغول عل إقليم إيران)) وقد جند هؤلاء الحكام أعداداً كبيرة جداً من المسلمين لينضموا مع القوات الغازية، تحت لواء هولاكو خان، بناءً على ذلك، نجد أن أعداداً هائلة من المسلمين، التحقت بحملة المغول مثل ((كديوقانويان)) و((بايجونويان))، وكان نصر الدين الطوسي والمؤرخ علاء الدين عطا ملك الجويني والمنجم حساب الدين يتصدرون قائمة الأعداد الكبيرة من المسلمين الذين انضووا تحت خدمة المغول، لغزو الدولة العباسية والأقطار الإسلامية جنوب غرب آسيا، لقد ساهم أولئك المسلمون في الإطاحة بالدولة العباسية وتقوية الإمبراطورية المغولية[١]

١٣ أبعاد الكفاءات النادرة: كان المستنصر بالله يعتبر من الخلفاء العباسيين الذين حاولوا بعث الدماء الحارة في جسم الخلافة وإعادة بعض الهيبة والقوة لها وقد تمكن من تطوير الجيش العباسي وبلغ عدد جيشه مائة ألف[٢]، وكان ذا همة عالية وشجاعة وافرة ونفس أبية وعنده إقدام عظيم وقصدت التتار بلاد العراق في أيامه فلقيهم عسكره وانتصف منهم وهزمهم[٣] وكان للخليفة المستنصر بالله أخ يمثل شخصيته وتحسباً من احتمال إتباع سيرة المستنصر بالله وقراراته، فيما إذا جاء إلى الخلافة قرر رجال الدولة من الوزراء وأمراء الجند أن يختاروا شخصاً لا يتمتع بهذه المزايا التي يتمتع بها أخو الخليفة المعروف ((الخفاجي))، لأن الخفاجي شاب فتى في عنفوان الشباب وفتوته وحدة الذكاء وقوته وعمق الشعور بالمسئولية والخفاجي يزيد

١ سقوط الدولة العباسية صـ٣٦٨ ، ٣٦٩.

٢ ذيل مرآة الزمان لليونيني صـ٢٥٤ بغداد مدينة السلام صـ١٣٦.

٣ بغداد مدينة السلام صـ١٣٦.

على أخيه الخليفة المستنصر بالله، في الشهامة والشجاعة، وكان يقول: إن ملكني الله تعالى أمر الأمة لأعبرن بالعساكر نهر جيحون وانتزاع البلاد من يد التتار وأفنيهم قتلاً وأسراً وسبياً، فلم ير الدوادار والشرابي وكانا غائبين على الأمر ولا بقية أرباب الدولة تقليده الخلافة خوفاً منه، ولما يعلمون من استقلاله بالأمر واستبداده بالتدمير دونهم وآثروا أن يليها المستعصم بالله لما يعلمون من لينه وانقياده ليكون الأمر إليهم، فاتفق رأي أرباب الدولة على تقليد المستعصم بالله الخلافة بعد أبيه فتقلدها واستبدوا بالتدبير[1]، وأسندوا الأمر إلى غير أهله.

١٤ **منافسة العلوليين:** كان أول صدع صدعت به الدولة العباسية خروج محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية بالمدينة، وكان كثير من أهل خراسان ينتظر قيامه ولولا ما ظهر من شجاعة أبي جعفر المنصور ومضاء عزيمته وأخذه بالاحتياط في مصادرة موارده لزلزلت جوانب الخلافة العباسية، ولكن يقظة المنصور وحزمه قضت على محمد بن عبد الله وعلى أخيه إبراهيم الذي ثار بالبصرة، وكانت نتيجة ذلك أن اشتدت ريبة العباسيين من بني عمهم وضيقوا عليهم وشددوا المراقبة على المعروفين منهم وأرهقوا الجند في استطلاع أخبارهم، فتباعد الأمر واشتدت الجفوة، واشتد تطلع العلويين إلى قلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج الضيق الذي نالهم وساروا كالطائر المحبوس في قفصه يحاول التخلص منه على غير هدى، كما فعل الحسين بن علي الذي ثار بمكة في مدة الهادي سنة ١٦٩هـ فحيل بينه وبين مراده، وقتل بفخ بالقرب من مكة، وأفلت من تلك الموقعة إدريس بن عبد الله وأخوه يحي فاتجه الأول غرباً ماراً بمصر ومخترقاً شمال أفريقيا حتى أتى المغرب الأقصى فحدب عليه من به من الأمازيغ وبايعوه بالخلافة، وأسس هناك دولة الأدارسة في طرف الدولة من المغرب واتجه الثاني نحو المشرق وذهب إلى نواحي الديلم إلا أن قربه من مركز الخلافة حتم عليه الفشل، وقد أظهرت حوادث هذين الأخوين أن من موالي العباسيين من هواه مع العلويين كواضح مولى بني العباس الذي كان يريد مصر، فإنه هو الذي سهل لإدريس المرور من أرض مصر مع معرفته به، وجعفر بن يحي

---

١ بغداد مدينة السلام صـ١٣٦.

البرمكي الذي سهل ليحي بن عبد اللـه طريق الإفلات من يد الرشيد فكان ذلـك مـما دعـا الرشـيد إلى التشديد والتضييق على من يتهم بالميل إليهم، وجاء بموسى الكاظم بن جعفر الصادق إلى بغداد ليقـيم تحت نظره، وظهر الجرح بجنب الدولة العباسية، واجترأت أمة من الأمـم الإسـلامية وهـي أمـة البربـر بالمغرب الأقصى أن تخرج عن طاعتهم معتقدة أنها نالت حظاً أعلى من حظ سائر الأمم الإسلامية لأنها ظفرت برجل من آل البيت النبوي ومن أبنـاء ابنتـه واضـطر الرشـيد أن يـزرع لأفريقيـا دولـة الأغالبـة ومقرها القيروان، كما يفعل من رأى حريقاً بجزء من داره يجتهـد أن يفصـل بيـنما تناولتـه النـار وبـين سائر البيت، وهذا ما فعله الرشيد، وجاء المأمون، فرأى خطر العلويين محـدقاً بالدولـة، رأى كثـيراً مـن أبناء الدعوة ورجال الدين يميلون إلى العلـويين ويكرهـون مـا ينالـه مـن الشر فـأراد أن يتقـرب إلـيهم ببعض ما يرغبون، فيكسر من حدتهم ويضعف من قوتهم فاختار منهم عـلي الرضـا الـذي يتـولاه أكـثر شيعة آل علي وولاه عهده، ويظن أنه فعل ذلك إرضاء للحسن بـن سـهل ووزيـره الأكـبر ومـدبر أمـره وصاحب الفضل الأعظم في سوق الخلافة إليه وإخراجها عن أخيه الأمين، ولكن رأى أن النتيجة لم تكـن على ما يرغب فإنه وإن أرضى العلويين بهذا العهد قد أغضب العباسيين أصحاب الـدعوة فثـاروا ضـده ببغداد وخلعوه، واختاروا من بينهم عمه إبراهيم بن المهدي فلم يكن أمامه ما يربأ به هذا الصدع إلا أن إحتال في التخلص من الحسن بن سهل بأن وضع له قوماً تناولوه بالسـيوف ثـم مـات بعقـب ذلـك علي الرضا فنسب قوم ذلك إلى المـأمون أيضـاً والقـرائن تسـاعدهم ولكـن لـيس عنـدنا مـن الأدلـة مـا يقوي هذه التهمة، وعادت الأمور بعد موت هذين إلى مجراها ورجع أهل بغداد إلى المأمون وانحرفـوا عن عمه، وظل المأمون بعـد ذلـك عـلى ولاء العلـويين حتـى إذا رأى مـنهم الميـل إلى الخـروج والثـورة شرع يعاملهم بمثل ما كان يعاملهم به أبوه، بعد ثورة اليمن فأمر ألا يدخلوا عليه واضطر بـأن يجـاري أباه في الاحتياط فأسس دولة باليمن تشبه دولة الأغالبة بأفريقيا، وهي الدولـة الزياديـة والغـرض مـن الدولتين واحد[١]، واتبعـوا طريقـة الحجـر عـلى أئمـة الشـيعة وأمـرهم إيـاهم بالإقامـة بمـرأى مـنهم في بغداد أو في سامراء بعـد اختطاطهـا ولم يكـن الخلفـاء العباسـيون عـلى سـيرة واحـدة في التعامـل مـع

١ الدولة العباسية للخضري صـ٤٨٥.

العلويين، ودخل القرامطة باسم محبة آل البيت فزلزلوا جوانب الدولة، وقام الفاطميون فاستولوا على افريقية، وعلى الجزائر ومناطق من الشمال الأفريقي ومدوا سلطانهم على مصر وسوريا والحجاز واليمن وشواطئ الفرات وكادت نارهم تلفح وجه الدولة العباسية ومما زاد الأمر بلية أن بنى بويه الذين استولوا على بغداد في منتصف القرن الرابع كانوا شيعة فأباحوا للشيعة الظهور في بغداد بما يشتهون من العادات التي كانوا يفعلونها يوم عاشوراء فقد كانوا يجعلونه يوم حزن حتى يخرج النساء فيه حاسرات نادبات لاطمات ينعين الحسين بن علي رضي الله عنه وغير ذلك من العادات وصار الناس يتقربون إلى السلطان بالتشييع وفي أوائل القرن السادس ظهرت فتنة الباطنية بفارس وبالشام فأرهقوا الناس وأفسدوا الدول وتمكنوا من إغتيال بعض خلفاء بني العباس واستمر هذا النزاع السياسي بمصر حتى سقطت الدولة الفاطمية على يد ـ نور الدين محمود زنكي ـ بواسطة أحد قدته الكبار صلاح الدين الأيوبي.

وأستمر النزاع بين العباسيين وبعض اتباع آل علي من أول خليفة إلى آخر خليفة وكان ذلك سبباً في ضعف الدولة العباسية وهذا السبب ساهم في ضعف عصبية الدولة العباسية[١]، ثم زوالها.

١٥ ـ **الترف وأثره في زوال الدولة العباسية:** جاء ذكر الترف والمترفين مراراً في كتاب الله تبارك وتعالى وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وفي آثار من سلف فمما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً" (الإسراء ، آية : ١٦). المترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم، ويجدون الراحة، ينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتأسن وترتع في الفسق والمجون وتستهر بالقيم والمقدسات، والكرامات وتَلِغُ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل

---

١ الدولة العباسية صـ٤٨٨.

الأمة وتسترخي وتفقد حيويتها، وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتُطوى صفحاتها والآية تقرر سنة الله هذه، فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك فكثر فيها، فعم فيها الفسق فتحللت وترهلت فحقت عليها سنة الله وأصابها الدمار والهلاك، وهي المسئولة عما يحل بها، لأنها لم تضرب على[1] أيدي المترفين ولم تصلح نظامها الذي يسمح بوجود المترفين إن الله عز وجل قد جعل للحياة البشرية نواميس لا تتخلق وسنناً لا تتبدل، وحين يوجد الأسباب تتعدد النتائج[2]، وهذا نص صريح قاطع في أن هلاك الأمم وضعف شأنها وانحلال قواها إنما يكون بالشهوات المتحكمة والأهواء المردية وسيطرة ذلك على الذين يوجهونها وفي الآية الكريمة ما يشير إلى أن الترف هو الذي يؤدي إلى الفسق وأن الفسق هو الذي يؤدي إلى الدمار، فعلى الذين يعملون لرفعة الأمة أن يتجهوا إلى الدعامة التي تقوم عليها وهي قوة النفس وسيطرة الإرادة المؤمنة على الأهواء الجامحة، وأنه كلما كان الترف المردي كانت القوى المنحلة، وكلما كانت الإرادة القوية والعزيمة الصادقة والإخلاص المنير كان النصر المبين والتأييد من الله رب العالمين[3].

وللترف أثر بالغ السوء في الدول والشعوب، بل هو مِعْوَلُ هدم لطاقاتها وقدراتها، حيث يغري بالإخلاد إلى الأرض والاغتراف من المباذل والشهوات والخوض في سفاسف الأمور ودناياها والتعلق بالمناصب والجاه ولمال، ونسيان المعاني العلية، وعدم المخاطرة بالنفس في الجهاد في سبيل الله تعالى، والنفور من ارتكاب الصعب من الأمور، لا شيء إلا لأنه صعب على النفوس، والميل إلى السهل من الأعمال مهما قادت إلى ضعف وهوان[4]، لقد أضعف الترف الدولة العباسية إضعافاً متدرجاً حتى بلغ غايته بسقوطها أمام التتار، ذلك السقوط المخزي المريع الذي لم يكن مثله سقوط في تاريخ الدولة الإسلامية، وانظر إلى ما كانوا يصنعون تعرف لماذا سقطوا وذلوا وهانوا، فهذا المأمون بن هارون الرشيد وهو من آخر أقوياء الخلفاء قد عقد على بوران بنت الحسن بن سهل وزيره، فماذا صنع في حفلة عرسه؟ وإن شئت

١ في ظلال القرآن/ سيد قطب صـ(٢٢١٧/٤).

٢ المصدر نفسه صـ١٨.

٣ مجلة لواء الإسلام العدد الخامس صـ٢٥٩ أبو زهرة.

٤ الترف وأثره في الدعاة والمصلحين صـ٢٢ محمد موسى الشريف.

قلت ماذا صُنع له؟ جرت تلك الحفلة في منازل الحسن بن سهل السرخسي، التي كانت بفم الصلح بالقرب من مدينة واسط، وفم الصلح إسم نهر كبير كان فوق واسط عليه عدة قرى، وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون، وفيه بنى المأمون ببوران، تزوجها المأمون لمكانة أبيها عنده، وإسمها الحقيقي خديجة، وبوران لقبها، احتفل أبوها وعمل الولام والأفراح ما لم يعهد مثله في عصر من عصور الجاهلية والإسلام، فقد سافر المأمون وحاشيته ورجال دولته من القواد والكتاب والوجوه إلى فم الصلح، فنثر الحسن بن سهل بنادق المسك على رؤوسهم، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفاة دواب وغير ذلك، وكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة، فإذا علم ما في الرقعة مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها، سواء كان ضيعة أو ملكاً آخر، أو فرساً أو جارية، أو مملوكاً، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه، وكانوا خلقاً لا يحصى حتى على الجماليين والمكارية[١]، والملاحين وكل من ضمه عسكره، ولم يكن في المعسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه وذكر الطبري، أن المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يوماً، يعد له في كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف درهم[٢]، وكان رحيل المأمون نحو الحسن بن سهل، أي إلى قم الصلح، لثمان خلون من شهر رمضان سنة عشر ومائتين وفرش الحسن للمأمون حصيراً منسوجاً بالذهب فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلئ كثيرة[٣]، ودخل المأمون على بوران الليلة الثالثة من وصوله إلى فم الصلح فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب، فأمر المأمون أن تجمع، وسألها عن عدد الدر: كم؟ فقالت: ألف حبة، ووضعها في حجرها وقال لها: هذه نحلتك[٤]، وسلي حوائجك، فقالت لها جدتها: كلمي سيدك فقد أمرك، فسألته الرضى عن إبراهيم بن المهدي، عمه والسماح بالحج لأم جعفر، وهي الست زبيدة،

---

١ المكارية: الذين يستأجرون لقضاء الحاجات.

٢ أي خمسين مليون درهم، وهذا مبلغ هائل ذلك الوقت.

٣ تاريخ الطبري نقلاً عن الترف د.محمد موسى الشريف صـ٣٤.

٤ نحلتك: عطيتك.

فقال: قد فعلت، فألبستها أم جعفر البدلة اللؤلؤية، وأوقدوا في تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون منا في تور من ذهب[1] فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال: هذا إسراف[2]، يا سبحان الله والذي مضى كله لم يكن إسرافاً[3]. وقد أمر المأمون للحسن عند منصرفه بعشرة آلاف ألف درهم[4]، وأقطعه فم الصلح، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه،وقد كان الحسن كثير العطاء للشعراء وغيرهم فقصده بعض الشعراء وأنشده:

تقوم خليلتي لما رأتني

أشد مطيتي من بعد حل

أبعد الفضل ترتحل المطايا

فقلت نعم إلى الحسن بن سهل

وقد كانت حياتهم مليئة بالترف والإخلاد إلى الأرض والرضى بمباهجها، والتوسع في ذلك توسعاً عظيماً، إذ بنوا بغداد على هيئة عظيمة، وتوسعوا في بناء القصور ذات الأواوين[5]، الضخمة وتفننوا في البناء والزينة، والزخارف والنقوش، والستائر والبسط والأثاث والتماثيل والتحف والأواني، وفي الطعام والشراب، كما تألقوا في الجواهر والزينة والطيب والملبس والثياب، متأثرين بالأزياء الفارسية واهتموا بأدوات الترويح واللعب، كسباق الخيل، وسباق الحمام الزاجل ولعبة الصولجان والشطرانج والنرد والصيد بالبزاة، والصقور والشواهين والكلاب والفهود وهذا يدل على الترف والبذخ الذي كان يتمتع به الخلفاء وأبناء البيت العباسي، والوزراء والقواد، وكبار رجال الدولة، والتجار، وبعض الشعراء والكتاب والمغنيين والعلماء، وأما الشعب فيكدح ويعيش في بؤس وشقاء، ويتحمل أعباء الحياة إلى غير حد، وكانت خزائن الدولة مملوءة تحمل إليها الأموال والذهب والفضة من جميع

١ تور من ذهب: إناء من ذهب.
٢ الترف، محمد موسى صـ٣٥.
٣ المصدر نفسه صـ٣٥.
٤ المصدر نفسه صـ٣٥.
٥ تاريخ الطبري نقلاً عن الترف صـ٣٧.

أرجاء الدولة ونروي في ذلك روايات كثيرة نبين مدى الثراء والترف والنعيم ومظاهر الإنفاق على الجواري والقيان والمغنيين والحفلات والحاشية والأعوان وتبين جود الخلفاء والوزراء، والولاة والقادة، وكرمهم وعطاياهم للشعراء وغيرهم ونفذوا إلى طائفة من الآداب، كآداب المائدة واقتبسوا كثيراً منها عن الفرس، وآداب المساهرة والمنادمة، وكان هذا البذخ وما صاحبه من اعتصار الشعب من الأسباب في كثرة الثورات على العباسيين، ولم يكن هذا شأن كل خلفاء بني العباس، لكن كان هذا السمة الغالبة لأكثرهم[1]، فكان من الطبيعي والحال هكذا أن تسقط دولة بني العباس أمام زحف المغول وإليك هذا المنظر الذي ذكره ابن كثير في الوقت الذي كان التتار يحاصرون بغداد ويحيطون بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب ذكر أن جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه وكانت من جملة حظاياه وتسمى ((عرفة)) فجاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه وإذا عليه مكتوب: إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم[2]، وأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز وكثرة الستائر على دار الخلافة لكن الأمر أكبر من ذلك وأعظم[3]. لقد أتى على العالم الإسلامي عهد في التاريخ كانت الحياة فيه تدور حول فرد واحد، وهو شخص الخليفة أو الملك وحوله حفنة من الرجال هم الوزراء وأبناء الملك، وكانت البلاد تعتبر ملكاً شخصياً لذلك الفرد السعيد، والأمة كلها فوجاً من المماليك والعبيد، ويتحكم في أموالهم وأملاكهم ونفوسهم. هذا هو العهد الذي ازدهر في الشرق طويلاً وترك رواسب في حياة الأمة ونفوسها.. ولم يكن عهداً إسلامياً ولا عهداً طبيعياً معقولاً، فلا يرضاه الإسلام ولا يقره العقل، بل إنما جاء الإسلام لهدمه والقضاء عليه، فقد كان هذا هو العهد الذي بعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم، فسماه الجاهلية ونعى عليه، وأنكر على ملوكه ككسرى وقيصر، وعلى أشرتهم وترفهم أشد الإنكار، إن هذا العهد غير قابل للبقاء والاستمرار في أي مكان

١ الترف صـ ٣٧ ـ ٣٩.

٢ البداية والنهاية (١٣ ـ ١٩٠)، كيف دخل التتار صـ٤٢.

٣ كيف دخل التتار بلاد المسلمين صـ٤٢.

وفي أي زمان، ولا سبيل إليه إلا إذا كانت الأمة مغلوبة على أمرها أو مصابة في عقلها، أو فاقدة الوعي والشعور، أو ميتة النفس والروح[1]. لقد نخر سوس الترف الدولة العباسية وأورثها ذلاً وهواناً وخوراً وضعفاً، فلم تستطع أن تقف في وجه أعاصير المغول. لقد تفاقم الشر في مركز الخلافة ((دار السلام بغداد)) وسيطرت عليه مظاهرة الأبهة الملوكية والسلطان الأعمى وتغلغل نفوذ الخدم والحشم في قصور الخلفاء، وبلغت الثروة، والمدينة ذروتهما، ولا يمكن أن تتصور ما كان يملكه الخدم والمماليك الذين كانوا لدى الخلفاء من المال والعقار، ويكفي أن نذكر على سبيل المثال أن علاء الدين الطبرسي الظاهري وهو ممن إشتراهم الخليفة الظاهر، كان يحصل له من أملاكه التي إستجد نحو ثلاثمائة ألف دينار سنوياً وكانت له دار لم تكن ببغداد مثلها، كذلك مجاهد الدين آيبك الديودار المستنصري، لقد ملك جزيل الأموال من العين والرقيق والدواب، والعقار، والبساتين، والضياع، ويتعذر وصف ما أنفقه من قناطير مقنطرة من الذهب، والفضة والجواهر التي جهز بها أولاده وبناته في ليالي الزفاف، كما أن الفراش الصلاح عبد الغني بن فاخر المتوفي ٦٤٨هـ وكان شيخ الفراشين بدار الخلافة، كان يعيش مع خلوة من العلم عيشة الملوك، بينما كان مدرسو المدرسة المستنصرية في هذا العصر وهم من كبار علماء بغداد بوصفهم يدرسون في أكبر جامعة إسلامية فيها لا يتقاضى الواحد منهم أكثر من ١٢ دينار شهرياً وبجانب ذلك نجد أن أربعة ألف دينار ينثرها خادم للشرابي على مجد الدين آيبك المستنصري، المعروف بالديويدار الصغير عند زواجه من ابنه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وأن ٣٠٠٠ دينار أعطاها الشرابي للأشخاص الثلاثة الذين أتوا بطائر الموصل، ولكي ندرك مدى نفوذ هذه المظاهر الكاذبة والتظاهر بالفخفخة والأبهة الملوكية يجب أن نعرف أن المواكب التي تخرج في مناسبات العيد والتتويج كانت تشغل الناس، حتى أنهم يتناسون أنفسهم، ويتشغالون عن أداء الصلوات، ونستطيع أن نقيس ذلك بالموكب الملكي الذي خرج يوم عيد الفطر سنة ٦٤٠هـ واستمر إلى الليل، وصلى الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاء[2]، وذكر في ((العسجد المسبوك)) أن

١ الترف د. محمد موسى صـ٤١.

٢ رجال الفكر والدعوة (١ ـ ٢٧٤).

العساكر في عاشر ذي الحجة سنة ٦٤٤هـ خرجوا إلى ظاهر البلد، وصلوا صلاة العيد وقت غروب الشمس، وأما تقبيل الأرض بحضرة الخليفة مرات عديدة فمن الأمور المألوفة وكذلك تقبيل اليد، وعتبة باب النوبي، وحافر الخيل والأرض والرخام، وقد تميز هذا العصر بكثرة المصادرات، وتفشي الرشوة وعزل كبار الموظفين، وإلقاء القبض عليهم، وبيع ممتلكاتهم، وتفاقم أمر الباطنية والشطار والعيارين، وإشتداد النزاع الطائفي والتفكك الخلقي والإنصراف إلى الملاهي والقيان والتكاثر في الأموال[١]. لقد إهتم الحكام والأمراء والقادة في تلك الفترة التاريخية الحرجة بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهني[٢]، وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن الشرع بالهلاك والعذاب، قال تعالى: "فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين" (هود ، آية : ١١٦). وقال تعالى: "وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين * فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون" (الأنبياء ، الآية : ١١ ـ ١٣). وقال تعالى: "وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً * فذاقت وبال أمرها وكانت عاقبة أمرها خسرا * أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولو الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا" (الطلاق ، الآية ٨ ـ ١٠).

١٦ ـ الوصول إلى آخر نقطة من الإنحلال والتدهور: ذكرت في أسباب سقوط الدولة العباسية ضعف شخصية المستعصم بالله، إلا أن بعض الباحثين حاول الدفاع والثناء على الخليفة المستعصم وبيان تمسكه بالسنة ومناهضته للبدعة وحلمه وتواضعه وإهتمامه بأمور الرعية ومصالح الدولة[٣]..الخ، كما أن شيخنا الجليل والمفكر الإسلامي الكبير أبا الحسن الندوي ذهب إلى هذا الرأي واشار إلى أن الخرق إتسع

١ المصدر نفسه (١ ـ ٢٧٤).

٢ المصدر نفسه.

٣ أمير المؤمنين المستعصم بالله العباسي صـ٣٧ ـ ٤٩.

على الراقع بقوله: كان المستعصم رجلاً صالحاً حسن السيرة والفكر، وكان يحرص على إصلاح الأوضاع ورفاهية البلاد، ولكن فساد النسا واضطرابهم وفساد رجال الحكومة، بلغ مبلغاً لا يؤثر فيه إلا من رزق الإرادة القوية والشخصية العبقرية، ومن يستطع أن يقف سداً منيعاً في وجه الفساد ويتغلب على الأوضاع السيئة ولم ينفع في هذه الحال إلا العظماء الذين افتتحوا عهداً جديداً، وأسسوا حكومات جديدة في التاريخ، لقد تكرر في التاريخ أن آخر أفراد أسرة حاكمة وآخر حاكم في مملكة آخذة في الإنحطاط كان يتصف بالصلاح والتقوى، غير أن تلك الأسرة أو المملكة كانت قد وصلت إلى آخر نقطة من الإنحلال والتدهور، وكان الفساد قد تفاقم والكأس قد طفحت، فلم يكن هنالك من يحول بين هذه الحكومة، وبين نهايتها الأليمة التي يفرضها قانون السماء وتقتضيها طباع الأشياء، وشاءت الأقدار أن يعتبر ذلك الرجل الأخير مسئولاً عن نهاية الحكومة في أسرته الحاكمة بالرغم من أنه كان أكثر صلاحاً وديانة، وأحرص على إصلاح الفساد من سلفه الماضيين وقد كان عدد من الصالحين مشتغلين بالعلم والتدريس والعبادة، كما كان عدد منهم منعزلين في الزوايا والمساجد، ولكن الفساد كان قد استحوذ على طبقة الحكام والمترفين[1]، يقول المؤرخ أبو الحسن الخزرجي يصف أهل العراق يومئذ: وأهتموا بالإقطاعات والمكاسب، وأهملوا النظر في المصالح الكلية، وأشتغلوا بما لا يجوز في الأمور الدنيوية وأشتد ظلم العمال، وأشتغلوا بتحصيل الأموال، والملك قد يدوم مع الكفر، ولا يدوم مع الظلم[2].

١٧ ـ تدهور الأوضاع الإقتصادية: كان لتدهور الأوضاع الإقتصادية أثره البالغ على إضعاف الخلافة العباسية، وفرض بعض الحكام الخراج المرهق على الرعية ووضعوا خطة للتحكم في شئون الأمصار لمصلحة الطبقة الحاكمة مما آل إلى كساد الحياة الزراعية والصناعية، وكان كلما إزداد الحكام غنى، إزداد الفقراء فقراً ولما تجزأت الدولة إلى دويلات قام كل من أولياء الأمر بإبتزاز أموال رعيته، وقضت الحروب المتواصلة بإنقاص عدد الرجال العاملين، فعدت أكثر المزارع مهجورة خربة،

١ المصدر نفسه (٢٧٧/١).

٢ المصدر نفسه (٢٧٧/١).

وزاد الخراب تكرارُ الفيضان في سهول العراق الجنوبية[1]، وفي صيف سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م هطلت أمطار غزيرة، سال على أثرها سيل عظيم أغرق مدينة بغداد لدرجة أن الطبقة العليا من المنازل غمرتها المياه واختفت معالمها تماماً وقد استمر انهمار السيل خمسين يوماً ثم بدأ في النقصان، ونتج عن ذلك أن نصف أراضي العراق أصبحت مهجورة خربة[2].

١٨ ـ الصراع الداخلي في بغداد: كان سكان بغداد من أهل السنة والشيعة والمسيحيين واليهود وكان هؤلاء جميعاً في خلاف دائم حول المسائل الدينية، كما كانوا يختلفون في الميول السياسية، ولا شك أن مثل هذه الحالة كثيراً ما كنت تثير الفتن والمنازعات بين السكان ومن ذلك أنه في أواخر عهد المستعصم، نشب قتال بين الشيعة وأهل السنة، فعهد الخليفة إلى ابنه أبي بكر بفض هذا النزاع[3]، فقام أبو بكر بن المستعصم والدويدار الصغير، فشدّا على أيدي السُّنة حتى نُهب الكرْخ وتمَّ على الشيعة بلاءُ عظيم، فحنق لذلك مؤيد الدين بالثأر بسيف التتار من السنة، بل ومن الشيعة واليهود والنصارى[4].

١٩ ـ خيانات الشيعة(الوزير ابن العلقي): هو أبو طالب مؤيد الدين محمد بن أحمد بن على بن أبي طالب ابن العلمقي البغدادي الرافضي[5]، قال السبكي: كان شيعيا رافضيا في قلبه غلّ على الإسلام وأهله[6]، قال الذهبي: تولى الوزارة للخليفة العباسي"المستعصم" مدة أربع عشرة سنة أفشى خلالها الرفض فعارضته السنة، فكبت فتنمّر[7]. وقال ابن كثير: كان رافضياً خبيثاً ردئ الطوية على الإسلام وأهله[8]، وقال في موضع آخر: كان شيعياً جلداً ورافضياً خبيثاً[9]، فقد سعى في دمار الإسلام

١ جهاد الممليك صـ٢٥٤.
٢ المصدر نفسه صـ٢٥٤.
٣ المغول للصياد صـ٢٥٤.
٤ سير أعلام النبلاء(٣٦٢/٢٣).
٥ المصدر نفسه (٣٦١/٢٣).
٦ طبقات الشافعية صـ٢٦٢.
٧ سير أعلام النبلاء (٣٦٢/٢٣).
٨ البداية والنهاية (٢٠٢/١٣).
٩ البداية والنهاية (١٩٤/١٣).

وخراب بغداد كما قال الصفدي[1]، ومالأ على الإسلام وأهله الكفار حتى فعل ما فعل بالإسلام وأهله[2]، وهو الذي حفر للأمة قليباً، فأوقع فيه قريباً كما قال الذهبي[3]، وأما خطواته في ذلك فهي كالتالي:

أ ـ المكاتبة: لقد كاتب هولاكو وجسّره وقوى عزمه على قصد العراق ليتخذ عنده يداً وليتمكن من أغراضه[4]، بل لقد جر هولاكو وقرر معه أموراً انعكست عليه، واستخدم في هذه المكاتبات شتى الحيل وبلغ نهاية المكر، قد حكي أنه لما كان يكاتب التتار تحيَّل مرة إلى أن أخذ رجلاً وحلق رأسه حلقاً بليغاً وكتب ما أراد بوخذ الأبر كما يفعل بالوشم، ونفض عليه الكحل وتركه عنده إلى أن طلع شعره وغطّى ما كتب فجهزه وقال: إذا وصلت التتر مرّهم بحلق رأسك ودعهم يقرأون ما فيه وكان في آخر الكلام:قطعٌوا الورقة، فضربت عنقه، وهذا غاية في المكر والخزي، ولم تكن سياسة المكاتبة مع التتر هي الأولى في هذا السياق، بل سبقتها خطوات مهَّدت لها وكانت بمثابة الأرضية والمقدمة لما بعدها[5].

ب ـ أضعاف الجيش: اتخذ ابن العلقمي سياسة خبيثة في إضعاف جيش الخلافة ساهمت في دخول التتر ببغداد دون مقاومة تذكر، إذ اجتهد قبل مجيء التتر في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان وصرفهم عن إقطاعاتهم، ونجح في ذلك، إذ كانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مائة ألف، فلم يزل ابن العلقمي مجتهداً في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف في أواخر أيام المستعصم، ويقول الذهبي: استوزر"المستعصم" ابن العلقمي الرافضي فأهلك الحرث والنسل، وحسّن له جمع الأموال، وأن يقتصر على بعض العساكر فقطع أكثرهم[6]، وبلغت حالة الجيش وعساكر الخلافة بالذات مبلغاً من الذل والهوان، حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وحق للشعراء أن ينشدوا

---

١ الوافي بالوفيات (١٨٤/١) كيف دخل التتر صـ٥٥.
٢ البداية والنهاية (٢٠٢/١٣) كيف دخل التتر صـ٥٥.
٣ سير أعلام النبلاء (٣٦٢/٢٣).
٤ المصدر نفسه (٣٦٢/٢٣).
٥ كيف دخل التتر بلاد المسلمين صـ٥٦.
٦ سير أعلام النبلاء (١٧٥/٢٣).

فيهم الشعر ويرثوهم بالقصائد وينعوا على الإسلام وأهله[1]، وكان ذلك بسبب سياسة هذا الشيعي المغرض الذي عبر عن سياسته وأثر وزارته على المستعصم قال ابن كثير حين قال: إنه لم يعصم المستعصم في وزارته، ولم يكن وزير صدق ولا مرضي الطريقة[2]، وقال في موضع آخر: انه كان وزير سوء على نفسه وعلى الخليفة وعلى المسلمين[3]، فلما تحقق لابن العلقمي ما أراد كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال[4]، وهكذا تبدو سياسة ابن العلقمي بعيدة الغور سيئة القصد ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله[5].

جـ ـ الغدر بالقضاة والفقهاء والخليفة: ولم تقف سياسة ابن العلقمي عند هذا الحد، فقد بادر بإتخاذ الخطوة العملية حين قدم التتار، وكان أول من برز إليهم، وخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه واجتمع بهولاكو ثم عاد فأشار إلى الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، فخرج الخليفة في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤساء الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل هولاكو حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً خلص بهم الخليفة، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة، ويقال إنه اضطرب في كلامه من هول ما رأى من الإهانات والجبروت، ثم أعيد إلى بغداد تحت الحوطة والمصادرة يحيط به الطوسي وابن العلقمي ـ الشيعيان ـ ونهب من دار الخلافة أشياء كثيرة من الذهب والحلي والأشياء النفسية، ثم أشار هؤلاء الرافضة على هولاكو بعدم مصالحة الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين، ثم

١ البداية والنهاية (١٣/١٩١). كيف دخل التتار صـ٥٧.

٢ المصدر السابق نفسه (١٣/١٥٧)، المصدر نفسه صـ ٥٧.

٣ المصدر السابق نفسه (١٣/٢٠١)، المصدر نفسه صـ٥٧.

٤ المصدر السابق (١٣/١٩٢)، المصدر نفسه صـ٥٧.

٥ كيف دخل التتار صـ٥٨.

يعود الأمر إلى ما كان قبل ذلك، وحسنوا له قتله، ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي، فلما عاد الخليفة إلى هولاكو أمر بقتله[1].

د ـ دوافع ابن العلقمي: والسؤال المهم: لماذا فعل ابن العلقمي ما فعل وأحل بدار الخلافة ما حل؟ فخلاصته خبث طوية الشيعة على أهل السنة بشكل عام، وتطرف معتقدهم فيهم، وعدم تحرجهم من التعاون مع الكفار على إبادة المسلمين السنة، يقول ابن تيمية:.. أنهم يكفرون كل من أعتقد في أبي بكر وعمر والمهاجرين والأنصار العدالة أو ترضى عنهم كما رضي الله عنهم، ويستحلون دماء من خرج عنهم، ويسمون مذهبهم مذهب الجمهور، ويرون في أهل الشام ومصر والحجاز والمغرب واليمن والعراق والجزيرة وسائر بلاد الإسلام أنه لا يحل نكاح هؤلاء ولا ذبائحهم، ويرون إن كفر هؤلاء أغلظ من كفر اليهود والنصارى، لأن أولئك عندهم كفار أصليون وهؤلاء مرتدون.. وهم كانوا من أعظم الأسباب في خروج جنكيز خان ملك الكفار إلى بلاد الإسلام، وفي قدوم هولاكو إلى بلاد العراق وفي أخذ حلب ونهب الصالحية وغير ذلك بخبثهم ومكرهم لما دخل فيهم من توزر منهم للمسلمين وغير من توزر منهم[2]، وقال: والرافضة تحب التتار ودولتهم لأنه يحصل لهم بها من العز مالا يحصل بدولة المسلمين، والرافضة هم معاونون للمشركين واليهود والنصارى على قتال المسلمين، وهم كانوا من أعظم الأسباب في دخول التتار قبل إسلامهم إلى أرض المشرق لخراسان والعراق والشام، وكانوا من أعظم الناس معاونة لهم على أخذهم لبلاد الإسلام وقتل المسلمين وسبي حريمهم، وقضية ابن العلقمي وأمثاله مع الخليفة وقضيتهم في حلب مع صاحب حلب مشهورة يعرفها عموم الناس.. وإذا غلب المسلمون النصارى والمشركين كان ذلك غصة عند الرافضة وإذا غلب المشركون والنصارى المسلمين كان ذلك عيداً ومسرة عند الرافضة[3]. وفي منهاج السنة قال ابن تيمية: وكثير منهم ـ يعني الرافضة ـ يواد الكفار من وسط قلبه أكثر من موادته للمسلمين، ولهذا لما خرج الترك الكفار من جهة المشرق وقتلوا

---

١ سير أعمال النبلاء (٢٣ ـ ١٨٣)، كيف دخل التتار صـ٥٩.

٢ الفتاوى (٢٨ ـ ٤٧٧، ٤٧٨)، كيف دخل التتار صـ٦٠.

٣ الفتاوى (٢٨ ـ ٥٢٧، ٥٢٨)، كيف دخل التتار صـ٦١.

المسلمين وسفكوا دماءهم ببلاد خراسان والعراق والشام والجزيرة وغيرها كانت الرافضة معاونة لهم على المسلمين، وكذلك الذين كانوا بالشام وحلب وغيرهما من الرافضة، كانوا من أشد الناس معاونة لهم على قتال المسلمين.. فهم دائماً يوالون الكفار من المشركين واليهود والنصارى ويعاونونهم على قتال المسلمين ومعاداتهم[1]، وقد ذكر المؤرخون أن الذي حمل ابن العلقمي على موقفه من التتار أن أبا بكر ابن الخليفة المستعصم والدويدار الصغير قد شدا على أيدي السنة حتى نهب الكرخ وتم على الشيعة بلاء عظيم، فحنق لذلك ابن العلقمي وأراد الثأر بسيف التتار من السنة[2]، وكاتب هولاكو وطمعه في العراق فجاء رسل هولاكو إلى بغداد، وفي الباطل معهم فرمانات لغير واحد والخليفة لا يدري ما يتم[3]، وقال ابن كثير: ولما كان في السنة الماضية (يعني سنة خمس وخمسين وستمائة) كان بين أهل السنة والرافضة حرب عظيمة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة حتى نهبت دور قرابات الوزير "ابن العلقمي" فاشتد حنقه على ذلك فكان هذا مما أهاجه على أن دبَّر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد وإلى هذه الأوقات[4].

هـ ـ المكر السيئ يحيق بأهله: قال تعالى: "ولا يحيق المكر السِّئُ إلا بأهله" (سورة فاطر، آية : ٤٢). لقد دخل التتار وجندهم بغداد ووقع ما وقع من الظلم والفساد وسفك الدماء وهتك الأعراض ولم يكن ابن العلقمي بعيداً عن ذلك كله، ولا سالماً منه البتة، وقد أحسن الذهبي في تعبيره وكان دقيقاً في وصف حالته حين قال: وحفر للأمة قليبا، فأوقع فيه قريبا، وذاق الهوان وبقي يركب كديشاً بعد أن كانت ركبته تضاهي موكب السلطان، فمات غبناً وغماً وفي الآخرة أشد خزياً وأشد تنكيلاً[5]. ونقل الصفدي ندم ابن العلقمي، حيث لا ينفعه الندم وكان كثير ما يقول: وجرى القضاء بعكس ما أملته، لأنه عومل بأنواع الهوان من أرذال التتار والمرتدة؛ حكي أنه كان في الديوان جالسا فدخل بعض التتار ممن لا وجاهة له راكباً فرسه، فساق إلى أن

---

١ منهاج السنة (٢ ـ ١٠٤)، كيف دخل التتار صـ٦٢.
٢ سير أعلام النبلاء (٢٣ ـ ٣٦٢)، كيف دخل التتار صـ٦٢.
٣ سير أعلام النبلاء (٢٣ ـ ١٨٠)، كيف دخل التتار صـ٦٣.
٤ البداية والنهاية (١٣ ـ ١٩١)، كيف دخل التتار صـ٦٤.
٥ سير أعلام النبلاء (٢٣ ـ ٣٦٢).

وقف بفرسه على بساط الوزير وخاطبه بما أراد، وبال الفرس على البساط وأصاب الرشاش ثياب الوزير وهو صابر لهذا الهوان يظهر قوة النفس وأنه بلغ مراده، ولم تكن الشيعة بشكل عام ـ وهم أهله وعشيرته ـ بمنأى عن هذه الجرائم والمآثم، وعجيب أن يكون حنقه على أهل السنة، وحميته للشيعة تبيح له ذلك كله ويروى أن بعض أهل بغداد قال له: يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه وحميت الشيعة حمِّية لهم، وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلق لا يحصون، وارتكب من الفواحش مع نسائهم وفضَّت أبكارهم مما لا يعلمه إلا الله تعالى، فقال: بعد أن قتل الدوادار ومن كان على مثل رأيه لا مبالاة بذلك[١]، وبلغ إذلال"التتر" له أن جعلوه تابعاً لشخص يدعى"ابن عمران" كان خادماً في دولة المستعصم[٢]، ونقل النويري ما هو أشد من ذلك، إذ استدعاه"هولاكو" فلما مثل بين يديه سبّه ووبخه على عدم وفائه لمن هو غذي نعمته[٣]، وذكر السيوطي أنه صار معهم في صورة بعض الغلمان وانه مات كمداً[٤].

إن موقف العلقمي لم يكن سليماً على الإطلاق ولكننا لا نستطيع أن نحمله التبعية كلها، بل، نشرك معه الخليفة ورجال حاشيته الآخرين وعوامل تمّ ذكرها في زوال الدولة العباسية، لقد كانت افعال ابن العلقمي جزءاً من صورة[٥]، اتضحت بذكر الأسباب الأخرى التي ساهمت في سقوط بغداد وقد عد الخميني جريمة ابن العلقمي والنصير الطوسي في قتل المسلمين من عظيم مناقبهما عندهم فقال الخميني في الإشادة بما حققه نصير الطوسي: ويشعر الناس(يعني شيعته) بالخسارة بفقدان الخواجه نصير الدين الطوسي وأضرابه ممن قدم خدمات جليلة للإسلام[٦]، والخدمات هنا ما كشفها الخوانساري من قبله في قوله في ترجمة النصير الطوسي: ومن جملة أمره المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره للسلطان ـ هولاكو خان ـ ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد لإرشاد العباد

١ الوافي بالوفيات (١ ـ ١٨٥).
٢ المغول في التاريخ صـ٢٧٤ كيف دخل التتر صـ٦٦.
٣ نهاية الأرب في فنون الأدب نقلاً كيف دخل التتر صـ٦٦.
٤ تاريخ الخلفاء للسيوطي صـ٣٧٨، كيف دخل التتر صـ٦٦.
٥ العراق سياقات الوحدة والإنقسام؛ بشير نافع صـ٦٣.
٦ روضات الجنات(٦/٣٠٠ ـ ٣٠١) أصول مذهب الشيعة للقفاري (١٤٧٢/٣).

وإصلاح البلاد بإبادة ملك بني العباس وإيقاع القتل العام في اتباع أولئك الطغام إلى أن أسال من دمائهم الأقذار كأمثال الأنهار، فأنهار بها في ماء دجلة ومنها إلى نار جهنم دار البوار[1].

و: بن طاوس والخلافة العباسية: كان على بن طاوس يرى عدم مشروعية الدولة العباسية التي لم تخرج في معتقدة عن كونها دولة غصبية، وابن طاوس يعتبر من مرجعيات الشيعة في وقت سقوط بغداد وكان يعمل على ازالتها ولا يرى الوقوف بجانبها أمام أعدائها ورفض في عهد المستنصر العباسي أن يكون موفداً إلى سلطان التتار لتسوية الأزمة السياسية بين الدولتين وكان ذلك في عام ٦٣٤هـ لأن ذلك يجعل منه رسولاً دائماً للدولة العباسية[2]ـ الدولة غصبية غير شرعية ـ ولما سقطت بغداد على يد المغول ونزح أهل الحلة إلى البطائح، حضر أكابرهم من العلويين والفقهاء مع مجد الدين ابن طاوس العلوي إلى حضرة السلطان ـ هولاكو ـ وسألوه حقن دمائهم فأجاب سؤالهم وعين لهم شحنة فغادروا إلى بلادهم وأرسلوا إلى من في البطائح من الناس يعرفونهم ذلك فحضروا بأهلهم وأموالهم وجمعوا مالاً عظيماً وحملوه إلى السلطان فتصدق عليهم بنفوسهم[3]. ولما تم احتلال بغداد أمر هولاكو أن يستفتي العلماء: أيما أفضل السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر؟ ثم جمع العلماء وكان رضي الدين على بن طاوس حاضراً المجلس وكان مقدماً محترماً فلما رأى احجامهم تناول الفتيا ووضع خطة فيها بتفصيل العادل الكافر على المسلم الجائر، فوضع الناس خطوطهم بعده[4]، وقد طلب بن طاوس الأمان من هولاكو قبل فتحها، وزاره، واستدل بكلام منسوب لعلي بن أبي طالب كذباً وزوراً يشنع فيه على بني العباس، فلما وصل إلى مجلس هولاكو وكان ذلك قبل سقوط بغداد وقتل الخليفة قال له كيف قد تشجعت على مكاتبتي والحضور عندي قبل أن تعلموا بما ينتهي إليه أمري وأمر صاحبكم وكيف تأمنون أن يصالحني ورحلت عنه فقال بن طاوس: أقدمنا على ذلك لأنا روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال في

١ أصول مذهب الشيعة (١٤٧٣/٣).
٢ القفية والدولة الفكر السياسي الشيعي صـ٩٠.
٣ المصدر نفسه صـ٩٤.
٤ المصدر نفسه صـ٩٤.

خطبة: الزوراء وما أدرك ما الزوراء أرض ذات أثل، يشيّد فيها البنيان، ويكون فيها مخادام وخزّان يتخذها ولد العباس موطنا، ولزخرفهم مسكناً، تكون لهم دار لهو ولعب، ويكون بها الجور الجائر، والخوف المخيف، والائمة الفجرة، والامراء الفسقة والوزراء الخونة، تخدمهم أبناء فارس والروم، لا يأتمرون بمعروف إذا عرفوه، ولا يتناهون عن منكر إذا أنكروه، تكفى الرجال منهم بالرجال، والنساء بالنساء فعند ذلك الغم العميم، والبكاء الطويل، والويل والعويل، لأهل الزوراء من سطوات الترك وهم قوم صغار الحُدُق، وجوههم كالمجان المطوّقة لباسهم حديد، جرد مرد، يقدمهم ملك يأتي من حيث بدا ملكهم جهوري الصوت، قويّ الصولة عالي الهمّة، لا يمر بمدينة إلا فتحها، ولا ترفع عليه راية إلا نكّسَها، الويل الويل لمن ناواه فلا يزال كذلك حتى يظفر[1]. فلما وصف لنا ذلك ووجدنا الصفات فيكم، رجوناك فقصدناك ويعلّق الحلي: فطيب قلوبهم وكتب لهم فرماناً باسم بن طاوس يطيب فيه قلوب أهل الحلة وأعمالها وهذه الرواية من أكاذيب الشيعة على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومحاولة تشويه تاريخ بن العباس على لسانه، والتزلف والتقرب إلى هولاكو الوثني وهذا الذي قاله ابن طاوس: ولا ترفع عليه راية إلا نكسا، الويل الويل لمن ناواه فلا يزال كذلك حتى يظفر[2]، يكذبها الواقع وحقاق التاريخ حيث نكست راية هولاكو في معركة عين جالوت عندما تصدى لهم سيف الدين قطز والشعب المصري المسلم والسائر على نهج أهل السنة والجماعة، كما أن بركة خان المغولي الذي أسلم كسر شوكة هولاكو وهزمه هزيمة مريرة، بل مات هولاكو كمداً وغماً لما حدث لجنوده في معركة عين جالوت وهذا ما سوف يراه القارئ الكريم بإذن اللـه في الصفحات القادمة.

إن ابن طاوس يتلاعب بفتاويه ويحاول أن يصور بأن هولاكو أفضل من الخليفة المستعصم حيث أن الأول كافر عادل والثاني مسلم جائر، وأي عدل قام به هولاكو غيرالدمار والهلاك وهتك الأعراض واسترقاق الناس، ولكن هذه النفسية المريضة ترى أي ظلم وجور يقع على مسلم سني أو دولة سنية هو من صميم العدل وأما ما

١ الفقيه والدولة صـ٩٦.

٢ الفقه والدولة صـ٩٦.

قام به ابن طاوس فهو من النفاق والتزلف لهولاكو، كان ابن طاوس لا يمتنع من الدخول في المناورات السياسية المفتوحة ويبني ذلك على رؤى ومواقف متنوعة، فقد مهد بمجموعة من الأخبار الغيبية المختلقة ـ في تسوية الأشكال بين ابن طاوس والدول المغولية، ومهدت تلك الأخبار والروايات المختلقة السبيل وبفعالية غير عادية للاسترسال في بناء علاقة حميمية بالدولة المغولية مستندة إلى نصوص إرشادية توجيهية يعتقد ـ ابن طاوس الفقيه الشيعي ـ بأنها كفيلة برفع الحرج الشرعي[1]، ومما لا شك فيه أن رموز الشيعة في تلك المرحلة، كابن طاوس الحلي، والعلقمي، ونصير الطوسي وغيرهم كانوا من عوامل هدم واسقاط الدولة العباسية، وكان لديهم استعداد نفسي، للتعامل مع المغول وبناء علاقات قوية معهم على حساب زوال بني العباس.

٢٠ ـ تمرس فرسان التتار وقوة الإمبراطورية المغولية: ويجب ألا يغرب على البال تمرس فرسان التتار بالحرب واخذهم بأسبابها المادية وتوافر عوامل الانتصار، من قيادة حكيمة ووضوح في الهدف، وإعداد الأفراد والحرص على الوحدة والاتحاد ((وسلطة الياسا)) وتقسيم الادوار، والتخطيط السليم، والإدارة الناجحة، والتنظيم المحكم، والدعم الإقتصادي والدعاية الإعلامية لجيوشهم والحيطة والحذر من الأعداء وغير ذلك من الأسباب التي تدل على قوة الإمبراطورية المغولية وتمرس فرسانها على القتال، فهذه هي أهم أسباب سقوط الدولة العباسية، وهي متداخلة ومتشابكة يؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالسبب الديني يؤثر في العامل العسكري، ويتأثر به وهكذا.

إن دراسة أسباب سقوط الدول وعوامل بنائها من الأمور المهمة التي تحتاجها الأمة في مشروعها الحضاري الذي يهدف لقيادة الإنسانية بالمنهج الرباني، وتحقيق استاذية العالم لهذه الأمة المجيدة.

ثامناً: نتائج سقوط بغداد:

يعد سقوط بغداد، وانقراض الخلافة العباسية التي استمرت قائمة أكثر من خمسة قرون، من أكبر الرقائع التي حدثت في التاريخ، ولقد كان لهذا الحدث أسوأ

---

[1] الفقيه والدولة صـ١٠١.

الأثر في نفوس المسلمين جميعاً، واعتبرت هذه المأساة لطمة قاسية وبلاء شديداً سلط على رؤوسهم؛ إذ انتهكت حرمتهم على يد المغول أهل الكفر والشرك، الذين صوبوا طعنة نجلاء إلى مقام الخلافة وإلى أسرة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فلا غرو أن كان لهذا الحدث نتائج خطيرة[1]، نلخصها فيما يأتي:

١ ـ زوال النفوذ الأدبي والروحي: كان المسلمون يتطلعون إلى الخلافة على أنها رمز للممالك الإسلامية جميعهاً، يجب أن يظل قائماً وكانوا ينظرون إلى الخليفة نظرة إجلال واحترام وعلى كل هذا كان نفوذه الديني بعيد الأثر في نفوس المسلمين جميعاً وعلى الرغم من أن الخلافة، كانت قد فقدت منذ قرون جانباً كبيراً من قوتها المادية، فإنها كانت لا تزال تدخر قدراً كبيراً من سلطانها الأدبي والروحي، فلما سقطت بغداد، وقتل الخليفة، قضي على هذا النفوذ، وزال ما كان لتلك العاصمة من مكانة دينية ممتازة[2].

٢ ـ بغداد مدينة ثانوية: كانت بغداد قبل حملة المغول مركزاً للنشاط السياسي في جميع أنحاء الشرق الإسلامي، يؤمها وفود الحكام والأمراء المسلمين، وكانت الروابط تربط بينها وبين مختلف العواصم، فلما سقطت في أيدي المغول، صارت مدينة ثانوية، يعين عليها، وال، وانتقل النشاط كله إلى مدن الشمال في أذربيجان، إذ أنها أخذت تلعب دور العواصم، ففقدت بغداد بذلك أهميتها السياسية، يقول رنسيمان: أخذت بغداد تستعيد رويداً رويداً نظافتها وتعود إلى سابق عهدها من النظام والترتيب، على أنها لم تعد بعد أربعين سنة سوى مدينة إقليمية وافرة الرخاء لا تتجاوز عشر حجمها السابق[3]، وبسقوط هذه المدينة دخل الشرق الإسلامي عامة في عهد جديد، آلت فيه السيطرة من بعد هولاكو إلى أبنائه الذين صاروا يستقلون تدريجياً عن المغول في قراقورم وأسسوا لأنفسهم دولة في إيران، عرفت باسم "دولة الإيلخانيين"[4].

---

١ المغول في التاريخ للصياد صـ٢٧٩.

٢ المصدر نفسه صـ٢٨٠.

٣ المغول في التاريخ للصياد صـ٢٨٠ تاريخ الحروب الصليبية (٥٢٢/٣).

٤ المغول للصياد صـ٢٨٠.

٣ ـ تدهور العلوم ومكانة اللغة العربية: كانت بغداد مركزاً هاماً للعلوم والآداب والفنون، يهرع إليه العلماء وطلاب العلم، للتزود بالثقافة الإسلامية التي كانت تمثل هناك بأجلى معانيها، فقد كانت تلك المدينة غنية بعلمائها وأدبائها وفلاسفتها وشعرائها، وكان كل هؤلاء بمثابة أساتذة وقادة لرجال العلم والأدب في مختلف أنحاء الشرق الإسلامي، فلما حلت النكبة ببغداد على أيدي المغول قتل آلالاف من العلماء والشعراء وشرد من نجا منهم، فلجأوا إلى مصر والشام وغيرهما من البقاع[١]، وأحرقت المكتبات وخربت المدارس والمعاهد وقضي على الآثار الإسلامية التي تعب الفنانون المسلمون في إبداعها، كل هذا التراث المجيد، قد أصبح في التراب أثراً بعد عين وقصارى القول أن سقوط بغداد بعد أن سقطت بخارى ونيسابور والرى وغيرهما في مدن العالم والأدب، كان حقاً جناية كبيرة على الحضارة والثقافة، إذ فقدت اللغة العربية تلك المكانة التي كانت تتمتع بها قبل الغزو في ميادين الثقافة العلمية والأدبية، وبفتح المغول لهذه العاصمة الكبيرة تمت الخطوة النهائية في سبيل تفوق اللغة الفارسية على اللغة العربية ورغم أن هذه اللغة قد بقيت كلغة علمية وأدبية في إيران ولم يستطع الأدباء والكتاب الإيرانيون أن يكفوا عن تعلمها والتأليف بها، إلا أن عنايتهم باللغة الفارسية كانت أشد وأقوى لأنها اللغة التي استطاعت أن تشبع رغبة العامة، وتوافق إحساس الناس في ذلك الوقت، يقول بروان: إن تحطيم بغداد، كعاصمة للمسلمين، وإنزالها إلى مرتبة المدن الإقليمية قد أصاب رباط الوحدة بين الأمم الإسلامية بلطمة شديدة، كما أصاب مكانة اللغة العربية في إيران بضربة قاصمة، فاقتصر، إستعمالها بعد ذلك على العلوم الفقهية، فإذا وصلنا إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، لم نعد نصادف إلا القليل النادر من الكتب العربية التي تم تأليفها في إيران[٢].

١ المصدر نفسه.

٢ تاريخ الأدب في إيران صـ٥٦٤، المغول صـ١٨١.

٤ ـ البهجة والفرح لدى النصارى: عمت البهجة والفرح أطراف العالم النصراني، وقد زاد من فرح النصارى أنهم كانوا يتعاونون مع التتار في هذه الحملة الأخيرة ودخل ملك أرمينية وملك الكرج وأمير أنطاكية في حزب التتار، وزاد من فرحهم أن التتار صدقوا عهودهم، فإنهم قد وعدوا النصارى ألا يمسوهم بسوء في بغداد، وتم لهم ذلك، بل إن هولاكو أغدق الهدايا الثمينة على ((ماكيكا)) البطريرك النصراني، وأعطاه قصراً عظيماً من قصور الخلافة العباسية على نهر دجلة وجعله من مستشاريه ومن أعضاء مجلس الحكم الجديد ومن أصحاب الرأي المقربين في بغداد[١]، لقد ابتهج المسيحون بسقوط بغداد وزوال الدولة العباسية وكتبوا في نشوة النصر عن سقوط بابل الثانية، وهللوا لهولاكو وزوجته المسيحية دوقوز خاتون، واعتبروهما قسطنطين وهيلينا وأنهما ليس إلا أدوات الله للانتقام من أعداء المسيح[٢].

غير أن ارتياح المسيحين وسرورهم لم يستمر طويلاً، إذ لم يمضي زمن طويل حتى قهر المسلمون غزاتهم في معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ بقيادة سيف الدين قطز يأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى.

٥ ـ القاهرة عاصمة الخلافة: تأثر المسلمون أشد التأثر لسقوط بغداد، وخلوّ الأرض من وجود خليفة يكون له المقام الروحي المرموق وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن ما حدث من استصال الأسرة العباسية، وتدمير العاصمة، جعل زعامة المسلمين شاغرة، يتطلع لاحتلالها كل زعيم طموح من المسلمين، فلما تولى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عرش مصر، بحث عن أحد أفراد الأسرة العباسية ونصبه خليفة في مصر سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م وهكذا قامت الخلافة العباسية في مصر وكان لها شبه سلطة روحية في مدينة القاهرة، وبهذا انتقل النشاط السياسي والثقافي إلى مصر التي أصبحت قبلة انظار المسلمين وكان الظاهر يرمي من وراء إحياء الخلافة العباسية في مصر، إلى أن يكسب سلطنته صفة شرعية بفضل التقليد الذي حصل عليه من الخليفة، وأن يمتد ملكه، ويوسع سلطانه بمساعدته باعتباره

---

١ قصة التتار صـ١٦٩.

٢ المغول للصياد صـ١٨٢، تاريخ الحروب الصليبية (٥٢٢/٣).

حامي الدين[1]، وقد استمر هذا الوضع قائماً في مصر إلى أن استولى عليها السلطان العثماني سليم الأول عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م)، فألغى منها الخلافة العباسية، وبذلك انتقلت الخلافة إلى القسطنطينية حاضرة العثمانيين[2].

٦ ـ إنتشار التشيع: كان لسقوط بغداد أثره البالغ على إنتشار التشيع، فالمعروف أن الخلافة العباسية السنية إشتهرت في ذلك الوقت بمحاربة التشيع والحد منه في مناطق إيران وغيرها، إلا أنه بالقضاء على الخلافة العباسية إنتشر التشيع في تلك المناطق بطريقة غير مألوفة، نتيجة لإزدياد نفوذ رجال الشيعة الذين أصبحوا يتبوؤن المراكز الهامة لدى المغول، كنصير الدين الطوسي الذي كان مستشاراً لهولاكو، ووزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي الذي أسند إليه حكم بغداد بعد سقوطها، هذا بالإضافة إلى إزدياد نفوذ المسيحيين الذين ساعدوا هولاكو في الإستيلاء على بغداد والقضاء على الخلافة العباسية، إذ من المؤكد أن يحظوا بمكانة عالية في تلك المناطق على حساب مكانة السكان المسلمين، خاصة وأن دوقوز خاتون زوجة هولاكو التي كانت مسيحية نسطورية لم تكن تألو جهداً في التعاطف مع المسيحيين الشرقيين، والعمل على رفع شأنهم لدى زوجها هولاكو[3].

٧ ـ تفجر طاقات الأمة (قانون) التحدي: شعرت الأمة بالخطر العظيم على دينها وعقيدتها فبدأت تتحضر وتستعد للثأر من المغول وتولي قيادة المعركة في عين جالوت سيف الدين قطز، فلم تأت تلك المعركة من فراغ، وأبداً لم تكن منفصلة عن معركة بغداد، والمدة الزمنية بينهما نحو عامين فقط، ولم تكن هذه الفترة بين المعركتين فترة سكون وترقب، أو فترة سلام، أو مهادنة لا. بل كانت سلسلة معارك متصلة، جاءت معركة عين جالوت ثمرة طبيعية ونتيجة لها، إذ كانت ضربة ثأر قاصمة، لم تقم للتتار بعدها قائمة[4] لم يكن الطريق إلى عين جالوت سهلاً ولا ليناً، وإن مئات الآلاف الذين استشهدوا في سبيل الله ربما لم يكن أمامهم بارقة

---

١ النظم الإسلامية صـ١٣٠ حسن إبراهيم حسن.

٢ المغول للصياد صـ٢٨٣.

٣ جهاد المماليك صـ٦٤.

٤ نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي صـ١٤٨ د.عبد العظيم.

أمل في النصر أو النجاة، ولكنهم آثروا الشهادة، ضرباً للمثل وإعذاراً إلى الـلـه وتعليماً لمـن يلـيهم[1]، ويأتي الحديث مفصلاً بإذن الـلـه تعالى.

٨ ـ مولد عثمان الأول مؤسس الدولـة العثمانيـة(٦٥٦هـ): في عـام(٦٥٦هــ ـ ١٢٥٨م) ولـد لأرطغـل ابنـه عثمان الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية، وهي السنة التي سقطت فيهـا بغـداد عـام ٦٥٦ هــ عـلى أيـدي المغـول، لقـد كـان الخطـب عظـيماً والحـدث جلـل، والأمـة ضـعفت ووهـت بسـبب ذنوبهـا ومعاصيها، ولذلك سلط عليها المغول، فهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء، وقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، وخربوا الديار في تلك الظروف الصعبة والوهن المستشري في مفاصل الأمة ولد عثمان مؤسس الدولـة العثمانية وهنا معنى لطيف ألا وهو بداية الأمة في التمكين هي أقصى نقطة من الضعف والانحطـاط تلك بداية الصعود نحو العزة والنصر والتمكـين، إنهـا حكمـة الـلــه وإرادتـه ومشـيئته النافـذة، قـال تعالى إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضـعف طائفـة مـنهم يـذبح أبنـاءهم ويسـتحي نساءهم إنه كان مـن المفسـدين) (القصـص،آية:٤)، قـال سـبحانه تعـالى ونريـد أن نمـن عـلى الـذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمـة ونجعلهـم الـوارثين* ونمكـن لهـم في الأرض) (القصـص، آيـة ٥،٦)، وكانت بداية التمكين لبني إسرائيل بمولد موسى عليه السـلام ولا شـك أن الـلــه تعـالى قـادر عـلى أن يمكن لعباده المستضعفين في عشية أو ضحاها، بـل في طرفـة عـين وإنمـا أراد الـلــه تعـالى أن نـتعلم ونراعى السنن الشرعية والسنن الكونية ولا بد من الصبر على دين الـلـه، وإذا أراد الـلـه شيئاً هيأ لـه أسبابه، وأتى به شيئاً فشيئاً بالتدرج لا دفعة واحدة وبدأت قصة التمكين للدولة العثمانية مـع ظهـور القائد عثمان الذي ولد في عام سقوط الخلافة العباسية في بغداد[2].

٩ ـ موقف الشعراء من سقوط بغـداد: كـان هـذا الحـدث الجلـل تـأثيره العميـق في نفـوس المسـلمين جميعاً، وكان أشد وقعاً وأعظم تأثيراً في نفوس الشعراء منهم، فنظمـوا المـراثي التـي تشـيع الأسى في النفس وتثير الشجون وكان من تلك المراثي:

---

١ المصدر نفسه صـ١٥٤.

٢ الدولة العثمانية صـ٤٧ للصّلاَّبي.

أ ـ تقي الدين بن أبي اليسر: قال تقيُّ الدين بن أبي اليسر قصيدته في بغداد وهي:

لســـائلِ الـــدمعِ عـــن بغـــدادَ أخبـــار

فـــما وُقُوفُـــك والأحبـــاب قـــد ســـاروا

يـــا زائـــرين إلى الـــزوراءِ لا تَفِـــدُوا

فـــما بـــذاك الحِمـــى والـــذَّار ديّـــارُ

تـــاجُ الخلافـــة والرّبـــعُ الـــذي شرُفـــت

بـــه المعـــالم قـــد عفَّـــاه إقفـــار

أضـــحى لعصـــف[1] الـــبِلى في ربعـــه أثـــر

وللـــدموع عـــلى الآثـــار آثـــارُ

يـــا نـــارَ قلبـــيَ مـــن نـــارٍ لحـــرب وغـــى

شـــبت عليـــه ووافي الرَّبـــع إعصـــار

عـــلا الصـــليبُ عـــلى أعـــلى منابرهـــا

وقـــام بـــالأمر مـــن يحويـــه زُنَّـــارُ

وكـــم حـــريمٍ ســـبتهُ الـــترك غاصـــبة

وكـــان مـــن دون ذاك الســـتر أســـتار

وكـــم بـــدور عـــلى البدريـــة انخســـفت؟

ولم يَعُـــد لبـــدور منـــه إبـــدار

وكـــم ذخـــائر أضـــحت وهـــي شـــائعة

مـــن النهـــاب وقـــد حازتـــه كفـــار

---

[1] شذرات الذهب (٤٦٩/٧)

وكـــم حـــدودٍ أقيمـــت مـــن ســـيوفهم

عـــلى الرقـــاب وحُطَّـــتْ فيـــه أوزار

ناديـــتُ والسَّـــبْيُ مهتـــوك تجـــرّهم

إلى الســـفاح مـــن الأعـــداء دُعّـــار[1]

ب ـ شمس الدين الكوفي الواعظ: حيث قال:

عنـــدي لأجـــل فـــراقكم آلام

فـــإلام أعـــذَل فـــيكم وأُلام

مـــن كـــان مـــثلي للحبيـــب مفارقـــاً

لا تعـــذلوه فـــالكلام كـــلام

نعـــم المســـاعد دمعـــي الجـــاري عـــلى

خَـــدِّي إلا أنـــه نمّـــام

ويـــذيب روحـــي نـــوْح كـــل حمامـــة

فكأنمـــا نـــوح الحـــمام حِـــمَام

إن كنـــتَ مـــثلي للأحبـــة فاقـــداً

أو في فـــؤادك لوعـــة وغـــرام

قـــف في ديـــار الظـــاعنين ونـــادهما

يـــا دار مـــا صـــنعت بـــك الأيـــام

أعرضـــت عنـــك لأنهـــم مـــذ أعرضـــوا

لم يبـــق فيّ بشاشـــة تُشَـــام

١ المصدر نفسه (٤٧٠/٧).

يـــا دارُ أيـــن زمـــان رَبعـــك مونقـــاً

وشـــــعارك الإجـــــلال والإكـــــرام

يـــا دار مُـــذ أفلـــت نجومُـــك عمّنـــا

واللـــــه مـــن بعـــد الضـــياء ظـــلام

فلبُعـــدهم قَـــرُب الـــردى ولفقـــدهم

فُقـــد الهـــدى وتزلـــزل الإســـلام

فمتـــى قبلـــتِ مـــن الأعـــادي ســـاكناً

بعـــد الأحبـــة لا ســـقاك غـــمام

يـــا ســـادتي أمـــا الفـــؤاد فشـــيِّق

قَلِـــق وأمـــا أدمعـــي فَسِـــجام

والـــدار مـــذ عـــدمت جـــمال وجـــوهكم

لم يبـــق في ذاك المقـــام مُقـــام

لاحـــــظ فيهـــا للعيـــون

ولـــيس للأقـــدام في عرصـــاتها إقـــدام

إلى أن قال:

يـــا غـــائبين وفي الفـــؤاد لبعـــدهم

نـــار لهـــا بـــين الضـــلوع ضرام

لا كُتْـــبكُم تـــأتي ولا أخبـــاركم

تُـــروى ولا تُـــدنيكم الأحـــلام

أقصَتكُم الدنيا عليّ وكلما

جَدَّ النوى لَعِبَتْ بي الأسقام

ولقيت من صرف الزمان وجوره

ما لم تُخيِّله لِيَ الأوهام

يا ليتَ شعري كيف حال أحبتيَ

وبأي أرض خيّموا وأقاموا

مالي أنيس غير بيت قاله

صَبٌّ رمته من الفراق سهام

والله ما أخترت الفراق وإنما

حكمت عليّ بذلك الأيام[١]

ولم يكن هذا الشعور مقصوراً على شعراء العرب وحدهم بل، شاركهم في هذا الميدان شعراء الفرس كذلك، حتى أننا لنجد الشاعر الكبير سعدى الشيرازي الذي كان يعيش في ذلك الوقت في شيراز آمناً مطمئناً بعيداً عن ميدان المعركة لا يستطيع أن يخفي تأثره لهول هذا المصاب، فينظم قصيدة فارسية يرثى فيها المستعصم، ويبدي تحسره وتأسفه على زوال الخلافة العباسية وترجمة ما قاله من شعر بالعربية:

للسماء حق إذ بكت على وجه الأرض دماً

لزوال ملك المستعصم أمير المؤمنين

كما نظم هذا الشاعر قصيدة أخرى عربية على نفس الموضوع كانت أروع قصائده، وكأنه أراد أن ينعي بهاتين القصيدتين الخلافة الإسلامية للمسلمين أجمعين: الفرس منهم والعرب على السواء

١ أصداء الغزو المغولي مأمون جرّار صـ١٤٦.

حبســـــت بجفنــــيّ المـــدامع لا تجـــري

فلـــما طغـــى المـــاء اســـتطال عـــلى الســـكر

نســـيم صـــبا بغـــداد بعـــد خرابهـــا

تمنيـــت لـــو كانـــت تمـــر عـــلى قـــبري[1]

---

١ المغول في التاريخ صـ٢٨٦.

الفصل الثالث

قيام دولة المماليك

المبحث الأول

أصول المماليك ونشأتهم

أولاً: من هم المماليك؟:

المماليك، جمع مملوك، وهم من الرقيق الذين كانوا يشترون يستخدمون لأغراض عديدة في المجتمعات منذ القدم، ويعتبر الرقيق الأتراك أول من استخدموا في الجندية في الدولة الإسلامية زمن الأمويين، إذ يذكر الطبري بأن نصر بن سيار، والي الأمويين على خراسان، اشترى: ألف مملوك من الترك وأعطاهم السلاح وحملهم على الخيل[1]، وكانت بلاد ما وراء النهر المصدر الرئيسي للرقيق الأتراك[2]، وفي العصر، تزايد إستخدام الأتراك في وظائف الدولة إضافة وإستخدامهم في الجيش[3]، وتوسعت أسواق النخاسة البيضاء، من شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز والقفجاق ,آسيا الصغرى وتركستان وبلاد ما وراء النهر، وكان فيهم عنصر الأتراك، وفيهم الشراكسة والروم والأكراد وبعضهم من البلاد الأوربية أيضاً[4]، وكان الخليفة المعتصم العباسي (٢١٨ ـ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م) أول من شكل فرقاً عسكرية ضخمة منهم وأحلهم مكان العرب الذين أسقط أسماؤهم من ديوان الجند[5]، وقد بلغت مماليك الخليفة المعتصم بضعة عشر ألفاً، وقد امتلأت بهم بغداد مما أدى إلى اصطدامهم بالناس في الطرقات، وأثار سخط أهل العاصمة، فبنى لهم مدينة سامراء لتكون عاصمة لهم، ومقراً لجيوشه التركية من المماليك والأحرار[6]، وقد استخدم المعتصم الجيش التركي تخلصاً من النفوذ الفارسي والعربي في الجيش والحكومة سواء، وقد لجأ إلى الأتراك بالشراء والتربية والإعداد إعتقاداً منه بأنه مجردون من الطموح الذي اتصف به الفرس، ومن العصبة التي عرف بها العرب[7]. ولكن سرعان ما أخذ أولئك المماليك

---

١ تاريخ الطبري، عصر الدولة الأموية نقلاً عن بيت المقدس د. النقر صـ٤٧.

٢ تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي للدكتور النقر صـ٤٧.

٣ تاريخ المغول والمماليك صـ٦١ ـ ٦٢، تاريخ بيت المقدس صـ٤٧.

٤ المصدر نفسه صـ٦١.

٥ تاريخ المقدس صـ٤٧.

٦ قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام صـ١٢.

٧ تاريخ المغول والمماليك مجموعة من المؤلفين صـ٦٢.

في التدخل في شئون الدولة حتى أمست في أيديهم يفعلون بها ما يشاؤون[١]، وأصبح الخليفة منذ مقتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م في أيديهم كالأسير، إن شاؤوا خلعوه وإن شاؤوا قتلوه[٢]، وهكذا أصبح هـؤلاء الجنود عنصر تمرد ضد الخلفاء فأساؤوا التصرف في شئون الإدارة والحكم فانفضت الولايات مـن حـول العاصمة، وكان من الطبيعي أن يزداد نفـوذ الـترك في الخلافـة العباسـية، بعـد أن صـار مـنهم الجـيش والقادة، فلما ضعف سلطان الخلافة طمع عمال الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم، وصار الجيش وقادته من الأتراك وسيلة الخلفاء للقضاء على الحركات الاستقلالية المختلفة، فازداد المماليك الأتراك في الدولـة العثمانية أهمية على أهميتهم، وأضحى منهم الولاة والوزراء وأربـاب الدولـة[٣]، والواقـع فمنـذ الـعصر العباسي الأول إتخذ مصطلح ((مماليك)) معنى إصطلاحياً خاصاً عنـد المسـلمين، إذ اقـتصرت التسـمية على فئة من الرقيق الأبيض الذي كان يشترى من اسواق النخاسـة، ويسـتخدم كفـرق عسـكرية خاصـة ومع ضعف الخلافة العباسية في العصر العبـاسي الثـاني، كـان مـن الطبيعـي أن تـزداد الحاجـة للرقيـق الأتراك، ذلك أن الدويلات التي انفصلت عن جسـم الخلافـة مثـل الطولـونيين، والأخشـيديين في مصر[٤]، والصفاريين والسامانيين في خراسان[٥] ومـا جاورهـا، والغزنـويين والغـوريين في الهنـد[٦]، أقبلـوا عـلى شراء الأتراك الإرقاء لتأكيد سلطتهم وبظهور الأتراك السلاجقة على مسرح السياسة في المشرق الإسلامي إزداد نفوذ الأتراك عموماً ذلك أن السلاجقة في الأصل من العناصر التركية، كـما أن الدولـة السـلجوقية زادت من الاعتماد على المماليك الأتراك[٧]، ويعد نظام الملك الوزير الكبـير للسـلطان السـلجوقي ألـب أرسـلان وملكشاه هو أساس النظام التربوي المملوكي في كتابه سياسة نامة، وقد جاء فيه أنه: يجب ألا يثقل على المماليك القائمين على الخدمة إلا إذا دعـت الحاجـة ولا ينبغـي أن يكونـوا عرضـة للسـهام، ويجـب أن

١ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين نقلاً عن تاريخ المغول والمماليك صـ٦٢.

٢ الفخري في الآداب السلطانية لابن طباطبا صـ٢٢٠.

٣ تاريخ المغول والمناليك صـ٦٢.

٤ المواعظ والاعتبار للمقريزي نقلاً عن تاريخ بيت المقدس صـ٨٤.

٥ تاريخ إيران بعد الإسلام، عباس إقبال صـ٩٧ ـ ١٦٧.

٦ تاريخ بيت المقدس صـ٤٨.

٧ المصدر نفسه.

يتعلموا كيف يجتمعون على الفور مثلما ينتشرون على الفور، ولا حاجة إلى التكليف كل اليوم بإصدار الأمر بمباشرة الخدمة لمن يكون الغلمان، صاحب الماء، صاحب السلاح، والساقي، وأشباه ذلك، ولمن يكون في خدمة كبار الحجاب وكبير الأمراء، ويجب أن يؤمرا بأن يبرز للخدمة في كل يوم من كل دار عدد منهم، ومن الخواص عدد معين، هذا وقد كان للسلطان مماليك صغار، وكان عليهم من الصبيان الخاص رقباء، وعلى طوائفهم من جنسهم نقباء[1]، ونظم نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي المماليك، وكان أشد الناس تمسكاً بهم، وقد أحاط نفسه بجيش كبير من المماليك عرفوا بالمماليك النظامية نسبة لاسمه، فقوى بهم نفوذه[2]، ويعتبر نظام الملك أول من أقطع الاقطاعات للمماليك الأتراك، وبعد إن كان عطاء الجندي يدفع نقداً صار يعطى إقطاعاً[3]، فتسلم الأرض إلى المقتطعين يضمن عنايتها وعمارتها مما يحفظ قوة وثروة الدولة، كما فتحت القلاع والمدن والولايات للقادة من مماليكهم الذين سموا بالاتابكة[4]، والجدير بالذكر أن الوزير نظام الملك أول من لقب بلقب أتابك، وقد منحه أياه السلطان ملكشاه حين فوض إليه تدبير أمور الدولة سنة ٤٦٥هـ[5]، وهكذا إتخذ السلاجقة أشخاصاً من كبار المماليك ليكونوا مربيين لأولادهم في القصر ومنحوهم الإقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم بشؤونهم وتأديبتهم الخدمة الحربية وقت الحرب، ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الإقطاعات وبخاصة عندما ضعفت الدولة وتفككت فاستغلوا بولاياتهم شيئاً فشيئاً[6]، وأقاموا دويلات منفصلة عن جسم الدولة السلجوقية عرفت باسم: دويلات الأتابكة: وكان عماد الدين زنكي أقوى هؤلاء الأتابكة، وأسس دولة ضمت الموصل وحلب وديار ربيعة[7]، وعند وفاة عماد الدين زنكي، خلفه ابنه نور الدين محمود وتوسع بالدولة وضم دمشق وقضى على الدولة الفاطمية، وأصبحت مصر من ضمن

١ دولة آل سلجوق للأصفهاني صـ١١٣، تاريخ المغول والترك صـ٦٥.

٢ دولة آل سلجوق صـ٧٦، تاريخ المغول والترك صـ٦٦.

٣ تاريخ المغول والترك صـ٦٦.

٤ صبح الأعشى (١٨/٤)، تاريخ المغول والترك صـ٦٦.

٥ أخبار الدولة السلجوقية صـ١٩٦، ١٩٧، تاريخ المغول صـ٦٦.

٦ تاريخ المغول والترك صـ٦٦.

٧ تاريخ بيت المقدس صـ٤٩.

الدولة الزنكية، وقد توسعت عن الحديث عن عماد الدين وابنه نور الدين في كتابي عصر الدولة الزنكية، وقد استكثر نور الدين محمود من شراء المماليك الأتراك الذين صاروا يكونون غالبية جيشه[١]، وبعد الزنكيين جاء الأيوبيين فأكثروا من المماليك الأتراك واستخدموهم في الجيش، وتجدر الإشارة أن الجيش الذي قاده أسد الدين شيركوه إلى مصر كان معظمه يتكون من المماليك والأمراء النورية[٢]، وقد سمي مماليك صلاح الدين الأيوبي بالمماليك الصلاحية، كما سمي مماليك أسد الدين شيركوه بالمماليك الأسدية، وفي عهد الملك العادل سمي المماليك بالعادلية نسبة إلى العادل، ولما توفي خلفه أبناؤه الأشرف: موسى العادل، والكامل، وغيرهم، ونسب عدد من المماليك لكل واحد منهم، فعرف المماليك الأشرفية، والمماليك الكاملية[٣].

١ ـ نجم الدين أيوب والمماليك: ينسب إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إدخال تشكيلات جديدة على القوة العسكرية التي كان يتكون منها جيش السلطان الأيوبي، فقد إتخذ جملة من الإجراءات العسكرية تبناها السلطان الملك الصالح نجم الدين لتقوية الجيش الذي كان يترأسه، ومن أهمها: إهتمامه الكبير بشراء المماليك والغلمان الأتراك بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ السلطة الأيوبية، فخلا مدة حكمه أضاف إلى الجيش في دفعة واحدة ما تعداه من أكثر من ألف مملوكاً تركياً جلبهم من إقليم التركستان (خوارزم)، ومن مناطق شمالي البحر الأسود وبحر قزوين[٤]، وغيرها من الأماكن، وقد أصبح العنصر التركي في عهد الملك الصالح هو الغالبية المتميزة للجيش الأيوبي وسرعان ما شكلوا نواة عسكرية ـ سياسية نشطة تحولت إلى دولة المماليك البحرية، بعد أقل من بضع سنين على وفاة الملك الصالح لتختفي تدريجياً العناصر المتكون منها الجيش الأيوبي، كالبربر والسودان، ومن أهم معالم التطوير في البنية العسكرية الأيوبية في عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب الآتي:

---

١ المصدر نفسه صـ٤٩.

٢ كتاب الروضتين (١٥٥/١)، تاريخ المغول والترك صـ٦٨.

٣ تاريخ المغول والترك صـ٦٩.

٤ الملك الصالح وإنجازاته السياسية والعسكرية صـ١٠٩.

أ ـ الصالحية: وهي القوة العسكرية الجديدة من المماليك الأتراك باسم (الصالحية) نسبة إلى الملك الصالح أيوب نفسه، ومن الواضح أن الملك الاصالح نجم الدين أيوب هو صاحب الفضل في تكوين هذه الفرقة الجديدة من المماليك التي تحمل أيضاً إسم البحرية، والتي قدر لها أن تنهض بدور خطير في تاريخ مصر السياسي لما يقارب من قرنين ونصف، ومما يقوله: ابن تغري بردي نقلاً عن ابن واصل مؤرخ الأيوبيين: اشترى من المماليك الترك ما لم يشتره أحد من أهل بيته حتى صاروا معظم عسكره وأرجحهم على الأكراد وأمرهم[١]، ويبدو أن الملك الصالح أراد أن يشكر المماليك في مساندتهم له للوصول إلى دست السلطنة، ولذلك عمل منهم جيش قوي يسانده في فرض إرادته على الأقاليم الأيوبية بعد أن لمس غدر الطوائف الأخرى من الجند المرتزقة مما دفعه إلى الاعتماد على تلك الفرقة الجديدة وترجيحهم على العناصر الأخرى السائدة[٢]، وأما عن السبب في تسميةهذه الفرقة بالبحرية فالمرجح أن ذلك يرجع إلى إختيار السلطان الملك الصالح نجم الدين جزيرة الروضة على بحر النيل مركزاً لهم ولثكناتهم العسكرية وكان معظم هؤلاء المماليك من الأتراك المجلوبين من بلاد القفجاق شمال البحر الأسود ومن بلاد القوقاز، قرب بحر قزوين، وقد كان للأتراك القفجاق، ميزاتهم الخاصة بين طوائف الترك العامة من حيث حسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس فضلاً عن الشجاعة النادرة، ولا شك في ولاء هؤلاء لسيدهم وقد كانوا قد شكلوا نواة لقوة عسكرية ضاربة في الجيش الأيوبي واحتلوا نتيجة لنيلهم ثقة واعتماد السلطان رتباً عسكرية كبيرة في جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب مثل المكانة التي كان يتمتع بها مقدمهم ركن الدين بيبرس والذي لعب دوراً كبيراً في صعود الملك الصالح إلى السلطنة وفيما بعد في المعارك ضد الصليبيين الفرنج وخاصة معركة المنصورة[٣].

١ الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية صـ١١٠.

٢ المصدر نفسه صـ١١٠.

٣ المصدر نفسه صـ١١٠.

ب ـ ثكنات المماليك الصالحية في جزيرة الروضة: اتخذ الملك الصالح أيوب لمماليكه قاعدة في جزيرة الروضة تعرف قلعة الجزيرة أو قلعة الروضة، وجعلها مقراً لهم وشرع في حفر الأساس وبنائها بين عامي ٦٣٧هـ/١٢٣٩م و٦٣٨هـ/١٢٤٠م، ولتطوير هذه الثكنات هدم الكثير من الدور والقصور والمساجد التي كانت في الجزيرة وأدخلت في نطاق القلعة مشيداً فيها مبانٍ كثيرة منها ستين برجاً وأقام بها مسجداً وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار، ومن شحنها بالسلاح وآلات الحرب وما يحتاج إليها من الغلال والأزواد والأقوات وقد أنفق السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على عمارتها أموالاً كثيرة، وكان السلطان يقف بنفسه ويرتب ما يعمل بها، وقد عمل كل ذلك من أجل أن ينتقل من قلعة الجبال ويسكن مع مماليكه البحرية[١].

جـ ـ هل السلطان الصالح نجم الدين هو أول من سمّي المماليك البحرية بذلك؟ إن معظم المؤرخين السابقين والمحدثين أجمعوا عل أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو أول من رتب المماليك البحرية وأول من سماهم بذلك نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم في جزيرة الروضة، غيرأن هذا الرأي لا يستند إلى أساس صحيح للأسباب التالية:

ـ المؤرخون المعاصرون للصالح أيوب أمثال ابن واصل وأبي شامة لم يشيروا إلى بحر النيل كأصل لكلمة بحرية، هذه النسبة أوردها بعض المؤرخين المتأخرين من أمثال المقريزي وأبي المحاسن[٢].

ـ من المعروف أن الفاطميين من قبل كانت لهم طائفة من الجند تعرف بالغز البحرية، كذلك كان للسلطان العادل الأول جد الصالح فرقة من المماليك، أسماها البحرية العادلية، وهذا يدل على أن الملك الصالح أيوب لم يكن أول من اخترع هذا اللفظ.

---

١ الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية صـ١١٤.

٢ في التاريخ الأيوبي والمملوكي، أحمد مختار صـ٨٥.

ـ يروي الخزرجي أن سلطان اليمن نور الدين عمر بن رسول (ت ٦٤٧هـ) الذي كان معاصراً للصالح أيوب في مصر، استكثر من المماليك البحرية حتى بلغت عدتهم ألف فارس وكانوا يحسنون الفروسية والرمي ما لا يحسنه مماليك مصر، وكان منهم في حلقته وعساكر أمرائه، هذا النص يدل عل أن لفظ بحرية استخدم في بلاد إسلامية بعيدة كل البعد عن بحر النيل[1].

ـ أطلق المؤرخون العرب المعاصرون على بعض الفرق المسيحية العسكرية التي جاءت من أوربا إلى الشام أثناء الحروب الصليبية إسم الفرنج الغرب البحرية، فيروي أبو شامة أنه في سنة ٥٩٣هـ فتح الملك العادل يافا ومن عجيب ما بلغني أنه كان في قلعتها أربعون فارساً من الفرنج البحرية، فلما تحققوا نقب القلعة وأخذها دخلوا كنيستها وأغلقوا عليهم بابها وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض إلى أن هلكوا وكسر المسلمون الباب وهم يرون أن الفرنج ممتنعون فألقوهم قتلى عن آخرهم فعجبوا من حالهم[2]. فلفظ بحرية إذن لم يكن جديداً على مصر حينما أنشأ الملك الصالح أيوب فرقته البحرية، بل كان لفظاً عاماً أطلق على المسلمين والمسيحيين سواء، كما استخدم في مصر وفي خارج مصر قبل عهد الصالح أيوب، وهذا يؤيد القول بأن نسبة هذا اللفظ إلى بحر النيل أمر مشكوك في صحته، وأغلب الظن أنه سموا بحرية لأنهم جاءوا من وراء البحار[3]. وجوانفيل الذي حارب المماليك البحرية الصالحية في حملة لويس التاسع وأسر عندهم وتحدث إليهم، وروايته لها قيمتها بصفته رجلاً معاصراً وشاهد عيان، وإذا علمنا أن المماليك البحرية زمن الأيوبيين والمماليك عبارة عن فئة من الغرباء الذين جلبوا من اسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود، ثم بحر القرم إلى خليج القسطنطينية ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط، حيث يسيرون فيه إلى ميناء الأسكندرية أو دمياط تأيدت لدينا عبارة جوانفيل[4].

---

١ الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة للصلابي صـ٣٤١.

٢ في التاريخ الأيوبي والمملوكي صـ٨٦.

٣ المصدر نفسه صـ٨٦.

٤ المصدر نفسه صـ٨٧.

ثانياً: نظام التدريب والتربية والتعليم للمماليك:

كان الصالح أيوب ـ ومن تبعه من الأمراء ـ لا يتعاملون مع المماليك كرقيق، بـل عـلى العكـس من ذلك تماماً، فقد كانوا يقربونهم جداً منهم لدرجة تكاد تقترب من درجة أبنائهم، ولم تكـن الرابطـة التي تربط بين المالك والمملوك هي رباطة السيد والعبد أبداً، بل رابطة المعلم والتلميذ، أو رابطة الأب والابن، أو رابطة كبير العائلة وأبناء عائلته، وهذه كلها روابـط تعتمـد عـلى الحـب في الأسـاس، لا عـلى القهر أو العسف، حتى أنهم كانوا يطلقون عـلى السـيد الـذي يشـتريهم لقـب (الأسـتاذ) ولـيس لقـب السيد[1]. وكانت المدةالتي يقطعها المملوك ليعتبر منتهياً من تعليمه تمر بمراحل ثلاث:

١- **المرحلة الأولى:** تبتدئ من الصغر إلى سن البلوغ، حيث كان المماليك يجلبون صغاراً، تحقيقـاً لرغبـة الملوك والسلاطين ثم يوزعون على طباق القلعـة حسـب أجناسـهم، تحـت إشراف جهـاز إداري محكـم يتولى شئونه في التعليم والتدريب والإعداد العسكري وكان هذا الجهاز يتكون من المـوظفين المختصـين بشئون الجيش وبخلفيات الأمم التـي ينتمـون إليهـا وبالـدين الإسـلامي الحنيـف[2]، فـأول مـا يبـدأ بـه المماليك في المرحلة الأولى تعليمهم ما يحتاجون إليه من القرآن الكريم، ولكل طائفـة فقيـه يأتيهـا كـل يوم ويأخذ في تعليمها القرآن ومعرفة الخط والتمـرين بـآداب الشريعـة الإسـلامية، وملازمـة الصـلوات والأذكار[3]، وكان من ضـمن المـنهج الـدراسي الخـاص في هـذه المرحلـة الإهـتمام بالتمرينـات والألعـاب الرياضية مدة من الزمن، وكانت الصلاة تؤدى في أوقاتها تحت المراقبة الدقيقة حتى تؤدى على وجهها الصحيح، وحتى تصبح ملكة عند المماليك من صغرهم، ويؤمرون بحفظ بعض الأدعية المأثورة لتلاوتهـا في مناسباتها وأهم ما في هذه المرحلة، إبراز التعاليم الدينية في صورة تعلقهم بهـا، حتـى يصـبح أحـب شئ إليهم هو الجين والأخلاق الفاضلة[4].

---

١ قصة التتار من البداية إلى عين جالوت صـ٢١٤.

٢ الحملات الصليبية للصلابي صـ٣٣٨.

٣ المصدر نفسه صـ٣٤٠.

٤ أباطيل يجب أن تمحى صـ٣٣٩، خطط المقريزي (٣ ـ ٣٤٦).

إن الفقهاء والعلماء والمؤدبين الذين أشرفوا على تربية المماليك ساروا على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الاستفادة من القرآن الكريم وتربية الأتباع على معاني العقيدة الصحيحة والتصور الصحيح عن الله عز وجل، ومن أهم الجوانب التي إهتمت بها التربية الدينية في هذا الجانب:

- إن الله منزه عن النقائص موصوف بالكمالات التي لا تتناهى فهو سبحانه الواحد لا شريك له، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا.
- وأنه سبحانه خالق كل شئ ومالكه ومدبر أمره "ألا له الخلق والأمر" ((الأعراف ، آية: ٢٤)).
- وأنه تعالى جدّه مصدر كل نعمة في هذا الوجود، دقت أو عظمت، ظهرت أو خفيت "وما بكم من نعمة فمن الله" (النحل ، آية : ٥٣) .
- وأن علمه محيط بكل شئ، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى الإنسان وما يعلن: "وأن الله قد أحاط بكل شئ علماً" (الطلاق ، آية : ١٢).
- وأنه سبحانه يخفي على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته، في كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسينشر ذلك في اللحظة المناسبة والوقت المناسب "مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلاأحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً" (الكهف ، آية : ٤٩".
- وأنه سبجانه يبتلي عباده بأمور تخالف ما يحبون، وما يهوون ليعرف الناس معادنهم، من منهم يرضى بقضاء الله وقدره ويسلم له ظاهراً وباطناً فيكون جديراً بالخلافة والإمامة والسيادة، ومنهم من يغضب، ويسخط فلا يساوي شيئاً ولا يسند إليه شئ "الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً" (الملك ، آية : ٢".
- وأنه سبحانه يوفق ويؤيد وينصر من لجأ إليه ، ولاذ بحماه، ونزل على حكمه في كل ما يأتي وما يذر: "إن وليّ الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين" (الأعراف ، آية : ١٩٦).
- وأنه سبحانه، حدد مضمون هذه العبودية وهذا التوحيد في القرآن الكريم.

إن تربية أفراد الأمة على المعاني الإيمانية والتصورات الصحيحة خطوة مهمة في نهوض الأمة وتحتاج التذكير والتعليم والتربية لكل أفراد المسلمين، وقد ظل صلى اللـه عليه وسلم يطرق مع أصحابه هذه الجوانب ويكررها عليهم وعلى من آمن به ويفتح عيونهم عليها من خلال الكتاب المنظور والكون المسطور حتى خشعت قلوبهم وسلمت أرواحهم وطهرت نفوسهم، ونشأ لديهم تصور وإدراك لحقيقة ومضمون الألوهية يخالف تصورهم الأول وإدراكهم القديم[١].

واهتم صلى اللـه عليه وسلم بغرس حقيقة المصير وسبيل النجاة لأصحابه مؤقناً أن من عرف منهم عاقبته وسبيل النجاة والفوز في هذه العاقبة، سيسعى بكل ما أوتي من قوة ووسيلة لسلوك هذا السبيل، حتى يظفر غداً بهذه النجاة وذلك الفوز، فقد ركز صلى اللـه عليه وسلم في هذا البيان على الجوانب التالية:

ـ إن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهي إلى زوال، ,أن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير: "إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" (يونس ، آية : ٢٤" "قل متاع الدنيا قليل" (النساء ، آية : ٧٧".

ـ وأن كل الخلق إلى اللـه راجعون، وعن أعمالهم مسئولون ومحاسبون وفي الجنة أو في النار مستقرون، "أيحسب الإنسان أن يترك سدى" (القيامة ، آية : ٦٣).

ـ وأن نعيم الجنة ينسي كل تعب ومرارته في الدنيا وكذلك عذاب النار ينسي كل راحة وحلاوة في هذه الدنيا: "أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون" (الشعراء ، آيات : ٢٠٥ ـ ٢٠٧) ، "كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية" (الحاقة ، آية : ٢٤).

ـ وأن الناس مع زوال الدنيا واستقرارهم في الجنة، أو في النار سيمرون بسلسلة طويلة من الأهوال والشدائد "يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئٌ عظيم *

---

١ منهج الرسول في غرس الروح الجهادية للدكتور سيد نوح صـ١٠ ـ ١٦.

يوم يرونها تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنَّ عذاب اللـه شديد"(الحج ، آيات : ١ ـ ٢)، وقال تعالى: "وكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً * السماء منفطر به كان وعده مفعولاً" (المزمل ، آيات : ١٧ ـ ١٨).

ـ وسبيل النجاة من شر هذه الأهوال ومن تلك الشدائد والظفر بالجنة والبعد عن النار[١]، وبالإيمان باللـه تعالى وعمل الصالحات إبتغاء مرضاته "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير" (البروج ، آية : ١١).

ـ ومضى صلى اللـه عليه وسلم كذلك يبصرهم ويذكرهم بدورهم ورسالتهم في الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند اللـه، وظل صلى اللـه عليه وسلم معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى انقدح في ذهنهم ما لهم عند اللـه وما دورهم ورسالتهم في الأرض، وتأثراً بتربيته الحميدة تولدت الحماسة والعزيمة في نفوس أصحابه فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكل ما في وسعهم وما في طاقتهم دون كسل أو توان، ودون كلل أو ملل، ودون خوف من أحد إلا من اللـه، ودون طمع من مغنم إلا أداء هذا الدور وهذه الرسالة، لتحقيق السعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة[٢].

إن الفقهاء والعلماء الذين تولوا مهام تربية وتعليم المماليك في نهاية عهد الدولة الأيوبية حرصوا على الإعداد الرباني وكانت خطواتهم تتم بكل هدوء وتدرج وانصبَّت أهدافهم التربوية على تعليم الكتاب والسنة وتلاوة القرآن الكريم وتطهير النفوس من أمراضها وإعداد الأفراد لتحمل تكاليف الجهاد والدفاع عن حياض الإسلام والهجوم على أعدائه وقد غرست تلك التربية الكثير من القيم الأخلاقية، كالإخلاص لله والصبر، والتوكل والاستعانة وكثرة الدعاء والثبات والخوف والحذر من اللـه عز وجل، وكان لهذه التربية المتميزة أثرها على أطفال وشباب المماليك فنشأوا

١ منهج الرسول صلى اللـه عليه وسلم في غرس الروح الجهادية صـ١٩ ـ ٣٤.

٢ منهج الرسول في غرس الروح الجهادية صـ٣٧.

على تعظيم أمر الدين الإسلامي، وتكونت لديهم خلفية واسعة عن الفقه الإسلامي، وأصبحت مكانة العلماء عالية عند المماليك طيلة حياتهم وهذا من أسباب النهضة الحضارية الثقافية العلمية الراقية التي وجدناها في عهد المماليك.

٢- المرحلة الثانية: وهي التي تبتدئ بسن البلوغ حيث يشرع في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح والضرب بالسيف وركوب الخيل، ويراعى في هذ المرحلة الأخذ بشدة، فلا يتسامح مع المملوك إذا أخطأ ةإنما يعاقب عقاباً قاسياً إذا بدا عليه الشذوذ في أخلاقه أو الانحراف عن المبادئ الدينية، ثم يقسمون إلى فرق يتولى كل منهم معلم في العلوم الرياضية والتدريبات العسكرية، فيتمرنون على فنون من الرياضة العنيفة مثل السباحة والعوم لمسافات طويلة والمبارزة، ولعب الكرة راجلين وراكبين، وأما في أوقات الفراغ فإنهم يتركون إلى هواياتهم العملية أو الدينية أو الأدبية، ومن هنا ندرك السر في ظهور عدد من المماليك في صفوف الفقهاء والشعراء والكتاب البارزين[١].

وقد كان لهم خداماً وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصاً شافياً ويؤخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه على تحركاته وسكناته فإن عثر أحد مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه على أنه اقترف ذنباً أو أحل برسم أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر جرمه فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى[٢].

٣- المرحلة الثالثة: وهي مرحلة ظهور المواهب العسكرية، ووضوح الاتجاهات والكفايات السياسية، وفي هذه المرحلة تعقد المبارزات بين المماليك، لمعرفة مقدار المهارة الفنية والعسكرية في صفوفهم، ثم يرسلون إلى ميادين القتال ليعرف بلاؤهم هناك، ثم يكافأ المبرزون منهم بمنحهم الحرية، وعتقهم من الرق، وهناك من يبقى في الرق مع تولي المناصب كالذين باعهم سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ثم

---

١ أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ صـ٣٤٠.

٢ الخطط (٢/٢١٣ ـ ٢١٤)، في التاريخ الأيوبي والمملوكي صـ٨٤.

اعتقهم ووضع اثمانهم في بيت مال المسلمين، ويوضعون في وظائف عسكرية صغيرة، يترقى فيها المملوك حتى يبلغ الإمارة،فيمنحه السلطان لقبها، ثم يترقى في سلكها، حتى يصل إل كبريات المناصب في الدولة وكثيراً ما كانت ترتفع به مواهبه وعبقريته إلى منصب السلطنة ورياسة الدولة[1]، وبفضل الله ثم هذه التربية المتميزة نبغ من بين هؤلاء من خلّد التاريخ بطولاتهم، وسجل على صفحاته امجاداً عظيمة للمسلمين من تصديهم للمشروع المغولي والقضاء على الوجود الصليبي في ديار المسلمين، يقول بروكلمان في شأنهم: وعدت الاجيال التالية عصر بيبرس كما عدت عهدي الرشيد وصلاح الدين ـ أحد العصور الذهبية في الإسلام[2].

٤ ـ **نظام الأكل والثياب والراحة:** كان لتعليم المماليك نظام دقيق، فليس لهم أن يخرجوا من مقرهم، إطلاقاً، لا سيما ليلاً، وكان عليهم أن يذهبوا إلى الحمام يوماً في الأسبوع، ويكون أكلهم اللحم والأطعمة والفواكه والحلوى، والفول المسلوق وغير ذلك، وكانوا يتسلمون كسوات فاخرة، وقد يأخذون مرتباً قليلاً قد يصل إلى ثلاث أو عشرة دنانير في الشهر[3]، وكان السلطان يذهب ليتفقد أحوالهم من طعام وغيره، ولكن منذ عهد السلطان برقوق سمح للمماليك بالخروج من الطباق والمبيت خارجها في القاهرة، بحيث أصبحت فقط مكاناً لتعليمهم، ويلاحظ المقريزي أن ذلك جرَّ إلى نسيان تقاليد المماليك في التعليم بالطباق وأنهم أخلدوا إلى البطالة، وسعوا إلى نكاح النساء، حتى صارت المماليك أرذل الناس وأدناهم[4].

٥ ـ **نظام التخرج وإنهاء الدراسة:** كانت الدراسة في الطباق بين أربعة أو خمسة عشر شهراً، وإن كانت أحياناً تمتد إلى عدة سنين، فإذا إنتهت الدراسة، أعتق المملوك، ويكون الإعتاق بالجملة ويقام له إحتفال خاص يحضره السلطان والأمراء وذلك بناء على شهادة تسمى إعتاق أو عتاقه[5]، فسلم المملوك سلاحاً وفرساً ولباساً خاصاً ((قماشاً)) وإقطاعاً يبقى له مدى الحياة، وحينئذ يسمى عتيقاً أو معتوقاً ـ جمعها

١ مصر في عهد بناة القاهرة صـ ١٦٩ وما بعدها إبراهيم شعوط.
٢ تاريخ الشعوب الإسلامية نقلاً عن أباطيل يجب أن تمحى صـ ٣٤١.
٣ الخطط (٣٤٨/٣) دولة المماليك، سمير فراج صـ٣٢.
٤ دولة المماليك، سمير فراج صـ٣٢.
٥ المصدر نفسه صـ٣٢.

معاتيق ـ ومعتقه يسم أستاذه أما رفاقه المتحررون معه، فيسمون خشداشية[١]، مفردها خشداش وكان المماليك المتخرجون يقسمون أقساماً، لكل جماعة منهم باش أو نقيب، أما الذين يصلون إلى الإمارة وهي مرتبة تهيء الوظاف الكبرى الحاكمة في البلاط والجيش أو حتى للسلطنة نفسها وكان من المفروض أن المملوك لا يحصل على الإمارة إلا بعد أن ينتقل من مرتبة إلى مرتبة، فلا يليها إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج بروح الإسلام وبرع في الشئون الحربية، بحيث من كان منهم من يصير من كثرة علمه في مرتبة فقيه أو أديب أو حاسب»، لذلك كانوا سادة يديرون المماليك وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة.

٦ ـ **لغة المماليك:** هي اللغة التركية، وهي لغة مملوءة بالفارسية والعربية حتى لو لم يكونوا تركاً، فعدد كبير من سلاطين المماليك وأمرائهم وصلوا إلى السلطنة ووظائفها العالية، دون أن تكون لهم معرفة بالعربية[٢]، ومع ذلك، فكثير من المماليك أتقن العربية وأصبح فصيح اللسان، وله مسائل في الفقه عويصة، يرجع له فيها العلماء[٣].

٧ ـ **رابطة الأستاذية بين المماليك:** كانت أقوى الروابط بين المماليك هي رابطة الأستاذية بين الأستاذ ومماليكه الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم وتدريبهم، كما كان يوليهم عناية كاملة، بل إن الأستاذ كان يتناول طعامه مع مماليكه ويحرص على مجالستهم وزيادة أواصر العلاقة بينه وبينهم لكي يضمن ولاءهم وكان الملك المنصور قلاوون يخرج في غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويأمر بعرضه عليهم ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته، فإن رأى فيه عيباً اشتد على المشرف والاستادار، ونهرهما، وحلَّ بهما أي مكروه[٤]. وكان يقول: كان الملوك يعلموا شيئاً يذكرون به ما بين مال وعقار، وأنا عمرت أسواراً، وعملت حصوناً مانعة لي لأولادي وللمسلمين، وهما المماليك، وكانت المماليك تقيم بهذه

١ أي زميل الخدمة.

٢ المصدر نفسه صـ٣٣.

٣ المصدر نفسه صـ٣٣.

٤ السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٤٧، د. قاسم عبده.

الطباق[١]. لا تبرح فيها[٢]. وهذا النص يكشف عن أحد أركان المؤسسة المملوكية والعلاقات داخلها، فالسلطان ـ وهو مملوك في الأصل ـ يدرك أهمية المماليك في حماية عرشه وأسرته، ويصفهم بأنهم مثل الأسوار والحصون المانعة، كما أنهم عمل يخلد اسمه بين الملوك والحكام. ومن ناحية أخرى يكشف هذا النص عن أسباب قوة رابطة (الأستاذية) التي ربطت برابطة الولاء الشخصي بين السيد ومماليكه، فواجبه أن يرعاهم ويغدق عليهم ويعتني بهم، وواجبهم أن يحموه وأن يصونوا عرشه ويدافعوا عن أسرته[٣].

٨ ـ **رابطة الخشداشية (الزمالة)**: وهي من اقوى الروابط القائمة على الولاء الشخصي في الدولة، وتفسير ذلك أن هؤلاء الذين جلبوا أطفالاً، ثم عزلوا عن المجتمع في معسكرات صارمة القوانين،وعاشوا حياتهم الباكرة في سن الشباب سوياً، لم يكونوا يجدون الأمان والطمأنينة سواء مع بعضهم البعض، ولهذا تميزت الفرقة المملوكية بالطائفية القائمة على الولاء الشخصي، فالمماليك كانوا عادة ينسبون إلى السلطان الذي إشتراهم، فالمماليك الظاهرية مثلاً نسبة إلى الظاهر بيبرس، والمعزية نسبة إلى المعز آيبك، والناصرية نسبة إلى الناصر محمد بن قلاوون، وهكذا، ومن ناحية أخرى أدى هذا إلى زيادة نسبة الصراعات الدموية في سبيل الوصول إلى الحكم[٤].

ولقد أحسن السلاطين الذين جمعوا بين التربية الدينية والتدريب العسكري للمماليك في معسكراتهم، ولذلك نجد هؤلاء المقاتلين الأفذاذ في الفترة الأولى من عهد المماليك يتميزون بالحماسة والغيرة على البلاد والمقدسات الإسلامية وهو الأمر الذي تجلى واضحاً[٥] على تصديهم للمشروع المغولي وقضائهم على الوجود الصليبي في بلاد الإسلام.

---

١ الطباق: الثكنات العسكرية.

٢ الخطط (٢ ـ ٢١٣)، السلطان المظفر صـ٤٧.

٣ السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٤٨.

٤ المصدر نفسه صـ٥٢.

٥ المصدر نفسه صـ٥١.

٩ ـ هل هؤلاء أجلاب؟: لا يمكن أن نتخيل مدلول كلمة ((المماليك)) بمعنى الرقيق المجلوب من أسواق النخاسة بالنسبة لكل هؤلاء المماليك، لأننا نعلم أن جماعات من الأتراك الفارين من وجه المغول إلى الشرق الأدنى دخلوا في خدمة سلاطين مصر، ولم تمض سوى فترة وجيزة حتى نشأ بين هذه الجموع التركية، جيل جديد من الحكام، بسط سلطانه على مصر وسوريا حتى الفتح العثماني، كما أن بعض هؤلا المماليك، كان من سلالة ملكية يتصل في نسبه إلى ملك خوارزمشاه، مثل السلطان ((قطز)) بطل موقعة عين جالوت،ولقد كفل نظام تربيتهم الدقيق، الذي يفوق نظام الداخلية الآن في أي مدرسة أو جامعة أو كلية عسكرية كفل لهؤلاء القوم، صيانة مركزهم الأدبي، كما أتى ثماره في الحفاظ على أخلاقهم، وأتاح فرصة الظهور في المجالات المختلفة مما عاد على البلاد بالخصب والغنى، وعلى العلم والثقافة والفنون، بما فاق كل إنتاج علمي وثقافي وفني في العالم الإسلامي[١].

١٠ ـ الكليات العسكرية الحديثة: إن الدول العربية والإسلامية في يومنا هذا، عليها أن تعيد النظر في عقيدة جيوشها، وأن تربي المنتسبين إليها على العقيدة الصحيحة، والعبادة السليمة والأخلاق الفاضلة، وتجارب الحروب في تاريخ أمتنا، وسنن الله في إنتصار الأمم وهزيمتها،وهذا يحتاج إلى إعادة النظر في برامج الدراسة، والقائمين عليها، ولا ننسى أبداً أهمية الاستفادة من التكنولوجية المعاصرة، والحرب النفسية وتطوير السلاح ومعرفة أسراره والعمل بقول الله تعالى: "واعدوا ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون" (الأنفال ، آية : ٦٠).

١١ ـ الشيخ عز الدين عبد السلام بائع أمراء المماليك: **رأى** الشيخ عز الدين عبد السلام أن المماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب ودفع ثمنهم من بيت مال المسلمين واستغلهم في خدمته وجيشه، وتصريف شئون الدولة يمارسون البيع والشراء وهو تصرف باطل، لأن المملوك لا ينفذ تصرفه، فأخذ سلطان العلماء لا يمضي لهم

---

١ أباطيل يجب أن تصحح صـ٣٤١.

بيعاً ولا شراء، فضايقهم ذلك وشجر بينهم وبينه كلام حول هذا المعنى فقال لهم بائع الملوك: أنتم الآن أرقاء لا ينفذ لكم تصرف، وإن حكم الرق مستصحب عليكم لبيت مال المسلمين، وقد عزمت على بيعكم فاحتدم الأمر، وبائع الملوك مصمم، لا يصحح لهم بيعاً ولا شراء، ولا نكاحاً، فتعطلت مصالحهم، وكان من جملتهم نائب السلطان الذي اشتاط غضباً، واحمر أنفه، فاجتمع مع شاكلته، وأرسلوا إلى بائع الملوك، فقال: نعقد لكم مجلساً وينادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه، فلم يرجع فخرجت من السلطان كلمة فيها غلظة حاصلها الإنكار على الشيخ ـ رحمه اللــه ـ في دخوله في هذا الأمر، وإنه لا يتعلق به[1]، وهنا أدرك الشيخ العز أن أعوان الباطل تمالؤوا عليه ووقفوا في وجه الحق وتطبيق الشرع، وتنفيذ الأحكام التي لا تفرق ـ في الدين ـ بين كبير وصغير، وحاكم ومحكوم وأمير ومواطن، فلجأ إلى سلاحه الضعيف الباهت في ظاهره القوي الفعال المدمر في حقيقته وجوهره وسنده، وأعلن الإنسحاب وعزل نفسه عن القضاء وقرر الرحيل عن القرية الظالم أهلها والتي ترفض إقامة شرع اللــه، ونفذ العز قراره فوراً، وحمل أهله، ومتاعه على حماره وركب حماراً آخر وخرج من القاهرة، وما انتشر الخبر بين الناس في مصر حتى تحركت جموع المسلمين وراءه فم تكن إمرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤوبه إليه بتخلف، ولا سيما العلماء والصالحين، والتجار، وأمثالهم ولسان حالهم يقول: لا خير في مصر إن لم يكن فيها العز بن عبد السلام وأمثاله، القائمون بالكتاب والسنة والآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والمجاهدين في سبيل اللــه، لا يخافون لومة لائم، ولا شماتة شامت، ورفعة التقارير حول هذه الظاهرة إلى القاهرة، وكانت التوصيات: متى راح ذهب ملكك فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب قلبه، فرجع أن ينادى على ملوك مصر وأمرائها ويبيعهم، وأرسل إليه كبيرهم ـ نائب السلطان ـ بالملاطفة والشيخ لم يتغير، لأنه يريد إنفاذ حكم اللــه، عندئذ إنزعج نائب السلطان وأصدر قراره بتصفية الشيخ جسدياً وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض واللــه لأضربنه بسيفي هذا بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف في يده صلتاً وطرق الباب فخرج إليه ولد

١ صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء صـ٣١.

الشيخ، فرأى أمراً جلداً، وعاد إلى أبيه، وأخبره الحال، فقال بائع الأمراء ممتلئاً إيماناً بربه، قائلاً لولده: يا ولدي: أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله، فلما رآه نائب السلطان اهتزت يده وارتعدت فرائصه وسقط أرضاً، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له قائلاً: يا سيدي، خيراً أي العمل؟ فقال الشيخ أنادي عليكم وأبيعكم، قال نائب السلطان: ففيما تصرف ثمننا؟ قال الشيخ: في مصالح المسلمين قال ناب السلطان: من يقضيه؟ قال الشيخ: أنا وأنفذ الله أمره على يد الشيخ ـ رحمه الله ـ فباع الأمراء منادياً عليهم واحد تلو الآخر وغالى سلطان العلماء في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير التي تعود بالنفع على البلاد والعباد[1]. ومن هنا عرف الشيخ العز بأنه (بائع الملوك) واشتهر أمره في الآفاق، وسجل له التاريخ موقفاً فريداً لم يشهده العالم أجمع، وعلا صوت الحق، وعز العلماء وتم تطبيق شرع الله تعالى، وهزم الباطل وطاشت سهام السلطة والقوة المادية، أمام سلطان الله تعالى، وأحكامه، وصدق على العز حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر[2]". وعاد العز إلى عرينه في كنف الله تعالى ورعايته وهو القائل: "إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفر" (الحج ، آية : ٣٨)، والقائل: "والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون" (يوسف ، آية : ٢١).

١٢ ـ عصر الأفذاذ: هذه التسمية انفرد بها على حسب علمي الشيخ محمد محمد حسن شُرَّاب حيث قال: لا أدري من الذي أضاف هذا العصر إلى لفظ (المماليك) ولا أعرف من أول من أعطاهم هذا اللقب، إن كان الذين وضعوا هذا الوصف (المملوكي) هم العرب، فإنهم والله أساءوا إلى من أحسن إلى بلادهم، وإن كان الذين وضعوا هذا الوصف هم الغربيين الأوربيين كان علينا أن نعرف أن الأعداء لا يصفون عهودنا التاريخية إلا بأحسن الصفات إليهم، وأبغض الصفات إلينا، فما كان لنا أن نقلدهم ونسير على هديهم، فالغربيون الصليبيون يحقدون على عصر صلاح الدين، وعلى عصر (الأفذاذ)، وقولهم (المماليك) إنما هو لقب (ذم)، هم يحقدون على هؤلاء الأفذاذ، لأنهم حرموا الصليبيين من تحقيق أطماعهم في العودة

---

١ المصدر نفسه.

٢ العز بن عبد السلام صـ١٨٢ للزحيلي.

إلى القدس، ذلك أن الحملات الصليبية لم تفتر بعد صلاح الدين وذكرنا قول هذا أنهم دخلوا القدس مرتين بعد أن حرره صلاح الدين، وكانت بقيت لهم ممالك وحصون كثيرة على الساحل وهؤلاء الذين نلقبهم (المماليك) هم الذين نظفوا البلاد من الصليبيين وأزالوا آخر مملكة صليبية سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م أي: بعد فتح القدس بمائة سنة.. وهؤلاء الذين نصفهم بالمماليك، هم الذين هزموا أكبر غزو وحشي على البلاد الإسلامية، بعد الغزو الصليبي ألا وهو الغزو المغولي، ومعركة عين جالوت تتحدث عنها الركبان، وتعد رمزاً لقوة الإسلام.. وعهد هؤلاء الأفذاذ العلمي من العهود الزاهرة وآثارهم العلمية والعمرانية شاهدة لتاريخهم المجيد، فقد عددت لهم في القدس وحدها خمس وثلاثين مدرسة لتعليم العلوم النافعة، وعشرات المساجد، والبنايات والأوقاف والأربطة والإصلاحات[1]، إنهم إذا كانوا مماليك، فإنهم في رأيي مماليك الإحسان عل معنى قول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم

فطالما استعبد الإنسان إحسان

فأولئك أحسوا في قرارة نفسوهم إن اللـه أحسن إليهم عندما جلعهم مسلمين وحكاماً، فامتلك قلوبهم هذا الإحسان، لم يفخروا بنسب ينتمون إليه، وإنما فخروا بأعمالهم التي خلدتهم، ومن حقهم علينا، أن نلقبهم بأحب الألقاب إليهم في حياتهم، ومن حقهم علينا أن نذكرهم في التاريخ بالصفة التي تدل على الوفاء لهم جزاء ما قدموا للعرب والمسلمين، ومن الأوصاف المناسبة لعصرهم أن نقول: عصر الأفذاذ[2].

ثالثاً: جهود المماليك في دحر الحملة الصليبية السابعة:

عندما قرر الصليبيون الزحف نحو القاهرة توفي الملك الصالح أيوب، وكانت محنة عظيمة ألمت بالمسلمين[3]، وكان عمره عند وفاته ٤٤ سنة، وقد عهد لولده الملك المعظم تورانشاه ولم يكن موجوداً في مصر، وظهرت على مسرح الأحداث زوجته

١ بيت المقدس والمسجد الأقصى صـ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

٢ المصدر نفسه صـ٤٢٦.

٣ الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة صـ٣٥٣.

شجرة الدر وأدركت خطورة إذاعة خبر وفاة زوجها نجم الدين على الجند، فقررت إخفاء خبر الوفاة، ولم يعرف ذلك إلا الخاصة وقدمت وثيقة تحمل توقيع السلطان بتعيين إسمه تورنشاه قائداً عاماً للجيوش ونائباً للسلطان اثناء مرضه، وخلال ذلك كان الصليبيون يتحركون جنوباً ووصلوا إلى مدينة فارسكور في الثاني عشر من ديسمبر ١٢٤٩م، ومنها تقدموا إلى شار مساح ثم البرامون واصبح بحر أشمون هو الفاصل بين المسلمين والصليبيين، وعند هذه المرحلة توقفت القوات الصليبية واقامت معسكرها على الضفة الشمالية وعملت على تأمين معسكرها بحفر الخنادق وإقامة المتاريس وظلوا على هذا حوالي شهر ونصف، ثم شرعوا في بناء جسر ليعبروا عليه على الضفة الجنوبية لبحر أشموم، ولم تكن عملية إقامة الجسر بالأمر الهين، فقد أمطرهم المسلمون وابلاً من القذائف ولم يتمكنوا من إقامته وأخيراً نجح الصليبيون في التعرف على مخاضة ـ دلهم عليها أحد العربان وفي رواية أحد الأقباط[١] ، بعدما رشوه بالمال، تمكنوا من العبور إلى المعسكر الإسلامي وكانت خطة الملك لويس أن يعبر هو واخوته وجزء كبير من الجيش المخاضة إلى الجنوب، ويقوم بقية الجيش الصليبي بحراسة المعسكر الصليبي، وبعد إتمام عملية العبور تقوم الفرقة المخصصة للحراسة باستكمال عملية إقامة الجسر، وإذا تم النصر على القوات الإسلامية في المنصورة يتقدم الجيش الصليبي إلى القاهرة، وعبرت القوات الصليبية في عجز الثامن من فبراير عام ١٢٥٠م وكانت عملية شاقة وبطيئة بسبب عمق المخاضة، وكان في طليعة القوات الصليبية الكونت آرتو الذي شن على القوات الإسلامية المواجهة له هجوماً، وحقق نصراً عليها، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الأمير فخر الدين أسرع بدعوة القوات الإسلامية والتحم مع الصليبيين في معركة عنيفة وقع فيها فخر الدين شهيداً، فغسل بذلك عار إنسحابه من جيزة دمياط واغتر الكونت آرتو بالنصر الذي أحرزه ولم يبال بأوامر الملك لويس التاسع ونصائح القادة الصليبيين بالتريث حتى تتكامل القوات الصليبية وأراد أن ينفرد بشرف النصر لنفسه[٢].

---

١ تاريخ الأيوبيين صـ٨٥.

٢ تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد صـ٣١٢.

١ ـ **معركة المنصورة**: اغتر روبرت آرتو بقوته، وتابع زحفه إلى المنصورة لاقتحامها، والقضاء على الجيش الأيوبي، وأعرض عن توسلات الراوية بأن ينتظر وصول الملك والجيش الرئيسي، ونصحه بعضهم بالحيطة والحذر، ثم بادر، باقتحام المنصورة[١]، فأضحت المنصورة ساحة لحرب الشوارع وتولى قيادة المسلمين الأمير بيبرس البندقاري فأقام جنده في مراكز منيعة داخل المدينة، وانتظروا حتى تدفق الصليبيون بجموعهم إلى داخلها، ولما أدركوا أنهم بلغوا أسوار القلعة التي إتخذها المصريون مقراً لقيادتهم، خرج عليهم المماليك في الشوارع والحارات والدروب وأمعنوا في قتالهم، ولم يستطع الصليبيون أن يلتمسوا لهم سبيلاً إلا الفرار، فوقع الاضطراب بين الفرسان ولم يفلت من القتل إلا من ألقى بنفسه في النيل، فمات غريقاً أو كان يقاتل في أطراف المدينة[٢]. وكانت المنصورة مقبرة الجيش الصليبي[٣]، وأول إبتداء النصر على الفرنج، وجزع لويس التاسع بتلك الصدمة لكنه تملك نفسه، وبادر إلى إقامة خط إمامي لمواجهة ما توقعه من هجوم، من قبل فرسان المماليك ضد قواته، كما اقام جسراً من الصنوبر على مجرى البحر الصغير عبر عليه النيل مع رجاله ووزع رماته على الطرف البعيد للنهر حتى يكفلوا الحماية للجند عند عبورهم متى دعت الضرورة إلى ذلك، لكن المماليك لم يتركوه وشأنه وبادروا إلى شن هجوم على المعسكر الصليبي وقاد الملك الفرنسي المعركة بنفسه وأجبر المسلمين على التراجع نحو المنصورة، وعلى رغم من الانتصار الصليبي، إلا موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءاً بسرعة واضحة، بعد أن قلت المؤن، كما فقدوا نسبة مرتفعة من فرسانهم في معركة المنصورة، وانتشرت الأمراض في معسكرهم، وظل الملك الفرنسي زهاء ثمانية أسابيع، في معسكره أمام المنصورة، آملاً بأن يحدث إنقلاب في مصر، أو يقوم المصريون بثورة على الحكم الأيوبي[٤].

---

١ الحملات الصليبية الرابعة الخامسة، السادسة والسابعة صـ٣٥٦.

٢ الشرق الأدنى في العصور الوسطى الأيوبيون صـ١٥٠.

٣ السلوك (١ ـ ٤٤٨)، تاريخ الأيوبيين صـ٣٨٦.

٤ الحملات الصليبية للصلابي صـ٣٥٦.

٢ ـ **تورانشاه يقود المعركة:** وصل تورانشاه إلى المنصورة في ١٧ ذو القعدة ٦٤٧هـ/٢١ شباط ١٢٥٠م بعد أن أعلن سلطاناً في دمشق، وهو في طريقه إلى مصر، فأعلنت عندئذ وفاة الصالح أيوب وسلمته شجرة الدر مقاليد الأمور، فأعد خطة عسكرية كفلت له النصر النهائي على الصليبيين[١]. وكان وصوله إلى مصر إيذاناً بإعادة إرتفاع الروح المعنوية عند المصريين وبين صفوف المماليك وتيمّن الناس بطلعته[٢]. وأمر بإنشاء اسطول من السفن الخفيفة نقلها إلى فروع النيل السفلى وأنزلها في القنوات المتفرعة، فأخذت تعترض طريق السفن الصليبية التي تجلب المؤن للجنود من دمياط، فقطع بذلك الطريق عليها وحال دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم دمياط[٣]، وفقد الصليبيون عدداً كبيراً من سفنهم قدّرتها المصادر بما يقرب من ثمان وخمسين سفينة، انقطع المدد من دمياط عن الفرنج ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام، ولا يقدرون على الذهاب وتشجع المسلمون وطمعوا فيهم وأدرك لويس التاسع استحالة الزحف نحو القاهرة في ظل هذه الاوضاع وبدأ يفكر في العودة إلى دمياط وفعلاً أمر بالإرتداد وأحرق الصليبيون ما عندهم من الخشب وأتلفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط، كما أدرك أن عملية الانسحاب لن تكون سهلة، وأن المماليك سوف يطاردون جيشه لذلك لجأ قبل أن يبدأ بعملية الإنسحاب إلى فتح باب المفاوضات مع تورانشاه على أساس ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس[٤]، غير أن الوقت قد فات على مثل هذه المساومة وكان طبيعياً لأن يرفض تورانشاه هذا الإقتراح وبخاصة أنه علم بحرج موقف الملك، وفي صباح المحرم عام ٦٤٨ هـ / نيسان عام ١٢٥٠م بدأت عملية المهندسون الصليبيون على أن يدمروا الجسر الذي أقاموه لإجتياز البحر الصغير فلم يلبث المماليك أن عبروه وراءهم، وقاموا بعملية مطاردة منظمة، وهاجموه من كل ناحية[٥]، وبفضل ثبات الملك الفرنسي وحسن إدارته بعملية الإنسحاب، وصل الصليبيون إلى شرمساح عند منتصف الطريق

١ السلوك (١ ـ ٤٤٩)، تاريخ الأيوبيين صـ٣٨٧.
٢ النجوم الزاهرة (٦ ـ ٣٦٤).
٣ المصدر نفسه (٦ ـ ٣٦٤).
٤ تاريخ الأيوبيين صـ ٢٨٨.
٥ النجوم الزاهرة (٦ ـ ٣٦٤)، تاريخ الايوبيين صـ ٣٨٨.

بين المنصورة ودمياط، ولكن كان هذا الملك مريضاً، وأحاط المماليك بجيشه من كل جانب، وراحوا يتخطفونهم، وشنوا عليهم هجوماً عاماً في فارسكور ولم يقو الملك على القتال ، وتم تطويق الجيش بأكمله، وحلت به هزيمة منكرة، ووقع كل أفراده تقريباً بين قتلى وجرحى وأسرى، حيث سيق مكبلاً إلى المنصورة، وسُجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان وعُهد إلى الطواش صبيح بحراسته وخُصّص من يقوم بخدمته، وكانت معظم الحرب في فارسكور، فبلغت عدَّة القتلى عشر' آلاف في قول المقل وثلاثين ألفاً في قول المكثر وأسر من الفرنج عشرات الألوف بما فيهم صناعهم وسوقتهم، وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة وأبلت الطائفة المملوكية البحرية ـ لا سيما بيبرس البندقداري ـ في هذه المعركة بلاء حسن وبان لهم أثر جميل[١].

٣ ـ صور من شجاعة المماليك: تعددت صور شجاعة هؤلاء المماليك في التعدي لأعداء الإسلام وشهد التاريخ ببسالة الدور الذي لعبه المماليك في مقاومة الصليبيين فذكر جوانقيل آن الكونت بواتييه والكونت فلاندر وبعض قادة قواتهم كان يرسلون إلى الملك لويس يتوسلون إليه: أن يقصر عن الجريمة لعجزهم عن متابعته لضغط المماليك الشديد عليهم[٢]. ويقول ثم جاء للكونتابل جندي كان يعمل صولجاناً ويرتجف خوفاً وأخبره أن الترك قد أحدقوا بالملك وأنه في خطر عظيم فرجعنا، وأبصرنا بيننا وبينه ما لا يقل عن ألف مملوك والملك قريب من النهر والمماليك يدفعون قواته ويضربون السيوف والصولجانات وأرغم القوات الأخرى على التقهقر[٣]، وقد وصفهم أحد المؤرخين عن تلك المعركة بقوله: والله لقد كنت أسمع زعقات الترك كالرعد القاصف ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف فلله درهم لقد أحيوا في ذلك اليوم الإسلام من جديد بكل أسد من الترك قلبه من حديد، فلم تكن إلا ساعة وإذا بالأفرنج قد ولوا عل أعقابهم منهزمين وأسود الترك لأكتاف خنازير الأفرنج ملتزمين[٤].

---

١ نهاية الأرب في فنون الأدب (٣٥٦/٢٩).

٢ السلوك (٤٥٠/١) الحملات الصليبية للصَّلاَّبي صـ٣٥٨.

٣ الجواري والغلمان في مصر، نجوىكمال صـ٤٠٣.

٤ المصدر نفسه صـ٤٠٤، كنز الدرر (٣٧٦/٧).

وتضمنت انتصارات المماليك على الصليبيين أنهم استطاعوا الاستيلاء على ثمانين سفينة من سفن الصليبيين بعد أن قاموا بسحب بضعة سفن من سفن المسلمين إلى اليابسة وأنزلوها ثانية إلى الماء على بعد فرسخ من شمال معسكرهم فاستحالت عودة الفرنج الذين ذهبوا إلى دمياط لجلب المؤنة،وتم قتل جميع بحارة الثمانين سفينة كما استولوا على اثنين وثلاثين مركباً مما أضعفهم وطلبوا الصلح[1].

٤ ـ **لويس التاسع في الأسر وشروط الصلح:** لم يهتم المسلمون كثيراً، بعد إنتصارهم، بأمر دمياط، ونظروا إلى أبعد من ذلك ففكَّروا باسترداد ما بأيدي الصليبيين في بلاد الشام، فاستغلوا وجود الملك الفرنسي في الأسر لتحقيق هذه الغاية، لكن لويس التاسع أجاب بأن هذه البلاد ليست في أملاكه، بل تخص الملك كونراد ابن الإمبراطور فريدريك الثاني[2]، وعبثاً حاول تورانشاه إرغامه على الاعتراف وأصرَّ لويس التاسع على رأيه، وقال: أنه أسيرهم، ولهم أن يفعلوا به ما يشاؤون[3]، فبادر تورنشاه إلى إغفال هذا الموضوع لكنه قرَّر غزو بلاد الشام، وغالى في شروط الصلح، إذ كان لزاماً على الملك الفرنسي أن:

ـ يفتدى نفسه بأن يؤدي مليون بيزنتة وهذا مبلغ كبير.

ـ يُطلق سراح عدد كبير من الأسرى المسلمين.

ـ يسلم دمياط إلى المسلمين.

ـ يستمر الصلح مدة عشر سنوات[4].

وافق الملك الفرنسي على هذه الشروط، وأقسم الطرفان على احترامها[5]،، وانتظر لويس لبعض الوقت حيث كانت زوجته تعاني آلام الوضع، وأرسل بعض رجاله إلى دمياط لتسليمها للمسلمين، ودخلت القوات المدينة في السابع من مايو بعدما ظلت في أيدي قوات لويس ما يقرب من عام، ودفع لويس نصف الفدية

---

١ الجواري والغلمان في مصر صـ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

٢ مذكرات جوانفيل صـ١٥٧، ١٥٩ ـ ١٦١.

٣ تاريخ الأيوبيين صـ٣٨٩، حملة لويس التاسع صـ٢٠٦.

٤ تاريخ الأيوبيين صـ٣٨٩.

٥ المصدر نفسه صـ٣٨٩.

حسبما اتفق عليه وأطلق سراح الصليبيين من البر الشرقي إلى جيزة دمياط، ثم تابعهم باقي الصليبيين.

وفي يوم الأحد الربع من صفر عام ٦٤٨هـ الموافق الثامن من مايو عام ١٢٥٠م أقلعت سفن الفرنج واتخذت طريقها إلى عكا حاملة فلول الحملة بعد أن أنهكتها الهزائم وحلت بها الكوارث[١].

٥ ـ من أسباب هزيمة الصليبيين في الحملة الصليبية السابعة: ساهمت مجموعة من الأسباب في هزيمة الحملة الصليبية السابعة والتي من أهمها:

أ ـ التطوير العسكري في الجيش الأيوبي.

ب ـ وحدة الصف الإسلامي.

جـ ـ هيبة القيادة الإسلامية.

ح ـ نزول العلماء والفقهاء أرض الجهاد.

خ ـ جهل الفرنجة بجغرافية البلاد الإسلامية.

د ـ خطأ كبير في تقدير العامل الزمني.

ذ ـ العصيان وعدم الطاعة عند الصليبيين.

ر ـ إنحلال الحملة السابعة خلقياً.

ز ـ فتور الروح الدينية عند الصليبيين.

س ـ التهور وقصور النظر.

وقد فصلت في شرح الأسباب المذكورة في كتابي عن الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة[٢].

١ تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد صـ٣١٥.

٢ الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة صـ٣٦٠.

٦ ـ **من نتائج الحملة الصليبية السابعة:** لقد ترتب على هزيمة لويس التاسع عام ١٢٥٠م/٦٤٨هـ مجموعة من النتاج من أهمها:

أ ـ **إرتفاع شأن ومكانة المماليك:** فقد تبين بوضوح الدور البارز الذي قام به المماليك في معركة فارسكور وكيف أن جهادهم أعداء الإسلام كلل بالنجاح، وفي حقيقة الأمر، أن ذلك الدور كان له أثره في ارتفاع شأنهم وبذلك سيصبح لهم السند التاريخي في الوصول إلى العرش، وليس غريباً أن العام الذي شهد الانتصار على الغزاة وهو عام ١٢٥٠م/٦٤٨هـ هو ذاته الذي شهد نهاية تورانشاه حريقاً غريقاً لتنتهي الدولة الأيوبية، ويتم إفساح الطريق لدولة المماليك الأفذاذ لتدافع عن الإسلام[١]، بقوة وعزم ونشاط وحيوية جهادية رائعة.

ب ـ **عجز فرنسا عن تحقيق أهدافها:** والملاحظ أن فعاليات فرنسا في دعم الحركات الصليبية وفي التوجه إلى البعد الأفريقي نالها الخسران المبين وعجزت فرنسا عن صنع واقع حربي وسياسي في المنطقة على حساب الأيوبيين وبذلك تأكد للدارسين كيف أن كافة المحاولات الصليبية لاخضاع مصر سواء في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي/ السادس والسابع الهجريين لم تحقق أدنى نجاح، ولا شك في أن صورة أسرة آل كابية الحاكمة في فرنسا، ضعف أمرها بين الأسر الحاكمة في أوربا بسبب الهزيمة الشنيعة التي تعرض لها لويس التاسع ووقوعه في الأسر[٢] وغير ذلك من النتائج التي ذكرتها في كتابي عن الحملات الصليبية الرابعة والخامسة، السادسة والسابعة.

٧ ـ **مقتل تورانشاه وزوال الدولة الأيوبية:** تباينت الآراء واختلف المؤرخون حول شخصية تورانشاه وتعددت أسباب قتله في نظرهم ولكنهم اجتمعوا على قتله على يد مماليك أبيه البحرية[٣]، ويرى المؤرخ المصري الدكتور قاسم عبده قاسم: بالرغم من الإنتصار الإسلامي الرائع على الحملة الصليبية فإن السلطان الأيوبي تورانشاه كان إخفاقاً أيوبياً جديداً مهد الطريق أمام نهاية الدولة الأيوبية وصعود

---

١ الحروب الصليبية بين الشرق والغرب صـ٣٧١.

٢ الحروب الصليبية بين الشرق والغرب صـ٣١٠.

٣ الخطط (٢ ـ ٢٣٦)، النجوم الزاهرة (٦ ـ ٣٦٤).

الدولة الجديدة التي شادها المماليك، لقد فشل تورانشاه في الإستجابة للتحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية وبدلاً من تكريس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماماً، بدأ يدبر للتخلص ((من شجرة الدر)) وكبار أمراء المماليك[1]، وقد ذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب أدت لقتل تورانشاه منها:

ـ أن هؤلاء المماليك خدموه أتم خدمة وانتظروا مجازاتهم واعتقد أنه سيملأ فراغ والده ولكنه قدم أمراءه وتوعد مماليك أبيه ـ الذين رباهم كأولاده ـ وقطع أخبازهم ونهب أموالهم ولم يعمل بوصية أبيه تجاههم[2].

ـ ومن الاسباب التي ذكرت في قتله أن مماليكه أشاروا عليه بصلح الفرنج بعد أن كان ملكهم في يديه حتى لا يحتاج إلى شجرة الدر أو مماليك أبيه لأنهم مسيطرين على الحكم وسولوا له لأن هؤلاء هم أعداءه وأن في صلح الملك وتركه وأخذ الأموال والجواهر صلاح الحال وتسليم دمياط، فشعر أمراء أبيه بتغيره عليهم واستهتاره بما قاسوه حتى وصلوا إلى هذا النصر على الصليبيين فدبروا قتله[3].

ـ وقيل أن من أسباب قتله أنه كان قد وعد الفارس أقطاي حين ذهب إليه يستدعيه من حصن كيفا أن يؤمره ولم يف بوعده فحقد عليه أقطاي[4]، ولما ذكره بوعده، على لسان بعض خواصه رد قائلاً: أعطيه جباً مليحاً يليق به[5].

ـ وقيل من أسباب قتل المماليك له أنه تعرض لحظايا أبيه[6]، فلماذا حظايا أبيه وقد كان في عصرمن الممكن الحصول فيه على أكبر عدد من المماليك والجواري والحظايا وكان طبيعياً أن لكل سلطان حظايا، فلم تكن ثروة ثمينة لا يستطيع الحصول على مثلها[7].

---

١ في تاريخ الايوبيين والمماليك صـ ١٤٨.
٢ الجواري والغلمان في مصر صـ ٤٠٨.
٣ السلوك نقلاً عن الجواري والغلمان صـ ٤٠٩.
٤ نهاية الارب (٢٩ ـ ٣٦٠)، الجواري والغلمان صـ ٤٠٩.
٥ كنز الدرر (٧ ـ ٣٨١ ـ ٣٨٢)، الجواري والغلمان صـ ٤٠٩.
٦ شفاء القلوب نقلاً عن الجواري والغلمان صـ ٤٠٩.
٧ الجواري والغلمان في مصر صـ ٤٠٩.

ـ وقيل من أهم أسباب قتله أنه طالب زوجة أبيه شجرة الدر بمال أبيه والجواهر[1] وهددها فخافت منه فتلاقت مخاوفها مع مخاوف زعماء المماليك وغضبهم بعد أن حرمهم السلطان الجديد من إقطاعاتهم فاستقر الرأي على ضرورة التخلص من آخر سلاطين الايوبيين في مصر[2].

ـ وكان حبه لشرب الخمر أحد تصرفات تورانشاه التي اثارت حنق المماليك البحرية عليه وذكرها معظم من أرخ لتلك الفترة فقد كان يشرب الخمر حتى تدور راسه ويأتي بالشموع ويسميها باسم مماليك أبيه ويطيح بها بسيفه وقد حذره أبوه في وصيته بترك شرب الخمر، ولكن يبدو أنه لم يسمع النصيحة وقد جاء في الوصية: يا ولدي قلدت إليك أمور المسلمين، فأفعل فيهم ما أمرك به الله وبه رسوله يا ولدي إياك والشراب فإن جميع الآفات وما تأتي على الملوك إلا من الشراب[3].

ـ وذكر ابن العبري أن أحد تصرفات تورانشاه التي أثارت حفيظة البحرية ضده حين علم أن الملكة زوجة الملك لويس التاسع المعتقل لديه ولدت له إبناً في دمياط فسير إليها المعظم عشرة آلاف دينار ذهباً ومهداً للطفل ذهبياً وحللاً ملكية[4]، وغير ذلك من الاسباب والمهم أن نعرف حقيقة هامة وهي أنهم شعروا باختلاف شديد في معاملة السلطان لهم ومعاملة تورانشاه المختلفة فقد كان الملك الصالح يحب مماليكه ويهتم بهم ويغدق عليهم الكثير من الإنفاق وقد بلغ من شدة اهتمامه بهم أنه ذكرهم في وصيته لابنه تورانشاه: الولد يتوصى بالخدم محسن ورشيد والخدم المقدمين لا تغيرهم فما قدمت أحد من الخدم ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نصحه وشفقته واستاذ الدار وأمير جاندار تتوصى بهم وكذلك الحسام لا تغييرهم فإني اعتمد عليهم في جميع أموري[5]، وقد عينت في ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تقدمهم وتعطي كل واحد منهم كوس[6] وعلم وتحسن إليهم وتتوصى بالمماليك غاية

١ السلوك نقلاً عن الجواري والغلمان صـ ٤١٠.
٢ في تاريخ الأيوبيين والمماليك، قاسم عبده صـ ١٤٨.
٣ نهاية الأرب (٢٩ ـ ٣٤٧)، الجواري والغلمان صـ ٤١٠.
٤ الجواري والغلمان صـ ٤١٠.
٥ المصدر نفسه صـ ٤١١، نهاية الارب (٢٩ ـ ٣٥٠).
٦ الكوس: من شعارات السلطنة والإمارة وهي صنوج من نحاس.

الوصية، فهم الذين كنت أعتمد عليهم واثق بهم وهم ظهري وساعدي، تتلطف بهم وتطيب قلوبهم وتوعدهم بكل خير، ولا تخالف وصيتي ولولا المماليك ما كنت قدرت اركب فرسي ولا أروح إلى دمشق ولا إلى غيرهم فتكرمهم، وتحفظ جانبهم[1]، وجاء في الوصية: والوصية بجميع الأمراء وأكرمهم واحترمهم وأرفع منزلتهم فهم جناحك الذي تطير به وظهرك الذي تركن إليه وطيب قلوبهم وزيد في إقطاعهم وزيد كل أمير على ما معه من العدة عشرين فارساً، وأنفق الأموال وطيب قلوب الرجال يحبوك وتنال غرضك في دفع هذا العدو[2]، ومن الراجح أن هؤلاء المماليك توقعوا بعد الانتصارات التي حققوها والصعاب التي واجهوها في سبيل تخليص البلاد من ذلك الخطر الصليبي وحفظ البلاد للسلطان وحتى مجيئه وحلفهم له وتنصيبهم إياه سلطاناً على البلاد أن يقدر ذلك الجميل ويكافئهم كما تعودوا من أبيه[3]، ويبدو أن الأمر كان مغايراً تماماً لما توقعوه وبعد أن كان لهم الحل والعقد والأمر والنهي آثر مماليكه ودأب على تهديد هؤلاء ووعيدهم، فلم يستطيعوا تقبل الأمر كما هو فقتلوه[4]، وكانت أكبر أخطاء تورانشاه أنه أقام بنيابة السلطنة الأمير جمال الدين أقوش النجيبي بدلاً من الأمير حسان الدين أبي علي الذي كانت له هيبة في عهد الصالح وهو الذي كان قد أمر الخطباء بالدعوة لتورانشاه على المنابر يوم الجمعة بعد الدعاء لأبيه وهو الذي حرضّ على استدعائه في سرعة حتى لا يتغلب الأمير فخر الدين على البلاد عقب وفاة الصالح[5]، فكان من الممكن أن يسانده ويتقوى به[6].

٨ ـ كيفية مقتل تورانشاه:ونتيجة لبعض التصرفات الغير مسؤولة وعدم أخذ الحيطة اللازمة من تورانشاه قرر المماليك البحرية التخلص من تورانشاه وتزعم المؤامرة مجموعة من الأمراء البحرية منهم فارس الدين أقطاي وبيبرس البندقداري، وقلاوون الصالحي وأيبك التركماني وتم تنفيذ المؤامرة في صباح يوم الأثنين ٢٨ محرم

١ نهاية الارب (٢٩ ـ ٣٥١)، الجواري والغلمان صـ ٤١١.
٢ الجواري والغلمان صـ ٤١١.
٣ مرآة الزمان نقلاً عن الجواري والغلمان صـ ٤١٣.
٤ الجواري والغلمان صـ ٤١٤.
٥ المصدر نفسه صـ ٤١٤.
٦ المصدر نفسه صـ ٤١٤.

٦٤٨هـ / ٢ أيار ١٢٥٠م وكان السلطان آنذاك في فارسكور يحتفل بإنتصاره ويتهيأ لإستعادة دمياط[١]، وجلس على عادته ليتناول طعامه، فتقدم إليه بيبرس البندقداري وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده، فقطعت بعض أصابعه، فأسرع تورانشاه إلى البرج الخشبي الذي أقامه على النيل ليمضي فيه بعض وقته وإحتمى به وهو يصيح، من جرحني؟ فقالوا: (الحشيشية) فقال: لا والله إلا البحرية! والله لا أبقيت منهم بقية، وضمد جراحه، فاجتمع أمراء المماليك، وقرروا قتله وقالوا: بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها ودخل ركن الدين بيبرس وفارس أقطاي وغيرهما من أمراء المماليك البحرية إلى البرج وهم شاهرون سيوفهم ففر تورانشاه إلى أعلى البرج، وأغلق بابه والدم يسيل من يده، فأضرموا النار في البرج ورموه بالنشاب، فالقى تورانشاه نفسه من أعلى البرج، وهو يصيح مستنجداً: ما أريد ملكاً دعوني أرجع إلى الحصن يا مسلمين، أما فيكم من يصطنعني ويجبرني[٢]، فلم يجبه أحد وأخذ يركض نحو النيل ونبال المماليك تأخذه من كل جانب حتى ألقى بنفسه في الماء على أمل أن يسبح إلى أحدى سفنه الراسية ليعتصم بها، ولكن سرعان ما لحق به اقطاي فقتله، وتركت جثته على شاطئ النيل ثلاثة أيام دون أن يتجاسر أحد على دفنه إلى أن شفع فيه رسول الخليفة العباسي، فحمل إلى الجانب الآخر من النهر ودفن، بعد أن حكم واحداً وستين يوماً[٣]،وقيل مدة سلطته بالمنصورة نحو أربعين يوماً، لم يدخل فيها إلى القاهرة ولا طلع قلعة الجبل ولم يعتلي سرير الملك[٤]، وبوفاة تورانشاه انقضت دولة بني ايوب بعد أن أقامت إحدى وثمانين سنة وسبعة عشر يوماً، وكان تورانشاه آخر من تولى السلطنة من بني أيوب[٥]، على أن بعض المصادر ذكرت أن الدولة الأيوبية بخلع شجرة الدر[٦]، فقد ذهب مجموعة من المؤرخين أن حكم شجرة الدر استمراراً للحكم الأيوبي، وأما في بلاد الشام فقد حكم الدولة الأيوبية لعدة سنوات أخرى[٧].

١ تاريخ الايوبيين صـ ٣٩٠.
٢ النجوم الزاهرة (٦ ـ ٣٧١).
٣ كتاب الروضتين نقلاً عن الدولة الأيوبية د. عكور صـ ٢٦٢.
٤ بدائع الزهور نقلاً عن الجواري والغلمان صـ ٤١٦.
٥ المصدر نفسه صـ ٤١٦.
٦ عجائب الآثار (١ ـ ٥١)، للجبرتي الجواري صـ٤١٦.
٧ الدولة الأيوبية د. عكور صـ٢٦٦.

رابعاً: أسباب سقوط الدولة الأيوبية:

إن أسباب سقوط الدولة الأيوبية كثيرة جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله في أمور الحكم وغيرها، فقد وقع الظلم على الأفراد وتورط بعض السلاطين في الترف وحدث بينهم نزاع عظيم سفكت فيه الدماء وأدى ذلك إلى زوالهم، فعندما يغيب شرع الله في أمور الحكم ـ كما حدث في الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين ـ يجلب للأفراد والدولة تعاسة وضنكاً في الدنيا وأن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، وأن الفتن تظل تتوالى تترى على الناس حتى تمس جميع شئون حياتهم[1]، قال تعالى : "فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم" (النور ، آية : ٦٣). لقد كان في إبتعاد سلاطين الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين عن تحكيم الشرع في نزاعاتهم وخلافاتهم آثار على أفراد البيت الأيوبي والدولة، فقد أصيبوا بالقلق والجزع والخوف، والشقاق والخلاف ونزع منهم الأمن وأصبحوا في الضنك من الحياة، إن هلاك الأمم وسقوط الدول وزوال الحضارات لا يحدث عبثاً في حركة التاريخ، بل نتيجة لممارسة هذه الأسرة الحاكمة أو الدولة، أو الأمة الظلم والانحراف وبعد أن يعطوا الفرصة الكافية حتى تحق عليهم الكلمة، فيدفعوا ثمن إنحرافهم، وإجرامهم وطغيانهم وفسقهم والآيات صريحة في ذلك، فالله إذا أنعم على دولة نعمة أياً كانت فهو لا يسلبها حتى يكفر بها أصحابها[2]، قال تعالى: "ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الأنفال ، آية : ٥٣)، والآيات في هذا كثيرة سواء ما يخص الفرد أو الأمة، بل أن القرآن الكريم ليذكر أن بعض ما يصيب الأمم والأفراد من استدراج حين يمهلهم الله تعالى وتواتيهم الدنيا، وتفتح عليها خيراتها فينسوا مهمتهم وما خلقوا له، بل ينسون المنعم جل جلاله وينسون ما عندهم لجهدهم وذكائهم، وقد يفلسفون الأمر فيقولون: لو لم تكن نستحق هذه النعم لما منحت لنا، وفي هؤلاء يقول الله تعالى: "فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا لهم ابواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا مبلسون * فقطع دابر القوم الذين

---

١ الدولة العثمانية للصلابي صـ٥٢٠ ، الدولة الأموية (٢ ـ ٥٦٨).

٢ في التفسير الإسلامي للتاريخ نعمان السامرائي صـ٨٨.

ظلموا والحمد لله رب العالمين" (الأنعام ، آية : ٤٤ ـ ٤٥)، لقد نسى هؤلاء أن اللـه يمنح خيرات الدنيا لمن يطلبها ويجد فيها، قال تعالى: "ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها" (آل عمران ، آية : ٤٥). ولكن هناك من يريد الآخرة بحق ويسعى لذلك فهو الفائز "من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلها مذموماً مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * وكلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا" (الإسراء ، آيات : ١٨ ـ ٢٠). وقال تعالى: "وضرب اللـه مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم اللـه فأذاقها اللـه لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون" (النحل ، آية : ١١٢ ـ ١١٣). ولنستمع لهذه الدعوة الكريمة "ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين" (هود ، آية : ٥٢). وهناك آيات كثيرة تحاول قطع الطريق على بعض المتفلسفين من أهل الكتاب "ي أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير" (المائدة ، آية : ١٩) ، فكل إنسان وكل مجتمع وكل أمة مسئولة عما يصدر عنها، ولا يتحمل أحد جريرة غيره "تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون" (البقرة ، آية : ١٣٤). المهم أن اللـه تعالى لا يحجب نعمة عن أحد، بل يوزعها على المؤمن والكافر، ثم يراقب تصرف الكل فيها، فمن طغى وظلم، ومن كفر بها واستعملها استعمالاً سيئاً فإن العقاب العادل سينزل به في الوقت المناسب، وقد يطول ذلك العهد قبل نزول العقاب ولكنه يكون في الطريق، وبعد هذا وذلك فإنه "لا يكلف اللـه نفساً إلا وسعها" (البقرة ، آية : ٢٨٦)، ومثل هذا في الأمم والمجتمعات وعلى مستوى الأفراد فإن اللـه خلق النصوص ملهماً إياها طريق الخير والشر، يقول تعالى: "ونفسٍ وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها" (الشمس ، آيات : ٧ ـ ١٠). وقال "وهديناه النجدين" (البلد ، آية : ١٠)، ومن الملاحظ في دراسة أسباب سقوط الدول والحضارات بأنها لا تسقط بسبب واحد كما لا تقوم بسبب واحد، بل بتجمع عدة أسباب لقيامها، وعدة

أسباب لتدهورها وسقوطها، بعضها يعمل ببطء، بينما يعمل البعض بسرعة أكبر، ولا تسقط الدولة والحضارة بضربة واحدة، بل بتضافر جملة من العوامل[1]، وهذا ما حدث للدولة الأيوبية التي زالت من الوجود في مصر عام ٦٤٨هـ وأهم هذه الأسباب في نظري:

١ ـ **توقف منهج التجديد الإصلاحي:** كان صلاح الدين رحمه الله رجل المرحلة، وجدت فيه صفات عظيمة، ساعده على ذلك الأجواء التي هيأها نور الدينت محمود من حبه للجهاد والعلم وتقريب العلماء، وإشاعة العدل، وسرى هذا في الأمراء والوزراء، ولكن المعضلة الرئيسية التي بقيت هي أن التجديد لم يتحول إلى مؤسسات راسخة إلى إتجاه عام في الدولة حتى لا ينقطع بوفاة القائد أو المؤسس[2] وذلك يرجع إلى أمور منها:

أ ـ **نقص الفقه الحركي الذي وجه نشاطات المدارس الإصلاحية:** فإن مدارس الإصلاح في هذا العصر ركزت نشاطاتها على تحقيق عنصر "الإخلاص" في العمل ، أي أنها ركزت على التربية أكثر من الاستراتيجية، ولذلك لم تفرز ((فقه الحكمة)) اللازم لتنظيم مؤسسات السياسة والإدارة والاقتصاد وتنظيم مسئوليات العاملين فيها وأداهم وحسن إستثمار الموارد البشرية والمادية بما يناسب حاجات المكان والزمان، وإنما اكتفت بـ(فقه) الآباء الذي يركز على ((المظهر الديني للقيادة)) دون ((المظهر الاجتماعي))، وصار شيوخها ومتعلموها يسلكون طريق ((الزهو)) وينتمون إلى مذهب من المذاهب الفقهية التقليدية في آن واحد، ولهذا يوصف الواحد منهم بأنه ـ مثلاً ((قادري السلوك)) ((وشافعي المذهب))، كذلك لم تطرق هذه المدارس ميادين ((الفقه)) المتعلق بالمظهر الكوني للعبادة والمؤدي إلى تطور العلوم الطبيعية، وتسخير تطبيقاتها في ميادين الحضارة المادية المختلفة، وهذا النقص في الفقه السياسي والإداري جعل المنجزات التي حققها جيل صلاح الدين تعتمد على الشخصيات أكثر من فاعلية المؤسسات، فلما غابت الشخصيات القيادية على مسرح الحياة برز تأثير العامل الثاني، أي أثر العصبيات الأسرية والقبلية التي عادت لتوجه مؤسسات الحكم

---

١ أيعيد التاريخ نفسه صـ١٣٤.

٢ هكذا ظهر جيل صلاح الدين صـ ٣٢٢.

والإدارة بما فيها مدارس الإصلاح نفسها، وهذا التطور السلبي حقق إفراز ظواهر غير إيجابية منها:

ـ حين لم يحد جيل الأبناء فقهاً سياسياً وإدارياً ينظم عملية تعيين الحاكم ومؤسسات الحكم والإدارة إرتد إلى تقاليد العصبية الأسرية والقبلية وروابط الدم التي تعتبر الحكم وقيادة المؤسسات التربوية والعلمية ميراثاً يرثه الأبناء عن الآباء، الأمر الذي أدَّى إلى تفكك الدولة وإنقسامها حيث تقاسم الأبناء ما وحدَّه جيل الآباء، وأداروه طبقاً لتقاليد العصبيات الأسرية التي سبقت جيل صلاح الدين والتي كانت تعتبر أراضي الدولة ومدنها وسكانها إقطاعات يتصرف بها الحكام ويتبادلونها بالبيع والشراء وصفقات الحرب والصلح.

ـ أدى النقص في الفقه السياسي والإداري إلى إنفجار الفتن بين الملوك وأمراء الجيش من ذلك ما حدث بين الملك الكامل وبين عماد الدين أحمد بن المشطوب الكردي الهكاري الذي يصفه ابن خلكان بأنه كان صلاح الدين أطعمه وهو شاب إقطاع نابلس إكراماً لوالده سيف الدين أبو الهيجاء المشطوب الهكاري الذي كان من كبار أمراء الجيش الصلاحي وقادته، فقد اتفق عماد الدين بن المشطوب مع الأكراد الهكارية على خلع الملك الكامل وتمليك أخيه الفايز، ولكن المحاولة لم تنجح ودب الاضطراب في معسكر الجيش الذي كان في مواجهة الصليبيين وانسحب عماد الدين إلى قلعة حران حيث بقي فيها حتى وفاته عام ٦١٠هـ[1]، والخلاصة أن الجدب في الفقه السياسي والإداري أفرز ـ بعد جيل صلاح الدين ـ قيادات وإدارات متسلطة فردية عملت على أن تحكم الأمة بقيم القوة فوق الشريعة، والفردية بدل العمل الجماعي، والتسلط بدل الشورى والإرتجال بدل التخطيط[2].

ـ قامت الدولة الأيوبية على تبني فكرة الجهاد وتحرر ديار المسلمين من الغزو الصليبي، وكانت التغيير العملي على مدى إصالة فكرة الجهاد الإسلامي وعن مدى عمق هذه الفكرة في نفوس المسلمين في كل من مصر والشام وقد انعكس هذا العمق

١ هكذا ظهر جيل صلاح الدين صـ٣٢٢.

٢ المصدر نفسه صـ٣٢٢.

وتلك الأصالة في الصفحات المشرقة التي سجلها بجهاده صلاح الدين، إذا انتقلنا إلى الصورة التي كانت لها في سنواتها الأولى وهذا يعني أنها قد أصبحت في وادي والفكرة التي قامت عليها في وادٍ آخر، ولو قدر واستمرت الدولة الأيوبية بالصورة التي كانت عليها في سنواتها الأخيرة لكان معنى ذلك نهاية أو سقوط فكرة الجهاد الإسلامي وترك الساحة للصليبيين يرسمون مستقبلها ومقدرات شعوبها كما يريدون، وإذن فإن إختفاء الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك مقامها كان التعبير العملي لرفض زوال فكرة الجهاد، ونخلص من هذا إلى القول بأن إختفاء الدولة الأيوبية، وقيام دولة المماليك مقامها كان رفضاً عملياً لسقوط فكرة الجهاد، كما كان أيضاً تأكيداً عملياً لقوة هذه الفكرة وضرورة إستمرارها حتى تحقق أهدافها كاملة، وخير للأجيال أن تستمر الفكرة حتى ولو على حساب سقوط الدولة والرجال مهما كانت درجة التعاطف مع هذه الدول وهؤلاء الرجال[1]

ب ـ **ومن الظواهر السلبية:** التي ساهمت في توقف حركة التجديد والإصلاح، تسلل قيم العصبية الأسرية إلى مدارس الإصلاح نفسها، إذ يستفاد مما كتبه مؤرخو تلك الفترة كابن الوردي وابن المستوفي، إن الأبناء والأحفاد تسلموا مشيخات هذه المدارس بعد وفاة المصلحين الآباء دون أن يكون لأولئك الأبناء والأحفاد المؤهلات العلمية والدينية والأخلاقية، الأمر الذي أحال مدارس الإصلاح إلى إقطاعات دينية، وعصبيات مذهبية، وأدى إلى إنصراف النابهين المثقفين من صفوفوها وإجتماع العامة فيما عرف باسم ((الطرق الصوفية)) الني إشتقت اسماءها من اسماء الآباء المؤسسين، كالطريقة القادرية والطريقة البيانيه والطريقة الرفاعية التي راحت تركز على الطقوس والأشكال بدل التربية والعلوم والأعمال[2].

٢ ـ **الظلم:** إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته، بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبإنتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها، مما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها، وإضمحلالها من خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر له، أي الذي قدره الله

---

١ الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات صـ٣٩٥.

٢ هكذا ظهر جيل صلاح الدين صـ٣٢٣.

بموجب سنته العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل أو من عوامل الهلاك كالظلم الذي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله[1]، قال تعالى:" ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون" (الأعراف: آية: ٣٤). قال الألوسي رحمه الله في تفسيره هذه الآية((ولكل أمة أجل)) أي لكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أي وقت معين مضروب لاستئصالهم ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين وهو محدد عند الله تعالى[2]:" ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد* وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تتبيت* وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه اليم شديد" (هود: آية: ١٠٠ ـ ١٠٢). إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصراً على من تقدم من الأمم الظالمة بل أن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصراً بأولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال:" وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة" (هود: آية: ١٠٢) فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد، فلآية تحذر من خطورة الظلم[3].إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته إهلاك الدولة بكفرها ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم[4]،تزول قال تعالى:" وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون" (هود: آية: ١١٧) قال الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره: إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك والمعنى: أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم،

---

١ السنن الإلهية د. عبد الكريم زيدان صـ ١٢١.

٢ المصدر نفسه صـ ١٢١.

٣ الدولة الأموية للصلابي (٢ ـ ٥٧١).

٤ السنن الإلهية صـ ١٢١.

يعامل بعضهم على الصلاح وعدم الفساد[1]، وفي تفسير القرطبي رحمه اللـه قوله ((بظلـم)) أي بشرك وكفر ((وأهلها مصلحون)) أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق، ومعنى الآية: أن اللـه تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط[2]، قال أبن تيمية رحمه اللـه في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: أمور الناس إنما تستقيم بالعدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن اللـه يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة ويقال: إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام وذلك إن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم تقم بالعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة[3]، ولقد حدثت مظالم عظيمة في عهد الأيوبيين، فقد سفكوا الدماء فيما بينهم، فقاتل الأخ أخيه والعم بني أخيه ظلماً وجوراً وتسلطاً على العباد والبلاد وحصرت دمشق وتعرض أهلها للمجاعة بسبب الأهواء والنزوات وإسراف بعض سلاطينهم في المال العام وتم الإعتداء في بعض الأحوال على أموال الرعية بدون وجه حق وقد بينا ذلك في مناسبات عديدة في كتابي ((الأيوبيون بعد صلاح الدين، والحملات الصليبية، الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة)).

٣ ـ النزف والإنغماس في الشهوات: قال تعالى: "فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً مما أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيع وكانوا مجرمين" (هود ، آية : ١١٦)، قال تعالى: "واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه" أراد الذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما إهتموا بالتنعم والترف والإنغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنئ[4]، وقد مضت سنة اللـه في المترفين الذين أبطرتهم

---

١ تفسير الرازي (١٨ ـ ١٦).

٢ تفسير القرطبي (٩ ـ ١١٤).

٣ رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صـ ٤٠.

٤ السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد صـ ١٨٦.

النعمة وابتعدوا عن شرع الله بالهلاك والعذاب قال تعالى: "وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين* فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون" (الأنبياء ، آيات : ١١ ـ ١٣)، ومن سنة الله تعالى هلاك الأمة بفسق مترفيها قال تعالى: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا" (الإسراء ، آية : ١٦). وجاء في تفسيرها وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها: أي : متنعميها وجباريها وملوكها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فأهلكناها، وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أمة الفسق ورؤساء الضلال وما وقع من سوئهم، إنما وقع بإتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[1].

إن أمر بني أيوب مازال مستقيماً في عهد صلاح الدين حتى أفضي أمرهم إلى إبنائه، فوقع بعضهم في الترف وآثروا الشهوات، وأقبلوا على اللذات والدخول في المعاصي والتعرض لسخط الله، والشواهد عل ذلك كثيرة نذكر منها ما كان في عهد الملك الأفضل وفي عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ما فعله أستاذ الدار وهو كبير أمناء الملك أو الرئيس والذي كان يجمع إلى منصبه إختصاصات الوزير وقاد الجيش في المعارك وفتح دمشق وكان متحللاً وعابثاً ومعتداً بقوته ومنصبه وتجرأ على منكر كبير، يخالف أحكام الدين ويسخر بالشرع ويسئ إلى مشاعر المسلمين، فبني فوق أحد مساجد القاهرة طبلخانة أي قاعدة لسماع الغناء والموسيقى، وقد تصدى لذلك سلطان العلماء العز بن عبد السلام كما بينا ذلك في الكتاب الذي قبل هذا،ومن صور الترف في عهد الدولة الأيوبية التوسع في المآكل والمشارب وما يترتب على ذلك من آفات، وحب التكثر من المال والتوسع في الركوب وفي المسكن والملبس والنكاح لدى بعض أمراء وملوك البيت الأيوبي.

٤ ـ تعطيل الخيار الثوري: ضرب الأيوبيون نظام الشورى في الحكم بالحائط ذلك النظام القائم عل حرية الانتخاب وحرية المعارضة والذي كانت القيادة الراشدة نفذته التزاماً بمعطيات القرآن والسنة في هذا المجال ولقد ولدت خطوة الأيوبيين هذه

---

١ تفسير الألوسي (٤٢/١٥).

ردود أفعال خطيرة في الدولة الأيوبية، بل أصبح التسلط والغلبة هو الطريق للسلطة والحكم، فهذا الملك العادل بعد أن تغلب على بني أخيه قال لوزرائه ومعاونيه أنه قبيح بي أن أكون أتابكاً مع الشيخوخة والتقدم مع أن الملك ليس هو بالميراث وإنما هو لمن غلب ولقد كان يجب أن أكون بعد أخي السلطان الملك الناصر ـ رحمه الله ـ صاحب الأمر، غير أني تركت ذلك إكراماً لأخي ورعاية لحقه، فلما حصل من الاختلاف ما حصل خفت أن يخرج الملك من يدي، ويد أولاد أخي، فمشيت الأمر إلى آخره[1]، ثم أن الملك العادل ورَّث أبنائه من بعده وحدث قتال بينهم ورجع إلى نظام التوريث الذي كان له سلبيات خطيرة، ساهمت في سقوط الدولة الأيوبية منها:

ـ إن هذا النظام قد سيطرت فيه عاطفة الأبوة والأقرب نسباً وقوة العصبية على عملية التولية بصفة عامة، وقد أدى ذلك إلى الآتي:

- تقيد حق الأمة في إختيار سلطان بحصره في أسرة معينة.
- تقييد مبدأ الشورى بحصره في أهل عصبية وشوكة الأسرة الحاكمة.
- دفعت المفضول إلى تولي السلطنة مع وجود الأفضل، بل وبمن إفتقد بعض شروط السلطنة مع وجود المستجمعين لهذه الشروط وفقاً لما سلف ذكره.
- وضع الحكام موضع تهمة وشبهة، كما أشار الشك ـ عند بعض الناس ـ حول مشروعية البيعة بولاية العهد والبيعة للسلطان.
- أدى إلى ظهور العداوة والبغضاء بين البيت الأيوبي وذلك مما أدى في النهاية إلى ضمور قوتهم وزوال شوكتهم[2].

٥ ـ **النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية:**إن سنة الله تعالى ماضية في الشعوب والأمم لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل الله سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم وزوال الدول الاختلاف، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا، وفي رواية ((فأهلكوا))، وعند ابن حبان عن ابن مسعود

١ في التأصيل الإسلامي للتاريخ صـ٦٠.

٢ نظام الحكم في الإسلام صـ٣٠٧.

رضي الله عنه: فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف[1]، إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي أسباب الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الدولة الأيوبية وهلاكها وإندثارها، وكان لهذا الاختلاف الذي وقع في البيت الأيوبي أسبابه منها: ضعف الوازع الديني عند بعض الأمراء الأيوبيين الأنانية وحب الذات والتكالب على المصالح الدنيوية والتناحر من أجلها والحرص على السلطة والجاه والمنصب وتحكيم بعض الأمراء الأيوبيين أهواءهم في الأمور، فهذه الأسباب كانت وقوداً للمنازعات والخلافات التي وقعت بين أفراد البيت الأيوبي، فكانت من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف وتلاشي الدولة، وقد إستقرأ هذه الحقيقة ابن خلدون، حيث ذكر أن من آثار الهرم في الدولة إنقسامها، وأن التنازع بين القرابة يقلص نطاقها، كما يؤدي إلى قسمتها ثم إضمحلالها[2]، لقد بدأ الخلاف المؤثر في الأسرة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين وسرعان ما انغمس الأيوبيون في صراعاتهم الداخلية فلم يحترم الأخ أخيه والعم بني أخيه، واستغل الملك العادل الأيوبي الجهل والطيش الذي إتسم به أبناء صلاح الدين، إذ أنه إستخدم علاقاته القديمة ومكانته لتحقيق هزيمة سياسية وعسكرية لجيش الملك العزيز قبل أن يستل جندي واحد سيفه من غمده، إذ كانت المنافسة قائمة بين الأمراء الصلاحية ((أمراء صلاح الدين)) والأمراء الأسدية، أمراء أسد الدين شيركوه الذين ورثهم صلاح الدين في جيشه، ونجح العادل في الإيقاع بين الفريقين[3]، وقد وصف القاضي الفاضل الخلاف في البيت الأيوبي بقوله: أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم فما الحيلة في تشريقه، وإذا بدأ تخريق في ثوب فما يليه إلا تمزيقه، وهيهات أن يسد على طريقه، وقد قدر طروقه، وإذا كان مع خصم على خصم فمن كان معه فمن يطيقه[4]، واستمر الصراع في الأسرة الأيوبية بعد وفاة الملك العادل، حيث اشتد النزاع بين أولاده الملك المعظم والملك الكامل أبناء البيت الأيوبي.

١ صحيح البخاري بشرح العسقلاني (١٠١/٩، ١٠٢).

٢ الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم صـ١١٨.

٣ في تاريخ الأيوبيين والمماليك قاسم عبده صـ٨٢ ـ ٨٣.

٤ دور الفقهاء صـ١٧٤.

٦ ـ **موالاة النصارى:** من لوازم الإيمان الصحيح الولاء والبراء، فكانت الدولة في عصر صلاح الدين عاملة بقول اللـه تعالى: "لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من اللـه في شئ إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم اللـه نفسه وإلى اللـه المصير"(آل عمران ، آية : ٢٨). وقول اللـه تعالى: "يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصاربأولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن لا يهدي القوم الظالمين" (المادة ، آية : ٥١)، وقال رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم: أوثق عري الإيمان، الموالاة في اللـه، والمعاداة في اللـه والحب في اللـه والبغض في اللـه[١]، أما في عصر الملك الكامل فضعف الولاء والبراء ويظهر ذلك في تسليم القدس للإمبراطور فريدريك الثاني على طبق من ذهب وبدون إراقة للدماء، وقد استعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الغم والهم والتألم ما لا يمكن وصفه وكان الملك الكامل لديه إستعداد للتحالف مع النصارى لقتال أخيه المعظم الذي تحالف مع الخوارزميين، كما أن الملك الصالح نجم الدين إسماعيل الذي دخل في صلح مع الصليبيين وسلّم لهم أحد الحصون وتصدى الشيخ عز الدين بن عبد السلام وابن الحاجب فاعتقلهما مدة ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما وتحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين لقتال الملك الصالح نجم الدين أيوب في مقابل تسليم القدس وإعادة مملكة بيت المقدس الصليبية إلى ما كانت عليه قديماً بما فيها الأردن، ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين بادر فوراً بتسليم القدس وطبرية وعسقلان، فضلاً عن قلعة الشقيف وأرنون وأعمالها، وقلعة صفد وبلادها ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالهم وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل، وأمام هذا السخاء العجيب ثار الرأي العام الإسلامي في مصر والشام على الصالح إسماعيل، حتى إن حاميات بعض القلاع رفضت طاعة الأوامر الصادرة إليها من الصالح إسماعيل في تلك الأثناء أسرع الصليبيون إلى تسلم بيت المقدس وأعادوا تعمير قلعتي طبرية وعسقلان، ثم رابطوا بعد ذلك بين يافا وعسقلان استعداداً للخطوة التالية وهنا وعدهم الصالح إسماعيل بأنه إذا ملك مصر أعطاهم جزءاً منها، فسال لعابهم لذلك، واتجهوا صوب

---

١ صحيح الجامع.

غزة عازمين على غزو مصر[1]، وسار الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والملك المنصور إبراهيم الأيوبي صاحب حمص على رأس جيوشهما في مهمة غزو مصر[2].

ولكن قادة القوات الشامية رفضوا طعن إخوانهم المصريين فما كانوا يلتقون بجيش الملك الصالح أيوب قرب غزة حتى تخلوا عن الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم وساقت عساكر الشام إلى عسكر مصر طائعة ومالوا جميعاً على الفرنج فهزموهم وأسروا منهم خلقاً لا يحصون[3]، وهكذا تحالف الملك الصالح إسماعيل مع الصليبيين وتنازل لهم على مدن المسلمين من أجل الحكم والسلطان، إن بعض ملوك بني أيوب أمنعوا في موالاة النصارى الصليبين وألقوا إليهم بالمودة وركنوا إليهم واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين وعملوا على اضعاف عقيدة الولاء والبراء في الأمة وأصابوها وفقدت أبرز مقوماتها وسهل بعد ذلك زوالها من الوجود.

٧ ـ **فشل الأيوبيين في ايجاد تيار حضاري:** حاول صلاح الدين بإيمان صادق وذكاء متميز حمل لواء المشروع الإسلامي الحضاري الذي تزعمه نور الدين محمود زنكي وحرص على الفتوحات العسكرية والدعوية، بحيث لاتطغى الأرض على الحضارة ولا الدولة على الدعوة، ولا تصبح اعتبارات السياسة أهم من مبادئ الدين وتقيد بالسياسة الشرعية، وعمل على ايجاد تيار حضاري عقدي يملأ أركان الحياة، ومهما يكن من أمر، فإن الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين، لم تستوعب قانون الامتداد الحضاري، فبعد الامتداد والانتصارات كان عليها أن تمتد بالدعوة وتطور المدارس الإصلاحية حتى تواكب احتياجات العصر العلمية والتربوية والثقافية والحضارية إلا أن خلفاء صلاح الدين لم يستطيعوا أن يقدموا مشروعاً حضارياً يجدد حيوية الدولة ويرسم اهدافها ويدفعها بقوة نحوها، وإنما دخلوا في أنفاق مظلمة أنتهت بزوال دولتهم لقد فشل ملوك بني أيوب بعد صلاح الدين في إيجاد تيار حضاري ولم يستطيعوا أن يحققوا التوازن بين الدولة والدعوة والأرض والعقيدة والسياسة والفكر، وكانت هذه رساله سامية تأخر فيها الأيوبيين وغلبتهم الظروف والتحديات فأصبحوا

---

١ النجوم الزاهرة(٣٢٢/٦) الدولة الأيوبية دعكور صـ٢٣٣.
٢ النجوم الزاهرة(٣٠٥/١) الدولة الأيوبية صـ٢٣٣.
٣ السلوك(٣٠٥/١) الدلوة الأيوبية صـ٢٣٣.

أمام قانون التاريخ الحضاري الذي لا يجامل ولا يحابي أما أن يتقدموا أو يزولوا من الوجود، فلا سكون في تاريخ البشرية.

٨ ـ **ضعف الحكومة المركزية:** قسمّ صلاح الدين دولته إلى أقاليم إدارية يتمتع كل منها بإمكاناته الخاصة وطابعه المميز، مثل مصر والشام وشمالي العراق والنوبة والمغرب واليمن والحجاز وقضى أكثر سنين حكمه في ميادين القتال يمارس سياسة التخطيط والتنفيذ والإشراف وتوجيه سياسة الدولة العليا، ثم يترك حرية التنفيذ في الأمور المحلية في الاستعداد والدفاع للولاة وفقاً لظروف وإمكانات كل إقليم، وهو ما يُعبَّر عنه في مفهومنا الحديث(اللا مركزية الإدارية)[١]. والحقيقة أن صلاح الدين لم يضع كافة السلطات في يده على الرغم من أنه كان الحاكم الذي يدير دفة الحكومة المركزية، والراجح أنه أدرك أن توزيع السلطات يجعل من كل سلطة رقيبة على السلطة الأخرى، وموازنة لها في ممارسة اختصاصاتها، كما أن تقسيم العمل بين عدة أشخاص أكفاء يحقق عدة مزايا تتعلق بإجادة العمل وسرعة انجازه[٢]، وقد ارتبطت الدولة الأيوبية التي بناها صلاح الدين الأيوبي بصفاته وسجاياه وشخصيته الفذة، فحين توارت هذه الشخصية من على مسرح التاريخ في المنطقة حدث فراغ كبير أضرّ بالجانب الإسلامي وعاد بالفائدة على الجانب الصليبي إذ كانت شخصيته ومواهبه وأداؤه السياسي والعسكري هو الذي حفظ الدولة من التفكك، ولم تكن هناك مؤسسات تضمن استمرار بقاء هذه الدولة الكبرى من ناحية، كما أن صلاح الدين قسَّم دولته، كما يُقسمَّ الإرث، بين أبنائه وأخوته وبني عمومته على نحو ما كان مألوفاً هي تلك العصور وكان طبيعياً ان تعود المنطقة إلى الوراء مرة اخرى نتيجة المنازعات والتشرذم السياسي الناجم عن الخلاف بين ورثة صلاح الدين، لقد كان خليفة صلاح الدين في مصر ابنه أبو الفتوح عثمان وكان وقت وفاة أبيه مقيماً بالقاهرة، وعنده جُل العساكر والأمراء من الأسدية والصلاحية والأكراد[٣]، وتولى أخوه الأفضل نور الدين على حكم دمشق، على حين تولى الملك العادل الكرك والشوبك وولي الظاهر غازي

---

١ تاريخ الأيوبيين طقوش صـ٢١٠.

٢ المصدر نفسه صـ٢١١.

٣ السلوك(١١٤/١) في تاريخ الأيوبيين والمماليك صـ٨٠.

حكم بلاد الشام الشمالية وكانت حلب عاصمته وتولى بقية أجزاء الدولة غير المهمة أبناء عمومته، ففي حمص حكم أفراد من أسرة تقي الدين عمر بن شاهنشاه[1]، وهكذا تفككت عُرى الدولة الإقليمية الكبرى التي جاهدت ثلاثة أجيال في إقامتها بمنطقة العراق والشام ومصر، عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، لقد كان تقسيم الدولة على نحو، كتقسيم التركات الخاصة سبباً في انهيار الوحدة السياسية للمنطقة وإطالة عمر الكيان الصليبي من ناحية أخرى[2]، فتفتت دوله صلاح الدين، وضعفت الحكومة المركزية بعد وفاته، وقامت الحروب بين ملوك بني أيوب بدافع التملك والتوسع.

٩ ـ **ضعف النظام الاستخباراتي:** كانت مؤسسة البريد والاستخبارات في عهد صلاح الدين قد اشتهرت بالتفوق الدائم على ما كان عند الصليبين واتصفت بالدقة والسرعة حتى أن أخبار العدو كانت تتواصل إليه ساعة فساعة، إلى الصبح، لا سيما في حصار عكا، وكانت استخباراته تضم بعضاً من الصليبين الذين استأمنهم السلطان في مناسبات مختلفة، وتكمن أهمية هؤلاء أنهم كانوا يعرفون لغة العدو، ولا يشك فيهم أنهم رجال صلاح الدين، بسبب من سحنتهم ومظرهم الخارجي، فكانوا يزودون الجيش الأيوبي بأخبار العدو التي يصعب عليها عن طريق رجال استخباراته المسلمين فذات مرة أخبروا صلاح الدين ما ينوي العدو القيام به من كبس العسكر الإسلامي ليلاً[3]، وأخبروه عن المنجنيق الصليبي الهائل الذي أنفقوا عليه ألفاً وخمسمائة ديناراً والذي أعدوه للهجوم على عكا وكذلك زودوا صلاح الدين بأخبار الحملة الألمانية، إلا أن بعد ذلك ضعف جهاز الاستخبارات، بل نجد أن الحملة الصليبية الخامسة تصل إلى دمياط ولم يعلم بها الملك العادل إلا بعد وصولها ولم تكن اختراقات الجهاز الإستخباراتي بعد صلاح الدين بالمستوى الذي كان عليه، فكان ضعف الجهاز الإستخباراتي للدولة الأيوبية بعد صلاح الدين من أسباب سقوطها.

---

١ تاريخ مصر الإسلامية(٩٦/٢) جمال الشيال.

٢ في تاريخ الأيوبيين والمماليك د.قاسم عبده صـ٨٠.

٣ صلاح الدين الأيوبي للصَّلاَّبي صـ٣٨١ ـ ٣٨٢.

١٠ ـ غياب العلماء الربانيين عن القرار السياسي: مع مجيء الملك الأفضل لحكم الدولة الأيوبية تغيرت بعض الوسائل الاستراتيجية التي كان يعتمد عليها صلاح الدين بعد الله تعالى في إدارة الحكم وحركة الجهاد وهي اعتماده على العلماء الربانيين فأبعد الملك الأفضل القاضي الفاضل وأقصى أمراء والده ومستشاريه، بتأثير الوزير ضياء الدين ابن الأثير أخو المؤرخ المشهور ابن الأثير على إدارة الدولة في عهد الملك الأفضل ولم يكن موفقاً أبداً بل جرّ البلاء والسخط والغضب والكراهية على الملك الأفضل وأصبح القاضي من بعد المبعدين عن القرار السياسي، وهو الذي قال فيه صلاح الدين: ما فتحت بلداً بسيفي ولكن بقلم القاضي الفاضل، ولم تكن مكانة العلماء والفقهاء بعد صلاح الدين بالمكانة التي كانوا عليها في عهد نور الدين وصلاح الدين، ولقد خسر الأيوبيون الكثير بإبعاد القاضي الفاضل ومن على شاكلته من دائرة القرار السياسي وقد قال ابو شامة عن القاضي الفاضل: كان ذا رأي سديد، وعقل رشيد ومعظماً عند السلطان صلاح الدين يأخذ برأيه ويستشيره في الملمات والسلطان له مطيع وما فتح السلطان الأقاليم إلا بأقليد آرائه وكان كتائبه كتائب النصر[1].

١١ ـ وفاة الملك الصالح نجم الدين وعدم كفاءة وريثه: استطاع الملك الصالح نجم الدين أيوب، أن يدخل تشكيلات جديدة على القوة العسكرية التي كان يتكون منها جيش السلطان الأيوبي والتي ساهمت في تقوية الجيوش وانعكس ذلك على الدولة ومن أهم الإجراءات التي اتخذها الملك الصالح نجم الدين أيوب، اهتمامه الكبير بشراء المماليك والغلمان والأتراك بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ السلطنة الأيوبية، فخلال مدة حكمه أضاف إلى الجيش في دفعة واحدة أكثر من ألف مملوكاً تركياً وعمل منهم جيشاً قوياً سانده في فرض إرادته على الأقاليم والقضاء على حركات التمرد الداخلية وكان ولاء المماليك للملك الصالح نجم الدين أيوب مطلقاً واستطاع إعادة هيبة الدولة الأيوبية من جديد ونجح إلى حد كبير في إعادة قوتها وسلطانها إلا أنه توفي أثناء الحملة الصليبية السابعة وكان عمره عند وفاته ٤٤ سنة

---

١ كتاب الروضتين(٢/٢٤١).

وعهد لولده المعظم تورانشاه وقامت شجرة الدر زوجة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيـوب ومـن معها مـن الـوزراء والأمـراء بتثبيـت الملـك المعظـم تورانشـاه إلا أنـه لم يكـن رجـل المرحلـة وفشـل في التحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية وبدلاً من تركيس جهـوده لتوحيـد المسـلمين للقضـاء على الخطر الصليبي تماماً بدأ يدبر للتخلص"من شجرة الـدر" وكبـار أمـراء المماليـك فـاحتقر خصـومه واستبد برأيه وابعد الأولياء ولم يلجأ إلى استخدام المال والسياسة في تفتيت خصـومه وضـعفت الشـقة بينه وبين رجاله وفشل في كسب ولاء قادة الجيش فتم قتله وزالت الدولة الأيوبيـة بموتـه، هـذه هـي أهم الأسباب في زوال الدولة الأيوبية.

المبحث الثاني

سلطنة المماليك بين شجرة الدر وعز الدين أيبك

أولاً: شجرة الدر:

١ ـ **شجرة الدر أيوبية أم مملوكية؟** إن معظم المؤرخين وعلى رأسهم المقريـزي، صاحب السلوك لمعرفة دول الملوك، يعتبرون شجرة الدر أولى سلاطين دولة المماليـك البحريـة في مصر ولقـد يطلـق عليهـا إسم دولة المماليك الأولى بإزاء دولـة المماليـك الثانيـة التـي هـي دولـة المماليـك البحريـة، اعتبروهـا أولى سلاطين المماليك كونها منهم أي من المماليك البحرية، جـيء بهـا جاريـة مملوكـة، فصـارت حظيّـة الملـك الصالح أيوب، وإن كان من الأرجح، أنها ليست من المماليك وهذا ما ذهـب إليـه عصـام شـبارو في كتابـه السلاطين في المشرق العربي، مملوكة من أصل أرمنـي، لا تـركي، فهـي ليسـت مملوكـة تماماً، بمـا في كلمـة مملوك من معنى، إنها قريبة من المماليك، بجهة النشـأة، وإن كـان المماليـك البحريـة الصـالحية يـأتمرون بأمرها، ويخضعون لها، كونها واحدة من أهم حريم الملك الصالح أيوب، هذا فضلاً عن كونها والدة ولـده خليل الذي مات وهو طفل صغير[١]. ويعتبر ابن إياس صاحب بدائع الزهور، شجرة الدر آخر سلاطين بنـي أيوب، كونها زوجة الصالح نجم الدين أيوب، والد تورانشاه وأم ولده خليل الذي توفي في حياة أبيه[٢].

٢ ـ **سلطانة مصر**: كان للدور الذي لعبته شجرة الدر بعد وفـاة زوجهـا نجـم الـدين أيـوب وتصرفها حيال الصليبيين وأسر الملـك لـويس التاسـع أبلـغ الأثـر لـدى المماليـك بعـدما شـاهدوا مـا تتصف به من حماس سياسي وحنكة ومهارة في تصريف أمور الدولة في ذلك الوقت العصيب الـذي كادت أخطار الحرب والاستيلاء على دمياط أن تفت في عضد أي حـاكم آخـر[٣]، لقـد عملـت شـجرة الدرّ على تحرير دمياط من الصليبيين، لمّا أخفت موت نجم الدين أيوب على الجيش المصري الـذي كان يقاتل الغزاة، إذ لـو أعلنـت نبـأ وفـاة الملـك والجيـوش المسـلمة والصـليبية في التحـام وعـراك

١ السلاطين في المشرق العربي صـ٩.

٢ بداع الزهور (١ ـ ٨٩).

٣ شجرة الدُّر قاهرة الملوك نور الدين خليل صـ٧٥.

لأفلت الأمر من أيدي القادة المماليك وبعث فيهم نبأ وفاة الملك شياً من الضعف والتخاذل والتواكل، الأمر الذي لم يحدث ـ بفضل الله ـ ثم بسبب حنكة شجرة الدرّ، وحكمتها وهي التي تمّت الوفاة بحضرتها فكتمت هذا الأمر، وأمرت العبيد أن يحمل الملك سراً في محفّة دون علمهم بموت الملك، ثم أن يوضع في قارب حمله إلى قلعة الروضة، ريثما تنجلي المعركة، عن نصر قريب، ولم يفت شجرة الدرّ أن تعهد إلى الأمير فخر الدين بقيادة الجيش وأن تبعث فيه روح المثابرة والعزيمة والجهاد ومواصلة الحرب لاسترجاع دمياط من أيدي الصليبيين هذا من جهة، ومن جهة ثانية، راحت شجرة الدر، وبالاتفاق مع بعض الأعوان من الخدم والأطباء تعمل على إدخال كبار الموظفين والأطباء إلى قاعة الملك، بحجّة أن السلطان حي يرزق، بل راحت توقع الأوامر والمراسم بتوقيع السلطان وهي التي حذقت تقليد توقيعه، ومحاكاة خطه، وإن قال بعضهم إن الذي حذق تقليد الملك وتوقيعه، هو خادم لشجرة الدرّ اسمه سهيل، كتم الأمر وخضع له، خدمة لمولاته السلطانة[1] بهذا التدبير الحكيم ، وذلك الآسلوب المميّز والحنكة الفريدة استطاعت شجرة الدر أن تحفظ للجيش وحدته وتماسكه، وأن تحول دون تصدّع صفوفه، وانفراط عقده، كما إستطاعت أن تبعث في الجنود روح مواصلة الجهاد، ومتابعة الكفاح، دونما ضعف أو خور أو ميل إلى الخضوع[2] والاستسلام، كان الرصيد الجهادي لشجرة الدر مؤهلاً لها للتربع على كرسي السلطة بعد مقتل تورنشاه، ويتبارى المؤرخون في سرد الأسباب والدوافع التي جعلت المماليك يرضون بها سلطانه عليهم، فهل يرجع ذلك إلى العلاقة التي تربطها بزوجها الراحل نجم الدين أيوب وابنها خليل؟ أم لزعامتها العسكرية والسياسية وقت الأزمات؟ أم لحاجة المماليك إلى وجود صلة بين الأيوبيين وبين وجودهم بصورة قانونية؟ لقد رفعوها لتتربع على عرش مصر وأطلقوا عليها لقب ((أم خليل))[3]، وهكذا أصبحت هذه الجارية أمة السلطان صالح نجم الدين أيوب، والتي تزوجها

١ موسوعة تاريخ مصر (٢ ـ ٦٧١) لأحمد حسين.

٢ شجرة الدرّ، د. يحي الشامي صـ٥٢.

٣ شجرة الدرّ، نور الدين خليل صـ٧٥.

بعدما أعتقها ملكة المسلمين في مصر وسلطانة المماليك البحرية، يخطب لها على المنابر، ويدعون لها عليها من بعد الدعاء لخليفة المسلمين العباسي[1].

٣ ـ الدعاء لها: كان مما يدعى لشجرة الدرّ قول المصلين اللهم أحفظ الجهة الصالحة ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين أم خليل أمير المؤمنين، المستعصمة، صاحبة السلطان الملك الصالح،[2]، أو قول الخطباء الذين كانوا يخطبون بإسمها على منابر مصر وأعمالها، فيقولون من بعد الدعاء لأمير المؤمنين الخليفة العباسي: اللهم أحفظ الجهة الصلاحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجليل، والستر الجميل، والدة المرحوم خليل، إذ أن خليلاً هذا هو ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، كان توفي في حياة والده صغيراً[3]، وفي رواية أن الخطبة التي كان يخطب بها لشجرة الدرّ على المنابر ، لما بويعت بالحكم من بعد الدعاء للخليفة العباسي هي التالية: ربنا احفظ ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين، الجهة الصالحة، أم خليل المستعصية، صاحبة السلطان الملك الصالح[4].

٤ ـ نقش توقيعها: وأيا يكن، فإن شجرة الدرّ، هذه هي التي راح الناس يدعون لها، ويخطبون، نقشت إسمها على النقود المتداولة في ذلك الزمان، وكانت صبغة النقش هي التالية: المستعصمة الصالحية، ملكة المسلمين، والدة المنصور خليل[5].

٥ ـ الاحتفال بتنصيبها: ما إن تمّ إعلان خبر تولية شجرة الدرّ ملكة على المصريين حتى راح كبار القادة والأمراء يفدون على المليكة وقد تربعت على دست الحكم في قاعة الإيوان الذي كان بناه الملك الصالح حيث النقوش الذهبية، والأعمدة الشاهقة المغطاة بالأبنوس والرخام، وحيث الفُرش والزرابي والطنافس والأرائك، ولقد ضاقت باحة القصر الخارجية بعامة الناس الذي أذهلهم الإعلان عن شجرة الدرّ أنها ملكة المصريين ما بين مصدِّق للخبر، أو مكذب له، فكنت ترى مواكب

---

١ شجرة الدر د. يحي شامي صـ٥٤.

٢ النجوم الزاهرة (٦ ـ ٣٧٤).

٣ بدائع الزهور (١ ـ ٢٨٦).

٤ موسوعة تاريخ مصر (٢ ـ ٦٧١).

٥ المصدر نفسه (٢ ـ ٦٧١).

الصناع والتجار، والفلاحين والجند، والراقصين والمغنّيين والخدم والحشم[1]، على اية حال، قبضت ((شجرة الدر)) على زمام الحكم بيد من حديد، ووجهت إهتمامها للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة، ثم أخذت تتقرب إلى العامة والخاصة من رعاياها[2].

٦ ـ رفض الخليفة والعلماء وعامة الناس لتولي شجرة الدُّر السلطنة: تفجرت ثورات من الغضب في العالم الإسلامي وحاولت شجرة الدُّر أن تُجمل الصورة قدر استطاعتها وتقربت إلى العلماء والعامة، إلا أن ذلك ذهب في إدراج الرياح وقامت المظاهرات العارمة على المستوى الشعبي في القاهرة في كل أنحائها ، وقام العلماء والخطباء يندددون بذلك على منابرهم، وفي دروسهم وفي المحافل العامة، والخاصة وكان من أشد العلماء غضباً وإنكاراً الشيخ الجليل ((العز بن عبد السلام)) رحمه الله[3]، وأرسل الخليفة العباسي من بغداد إلى الأمراء الذين كانوا بمصر يقول لهم: إعلمونا إن كان ما بقي في مصر عندكم من الرجال من يصلح للسلطنة، فنحن نرسل إليكم من يصلح لها، أما سمعتم في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا يفلح قوم ولّوا أمره امرأة[4]، ومما قاله الشعراء في إنكارهم على تولي شجرة الدُّر السلطنة:

النساء ناقصات عقل ودين

ما رأين لهنَّ رأياً سنيّا

ولأجل الكمال لم يجعل الله

تعالى من النساء نبيّا[5]

---

١ شجرة الدُّر د. يحي الشامي صـ٥٦.

٢ السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٧٦.

٣ قصة التتار صـ٢٢٩.

٤ بدائع الزهور (١ ـ ٢٨٧).

٥ المصر نفسه (١ ـ ٢٨٧).

٧ ـ شجرة الدُّر تخلع نفسها: لقد اضطربت الأمور على المستوى الشعبي العام، وعارض الفقهاء والمتعلمون جلوس ((شجرة الدُّر)) على عرش السلطنة، وأدركت السلطانة وزعماء المماليك أنهم يسبحون ضد تيار عارم، لا بد وأن يغرقهم في موجاته[١]، وبعد ثمانين يوماً تنازلت ((شجرة الدُّر)) في الحكم لواحد اختارته بعناية من أمراء المماليك هو عز الدين أيبك التركماني الصالحي، الذي اشتهر بعزوفه عن الصراع حتى ظن الجميع أنه ضعيف، وقبل أمراء المماليك الأقوياء زواجه من شجرة الدُّر وجلوسه على عرش السلطانة، بل أن بعضهم قال: متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته[٢]، وبالفعل تزوجت شجرة الدُّر من عز الدين آيبك، ثم تنازلت له عن الحكم، وتم هذا التنازل في أواخر جمادى الثانية من السنة نفسها سنة ٦٤٨ هـ وهكذا في غصون سنة واحدة فقط جلس على كرسي الحكم في مصر أربعة ملوك وهم الملك الصالح أيوب ـ رحمه الله ـ ثم مات، فتولى توران شاه ابنه، ثم قتل، فتولت شجرة الدر، ثم تنازلت، فتولى عز الدين أيبك التركماني الصالحي[٣].

٨ ـ حكم تولى المرأة للولاية العامة: اتفق فقهاء الإسلام على اختلاف مذاهبهم ـ على عدم جواز المرأة لمنصب الإمامة العظمى، وأن الذكورة شرط أساسي فيمن يتولى هذا المنصب[٤]، حتى الذين ينادون بحقوق المرأة السياسية، ويؤيدون تدخلها في أمور السياسة، أكثرهم لا يجيزون توليها لهذا المنصب ويقولون بقصر الرياسة أو رياسة الوزارة على الرجل دون المرأة[٥]، ولا شك أن أصحاب هذا الرأي يرون رياسة الوزارة في النظام البرلماني مثل منصب الرياسة أو الإمامة الكبرى في النظام الإسلامي[٦]، واستدلوا على صحة هذا القول بالكتاب والسنة والإجماع والمعقول.

أ ـ الكتاب: ـ قوله تعالى:"الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم" "النساء، آية:٣٤". وجه الاستدلال: جعل الله تعالى في هذه

---

١ السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٧٧.
٢ المصدر نفسه صـ٧٧.
٣ قصة التتار صـ٣٣١.
٤ ولاية المرأة في الفقه الإسلامي صـ٨٣.
٥ المصدر نفسه صـ٨٤.
٦ المصدر نفسه صـ٨٤.

الآية القوامة للرجال على النساء وهم قوامون عليهم، والقوامة على الأمر، أو المال أو ولاية الأمر، والقيِّم: من يقوم بالأمر، والقوَّام: صيغة مبالغة، أي الحسن القيام بالأمر[١]، فلما جعل الله تعالى القوامة للرجل دون المرأة، فهو يعني حصر القيام بانتظام الأمور، وتدبير الشئون، وولاية الأمر في الرجل، وهذه القوامة عامة تشمل ولاية الأمور العامة والشئون السياسية، بما فيها الإمارة والوزارة والخلافة ونحوها كما تشمل الشئون الأسرية ورعاية أهل البيت، فالرجال قوامون على النساء: أي القائمون بانتظام أمورهن، وكفالة نفقتهن، ومسؤلون عن الذب عنهن وحفاظهن وأمرهم نافذ عليهن، فهم الحكام والأمراء، وعليهن طاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه ما لم يكن في معصية الله[٢].

ومما يدل على أن القرآن لم يقيد قوامية الرجال على النساء بالبيوت فقط، أنه لم يأت بكلمة(في البيوت) في الآية حتى يحصر الحكم في دائرة الحياة العائلية[٣]، والله لم يعطها حق القوامة على بيتها وإنما جعله للرجال، فكيف تجعل على مجموعة من ملايين البيوت[٤].

قوله تعالى:"ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة" "البقرة،آية:٢٢٨" ووجه الاستدلال إن الله تعالى في هذه الآية نفى ما كان في الجاهلية من عدم المبالاة بالمرأة وعدم اعتبار حقوقها وشخصيتها، فيبين الله تعالى هنا أن النساء كالرجال في الإنسانية ولهن حق حسن المعاشرة كالرجال، ويجب لهن حق عليهم تجاه الواجب ولكن المراد بالمماثلة مماثلة الواجب بالواجب في كونه ما يردده البعض في العصر الحاضر من كون مساواة المرأة للرجل في جميع الأمور، لأن الله تعالى قال:"وللرجال عليهن درجة" وهذه الدرجة هي القوامة التي جاء بيانها في الاية السابقة الإمرة والطاعة[٥].

١ تفسير الطبري(٢٩٠/٨).

٢ ولاية في المرأة في الفقه الإسلامي ٨٥.

٣ تدوين الدستور الإسلامي صـ٧١.

٤ ولاية المرأة في الفقه الإسلامي صـ٩١.

٥ جامع البيان(٤٥٤/٢).

قال تعالى:"إن اللـه اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلـم والجسـم" "البقرة،آيـة:٢٤٧". وجـه الاستدلال: إن اللـه تعالى يبين في هذه الآية الكريمة صفات الاستحقاق للملك، وذلـك أن بنـي إسرائيـل لما طغوا في استحقاق طالوت للملك، قالوا: إنه لا يستحق لأنه ليس من أهـل بيـت الملـك، ولأنـه فقـير ليس عنده مال، فرد اللـه عليهم بأنه استحق للملك لأمرين، لكون زيادته في العلم، وقوته في الجسـم، فهذا دليل على أن قيادة الأمة تسند إلى من لديه علم واسع، وهو قـوي جسـيم حتـى يتحمـل مشـاق هذا المنصب[١]، ومن المعلوم أن المرأة ضعيفة الجسم والبنيـة لا تسـتطيع تحمـل المشـاق مثـل الرجـل، وهذا أمر فطري، فلهذا لا يسند إليها قيادة البلد[٢].

ب ـ السنة: قال صلى اللـه عليه وسلم: لن يُفلح قوم ولوْا أمـرهم امـرأة[٣]:إن الـذكورة شرط في أهلية الولاية العامة بالاتفـاق، وأجمعـت الأمـة في العصـور الأولى مـن الصـحابة والتـابعين. وتـابعيهم والأئمة والفقهاء والعلماء والمحدثين والمفسرين على اختلاف مذاهبهم، أجمعوا على أن لا تصـلح المـرأة للأمامة الكـبرى، ولا تجـوز توليتهـا رياسـة المملكـة، كـذلك رياسـة الـوزارة في النظـام البرلمـاني لأن لهـا صلاحيات مثل صلاحيات الإمام. وعلى هذا دلت الأدلة الصحيحة من الكتاب، والسنة وهـي ظـاهرة في دلالتها ويقتضيه العقل والقياس، والحكمة في خلقة المرأة وتكوينهـا الـنفسي والجسـدي، والاعتراضـات الموجهـة إلى حـديث صـحيح البخـاري مـردودة، لـيس فيهـا شيء مـن القـوة، إذ تلقتـه الأمـة بـالقبول والمعترضون لا يريدون إلا التشكيك في الحديث النبوي وأما القول المعارض الذي حـدث متـأخراً فلـيس له دليل صحيح من الكتاب والسنة، بل هي شبهات من اجتهاد بعض أفراد الأمة، أو أفعال من لا ينظر إلى عمله ولا يحتج بفعله[٤].

---

١ تفسير الرازي(١٧٤/٦) مدارك التنزيل (١٦٣/١).

٢ ولاية المرأة في الفقه الإسلامي صـ٩٣.

٣ البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٤٢٥.

٤ ولاية المرأة في الفقه الإسلامي صـ١٦١.

ثانياً: سلطنة عز الدين آيبك:

تولى عرش مصر السلطان أيبك التركماني وتلقب باللقب السلطاني"الملك المعز" ولم يكن أيبك في الواقع أكبر أمراء المماليك سناً أو أقدمهم خدمة، أو أقواهم مكانة ونفوذاً إذ يوجد من هم أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس الدين أقطاي والظاهر بيبرس وهذه الحالة الإستثنائية في نظام التدرج المملوكي جعلت بعض المؤرخين مثل أبي المحاسن في كتابة النجوم الزاهرة؛ يتهم أيبك بضعف النفوذ والشوكة وأن الأمراء لم ينتخبوه إلا لكي يتمكنوا من عزله متى شاءوا[1]غير أن الحوادث دلت على أن أيبك رجل يمتاز بصفات السياسة والحزم والشجاعة، ولم يكن ضعيف الشخصية كما يصوره بعض المؤرخين، ويبدو أن أبا المحاسن نفسه قد شعر بالخطأ الذي وقع فيه حينما وصف أيبك بالضعف في كتابه النجوم الزاهرة، إذ أنه عاد واستدرك ذلك في كتابه الآخر: المنهل الصافي، فمدح أيبك فيه ووصفه بالديانة والصيانة والعقل والسياسة، وأنه انقذ دولة المماليك من خطر محقق، وإذا تناولنا المشاكل والمصاعب التي واجهت السلطان أيبك، نجد أنها تتمثل في تهديدات الايوبيين والصليبيين في الخارج، وفي ثورات الاعراب في الداخل ثم خطر زملائه المماليك في داخل البلاد وخارجها[2].

١ ـ الخطر الايوبي والصليبي: رفض أمراء بني أيوب الاعتراف بالنظام الجديد في مصر، وانسلخت عنها دمشق والكرك والشوبك والصبية وغيرها من ممتلكاتها التابعة لها في الشام وأصبح في الشرق الأوسط الإسلامي قوتان متنازعتان، ولايات الشام ويهيمن عليها الأيوبيون، ومصر ويحكمها المماليك، وقد اعتبر الأيوبيون أنهم أصحاب السلطة الشرعية وأن المماليك دخلاء عليهم، وأنه لا بد من اتخاذ إجراء حاسم لإعادة المياه إلى مجاريها[3]، وشنوا حملة أعلامية مركزة على المماليك وقالوا بأنهم هم الذين سمحوا للملك الفرنسي بالخروج من مصر حياً طمعاً في الفدية التي أعطاها لهم وتلك التي تعهد بدفعها، وأنه لولا جشعهم لما أفلت لويس من قبضة

١ قيام دولة المماليك الأولى للعبادي صـ١٢٤.

٢ المصدر نفسه صـ١٢٤.

٣ العدوان الصليبي على بلاد الشام د.جوزيف صـ١٤٤.

المسلمين[١]، ولما توجه إلى الإمارات اللاتينية في الشام عمل على بث الخلاف وإثارة الفتن والقلاقل في الشرق الإسلامي، وأما المماليك البحرية فقد وجدوا أنهم أصحاب الفضل الأول في إحراز النصر على لويس والتنكيل به وبقواته على ضفاف النيل، وأنه لولا اجتهادهم في المنصورة وفارسكور ما تم النصر للمسلمين[٢]، حتى وصفهم ابن واصل بأنهم كانوا داوية الإسلام[٣]، ودافعوا عن اتهام الأيوبيين لهم بإخلاء لويس طمعاً في ماله، بأنهم كانوا يخشون إن قتلوه أو أبقوه في الأسر أن تثور ثائرة العالم المسيحي ويقوم بحملة صليبية جامعة ضد المسلمين قد لا يستطيعون دفعها[٤]، خاصة وأن لويس لم يكن محبوباً في فرنسا، فحسب وإنما في أمم الغرب الأوروبي والشرق اللاتيني أيضاً ، ثم هم لم ينسوا بعد مااقترفه "تورانشاه" ابن مولاهم الصالح أيوب في حقهم وفي زوجة أبيه شجرة الدر من إساءات ، كان من الضروري وضع حد لها قبل أن يفلت الزمام من أيديهم ويبطش[٥] بهم ، وأنهم بتخلصهم منه إنما انقذوا مصر من مفاسده ومباذله ، ولذا فهم يرون أنهم أحق بالملك من غيرهم[٦] .

أ- لويس التاسع واستغلال فرصة النزاع بين المسلمين: ففي هذا الوقت الذي كان فيه الشرق الإسلامي منقسماً على نفسه كان الملك الفرنسي في عكا يسعى لتأليف حملة جديدة تهدف إلى امتلاك البيت المقدس. وحري بالذكر في هذا المجال أن المسيحيين في المعاقل اللاتينية في سورية وعلى رأسهم لويس كانوا يدركون حقيقة الحال في مصر والشام وكانوا ملمين إلماماً تاماً بأحوال العالم الإسلامي المضطربة إبان فترة الأنتقال هذه ، إذ سجل لويس في رسالته إلى شعبه أن هذا الشقاق قد انعش آماله[٧]، كما وجد الفرصة مواتيه لتعويض ما خسره في مصر[٨] ، ومما يدلنا على اهتمام الغرب المسيحي بما كان يجرى في الشرق الإسلامي من أحداث وقتذاك أن

١ المصدر نفسه صـ١٤٥.
٢ العدوان الصليبي على بلاد الشام صـ١٤٥.
٣ المصدر نفسه صـ١٤٥.
٤ المصدر نفسه صـ١٤٦.
٥ المصدر نفسه صـ ١٤٦.
٦ المصدر نفسه صـ١٤٦.
٧ المصدر نفسه صـ١٤٦.
٨ المصدر نفسه صـ١٤٦.

المؤرخين الغربيين المعاصرين لهذه الفترة أمثال جوانفيل وروتلان ووليم دي ناجي، ووليم دي شارتر، ومتى الباريزي وغيرهم، قد تتبعوا مراحل الخلاف بين مصر والشام، وسجلوا الكثير من ظروف الحال بينهما مما لا تقل قيمته عما خلفته لنا المصادر الإسلامية في هذا الشأن، وهي فضلاً عن ذلك تعطينا فكرة واضحة عن هذا النزاع من وجهة النظر المسيحية وعن موقف لويس منه[1]، من هنا يتضح أن مهمة الملك لويس التاسع في هذه الفترة بالذات التي قام فيها الخلاف بين بني أيوب في الشام والمماليك في مصر هي استغلال الفرصة ، وترقب الأمور عن كثب ، واتخاذ خطة السياسة والدهاء ، عساه أن يعوض من وراء ذلك ما فاته في حملته الفاشلة على الديار المصرية[2].

ب ـ تردد السفارات بين ملوك مصر والشام ولويس التاسع: هكذا ترددت الرسل وتعددت السفارات بين كل من أمراء مصر والشام وبين الملك الفرنسي في عكا وفي غيرها من بلاد الشام المحتلة وكل منهما يمنيه بالوعود المغرية طمعاً في كسبه إلى جانبه ، ولكنه اتخاذ سياسة الحرص والحذر، متوخياً في ذلك ماتمليه عليه المصلحة المسيحية قبل أن يتخذ قراراً حاسماً ، فقد كان بوسعه الإنضمام إلى أحد الفريقين أو الوقوف موقف الحياد أو أن يستمر على سياسة متأرجحة أملاً في استنزاف قوى الفريقين إلى أقصى حد ممكن[3]، على أية حال ، لم يكد لويس يستقر في عكا حتى أرسل إليه الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب مبعوثين من قبله يسألونه أن يقف إلى جانب مولاهم في قتاله ضد المماليك البحرية الذين قتلوا قريبه السلطان المعظم تورانشاه وتعهد له الناصر إذا تحالف معه بإعادة بيت المقدس التي كانت تحت إمرته آنذاك إلى المسيحيين[4]، كان السلطان عز الدين آيبك يراقب الأحداث عن كثب وقرر مواجهة الخطر الأيوبي بالطرق السلمية أولاً وحتى يمتص نقمة الأيوبيين ، إختار بالاتفاق مع كبار أمراء المماليك صبياً صغيراً في العاشرة من عمره من بني أيوب ، هو الأشرف موسى بن المسعود بن الكامل محمد وأقامه سلطاناً ليكون شريكاً له في

---

١ العدوان الصليبي على بلاد الشام صـ١٤٧.
٢ المصدر نفسه صـ١٤٧.
٣ المصدر نفسه صـ١٤٨.
٤ المصدر نفسه صـ١٤٩.

السلطة ، فكانت المناشير والتواقيع والمراسيم تخرج عنهما ، ويخطب باسميهما على منابر مصر وأعمالها ، وضُربت لهما السكة على الدنانير ، والدراهم[1]، ويبدو أن آيبك علم بأنباء المفاوضات بين الملك الناصر ولويس التاسع ، وخشي وقوع تقارب أيوبي صليبي ، فأرسل إنذار الى الملك لويس التاسع بأنه سوف يُقدم على قتل الأسرى الصليبيين الذين مازالوا في مصر منذ أيام الحملة الصليبية السابعة على دمياط ، وهم بانتظار دفع الفدية المقررة لإطلاق سراحهم ، إن قام بأي عمل عدائي ضده وأبدى في الوقت نفسه استعداده لتعديل معاهدة دمياط والتنازل له عن نصف الفدية المقررة مقابل تحالفه معه ضد الناصر يوسف ، غير أن الملك الفرنسي لم يشأ أن يلتزم بشيء نحو أي من الطرفين وإن كان يؤثر التحالف مع دمشق لما لها من أهمية عسكرية وسياسية ، لكن كان لزاماً عليه أن يفكر في أسرى الصليبيين الذين مازالوا في مصر[2] ، ولما يئس الناصر يوسف من إستقطاب الملك لويس التاسع ، زحف بجيوشه نحو مصر ، ونسي زعماء البحرية خلافاتهم الداخلية ، وتكتلوا وراء آيبك لصد الزحف الأيوبي الذي هدد مستقبلهم جميعاً ، وخرج آيبك من القاهرة على رأس الجيش المملوكي للتصدي للتقدم الأيوبي ، لكنه خشي من أن يقوم الصليبيون بمهاجمة دمياط مرة أخرى، مستغلين خلو مصر من المدافعين عنها فأمر بهدم ثغرها ، حتى خُرب كله ، ولم يبق من المدينة سوى الجامع وأكواخ من القش على شاطئ النيل يسكنها الصيادون وضعفاء الناس، وسموها ((المنشية))[3].

٢ ـ **معركة بين المماليك والأيوبيين:** والتقى الجيشان الأيوبي والمملوكي في العاشر من ذي القعدة ٦٤٨هـ/ الثالث من شباط ١٢٥١م عند العباسية بين مدينتي بلبيس ، والصالحية، إنتصر فيها الناصر يوسف ، في بداية المعركة ، على الرغم من استبسال المماليك، غير أنه حدث أن فرقة من جيش الناصر يوسف، وهم المماليك العزيزية تخلت عن مواقعها في غمرة القتال وانحازت ، بدافع العصبية المملوكية إلى الجيش المملوكي[4]، ولما لم يكن الناصر يوسف مشهوراً بالشجاعة، لم يلبث أن تراجع

١ تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة صـ٣٩٦
٢ مذكرات جوانفيل صـ٢٠٨،٢٠٠.
٣ السلوك (٤٦٦/١) تاريخ الأيوبيين صـ٣٩٨.
٤ تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام صـ٣٩٨.

ولاذ بالفرار عائداً إلى بلاد الشام، في حين عاد المماليك ظافرين ومعهم الأسرى إلى القاهرة[1]، كان لهذه الموقعة أثرها وأهميتها في تثبيت أركان دولة المماليك البحرية الناشة، فقد إستثمر آيبك إنتصاره هذا، فأرسل بعد شهر، جيشاً، بقيادة فارس الدين أقطاي، استولى على غزة[2]، ثم قرر الزحف نحو بلاد الشام للسيطرة عليها، ولكي يضمن النجاح لمهمته حاول استقطاب لويس التاسع، ووعده بإعطائه بيت المقدس فور إستيلائه عليه من الناصر يوسف[3]، ومن جهته رأى الناصر يوسف نفسه مضطراً للإعتماد على حليف قوي يضمن له الصمود وإستمرارية الصراع مع المماليك، فأرسل سفارة إلى عكا يعرض على لويس التاسع التنازل له عن بيت المقدس، مقابل الحصول على مساعدته[4].

٣ ـ **تحالف مملوكي ـ صليبي:** استغل لويس التاسع هذا الصراع الإسلامي لمصلحة الصليبيين، ونجح في الضغط على آيبك، فأطلق سراح الأسرى الصليبيين، ثم عقد الطرفان معاهدة في ٦٥٠هـ/١٢٥٢م بهدف مناوأة الناصر يوسف، جاء فيها:

ـ وافق آيبك على إطلاق سراح بقية الأسرى الصليبيين.

ـ إعفاء لويس التاسع من بقية المبلغ المتبقي عليه من الفدية.

ـ وعد آيبك الملك الفرنسي بأن يعيد للصليبيين كل مملكة بيت المقدس التي كانت تمتد شرقاً حتى نهر الأردن[5].

غير أن التحالف المملوكي ـ الصليبي لم يؤد إلى شيء من النتائج إذ بعد توقيع المعاهدة إتفق كل من آيبك ولويس التاسع على القيام بحملة مشتركة لطرد الناصر يوسف من بلاد الشام، وكان من المتفق عليه أن يستولى لويس التاسع على يافا، في حين يستولي آيبك على غزة، ثم يتم الاتصال بينهما، ويقوم الجيشان بعد ذلك

---

١ تاريخ الأيوبيين طقوش صـ٣٩٨.
٢ المصدر نفسه صـ٣٩٨.
٣ المصدر نفسه صـ٣٩٨.
٤ المصدر نفسه صـ٣٩٨.
٥ المصدر نفسه صـ٣٩٩.

بهجوم مشترك على الامارات الأيوبية[1]. وتنفيذاً لهذه الخطة خرج لويس التاسع على رأس ألف وخمسمائة مقاتل إلى يافا واستولى عليها دون مقاومة وكانت تحت الحكم الأيوبي[2]، بينما تقدك الجيش المملوكي بقيادة فارس الدين أقطاي، نحو غزة، وعسكر في الصالحية، ويبدو أن الناصر يوسف علم بأنباء هذا التحالف، وما أعده من خطط لطرد الأيوبيين من بلاد الشام، فتحرك على وجه السرعة، ليحول دون إلتقاء الحليفين، فأرسل قوة عسكرية من أربعة آلاف مقاتل عسكرت على تل العجول قرب غزة، وبعد أن سيطرت على هذه المدينة، إرتدت إلى يافا لاستعادتها من يد لويس التاسع[3]. وبفعل سيطرت الأيوبيين على غزة ظل المماليك في الصالحية، وظهرت بين الطرفين بوادر إحتكاك واستمر كل منهما يتحفز بالآخر، حتى أضحت المواجهة المكشوفة وشيكة الوقوع، لكن الصلح تم بين الطرفين في أوائل ٦٥١هـ/١٢٥٣م، فما الذي تغير على الساحة السياسية؟[4].

٤ ـ **الخليفة العباسي وسعيه في الصلح:** الواقع أنه لم يقدر للعداء بين الأيوبيين والمماليك أن يستمر في هذه الآونة وذلك بسبب ظهور خطر جديد هدد المسلمين جميعاً في الشرق الأدني وتطلب منهم أن يتحدوا وهو ظهور المغولي الذين اكتسحوا العراق ووصلت طلائعهم قرب بغداد، ولم يبق من قوة في العالم الإسلامي يمكن أن تدعم الخليفة سوى الشام ومصر، فأعاد الخليفة تسيير رسوله نجم الدين البادرائي لإعادة الصلح وتثبيته بين الناصر يوسف والمعز آيبك[5]، وتمكن رسول الخليفة من عقد صلح بينهما تقرر فيه:

ـ إعتراف الناصر يوسف بسلطة آيبك، وبسيادة المماليك على مصر وبلاد الشام حتى نهر الأردن على أن تدخل مدن غزة وبيت المقدس ونابلس والساحل الفلسطيني كله في حوزته.

---

١ المصدر نفسه صـ٣٩٩.

٢ تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام صـ٣٩٩.

٣ المصدر نفسه صـ٣٩٩.

٤ المصدر نفسه صـ٣٩٩.

٥ العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (١ ـ ٤٠٠).

ـ إعتراف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام والواضح أن موجة الرعب التي أثارها المغول أثناء زحفهم من جوف آسيا بإتجاه العالم الإسلامي، وأخبار وحشيتهم جعلت الطرفين يستجيبان بسهولة لدعوة الخليفة، وكان المعز آيبك قد استغل إنتصاره على الناصر يوسف، وإزدياد خطر المغول وتهديدهم لبلاد الشام ومصر، فتخلص من شريكه في الحكم، وهو الأشرف موسى، فحذف إسمه من الخطبة، وقبض عليه، وسجنه في قلعة الجبل وذلك في عام ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، واستقل بالسلطنة[١]. ومهما يكن من شيء فقد إتضح للملك الفرنسي واللاتيني أنه بوسع المسلمين في مصر والشام إذا إتحدت جهودهم، واتفقت كلمتهم، أن يدفعوا عنهم خطر الجماعات الصليبية وأن يعملوا على مضايقتها بشتى الوسائل، وكان الصلح التي تم بين الناصر والمعز آيبك في صفر ٦٥١هـ/أبريل ١٢٥٣م بمثابة ضربة وجهت إلى قلب القوى الصليبية وإلى لويس التاسع نفسه، إذ أنه أتاح الفرصة للناصر يوسف بعد أن فرغ من جميع ما يشغل باله، لتلقين الفرنج درساً قاسياً[٢]، وكان من الطبيعي أن يبدأ الصدام بين قوات كل من الناصر يوسف ولويس التاسع، بعد أن كشف الأخير عن نياته واتخذ من أمراء مصر حلفاء له ضد خصومهم في الشام وساعد على ذلك أيضاً أن قوات صاحب حلب كانت ترابط قبالة غزة على مقربة من المعسكر الصليبي يافا، ومع أن هذا الصدام لم يكن فيه معركة حاسمة، إلا أنه كان مقدمة أو بداية لسلسلة من الهجمات الشديدة التي ستكيلها القوات الناصرية للصليبيين وولاياتهم بعد إقرار الصلح بينها وبين مصر[٣]. لقد فشل لويس التاسع في الاستفادة من الإنشقاق الذي حدث بين الشام ومصر إلا أنه اضطر أخيراً العودة إلى فرنسا، فغادر فلسطين في ربيع الأول سنة ٦٥٢هـ/٢٤ نيسان ١٢٥٤م مجروحاً في كرامته وعزته وكبريائه بعد هزيمته في مصر، وكان ذلك إيذاناً بإضمحلال الروح الفرنجية العسكرية وموتها فيما بعد في وقت كانت تكابد فيه طور النزع الأخير[٤].

---

١ تاريخ الأيوبيين في مصر والشام صـ٤٠٠.

٢ العدوان الصليبي على بلاد الشام صـ١٩٢.

٣ المصدر نفسه صـ٢٠٠.

٤ معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج صـ٧٨.

٥ ـ تمرد القبائل العربية ضد المماليك في مصر: ومن المشاكل التي اعترضت السلطان آيبك، هي ثورة بعض القبال العربية أو ما يسمى بالعربان في مصر سنة ١٢٥٣م. من المعروف أن القبال العربية استوطنت مصر بعد الفتح الإسلامي وتأثرت بالبيئة المصرية الزراعية، وأخذت تتحول تدريجياً إلى شعب زراعي مستقر، ولا سيما في أقاليم الصعيد والشرقية وأطلق عليهم إسم العرب المزارعة، وكان هؤلاء الأعراب يقومون بفلاحة الأرض على مقربة من القرى القديمة الآهلة بالفلاحين من أهالي البلاد، غير أنه يلاحظ أن هؤلاء الأعراب كانوا يتمتعون بمركز إجتماعي أعلى مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التي كانوا يؤدونها للدولة في وقت الحرب ولا سيما إبان الحروب الصليبية وكان مشايخ العربان تقع عليهم تبعة حفظ النظام في القرى والأرياف كذلك مساهمتهم في الإنتاج الزراعي ودفع الخراج، وكان تعسف أمراء المماليك في تحديد أثمان المنتجات الزراعية وإحتكارها والتلاعب في أسعارها أحياناً، من الأسباب التي دفعت بهؤلاء المزارعين العرب إلى القيام بثورات متعددة طول العصر المملوكي وهذه الثورات عرفت في الكتب المعاصرة باسم ((فساد العربان))، وكانت تنتهي في العادة بهزيمة العرب، نظراً لبراعة المماليك في فنون القتال[١]، وتجريد العرب من وسائل الدفاع المؤثرة، ففي منشور صدر في عصر المماليك جاء ما يلى: فلا يمكن أحداً من العربان ولا من الفلاحين أن يركب فرساً فإنما يعدها للخيانة مختلساً ولا يكون لها مرتبطاً ولا محتسباً، وكن لهم ملاقياً مراقباً، فمن فعل ذلك فانتقم منه بما رسمنا معاقباً ولا تمكنهم من حمل السلاح، ولا ابتياعه ولا استعارته ولا استيداعه وتفقد من بالأقاليم من تجارة وصناعة فخذ بالقيمة ما عند التجار، وأقمع بذلك نفس الفجار وأخرم نار العذاب على من أخرم لعمل ذلك النار[٢]. وورد في منشور آخر ما يلي: ولا يمكن أحداً من العربان بجميع الوجه القبلي أن يركب فرساً ولا يقتنيه ويكفي بذلك الأيدي المعتدية فإن المصلحة لمنعهم من ركوبها مقتضية ومن وجد من العربان خالف المرسوم الشريف من منعه من ركوب الخيل كائناً من كان ضرب عنقه وأرهقه من البطش بما أرهقه ليرتجع به أمثاله، ولا

---

١ قيام دولة المماليك الأولى صـ١٢٩.

٢ صبح الأعشى نقلاً عن تاريخ القبائل العربية، محمود السيد صـ١٢٤.

يتسع لأحد في الشرق مجاله[١]، ويرجع أسباب الصراع القائم بين العرب والمماليك إلى أن المماليك الذين أستولوا على الحكم لم يكونوا من أهل البلاد وإنما كانوا مجرد وافدين لأغراض حربية، فحسب، كما أنهم لم يرتبطوا مع الشعب المصري بروابط المصاهرة والنسب وظلوا منعزلين عن أفراد الشعب ومع ذلك فإنه إذا كان للمماليك دور فعال في الدفاع عن مصر وحمايتها من أعدائها فإن للمصريين والعرب دورهم أيضاً في الدفاع بنفس القدر الذي كان للمماليك ولذلك فقد رأى العرب أنهم أحق من المماليك الغرباء بحكم مصر[٢]، فقامت الثورات ضدهم وأستخدم المماليك في قمع تلك الثورات وسائل متعددة تنطوي على القسوة والقهر، من وسائل قتل وتعذيب معروفة في ذلك العهد وقد أدت هذه السياسة إلى هجرة عدد كبير من المزارعين إلى المدن الكبرى بغية التسول أو السرقة أو الإشتراك في المنازعات والإضطرابات الداخلية التي كانت بين أمراء المماليك، وكانت دوافع تلك الثورات اقتصادية وسياسية، ولا شك أن الدافع السياسي وسعي بعض القبائل العربية للقضاء على حكم المماليك ولّد ردة فعل لديهم مما جعلهم يستخدمون سياسة العنف والقسوة في قمع الثورات خوفاً على سلطانهم وأول وأخطر ثورة قام بها الأعراب أيام المماليك، هي الثورة التي قاموا بها في عهد السلطان أيبك التركماني عام ٦٥١هـ /١٢٥٣م وأسباب هذه الثورة ترجع إلى عوامل اقتصادية وسياسية كما أسلفنا، فالمماليك منذ أن أنتصروا على الأيوبيين في وقعة العباسية وتدخلت الخلافة في صالحهم اعتقدوا أن البلاد وما فيها صارت لهم ولا منازع، فبالغوا في الفساد والاستهتار وزيادة الضرائب، إلى درجة أن بعض المؤرخين أمثال المقريزي وأبي المحاسن، فضلوا عليهم الصليبيين وقالوا لو أن الفرنج ملكوا مصر ما فعلوا فعلهم[٣].وهذا كلام لا يستقيم أمام الوقائع التاريخية فالفرنج لما تمكنوا من ثغر دمياط في الحملة الصليبية، عملوا ما تقشعر منه الأبدان وتشيب منه الرؤس، وفصلنا كثيراً من أعمال الفرنج في كتبنا السابقة عن الحروب الصليبية، وقد حاول بعض المؤرخين

١ المصدر نفسه صـ١٢٥.

٢ تاريخ القبائل العربية، د. محمود السيد صـ ١٢٥، ١٢٦.

٣ السلوك (١ ـ ٢٨٠)، النجوم الزاهرة (٧ ـ ٩)، قيام المماليك صـ ١٣٠.

أن يقدم لنا صفحات التاريخ المملوكي بلون أسود مظلم قاتم، ومع اعترافنا بالحقيقة المرّة أن تمزقاً كان يقوم بين طوائف المجتمع في عهد المماليك وبين الأمراء المماليك أنفسهم وولاءتهم المتعددة، فإن إشراقة من الإيمان تطل علينا وشموعاً تضاء في دهاليز الذات لدى هذا القائد أو ذاك، عندما يمس الإيمان شغاف قلبه، ويحرّك القرآن فيه روح الجهاد والاستشهاد، إن من التجني أن ننسى الدور الرائد الفذ الذي قام به الظاهر بيبرس والمظفر قطز في قيادة جيش إسلامي وقف كالطود الشامخ في وجه الزحف التتري، الذي كان يستهدف عقيدتنا، وديارنا وأمتنا ويسى لإجتثاث ذلك كله من الوجود، وكانت النتيجة إندحار الغزاة وهزيمة المعتدين بوحدة الصف ودافع الإيمان الصادق المتين[١].إن معركة عين جالوت تمثل معلماً مضيئاً في خضم الظلمات ومثلها معالم أخرى، كتحرير بلاد الشام من المشروع الصليبي في عهد المنصور بن قلاوون والمدارس التي بنيت والمكاتب التي أوقفت والمساجد التي شيدت وصرح الخير والبر والمرحمة، والحركة العلمية الموسوعية التي قادها علماء ذلك العصر، كالنووي وابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن كثير والمزي والسبكي والمقريزي وابن خلدون والسيوطي وغيرهم كثير، وهذا ما سوف نعرفه في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

الحقيقة هناك تجاوزات حدثت في عهد المماليك منها استخدام العنف الغير مبرر ضد المعارضين مما ولّدت ردة فعل عكسية قال أبو المحاسن: إن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق، وظلوا إلى أن مات السلطان أيبك وهم يسمعونه ما يكره حتى في وجهه إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة[٢].وتزعم تلك الثورة الشعبية شريف علوي وهو حصن الدين بن ثعلب الذي طمع في السلطنة، وصرح بأن ملك مصر يجب أن يكون للعرب وليس للعبيد الأرقاء[٣]، وأقام دولة عربية مستقلة في مصر الوسطى، وفي منطقة الشرقية بالوجه البحري وكانت قاعدة هذه الدولة بنواحي الفيوم في بلدة تعرف بذروة سريام أو ذروة الشريف ((نسبة إليه)) وتقع بين النيل وترعة المنهى التي هي الآن بحر يوسف[٤].

١ تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء صـ ١٨٠.
٢ النجوم الزاهرة (٧ ـ ١٣).
٣ القبائل العربية صـ ١٣١.
٤ التعريف بالمصطلح الشريف صـ ١٨٨.

واتصل الشريف حصن الدين بالملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب الشام يطلب مساعدته في محاربة أيبك في ذلك الوقت، إذ كانت رسل الخليفة المستعصم قد تدخلت لحسم النزاع بينهما وكان العرب يومئذ في كثرة من الرجال والخيل والمال بفضل الله ثم مشاركتهم في حروب الصليبيين، فكونوا جيشاً كبيراً والتفوا حول زعيم حصن الدين وحلفوا له، واضطر السلطان أيبك أن يرسل حملة تأديبية للقضاء على هذه الثورة، ومن عجب أن يسند قيادتها إلى منافسه أقطاي وذلك فيما يبدو لمهارته الحربية، وخرج أقطاي من القاهرة بخمسة الآلاف فارس من خيرة المماليك وتوجه إلى الشرقية حيث كانت أكبر مظاهر العصيان، وعلى الرغم من قلة عدد المماليك بالقياس إلى العرب، تغلب المماليك بسبب تفوقهم الحربي ومهارة قائدهم أقطاي، وتهدمت المقاومة العربية في بلبيس سنة ١٢٥٣م[١]، غير أنها بقيت على حالها في مصر الوسطى، حيث ظل حصن الدين طليقاً وأقام حكومة مستقلة هناك ولم يتمكن أيبك ومن جاء بعده من سلاطين من القبض عليه إلى أن خدعه السلطان بيبرس البند قداري وقبض عليه وشنقه بالإسكندرية[٢]، وكيفما كان الأمر في نهاية الأمير حصن الدين، فالمهم هنا أن أيبك تغلب على أحد العناصر المهددة بقيام دولة المماليك واستقرارها في مصر[٣]، وذكر المقريزي في السلوك أن من نتاج ثورات العرب ضد المماليك: أن تبدد شمل عرب مصر وخمدت جمرتهم من حينئذ[٤].

٦ ـ **خطر زملائه المماليك ومقتل الفارس أقطاي**: ومن العوائق التي هددت حكم أيبك ودولته الناشئة، خطر زملائه المماليك البحرية وزعيمهم فارس الدين أقطاي وكان أيبك يتوجس خيفة من هذه الطائفة لعلمه بقوتها وخطرها، ومن ثم أخذ يعمل على تقوية نفسه، فأنشأ فرقة من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة إلى لقبه"الملك المعز" كما عين مملوكه قطز المعزى نائباً للسلطنة بمصر، ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة، وعزل الملك الأيوبي الطفل موسى شريكه في

١ السلوك(٣٨٧/١).

٢ التعريف بالمصطلح الشريف صـ١٨٨ قيام دولة المماليك صـ١٣٢.

٣ قيام دولة المماليك صـ١٣٢.

٤ تاريخ القبائل العربية صـ١٣٣.

الحكم، وانفرد بالسلطنة[1]، على أن هذه الإجراءات كلها لم تكن إلا مجرد احتياطات شكلية لم تقلل من خطر أقطاي وزملائه البحرية، ويجمع المؤرخون على أن أقطاي وصل إلى قمة المجد خصوصاً بعد تغلبه على ثورة العرب، وأصبح لا يظهر في مكان إلا حوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين كأنه ملك متوج، وكانت نفسه ترى أن ملك مصر لا شيء عنده وكان كثيراً ما يذكر الملك المعز في مجلسه ويستنقصه ولا يسميه إلا أيبكاً، وقد بلغ ذلك المعز فكان يغضى عنه لكثرة خشداشيته البحرية[2]، وتلقي المصادر التاريخية الضوء على القوة التي كان يمارسها ويتمتع بها أقطاي، فالمقريزي يقول عنه: واجتمع الكل على باب الأمير فارس الدين أقطاي، وقد استولى على الأمور كلها، وبقيت الكتب إنما ترد من الملك الناصر وغيره إليه، ولا يقدر أحد يفتح كتاباً ولا يتكلم بشيء، ولا يبرم أمراً إلا بحضور أقطاي.

لكثرة خشداشيته[3]، وابن تغري بردي يقول عنه: فإنه كان أمره قد زاد في العظمة والتفت عليه المماليك البحرية وصار أقطاي المذكور يركب بالشاويش وغيره من شعار الملك وحدثته نفسه بالملك وكان أصحابه يسمونه الملك الجواد[4]، فيما بينهم وعملوا على تزويجه من أحد أميرات البيت الأيوبي، وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود ملك حماة، بل إنهم تآمروا على قتل أيبك ليخلو الجو لأقطاي[5]، قال الذهبي عنه: فعظم، وصار نائب المملكة للمعز وكان بطلاً شجاعاً جواداً، مليح الشكل، كثير التحمل، أبيع بألف دينار، وأقطع من جمله إقطاعه الإسكندرية، وكان طائشاً ظلوماً عمّالا على السلطنة، بقي، يركب في دست الملك، ولا يلتفت على المعز، ويأخذ ما شاء من الخزائن، بحيث إنه قال: اخلوا لي القلعة حتى أعمل عُرس بنت صاحب حماة بها[6]، وفهم منها المعز أنه مستهدف لإزالته من الحكم فقرّر التخلص منه، واتفق مع مماليكه على ذلك وأرسل إلى أقطاي يستدعيه موهماً له أنه يستشيره

١ قيام دولة المماليك الأولى صـ١٣٣.
٢ المصدر نفسه صـ١٣٣.
٣ الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية صـ٤١٢.
٤ النجوم الزاهرة(١٠،١١/٧).
٥ قيام دولة المماليك الأولى صـ١٣٣.
٦ سير أعلام النبلاء(١٩٧/٢٣).

في مهمات من الأمور، وأكمن له كميناً من مماليكه وراء باب قاعة الأعمدة بالقلعة وقرر معهم أنه إذا مَرَّ مجتازاً بالدهليز يبتدرونه بسرعة، فلما وردته إلى أقطاي رسالة المعز بادر بالركوب في نفر يسير من مماليكه من غير أن يعلم أحد من خشداشيته[1]، لثقته بتمكن حرمته وطلع القلعة آمناً ولم يدر بما كان له كامناً فلما وصل إلى باب القلعة مُنع مماليكه من الدخول معه، ووثب عليه المماليك المعزِّية فأذاقوه كأس المنية[2] وكان قتله يوم الاثنين حادي عشرين من شعبان وامر المعز بغلق باب القعلة، فركبت مماليكه وحاشيته وكانوا سبعمائة فارس ومعهم جماعة من البحرية وقصدوا قلعة الجبل، بناءً على أن المعز قُبض عليه فبينما هم كذلك أرمي لهم برأسه من فوق السور فالتفت بعضهم إلى بعض وقالوا على من تقاتلوا فتفرقوا جميعهم، ولما شاع الخبر بقتله، أجمعوا البحرية على الخروج إلى الشام، وكان من أعيانهم يومئذ ركن الدين بيبرس البندقدار ي، وقلاون الألفي، وسنقر الأسثقر، وبَيْسري، وسِكر، وبرامق[3]، فشمروا ويلاً وخرجوا ليلاً فوجدوا باب المدينة الذي قصدوا الخروج منه مغلقاً، فأضرموا فيه النار، وهو الباب المعروف بباب القارطين فأحرقوه، وخرجوا منه نحو الشام، فسمي من يومئذ الباب المحروق[4]، وقصد البحرية الملك الناصر صاحب الشام ليكونوا عنده ولما أصبح المعز، بلغه هروبهم من المدينة فأمر بالحوطة على أملاكهم وأموالهم ونسوانهم وغلمانهم واتباعهم، وإسبتصفيت أموالهم وذخائرهم وشؤنهم وخزائنهم، واستتر من تأخر منهم، وحمل من موجود الأمير فارس أقطاي الجمال المستكثرة من الأموال ونودي على البحرية في الأسواق والشوارع، وتمكن الملك المعز من المملكة وارتجع ثغر الاسكندرية إلى الخاص السلطاني، وأبطل ما قرره من الجبايات وأعفى الرعية من المصادرات والمطالبات وأما البحريةّ، فإنهم وفدوا على الملك الناصر، فأحسن إليهم، وأقبل عليهم وأعطى كلاً منهم إقطاعاً يلائمه، ثم عزم على قصد الديار المصرية، فجرد عسكراً صحبة البحرية فساروا ونزلوا الغور واتخذوا العوجاء منزلا، وبلغ المعزّ مسيرهم إليه واتفاقهم عليه، فبرز بالعساكر المصرية ومعه

---

١ خداشيته: الزميل في الخدمة.

٢ نزهة الأنام في تاريخ الإسلام صـ٢٢٠.

٣ نزهة الأنام في تاريخ الإسلام صـ٢٢٠.

٤ المصدر نفسه صـ٢٢٠ دراسات في تاريخ مصر سحر عبد العزيز صـ٢٣٩.

جماعة ممن حضر إليه من العزيزية، فنزل الباردة بالقرب من العباسية وانقضت هذه السنة وهو مخيم بها[1]، وفي هذه السنة وصل الشريف المرتضى من الروم ومعه بنت السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسروا صاحب الروم وكان الناصر قد خطبها لنفسه، فزفت إليه بدمشق، ودخل بها واحتفل بها احتفالا كبيراً[2].

وتدخل الخليفة العباسي من جديد بين الأيوبيين والمماليك ووصل نجم الدين البادرائي لتوسط بين الطرفين ونجح في تجديد معاهدة الصلح على أن:

ـ يستعيد المعز أيبك ساحل بلاد الشام.

ـ ألا يأوي الناصر يوسف أحداً من المماليك البحرية.

٧ ـ مقتل السلطان أيبك وشجرة الدر: يبدو أن أيبك أخذ يشعر بما بين زوجته شجرة الدر والمماليك البحرية بالكرك من مراسلات واتفاقات، فعزم على الزواج من غيرها وأرسل سنة ١٢٥٦م ميلادية إلى بدر الدين لؤلؤ الاتابكي صاحب الموصل يطلب إليه حلفا زواجيا لم يعلم عنه إلا ما تداولته المراجع من خطبته أيبك لابنة بدر الدين وليس من المعقول أن تكون الخطبة قاصرة على مجرد الرغبة في الزواج إذ ربما أراد من وراء ذلك الحلف معرفة تحركات المغول عن طريق صاحب الموصل، وكيفما كان الأمر فقد كانت هذه المسألة بداية الخاتمة لعهد أيبك، وذلك لئن شجرة الدر لما علمت ما يبيت لها أخذت هي تتزعم حركة المعارضة الداخلية والخارجية لسلطنته، فقام بعض من بقي في مصر من البحرية بمعارضة مشروع الزواج، فقبض أيبك على عدد كبير، منهم أيدكين الصالحي، وسيرهم لقلعة الجبل لسجنهم في الجب، فلما وصلوا إلى قرب نافذه القصر السلطاني حيث سكنت شجرة الدر، احنى الأمير أيدكين رأسه احتراماً وقال بالتركية(والله يا خوند[3]ما عملنا ذنب وجب مسكناً ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل، ما هان علينا لأجلك، فانا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم"الصالح أيوب"، فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين، فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها بما معناه"قد سمعت كلامك" وعندما نزلوا بهم إلى الجب قال

١ المصدر نفسه صـ٢٢١.

٢ التحفة الملوكية في الدولة التركية، بيبرس المنصوري صـ٣٦٠.

٣ الخوند: السيد أو الأمير ويخاطب به الذكور أو الإناث.

أيدكين؛ إن كان قد حبسنا فقد قتلناه[1]، ومعنى هذا أن شجرة الدر كانت قد بيتت هـي الأخـرى لايبـك جزاء وفاقاً، وأن قبضه على أولئك لم يكن مجرد معارضتهم في الزواج، بل لأنه علم بمؤامرتهم، فـأراد أن يقضي على الحركة كلها بالفصل بين أمراء المماليك وزعيمتهم غير أن شجرة الدر كانت قد دبـرت مـا لم يكن في الحسبان إذ أرسلت سراً أحد المماليك العزيزية إلى الملك الناصر يوسـف بهديـة ورسـالة تخـبره فيها أنها عزمت على قتل أيبك والتزوج منه وتمليكه عـرش مصر، ولكـن النـاصر أعـرض عنهـا خوفـاً أن يكون في الأمر خدعة، ولم يجبها بشيء وعلم بدر الدين لؤلؤ باخبار هذه المفاوضات السرية فبعث بهـا إلى أيبك ينصحه أن يأخذ حذره، وخاف أيبك على حياته فترك القلعة وأقام بمناظر اللـوتي وصـمم عـلى قتل زوجته قبل أن تقضي عليه وأخذ الزوجان يتسابقان في نسج المؤامرات بعد القبض على البحرية في القاهرة، وانتهى السباق بانتصار المرأة في ميدانها، إذ أرسلت شجرة الدر إلى أيبك رسالة رقيقة تتلطـف به وتدعوه بالحضور إليها بالقلعة، فاستجاب لدعوتها وصعد إلى القصر السلطاني بالقلعة حيث اعـدت له شجرة الدر خمسة من الغلمان الأشداء لاغتياله، مـنهم محسـن الجـوجرى ونصر العزيـزي، وسـنجر وكان آخرهم من مماليك أقطاي[2]، وقد قام هؤلاء الغلمان بما أمروا به وقتلوه في الحمام في أبريـل سـنة ١٢٥٧م،٦٥٥هـ[3]، قال الذهبي عن السلطان المعز كان ديناً عاقلاً، كريماً، تاركاً للشرب[4].

حاولت شجرة الدر إخفاء واقعة القتل، وأمرت بتجهيز جثمان عز الـدين أيبـك بملابس لائقة ووضعه على فراشه، والإدعاء بأنه سقط من فـوق جـواده أثنـاء عـدوه، وتسبب ذلك في إصابات أنهت حياته، وسرعان ما أنتشر نبأ وفاة السلطان وبدأ أمـراء المماليك يتوافدون على القصر، وكانت شجرة الدر ما تفتأ تـروي واقعـة سـقوطه مـن على ظهر جواده، لكنهم استمعوا إليها في ريبة، فقد شهد أيبك معـارك كثـيرة خاضـها

---

١ السلوك(٤٠١/١ ـ ٤٠٢).

٢ قيام دولة المماليك الأولى للعبادي صـ١٣٩.

٣ المصدر نفسه صـ١٣٩.

٤ سير أعلام النبلاء(١٩٨/٢٣).

وهو يحارب من على ظهر جواده لكنها في كل مرة كانت تصر وتؤكد الواقعة[1]، وأحيط بشجرة الدر، وواجها أمراء المماليك فلم يكن أمامها إلا أن تعترف بأنها أرادت الإنتقام، لكن لم يخطر ببالها أبداً أن ذلك سيؤدي إلى وفاته وتشاور أمراء المماليك فيما يصنعون، لقد وقفوا مع شجرة الدر بادئ الأمر، وصنعوا منها ملكة وسلطانة، وأحاطوها برعايتهم وحمايتهم، حتى في أصعب الأوقات، وباركوا زواجها من عز الدين أيبك، وساعدوها على أن تصبح زوجة السلطان، فكيف ترتكب هذه الفعلة النكراء؟ وتتنكر على هذا النحو البغيض على أنهم انقسموا على امرهم، وانحاز بعض الأمراء إلى جانبها وأعادوا ما كان لأيبك من قسوة وغلطة وجبروت، فضلاً عن أن وجود شجرة الدر يعتبر ضرورياً كرمز للشرعية، فهي أرملة نجم الدين أيوب وأم أبنه خليل، ولها من الأيادي على مصر وعلى المماليك انفسهم الشيء الكثير البادي للعيان ورأى البعض الآخر أنها قد ارتكبت جريمة مرعبة، وكاد الأمر أن يتطور إلى حرب بين الفريقين، وأخيراً انتصر أعداؤها وحُبست في أحد أبراج القلعة، ونودي بعلي، بن عز الدين أيبك السلطان الراحل، سلطاناً جديداً ليخلف والده الراحل ويحدثنا أحد المؤرخين أن شجرة الدر كانت قوية في مواجهة الموت كما كانت قوية في مواجهة المدلهمات، فلمّا ايقنت من نهايتها أسرعت إلى خزانتها واستخرجت حليها ومجوهراتها جميعاً، وسحقتها سحقاً حتى لا تتزين بها غريمتها أم على زوجة السلطان الأولى وفي هذه الرواية شك كبير كذلك؛ فكيف لشجرة الدر، وهي سجينة في برج بالقلعة أن تسرع إلى خزنتها وتستخرج حليها، ثم تسحقها جميعاً حتى لا تتزين بها غريمتها أم على كما يقول المؤرخ[2]؟ وفي خارج القصر هدأت الجموع التي أثارها انتشار النبأ ورضي الجيش بالسلطان الجديد بعد أن كان قد انقسم على نفسه بين مؤيد لشجرة الدر ومنكر لها، وتوقفت أعمال الشغب التي كانت قد انتشرت في القاهرة، وتجنّب أمراء المماليك شبح الفتنة التي كانت، تتهددهم، واقتيدت شجرة الدر إلى بلاط السلطان الجديد حيث كانت غريمتها أم على، زوجة أيبك الأولى قد أصبحت منها أم السلطان الجديد، وتمايلت أم علي فرحاً فكانت تنتظر فرصة

---

١ شجرة الدرُّ قاهرة الملوك ومنقذة مصر صـ٨٥.

٢ شجرة الدُّر قاهرة الملوك ومنقذة مصر صـ٨٦.

كهذه منذ سبع سنوات، منذ أن هجرها زوجها أيبك وهجر معهما أبنهما علي. إن ساعة الإنتقام قد أزفت، وأمرت خادمات القصر بالدخول على شجرة الدر وضربها بالقباقيب حتى تفارق الحياة[1]، يقول المقريزي: فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق، وليس عليها، سوى سروال وقميص، فبقيت في الخندق أياماً وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها ثم دفنت بعد أيام ـ وقد نتنت ـ وحملت في قفة، بتربتها[2]، قال عنها الذهبي: ودفنت بتربتها بقرب قبر السيدة نفيسة، وقيل: إنها أودعت أمولاً كثيرة فذهبت، وكانت حسنة السيرة، هناك لكن هلكت بالغيرة[3]، وقال ابن العماد فيها: كانت بارعة الحسن، ذات ذكاء وعقل ودهاء نالت من السعادة أعلى المراتب، بحيث أنها خُطِبَ لها على المنابر، وملَّكوها عليهم أياماً، فلم يتم ذلك، وتملك المعز آيبك فتزوج بها وكانت ربما تحكم عليه، وكانت تركية ذات شهامة وإقدام وجرأة وآل أمرها إلى أن قتلت[4]. وأما غريمتها أم السلطان الجديد، أم علي، فكانت قد نذرت أن تدعو كل سكان القاهرة، إلى وجبة من الحلوى في نفس اليوم الذي تتخلص فيه من غريمتها، وعندما ماتت شجرة الدر، أمرت طهاة القصر بإعداد تلك الوجبة، لكن الوقت لا يسمح بالإنتهاء في نفس اليوم، فجاءتهم بوصفة طهي بسيطة للغاية، كما كميات ضخمة الخبز، يجري تسخينها إلى درجة الإحمرار وتغمر في اللبن والعسل، ثم تغطى بطبقة سمكية من اللوز والزبيب والصنوبر، وإلي وجبة الحلوى اللذيذة التي تقدم في المطاعم في أيامنا هذه، وقد سميت بإسم أول من صنعتها، أم علي[5].

٨ ـ سلطنة على ابن المعز ثم تولي سيف الدين قطز: صمم المماليك المعزية، وعلى رأسهم سيف الدين قطز، على أن يقيموا على العرش الذي بات شاغراً بمصرع آيبك صبياً في الخامسة عشر من عمره هو (نور الدين علي)) ابن سيدهم المعز آيبك، وتم ذلك في ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م ولقبوه الملك المنصور علي، وقد رفض

١ وسير أعلام النبلاء (١٩٩/٢٣).
٢ السلوك (٤٩٤/١).
٣ سير أعلام النبلاء (٢٠٠/٢٣).
٤ شذرات الذهب (٤٦٤/٧).
٥ شجرة الدر، قاهرة الملوك ومنقذة مصر صـ٨٧.

المماليك الاعتراف بالسلطان الصبي، وتجسد رفضهم في عدة إضطرابات عاصفة، استنجدت بعض الفئات المتنازعة بملوك بني أيوب في بلاد الشام، وحاول المغيث عمر صاحب إمارة الكرك ـ في الأردن حالياً ـ غزو مصر مرتين، لكن الفشل كان من نصيبه[1]، بيد أن هذه الاضطرابات كانت فرصة جديدة لظهور نجم الأمير سيف الدين قطز، فقد قام قطز بالقبض على الآتابك سنجر الحلبي وحبسه في الجب بقلعة الجبل، لأنه كان يطمع في السلطنة بعد مقتل المعز آيبك، ولأنه كان يتحين الفرصة للوثوب على العرش، وأدى ذلك إلى مزيد من الاضطرابات والفوضى، فقد هرب عدد من المماليك البحرية إلى جهة الشام، وطاردهم المماليك المعزية وقبضوا على عدد منهم وأودعوهم سجون القلعة، وخلا الجو لسيف الدين قطز فصار نائب السلطان:.. وصار مدبر دولة الملك المنصور علي[2]. وكان جلسو السلطان الصبي على العرش مسألة قصد بها كسب الوقت حتى يمكن لواحد من كبار المماليك الطامعين في عرش السلطنة أن يحسم الصراع لصالحه، وكان هذا مشهداً تكرر كثيراً طوال عصر سلاطين المماليك، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن هذه كانت ممارسة سياسية حظيت بإعتراف الجميع طوال ذلك العصر ومن المهم أن نشير إلى أن المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثة العرش، إذ طبيعتهم العسكرية من ناحية، وشعورهم بأنهم جميعاً سواء في ناحية أخرى، جعل كبار أمرائهم يعتقدون أنهم جميعاً يستحقون العرش الذي يفوز به اقواهم، واقدرهم على الإيقاع بالآخرين تحقيقاً لمبدأ (الحكم لمن غلب)، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن ظل عرش السلطنة على الدوام محل التنافس والمنازعات بين كبار الأمراء، لا سيما عندما يخلو العرش بسبب موت السلطان، وكان هذا هو الحال عندما مات عز الدين آيبك ولم يشأ ((سيف الدين قطز)) أن يتعجل الأمور ويواجه المنافسين، فأمسك بيده زمام السلطة الفعلية تاركاً للسلطان الصبي شعار السلطنة ولقبها.. ولا شيء أكثر من ذلك وبات عرش مصر قاب قوسين أو أدنى، ثم جاءت الفرصة تسعى إلى قطز، وكان سيف الدين قطز مشغولاً بترتيب الأوضاع

---

١ السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٨٠.

٢ المصدر نفسه صـ٨١، السلوك (١ ـ ٤٠٥).

السياسية الداخلية لصالحه[1]، على حين كانت الإشاعات تملأ سماء القاهرة بأن السلطان الصبي يريد خلع قطز مملوك أبيه وصاحب اليد البيضاء في توليه عرش البلاد، وإجتمع الأمراء في بيت أحد كبارهم، وتكلموا إلى أن نجحوا في إصلاح الأمور بين الملك المنصور علي وبين مملوك أبيه الأمير قطز،.. وخلع عليه وطيب قلبه وهكذا توطدت مكانة سيف الدين في الدولة[2]، وفي الوقت نفسه كانت الأحوال متردية تماماً بسبب الفتن التي أثارتها طوائف المماليك في القاهرة، كما كان خطر محاولات الغزو الفاشلة التي قام بها المغيث عمر في ذي القعدة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م وفي ربيع الأول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م يقلق باله، بحيث خرج في المرتين للقاء المماليك البحرية وحليفهم الأيوبي وبفضل شجاعة ((سيف قطز)) تم القضاء عل هذا الخطر الأيوبي بيد أنه كان على قطز أن يواصل ترتيب أمور المملكة في الداخل وبعد أن واجه الخطر الخارجي، فقد قبض على جماعة من الأمراء لميلهم إلى ((الملك المغيث عمر)) في هذا الشهر نفسه، وهم: الأمير ((عز الدين آيبك الرومي الصالحي))، والأمير ((سيف بلبان الكافوري الصالحي الأشرفي))، والأمير ((بدر الدين بكتوت الأشرفي))، والأمير ((بدر الدين بلغان الأشرفي)) وغيرهم، وضرب أعناقهم في السادس والعشرين من ربيع الأول واستولى على أموالهم كلها[3]، وبذلك إزدادت القامة السياسية لسيف الدين قطز طولاً، ولكن الدولة التي يحكمها سلطان في سن الصبى بدت واهنة ضعيفة وغير قادرة على تحمل مؤامرات الصغار ولعبهم بأقدار البلاد والعباد، ثم بدا صدى طبول الحرب التتارية يتردد على حدود السلطنة الوليدة، ولم يكن بوسع السلطان الصبي ((نور الدين علي)) أن يفعل شيئاً إزاء هذا الخطر الداهم، فقد كان يقضي وقته في ركوب الحمير والتنزه في القلعة.. ويلعب بالحمام مع الخدم[4]، ومع كل خبر جديد عن وحشية التتار كانت الأحوال تزداد إضطراباً والقلق يفترس نفوس الناس[5]. وتعين على الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة أن يخطو

١ المصدر نفسه صـ٨١.
٢ النجوم الزاهرة (٧ ـ ٤٣).
٣ السلوك (١ ـ ٤١١)، السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٨٣.
٤ السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٨٣.
٥ المصدر نفسه صـ٨٣.

الخطوة الأخيرة نحو العرش من ناحية وتدعيم نفوذه السياسي الداخلي من ناحية أخرى والاستعداد لمواجهة التتار، من ناحية ثالثة[1]، ومع اقتراب جحافل التتار من الشام أرسل الملك الناصر المؤرخ والفقيه المعروف كمال بن العديم إلى مصر يستنجد بعساكرها وهكذا بدأت الحرب تطل بوجهها المرعب، على الساحة السياسية في مصر، وكان النجم الساطع في تلك الساحة هو الأمير ((سيف الدين قطز))، ولما قدم ابن العديم إلى القاهرة، عقد مجلس بالقلعة حضره السلطان الصبي الملك المنصور نور الدين علي، وحضره كبار أهل الرأي من الفقهاء والقضاة، مثل: قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان سيف الدين قطز بين الحاضرين، وسألهم الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لانفاقها على الجنود فأفتى الشيخ عز الدين بفتوته المشهورة التي يأتي تفصيلها عند الحديث عن عين جالوت بإذن الله تعالى، وكان هذا الاجتماع من الأدوات السياسية التي أحسن سيف الدين قطز استغلالها للوصول إلى هدفه النهائي، عرش مصر وقتال التتار، وكان ذلك الاجتماع الذي عقد بحضور السلطان الصبي آخر خطوات قطز صوب عرش مصر وقتال التتار[2]. وبينما كان هولاكو يجتاح أقاليم العالم الإسلامي الشرقية كان نجم سيف الدين قطز يزداد سطوعاً وتزداد قامته السياسية طولاً، وكأنه على موعد مع التاريخ لكي ينجز مهمته الكبرى في هزيمة الجحافل التتارية الظالمة، لقد استغل قطز إجتماع القلعة لخلع السلطان الصبي، وأخذ يتحدث عن مساوئ المنصور علي، وقال: لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك الصبي صغير لا يعرف تدبير الملك[3]، وساعده على الوصول لهدفه أن مفاسد الملك المنصور علي كانت قد زادت حتى انفض الجميع من حوله واستهتر في اللعب وتحكمت أمه فاضطربت الأمور وجاءت الفرصة تسعى إلى سيف الدين قطز عندما خرج أمرا ء المماليك المعزية والبحرية إلى الصيد في منطقة العباسية بالشرقية وفي غزة، وعلى رأسهم سيف الدين بهادر والأمير علم الدين سنجر الغتمي، في يوم السبت ٢٤ ذو القعدة سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م وقبض

---

١ السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٨٤.

٢ المصدر نفسه صـ٨٨.

٣ السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٨٩، النجوم الزاهرة (٧ ـ ٥٥).

قطز على الملك المنصور وعلى أخيه قاقان وأمهما وإعتقلهم في أحد أبـراج القلعـة، فكانـت مـدة حكـم المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام[1]. وهكذا اكتملت رحلة المملوك صـوب العـرش، وصـار سـلطاناً على الديار المصرية، وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل في نفس اليوم، واتفق الحاضرون على توليته، لأنه كبير البيت ونائب الملك وزعيم الجـيش، وهـو معـروف بالشـجاعة والفروسـية، ورضى بـه الأمـراء الكبار والخوشداشية وأجلسوه على سرير الملك ولقبوه بالمظفر[2].

٩ ـ ترتيب سيف الدين قطز للأمور الداخلية: لم يكن جلوس قطز على عـرش السـلطنة نهايـة لرحلة المملوك إلى عرش السلطان، إذ كان على السـلطان المظفـر سـيف الـدين قطـز أن يوطـد دعـائم حكمه في الداخل قبل أن يتوجه للقاء عدوه في الخارج، فبدأ بتغيير الوزير ابن بنـت الأعـز، وولى بـدلاً منه زين الدين يعقوب عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير، ثم كـان عليـه أن يواجـه معارضـة كبـار الأمـراء الذين قدموا إلى قلعة الجبل، وأنكروا ما كان من قبض قطـز عـلى الملـك المنصـور، ووثوبـه عـلى الملـك، فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة مصر[3] والشام، وقال سيف الدين قطز في سـياق تبريـره لما حدث: وإني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هـذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم[4]، وأخذ يرضي أمراء المماليك حتى تمكن على حد تعبـير المقريزي، وما أن شعر أن سلطته قد رسخت حتى أخذ يتخلص من كـل مـن يمكـن أن يشـكل تهديـداً على عرشه، فأرسل المنصور علي وأخاه وأمه إلى دمياط، واعتقلهم في برج بناه هناك وأطلق عليـه أسـم برج السلسلة، ثم نفاهم جميعاً إلى القسطنطنية، بعد ذلك قبض السلطان سيف الدين قطز على الأمير علم الدين سنجر الغتمي، والأمير عز الدين أيدمر النجيبـي الصغير، والأمير شرف الدين قـيران المعـزي، والأمير سيف الدين بهادر، والأمير شمس الـدين قراسـنقر، والأمـير عـز الـدين أيبـك النجمـي الصـغير، والأمير سيف الدين الدود خال الملك المنصور علي بن المعـز والطـواش شـبل الدولـة كـافور لا لا الملـك

١ السلوك (١ ـ ٤١٧)، النجوم (٧ ـ ٥٥).

٢ السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٩٠.

٣ السلوك (١ ـ ٤١٧ ، ٤١٨)، السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٩٢.

٤ السلوك (١ ـ ٤١٨)، السلطان المظفر صـ٩٢.

المنصور، والطواشي حسام الدين بلال المغيثي الجمدار، واعتقلهم، وهكذا تمكن من التخلص من رؤوس المعارضة، ومن ناحية أخرى، بدأ السلطان المظفر سيف الدين قطز يختار أركان دولتـه ويوطـد دعـائم حكمه، فحلف الأمراء والعسكر لنفسه، واستوزر الصاحب زين الدين يعقـوب بـن عبـد الرفيـع، وأقـر الأمير فارس الدين أقطاي الصغير الصالحي المعروف بالمستغرب أتابكاً وفوض إليه وإلى الصـاحب زيـن الدين تدبير العساكر واستخدام الأجناد، وسائر أمور الجهاد والاستعداد للحرب ضد التتـار، لقـد ضـمن سيف الدين قطز هدوء الأحوال داخل دولته، بيد أنه كان ما يزال متوجساً من ملوك الأيـوبيين في بـلاد الشام، خاصة الناصر يوسف صلاح الدين صاحب دمشق وحلب، وعندما علم بخـبر قـدوم نجـدة مـن عند هولاكو إلى الملك الناصر بدمشق، خاف من عاقبة ذلك وكتب إليه خطاباً رقيقاً يحاول فيه تجنـب المواجهة وأقسم قطز بالإيمان أنه لا ينازع الملك الناصر في الملك ولا يقاومـه، وأكـد لـه أنـه نائـب عنـه بديار مصر، ومتى حل بها أقعده على الكرسي وقـال قطـز أيضـاً: وأن أخترتنـي خـدمتك، وإن إخـترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك عل القـادم عليـك، فـإن كنـت لا تـأمن حضـوري سـيرت لـك العساكر صحبة من تختاره[1]. وهكذا ظهرت من قطز معاني من التضحية والتواضع والحرص على وحدة الصف ساعدته للتصدي للمشروع المغولي وكسره في عين جالوت يأتي الحديث عنه مفصلاً بـإذن اللــه في الفصل القادم.

---

١ السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤.

الفصل الرابع

معركة عين جالوت الخالدة

إنكسار المغول

المبحث الأول

إحتلال المغول لبلاد الشام والجزيرة:

أولاً: صمود ميا فارقين:

انتهى التتار من غارات الاستطلاع في الجزيرة، ومن جمع المعلومات عن أرضها وشعبها وملوكها وكانوا قد فرغوا من أمر بغداد،فوجّهوا جيوشهم بثقلها صوب الجزيرة، وعلى رأسهم القائد العام للعمليات في المنطقة هولاكو خان، لم يضيع التتار الوقت في عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م بعد سقوط بغداد، توجه هولاكو مباشرة إلى الجزيرة، وكان هدفه دينسمر ونصيبين، ومن ثم حرّان، وكلّف ابنه يشموط بقيادة فرقة أخرى من جيش التتار والسير بإتجاه ميّافارقين وكلّف معه القائدين إيلكا نويان وسونتاي نويان، ووجّه فرقة أخرى بقيادة الصالح ابن صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ إلى آمد[١].

١ ـ آمد بمواجهة التتار:في عام ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م كان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن المظفر شهاب الدين صاحب ميّافارقين قد عاد من زيارة منكوقاآن التتار الأعظم، بعد أن قدم له فروض الطاعة، فعلم أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يكاتب أهل آمد لتسليمه المدينة، فطلب نجدة الملك السعيد صاحب ماردين، وأرسل عسكره، فطردوا عسكر سلاجقة الروم واحتلوا آمد[٢]، وفي عام ٥٥٧هـ وبينما كان التتار يحاصرون ميّافارقين، وصل هولاكو إلى آمد واستدعى سيف الدين بن محلي نائب الكامل فيها، فخرج إليه،وطلب منهم هولاكو تسليم المدينة، فلم يمانع، وقام هولاكو بتسليمها إلى ابني كيخسرو سلطان سلاجقة الروم المتوفي، وهما رُكن الدين وعز الدين ولما اقتسما البلاد أصبحت آمد مع رُكن الدين قليبج أرسلان، وفيها نوّابه مع نوّاب التتار، ثم انتقلت بعد مقتله إلى ابنه غياث الدين[٣].

---

١ العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢ ـ ٤٧).
٢ المصدر نفسه (٢ ـ ٤٨).
٣ المصدر نفسه (٢ ـ ٤٨).

٢ ـ تحدي ميّافارقين للتتار:وبعد عودة الملك الكامل من خان التتار إلى ميّافارقين أعلن العصيان على التتار، وحبس نوّابهم وخرج بإتجاه دمشق لمقابلة الملك الناصر يوسف وقال له: إن هؤلاء التتار لا تفيد معهم مُدارة، ولا تنجح فيهم خدمة، وليس لهم غرض إلا في ذهاب الأنفس، والاستيلاء على البلاد، ومولانا السلطان قد بذل لهم الاموال من سنة أثنتين وأربعين ,إلى اليوم (٦٥٦هـ)، فما الذي أثرت فيهم من خلوص المودة؟ فلا يغتر مولانا بكلام بدر الدين ـ صاحب الموصل ، ولا بكلام رسولك ـ الزين الحافظي، فإنهما جعلاك خبزاً ومعيشة وأحذرك كل الحذر من رسولك فإنه لا يناصحك ولا يختارك عليهم، وغرضه إخراج ملكك من يدك وأنا فقد علمت أنني مقتول سواء أكنت لهم أو عليهم، فاخترت بأن أكون باذلاً مهجتي في سبيل الله، وما الانتظار وقد نزلوا على بغداد، والمصلحة خروج السلطان ـ الناصر ـ بعساكره لإنجاد المسلمين وأنا بين يديه، فإن أدركناه عليها فيها، ونعمت وكانت لنا عند الخليفة اليد البيضاء وإن لم ندركه أخذنا بثأره[١].

٣ ـ مشروع الكامل لمواجهة التتار:كانت لدى الكامل رؤية واضحة لموضوع الصراع مع التتار، وقد تجلت في المشروع الذي قدمه للملك الناصر الايوبي عند زيارته له في دمشق، وهو مشروع هجومي وليس دفاعي:

أ ـ أدرك الناصر أن نزول هولاكو على بغداد لحصارها هو الهدف الأكبر للتتار وإنهم بعده سيتوجهون إلى الجزيرة والشام.

ب ـ تأكد الكامل أن سقوط بغداد سيكون نهاية للدولة الإسلامية بكل رموزها ومعانيها وممالكها وإماراتها.

ج ـ لكل ذلك كان مشروعه يبدأ من بغداد، فقد طلب من الناصر يوسف التوجه بجيشه وسيكون الكامل معه إلى بغداد لنجدتها، فمعركة بغداد هي التي ستحسم الصراع مع بغداد.

د ـ كان يبدو من كلام الكامل ثقته ـ إلى حد ـ ما بالنصر، فإن لم يمكن نجدة الخليفة وإنقاذه فالثأر له.

---

١ العلاقات الدولية (٢ ـ ٥٠).

هـ ـ قام الكامل بتحذير الناصر من تضليل بدر الدين لؤلؤ المتعامل مع التتار، ومن خيانة رسول الناصر إلى التتار وزيره الزين الحافظي ((فقد جعلوك خبزاً ومعيشة))[1].

لقد كان الكامل واحداً من الملوك القلّة الذين تجرّؤوا على مجرّد التفكير بالمقاومة وربما كان ذلك لتقديره الصحيح للموقف فقد قتل التتار الملوك المستسلمين والخاضعين والمقاومين على السوء، وهذا ما أثبتت الأيام صحته[2].

٤ ـ **ردّ الناصر على مشروع الكامل:** ما إن علم الملك الناصر بتوجه الكامل المتمرد على التتار نحوه حتى جمع أرباب دولته واستشارهم، فكان رأي الأغلبية منهم استقبال الكامل، والاستماع إلى ما جاء من أجله، بينما عارض ذلك الزين الحافظي والصالح نور الدين بن المجاهد والملك الاشرف بن المنصور صاحب حمص، فإنهم كانوا متفقين مع التتار وقال الزين الحافظي للناصر: متى بلغ هولاكو خروجك إليه جعله سبباً إلى قصد بلادك والمصلحة اعتذارك إليه، وردّه، فلم يمكن الناصر إلا موافقة الجم الغفير، فخرج إليه، وتلقّاه وأنزله بدار السعادة[3]، إن ما نستنتجه من ما دار في مجلس الملك الناصر هو أن أعوان التتار يشكلون حزباً له وجوده حتى في حاشية الملوك، ولكنّهم قلة، وأن معظم الناس كان مشاعرها ضد التتار، وتميل للمقاومة مهما كانت النتائج، لقد استمع الملك الناصر ولم يوافق على مشروع الكامل، فبعد أن عرض الكامل مشروعه للمسير إلى بغداد أيّد جميع الحاضرين في المجلس هذا المشروع، ما عدا حزب التتار، فقد كانت لهم جرأة في المعارضة، أما الملك الناصر، فكان ردّه متخاذلاً أكثر من تخاذله على أرض، إذ عرض على الكامل أن يرسل من طرفه رسولاً ليشفع له عند هولاكو، فأجابه الكامل قائلاً: جئتك في أمر ديني تُعوّضني عنه بأمر دنيوي؟ فقال: متى نزلوا عليك ارسلتُ لك عسكراً. فأجاب الكامل: هذا لا ينفعني حينئذ، إذ لا وصول له إلي[4]، لقد مثل الكامل إرادة الجهاد

---

١ الاغلاق الخطيرة لابن رشد، نقلاً عن العلاقات الدولية (٢ ـ ٥١).
٢ العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢ ـ ٥١).
٣ الاغلاق الخطيرة لابن رشد نقلاً عن العلاقات الدولية (٢ ـ ٥٢).
٤ الاغلاق الخطيرة (٢ ـ ٥٢).

والمقاومة مهما كلف الثمن، واختار الشهادة بعزة إن لم يكن النصر،أما الملك الناصر، فقد عبّر عن جبنه وتخاذله وحيرته وتردده وانعدام قدرته على اتخاذ قرار ناجح في لحظة تحتاج إلى قرار، وبقي الكامل في دمشق حتى سمع سقوط بغداد، فرجع إلى بلاده عن طريق حلب، حيث التقى به ابن شداد وقال له: أصبت في قصدك الملك الناصر، وما أصبت في رجوعك، هلا قصدت مصر؟ فيرد الكامل: لقد خفت على قلب الملك الناصر، فيشير عليه ابن شداد أن يخرج حريمه من ميّافارقين، ويستخلف نوّاباً، ويعود للملك الناصر، لعل تنهض عزيمته. ويتضح لنا من هذا الحديث بين الكامل وابن شداد أن فكرة قصد مصر كأمل أخير للوقوف في وجه التتار قد خطرت على بال الكامل، لكنّه لم ينفذها حتى لا يغضب الناصر في وقت هو بأمس الحاجة إليه، كما نتبين أن ابن شداد كان مطلعاً على الوضع العام، فقد عرف أن وضع الجزيرة ميؤوس منه فنصح الكامل بإخراج حريمه من ميّافارقين، وعرف أن الناصر متخاذل خائف يحتاج لاستنهاض عزيمته[١].

٥ ـ سقوط ميّافارقين واستشهاد الكامل:بعد أن تمّ للمغول الاستيلاء على اربل، أمر هولاكو الأمراء يشموت وايلكا نويان وسونتاي بالتوجه إلى مدينة ميّفارقين،ولما بلغوا حدودها أرسلوا رسولاً من قبلهم إلى الملك الكامل الايوبي صاحبها يدعونه إلى الخضوع، والطاعة لهم ويتوعدونه بالهلاك والدمار في حالة عصيانه لهم، إلا أن الملك الكامل قابل ذلك التهديد بالرفض الشديد، وذلك لما كان يعرفه عن المغول من الخيانة ونكث العهود حيث رد عليهم قائلاً:إنني لن أنخدع بكلامهم المعسول، ولن أخشى جيش المغول وسأضرب بالسيف ما دمت حيا[٢]، ونتيجة لهذا الرد الحاسم من الملك الكامل، إتفق الأمراء المغول على مهاجمة ميافارقين، وإنتزاعها بالقوة من يد حكامها وفي الوقت نفسه أخذ الملك الكامل يعد نفسه وقواته لمواجهة ذلك الخطر، حيث عمد إلى تطييب خواطر سكان مدينته ورفع روحهم المعنوية، بإعطائهم وعداً ببذل كل ما يملك من الذهب والفضة والغلال الموجودة بالمخازن في سبيل الدفاع عن مدينتهم، فاتحد معه سكان المدينة جميعاً وأعلنوا

---

١ جهاد المماليك صـ ٥٣.

٢ جامع التواريخ نقلاً عن جهاد المماليك صـ ٧٥.

له أنهم رهن إشارته، وعلى إستعداد للجهاد ضد العدوان المغولي الذي بات يهدد مدينتهم بالخراب والدمار، واستطاع مسلمو ميافارقين أن يصمدوا واستبسلوا في القتال[1]، وصمدت المدينة الباسلة، وظهرت فيها مقاومة ضارية، وقام الأمير الكامل محمد في شجاعة نادرة يشجع شعبه على الثبات والجهاد، وكان من المفروض في هذا الحصار البشع الذي ضرب على ميافارقين أن يأتيها المدد من الإمارات الإسلامية الملاصقة لها، ولكن هذا لم يحدث لم تتسرب إليها أي أسلحة ولا أطعمه ولا أدوية، لقد احترم الأمراء المسلمون النظام الدولي الجديد الذي فرضته القوة الأولى في العالم ـ التتار ـ على إخوانهم وأخواتهم وأبناهم وبناتهم وآبائهم وأمهاتهم المسلمين والواقع أنني أتعجب من رد فعل الشعوب، أين كانت الشعوب؟

ـ لم يكن الشعوب تملك حريتها وقرارها بل كانت خاضعة لإرادة حكامها.

ـ كانت هناك عمليات ((غسيل مخ)) مستمرة لكل شعوب المنطقة فلا شك أن الحكام ووزراءهم وعلماءهم كانوا يقنعون الناس بحسن سياستهم وبحكمة إدارتهم.

ـ من لم يقنعه العلماء والخطب والحجج فإقناعه يكون بالسيف، لقد تعودت الشعوب على القهر والبطش والظلم من الولاة[2].

أقبل المغول على فرض حصار شديد على مدينة ميافارقين، اشتركت فيه فرق أرمينية ومسيحية شرقية وقابله المسلمون داخل المدينة بصمود هائل عجز أمامه المغول على اقتحامها مدة طويلة، وكان في جيش الملك الكامل فارسان بارعان أذهلا قادة المغول ودوخاهم وأوقعاهم في الدهشة والحيرة، إذ كان لبسالتهما وأحكامهما الرماية سبباً في إنزال أفدح الخسائر في الجيش المغولي، حتى اضطر هولاكو الذي أدرك عجز قواته عن اقتحام المدينة إلى إرسال مدد جديد بقيادة الأمير أرقتو، وانضم هذا القائد الجديد بجموعه إلى الجهة التي فيها جيش الأمير المغولي إيلكيا نويان، ونظراً لطول الحصار الذي فرضه المغول على المدينة، نفذت الأرزاق من داخلها وعم القحط

---

١ جهاد المماليك صـ٧٦.

٢ قصة التتار صـ١٧٨.

وانتشر الوباء وتهدمت الأسوار من شدة ضرب المنجنيقات، حتى هلك أكثر سكان المدينة[١]، فقد وقعت المجاعة فيها بسبب الحصار الطويل وفي عام ٦٥٨هـ ١٢٦٠م سقط آخر معقل للمقاومة في الجزيرة ودخل التَّتار ميَّافارقين"فوجدوا جميع سُكَّنها موتى، ما عدا سبعين شخصاً نصف أحياء، وقبضوا على الكامل الأيوبي؛ فعنَّفه هولاكو وأمر بتقطيعه[٢]، وأخذوا يقطعون لحمه قطعاً صغيرة ويدفعون بها إلى فمه حتى مات، ثم قطعوا رأسه وحملوه على رمح وطافوا به في البلاد وذلك في سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م[٣]، حتى وصل دمشق، فعلَّقوه على باب الفراديس، حتى أنزله الأهالي ودفنوه وقتل المغول كل من وجدوه في ميَّافارقين وهدموها، وهذا يدل على شدة حنق المغول من الملك الكامل، ومن مقاومته لهم وربما كان أيسر ما كلفتهم إياه هو الخسائر البشرية والمادية فهي ـ بلا شك ـ ساهمت في تحطيم سُمعتهم الحربية المرعبة لأن مقاومة الكامل أصبحت رمزاً لإرادة المقاومة ضد التَّتار، وأصبح الكامل بموته قدوة ومثالاً للتضحية والشهادة[٤]. وكذلك مدينة ميافارقين التي تقع الآن في شرق تركيا إلى الغرب من بحيرة"وان" فقد كانت جيوش الكامل الأيوبي تسيطر على شرق تركيا، بالإضافة إلى منطقة الجزيرة، وهي المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات من جهة الشمال، أي أنه يسيطر على الشمال الغربي من العراق وعلى الشمال الشرقي من سوريا[٥].

٦ ـ ماردين: بعد أن تمكن هولاكو من انهاء الأمر في ميافارقين أشار على امرائه بالزحف على مدينة ماردين، التي كانت تتمتع الأخرى بحصانة كبيرة، إذ تعجب المغول من ارتفاع قلعتها واستحكاماتها لذلك عمد هؤلاء القادة إلى اتباع نهجهم التقليدي بارسال الرسل إلى صاحبها الملك السعيد، بالتهديد والوعيد إلا أن الملك السعيد نجم الدين ايلغازي الارتقي، أبى الانصياع إلى أوامرهم ورد عليهم قائلاً: كنت قد عزمت على الطاعة والحضور إلى الملك، ولكن حيث أنكم قد عاهدتم

١ جهاد المماليك صـ٧٦.
٢ المصدر نفسه صـ٧٦.
٣ المصدر نفسه صـ٧٦.
٤ العلاقات الدولية (٥٤/٢).
٥ جامع التواريخ نقلاً عن جهاد المماليك صـ٧٧.

الآخرين، ثم قتلتموهم بعد أن اطمئنوا إلى عهدكم وامانكم، فإني الآن لا اثق بكـم، وأن القلعـة بحمـد اللـه تعالى مشحونة بالذخائر والاسلحة ومليئة برجال الترك وشـجعان الكـرد[1]وضرب الحصـار الشـديد على ماردين وعلى كل فإن هولاكو استطاع خلال تلك الفترة أن يستولي على آمد وحران والرهـا وسروج وعدد كبير من مدن وحصون اقليم الجزيرة، ومن ثـم قـرر هولاكـو إرجـاء أمـر مـاردين ريـثما يصـفى حسابه مع الشام، فعبر الفرات على رأس قواته قاصداً حلب فاستولى عليها في المحرم مـن عـام ٦٥٨هــ /١٢٥٩م وعاد الحصار من جديد واثناء الحصار توفي الملك السعيد بسبب وباء انتشر بين سكان القلعـة فهلك أكثرهم فتولى الحكم ابنه الملك المظفر، وتمت مفاوضات بين الملك المظفر والمغول وتم الصلح مع المغول وكان هولاكو قد أرسل بكوهداي أحد كبار أمراء المغول إلى ماردين وأعلن كوهداي إسلامه على يد الملك المظفر وزوجه الأخير أخته وأعقب ذلك مسير الملك المظفر بنفسه إلى هولاكو في رمضـان مـن السنة نفسها يحمل الهدايا إليه، فـاجتمع بـه هولاكـو وأكرمـه، ثـم قـال لـه: بلغنـي أن أولاد صـاحب الموصل هربوا إلى مصر، وأنا أعلم أن أصحابهم كانوا سبب ذلك،فاترك أصحابك الـذين رافقـوك عنـدي، فإني لا آمن أن يحرفوك عني، ويرغبوك في النزوح عن بلادك إلى مصر، وإذا ما دخلت البلاد فاصطحبهم معي[2]، فأجابه الملك المظفر إلى ذلك ثم قفل عائداً إلى بلاده وفي الطريق ارسل هولاكـو في طلبـه يـأمره بالعودة إليه ثانية فعاد إليه يرتجف خوفاً، فلما اجتمع به قال له هولاكو: إن اصحابك أخبروني أن لـك باطناً مع صاحب مصر، وقد رأيت أن يكون عندك من جهتي من يمنعك مـن التسـلل إلـيهم، ثـم عـيّن لذلك أمير يدعى ((أحمد بغا)) وأعادهما إلى ماردين، بعد أن أضاف إلى الملك المظفر نصيبين والخابور، ومنطقة لا يستهان بها من ديار بكر ضمت إلى آمد وميافارقين، كما ألحـق بإمارتـه بعـض المـدن التـي سيطر عليها المغول في الجزيرة كقرقيسيا حيث ابقى المغول قوة لحفظ المعابر[3]، وفي الوقت نفسه أمـر هولاكو الملك المظفر بهدم أبراج قلعة ماردين وما أن غادر الملك المظفر معسـكر هولاكـو حتـى أقـدم

---

١ الاغلاق الخطيرة (٣ ـ ٥٦٦ ـ ٥٦٨)، جهاد المماليك صـ ٨٤.

٢ جهاد المماليك صـ ٨٤.

٣ المصدر نفسه صـ ٨٤.

الأخير على ضرب رقاب اصحاب الملك السعيد، وكان عددهم سبعين رجلاً من كبار أمراء ماردين، ولم يكن لاي من هؤلاء ذنب يذكر، ولكن قصد بقتلهم أن يقص جناح الملك المظفر[١]. وغدت مدينة ماردين ولاية مغولية، ينفذ حكامها ما يأمرهم به قادة المغول، ويلتزمون بالخطوط العامة لسياستهم الخارجية وتحركاتهم العسكرية، ويقدمون لهم المال والإمدادات العسكرية ويضربون السكة باسمهم ويخطبون لهم وحقق المغول بإدخالهم إمارة ماردين وغيرها تحت سيطرتهم هدفهم المنشود وهو السيطرة على منطقة ديار بكر واتخاذها مركزاً لتنظيم الهجمات على الجهات الغربية من العالم الإسلامي[٢].

ثانياً: السلطان الناصر بين المقاومة والاستسلام:

أقدم الملك الناصر يوسف الايوبي صاحب حلب ودمشق الذي يعد أعلى الأمراء الايوبيين شأناً في بلاد الشام على اعلان الخضوع لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة، فقد استجاب لأمر هولاكو، فأنفد إليه ابنه الملك العزيز يحمل الهدايا والتحف معه عدد من الأمراء فلما وصل العزيز إلى معسكر هولاكو وسلمه ما معه من الهدايا والتحف التي تعبر عن الولاء والتبعية لهولاكو، طلب منه العزيز على لسان والده أن يرسل إليهم نجدة لمساعدتهم في استعادة الاراضي المصرية، من أيدي المماليك[٣].

١ ـ **رد هولاكو على الملك الناصر:** رأى هولاكو أن عدم إستجابة الملك الناصر يوسف لأوامره، بالخروج إليه بنفسه، يعد تمرداً على أوامره، وأن الوفد الذي أرسله الملك الناصر إليه لا يناسب مقامه، ولم يكتف بعدم الاستجابة لطلبه هذا، بل أصر هذه المرة على خروج الملك الناصر إليه بنفسه لتقديم الولاء والطاعة ومعه قوة قوامها عشرون ألف فارس، حيث أعاد هولاكو الملك العزيز إلى أبيه ومعه رسالة ذكَّر فيها من صنوف العذاب والدمار والهلاك[٤] وجاء فيها:

١ المصدر نفسه صـ٨٤.
٢ المصدر نفسه صـ ٨٧.
٣ السلوك نقلاً عن جهاد المماليك صـ٦٩.
٤ جهاد المماليك صـ٦٩.

الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب، أنا قد فتحنا بغداد بسيف اللـه تعالى، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها، كما قال اللـه تعالى في كتابه العزيز "قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون"، واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم واستوجب منا العدم وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خسيسة، فجمع المال، ولم يعبأ بالرجال، وكان قد نما ذكره وعظم قدره ونحن نعوذ باللـه من التمام والكمال:

إذا تـــمَّ أمـــر دنـــا نقصـــه

تَـــوَقَّ زوالاً إذا قيـــل تَـــم

إذا كنـــت في نعمـــة فارعهـــا

فـــإن المعـــاصي تُزيـــل الـــنِّعم

وكـــم مـــن فتـــى بـــات في نعمـــة

فلـــم يـــدر بـــالموت حتـــى هَجَـــم

إذا وقعت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك، وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض (شاهنشاه روي زمين) أي ملك الملوك على وجه الأرض، تأمن شره، وتنل خيره، كما قال اللـه تعالى في كتابه العزيز: "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى"، ولا تعوق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم إنهزموا بحريمهم إلى كروان سراي[1]، فإن كانوا في الجبال نسفناها وإن كانوا في الأرض خسفناها[2].

أيـــن النجـــاة ولا منـــاص لهـــاربٍ

ولى البســـيطان الـــثرى والمـــاء

١ كان هذا هو الإسم التتاري لمصر.
٢ السلوك (١ ـ ٥٠٦).

ذلـــت لهيبتنـــا الأســـود وأصـــبحت

في قبضـــــتي الأمـــــرا والـــــوزراء[1]

هذا طرف من الحرب النفسية التي كانت التتار يشنونها ضد أعداهم[2].

٢ ـ **إستنجاد الناصر بالمماليك:** رفض الملك الناصر دعوة هولاكو وأرسل إليه رداً مليئاً بالسباب وقلب سياسته تجاه المغول رأساً على عقب، حيث أقدم عندما بلغه عبور القوات المغولية نهر الفرات على إرسال رسول من قبله هو الصاحب كمال الدين بن العديم إلى المماليك في مصر يستنجد بهم ضد جيوش هولاكو التي بات هجومها وشيكاً على بلاد الشام، وأمام هذا التصرف الجريء للملك الناصر يوسف، أدرك هولاكو ـ على ما يبدو ـ فشل سياسة التشدد التي إتبعها مع الملك الناصر، والتي أدت به إلى الارتماء في أحضان المماليك في مصر، وبدأ هولاكو يفكر في تلافي ذلك الخطأ حيث سارع بإرسال نجدة سريعة إلى الملك الناصر في دمشق، ولكن هذه النجدة لم تؤت ثمارها بالنسبة لهولاكو، بل زادت فكرة التصالح بين المماليك والأيوبيين، إذ يذكر المقريزي أن السلطان المملوكي المظفر قطز عندما علم بوصول تلك النجدة المغولية إلى الملك الناصر بدمشق، بعث إليه كتاباً أقسم له فيه بالإيمان أنه لا ينازعه في الملك ولا يقاومه وأنه نائب عنه بديار مصر، وختم كتابه هذا بقوله:

وإن إخترتني خدمتك، وإن إخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت إليك العساكر صحبة من تختار[3].

٣ ـ **سقوط حلب:** كانت مدينة حلب أول مدينة شامية واجهت العاصفة المغولية، فقد أصدر هولاكو أوامره لقواته بعبور نهر الفرات، ومهاجمة بلاد الشام، ووصل الخبر بذلك إلى حلب وكان يحكمها الملك المعظم تورانشاه نائباً عن الملك الناصر، فجحفل الناس خوفاً من المغول إلى دمشق، وعظم الخطب على من بداخلها،

١ المصدر نفسه (١ ـ ٥٠٦).

٢ سيف الدين قطز صـ٨٦ قاسم عبده.

٣ جهاد المماليك صـ٧٠.

وقبل وصول القوات المغولية إلى حلب، أرسل هولاكو كعادته إنذاراً إلى صاحبها، إلا أن الملك المعظم الأيوبي رد علي بقوله:

ليس لكم عندنا إلا السيف[1]، ثم احترز على حلب حتى صارت في غاية الحصانة والمنعة، بأسوارها المحكمة البناء وقلعتها المنيعة، وبما نصبه عليها من آلات دفاعية[2]. وفي العشرة الأخيرة من ذي الحجة سنة ٦٥٧هـ نوفمبر ١٢٥٩م، قصد المغول مدينة حلب ونزلوا على قرية يقال لها سلمية وامتدوا إلى قريتي حيلان والحاري وهما قري حلب، ثم سيروا فرقة من عسكرهم بإتجاه حلب، فخرج عسكر المسلمين ومعهم جمع غفير من العوام والسوقة، وأشرفوا على المغول وهم نازلون على تلك الأماكن، وقد ركبوا جميعهم لإنتظار عسكر حلب، فلما تحقق المسلمون كثرتهم كروا راجعين إلى المدينة وأصبح الملك المعظم تورانشاه بعد ذلك أوامره إلى قواته بالتحصن داخل حلب، وعدم الخروج منها[3]، وفي اليوم التالي تحركت القوات المغولية طالبة حلب، ولما وصلت جموع المغول إلى أسفل الجبل نزلت إليهم فرقة من جيش المسلمين لمقاتلتهم، فلما شاهد المغول ذلك تراجعوا أمام الجيش الإسلامي مكراً وخديعة لاجتذابهم بعيداً عن البلد، فتبعهم عسكر حلب ساعة من النهار، ثم كر الجيش المغولي وخرج من مكامنه فاندفع المسلمون أمامه إلى جهة البلد، والعدو في أثرهم، ولما حازوا جبل بانقوسا وعليه بقية الجيش الإسلامي إندفعوا جميعاً نحو المدينة والعدو مستمر في مطاردتهم، فقتل من المسلمين جمع كثير من الجند والعوام، ونازل المغول حلب ذلك اليوم إلى آخره، ثم رحلوا عنها إلى أعزاز فتسلموها بالأمان[4].

أ ـ الإضطرار إلى التسليم: عاود المغول هجومهم على حلب في ثاني صفر من ٦٥٨هـ/يناير ١٢٦٠م وأحكموا حصارها بحفر خندق حولها عمقه قامة، وعرضه أربعة أذرع، وبنوا حائطاً بإرتفاع خمس أذرع، ثم نصبوا عليها عشرين منجنيقاً وشرعوا في رميها بالحجارة ونقب أسوارها ومهاجمتها من كل الجهات، حتى اضطر

١ المختصر في أخبار البشر (٣ ـ ٢٠١)، جهاد المماليك صـ٨٩.
٢ النجوم الزاهرة (٣ ـ ٢٠١)، جهاد المماليك صـ٨٩.
٣ جهاد المماليك صـ٨٩.
٤ النجوم الزاهرة (٧ ـ ٧٥ ـ ٧٧)، جهاد المماليك صـ٩٠.

إلى التسليم في التاسع صفر من ٦٥٨هـ/يناير ١٢٦٠م، ولم ملكوها غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ونهبوا الدور وسبوا النساء والأطفال، ثم إستباحوا المدينة خمسة أيام عاثوا فيها فساداً حتى إمتلأت الطرقات بجثث القتلى، ويقال إنه أسر من حلب زيادة على مائة ألف من النساء والصبيان، ولم يسلم من أهل حلب إلا من إلتجأ إلى دار شهاب الدين بن عمرون، ودار نجم الدين أخي مردكين، ودار البازياد، ودار علم الدين قيصر الموصلي، والخانقاه التي لزين الدين الصوفي وكنيسة اليهود بفرمانات كانت بأيديهم وقيل أنه سلم بهذه الأماكن من القتل ما يزيد عن خمسين ألف نفس[١]

ب ـ هدم أسوار المدينة وقلعتها ومساجدها: لجأ الملك المعظم تورانشاه إلى القلعة ومع جمع كثير من حلب، واستمر الحصار على القلعة وشدد المغول مضايقتهم لها نحو شهر[٢]، ويبدو خيانة حدثت في جيش الملك المعظم سهلت للمغول مهمتهم في تشديد حصارهم للقلعة ومعرفة مواطن الضعف فيها، ومن ثم تثبيط همم المقاتلين داخلها، الأمر الذي ترتب عليه تسليم القلعة إلى المغول رغم حصانتها بكل سهولة، ودخل هولاكو بعد ذلك إلى القلعة وخربها، وهدم أسوار المدينة وجوامعها ومساجدها وبساتينها وعفى آثارها، حتى غدت بلدة موحشة، بعد أن كانت تعد من أزهى مدن الشام، وخرج إليهم الملك المعظم تورانشاه، ويذكر المقريزي أن هولاكو لم يتعرضه بسوء لكبر سنه[٣]، ولا يستبعد أن يكون الملك المعظم قد أصيب خلال حصار المغول للمدينة والقلعة بجراح بالغة أو بمرض لم يعد يرجى برءه، أو أن هولاكو قد دبر قتله سراً، بدليل ما ذكره المقريزي نفسه من أن الملك المعظم توفي بعد ذلك بأيام قلائل[٤].

جـ ـ غنائم لحلفاء هولاكو من النصارى: لم يشأ هولاكو أن تمر فرصة إستيلائه على حلب دون أن يكافئ حليفه، هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى، وبوهيمند

١ السلوك للمقريزي نقلاً عن جهاد المماليك صـ٩٠.
٢ المختصر في أخبار البشر صـ٢٠١، جهاد المماليك صـ٩١.
٣ المقريزي السلوك نقلاً عن جهاد المماليك صـ٩١.
٤ السلوك نقلاً عن جهاد المماليك صـ٩١.

السادس الصليبي أمير أنطاكيا الذين ساعداه في ذلك العمل، حيث قام بإعطاء ملك الأرمن جزءاً من الأنفال، وأعاد إليه الأقاليم والقصور التي كان مسلمو حلب قد استولوا عليها منهم، كما رد إلى بوهيمند جميع الأراضي التي كان المسلمون قد اقتطعوها من إمارته، وعبر هيثوم عن إبتهاجه بذلك بإحراق الجامع الكبير في حلب بنفسه إنتقاماً من المسلمين[١]. وهكذا سقطت مدينة حلب في يد المغول، وحقق هولاكو بذلك ما لم يستطع تحقيقه الأمراء الصليبيون والأباطرة البيزنطيون وحطم حصناً عظيماً من حصون الإسلام، وغدت هذه المدينة، التي كانت تعتبر بحق من أروع وأزهى مدن الشام خربة يائسة، وعين عليها هولاكو حاكماً من قبله[٢]، وقد أثار سقوط هذه المدينة التي كانت موطن حركة الجهاد ضد الصليبيين، الفزع والوجل في نفوس المسلمين ببلاد الشام، فوصل إلى هولاكو بحلب كثير من أمراء المسلمين، ليعلنوا ولائهم وخضوعهم، ومنهم الملك الأشرف موسى الأيوبي، صاحب حمص، الذي سبق أن إنتزع منه الناصر إمارته، فأعادها إليه هولاكو، على أن تكون إقطاعاً وراثياً له من قبل هولاكو، ولما رفض رجال حامية مدينة حارم الاستسلام إلا لقائد حامية حلب، إعتبر هولاكو ذلك إهانة له وإنتقاصاً من مكانته، فأمر بقتل أهل حارم عن آخرهم وسبي نسائهم وأطفالهم ثم ألحق بهم رجال الحامية جميعاً[٣].

٤ ـ دمشق: بعد سقوط حلب أرسل هولاكو رسلاً من قبله إلى دمشق دخلوها ليلة الإثنين السابع عشر من صفر سنة ٦٥٨هـ/ فبراير ١٢٦٠م وهم يحملون فرماناً منه تأمين المدينة وأهلها مقابل تسليمها، وقرئ هذا المرسوم على الناس بدمشق بعد صلاة الظهر[٤].

أ ـ موقف بيبرس البندقداري: وفي هذا الموقف الحرج أشار بعض كبار أهل دمشق وعلى راسهم الأمير زين الدين الحافظي، بمداراة المغول والدخول في طاعة هولاكو، لتجنيب دمشق وأهلها ما حل بحلب من الهلاك والدمار والخراب، ولكن

١ تاريخ الدولة المغولية في إيران صـ١٤١ عبد السلام فهمي.
٢ جهاد المماليك صـ٩٢.
٣ المصدر نفسه صـ٩٢.
٤ المصدر نفسه صـ٩٣.

ذلك الرأي لم يجد التأييد الكامل من أهل دمشق، حيث رفضه البعض[1]وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس، وصاح في وجه زين الدين قائلاً: أنتم سبب هلاك المسلمين، ويبدو أن الملك الناصر كان على رأي زين الدين الحافظي، فحاول بعض أتباع بيبرس من طائفة المماليك البحرية، قتل الملك الناصر، وتولية حاكم آخر عالي الهمة، نافذ الرأي، يستطيع جمع الناس للجهاد في سبيل الله وقيادتهم في ميدان القتال لصد العدوان المغولي والدفاع عن الإسلام وأهله، إلا أن بيبرس تخلى عن دمشق وذهب مع جماعة من المماليك البحرية إلى غزة، حيث استقبله أميرها أحسن إستقبال، وفيها سير بيبرس رسولاً من قبله إلى السلطان المظفر قطز ليحلفه على إعطاه الأمان ونجح في المصالح مع قطز الذي وعده الوعود الجميلة، ثم سافر إلى بيبرس إلى مصر وانضم إلى قيادة قطز وأصبح من أكبر أعوانه الذين ساهموا للتخطيط لمعركة عين جالوت وقيادة الجيوش الإسلامية وتحيق ذلك النصر المؤزر الذي بدد أحلام المغول بكاملها[2].

ب ـ تسليم دمشق: خرج الملك الناصر من دمشق ومعه جمع من أتباعه يريد غزة وترك دمشق في حالة يرثى لها، وقصد جمع من أكابر دمشق وأعيانها حضرة هولاكو ومعهم التحف والهدايا ومفاتيح بوابات دمشق، وأظهروا الطاعة والخضوع له، وسلموا المدينة، وأمر هولاكو قاده كيتوبوقا إلى دمشق لإختبار أهلها، فاستقبله أهل المدينة وطلبوا منه الأمان، ثم أرسل أعيانهم إلى بلاط هولاكو وهكذا دخل المغول دمشق بلا حصار ولا قتال وولى عليها هولاكو جماعة من المغول وعين ثلاثة من أهلها لمساعدتهم في تصريف الأمور بها[3]، وأما قلعة دمشق فقد استعصت على المغول، ورفض من بداخلها التسليم لهم، وفي هذا الوقت وصل إلى دمشق الملك الأشرف صاحب حمص من عند هولاكو ومعه مرسوم بأن نائب السلطة لدمشق والشام كلها، وتم حصار القلعة وضربها بالمنجنيقات وخرب من القلعة مواضع وطلب من بداخلها الأمان، ودخلها المغول ونهبوا ما كان فيها من الكنوز والدفائن

١ المصدر نفسه صـ٩٤.

٢ جهاد المماليك صـ٩٥.

٣ جمع التواريخ (٢ ـ ٣٠٧ ـ ٣٠٨)، جهاد المماليك صـ٩٦.

وأحرقوا مواضع كثيرة منها، وهدموا عدداً كبيراً من أبراجها، وأتلفوا سائر ما بها من الآلات والعدد[١].

جـ ـ تسليم حماه: أما مدينة حماه فإن صاحبها الملك المنصور الثاني كان قد حضر إلى برزة ليتجهز مع الملك الناصر، فلما سمع أهل البلد في غيبته بأخذ حلب أرسلوا رسولاً من قبلهم إلى هولاكو، يسألونه العطف، وسلموا له البلد، فأعطاهم الأمان، وجعل عندهم شحنة من قبله، أما قلعة حماه فيبدو أن ما حل بحلب وأهلها وقلعتها من الأهوال فضلاً عن هروب الملك المنصور صاحبها قد دفع متوليها إلى المسارعة بالتسليم للمغول[٢]. وبعد أن تم للمغول السيطرة على حلب ودمشق وحماه، وغيرها من البلدان المجاورة، أصبح إستيلاءهم على بقية مدن الشام مسألة وقت، كان على القائد المغولي أن يختاره متى شاء، وذلك بسبب ما حل ببلاد الشام من الأهوال والفزع والخوف، فضلاً عن تفرق كلمة الأمراء الأيوبيين، ففي الأسابيع القليلة التالية، أتم القائد المغولي كيتوبوقا الذي أوكل إليه هولاكو مهمة إتمام الإستيلاء على بلاد الشام بعد عودته من حلب إلى مدينة مراغة للمشاركة في إنتخاب الخان الجديد[٣]، السيطرة على بلاد الشام حيث توجه إلى نابلس، وحينما حاول أهلها المقاومة جرى قتل عدد كبير منهم، ثم أغارت جموع المغول على سائر بلاد الشام، حتى وصلت إلى أطراف غزة، وبيت جبريل، والصلت، وبعلبك وبانياس وغيرها، واستولوا عليها وقتلوا وسبوا ما قدروا عليه، ثم عادوا إلى دمشق، فباعوا بها ما غنموه من هذه المدن[٤].

د ـ موقف النصارى في الشام: جاءت سيطرت المغول شديدة الوطأة على المسلمين في بلاد الشام، إذ أنهم بادروا قبل كل شيء إلى تدمير الاستحكامات والأسوار والقلاع في البلاد التي خضعت لهم مثل حلب ودمشق وحمص وحماه وبعلبك وبانياس وغيرها، وحققوا بذلك ما لم يستطع تحقيقه الصليبيون من قبل[٥]،

١ دول الإسلام للذهبي نقلاً عن جهاد المماليك صـ٩٧.
٢ المختصر (٣ ـ ٢٠١)، جهاد المماليك صـ٩٧.
٣ جهاد المماليك صـ٩٧.
٤ أخبار البشر (٣ ـ ٢٠٢)، جهاد المماليك صـ٩٨.
٥ المغول للعريني صـ٢٤٨.

ولقد مال المغول منذ اللحظة الأولى لغزوهم لـلشرق الأدنى إلى العـنصر المسـيحي النسـطوري، ولعـل وصية منكو خان لأخيه هولاكو التي نصت على إستشارة هولاكو لزوجتـه دوقـوز خـاتون التـي كانـت مسـيحية نسـطورية خـير دليـل عـلى ذلـك، وقـد أدى وجودهـا في ركـاب زوجهـا هولاكـو إلى التفـاف المسيحيين الشرقيين حول المغول، إذ المعروف أن النساطرة إزداد عددهم في الجيش المغولي ووصلوا إلى حد قيادة الجيوش المغولية، فكيتوبوقا كان من عنصر النايمان النساطرة، وكان من الطبيعـي أن يتـآخى هؤلاء النساطرة مع الجماعات الأرمينية واليعاقبة وغيرهم التي تكـاثر عـددها في كـبرى مـدن الشـام[١]، وقد أدى هذا التلاحم إلى مشاركة العنصر المسيحي على مستوى قيادة الجيوش في إقتحام مدن الشـام، وهولاكو عندما اقتحمت جيوشه مدينة حلب كان بصحبته ملك أرمينية هيثوم الأول وصهره بوهيمند السادس أمير أنطاكيا، كما شهدت عاصمة الخلافة الأموية دمشق لأول مرة منذ ستة قـرون ثـلاث أمراء مسيحيين هم: كيتوبوقا وهيثوم وبوهيمند يشقون بمواكبهم شـوارعها[٢]، ويصـح أن نؤكـد أن غزو المغول لبلاد المسلمين في الشام إتخذ طابعـاً صـليبياً، وقـد ذكـر أن هولاكـو عنـدما غـزا بـلاد الجزيرة قدم عليه جاشليق الأرمني ومنحه البركات، ولما كان هيثوم الأول ملـك أرمينيـة الصـغرى في إتصاله مع المغول يتحدث بإسمهم وإسم صهره بوهيمند السادس أمير أنطاكيـا الصـليبي فـإن هذه الحملة قد إتخذت صفة حملة صليبية أرمينية ـ مغولية[٣]، والواقع أن سـقوط المـدن الـثلاث الكبرى، بغداد وحلب ودمشق في أيدي المغـول يعتـبر مـن الكـوارث الفاجعـة التـي هـزت العـالم الإسلامي في ذلك الوقت، وترتب على سـقوط دمشـق في أيـدي المغـول أن أعلـن المسـيحيون بهـا التمرد والشـموخ، ولم يخفـوا فـرحتهم بمـا حـل بالمسـلمين مـن نكبـة، ولم يخـف القائـد المغـولي كيتوبوقا نفسه ما يكنه من الميل نحو هؤلاء المسيحيين وتردده إلى كنائسهم، وذهـب بعضـهم إلى هولاكو وأحضروا من عنده ((فرماناً)) يـنص عـلى الاعتنـاء بـأمرهم ودخلـوا بـه البلـد وصـلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بإرتفاع دينهم وانتضاع دين الإسلام، ورشوا الخمر على ثياب المسلمين

---

١ المغول صـ٢٤٨ للعريني.
٢ المصدر نفسه صـ٢٤٨.
٣ المصدر نفسه صـ٢٤٢.

وأبواب المساجد وألزموا المسلمين في حوانيتهم بالقيام للصليب، ومن لم يفعل ذلك أهانوه وأقاموه غصباً، وطافوا وهم يحملون الصلبان ويدقون النواقيس في الشوارع إلى كنيسة مريم، وقام بعضهم أثناء المسيرة بإلقاء الخطب فبجل دين المسيح وانتقص دين الإسلام، وضجر المسلمون من ذلك وصعدوا مع قضاتهم وشهودهم إلى نائب هولاكو بالقلعة، فلم يستجب لشكواهم وأخرجهم من القلعة بالضرب والإهانة، وأخذت نائب هولاكو موجة من الإهتمام بالنصارى ـ فجعل يزور الكنائس ويعظم رجالها على اختلاف مذاهبهم، فاشتدت ثائرة المسلمين، للانتقام لمقدساتهم، فقاموا باحراق كنيسة مريم، وخربوا جزءاً من كنيسة اليعاقبة[1].

ويمكن القول أن هذا التلاحم بين القوى المغولية والقوى المسيحية الشرقية، الذي أثمر استيلائهم على بلاد الشام، وتحطيم استحكاماتها، ومن ثم التطاول على المسلمين بها والاعتداء على مقدساتهم، كان أحد العوامل التي دفعت المسلمين في الأراضي المصرية إلى تدارك الأمر واستنفار كامل قواهم، ومن ثم إعلان حركة الجهاد الإسلامي المقدس ضد المغول وحلفائهم حتى تحقق لهم ذلك النصر العظيم في معركة عين جالوت[2].

٥ ـ **نهاية السلطان الناصر الأيوبي:**أصبح الملك الناصر مسلوب الإرادة مرعوباً، ليس له رأي، وعندما شاهد جنده ومماليكه هذه الحال، قرروا تنحيته باغتياله أو القبض عليه، وسلطنة أخيه الملك الظاهر غازي بن العزيز لشهامته[3]، وعلم الناصر بالأمر، فترك المعسكر هارباً بالليل إلى قلعة دمشق، فأسقط بيد مماليكه الناصرية، وأعوانهم، فهربوا ومعهم الظاهر غازي إلى غزة[4]، وكان تسارع الأحداث في الشام أكبر من أن يترك صدى أو ذيولاً لهذه المحاولة الفاشلة، فالتتار لا يهدؤون وقد انضم إليهم ـ علناً ـ الأشرف بن المجاهد، فأعادوا له حمص وأعمالها وكذلك الملك السعيد بن عبد العزيز، حيث أطلقه هولاكو من سجن البيرة، وأعاد له ولايته

---

١ جهاد المماليك صـ ١٠٢، البداية والنهاية (١٧ ـ ٣٩٨).

٢ جهاد المماليك صـ ١٠٢.

٣ السلوك للمقريزي (١ ـ ٥١٢)، جهاد المماليك صـ ٧٤.

٤ العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢ ـ ٧٤).

على بانياس، وقلعتها التي تعرف بالصبيبة[1]، فقرر الملك الناصر الانسحاب جنوباً نحو مصر، وقد تضلّلت العسكر، وتصرمة، وقلت الحرمة، وطمع كل أحد، ولم يبق عند الناصر إلا قوم قلائل، وسار الملك الناصر عن دمشق على أمل جمع الكلمة مع المظفر قطز للقاء التتار، وأخذ ما بقي معه من الجيش، وترك دمشق خالية من العسكر، وأهلها على الاسوار يشتمونهم ويدعون عليهم ويقولون: تركتمونا طعمة للتتار، لا كتب الله عليكم السلامة[2]، وعبر الزين الحافظي إلى دمشق وأغلق أبوابها وسيّر الناصر طلبه، ليجتمع به، فامتنع عن الخروج إليه وجمع أكابر دمشق، واتفق معهم على تسليم دمشق لنواب هولاكو[3]، وسار الناصر ومعه المنصور محمد صاحب حماه، فوصل نابلس، حيث ترك بها حامية، ولما وصل غزة، انضم إليه مماليكه الفارون وتصالح مع أخيه غازي، وعلم الناصر في غزة أن التتار قد احتلوا نابلسن فقصد العريش، وأرسل يخبر قطز ويسأله الاجتماع لمواجهة التتار، ويبدو ان جواباً شافياً مطمئناً لم يصل من قطز إلى الناصر((فاستراب الناصر باهل مصر))[4]، وكان قد بلغ قطية((فخاف الناصر دخول مصر فيُقبض عليه))[5]، فسمح الناصر لمن يريد من مرافقيه دخول مصر، فحزم المنصور محمد أمره ودخل المنصور والعسكر مصر، فالتقاهم قطز، واحسن للمنصور، وأعطاه سنجقاً ودخلوا القاهرة[6]، وأما الملك الناصر، فقد أعمته الحيرة فيما يفعل؟ واين يتوجه؟وأخذ يفكر بالتوجه نحو الحجاز، ثم عدل إلى ناحية الكرك، فتحصن به، ولكنه قلق، فركب نحو البرية، واستجار ببعض أمراء الأعراب[7].وربما بسبب الطمع، أو نيل الخطوة لدى التتار، قام واحد من مرافقيه وخدمه هو حسين الطبردار الكردي[8]، بالتوجه إلى إحدى سرايا التتار التي أخذت تنتشر جنوب الأردن وفلسطين وأعلمهم بمكان وجود الملك الناصر ((فقصدته

---

١ المصدر نفسه (٢ ـ ٧٤).

٢ المصدر نفسه (٢ ـ ٧٤).

٣ اخبار الأيوبيين ابن العميد صـ ٥١، العلاقات الدولية (٢ ـ ٧٤).

٤ العلاقات الدولية (٢ ـ ٧٥)ن نقلاً عن تاريخ ابن خلدون.

٥ المختصر (٣ ـ ٢٠١)، العلاقات الدولية (٢ ـ ٧٥).

٦ عقدة الجمان للعيني (١ ـ ٢٣٢)، العلاقات الدولية (٢ ـ ٧٥).

٧ البداية والنهاية (١٣ ـ ٢٣٣)، العلاقات الدولية (٢ ـ ٧٥).

٨ هو الحارس الشخصي للسلطان.

التتار وأتلفوا ما هنالك من الأموال، وخرّبوا الديار، وقتلوا الكبار والصغار، وهجموا على الأعراب التي بتلك النواحي وقتلوا منهم خلقاً وسبوا نسلهم ونساءهم وقبضوا على الملك الناصر وأرسلوه مع أخيه الظاهر غازي بن محمد وابنه العزيز محمد بن يوسف وإسماعيل بن شيركوه إلى كتبغا نوين الذي سيّره بدوره إلى هولاكو وأقام الناصر عند هولاكو حتى بلغهم أخبار هزيمة التتار في عين جالوت، فقام هولاكو بقتل الناصر ثم قتلوا بقية من كان معه ولم ينج من نقمة هولاكو إلا العزيز محمد بن الناصريوسف لصغر سنه حيث بقي عند التتار حتى مات[1].

١ العلاقات الدولية (٢ ـ ٧٦)، شفاء القلوب صـ ٤٢٠.

المبحث الثاني

مقدمات معركة عين جالوت وسير أحداثها:

كان من نتائج سقوط بلاد الشام في ايدي المغول وحلفائهم ان عم الرعب والخوف سائر أرجائها، فهرب الناس باتجاه الاراضي المصرية، وقد انغرس داخل نفوسهم نتيجة ما شاهدوه من الاهوال وبسبب ما حل بهم وببلادهم من الدمار والخراب والهلاك وأن الشيء الذي سينقذ المسلمين وممتلكاتهم من الزحف المغولي المدمر هو البحث عن قيادة حكيمة قوية تترجم نواياهم تلك بإنهاء خلافاتهم وتوحيد كلمتهم، وإعادة تنظيم جموعهم ومن ثم بعث روح الجهاد الإسلامي في نفوسهم لدرء ذلك العدوان الذي استشرى خطره وبات يهدد ما تبقى من العالم الإسلامي بالدمار والهلاك والواقع أن مصر في ذلك الوقت كان كل شيء فيها ينبيء بظهور قوة جديدة[1].

أولاً: احتلال مصر هدف استراتيجي للمغول:

إن المتتبع لخط سير التتار سيدرك على وجه اليقين أن مصر هدفاً استراتيجياً للمغول وذلك لعدة اسباب منها:

١. سياسة التتار التوسعية الواضحة وهم لا ينتهون من بلد إلا ويبحثون عن الذي يليه، ومصر هي التي تلي فلسطين مباشرة.

٢. لم يبق في العالم الإسلامي بأسره قوة تستطيع أن تهدد أمن التتار إلا مصر،فقد سقطت معظم الممالك والحصون والمدن الإسلامية تقريباً وبقيت هذه القلعة الصامدة.

٣. الموقع الاستراتيجي لمصر في غاية الاهمية، فهي في قلب العالم القديم، ومتحكم في خطوط التجارة العالمية.

---

١ جهاد المماليك صـ ١٠٥.

٤. احتلال مصر بوابة لشمال افريقيا وفي ذلك الوقت كان المغرب الكبير، قد تمزق إلى دويلات صغيرة بعد سقوط دولة الموحدين، ولم تكن لها القدرة على الوقوف أمام الإمبراطورية المغولية.

٥. القوة البشرية في مصر، والطاقات الكامنة بها، واستيعابها لفلول المسلمين الهاربين من المغول كان مصدر قلق بالنسبة للمغول.

٦. مقومات حركة الجهاد الناجحة كانت متوفرة في مصر من قيادة واعية، وحمية دينية، وتجمع للعلماء والفقهاء الفارين من هول المغول، فكان المغول يخشون أن تتحول تلك المقومات إلى مشروع إسلامي لتحرير ديار المسلمين من الاحتلال المغولي[١].

٧. رغبة المغول في الهيمنة على العالم كله تستدعي منهم القضاء على دولة المماليك، ثم أن القرار باحتلال مصر أخذه امبراطور المغول في عاصمتهم بحضور كبار مستشاري الإمبراطورية المغولية.

ثانياً: خطوات سيف الدين قطز لتوحيد الصف الإسلامي:

بات سيف الدين قطز يدرك ادراكاً تاماً أن بقاء دولته الفتية يتوقف على اجتياز ذلك الامتحان الصعب المتمثل في الغزوالمغولي للممالك الإسلاميةالذي استشرى خطره، وأن يثبت انه بحق أهل للثقةالتي أولاها إياه الأمراء في مصر ورجل الساعة بالفعل بعد اجماعهم على عزل الملك المنصور علي ابن المعز أيبك وتنصيبه على دولة المماليك[٢]، ولكي تتوحد الصفوف أمام الازمة اتخذ سيف الدين قطز الخطوات التالية:

الخطوة الأولى:جمع الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأي في مصر وتناقشوا في أمر القيادة التي تتصدى للمغول وأجمع الحاضرون على أن الملك المنصور علي بن المعز أيبك الذي كان صغير السن ضعيف الشخصية لم يكن لديه من الطاقة والقدرة ما يستطيع به مواجهة الاخطار والتحديات التي باتت تهدد دولة

١ جهاد المماليك صـ ١٠٥،١٠٦.

٢ المصدر نفسه صـ ٢٠٧.

المماليك في مصر، لذا قرروا عزل السلطان الصغير[1]، وقال للحاضرين: إني ما قصدت(أي من السيطرة على الحكم) إلا نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالامر لكم، اقيموا في السلطة من شئتم[2]. فاستطاع قطز أن يجمع الناس على فكرة الجهاد والتصدي للغزاة وفوق ذلك أعلن بوضوح أنه سيجعل الأمر في الناس، يختارون من يشاءون دون التقيد بعائلة معينة أو مماليك بذاتهم[3]، وسيرة الرجل تدل على أنه صادق فيما قال وأن الانتصار لهذا الدين ورغبته في قتال التتار إعلى بكثير من رغبته في الملك وقد جعل الله نصر الامة على يديه، وليس من سنة الله ـ عز وجل ـ أن يكتب نصر الامة على يد المنافقين، والفاسدين قال تعالى:"إن الله لا يصلح عمل المفسدين" ((يونس:آية:٨١)).ومع أن قطز ـ رحمه الله ـ قد استخدم الاخلاق الرفيعة، والاهداف النبيلة في تجميع القادة والعلماء حوله، إلا أنه لم يتخل عن حزمه في الادارة وعن أخذه بأسباب النصر واختيار الفريق المساعد له وابعاد من يراه مناسباًفعزل الوزير((ابن بنت الاعز)) المعروف بولائه الشديد لشجرة الدر، وولىّ بدلاً منه وزيراً آخر يثق في ولائه وقدراته وهو((زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع)) وحفظ الامانة ووسد الأمور إلى أهلها، وأقر قائد الجيش في مكانه وهو ((فارس الدين أقطاي الصغير الصالح)) مع أنه من المماليك البحرية الصالحية، إلا أنه وجد فيه كفاءة عسكرية وقدرة قيادية وأمانة وصدق وهي مؤهلات ضرورية لأي إمارة، وهذا ذكاء سياسي من قطز فهو بذلك يستميل المماليك البحرية الذين فروا في أنحاء الشام وتركيا، ويبث الإطمئنان في نفوسهم، وهذا ـ ولا شك ـ سيؤدي إلى إستقرار الأوضاع في مصر، كما أنه سيجعل للمسلمين تستفيد من الخبرات العسكرية النادرة للماليك البحرية، كما قام قطز بالقبض على بعض رؤوس الفتنة الذين حاولوا أن يخرجوا علسلطته وحكمه، وبذلك هدأت الأمور نسبياً في مصر، وعلم قطز أن الناس إن لم يشغلوا بالجهاد شغلوا بأنفسهم، ولذلك فبمجرد أن إعتلى على عرش مصر أمر وزيره زين الدين، وكذلك قائد الجيش فارس الدين

١ المصدر نفسه صـ ١٠٥.

٢ قصة التتار صـ ٢٤٥.

٣ المصدر نفسه صـ ٢٤٦.

أقطاي الصغير أن يجهزا الجيش، ويعدا العدة وينظما الصفوف، فانشغل الناس بالإعداد لمواجهة العدو، لقد ساهمت هذه الخطوة في تقوية الوضع الداخلي، وإنشغل الناس بالجهاد، وقام السلطان بإقامة الشرع والدفاع عن البلاد، والقيام بشئون الرعية وحماية مصالح الناس، فاستقرت الأحوال المحلية، وتوحد الصف الداخلي، وهذه خطوة في تحقيق النصر[1].

الخطوة الثانية: العفو الحقيقي: أصدر السلطان قطز قراراً بالعفو العام (الحقيقي) عن كل المماليك البحرية، لقد مر بنا كيف أنه قد حدثت فتنة بين المماليك البحرية وبين المماليك المعزية، وكانت بدايات الفتنة من ست سنوات (٦٥٢هـ)، عندما قتل فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية، ثم بدأت الفتنة تتفاقم تدريجياً إلى أن وصلت إلى الذروة بعد مقتل الملك المعز عز الدين آيبك، ثم شجرة الدر، ووصل الأمر إلى أن معظم المماليك البحرية ـ وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس ـ فروا من مصر إلى مختلف إمارات الشام، ومنهم من شجع أمرا الشام على غزو مصر، ووصل الأمر إلى حدٍ خطير، فلما إعتلى قطز عرش مصر أصدر قراره الحكيم بالعفو عن المماليك البحرية وبدعوتهم إلى العودة إلى دولتهم[2]، وإستطاع قطز أن يقنع خصومه من أمراء المماليك البحرية الذين كانوا قد هربوا إلى بلاد الشام، وعلى رأسهم بيبرس البندقداري بالعودة إلى الأراضي المصرية والانضواء تحت لوائه متناسين ما بينهم من الخلافات، بعد أن ثبت لهم عجز أمراء الشام من البيت الأيوبي عن مقاومة المغول[3]، وكان سيف الدين قطز قد أدرك أهمية كسب ركن الدين بيبرس لصف المقاومة لأمور منها:

أ ـ الكفاءة القتالية العالية جداً، والمهارة القيادية رفيعة المستوى لركن الدين بيبرس، والحمية الإسلامية لهذا القاد الفذ.

ب ـ الذكاء الحاد الذي يتميز به بيبرس، والذي سيحاول قطز أن يوظفه لصالح معركة التتار بدلاً من أن يوظف في معارك داخلية ضد المماليك المعزية.

---

١ جهاد المماليك صـ٢٤٨.

٢ قصة التتار صـ٢٤٩.

٣ جهاد المماليك صـ١٠٦.

جـ ـ ولاء المماليك البحرية لركن الدين بيبرس، وأنه إن ظل هارباً فلا يأمن أحد أن ينقلب عليه المماليك البحرية في أي وقت، لذلك فمن الأحكم سياسياً أن يستقطب بيبرس في صفه، ويعظم قدره ويستغل قدراته وإمكانياته، وبذلك يضمن إستقرار النفوس وتجميع الطاقات لحرب التتار بدلاً من الدخول في معارك جانبية لا معنى لها.

لذلك لما قدم بيبرس إلى مصر بعد إستقدام قطز له، عظم قطز من شأنه جداً وأنزله دار الوزارة وعرف له قدره وقيمته وأقطعه (قليوب) وما حولها من القرى، وعامله كأمير من الأمراء المقدمين وجعله على مقدمة جيوشه فيما بعد، فنلاحظ من صفات قطز القيادية، العفو عند المقدرة وإنزال الناس منازلهم، والفقه السياسي الحكيم، والحرص على الوحدة، وقد إستطاع سيف الدين قطز أن يستفيد من طاقات المماليك البحرية وإمكانياتهم وتقوية الجيش بهم[١]. وفتح أبواب مصر أمام فلول المماليك الإسلامية في الشرق الإسلامي التي تعرضت للغزو المغولي، فدخل جموع الخوارزمية الفارة من وجه المغول لمصر، ورحب بهم سيف الدين قطز، وكذلك جموع الشام، ومعه الملك المنصور صاحب حماه[٢] وغيرهم.

الخطوة الثالثة: حرص على التواصل مع الدولة الأيوبية، فقد كانت العلاقة بين المماليك والأيوبية متوترة إلى حد كبير، بل أن الناصر يوسف الأيوبي أمير دمشق وحلب كان قد طلب من التتار بعد سقوط بغداد أن يعاونوه في غزو مصر، إلا أن سيف الدين قطز سعى لإذابة الخلافات بينه وبين أمراء الشام، وكان يسعى إلى الوحدة مع الشام أو على الأقل تحييد أمراء الشام، ليخلو بينهم وبين التتار دون أن يطعنوه في ظهره، فتواصل سيف الدين قطز مع الملك الناصر الأيوبي وعرض عليه أن يكون تابعاً للناصر ثم أن قطز ـ رحمه الله ـ علم أن الناصر يوسف قد يتشكك في أمر الوحدة الكاملة أو في أمر القدوم إلى مصر، فعرض عليه بإمداده بالمساعدة لحرب التتار، فتحققت المصلحة المشتركة في هزيمة التتار وإن لم تتحقق الوحدة الكاملة بين مصر والشام، قال قطز في أدب جم وخلق رفيع: وإن إخترتني خدمتك وإن إخترت

---

١ قصة التتار صـ٢٥٣.

٢ جهاد المماليك صـ١٠٦.

قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت لك العساكر صحبة من تختاره[1]. لكن الناصر يوسف لم يستجب لهذه النداءات النبيلة من قطز، وآثر التفرق على الوحدة، فماذا كانت النتيجة؟ سقوط حلب ودمشق، ووقوع الملك الناصر في الأسر ثم قتله بعد عين جالوت، ولم يكتف قطز بهذه الجهود الدبلوماسية مع الناصر بل راسل بقية أمراء الشام، فاستجاب له الأمير المنصور صاحب حماه والتحق بعض جيشه بقطز، وأما المغيث عمر صاحب الكرك بالأردن فقد آثر أن يقف على الحياد، وقد حاول مرتين قبل ذلك أن يحتل مصر، وصده قطز في المرتين، وأما الأشرف الأيوبي صاحب حمص فقد رفض الإستجابة تماماً لقطز، وفضل التعاون المباشر مع التتار، وبالفعل أعطاه هولاكو إمارة الشام كلها ليحكم باسم التتار، وأما الأخير وهو الملك السعيد ((حسن بن عبد العزيز)) صاحب بانياس فقد رفض التعاون مع قطز هو الآخر رفضاً قاطعاً، بل إنضم بجيشه إلى قوات التتار يساعدهم في فتح بلاد المسلمين، وهكذا استطاع قطز أن يكسب أمير حماه المنصور وانضم إليه جيش الناصر، وحيَّد إلى حد كبير المغيث عمر صاحب الكرك، وبذلك يكون قد إنضم الكثير من الجنود الشاميين مع سيف الدين قطز[2].

الخطوة الرابعة: أراد الملك سيف الدين قطز قبل الشروع في مواجهة المغول أن يختبر الصليبيين على ساحل بلاد الشام، لمعرفة موقفهم من ذلك الصراع الذي أصبح محاذياً لهم، لتخوفه من إنضمام هؤلاء الصليبيين إلى المغول عند نشوب الحرب، وبناء عليه توجهت سفارة مصرية إلى عكا تطلب من الصليبين السماح للجيوش الإسلامية بإجتياز بلادهم وشرا ما تحتاجه من المؤن، والواقع أن الصليبيين لم يخفوا مرارتهم وكراهيتهم وحقدهم للمغول بعن أن قام المغول بمهاجمة مدينة صيدا ونهبها، كما أنه لم تتوافر عندهم الثقة فيهم لما ارتكبوه من المذابح الجماعية، على حين أن الصليبيين اتصلوا بالحضارة الإسلامية وألفوها، بل ونتيجة لذلك أبدوا أول الأمر إستعدادهم لبذل المساعدة العسكرية للسلطان قطز إلا أن السلطان سيف الدين شكرهم حينما

١ قصة التتار صـ٢٥٥.
٢ قصة التتار صـ٢٥٨.

عرضوا عليه أن يسيروا معه نجدة واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه[1]، واستطاع السلطان سيف الدين قطز أن يتحصل على موافقة الصليبيين بالسماح لقواته باجتياز الأراضي الساحلية التي تحت أيديهم، وجعلته في مأمن من ذلك الجانب، وتجنب خطر إشتباكه في أكثر من جهة في تلك اللحظات الحرجة[2].

الخطوة الخامسة: تحكيم الشريعة في أموال الحرب: كانت النفقات للإعداد كبيرة، من تجهيز الجيش، وإعداد التموين اللازم له، وإصلاح الجسور والقلاع والحصون، وإعداد العدة اللازمة للحرب، وتخزين ما يكفي للشعب في حال الحصار، وكانت الأزمة الاقتصادية التي تمر بها البلاد طاحنة، وليس هناك وقت لخطة خمسية أو عشرية، والتتار على الأبواب وقد وصلوا غزة والدولة تحتاج للأموال، فجمع سيف الدين قطز مجلسه الاستشاري ودعا إليه إلى جانب الأمراء والقادة والعلماء والفقهاء وعلى رأسهم سلطان العلما الشيخ العز بن عبد السلام، وبدأوا يبحثون عن حل لتجهيز كتائب المسلمين، واقترح سيف الدين قطز، أن نفرض ضرائب لدعم الجيش[3]. إلا أن الشيخ العز بن عبد السلام تحفظ على هذا المقترج ولم يوافق عليه إلا بشرطين واصدر هذه الفتوى: إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كله قتالهم (أي العالم الإسلامي)، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم (أي فوق الزكاة)، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج والذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب، وأن تبيعوا مالكم من ممتلكات والآلات (أي يبيع الحكام والأمراء والوزراء ما يمتلكون)، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه وتساووا في ذلك أنتم والعامة، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات فلا[4]. فقد بين الشيخ العز بن عبد السلام، بأنه لا يجوز فرض ضرائب إلا بعد أن يتساوى الوزراء والأمراء مع العامة في الممتلكات، ويجهز الجيش بأموال الأمراء والوزراء، فإن لم تكف هذه الأموال جاز هنا فرض الضرائب على الشعب

١ السلوك (١ ـ ٤٣٠)، جهاد المماليك صـ١٠٨.
٢ جهاد المماليك صـ١٠٩.
٣ قصة التتار صـ٢٨١.
٤ بداع الزهور (١ ـ ٣٠٢)، جهاد المماليك صـ١١٠.

بالقدر الذي يكفي بتجهيز الجيش ليس أكثر من ذلك[1]. لقد قبل سيف الدين قطز فتوى العز بن عبد السلام ببساطة وبدأ بنفسه وباع كل ما يملك وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك، فانصاع الجميع وامتثلوا أمره، فقد أحضر الأمراء كافة ما يملكون من مال وحلي نسائهم وأقسم كل واحد منهم أنه لا يملك شيئاً في الباطن، ولما جمعت هذه الأموال وضربت سكاً ونقداً وأنفقت في تجهيز الجيش، ولم تكف هذه الأموال نفقة الجيش، فقرر قطز على كل رأس من أهل مصر والقاهرة من كبير وصغير ديناراً واحداً، وأخذ من أجرة الأملاك شهراً واحداً، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً، وأخذ من الترك الأهلية ثلث المال، وأخذ من الغيطان والسواقي أجرة شهر واحد، وبلغ جملة ما جمعه من الأموال أكثر من ستمائة ألف دينار[2]. فجمع بذلك الأسلوب الفريد للمال الحلال الذي لا ظلم ولا عدوان فيه[3]. وكان هذا العمل الجليل من اسباب النصر في عين جالوت قال تعالى"إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم" (محمد ، آية : ٧) ونصر الله لا يكون إلا بتطبيق شرعه، والجيش المسلم الذي يبتعد عن شرع الله يكون بعيداً عن نصر الله عز وجل، إن ما قام به سيف الدين قطز في الاستمتاع لرأي الشيخ العز بن عبد السلام ثم تنفيذه ترتب عليه شحنة معنوية قوية شحذت همم الناس للجهاد وبذل الغالي والنفيس في سبيل الله، إذ يمكن القول أن تلك الفتوى التي أصدرها العز بن عبد السلام، في ذلك الوقت الذي كان الشرق الإسلامي بلا خلافة شرعية، أدت الدور نفسه الذي كانت الخلافة ستؤديه فيما لو كانت قائمة، إذ كانت فتواه تلك بمثابة سلطة روحية ساعدت المظفر في الحصول على استجابة عامة المسلمين بدفع ما قرر عليهم من أموال، مستشعرين بأن ذلك وأجب يفرضه عليهم دينهم الحنيف[4]، وكان الشيخ العز بن عبد السلام وعلماء مصر يحثون الناس في سبيل الله تعالى، ووعظ الأمراء والحكام وحرك قلوبهم فتنبه فيها الإيمان، فأخرجوا ما عندهم، ورأى الناس ذلك فتسابقوا إلى بذل الجود، وكثرت الأموال، فأعدوا العدة وجمعوا السلاح، وأقيمت معسكرات التدريب في كل

---

١ قصة التتار صـ٢٨٣.

٢ بدائع الزهور (١ ـ ٣٠٥)، جهاد المماليك صـ١١٠.

٣ الأيوبيون بعد صلاح الدين صـ٤٣٩ للصلابي.

٤ جهاد المماليك صـ١١٠.

مكان واهتزَّت البلدة بالهتاف والتكبير، وصار كل مسلم يشتهي الوصول إلى المعركة، وهـذا درس مهـم في أهمية التكامل بين أمراء المماليك والعلماء في مقاومة التتار[1].

ثالثاً: رسالة هولاكو إلى سيف الدين قطز:

أرسل هولاكو رسالة إلى سلطان مصر كلها تهديد ووعيد قال فيها: من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم، باسمك اللـه باسط الأرض ورافع السماء يعلم الملك المظفر قطز، الذي هـو مـن جـنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الاقليم يتنعمون بانعامه، ويقتلـون مـن كـان بسـلطانه بعـد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعـمال، إنا نحن جند اللـه في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضـبه، وأسـلموا إلينـا امـركم، قبل أن ينكف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرفـق لمـن شـكى قـد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظـم العبـاد، فعلـيكم بـالهرب، وعلينـا الطلب، فأي أرض تأويكم وأي طريق تنجـيكم، وأي بـلاد تحمـيكم، فـما مـن سـيوفنا خـلاص، ولا مـن مهابتنا خلاص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق وقلوبنـا كالجبـال، وعـددنا كالرمـال، فالحصـون لـدينا لا تمنـع والعسـاكر لقتلنـا لاتنفـع، ودعـاؤكم علينـا لا يسـمع، فـإنكم أكلـتم الحـرام، ولا تعفـون عـن الكـلام، وخنـتم العهـود والإيمـان وفشـا فـيكم العقـوق والعصـيان فـأبشروا بالمذلـة والهوان "فاليوم تجزون عذاب الهـون بمـا كنـتم تسـتكبرون في الأرض بغـير حـق وبمـا كنـتم تفسـقون" "وسيعلم الذين ظلمـوا أي منقلـب ينقلبـون" فمـن طلـب حربنـا نـدم ومـن قصـد أماننـا سـلم، فـإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم مالنا وعليكم مـا علينـا، وإن خلفـتم هلكـتم، فـلا تهلكـوا نفوسـكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر وقد ثبت عندكم ان نحـن الكفـرة، وقـد ثبـت عنـدنا أنكـم الفجـرة وقـد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير المذلة ما لملوكم علينا من سـبيل، فـلا تطيلـو الخطـاب، واسرعـوا بـرد الجـواب، قبـل أن تضرم الحـرب

[1] المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتمكين الدكتور عبد الحليم عويس صـ١٢٢ ـ ١٢٥.

نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجـدون مناجاهـا ولا عـزاً ولا كافيـاً ولا حـرازاً، وتـدهون منـا بـأعظم داهية، وتصبح بلادكم منا خالية، فقد انصفناكم إذ راسـلناكم، وايقظنـاكم إذ حـذرناكم، فـما بقـي لنـا مقصد سواكم والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى.

ألا قـــل لمصر هـــا هُــــلاوُن[1] قـــد أتى

بحـــدّ ســيوف تُـــنضى وبـــواتر

يصــــير أعـــز القـــوم منـــا أذلـــة

ويُلحـــق أطفـــالاً لهـــم بـــالأكبر[2]

١ ـ **مجلس شورى حربي:** كانت الرسالة بمثابة التحدي النهـائي لآخـر قيـادة إسـلامية، وعـلى ضـوء الموقف الذي ستقرر هذه القيادة اتخاذه سيتوقف مصير عالم الإسلام وحضارته التي وضعها كدح القـرون الطوال، كل المؤشرات كانت تقود إلى الاستلام للتحدي والإذعان لضروراته.. ولكنه الإيمان لـه منطـق آخـر، أنه لا يمنح القدرة عل الحركة في ظروف الشلل التام، فحسب، لكنه بصيرة تخترق حجب العمـى والظـلام، لكي تطل على الأفق يشع ضياء، وبالحركة القديرة، والرؤية الصائبة تجابه القيادات الفذة تحديات التاريخ ومحنه وويلاته، فتخرج منها ظافرة، وتحقق بالاستجابة قفزة نوعية في مجرى الفعل والتحقق[3]، قرأ سـيف الدين قطز الرسالة واستدعى الأمراء ليعرض الأمر عليهم وجرى هذا الحوار:

قطز: ماذا ترتؤن؟

ناصر الدين قميري: إن هـولاكو فضـلاً عـن أنـه حفيـد جنكيـز خـان، فـإن شـهرته وهيبته غنية عن الشرح والبيان وإن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته الآن، فلو ذهبنا إليه نطلب الأمان فليس في ذلك عيب وعـار، ولكـن تنـاول السـم بخداع الـنفس واسـتقبال المـوت، أمـران بعيـدان عـن حكـم العقـل، أنـه لـيس الإنسـان

١ السوك للمقريزي(١/٥١٥،٥١٤) صيغة لاسم هولاكو.
٢ المصدر نفسه(١/٥١٥)، أبطال ومواقف صـ٤٤١.
٣ دراسات تاريخية عماد الدين خليل صـ٨٤.

الذي يطمأن إليه، فهولا يتورع عن إحتراز الرؤوس، وهو لا يفي بعهده وميثاقه، فإنه قتل فجأة الخليفة وعدداً من الأمراء بعد أن أعطاهم العهد والميثاق، فإذا سرنا سيكون مصيرنا هذا السبيل.

قطز: والحالة هذه فإن كافة ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات الفجائع، وأصبحت البلاد من بغداد وحتى الروم خراباً يباباً، وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل، فلو أننا تقدمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خراباً كغيرها من البلاد، وينبغي أن تختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحد من الثلاثة: الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن، أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ذلك لأنه لا يمكن أن نجد مفراً إلا المغرب، وبيننا وبينهم مسافات بعيدة[1].

قميري: وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم، إذ أنه لا يوثق بعودهم[2].

عدد من الأمراء: ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم، فمر بما يقضيه رأيك.

قطز: إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق.

الظاهر بيبرس: أرى أن نقتل الرسل، ونقصد كتبغا ـ قائد المغول ـ متضامنين، فإذا إنتصرنا أو هزمنا فسوف نكون في تلك الحالتين معذورين.

أيد الأمراء المجتمعون كافة هذا الرأي، وكان على قطز أن يتخذ قراره وقد إتخذه فعلاً[3].

٢ ـ النفير العام: وفي هذه الأثناء أراد المظفر أن يقطع كل مجال للتردد في الخروج لمواجهة المغول، فأصدر أوامره إلى ولاة الأقاليم المصرية بجمع الجيوش وحث الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله ونصرة دين رسول الله صى الله عليه وسلم، وطالب الولاة بإزعاج الأجناد للخروج للسفر، ومن وجد منهم من إختفى يضرب بالمقارع، وسار بنفسه حتى نزل الصالحية، حيث تكامل عنده وصول العساكر

---

١ سيف الدين قطز قاهر المغول، نور الدين خليل صـ١١٢.

٢ المصدر نفسه صـ١١٤.

٣ دراسات تاريخية صـ٨٥.

المصرية، ومن إنضم إليهم من عساكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم، وذلك في يوم الاثنين الخامس عشر من شعبان سنة ٦٥٨هـ/يوليو١٢٦٠م[١]، وفي هذه المنطقة طلب قطز الأمراء واجتمع بهم وتكلم معهم في المسير لقتال المغول، وهنا يبدو أن بعض هؤلاء الأمراء عاودهم الخوف من مواجهة المغول وامتنعوا عن الخروج، الأمر الذي أثار حماسة السلطان المظفر قطز فقال لهم: يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه فمن إختار الجهاد يصحبني ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين[٢]، وأمام هذا التصميم الذي أبداه قطز لمواجهة المغول، والذي أعقبه تحليف من وافقه من الأمراء على المسير، ومن ثم إصدار أوامره إلى قواته بالمسير لملاقاة العدو مهما كانت الظروف حيث عبر عن ذلك بقوله: "أنا ألقي التتار بنفسي" لم يسع بقية الأمراء المعارضين إلا الموافقة، وانقضى الجمع على الخروج صفاً واحداً لإنقاذ المسلمين من ويلات الغزو المغولي المدمر[٣].

٣ ـ قتل سفراء هولاكو: وكان أول إجراء قام به المظفر قطز ضد المغول هو إستدعاء رسل هولاكو واستقبالهم استقبالاً جافاً إيذاناً لإعلان الحرب عليهم، ومن ثم القبض عليهم وضرب عنق كل منهم أمام باب من أبواب القاهرة وتعليق رؤوسهم على باب زويلة وأبقى على صبي من الرسل وجعله من مماليكه، وكانت تلك الرؤوس أول ما علق على باب زويلة من المغول[٤]. ويبدو أن قطز اعتبر الرسل محاربين وأنهم ليس لهم الحصانة الكافية لمنع قتلهم، حيث أن المغول قتلوا النساء والأطفال والشيوخ غير المقاتلين، وبأعداد لا تحصى في سمرقند وبخارى وبغداد وحلب ودمشق وغيرها من بلاد المسلمين، كما أن رسل التتار أغلظوا القول وأساؤوا الأدب وتكبروا عليه وكان الهدف من تعليق رؤوس المغول على أبواب القاهرة الرئيسية رفع معنويات الناس وإعلان الحرب على التتار وإعلامهم بأنهم قادمون على قوم يختلفون كثيراً عن الأقوام الذين قابلوهم من قبل، وهذا يؤثر سلباً على

١ السلوك نقلاً عن جهاد المماليك صـ١٢٠.

٢ المصدر نفسه صـ١٢٠.

٣ المصدر نفسه صـ١٢٠.

٤ تاريخ الدولة المغولية في إيران صـ١٤٤، جهاد المماليك صـ١٢٠.

التتار فيلقي في قلوبهم ولو شيئاً من الرعب أو التردد، ويبقى الهدف الأكبر لقتل الرسل هو قطع التفكير في أي حل سلمي للقضية والاستعداد الكامل الجاد للجهاد، فبعد قتل رسل المغول لن يقبل التتار باستسلام مصر حتى لو قبل بذلك المسلمون، كان هذا هو إجتهاد قطز والأمراء في قتل رسل المغول، ولكن هذا يخالف الأصل في الإسلام، حيث أن الرسل لا تقتل، لا رسل المسلمين، ولا رسل الكفار، ولا حتى رسل المرتدين عن الإسلام[1]، فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، يقول عبد الله بن مسعود: جاء ابن النواحة وابن أشال رسولا مسيلمة إلى النبي صلى اله عليه وسلم فقال لهما: "أتشهدان أني رسول الله؟ قالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: آمنت بالله ورسوله، لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما[2]، يعلق عبد الله بن مسعود على هذا الحديث فيقول: مضت السنة أن الرسل لا تقتل[3]. وهذا الحديث يدل على تحريم قتل الرسل الواصلين من الكفار، وإن تكلموا بكلمة الكفر في حضرة الإمام أو سائر المسلمين[4]. وما حدث من سيف الدين قطز، مخالف لأحكام الشريعة والكمال لله وحده.

رابعاً: اليوم الفصل:

١ ـ **مقدمات الصدام:** لم يعد أمام المظفر قطز بعد إتمام تلك الاستعدادات سوى إختيار مكان وزمان المعركة التي كان ينوي منازلة المغول فيها، وهنا تبدو لنا إستراتيجية جديدة إتبعها قطز في هذه المواجهة الحاسمة، ذلك أنه إذا كان حكام المسلمين إبتداء من الدولة الخوارزمية حتى أرض فلسطين قد التزموا مبدأ التحصن داخل مدنهم إنتظار لهجوم المغول عليهم ومحاولة صده فقط فإن السلطان قطز أدرك عدم جدوى الأساليب الدفاعية ورأى أن من الأفضل منازلة المغول قبل وصولهم إلى الأراضي المصرية واختار لذلك النزال مكاناً مناسباً خارج دولته هو منطقة عين جالوت بأرض فلسطين الذي يمتاز بقربه من المناطق الساحلية الذي كان يسيطر عليها

---

١ قصة التتار صـ٢٧٨.

٢ مسند أحمد، وسنن أبي داؤد، نقلاً عن قصة التتار صـ٢٧٩.

٣ قصة التتار صـ٢٧٩.

٤ نيل الأوطار للشوكاني نقلاً عن قصة التتار صـ٢٧٩.

الصليبيون، الذين أبدوا إستعدادهم الكامل لتسهيل مرور القوات الإسلامية إليه، هذا بالإضافة إلى كون هذا الجزء من أرض فلسطين منطقة فسيحة يعلوها جبل[١]، الأمر الذي سيمكن قواته من مواجهة العدو في كل الظروف، ففي حالة الاشتباك المباشر مع العدو في معارك مكشوفة، يكون القتال في منطقة منبسطة، وفي حالة مناوشته من بعيد يكون الجبل مساعداً للرماة لأداء واجبهم عل الوجه الأكمل، كما أن إختيار هذا المكان في بلاد الشام لمنازلة المغول، يعطي في حد ذاته دفعة قوية لتلك الجموع الشامية الهاربة منهم إلى مصر والتي انضمت إلى جيش المماليك، للاستبسال والتفاني في الجهاد وطمعاً في العودة مرة أخرى إلى بلادها، خاصة وأن هناك أمراء أيوبيين في ركاب هذه الجيوش، كان الملك المظفر قطز قد وعدهم بإعادتهم إلى إماراتهم بعد طرد المغول من بلاد الشام، كما إختار قطز لهذه المعركة الفاصلة شهر أغسطس الذي تكون فيه الحرارة مرتفعة للتأثير على تلك الجموع المغولية القادمة من صحاري منغوليا الباردة[٢]، للتقليل من نشاطهم القتالي لكونهم لم يعتادوا على المناخ الحار الذي عادة ما يسود مناطق فلسطين في ذلك الوقت[٣].

٢ ـ **تحرك جيوش المسلمين:** طلب سيف الدين قطز من الأمراء الاجتماع العاجل، وحثهم على القتال وذكرهم بما وقع في أقاليم الإسلام[٤]، وقال لهم: يا مسلمين قد سمعتم ما جرى من أهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وما منكم أحد إلا وله مال وحريم وأولاد، وقد علمتم أن أيدي التتار تحكمت في الشام وقد أوهنوا قوى دين الإسلام، وقد لحقني على نصرة دين الإسلام الحمية، فيجب عليكم يا عباد الله القيام في جهاد أعداء الله حق القيام، يا قوم جاهدوا في الله بصدق النية تجارتكم رابحة وأنا واحد منكم وها أنا وأنتم بين يدي رب لا ينام ولا يفوته فائت ولا يهرب منه هارب، فعند ذلك ضجت الأمراء بالبكاء وتحالفوا أنهم لا بقاء لهم في

---

١ الروض الزاهر لابن عبد الظاهر صـ٦٤، جهاد المماليك صـ١١٦.

٢ تاريخ الدولة المغولية في إيران صـ١٢، جهاد المماليك صـ١١٦.

٣ جهاد المماليك صـ١١٦.

٤ المصدر نفسه صـ١٢١.

الدنيا إلى أن تنكشف هذه الغمة، فعند ذلك جرد السلطان، الأمير ركن الدين بيبرس وصحبته جماعة من العساكر وأرسله طليعة[1].

٣ ـ معركة غزة: تحركت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري نحو فلسطين، فسار حتى نزل غزة في شعبان ٦٥٨هـ /يولية ١٢٦٠م واستطاع ركن الدين بيبرس أن يحقق انتصاراً ساحقاً على الحامية المغولية في غزة وكانت هزيمة قاسية لهم، واكتشف المغول أن هناك من المسلمين من يتحرك من خلال خطط عسكرية، وأبعاد استراتيجية، وأنه لا زال من المسلمين من يحمل السيوف للدفاع عن دينه وأرضه وشرفه وكرامته، وكانت هذه المعركة من أهم المعارك بالنسبة للمسلمين، فقد رأى المسلمون بأعينهم أن التتار يفرون، وسقطت المقولة التي انتشرت في تلك الآونة التي كانت تقول: من قال لك أن التتار يهُزمون فلا تصدقه، وكان لهذه الموقعة أثر ايجابي على جيش المسلمين وكان لها أثر سلبي هائل على جيش التتار[2]. واصبحت غزة ملكاً للمسلمين وبهذا تعتبر معركة غزة هذه أولى المعارك التي انتصر فيها المسلمون على المغول كما يمكن القول أن هذا الانتصار الذي تحقق للمسلمين كان دافعاً قوياً لهم للتقدم إلى الشمال باتجاه عين جالوت للقاء المغول في موقع أفضل خاصة وأن تلك الهزيمة التي مني بها جيش الأمير المغولي بأيدر لم تقابل بأي اهتمام من القائد المغولي كيتوبوقا الذي بقي على جموده إلى أن وصلت الجيوش الإسلامية عين جالوت وكان هذا الانتصار من الأسباب التي جعلت الصليبيين تحرص على خطب ود المسلمين بتقديم العون والمساعدة لهم والسماح لجيوش المماليك بعبور أراضيهم إلى داخل فلسطين[3]، ولما رحل سيف الدين قطز من غزة سلك طريق الساحل فاجتاز مدينة عكا وهي يومئذ بيد الفرنج، فلما عاينوه، وأرسلوا له الهدايا والتحف والضيافات، وألتقاه ملوكها فأعرضوا عليه أن يأخذ معه نجدة فلاطفهم السلطان وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وما له حاجة بنصرتهم وقال لهم: والله العظيم متى تبعهم منهم فارس أو راجل ـ يريد أذى عسكر

١ نزهة الانام في تاريخ الإسلام صـ ٢٦٣.

٢ قصة التتار صـ ٣٠١.

٣ جهاد المماليك صـ ١٢١.

المسلمين ـ قتلتكم قبل ملتقاي التتار وقد عرفتكم ذلك، عند ذلك كتب الملوك إلى اتباعهم بما سمعوه[1]،ورفض السلطان قطز تلك المساعدة التي عرضها الصليبيون عليه، فقد كان حريصاً كل الحرص على صبغ حروبه ضد المغول والصليبيين معاً بصبغة إسلامية خالصة، كما أن هذا يشير إلى رغبة قطز ومشروعه الجهادي يستهدف دحر العدوان المغولي ومن ثم التوجه إلى الساحل الشامي لتطهيره من نير الاحتلال الصليبي، وحرص في الوقت نفسه على أن لا تكون للصليبيين عليه منة عند مهاجمتهم[2].

٤ ـ **معلومات استخبارية مهمة:**قاد السلطان قطز جيشه واقترب من عين جالوت، وبينما هو في الطريق جاء رجل من أهل الشام وقدم معلومات استخبارتية لسيف الدين قطز، مرسل من قبل صارم الدين أيبك وهو أحد المسلمين الذين أسرهم هولاكو عند غزوه بلاد الشام، ثم قبل الخدمة في صفوف جيش التتار، واشترك معهم في مواقعهم المختلفة وجاء معهم إلى موقعة عين جالوت، ولا ندري إن كان قد قبل التعاون مع التتار لرغبة في نفسه، أم قبل ذلك مضطراً وهو يعد العدة لينفع المسلمين فهذا بينه وبين الله عز وجل، ولكن في موقعة عين جالوت قرر أن يخدم جيش المسلمين بقدر ما يستطيع، وقد نقل هذا الرسول إلى قطز ـ العلومات التالية:

أ ـ جيش التتار ليس بقوته المعهودة، فقد أخذ هولاكو معه عدداً من القادة والجند، فلم يعد الجيش على الهيئة نفسها التي دخل بها الشام، فلا تخافوهم.

ب ـ ميمنة التتار أقوى من ميسرتهم، فعلى جيش المسلمين أن يقوي جداً ميسرته التي ستقاتل ميمنة التتار.

ج ـ أن الأشرف الأيوبي أمير حمص سيكون في جيش التتار بفرقته،ومع صارم الدين أيبك، ولكنهم سوف ينهزمون بين يدي المسلمين..أي أن الرسالة تقول أن الاشرف الأيوبي قد راجع نفسه وآثر أن يكون مع جيش قطز، ولكنه خرج مع

---

١ نزهة الأنام في تاريخ الإسلام صـ ٢٦٣.

٢ جهاد المماليك صـ ١٢٢.

جيش التتار مكيدة لهم، وتفكيكاً لصفهم[1]. ومع ذلك أخذ المسلمون حذرهم، واستفادوا من هذه الأمور دون تفريط في الإعداد أوتهاون في الاحتياط والحذر، وبذلك انتهى يوم الرابع والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ وقضى المسلمون الليل في القيام والابتهال والدعاء والرجاء[2].

٥ ـ **الاشتباك مع المغول:** كان سيف الدين قطز قد بعث الأمير ركن الدين بيبرس على رأس فرقة من الكشافة لاستطلاع أخبار العدو وتحديد مكانه، واشتبك بيبرس مع طلائع الجيش المغولي واستمر يناوشهم إلى أن وافاه السلطان قطز بالجيش الرئيسي عند عين جالوت في الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ / سبتمبر ١٢٦٠م حيث ألتقى الجمعان وذلك بعد طلوع الشمس وقد امتلأ الوادي بالناس وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء ايذاناً ببدء الهجوم[3]، كان الجيش المغولي بقيادة كتبغا، وكان قطز يعرف جيداً تفوق جيشه في العدد على العدو، ولذا أخفى قواته الرئيسية في التلال القريبة ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس، ولما لبث كتبغا أن وقع في الفخ، إذ حمل بكل رجاله على القوات الإسلامية التي شهدها أمامه، فأسرع بيبرس في تقهقره إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كتبغا له، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة وجرت بين الطرفين معركة طاحنة، واضطربت قوات المماليك بعض الوقت[4] وانكسرت ميسرة المسلمين في بداية الأمر كسرة شنيعة، فحمل الملك المظفر بنفسه في طائفة من عساكره وأردف الميسرة حتى جبر ضعفها، ثم اقتحم القتال وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسناً وهو يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت في سبيل الله ويكر بهم كرة بعد كرة[5]، وألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته((وأسلاماه)) وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة فأيده الله بنصره، ولم تنقضي سوى ساعات حتى بدأ تفوق المسلمين في الميدان،وسحقت زهرة القوات المغولية، ومر العسكر في إثر

---

١ قصة التتار صـ٣١٣.
٢ المصدر نفسه صـ ٣١٣.
٣ جهاد المماليك صـ ١٢٢.
٤ دراسات تاريخية صـ ٨٧.
٥ جهاد المماليك صـ ١٢٣.

التتار إلى قرب بيسان، فرجع التتار،والتقوا بالمسلمين لقاءً ثانياً أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم، وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول: ((وأسلاماه)) ثلاث مرات:يا الله انصر عبدك قطز على التتار)) فلما انكسر التتار الكسرة الثانية نزل السلطان على فرسه ومرغ وجهه على الارض وقبلها وصلى ركعتين لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت ايديهم بالغنائم[1]، واستمر ركن الدين بيبرس في مطاردة فلول المغول حتى افامية فوجدهم قد تجمعوا بها ووحدوا صفوفهم للمرة الثالثة استعداداً لمواجهتهم، فهاجمهم بكل شجاعة وكسرهم كسرة شنيعة وغنم منهم اموالاً طائلة وخيولاً كثيرة[2].

٦ ـ **شجاعة القائد المغولي:**ورغم الهزيمة القاسية التي مُني بها المغول في هذه المعركة فإن أحد المؤرخين المسلمين وهو رشيد الدين فضل الله الهمذاني، لم ينكر ما كان للقائد المغولي كيتوبوقا من صفات بطولية في هذه المعركة، فعندما اقترح عليه أحد اعوانه الإنسحاب أجاب:علينا أن نموت هنا، هذه هي النهاية ويعيش الخان ويسعد[3]، وفي رواية:لا مفر من الموت هنا، فالموت مع العزة والشرف خير من الهروب مع الذل والهوان، وسيصل رجل واحد، صغيراً أو كبيراً من أفراد هذا الجيش إلى حضرة الملك ويعرض عليه كلامي قائلاً:إن كيتوبوقا لم يشأ أن يتراجع وقد كلله الخجل فضحى بحياته الغالية في سبيل واجبه، وينبغي ألا يشق على الخاطر المبارك نبأ فناء جيش المغول، وليتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاماً واحداً، وأن جياد قطعانه لم تلد المهور، فليدم اقبال الملك، مادامت نفسه الشريفة آمنة سالمة، فإنها تكون عوضاً لكل مفقود، إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والاتباع أمر سهل يسير[4]، كما يذكر رشيد الدين نفسه رأياً مخالفاً في كيفية قتل القائد المغولي كيتوبوقا، حيث يشير إلى أنه وقع في بداية الأمر في الاسر، ثم أحضره قطز إلى مجلسه مكبلاً ودار بينهما حواراً بداه قطز مخاطباً كيتوبوقا بقوله: أيها الرجل الناكث العهد ها انت بعد أن

١ دراسات تاريخية صـ ٨٨.

٢ جهاد المماليك صـ ١٢٤.

٣ سيف الدين قطز قاهر المغول صـ ١٣٨.

٤ جامع التواريخ (٢ ـ ٣١٤)، جهاد المماليك صـ ١٢٤.

سفكت كثيراً من الدماء البريئة وقضيت على الابطال والعظماء بالوعود الكاذبة، وهدمت البيوتات العريقة بالاقوال الزائفة المزورة قد وقعت أخيراً في الشرك. وعندما سمع كيتوبوقا كلامه انتفض وهو مكبل اليدين كأنه الفيل الهائج، فأجاب قائلاً: أيها الفخور المغتر، لا تتباه كثيراً بيوم النصر هذا، فأنا إذا قُتلت على يديك فإني أعلم أن ذلك من الله لا منك، فلا تُخدع بهذه المصادفة العاجلة، ولا بهذا الغرور العابر، فإنه حين يبلغ حضرة هولاكو نبأ وفاتي سوف يغلي بحر غضبه وستطأ سنابك خيل المغول البلاد من آذربيجان حتى ديار مصر، وستحمل رمال مصر في مخالي خيولهم إلى هناك، إن لهولاكو خان ثلاثمائة ألف فارس مثل كيتوبوقا، فأفرض أنه نقص واحد منهم، فقال له قطز:لا تفخر إلى هذا الحد بفرسان توران، فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع لا بالرجولة والشهامة[1]. فرد عليه كيتوبوقا: إني كنت عبداً للملك ما حييت ولست مثلك ماكراً وغادراً بادر بالقضاء عليّ بأسرع ما يمكن حتى لا أسمع تأنيبك. فأمر قطز بقتله ففصلوا رأسه عن جسده، ولما بلغ هولاكو خان نبأ نعي كيتوبوقا، وعلم بحديثه في ذلك الموقف أسف أسفاً شديداً على وفاته، واشتعلت نيران غضبه وقال: أين أجد خادماً آخر مثله يبدي مثل هذه النوايا الطيبة، ومثل هذه العبودية ساعة هلاكه[2].

وبالرغم مما يعرف به رشيد الدين من محاباة للمغول، فإنه لا يمكن أن ننكر ما كان عليه كيتوبوقا من مكانة عند المغول، يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره وكان بطلاً شجاعاً مقداماً، وخبيراً بالحروب وافتتاح الحصون، وكان هولاكو يثق به ولا يخالفه فيما يشير به، وبموته استراح الإسلام منه، حيث كان شر عصابة على الإسلام وأهله[3]. وعلق نور الدين خليل على شجاعة القائد المغولي والقصص المنسوبة إليه فقال: وننظر إلى تلك الروايات ببالغ الريبة، بل والإنكار، فكيف حصل الهمذاني على رسالة شفهية حملها مجهول بلغة مغولية، بطبيعة الحال، هذا إن كانت هناك رسالة أصلاً وكذلك الحال فيما يتعلق بالروايات الأخرى، لا شك أن تلك

---

١ جامع التواريخ (٢ ـ ٣١٥ ـ ٣١٦)، جهاد المماليك صـ ١٢٥.

٢ المصدر نفسه (٢ ـ ٣١٥ ـ ٣١٦)، المصدر نفسه صـ ١٢٥.

٣ النجوم الزاهرة (٧ ـ ٩١)، المغول للعريني صـ ٣٦١.

الروايات محض اختلاف وتصور خيال، حتى وإن رددها المؤرخون الواحد تلو الآخر، سواء مؤرخو العرب أو الغرب[1].

٧ ـ تحرير دمشق وبلاد الشام: لم تنته مهمة الملك المظفر بعد ما زال هناك تتار في دمشق، وحمص وحلب وغيرها من المدن الشامية فكانت دمشق هي أولى المحطات الإسلامية التي تقع تحت سيطرة التتار، وهي تقع على مسافة مائة وخمسين كيلو متراً تقريباً من عين جالوت إلى الشمال الشرقي منها، فقبل وصوله إلى دمشق أرسل رسالة عظيمة تحمل بشريات النصر الكبير وكان مما جاء في هذه الرسالة:أما النصر الذي شهد الضرب بصحته، والطعن بنصيحته، فهو أن التتار خذلهم الله، استطالوا على الايام وخاضعوا بلاد الشام واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام وهذه عساكر الإسلام مستوطنة في مواطنها ما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة ولا تثبت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة ناسخة ولا عقدت برجمة ناقوس إلا وحلها الآذان ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الاصيل، وصار اليوم كأمس ونُسخت آية الليل بسورة الشمس إلى أن تراءت العين بالعين واضرمت نار الحرب بين الفريقين، فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضوا ويترك في بطن كل من المشركين شلوا، وقتل من المشركين كل جبار عنيد، ذلك بما قدمت أيديهم((وما ربك بظلام للعبيد))[2]. وصل الخبر لأهالي دمشق قال ابن كثير: واتبع الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم في كل مكان، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب وهرب من بدمشق منهم وكان هربهم منها يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان صبيحة النصر الذي جاءت فيه البشارة بالنصر على عين جالوت فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون ويأسرون وينهبون الاموال فيهم ويستفكون الاسارى من أيديهم قهراً ولله الحمد والمنن على جبره الإسلام ومعاملته إياهم بلطفه الحسن، وجاءت بذلك البشارة السارة، فجاوبتها البشائر من القلعة المصورة وفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله فرحاً شديداً، وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً وكُبت أعداء الله النصارى واليهود والمنافقون

---

١ سيف الدين قطز قاهر المغول صـ ١٤١.

٢ قصة التتار صـ ٣٣٨ صبح الأعشى(٧ ـ ٢٦٠ ـ ٢٦٢).

وظهر دين الـلـه وهم كارهون ونصر الـلـه دينه ونبيه ولو كره الكافرون، فتبادر عنـد ذلـك المسـلمون إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب فانتهبوا ما فيها، وأحرقوها وألقوا النار فيما حولها، فأحترقت دور كثيرة للنصارى، وملأ الـلـه بيوتهم وقبورهم ناراً، وأحرق بعض كنيسة اليعاقبة، وهمت طائفة بنهب اليهود، فقيل لهم: إنهم لم يكن منهم فيما ظهر من الطغيان، كما كان من عبدة الصُلبان، وقتلت العامة في وسط الجامع شيخاً رافضياً، كان مصانعاً للتتارعلى اموال الناس يقال له الفخر محمد بن يوسف الكنجي، كان خبيث الطوية ممالئاً لهم على أموال المسلمين وقتلوا جماعة مثله من المنافقين الممالئين على المسلمين "فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين" ((الأنعام:آية:٤٥))[١].

٨ ـ **وصول سيف الدين قطز إلى دمشق:** في اليوم الثلاثين من رمضان سنة ٦٥٨هـ وصل البطل سيف الدين قطز إلى دمشق واستقبله الناس استقبال الفاتحين، وعلقت الزينات في الشوارع، وخرج الرجال والنساء والاطفال، يستبلون البطل المظفر وهذه هي الفرحة الحقيقية قال تعالى:"قل بفضل الـلـه وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون"((يونس:آية:٥٨))، فرحة النصر لدين الـلـه والرفعة للإسلام والعزة للمسلمين لا تقارن هذه الفرحة بفرحة الطعام والشراب والمال والجاه والسلطان، ودخل الجيش المملوكي المسلم دمشق واستتب الأمن الحقيقي بسرعة عجيبة، لم يحدث شيء مما يقع عند دخولالمستعمرين البلاد واستقر الوضع بسرعة وحفظ الاعراض والنفوس والاموال لكل الساكنين من نصارى ويهود وقام قطز بعزل ابن الزكي قاضي دمشق الذي عينه التتار وكان مواليا لهم، وعين مكانه نجم الدين أبا بكر بن صدر الدين بن سني الدولة وبدأ يفصل في القضايا، ويحكم في المخالفات التي تمت بين المسلمين والنصارى حتى لا يظلم نصراني في بلاد المسلمين، هذا مع كل ما فعله النصارى بالمسلمين أثناء احتلال التتار للمدينة، وفي اليوم التالي لدخول قطز إلى دمشق كان عيد الفطر وهوله طعمه الخاص ومكانته المتميزة، لأنه كان أيضاً عيداً

١ البداية والنهاية (١٧ ـ ٤٠٢).

للنصر والتمكين قال تعالى"وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم"((التوبة:آية:٤٠)).

لم يضيع قطز وقتاً بل ارسل مقدمة جيشه بقيادة بيبرس تتبع الفارين من التتار وتطهر مدن الشام الأخرى من الحاميات التتارية[١]، وطارد المغول في أعالي بلاد الشام حتى لحق بهم في حمص، وفر المغول بحياتهم وألقوا ما كان معهم من متاع وغيره، وأطلقوا الاسرى وعرّجوا نحو طريق الساحل، فتخطف المسلمون منهم وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا أكثر، فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كتبغا عظم عليه، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك ورحل من يومه[٢].

واستطاع المسلمون تطهير بلاد الشام بكاملها في بضعة أسابيع وأعلن قطز توحيد مصر والشام من جديد في دولة واحدة تحت زعامته، بعد عشر سنوات من الفرقة وذلك منذ وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ـ رحمه الله ـ في سنة ٦٤٨هـ وخُطب لقطز على المنابر في كل المدن المصرية والفلسطينية والشامية حتى خطب له في أعالي بلاد الشام والمدن حول نهر الفرات وعاش المسلمون أياماً من أسعد أيامهم[٣].

٩ ـ ترتيب أمور الولايات الشامية: شرع السلطان سيف الدين قطز على ترتيب أحوال الشام بسرعة حتى يتمكن من العودة إلى مصر، فأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه إقطاعات الشام وجعل نائبه على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي ومعه الأمير أبو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الأزكشي الكردي[٤]، وأعاد ملوك الأيوبيين أصحاب العروش الصغيرة إلى عروشهم ملوكاً تابعين لسلطان مصر المملوكي وبعث إليه الاشرف موسى، حاكم حمص، والذي كان هولاكو قد عينه نائباً له في حكمها وفي بلاد الشام، يطلب الأمان، فاستجاب قطز وأمّنه على عرشه كذلك بعث بالملك المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار ليكون نائباً للسلطان في مدينة حلب ووزع الإقطاعات في المناطق الريفية المحيطة بحلب على

---

١ قصة التتار صـ ٣٤٠.
٢ السلوك (١ ـ ٥١٨).
٣ قصة التتار صـ ٣٤١.
٤ السلوك (١ ـ ٥١٨).

الأمراء الموالين له، كذلك قام سيف الدين قطز ببعض التعديلات الإدارية البسيطة في بلاد الشام، فأقر الملك المنصور على حماه وبارين وأعاد له المعرّة التي كانت بيد حكام حلب منذ سنة ٦٣٥هـ ومن ناحية أخرى، أخذ منه سلمية وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب وعين الأمير شمس الدين آقوش البرلي العزيزي أميراً بالساحل وغزة ومعه عدد من أمراء العزيزية وكان هذا الأمير قد فارق الناصر يوسف، صاحب دمشق وحلب، وانضم إلى قوات السلطان قطز في القاهرة، ثم خرج في جيش السلطان وحارب معه في عين جالوت، وأمر بشنق حسين الكردي الطبرادار، فشنق من أجل أنه دل على الملك الناصر[١].

وهكذا قام السلطان قطز بترتيب حكم الشام، وأعاد إلى ربوعها الأمن والاستقرار الذي كان مفقوداً منذ غزاها المغول، وفي اليوم السادس والعشرين من شوال ٦٥٨هـ توجه السلطان سيف الدين قطز بجيشه الظافر صوب مصر، وبينما كانت القاهرة تتزين لاستقبال القائد المنتصر[٢] كان أجل سيف الدين قطز قد حان واقترب الرحيل من هذه الحياة وسيأتي الحديث عن ذلك مفصلاً بإذن الله تعالى.

١٠ ـ موقف هولاكو من الهزيمة:رغم أن هذه الهزيمة لم تلحق بشخص هولاكو نفسه فإن تلك الهزيمة الثقيلة التي مني بها جيشه وقتل فيها قائده العظيم كيتوبوقا، تعد صدمة عنيفة هزت كيانه وهو بعيد عن مسرح الحوادث، فتأثر لذلك وحاول أن يمحو ذلك العار الذي لحق بجيوشه بارسال حملة جديدة إلى الشام، في محاولة يائسة للانتقام من المسلمين، غير أن الظروف في ذلك الوقت لم تمكنه من ذلك[٣]، إذ لم يستطع التقدم غرباً لمساعدة جيوشه المهزومة في عين جالوت لانشغاله في حروبه مع منافسيه من أهل بيته وعلى رأسهم ابن عمه زعيم القبيلة الذهبية، واكتفى هولاكو بأن عمل على مراسلة الخان الاعظم في قراقورم أخبره بما حل بالمغول في بلاد الشام من هزيمة على يد سلطان مصر، فما كان من الخان الاعظم إلا أن اصدر مرسوماً يقضي بإعطاء هولاكو البلاد الواقعة بين نهر جيحون حتى بلاد الشام، قاصداً بذلك ـ على ما يبدو

١ السلوك (١ ـ ٥١٨)، مملكة حماه الايوبية عدنان سعد الدين صـ ١٠٠.
٢ السلطان المظفر سيف الدين قطز، قاسم عبده صـ ١٤١.
٣ جهاد المماليك صـ ١٣١.

ـ رفع معنويات هولاكو وجيوشه وتشجيعه على معاودة حرب المماليك، وبدأ هولاكو يستعد لحرب المسلمين، لكن الموت عاجله في سنة ٦٦٣هـ /١٢٦٥م فتوفي دون أن يحقق حلمه بضم مصر والشام إلى ممتلكاته[١].

١١ ـ ما قيل من شعر في عين جالوت:نظم شهاب الدين محمود قصيدة مدح فيها الأمير الظاهر بيبرس بسبب انتصار المسلمين في عين جالوت فقال:

سر حيـــث شـــئت لـــك المهـــيمن جـــار

واحكـــم فطـــوع مـــرادك الاقـــدار

لم يبـــق للـــدين الـــذي أظهرتـــه

يارُكنـــه عنـــد الاعـــادي ثـــارُ

لمـــا تراقصـــت الـــرؤوس وحركـــت

مـــن مطربـــات قسّـــيك الاوتـــار

حملتـــك أمـــواج الفـــرات ومـــن رأى

بحـــرا ســـواك تقلـــه الانهـــار

وتقطعـــــت فرقـــــاً ولم يـــــك

طودهـــا إذ ذاك إلا جيشـــك الجـــرار

رشّـــت دمـــاؤهم الصـــعيد فلـــم يطـــر

مـــنهم عـــلى الجـــيش الســـعيد غبـــار

شـــكرت مســـاعيك المعاقـــل والـــورى

والـــتُربُ والآســـاد والاطيـــار

هـــذي منعـــت وهـــؤلاء حميـــتهم

وســـقيت تلـــك وعـــمّ ذا الإيســـارُ

١ جهاد المماليك صـ ١٣٢، جامع التواريخ (٢ ـ ٣٣٦).

فلأمـــــلأن الـــــدهر فيــــك مـــــدائحاً

تبقـــــى بقيــــت وتـــــذهب الاعصـــــارُ[1]

وقال شرف الدين الانصاري من قصيدة يمدح فيها الملك المنصور الثاني الايوبي صاحب حماه الذي كان مع جنده إلى جانب المظفر قطز في معركة عين جالوت:

رُعـــت العـــدى فضـــمنت شـــل عروشـــها

ولقيتهـــا فأخـــذت فـــلّ جيوشـــها

نازلـــت أمـــلاك التتـــار فأنزلـــت

عـــن فحلهـــا قسراً وعـــن إكديشـــها

فغـــدا لســـيفك في رقـــاب كُماتهـــا

حصـــد المناجـــل في يبـــيس حشيشـــها

روّيـــت أكبـــاد القنـــا بـــدمائهم

لمـــا أطـــال ســـواك في تعطيشـــها

أقـــدمت مقـــتحماً عـــلى نُشّـــابها

تكســـو الجيـــاد رِياشـــها مـــن ريشـــها

دارت رحـــى الحـــرب الزُّبـــون علـــيهم

فغـــدت رؤوسُـــهُم حطـــام جريشـــها

وطويـــت عـــن مصر فســـيح مراحـــل

مـــا بـــين بركتهـــا وبـــين عريشـــها

حتـــى حفظـــت عـــلى العبـــاد بلادهـــا

مـــن رُومهـــا الاقصى إلى أُحبوشـــها

فرشـــت حـــماة لِـــوَطء نعلـــك خـــدّها

فوطئـــت عـــين الشـــمس مـــن مفروشـــها

[1] الادب العربي من الانحدار إلى الازدهار صـ ١٦٦.

وكـــــذا المعـــــرّة إذ ملكـــــت قيادهـــــا

دَهِشـــــتَ سروراً ســـــار في مدهوشـــــها

لا زلـــــت تُـــــنعش بـــــالنّوال فقيرهـــــا

وتنـــــال أقصى الأجـــــر مـــــن منعوشـــــها[1]

وقال بعض الشعراء في عين جالوت:

هلـــــك الكفـــــر في الشـــــام جميعـــــاً

واســـــتجد الإســـــلام بعـــــد دحوضـــــه

بالمليـــــك المظفـــــر الملـــــك الاروع

ســـــيف الإســـــلام عنـــــد نهوضـــــه

ملـــــك جـــــاء بعـــــزم وحـــــزم

فاعتززنـــــا بســـــمره وبيضـــــه

أوجـــــب اللـــــه شـــــكر ذاك علينـــــا

دائمـــــاً مثـــــل واجبـــــات فروضـــــه[2]

خامساً: مقتل سيف الدين قطز:

كان لانتصار قطز في عين جالوت أجمل الوقع ـ على العالم الإسلامي ـ وخصوصاً مصر فقد استعدت لاستقباله، ودقت البشائر بالقلعة وأقيمت الزينات بالقاهرة وأخذت البلاد تنتظر قدوم المظفر سيف الدين قطز[3]، وعندما وصل السلطان إلى بلدة القصير[4]، بقي السلطان بهذه البلدة مع عدد من خواصه، على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية، بإقليم الشرقية بمصر وهناك أقيم الدهليز السلطاني((الخيمة السلطانية))، وفي الوقت نفسه بلغت توتر العلاقات بين سيف الدين قطز، وبين ركن الدين بيبرس، وتجدد الخلاف القديم، وأخذ كل واحد

١ الادب العربي من الانحدار إلى الازدهار صـ ١٥٧.

٢ الملك المظفر قطز بن عبد اللـه المعزي، رحاب عكاوي صـ ١١٤.

٣ مصر والشام في عصر الايوبيين، سعيد عاشور صـ ١٨٦.

٤ بلدة القصير: هي قرية الجعافرة بمحافظة الشرقية.

منهم حذره وحيطته، وبات الغريمان يتربص كل منهما بالآخر، ولكن بيبرس البندقداري بما عرف عنه من جسارة ودهاء بادر إلى العمل ضد السلطان[1]، فاتفق مع الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير سيف الدين بهادر المعزي، والأمير بدر الدين بكتوت الجُكنداري المعزي، والأمير سيف الدين بيدغان الرُكني، والأمير سيف الدين بلبان الهاروني، والأمير بدر الدين أنس الأصبهاني، فلما قرب إلى القصير بين الغرابي والصالحية، انحرف عن الدرب للصيد، فلما قضى وطره[2]، عاد قاصداً إلى الدهليز، سايره الأمير ركن الدين وأصحابه وطلب منه إمرأة من سبي التتار فأنعم له بها فأخذ الظاهر يده ليقبلها، وكانت تلك إشارة بينه وبين من اتفق معه، فلما رأوه قد قبض على يده، بادره الأمير بدر الدين بكتوت وضربه بالسيف على عاتقه، فأبانه، ثم اختطفه الأمير بدر الدين أنس والقاه عن فرسه، ثم رماه الأمير بهادر المعزي بسهم أتى على روحه، وقيل إن أول من ضربه الأمير ركن الدين بيبرس وهو الصحيح، وذلك يوم السبت الخامس عشر من ذي القعدة، ثم ساروا إلى الدهليز للمشورة بينهم على من يملكوه ويسلموا إليه قيادتهم، فوقع اتفاقهم على الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فتقدم الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب، المعروف بالأتابك[3]، فبايعه وحلف له،ثم بلبان الرشيدي ثم الأمراء على طبقاتهم، ولقب بالملك الظاهر، ثم في الساعة الراهنة قال الأمير فارس الدين أقطاي الأتابك له:لا يتم الملك إلا بدخولك إلى قلعة الجبل، فركب هو والأمير فارس الدين والأمير بدر الدين بيسري وبلبان الرشيدي وقلاوون الالفي وبيليك الخازندار وجماعة من خواصه، وقصدوا القلعة، فلقي في طريقه الأمير عز الدين أيدمر الحلبي نائب السلطنة عند الملك المظفر، وكان خارج للقاء استاذه، فأعلموه بصورة الحال وحلّفوه فحلف وتقدم بين يديه إلى القلعة، فلم يزل على بابها ينتظره حتى وصل إليها فدخلها وتسلمها، وكانت القاهرة قد تزينت لقدوم الملك المظفر، والناس في فرح وسرور بعوده وكسر التتار، فلما أسفر

١ في تاريخ الايوبيين والمماليك صـ ٢٠٣.

٢ وطره: حاجته.

٣ نزهة الانام في تاريخ الإسلام صـ ٢٦٧.

الصبح وطلع النهار وإذا مناد ينادي: معاشر الناس ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس[1].

١ ـ أسباب مقتل قطز:تنوعت روايات المؤرخين المعاصرين حول الأسباب التي أدت إلى مقتل سيف الدين قطز، ونحاول أن نناقش هذه الأسباب ونبين الأقوى منها:

أ ـ يقول ابن أيبك الدواداري:وحكى لي والدي ـ عن مخدومه سيف الدين بلبان الدوادار الرومي قال: إن يوم المصاف هربت جماعة من الأمراء من خشداشية الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فلما انتصر الإسلام، تنمر عليهم السلطان المظفر ووبخهم، وشتمهم، وتوعدهم، فأضمروا له السوء، وحصلت الوحشة منذ ذلك اليوم، ولم تزل الاحقاد والضغائن تتراءى في صفحات الوجوه وغمزات العيون، وكل منهم يترقب من صاحبه الفرصة[2].

ب ـ أما المؤرخ تقي الدين المقريزي:فيقول أن سبب ذلك أن الأمير ركن الدين بيبرس طلب من السلطان المظفر قطز أن يوليه نيابة حلب، فلم يرض، فأضمرها في نفسه، ليقضي الله أمراً كان مفعولا[3].

ج ـ أما بيبرس الدواداري: وهو أقربهم إلى الاحداث فيقول: وذلك أنه ((قطز)) رحل من دمشق عائد إلى الديار المصرية وفي نفوس البحرية منه ومن استاذه ما فيها لقتلهما الفارس اقطاي، واستبدادهما بالملك وإلجائهم إلى الهرب والهجاج، والتنقل في الفجاج، إلى غير ذلك من أنواع الهوان التي قاسوها، والمشقات التي لبسوها، وإنما إنحازوا إليه لما تعذر عليهم المقام بالشام، والتناصر على صيانة الإسلام لا لأنهم أخلصوا له الولاء، أو رضوا له الاستيلاء.

وقد بنيت المرعى على دمن الثرى

وتبقى حزازات النفوس كما هي[4]

١ نزهة الانام في تاريخ الإسلام صـ ١٦٨.

٢ كنز الدرر (٨ ـ ٦٠)، في تاريخ الايوبيين والمماليك صـ ٢٠٤.

٣ السلوك (١ ـ ٥١٩)، في تاريخ الايوبيين والمماليك صـ ٢٠٤، الظاهر بيبرس، بيتر توراوصـ ٨٨.

٤ زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (٩ ـ ٧٣)، في تاريخ الايوبيين والمماليك، قاسم عبده قاسم صـ ٢٠٥.

وقد رجح الدكتور قاسم عبده قاسم السبب الذي ذكره المؤرخ بيبرس الدواداري واعتبره السبب الرئيسي لما حدث، فقد كان سيف الدين قطز أكبر مماليك السلطان عز الدين أيبك، وكان من أهم الذين شاركوا في قتل فارس الدين أقطاي، ومطاردة المماليك البحرية من خشداشية، كما أن البحرية عاشوا سنوات منفين في بلاد الشام، ولم يمر عليهم الوقت دون مشكلات وحروب وسجن ومطاردات، ساهم في بعضها سيف الدين قطز بشكل مباشر أو غير مباشر، ومن المهم أن نتذكر أن رابطة الخشداشية التي كانت تجمع المماليك، كانت رابطة قوية للغاية، ومن ثم فإن بيبرس ورفاقه من المماليك البحرية كانوا يحملون رغبة الثأر لزميلهم أقطاي من ناحية ولزملائهم الآخرين الذين قتلوا على يد قطز، أو بسببه من ناحية أخرى، فضلاً عما نالهم من الهوان والمذلة في منفاهم من ناحية ثالثة[1].

وقال الدكتور أحمد مختار العبادي: أما أسباب مصرع قطز فلا شك أنها أعمق بكثير من قصة رفضه نيابة حلب لبيبرس، وأن هذا الرفض لم يعد أن يكون سبباً مباشراً لمقتله عند الحدود المصرية، والواقع أن تلك الاسباب قديمة ترجع إلى أيام السلطان أيبك وتشريده معظم المماليك البحرية الصالحية، وقتله زعيمهم أقطاي، إذ صار مماليك أيبك وهم المعزية ومنهم قطز، أصحاب النفوذ والسلطان في مصر، واستمر العداء بين العزية والبحرية قائماً حتى أغار المغول على مصر، فاضطر المماليك جميعاً إلى الإتحاد بدليل قول العيني أن المماليك البحرية انحازوا إلى قطز المعزي، لما تعذر عليهم المقام بالشام، وللتناصر على صيانة الإسلام، لا لأنهم أخلصوا الولاء له[2]، فلما انتصر المماليك على المغول في عين جالوت، ولم تبق هناك ضرورة للإتحاد، ظهر العداء القديم بين الطائفتين من جديد، وكان من نتائج ذلك مقتل قطز المعزي على يد بيبرس الصالحي، وهذا هو المعنى الحقيقي لما أورده ابن أبي الفضائل تعقيباً على مقتل قطز حين قال: فلحق الناس خوف عظيم من عودة البحرية إلى ما كانوا عليه من الفساد[3]، وروى ابن أياس في هذا الصدد، ولما تم أمر بيبرس في

---

١ في تاريخ الايوبيين والمماليك صـ ٢٠٦.

٢ عقدة الجمان، نقلا عن في التاريخ الايوبي والمملوكي للعبادي صـ ١٦٢.

٣ السلوك (١ ـ ٥٢١).

السلطنة، رسم باحضار المماليك البحرية الذين كانوا منفين في البلاد، كما روى في موضع آخر وكذلك المقريزي أن المماليك المعزية حاولوا اغتيال بيبرس، عقب عودته إلى القاهرة، فقتل بعضهم، وسجن ونفي البعض الآخر[1]. وهذه النصوص وأن دلت على شيء، فإنما تدل على أن مقتل قطز كان نتيجة لعداء قديم مستحكم بين المماليك البحرية الصالحية والمماليك المعزية[2].

٢ ـ الطريق إلى عرش المماليك:كان الطريق إلى عرش سلطنة المماليك منذ البداية ـ القتل، وسفك الدماء، فقد اعتلت شجرة الدر العرش بعد اغتيال تورانشاه آخر سلاطين الايوبيين في مصر، كما أنها هي وزوجها عز الدين أيبك لقيا حتفهما بسبب الصراع على السلطة، وبسبب طبيعة الحكم العسكري في دولة سلاطين المماليك، وتطبيقاً لمبدأ الحكم لمن غلب، الذي قام عليه البناء السياسي لهذه الدولة، كان طبيعياً أن يفكر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري في إزاحة السلطان سيف الدين قطز من طريقه صوب عرش سلطنة المماليك، ورجح الدكتور قاسم عبده قاسم أن بيبرس ظن أنه أحق بالعرش من قطز، لا سيما وأنه صاحب دور كبير في هزيمة الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع قبل عشر سنوات في المنصورة، كما أنه لعب دوراً كبيراً في هزيمة المغول في عين جالوت، كما أنه كان أول من ألحق بهم هزيمة عندما دمر طليعة الجيش المغولي، ثم طارد فلوله المنسحبة حتى أعالي بلاد الشام، لقد كان بيبرس ابن عصره، وكانت تلك هي الأفكار السياسية السائدة آنذاك[3]، ولم تكن هناك مؤسسات شورية قوية في اختيار الحاكم، وغاب الفقه السياسي في الإسلام المتعلق باختيار السلطان، أو الملك أو الحاكم، لقد حاول السلطان قطز ارجاع الأمر إلى نصابه، ولكنه قتل قبل تحقيق ذلك، وبعد أن أستطاع أن يدحر المغول ويحرر بلاد الشام.

٣ ـ نتائج مقتل قطز:انتقلت السلطة إلى القاتل قبل أن تجف دماء المقتول، دون أن يرى كبار أمراء المماليك غضاضة في ذلك، بل إن أتابك العسكر سأل عن القاتل

---

١ بدائع الزهور (١ ـ ٩٩ ـ ١٠٠)ن في التاريخ الايوبي والمملوكي صـ ١٦٣.

٢ في التاريخ الايوبي والمملوكي صـ ١٦٣.

٣ في تاريخ الايوبيين والمماليك، قاسم عبده صـ ٢٠٦.

وحينما علم أنه بيبرس قال له ((يا خوند إجلس أنت في مرتبة السلطنة)) وكأن عرش الدولة مكافأة لمن تخلص من السلطان القتيل، وهكذا مرة أخرى ترسخ مبدأ ((الحكم لمن غلب))[1]، ويبدو أن هناك إجماع من المماليك البحرية على زعامة ركن الدين بيبرس، وأما النتائج التي ترتبت على هذه المأساة هي:

أ ـ فكانت على الناحية السياسية تكريساً للقوة والدماء سبيلاً إلى السلطة والعرش وكانت تلك هي ((سنة المماليك في دولتهم)) ولم يحدث طوال مائتي وسبعين عاماً، هي عمر دولة سلاطين المماليك أن وجدنا لهذه السنة تبديلا، لقد كانت المفاهيم السياسية للدولة المملوكية نتاجاً للظروف التاريخية التي خرجت هذه الدولة من رحمها إلى الوجود، ويمكن بلورة هذه المفاهيم السياسية في أن أمراء المماليك اعتقدوا منذ البداية أن عرش البلاد حق لهم جميعاً يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين، وهو الأمر الذي ظهر واضحاً منذ بداية الدولة سواء في مصرع تورانشاه أو عز الدين أيبك وشجرة الدر، ثم تأكد فيما قام به بيبرس عندما اغتال قطز، كما تكرر في سلسلة انقلابات القصر ومؤامرات الحكم طوال سنوات حكم دولة سلاطين المماليك[2].

ب ـ مرحلة جديدة في تاريخ المماليك:وأما النتيجة الثانية الهامة، فتتمثل في الحقيقة التاريخية القائلة بأن صعود بيبرس على عرش سلطنة المماليك كان بداية مرحلة مهمة في تاريخ الدولة الناشئة جعلت من هذا الأمير الداهية، بقسوته وجبروته وحنكته السياسية وبراعته العسكرية، المؤسس الحقيقي لهذه الدولة((بفضل الله))، ثم انجازاته السياسية والإدارية والعسكرية، فقد كانت السنوات العشر السابقة، مرحلة سيولة سياسية حكم خلالها خمسة من السلاطين، ثم اغتيال ثلاثة منهم، ونجا الاثنان الآخران بسبب صغر سنهما وانعدام خطورتهما، ولكن بيبرس استمر يحكم سبعة عشر عاماً، ومن ناحية أخرى، كانت دولة سلاطين المماليك في السنوات العشر الأولى من عمرها، تفتقر إلى الشرعية وتبحث عن الأمن في مواجهة تهديدات الأيوبيين وجاء إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بمثابة الحل

---

١ المصدر نفسه صـ ٢٠٨.

٢ المصدر نفسه صـ ٢٠٩.

السعيد، لمشكلة الشرعية، على حين كانت معركة عين جالوت هي الحل ـ النافع ـ لمشكلة الأمن وتهديدات الأيوبيين[1].

جـ ـ زيادة الاعتماد على المماليك: وكانت النتيجة الثالثة لاغتيال قطز في ازدياد اعتماد أمراء المماليك على مماليكهم بحيث يكونون عدتهم في الصراع الذي يمكن أن يحدث في أي وقت، فقد كان الأمراء الكبار وولاة الأقاليم يمتلكون جيوشاً صغيرة من المماليك تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمائة، وستمائة مملوك، وربما زادت الأعداد لتصل إلى ثمانمائة مملوك واما السلاطين يهتمون بشراء أكبر عدد ممكن منهم، وبعد عصر بيبرس كان من الممكن أن تصل مشتريات السلطان من المماليك إلى ثمانمائة مملوك بخلاف المماليك الذين ينتقلون إلى خدمته وراثة عن السلطان السابق أو من مماليك كبار الأمراء الذين يتركون الخدمة بالوفاء وغيرها[2]، وهكذا تكرست الطائفية يبين العناصر المملوكية بالشكل الذي ترك آثاره السلبية على البناء السياسي لدولتهم على المدى الطويل، وربما كانت بذرة هذه الطائفية العسكرية الخطرة قد بذرت في حوادث الاغتيال الأولى التي شهدتها الدولة ومنها بطبيعة الحال حادث اغتيال السلطان سيف الدين قطز[3].

٤ ـ قبر سيف الدين قطز وثناء العز بن عبد السلام عليه: يروى أبو المحاسن أن قطز: بقي ملقى بالعراء فدفنه، بعض من كان في خدمته بالقصير، وكان قبره يقصد للزيارة دائماً وكان كثير الترحم عليه والدعاء على من قتله، فلما بلغ بيبرس ذلك أمر بنبشه، ونقله إلى غير ذلك المكان وعفى أثره ولم يعف خبره[4]، وقال المقريزي: ودفن بالقصير، فكانت مدّة ملكة أحد عشر شهراً وسبعة عشر يوماً وحمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة، فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقي الدين قبل أن تعمر، ثم نقله الحاج قطز الظاهري إلى القارفة ودفن قريباً من زاوية ابن عبود، ويقال إن أسمه محمود بن ممدوح وإن أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه وإن أباه ابن

---

١ في تاريخ الأيوبيين والمماليك صـ٢٠٩.

٢ المصدر نفسه صـ٢٠٩.

٣ المصدر نفسه صـ٢١٠.

٤ النجوم الزاهرة(٨٦/٧ ـ ٨٧).

عـم السـلطان جـلال الـدين، وإنمـا سـبي عنـد غلبـة التتـار، فبيـع في دمشـق ثـم انتقـل إلى القاهرة[1].

إن قيمة الرجال وعظمتهم لا تقاس بطول العمر ولا بكثرة المال، ولا بأبهة السلطان، إنما تقـاس بالأعمال الخالدة التي تغير من وجه التاريخ، فمن قطز إذا لم يتمسك بالإسلام ويدافع عنه؟ ولا شك أن التاريخ كان سيُغفل اسمه كما أغفل اسماء الكثيرين الذين كـانوا كغثـاء السـيل، بـل كـانوا وبـالا عـلى شعوبهم وأوطانهم مع حكمهم الفترات الطويلـة والأعـمار المديـدة ولا شـك أن حفـر الاسـم في سـجل التاريخ يحتاج إلى رجال عظماء وليس بالضرورة أن يحتاج إلى وقت طويل[2]، فالتغيير يعتمد على نوعية الرجال المغيِّرين، مع مراعاة السـنن وفقـه المصـالح والمفاسـد والسياسـية الشرعيـة وفقـه قيـام الـدول وسقوطها ومعرفة مسار حركة التاريخ في منحنياته المتعددة، لقـد كـان الشـيخ العـز بـن عبـد السـلام يخشى أن يضيع النصر الكبير وتنهار الأمة من جديد، لقد قال بعد موت قطز وهو يـبكي بشـدة: رحـم اللـه شبابه، لو عاش طويلاً لجدد للإسلام شبابه[3]، وقال: ما ولي أمر المسلمين بعد عمر بن عبد العزيز ـ من يعادل قطز ـ رحمه اللـه ـ صلاحاً وعدلاً[4]. إلا أنني مع محبتي لسيف الدين قطز، واعترفي بجهوده العظيمة في خدمة الإسلام ودخوله نادي عظماء الأمة، فإنني أخالف شيخنا العز بن عبـد السـلام وأرى أن نور الدين محمود الشهيد فاقه صلاحاً وإصلاحاً وعدلاً وجهاد، ومن أراد التوسع فليراجع كتـابي عـن عصر الدولة الزنكية لقد كان سيف الدين قطز من خيار ملوك الترك وله اليد البيضـاء في القيـام لـدفع العدو عن ديار المسلمين[5] الشامية والمصرية.

١ السلوك(٥٢٠/١).
٢ قصة التتار صـ٣٦٦.
٣ المصدر نفسه صـ٣٦٧.
٤ المصدر نفسه صـ٣٦٧.
٥ جواهر السُلوك في أمر الخلفاء والملوك لإبن إياس صـ١١٥.

٥ ـ ردة فعل المغول لمقتل قطز: لما بلغ المغول نبأ مقتل قطز بتلك الصورة توقعوا حدوث انقسام داخل دولة المماليك، ووجدوا في ذلك فرصة سانحة لهم لمحاولة فرض سيطرتهم على بلاد الشام مرة أخرى، فتجمع المغول الذين كانوا بحران وغيرهما من مدن أقليم الجزيرة، وانضم إليهم من سلم من معركة عين جالوت، وساروا حتى قاربوا البيرة التي كانوا قبل ذلك قد هدموا أسوارها وابراج قلعتها واضحت مكشوفة فادرك الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ الذي كان والياً على حلب خطورة الموقف فيها، وارسل نجدة من عنده لمساعدة أهل البيرة في الدفاع عن مدينتهم، إلا أن هذه القوة الإسلامية لم تستطع الصمود أمام الجموع المغولية وتراجعت إلى داخل المدينة حيث بعث قوادها إلى الملك السعيد يخبرونه بتفاقم خطر المغول وانهم اتجهوا إلى منبج، ويبدو أن المغول ارادوا عدم اضاعة الوقت في الهجوم على المدن الصغيرة، وعقدوا العزم على مهاجمة مدينة حلب التي وصلوها في يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة سنة٦٥٨هـ/نوفمبر ١٢٦٠م وبدأوا في مهاجمتها بقيادة الأمير المغولي بايدر الذي استطاع اقتحام المدينة واخراج من بها من المسلمين إلى قرية قرنبيا شرقي حلب وفيها حاول المسلمون توحيد صفوفهم مرة أخرى للوقوف في وجه المغول وايقاف زحفهم إلا أن ذلك التجمع لم يجد نفعاً أمام كثافة الجموع المغولية، واضطر المسلمون بقيادة حسام الدين الجوكندار الذي خلف الملك السعيد على حلب إلى التراجع إلى الخلف لاستدراج المغول إلى مكان أفضل لمنازلتهم فتراجع إلى حماه التي فيها الملك المنصور صاحبها، وفيها رأى توسيع الرقعة على المغول بالتراجع إلى حمص متظاهراً بالضعف أمامهم بهدف اعطاء نفسه فرصة كافية لحشد أكبر عدد من الجيوش الإسلامية فوصله بحمص الملك المنصور صاحب حماه ومعه اخوه الملك الأفضل علي ومعها عساكر حماه، كما انضم إليه في الوقت نفسه الملك الأشرف صاحب حمص وفي حمص اعاد الجوكندار تنظيم جيوش الإسلام مرة أخرى وجهزها بالعدة والعتاد استعداد لمنازلة المغول، الذين وصلوا إلى حمص في المحرم من سنة ٦٥٩هـ/ديسمبر ١٢٦٠م حيث دارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس عند قبر خالد بن الوليد ـ رضي

الـلـه عنه[1] ـ بالقرب من الرستن ابلى فيها المسلمون بلاء حسناً رغم قلة عددهم وكثرة عدد المغـول، حتى كتب الـلـه لهم النصر على عدوهم، وفر بايدر من المعركة فـيمن، سـلم مـن جنـده وتـبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وسارع الملك المنصور عقب ذلك الانتصـار بالاتجـاه إلى سـلمية حيـث انضموا إلى جموع مغولية كانت نازلة بها، وحاولوا عبثاً مهاجمة حماة مرة ثانية واقاموا عليها يوما واحداً، ثم رحلوا عنهاإلى أفامية، التي كـان قـد سـبقتهم إليهـا فرقـة مـن جـيش المسـلمين اقامـت بالقلعة، وقامت بتنظيم الهجمات على المغول داخـل المدينـة التـي اضـطر العـدو إلى تـرك افاميـه والاتجاه إلى حلب التي ظلوا يحاصرونها مدة من الزمن حتى تمكن الملك الظاهر بيبرس من تثبيت نفسه على عرش الدولة المملوكية في مصر والشام، حيث سارع بارسال جيش كبير أوكل إليه مهمـة طرد المغول من بلاد الشام، ولما سمع المغـول بمقـدم ذلـك الجـيش دخلهـم الهلـع والخـوف فولـوا الأدبار هاربين باتجاه الشرق وطهرت بلاد الشام مرة أخـرى مـن نـير الاحـتلال المغـولي[2]، واسـتطاع المسلمون أن يتجاوزوا هذه المحـن العظيمـة وأثبـت التـاريخ بوقائعـه وشـواهده، أن هـذه الأمـة أصلب ما تكون عودة وأشد ما تكون قوة وأعلى ما تكون همة، عندما تحيط بهـا الشـدائد، وتحـل بساحتها الأزمات وتتبلد في سمائها الغيوم، فهي حينئذ تستجمع قواها وتستشـير كوامنهـا، وتظهـر ذخائرهـا وتقـف في مواجهـة الهجـمات الغازيـة، والمحـن القاسـية، بإيمـان صـلب، وصـبر جميـل، وثبات نبيل وتوكل على الـلـه حتى يجعل الـلــه لهـا مـن عسرهـا يسراً ومـن ضـيقها فرجـاً، ومـن مأزقها مخرجاً ومن ظلام ليلها صبحاً مشرقاً ونهاراً مضيئاً، وبهذا أثبتت الأمة عراقتها وأصالتها وأنها قادرة على أمتصاص الهزائم واجتياز المحـن والشـدائد العظـام والوصـول إلى بـر الأمـان في النهايـة بسلام[3].

---

١ جهاد المماليك صـ١٢٩.

٢ النجوم الزاهرة(١٠٤/٧ ـ١٠٦).

٣ تاريخ من المتفرى عليه للقرضاوي صـ٢١٠.

سادساً: أسباب إنتصار المسلمين في عين جالوت:

١ ـ **القيادة الحكيمة:** أكرم الـلـه الأمة في تلك الفترة التاريخية الحرجة، بالسلطان سيف الدين قطز وكان رجلاً صالحاً، كثير الصلاة في الجماعة، ولا يتعاطى الشرب ولا شيئاً مما يتعاطاه الملوك[١]، وكان شجاعاً وبطلاً، كثير الخير، ممالئاً للإسلام وأهله وهم يحبونه[٢]، وكان مقداماً حازماً حسن التدبير، وكانت الأمة في أشد الحاجة لقيادة حكيمة، تتصف بصفات فذة، فقد جاءت مواهبه موافقة لحاجات الأمـة[٣]، شهد معارك كثيرة مع الأيوبيين مما أتيح له خبرة في الحروب وكان مهيأ نفسياً منـذ نعومـة أظفـاره في أن يكون قائـداً فـذاً، يشـار إليـه بالبنـان، ويكـون صـاحب شـأن في مجريـات الأحـداث في مصر والشام، وكان يعتز بعقيدته الإسلامية ويفاخر بها وكان يحمل الضغينة والحقد عـلى المغـول الـذين أذاقوا خوارزمشاه ومن معه شراً ووطأوا بلادهم وساموهم سـوء العـذاب، وكـان لـه مـن الصـفات الجسمية ما يؤهله لأن يكـون قائـداً، فهـو قـوي البنيـة، مسـتدير الوجـه، عـريض الكفـين، ممتلـئ الجسم، أشقر، كث اللحية، وكان من البارزين في الفروسية والحاذقين في إستخدام الرمح، فـإذا أتـاه الخصم من الخلف رمى الرمح أمامه بقدر ثلث حتى إذا كان الرمح بـين كتفـي قطـز أبطلـه وغـرز رمحه في صدره لا محال[٤]، ولما داهم الخطر الأرض الشامية والمصرية وتحرك المغول بجيوشـهم لـكي يقضوا على المماليك إتخذ قطز حينذاك عدة إجراءات دفاعية منها: الترحيب بالهاربين من المماليك، وتناسيه الضغائن والأحقاد والخلافات التي كانت بينه وبينهم، وعزل الملك المنصور علي لصغر سنه وعدم قدرته على ترتيب الأوضاع التي تحتاج إلى حزم ووحدة، وقيادة قـادرة عـلى محاربـة المغـول وذلك سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، وتحضير الإمكانيـات وحشـد الطاقـات البشريـة والاقتصـادية ومحاولـة التحالف مع الملك الناصر صاحب الشام، وتوحيد القوتين ليكون الجيش أقوى في مواجهـة أعدائـه[٥]، لقـد كـان سياسـياً إسـتراتيجياً مخططـاً أكـثر منـه مقـاتلاً إذ إسـتطاع في مـدة بسـيطة أن يسـوس

---

١ البداية والنهاية (١٧ ـ ٤٠٥).

٢ المصدر نفسه (١٧ ـ ٤١١).

٣ سيف الدين قطز، قاسم عبده صـ١٦٤.

٤ معركة عين جالوت صـ١٢٤.

٥ المصدر نفسه صـ١٢٦.

بلاد الشام، وأن يحسن إلى الشعب، ويقدم له الأمن والسلامة والاستقرار، وأن يهيء له سبل العيش الكريم، وأن ينظم الأمور الإدارية، ويعين الحكام الإداريين للمدن التي إحتلها واستردها التتار[1].

إنما يتميز به هذا السلطان هو الإيمان بالله عز وجل، الذي لا يرقى إليه ريب ولا شك، والفطرة السليمة التي جبل عليها وتربى في ظلالها والعيش الصعب الذي أهله للصبر والوقوف أمام الشدائد، وتقلبه في البلاد، والحرمان الذي قاساه في صغره، والتربية التي خضع لها، وتمت عقيدته ورسخ إيمانه، وهذب نفسه، وأصلح باله، وقوى من عزيمة الجهاد، ومن الاستهانة بالموت، ومن الإقدام والعزيمة على قتال المغول، ومن الوثوق الكامل في الله بالنصر عليهم[2]، وقد دلت حروب قطز التي خاضها مع الأيوبيين وضد الأمراء الهاربين إلى الكرك، وضد الأمراء الذين حاولوا إغتصاب السلطة، وفي معركة عين جالوت، على أنه قائد حرب إستراتيجي من الطراز الأول، فهو خفيف الحركة على حصانه، وهو الذي أجاد في القتال بالأسلحة المستخدمة آنذاك، وكان صاحب قرار تميز بالوضوح والدقة، والنظر الثاقب، وجلاء الهدف، وبيان الحقيقة خاصة فيما يتعلق بمعركته هذه مع المغول، وهو حازم وقت الشدة ومصمم على بلوغ النصر مهما كانت العقبات أمامه، ومتفهم لقدرة عدوه ومقدر لقوة الصديق، وكان لكل شيء حسابه، ويدقق المعلومات ويحافظ على مرؤوسيه ويستميلهم بأسلوبه الجذاب، ويتعاون مع أركانه ويعطيهم الثقة، ويمنحهم المساعدة والعطاء، وكان منظماً قاد الكتلة الرئيسية من الجيش في معركة عين جالوت، فنظم الميمنة والميسرة والقلب، وأناط لكل جناح قائداً شجاعاً ونسق الصفوف إلى عدة تراتيب، وجعل الميمنة تتقدم بالإحاطة والميسرة بالإلتفاف والقلب بالتقدم البطيء الزاحف، كما بث الحرس المتحرك على الأجناب والكمائن في المواقع التي لا يتوقعها العدو، مما جعله يتمكن من عدوه، ويقضي عليه بعد أن استدرجه للوقوع في النقطة الميتة التي وقع فيها عدد كبير من قتلى المغول، ولقد حدد قطز قواعد وأسس الشئون الإدارية في الجيش المملوكي، إذ إستطاع أن ينظمها ويحدد خطوطها العريضة بخاصة

---

١ فوات الوفيات (٢٦٨/٢) معركة عين جالوت صـ١٢٦.

٢ شذرات الذهب نقلاً عن معركة عين جالوت صـ١٢٧.

فيما يتعلق بحركتيها وخفتها، وقد ظهر ذلك جلياً عندما حدد لصاحب حماه كيفية ونوع الإمداد، وعندما أكد على أن الجندي يجب أن يكون خفيف الحركة لا يثقله الطعام الكثير المتنوع فأمر بوضع قطعة من اللحم في مخلاة عسكرية[١] ومما يشار إليه أن قطز كان متديناً عفيفاً، صاحب تقوى وورع، وهذه الصفة أكسبته الشجاعة والإقدام في الحروب، وجعلته يستبسل ويقدم روحه رخيصة، ويستهين بالموت، وبخاصة عندما قتل حصانه، واستمر في القتال دون جواد، وكان في مقدمة الجيش يقاتل عن حمية وعقيدة[٢]، وكانت له مواقف إيمانية متميزة منها:

أ ـ وضوح الرؤية ونقا الهوية: كان على إعتقاد جازم بأن النصر لا يكون إلا من عنده سبحانه وتعالى، ولذلك إهتم قطز بالناحية الإيمانية عند الجيش وعند الأمة وعظم دور العلماء وحفز شعبه لحرب التتار من منطلق إسلامي وليس من منطلق قومي أو عنصري، ولخص ذلك في عين جالوت في كلمته العظيمة ((وا إسلاماه)) ولم يقل: ((وا مصراه))، أو ((وا ملكاه))، أو ((وا عروبتاه))، لقد كانت الغاية واضحة والهوية إسلامية تماماً، ووضوح الرؤية ونقاء الهوية كان سبباً من أسباب النصر، بل هو أعظمها على الإطلاق[٣].

ب ـ الدعاء سلاح فتاك: حرص سيف الدين قطز قبل بدء المعركة أن يتأخر الناس في مواجهة الأعداء كما قال: حتى تدور الشمس وتفيء الظلال وتهب الرياح ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم[٤]، وكان هذا العمل تأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده حيث كانوا يحبون أن يكون القتال بعد الزوال، وقد نشبت المعركة وكان القتال شديداً على المسلمين، حتى أن الأعداء كادوا يزيلونهم عن مواقعهم، وكان السلطان قطز يثبت الناس وينحاز إلى بعض نواح الجيش حينما يحس ضعفاً منهم حتى يقوي من عزيمته ويشجعهم، وكان له عدة مواقف شجاعة أثناء المعركة[٥].

---

١ عين جالوت صـ١٢٨.
٢ المصدر نفسه صـ١٢٨.
٣ قصة التتار صـ٣٥٣.
٤ الفتوح الإسلامية عبر العصور صـ٣٤٧.
٥ المصدر نفسه صـ٣٤٧، الطريق للقدس محسن محمد صـ١٧٥.

جـ ـ الحرص على الشهادة: في معركة عين جالوت، قتل جواده ولم يجد أحداً في الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب فترجل وبقي واقفاً على الأرض ثابتاً والقتال على أشده في المعركة، وهو في موضع السلطان من القلب، فلما رآه أحد الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها، فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب، فلامه بعض الأمراء وقال: يا خونت لم لا ركبت فرس فلان فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك، وهلك الإسلام بسببك، فقال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، قد قتل فلان وفلان وفلان، حتى عدَّ خلقاً من الملوك، فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم ولم يضع الإسلام[1]. فهذا موقف جليل لهذا الأمير البطل دلَّ على تواضعه وعدم إهتمامه بحفظ نفسه في سبيل مصلحة المسلمين العامة، كما يدل على تذكره عظمة الإسلام، والهدف العالي الذي ينشده المؤمنون حقاً وهو إبتغاء رضوان الله تعالى والجنة[2].

د ـ رؤيا صادقة: كان من أهم الحوافز للأمير سيف الدين قطز على الإقدام على حرب التتار رؤيا صالحة رآها في صغره، وكان يحدث بها أصحابه، حيث قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال لي: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار، وقول النبي صلى الله عليه وسلم حق لا شك فيه[3]. فهذه الرؤيا الصالحة كانت هي الدافع الأكبر لمظفر الدين قطز بأن يقدم على قتال التتار بعزم وقوة، بعدما نكل عن ذلك كثير من الأمراء أو قاتلوهم بضعف وخوف، لقد دخل مظفر الدين تلك المعركة وهو على يقين قوي وثقة كاملة بنصر الله تعالى له ولجنده، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يدخلون المعارك وهم يحملون في أفكارهم وعد النبي صلى الله عليه وسبم بالتمكين في الأرض، وما دامت هذه الرؤيا قد انتشرت، فإن الذين علموا بها من جنوده وقادته سيكونون على درجة عالية من الثقة واليقين بالنصر،

١ الفتوح الإسلامية عبر التاريخ صـ٣٤٨.
٢ التاريخ الإسلامي (١٦ ـ ٣٨٨).
٣ المصدر نفسه (١٦ ـ ٣٩١).

فكان ذلك دافعاً قوياً له إلى بذل كل ما يستطيعون من طاقة في سبيل الـلـه تعالى[1]، وذلك من أسباب النصر على أعدائهم.

هـ ـ القدوة: كان سيف الـدين قطـز متواضـعاً وضرب أفضـل الأمثلـة لجنـوده ولأمتـه في كـل الأعمال، وتربية القدوة أعلى آلاف المرات مـن تربيـة الخطـب والمقـالات، كـان سـيف الـدين قـدوة في أخلاقه وفي نظافة يده وفي جهاده وفي إيمانه، وفي عفوه، ولم يشعر الجنود أبداً بأنهم غربـاء عـن قطـز، لقد نزل ـ رحمه الـلـه ـ بنفسه إلى خندق الجنود وقاتل معهم فكان حتماً أن يقاتلوا معه[2].

و ـ عدم موالاة أعداء الأمة: لم يوال سيف الدين قطـز التتـار أبـداً مـع فـارق القـوة والإعـداد بينهما، كما لم يوال أمراء النصارى في الشام مع إحتياجه لذلك، لقد سقط الكثير من الزعماء قبـل قطـز في مستنقع الموالاة للكفار، وكان منطلقهم في ذلك أنهم يجنبون أنفسهم أساساً، ثـم يجنبـون شـعوبهم بعد ذلك ـ كما يدعون ـ ولايت الحروب، فارتكبوا خطأً شرعياً شنيعاً، بل إرتكبوا أخطاء مركبة، فتجنـب الجهاد مع الحاجة إليه خطأ، وتربية الشعب على الخنوع لأعدائه خطأ آخر، ومـوالاة العـدو وإعتبـاره صديقاً خطأ ثالث، لكن قطز كان واضح الرؤية بفضل الـلـه ثم تمسكه بشرعـه سـبحانه وتعـالى[3]، قـال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أوليـاء بعـض ومـن يتـولهم مـنكم فإنه منهم إن الـلـه لا يهدي القوم الظالمين" (المادة ، آية : ٥١).

لقد كان سيف الدين قطـز مـن القيـادات الحكيمـة التـي إسـتطاعت أن تأخـذ بعوامل النصر وتتعامل مع أسبابه، وجمع بين الأسباب المادية والمعنوية، وبعد المعركـة قرر المظفر قطز مواصلة الجهاد فجمع جيشه وأمـراءه ونـزل إلى الأرض، ومـرغ وجهـه بالتراب، وصلى ركعتين شكراً لله على هذا النصر، ووقف فيهم خطيباً، وقال: لقد صدقتم الـلـه الجهاد في سبيله فنصر قليلكم على كثير عدوكم إياكم والزهو بما صنعتم، ولكـن اشكروا الـلـه واخضـعوا لقولـه وجلالـه أنـه ذو القـوة المتـين، واعلمـوا أنكـم لم تنتهـوا

---

١ المصدر نفسه (١٦ ـ ٣٩٢).

٢ قصة التتار صـ٣٥٥.

٣ المصدر نفسه صـ٣٥٦.

من الجهاد وإنما بدأتموه وإن الـلـه ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائـه مـن سائر بلاده، ويموئذ يفرح المؤمنون بنصر الـلـه[1].

٢ ـ توسيد الأمر إلى أهله: قام سيف الـدين قطـز بتوسـيد الأمـور إلى أهلهـا واهـتم بالكفـاءة والأمانة، قال تعالى: "إن خير من استأجرت القوي الأمين" (القصـص ، آيـة : ٢٦)، روى البخـاري عـن أبي هريرة رضي الـلـه عنه أن إعرابياً سأل رسول الـلـه صلى الـلـه عليـه وسـلم متـى السـاعة؟ فقـال صـلى الـلـه عليه وسلم: إذا ضُيعت الامانة فانتظر الساعة قال: كيف إضاعتها؟ قـال: إذا وُسِّـد الأمـر إلى غـير أهله، فانتظر الساعة[2]. فإذا تـولى الأمـور رجـال لا يمتلكـون كفـاءة ولا يتصـفون بأمانـة، ولم يصـلوا إلى مكانهم إلا بواسطة أو قرابة أو رشوة إذا حدث ذلك فاعلم أن النصر بعيد[3]، أما سيف الدين قطز، فقد اسند الأمور إلى أهلها، واختار قادة جيشه وأركانه وكان لهم الفضل بعد الـلـه تعـالى في الانتصـار عـلى المغول على المستوى التكتيكي والاستراتيجي[4]، ومن أشهر هولاء القادة الذين ساهموا في النصر:

أ ـ الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري: كان في معركة عين جالوت رئيس أركـان الجـيش المملوكي وقائد الطليعة، طارد بيـدرا قائـد طليعـة الجـيش المغـولي إلى أرض فاميـة، ظهـرت عليـه النجابة والفطنة في سن مبكرة من حياته التي كان فيها مملوكاً وقربه وقدمه الملك الصـالح نجـم الدين ايوب على الجمدارية الذين كانوا عنده وحضر معه معركة دمياط وأبـلى فيهـا بـلاء حسـناً ظهرت عبقريته العسكرية وشجاعته الفائقة، لا يزال الكره يملأ قلبه والحقـد الكبـير عـلى المغـول الذين أهانوه وأسروه وعندما كان عمره أربعة عشر عاماً، وبـاعوه فشروه إلى أن وصـل إلى البنـد قداري الذي سمي الظاهر باسمه، ثم انتقل إلى الملك الصالح وكـان مـن أبطـال معركـة المنصـورة التي كانت مـن المعـارك الحاسـمة بـين الصـليبيين والأيـوبيين والتـي انـتصر فيهـا الجـيش الأيـوبي الـذي كـان في أكـثره مـن المماليـك ورأى بنفسـه أنـه يمكـن الانتصـار عـلى هـؤلاء وغـيرهم وأنـه

١ من أجل فلسطين حسني أدهم جرار صـ١٠٢.
٢ البخاري، قصة التتار صـ٣٥٧.
٣ قصة التتار صـ٣٥٧.
٤ عين جالوت صـ١٢٣.

بإمكان المماليك، لو نظموا ودربوا، أن ينتصروا على كل طامع وغاصب وقد تميز، بثقافته العسكرية التي كان يتمتع بها، إذ كان شغوفاً بدراسة تاريخ المعارك والحروب وكان يشجع ويحث العسكريين التركيز على هذه الدراسة وبنفس الوقت كان يحب الاساتذة وخبراء الحرب ويميل إليهم ويكرمهم ويهيء لهم الجو الملائم للتدريس وإعطاء مزيد من المعلومات التاريخية العسكرية وكان يقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب، وحافظ على التدريب العسكري المتواصل، والاهتمام بكل صغيرة وكبيرة من الامور المتعلقة بالسياسة والحرب، وقد تمتع بصفات قيادية فذة، وكان يأخذ بالحذر والحيطة لكل الامور، واتخاذ المناسب حيال كل حدث أو اعتداء، والخبرة الطويلة والمدة الزمنية الكبيرة التي قضاها في الحروب الحقيقية[١]، كان من الشخصيات القيادية التي ساهمت في تحقيق النصر في عين جالوت.

ب ـ الأمير فارس أقطاي المستعرب: أتابك الجيش والذي تولى تجهيزه وإعداده والأشراف على كل أموره، وفوق كل ذلك، فقد كان هو بنفسه من الرجال الموثوق بدينهم، واخلاقهم وشجاعتهم وكفاءتهم في الأعداد والتنظيم والتعبئة[٢]، كان مقداما شجاعاً وذا معرفة بالحروب وكان قطز يعول عليه كثيراً، وكان هادئاً ورعاً، محباً للخير، مقرباً إلى الملك قطز ومحبوباً من قبل مرؤوسيه[٣].

جـ ـ سنجر الحلبي: كان أتابك العسكر في زمن الملك المنصور علي بن آيبك سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، وكان نائب المظفر قطز في دمشق في أعقاب معركة عين جالوت، ولما جاءه خبر مقتل قطز واستلام الملك الظاهر ومبايعته هرب إلى بعلبك وضيق عليه ثم ألقى القبض عليه وسجن ثم أطلق سراحه وكان على درجة كبيرة من البطولة والشجاعة وقد أبلى بلاءً حسناً في المعركة الفاصلة[٤].

د ـ أقوش الشمس الأمير جمال الدين: كان جندياً قوياً، وأميراً موصوفاً بالشجاعة والإقدام والجرأة في التنفيذ، وقد كان خشداشيا عند الأمير بدر الدين

---

١ معركة عين جالوت صـ١٢٨ ـ ١٣٦.
٢ من أجل فلسطين، حسني أدهم جرار صـ٩٨.
٣ معركة عين جالوت صـ١٣٦.
٤ الوافي في الوفيات (١٥ ـ ٤٧٣) معركة عين جالوت صـ١٣٧.

البيسري، كما خدم عند غيره، وقد ظهرت عليه تطلعات الإرتقاء إلى المناصب العالية، حتى إذا كانت معركة عين جالوت، شكل من وحدته العسكرية، وقصد مقر قيادة المغول، حتى إذا كان قاب قوسين أو أدنى من القائد العام للجيش المغولي انقض عليه وأصابه وطرحه أرضاً وأسر كتبغا، ولما رأى الجيش المغولي وقد أسر قائده خارت قواه وضعفت معنوياته، وبهذا فقد حقق أقوش نصراً لجيشه، بل كان منعطفاً تاريخياً ثم ولي فيما بعد نيابة حلب وبقي فيها حتى توفي[١].

هـ ـ هؤلاء كانوا من أهم قادة جيش المماليك الذين حققوا النصر الكبير في عين جالوت، فكانوا من أسباب النصر، لقد إهتم سيف الدين قطز بالكفاءات والقادة الآخرين فتعاطفوا معه والتفوا حوله وتولدت الثقة التي كانت المفتاح الرئيس لتحقيق التمكين في عين جالوت، وكان سيف الدين قطز يملك مقومات الحصول على الثقة من الأمراء والعلماء، وعامة الناس والتي من أهمها:

ـ التعاطف ويتحقق ذلك من خلال الإهتمام بالآخرين والوقوف إلى صفهم فيما يحدث لهم من خير وشر ومشاركتهم همومهم ومشاكلهم ومن خلال ذلك تم كسب ثقة القادة والعلماء وعموم الشعب.

ـ الصدق والصراحة، والكفاءة والعمل الجماعي المنظم والإنتماء للإسلام والقدرة على الاتصال بالآخرين، وكل هذه المقومات ساهمت في كسب الثقة في سيف الدين قطز[٢].

٣ ـ الجيش القوي: يعتبر الجيش المملوكي في ذلك الوقت من أقوى الجيوش الإسلامية والفضل لله ثم للملك الصالح أيوب، الذي قام بإصلاح عسكري في الدولة الأيوبية ووضع سياسة جديدة تقوم على إستخدام الأتراك المماليك بشكل لم يسبق له مثيل من قبل إسلافه الأيوبيين مكنته من متابعة حروبه الخارجية مع مملكة بيت المقدس والتصدي للحملة الصليبية السابعة[٣]، ورافق ذلك التطوير العسكري

---

١ النجوم الزاهرة (٧ ـ ٩٧) معركة عين جالوت صـ١٣٨.

٢ انظر: إدارة الجودة الشاملة للشيخ فيصل بن جاسم بن محمد آل ثاني، حيث تم الحديث عن أساسيات إدارة الجودة الشاملة ومقومات الحصول على الثقة صـ٢١٣.

٣ الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية صـ١٥١.

الإهتمام الديني به من حيث التربية والتعليم حتى أصبح كتائب المماليك تدافع عن عقيدة الإسلام، وأصبحت الدولة تحتفظ بجيش عقائدي ومنتظم ومدرب أحسن تدريب صناعته الحرب والقتال وأيدي من المهارة والبسالة في قتال القوات الصليبية برغم هزيمتهم في بداية الأمر، وتميز القواد المسلمون بوضع الخطط الحربية الممزوجة بالمكر والخدع الحربية[1]،، وتسلم المماليك المؤسسة العسكرية الأيوبية بعد وصولهم للحكم وحافظوا عليها وقاموا بتطويرها، لقد اشترك الجيش المملوكي في معركة عين جالوت بقياداته العسكرية والتشكيلات المقاتلة النظامية، والجيش المركزي، والجيوش الإقليمية، والجيوش الإحتياطية بما فيها القبال العربية والتركمان والأكراد، وقدر المؤرخون في ذلك العصر أن حجم الجيش المملوكي بالكامل كان في حدود ٤٠ ألف مقاتل[2]، وكان عدد الفرسان في حدود عشرة آلاف فارس وأغلبهم من المماليك وقسم قليل من غيرهم من المشتركين في المعركة، وكان عدد الجيش المغولي في عين جالوت ١٥ ألف مقاتل، وذلك أن القوة الرئيسية من هذا الجيش تحركت بإتجاه فارس مع هولاكو وتوزعت بعض القوى الأخرى في المناطق التي احتلها مروراً ببغداد وإنتهاء بالشام وكان في إعتقاد القادة المغول إن هذا العدد قادر على تحطيم وتدمير الجيش المملوكي بكل سهولة طالما إن له الخبرة في الحروب وسبق أن انتصر على كل الجيوش التي اشتبك معها، وقد أكد على هذا العدد مجموعة من المصادر التاريخية من أهمها، جامع التواريخ، وتاريخ مختصر الدول، وتاريخ الشهابي، وتاريخ الصليبيين، وتاريخ الزمان[3]،

٤ ـ **إحياء روح الجهاد:** كانت الغاية من التوجيه المعنوي في الجيش المملوكي التذكير بالجهاد والحث عليه والترغيب وشحن النفوس بمقارعة ومحاربة العدو، وصون الديار، والحرمة الإسلامية، القوة المعنوية يركز عليها في كل الجيوش فلا ينتصر جيش بدون معنويات، ولهذا فإن القيادة تسعى دائماً إلى زيادة هذه القوة ورفعها، فهي تحاول أن يكون السلاح حديثاً موثوقاً به والشئون الإدارية بحالة جيدة

١ الأيوبيون بعد صلاح الدين الصَّلاَّبي صـ٣٦٠.
٢ النجوم الزاهرة (٧ ـ ١٩٧)، معركة عين جالوت صـ١٦٥.
٣ معركة عين جالوت صـ١٦٦.

كالطعام واللباس والحاجيات الأخرى، ولقد أكثر المماليك من الوسائل التي ترفع هذه القوة كالمكافآت والترقيات، وإغداق الأموال، ولكن هذه الوسائل كانت موقتة للسكن الذي لا يلبث أن يعود الجندي إلى حالته الطبيعية ولكن هناك وسيلة كبيرة هي العقيدة التي كانت تأمر بالقتال وأن النتيجة مع المقاتلين في النصر أو الإستشهاد، وقد أشعل هذه الناحية المشايخ في الجيش المملوكي فأججوها، ورفعوا بها إلى المكان الذي يمكن أن يأخذوا من الجندي كامل طاقته وقدرته[1]، وإذا أردنا أن تحمل بواعث المعنويات عند الجيش المملوكي في معركة عين جالوت لخصناها كما يلي:

- زيادة حجم الجيش المملوكي وتفوقه على خصمه.
- الثقة في الله في تحقيق النصر.
- الانتقام من المغول الذين طغوا وبغوا في البلاد التي احتلوها والثأر لكل المظلومين والمقهورين.
- العقيدة التي أججت في المقاتلين روح التضحية والفداء وجعلتهم يقدمون على الموت وهو أحب إليهم من الحياة.
- الاستعداد الكامل والتحضير لهذه المعركة، وحشد كل الطاقات والإمكانات لنجاحها.
- تراخي العدو وعدم إكتراثه وعدم تطبيقه الأسس والمبادئ الحربية وعدم أخذ الحيطة والحذر[2].

إن الذي يلفت النظر في موضوع المعنويات هو العقيدة، فيها اجتمعوا وتوحدوا على مستوى واحد، وأرضية واحدة، فالمملوكي مهما كانت طبقته وقوميته فهو عقائدي وبهذا الإنتماء قدم الجهاد، وبهذه المزية إندفع بمعنوية لا تقابلها معنوية في الجيش المغولي، فذاك قطز نادي بأعلى صوته ((وا إسلاماه)) فاجتمع له الجيش بفئاته المختلفة بمعنويات عالية، ذلك لأن هذا النداء العقائدي أجج في نفوس القادة والجنود كل إمكانيات المقاتل القتالية، وجعله يقدم الإرادة حباً وتضحية وفداء واستبسالاً،

---

١ معركة عين جالوت صـ١٩١.

٢ معركة عين جالوت صـ١٩١.

على هذا النداء قاتل الجيش المملوكي قتال رجل واحد، فانتصروا على أكبر قوة في تلك الحقبة[1].

٥ ـ **الإعداد وسنة الأخذ بالأسباب:** إن إنتصار المسلمين في معركة عين جالوت، لأنهم عرفوا كيف يتعاملوا مع سنة الأخذ بالأسباب، وكان سلاطين المماليك أصحاب فقه عميق بسنة الأخذ بالأسباب، ويظهر ذلك من خلال حرصهم على العمل، وقوله تعالى: "واعدوا لهم من استطعتم من قوة ومن رباط الخيل" (الأنفال ، آية : ٦٠)، لقد فهم قادة المماليك أن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى على إختلافها وتنوعها، ولقد قاموا بشرح هذه الآية عملياً من خلال التدريب والتعليم والتخطيط والتنظيم الخ .

لقد إهتم قادة المسلمين في مصر بتأهيل الفارس لكي يدخل الحرب وهو على أتم الإستعداد لها، وكان أغلب الملوك والسلاطين والأمراء من الفرسان المعدودين ومن الأبطال الشجعان الذين على علم بالرماية ولعب الرمح وضرب السيف وخفة الحركة في ساحة الميدان وبفنون القتال وباستخدام الأسلحة المعروفة في ذلك العصر، ولم تقتصر الفروسية على الوجهاء، بل كان أغلب الجنود أو قل جميعهم من الفوارس ومن المدربين على تلك الأعمال التي في نظرهم في مقدمة كل أمر، ومن أبرز الصفات عند الجيش المملوكي[2]، والتي كان يركز عليها عند القادة في وقت الإعداد والتدريب والأخذ بالأسباب:

أ ـ **العمومية والشمولية:** إن التدريب كان يشمل المؤخرة، كما يشمل المقدمة، والتشكيلات كما في القطعات والوحدات، والفرد كما في المجموعات، والجندي كالقائد، والبحرية كالقوات البرية، ولا يستثنى أحد، وكانت هذه التدريبات تتناول جميع أنواع التدريب وأشكاله وطرائقه، كما تتناول جميع أنواع الأسلحة المستخدمة في القتال، والتدريبات التي تحافظ على اللياقة البدنية، وترفع من قدرة الجندي القتالية، كألعاب السباق والمصارعة، وبهذه العمومية والشمولية توصل الجيش المملوكي إلى

١ معركة عين جالوت صـ١٩٣.
٢ المصدر نفسه صـ٢٥٠.

توازن قتالي بين صفوف قواته وإختصاصاتها المختلفة، وإلى وحدة الجيش الحربية، وإلى ثقل الضغط والخرق، فإن ركز جهوده الرئيسية إلى قطاع من دفاعات العدو تراه يجمع كل الجهود لهذا القطاع، كما حدث تماماً في معركة عين جالوت عندما خرق الدفاع وإستطاع أن ينفذ من اليمين والشمال وأن يصل خلف القوات المغولية بالرغم من الصمود وثبات الدفاع[1].

ب ـ ملازمة التدريب العقائدي مع التدريب القتالي: كان المماليك يدربون على أصول العقيدة وأحكامها ونظرتها إلى الجهاد تحت إشراف مدربين إشتهروا بالتربية والتعليم، وكان يعلمونهم القرآن الكريم حتى أن بعض المدربين كانوا يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب، وكذلك كانت علوم شرعية متنوعة في التفسير والحديث والسلوك واللغة، وبعد نجاحه في أمور العقيدة وإتمامه هذه المرحلة، وبعد أن يكبر، يسلم إلى مدربين في أمور الحرب والقتال، فيتدربون على ركوب الخيل ويتدرجون من السهولة إلى الصعوبة،فيقاتل على ظهرها بسلاح واحد ثم يصل إلى جميع الأسلحة ويتدرب في حالة الركض والوثوب عنها، ثم ينتقل إلى الرمي والدقة في الإصابة على القبق والضرب بالسيف والطعن بالرمح وإستخدام الدبوس ولعب الصولجان، ثم يتدرب على طرق القتال في الميدان وهذه هي أصعب مرحلة في التدريب يخرج من بعدها مقاتلاً قوياً في عقيدته قوياً في قتاله وهو بهذا لا ينقطع عن التدريب العقائدي أو القتالي بل يظل ينمي تدريباته، حتى يصل إلى أعلى مستوى من التدريب المتلازم[2].

جـ ـ التدريب بشكل متواصل: إن المقاتل المملوكي بعد أن ينهي هذه المراحل جميعها لا يتوقف عن التدريب ابدا، وإنما هناك الميادين المتعددة التي يلتقي فيها المقاتلون ليقوموا بتدريباتهم المعتادة ويوصل العسكري المملوكي تدريبه على جميع أنواع القتال وعلى اختلاف الأسلحة في جميع الظروف والأحوال الصعبة، ويبقى من الصباح حتى المساء حتى ولو كان الجو ماطراً أو بارداً أو حاراً[3]، فالمهم عنده تنفيذ

١ معركة عين جالوت صـ١٥١.

٢ المصدر نفسه صـ٢٥٢، الخطط للمقريزي(٤٨٩/٢).

٣ الخطط(٤٨٩/٢) معركة عين جالوت صـ٢٥٢.

البرنامج التدريبي المقرر وكذلك كان التدريب العقائدي فقد كان الموجهون المشايخ كثيرين، وكذلك فإن دور العلم التدريب كانت كثيرة وهي لا تخلو من المقاتلين الذين يلازمون هذه الأماكن التي كانت منتشرة بشكل واسع[١].

د ـ التخصص في التدريب: لقد شاع التخصص في الوظائف العسكرية في الجيش المملوكي فكل مادة لها مدربون خاصون بها، فالنشاب اختص به قادة عسكريون عرفوا به، فهم يقومون بتدريبه وتعليمه للفوارس المبتدئين، كما كانوا يؤلفون الكتب العديدة التي تبحث في هذا السلاح وقواعده رميه وأصوله وأجزائه التي يتألف منها وعمل كل جزء واستخدامه في الميادين وفي ساحات القتال التي تفرض عليه أن يتخذ أوضاعاً مناسبة لكل سلاح، على أن هذا التخصص زاد من المعارف، وأكسب المدربين والمتدربين الدقة والسرعة وأداء الحركات بكل اتقان وفنية عالية[٢]، وكان المدرب يتدرج حسب خبرته وتحصيله للعلوم إلى ثلاث درجات الاولى يكون فيها معلماً والثانية أستاذاً. والثالثة رئيساً، ولا يرقى من درجة إلى درجة أعلى إلا إذا حصل على نجاح في الفحص وقدم شيئاً من مؤلفاته وخبرته في العلوم العسكرية[٣].

لقد دخل المماليك المعركة بعد إعداد وأخذ بالاسباب وحققوا نصراً ساحقاً على المغول، لقد اتخذ قادة المماليك مجموعة من الاجراءات والأعمال كان الهدف منها التأثير على القوات المغولية في عين جالوت وكان من أهم هذه الاجراءات:

ـ الرد الفوري على الأنذار: درج المغول خلال حروبهم السابقة على توجيه إنذار قتالي إلى زعيم البلاد أو قادتها يحمله مراسلون يتضمن الأعمال المجيدة التي قام بها الجيش المغولي والبطش الذي إستخدمه، والشدة التي عامل بها تلك الجيوش التي تصدت له، مذكراً ما حل بالمعاندين من دمار وخراب ثم يدعوهم إلى الاستسلام والطاعة، فإن أبى الخصم ذلك إبتدأت المعركة على أشدها لا تبقي ولا تذر[٤]، أما

١ معركة عين جالوت صـ٢٥٢.
٢ المصدر نفسه صـ٢٥٣.
٣ المصدر نفسه صـ٢٥٤.
٤ المصدر نفسه صـ٣٠١.

المماليك فقد كانوا يخشون لقاء المغول، ويتوجسون شراً من الاقتتال معهم، وقبل عين جالوت وصل رسل هولاكو وسلموا الإنذار إلى السلطان قطز زعيم البلاد، وفي هذا الإنذار من الوعد والوعيد وأهم ما يتضمنه الإستسلام، أو القتال، أو الجلاء عن البلاد[١]، إلا أن القيادة المملوكية ردت على هذا الإنذار بقتل الرسل وإعلان الحرب والاستعداد للمجابهة[٢].

ـ مجلس الحرب: إنعقد مجلس الحرب في القوات المسلحة المملوكية مباشرة بعد الإنذار، ويتألف من السلطان القائد الأعلى رئيساً، وعضوية كل من أتابك العساكر وشيخ الإسلام وقضاة الإسلام وأمراء المئين، أي قادة التشكيلات المقاتلة وأعيان المشايخ، ومن مهمته النظر في مشروعية الحرب، وتعبئة الجنود، وإعلان النفير العام والتدريب، وتأمين الأسلحة والذخائر، وتحضير الأموال اللازمة وتعيين أمير التجريدة العام والأمراء الذين بصحبته والذين يشكلون أركان الجيش وقادة التشكيلات[٣]، ودارت المناقشة التي كان يرأسها قطز، وكان كل عضو يعبر عن رأيه بكل صراحة ووضوح، وكانت المناقشة جادة ومسؤولة، وانفض المجلس على قرار تاريخي، وتحضير قتالي، وإستعداد مع هذا اللقاء الحاسم[٤].

ومن الإجراءات التي تم العمل بها، التحضير والإعداد للحرب، تحشيد الناس، والتوجيهات العملياتية، وتقسيم المحاور القتالية والاهتمام بالطليعة والتحييد والحرص على التفوق الكمي والكيفي والإعتناء والإخفاء والتمويه، وإختيار مكان المعركة وزمانها، ومنطقة التمركز، ومخادعة العدو ونصب الكمائن والمطاردة، والتضليل الإستراتيجي والمحافظة على المقاتل والتقليل من الخسائر، الترتيب القتالي، والتشكيلات القتالية، والقتال الإستراتيجي بالجيوش المتلاقية والبريد الحربي ووسائط الاتصال، ومراعاة ميزان القوى، والتصميم للوصول للهدف، وتحقيق النصر السياسي

---

١ معركة عين جالوت صـ٣٠٢.
٢ المصدر نفسه صـ٣٠٢.
٣ المصدر نفسه صـ٣٠٢.
٤ المصدر نفسه صـ٣٠٣.

الذي بدوره يقود إلى النصر العسكري[1]، وغير ذلك من الخطوات المهمة التي ساهمت في تحقيق النصر.

٦ ـ **عبقرية التخطيط:** إشتهر قادة المماليك بالقدرة على التخطيط والتنفيذ، ومعرفة قوانين الحرب والمبادئ التي تلعب دوراً هاماً لبلوغ النصر وإذا أمعنا النظر في معركة عين جالوت بصورة خاصة والمعارك التي تلت بصورة عامة لأدركنا تماماً أن قادة الجيش المملوكي كانوا يطبقون هذه المبادئ إلى أبعد الحدود ولا سيما الظاهر بيبرس الذي إشترك في هذه المعركة بالذات وفي المعارك التي شهدها بنفسه فيما بعد:

أ ـ **الاقتصاد في القوى:** لم يشأ قطز القائد الأعلى للجيش أن يشرك القوى جميعها في معركة عين جالوت، ولكنه كان يقود القوى الرئيسية للجيش، وبيبرس كان يقود الطليعة، وقد إشتبكت الطليعة ـ وهي جزء من الجيش ـ مع حامية غزة[2]، كما إشتبكت القوة الرئيسية هذه مع الجيش المغولي، كما إشتبكت الميمنة مع ما يقابلها وكذلك الميسرة بأعداد تناسب القوة التي كانت تجاهها[3]، وكان قطز حريصاً كل الحرص على أن يوزع قواته بصورة تتناسب مع القوات التي تقاتل ضده من الجيش المغولي، فقد أفرز قوة للمجنبات وأخرى للالتفاف القريب، وثالثة للبعيد، ورابعة للكمين، وخامسة لإعاقة وجذب قوى العدو[4]، وأما بيبرس فقد أظهر براعة حربية في الاقتصاد في القوى في هذه المعركة عندما قاد الطليعة وقاتل وهو في طريقه إلى عين جالوت، ثم في الكمين الذي نصبه للعدو[5]، ثم في المطاردة التي كان فيها هذا المبدأ واضحاً كل الوضوح، إذ أرسل القوى المناسبة على كل محور من المحاور وعلى كل إتجاه سلكته القوات المهزومة من الجيش المغولي[6].

ب ـ تجميع وحشد الجيوش على الإتجاهات الرئيسية: لما أراد الجيش المملوكي مقابلة الجيش المغولي في معركة عين جالوت جمع سيف الدين قطز الجيش المصري

---

١ المصدر نفسه صـ٣٠٣ ـ ٣٣١.
٢ دائرة المعارف الإسلامية (٤ ـ ٣٦٣)، معركة عين جالوت صـ٢٨٣.
٣ معركة عين جالوت صـ٢٨٣.
٤ ذيل الزمان اليونيني (١ ـ ٣٦١)، معركة عين جالوت صـ٢٨٣.
٥ معركة عين جالوت صـ٢٨٣.
٦ المصدر نفسه صـ٢٨٣.

وأرسل إلى الجيش الشامي وحشد الإمكانات المتاحة، وأرسل في القرى والمدن والبادية يحث الميليشيات الشعبية والتفت هذه التشكيلات جميعاً في أمر المعركة وركزت الجهود الرئيسية نحو تجميع الجيش المملوكي الذي كان يتحرك بإتجاه مرج بن عامر، وسار بإتجاه الساحل بكتلة واحدة، فوحدة الجيش وقتاله ككتلة واحدة متماسكة يساعد الجيش على تحقيق النصر[١] وهو ما قد تم في عين جالوت.

جـ ـ الضغط على الأعداء: كان ذلك واضحاً في معركة عين جالوت عندما تصدى قادة الجيش لقادة الجيش المغولي وثبتوا ثبوت الرواسي أمامه، وأمام كل عنجهيتهم وإنذارهم، ولما تقابلا لم يصمد الجيش المغولي وخرقت جبهته، وتعقبه الجيش المملوكي، ولم ينفصل عنه أبداً حتى إذا أدركه وضع فيه السيف ولحقه إلى أطراف الشام والبادية[٢]، وبدأ الضغط واضحاً في عدة أمور، أهمها رفض الإنذار وقتل الرسل[٣]، والتفوق العددي الذي أوجس منه خيفة قائد الجيش المغولي وتردد كثيراً في طلب المدد ليكون هناك توازن بين الجيشين[٤]، وإجبار الجيش المغولي أن يفتح وأن يقاتل في مكان غير مناسب والسرعة في التحرك وحسم الأعمال القتالية[٥]، والصمود القوي أثناء القتال، فما كانت تفتح ثغرة حتى يبادر قطز إلى صدها، وأهم المواقف الصمودية هو الموقف الذي صمدت فيه الجبهة وبخاصة الميسرة الذي كاد أن يتداعى[٦]، والهجوم الصاعق الذي أدى إلى قائد الجيش المغولي وقتله[٧]، والمطاردة التي ظل فيها الجيش المملوكي على تماس وضغط على الجيش المغولي الذي هرب وظن بهروبه النجاة، ولكنه كان ملاحقاً كيف إتجه ومطارداً أينما سار[٨].

د ـ تحقيق المفاجأة: أن المفاجأة قد تمت في هذه المعركة بالإخفاء والتمويه وبظهور أعداد قليلة من الجيش أمام القوات المغولية في الأراضي السهلية، إنما قوة

---

١ المصدر نفسه صـ٢٨٣.

٢ تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١ ـ ٢٩)، معركة عين جالوت صـ٢٨٥.

٣ جامع التواريخ (٢ ـ ٣١٣)، معركة عين جالوت صـ٢٨٥.

٤ بدائع الزهور في وقائع الدهور (١ ـ ٣٠٥)، معركة عين جالوت صـ٢٨٥.

٥ معركة عين جالوت صـ٢٨٥.

٦ السلوك والمعرفة نقلاً عن معركة عين جالوت صـ٢٨٥.

٧ النجوم الزاهرة (٧ ـ ٧٩)، معركة عين جالوت صـ٢٨٥.

٨ جامع التواريخ (٢ ـ ٣١٦)، معركة عين جالوت صـ٢٨٦.

الجيش الرئيسية فقد بقيت إلى الخلف وراء التلال والمساتر في مرج ابن عامر، وبصمود الجيش المملوكي وقتاله الذي وضع كتبغا في حيرة وتشكيلة القتال الجديدة/، وبنصب الكمائن، وبث الدوريات أمام تقدم القوات المغولية، وبالتطويق الكامل، وبالصمود أمام هجمات المغوليين المتتالية، بقيت المطاردة التي لم تنته إلا بقتل وتشريد المنهزمين وإبادتهم، وبالشدة والتنكيل والقسوة والحزم والبطش الذي لم يكن يتوقعه المغول أبداً، هذه المفاجأة مكنت الجيش المملوكي من تحقيق النصر[1].

هـ ـ وضوح الهدف: كان قطز القائد الأعلى للجيش واضح الهدف، إذ أعلن القضاء على الجيش المغولي وتدميره والانتصار عليه منذ أن أعلن الحرب وقتل الرسل[2]، هذا هو الهدف النهائي الذي سبقه أهداف مرحلية كالتخطيط لهذا القتال، وإستخدام الرجال والأسلحة التي تستطيع أن تقضي على العدو وجمع الأموال[3] والاتفاق مع الصليبيين في عكا على الإلتزام جانب الحياد[4].

و ـ المناورة بالقوى والوسائط: وزع قائد الجيش المملوكي القوي الوسائط قبل بدء القتال، وأثناؤه ظهرت ضعف الميسرة، فنقل القوى والوسائط إليها وقواها، وهنا ظهرت عبقرية هذا القائد عندما نقل بعض المجموعات القتالية وسد الثغرة التي أحدثها الجيش المغولي، كما إستطاع أن يقود الإحتياطي الموضوع تحت تصرفه ويناور به ليصل إلى قبالة هذا الخرق فيتصدى للقوات المغولية فيوقفها[5]، كما قام بدور مهم عند نقل بعض القطعات من المجنبات لتقوم مع النسق الثاني بالهجوم المعاكس، وفعلاً كانت السرعة مذهلة في المناورة عندما تحرك هؤلاء الجنود وقاموا جميعاً بهجوم مضاد وقضى على الوحدات والقطعات المغولية التي تسربت خارقة دفاع الجيش المملوكي، وقد ظهرت هذه البراعة أيضاً عندما تلقى قائد الجيش المملوكي معلومات عن قوة

---

١ معركة عين جالوت صـ٢٨٦.

٢ معركة عين جالوت صـ٢٨٧.

٣ أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (٢ /٢٩٠ ـ ٢٩١).

٤ معركة عين جالوت صـ٢٨٧.

٥ النجوم الزاهرة (٧ ـ ٧٩)، معركة عين جالوت صـ٢٨٨.

العدو وضعفه وأماكن تمركز قوته، فناور بقواته وأعاد تشكيلها، بما يتلاءم مع هذه المعلومات الجديدة[1].

ز ـ السرعة في الأعمال القتالية: تجاوب القائد الأعلى للجيش المملوكي بمجرد سماعه التهديد المغولي وأعلن التعبئة وعقد مجلس الحرب وإتخذ إجراءات تحضيرية سريعة، فتحركت القوات مستجيبة لهذا النداء الجهادي لملاقاة العدو وسبقه إلى أرض المعركة المناسبة قبل أن يتحرك الجيش المغولي فيهاجم الديار المصرية، ويغزو المماليك في عقر دارهم، ومن الأهمية بمكان أن نذكر دور قائد الطليعة وسرعته، والتفويت على قائد ((الجيش المغولي بيدرا)) كل مبادرة مما أتاح لبيبرس أن يقضي على حامية كبيرة متقدمة قرب غزة من جراء السرعة التي قام بها رئيس أركان الجيش المملوكي[2].

ح ـ المخابرات العسكرية: بث قطز العيون واعتمد على الأهالي الذين كانوا يتجاوبون مع طلبات الجيش على حقد من المغول وتصرفاتهم، ولهذا فإن المعلومات كانت تصل تباعاً إلى هيئة أركان الجيش المملوكي، في حين أن الجيش المغولي لم يعتمد كثيراً على الاستطلاع، بل إعتمد على قواته وشدته في الحروب ولم يأبه لما يجري حوله، ولم يقم بإجراءات كشف العملاء والجواسيس الذين كانوا يدخلون معسكراته، ويأخذون منها الأخبار ويوصلونها إلى المماليك[3]، وبالإضافة إلى ذلك فإن بيبرس عندما اصطدم بحامية غزة المغولية استطاع أن يتلقى أخباراً صحيحة عن قوة الجيش المغولي وتحركاته واسلحته وقادته[4]، وكذلك فإن قادة الجيش المملوكي ارسلوا حراسات متقدمة عبارة عن مخافر، تصنت وإنذار من مهامها نقل المعلومات عن الانساق وعن تحركات الجيش المغولي[5]، وكان من مصادر الاستخبارات المملوكية، عمال البريد الذين كانوا يكلفون بمهام مخابراتية بالاضافة إلى نقل البريد الحربي، إن هذا الجهاز كان يتحرى أحوال العدو وإمكاناته ومعرفة البؤر والجهات الخطرة من

---

١ معركة عين جالوت صـ٢٨٨.

٢ المصدر نفسه صـ٢٨٨.

٣ معركة عين جالوت صـ٢٨٩، المغول للعريني صـ٢٥٩.

٤ تاريخ ابن الوردي (٢ ـ ٢٩٣)، معركة عين جالوت صـ ٢٩٠.

٥ ذيل مراة الزمان (١ ـ ٣٦٦)، معركة عين جالوت صـ ٢٩٠.

الداخل والتحري من الاعمال الهدامة، أو الاشخاص الذين يقومون بدور العمالة والتجسس على القوات الصديقة وكان يطلق على رئيس هذا الجهاز((صاحب الخبر والتحري)) الذي كان له خبرة واختصاص[1]، إن للاستخبارات دوراً كبيراً في الحروب الماضية والحاضرة في إحراز النصر، ولقد كانت الاسباب الصحيحة التي تلقاها قادة الجيش المملوكي وبنوا قرارهم على هذه معلومات صحيحة فكان القرار سليماً والنصر محققاً[2].

٧ ـ **بعد نظر سيف الدين قطز وسياسته الحكيمة**:شعر قطز قبل أن يستلم السلطنة بالخطر على دولة المماليك وبخاصة من قبل المغول الذين دخلوا البلاد واكثروا فيها القتل والعذاب، ولابد له إزاء هذا الخطر أن يتخذ عدة إجراءات سياسية تضمن له النصر على اعدائه الذين لم يلبثوا إلا أياماً معدودات أو شهور حتى يتوجه الجيش المغولي إلى أراضي الشام ومصر، وبدأ التفكك الداخلي واضحاً عند استلام المماليك الاتراك، إذ حكمت إمرأة ولم يوافق الخليفة في بغداد على سلطنتها، وتزوجت فيما بعد من عزالدين أيبك لتحصل على الاعتراف الخليفتي، واحتدم الصراع بينها وبين زوجها أدى إلى قتلهما، واستلم الحكم علي بن أيبك وهو غير قادر على إدارة الحكم لصغر سنه، ولما كان قطز هو نائب السلطان والوصي على الصبي وهو يعلم أنه قادم على معركة فاصلة، أراد لكي تتاح الحرية السياسية والتصرف بالامور العسكرية والسياسية، أن يتخلص من السلطان الصغير، فاستلم الحكم وهذا إجراء سياسي داخلي، اتخذه هذا السلطان بعد أن استلم البلاد وهو مهم بالنسبة للمعركة القادمة، فقد هرب بعض أمراء المماليك البحرية إلى الملك المغيث صاحب الكرك لما رأو أنهم لا يستطيعون أن يؤثرون على المسيرة التي انتهجها قطز لاصلاح البلاد وتحضيرها، هربوا لكي يجدوا الحليف ضد هذا القائد، وحاولوا القتال وزحفوا نحو مصر في سنة ٦٥٥هـ /١٢٥٧م، لكن قطز تصدى لهذه المؤامرة وتغلب على الأمراء وأوقع فيهم القتل وردهم على أعقابهم[3]، ولم يمكنهم أبداً من العبث بأمن

---

١ تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى صـ ٣٨.

٢ معركة عين جالوت صـ ٢٩١.

٣ النجوم الزاهرة (٧ ـ ٤٥،٤٦)، معركة عين جالوت صـ ٣٣٢.

الدولة وقدرتها وتصديها للعدو المرتقب، المغولي، وظل صامداً يتابع توجيه السياسة وأصلاح البلاد وتخليصها من الفتن والاضطرابات وتوحيد جبهتها الداخلية، حتى إذا اقتربت معركة عين جالوت وإزداد الخطر رأى أنه من المناسب إعادة الصف بينه وبين الامراء الهاربين الذين حاربوه لتجتمع الكلمة وليستفيد من خبرتهم في الحروب وفي قيادة الجيوش[1]، وهكذا كان الإجماع الداخلي على التصدي للعدو المغولي وتوج هذا الإجماع بقرار مجلس الحرب وبحضور جميع الساسة في البلاد، وتحققت الوحدة الداخلية[2]، وبعد ذلك إهتم بالوضع السياسي الخارجي وعمل على تحييد الصليبيين وعقد معاقدة صلح معهم وإستفاد من المرور بأراضيهم، ولم يقاتل على جبهتين، وقابل المغول في عين جالوت وانتصر عليهم، وإستمرت الأعمال السياسية والإدارية بعد المعركة، فقد أرسل قطز رسلاً إلى بعض الدول يخبرهم فيها عن إنتصاره، كما أعلن ذلك على الشعب في مصر والشام وبذلك ثبت دعائم الأمن والاستقرار السياسي، كما نظم البلاد من الناحية الإدارية، وعين النواب وبسط نفوذه على كل البلاد التي كان يحتلها المغول في الشام[3]. وهذا دليل على بعد نظره وحنكته السياسية.

٨ ـ **توفر صفات الطائفة المنصورة:** لم يظهر سيف الدين قطز من فراغ وإنما سبقته جهود علمية وتربوية على أصول منهج أهل السنة والجماعة، وأصبح ذلك الجيل الذي أكرمه الله بالنصر في معركتي عين جالوت تنطبق فيه كثيراً من صفات الطائفة المنصورة والتي من أهمها:

أ ـ **أنها على الحق:** وللطائفة المنصورة من ملازمة الحق وإتباعه ما ليس لسائر المسلمين، وهي إنما إستحقت الذكر والنصح وتمسكها بالحق، حين أعرض عنه الأكثرون، ومن الجوانب البارزة في الحق الذي إستمسكت به حتى صارت طائفة منصورة ما يلي:

ـ الاستقامة في الإعتقاد وملازمة ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مجانبة البدع وأهلها فهم أصحاب السنة.

---

١ تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور صـ ٢٦٤.
٢ معركة عين جالوت صـ٣٣٢.
٣ تاريخ مصر، أسكندر عمون صـ١٩٦، معركة عين جالوت صـ٣٣٣.

ـ الاستقامة في الهدي والسلوك الظاهر والباطن والسلامة من أسباب الفسق والريبة والشهوة المحرمة،

ـ الاستقامة على الجهاد بالنفس والمال والأمر بالمعروف والنهي على المنكر، وإقامة الحق على العاملين.

ب ـ أنها قائمة بأمر الله: وهذه الخصيصة بارزة جداً في الوصف النبوي لهذه الطائفة، فهم أمة قائمة بأمر الله، وقد قامت دولة سيف الدين قطز بأمر الله، من الإعداد، والتخطيط، والدفاع عن الإسلام والمسلمين.

جـ ـ أنها تقوم بواجب الجهاد في سبيل الله: والطائفة المنصورة جاءت الأحاديث النبوية في وصفهم بأنه ((يقاتلون على الحق))[1]، أو يقاتلون على أمر الله[2]، وكان سيف الدين قطز وجيشه قاموا بالجهاد الشرعي في سبيل الله وقتال أعداء الله من الكفار وغيرهم[3]، وتحقق نصر الله لهم في معركة عين جالوت.

د ـ أنها صابرة: فقد خص الله الطائفة المنصورة بالصبر، وقد رأيت كيف تسلح سيف الدين قطز وجنوده بالصبر الجميل في جهادهم ولم تستطع القوة الظالمة أن تخرجهم عن منهجهم وهدفهم الذي يسعون إليه، ولهذا وصف الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء القوم بأنهم: لا يضرهم من كذبهم، ولا من خالفهم، ولا يبالون من خالفهم[4]، وهذه التعبيرات النبوية الكريمة تشير إلى هؤلاء العاملين الذين عرفوا أهدافهم وسلكوا طريقهم فلم ينظروا إلى خلاف المخالفين وعوائق المخزلين ولا تكذيب الأعداء الحاقدين، وكانوا يواجهون كل المتاعب بصبر وثبات ويقين[5]، وهذه الصفات التي جاءت في الأحاديث النبوية لوصف الطائفة المنصورة، قد إنطبقت على جيش سيف الدين قطز والمماليك الذين حققوا النصر في معركة عين جالوت، إن الانتساب إلى الطائفة المنصورة ليس شعاراً ولا هو دعوة وإنما هو تحقيق وعمل

---

١ سنن أبي داؤد، ك الجهاد رقم ٢٤٨٤.

٢ مسلم رقم ١٧٦، الضربات التي وجهت للإنقضاض على الأمة الجندي صـ١١٣.

٣ تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين صـ٤٧٣.

٤ رواه سعيد بن منصور، ك الجهاد رقم ٢٣٧٦ وله طرق تقوية.

٥ صفة الغرباء، سلمان العودة صـ٢٠٥.

وتحقيق للصفات الشرعية لهم، وعمل بالواجبات الشرعية عليهم، فمن حقق الصفات وقام بالواجبات كان من الطائفة المنصورة ولو كان وحده[1]، قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون * إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص" (الصف ، آيات : ٢ ـ ٤).

٩ ـ **سنة التدرج ووراثة المشروع المقاوم:** قدم أمراء السلاجقة الكثير من أجل دحر الصليبيين، وقد حقق عماد الدين زنكي إنجازاً عظيماً بوضعه لمشروع رائد ـ ربما رأى الكثيرون في ذلك الوقت ـ إستحالة تحقيقه على بساطته، وهو مشروعه الوحدوي التحرري والذي حقق إبنه نور الدين جزئه الأول، وحقق صلاح الدين قسماً مهما من جزئه الثاني، ولذلك نرى إنتصار صلاح الدين في حطين تتويجاً لمشروع عماد الدين الوحدوي التحرري، فلولا الله ثم متابعة نور الدين لخطا والده في توحيد الشام ثم توحيد مصر مع الشام، لما تحقق هذا النصر[2]، الذي تم بفضل الله ثم جهود التوحيد التي قامت على عقيدة الإسلام الصحيحة التي تدعو للوحدة الإسلامية التي لا تفرق بين جنس أو لون، أو طائفة، وإنما جمعتهم الأخوة في الله والتي لم تفرق بين الأتراك والأكراد والعرب والفرس ولا غيرها من الأمم التي انضوت تحت راية الإسلام، قال الشاعر:

ولست أدري سوى الإسلام لي وطناً
الشام فيه ووادي النيل سيان

وإينما ذكر إسم الله في بلد
عددت أرجاءه من لب أوطاني

ولقد تفاعلت العوامل التي ساعدت على الوحدة في عهد صلاح الدين مع الزمن والوقت، وخضعت لسنة التدرج وأعطت ثمارها في معركة حطين وتوجت بفتح بيت المقدس، وأصبح المؤمنون فبتوادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا

---

١ الطائفة المنصورة، سلسلة تصدر عن مجلة البيان صـ٦٥.

٢ العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢ ـ ٣٧٥).

اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[١]، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها الغزاة من أجل تمزيق أرجاء العالم الإسلامي، فقد نجحوا في تقطيع أراضي المسلمين، ولكنهم لم ينجحوا في تمزيق قلوبهم، وظل المسلم محباً لأخيه المسلم، ولسان حال كل منهم[٢] يقول:

أبـــا ســـليمان قلبـــي لا يطـــاوعني
عـــلى تجاهـــل أحبـــابي وأخـــواني
إذا إشـــتكى مســـلم في الهنـــد أرقنـــي
وإن بـــكى مســـلم في الصـــين أبكـــاني
ومصر ريحـــانتي والشـــام نرجســـتي
وفي الجزيـــرة تـــاريخي وعنـــواني
أرى بخـــارى بـــلادى وهـــي نائيـــة
وإســـتريح إلى ذكـــرى خراســـان
فـــأينما ذكـــر إســـم اللـــه في بلـــد
عـــددت ذاك الحمـــى مـــن صـــلب أوطـــان
شريعـــة اللـــه لمـــت شـــملنا وبنـــت
لنـــا معـــالم إحســـان وإيمـــان[٣]

إن سلاطين المماليك ساروا على نهج عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وأخلصوا النية لله وحده وجددوا دعوة الجهاد معاً[٤]، فهذا سيف الدين قطز بأقواله وأفعاله يبرهن على ذلك، فبعد معركة عين جالوت وقف خطيباً وقال: لقد صدقتم

---

١ الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم صـ٢٣.
٢ المصدر نفسه .
٣ الطائفة المنصورة، سلسلة تصدر عن مجلة البيان صـ٧.
٤ جهاد المماليك صـ ٢٨٩.

الـلـه الجهاد في سبيله فنصر قليلكم على كثير عدوكم، إياكم والزهو بما صـنعتم، ولكـن أشـكروا الـلـه واخضعوا لقوله وجلاله إنه ذو القوة المتين، واعلموا انكم لم تنتهوا من الجهاد وإنما بدأتموه، وإن الـلـه ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد اعدائه من سائر بلاده، ويومئذ يفـرح المؤمنـون بنصر الـلـه[1]، والواقع اننـا إذا تتبعنـا أعـمال سـلاطين دولـة المماليـك في هـذا المجـال نـدرك أن الـدافع الاساسي لهم كان الجهاد في سبيل الـلـه للذود عن ممتلكات المسلمين، ولما كـان ذلـك لا يتـأتى إلا بتوحيـد كلمة المسلمين، فإنهم قد سعوا جاهدين لتحقيق ذلك، فبدأوا جهودهم بتجميـع الفلـول الإسـلامية التـي فرت من وجه العدوان المغولي وحشدها داخـل الأراضي المصريـة، وخـرج السـلطان قطـز عـلى رأس تلـك الجموع بعد أن غرس فكرة الجهاد في نفوسها وأشعل الحماسة في صفوفها إلى بلاد الشام وتمكن مـن كسر المغول في عين جالوت التي تعتبر بحق بداية النهاية للوجـود المغـولي في بـلاد الشـام، ترتـب عليهـا إعـادة الوحدة مرة أخرى بين مصر والشام، ليمهـد الطريـق لمـن أتى بعـده مـن السـلاطين لمواصـلة الجهـاد ضـد المغول والصليبيين، ذلك الجهاد الذي كان يعد في نظرهم فرض عين على كل مسلم لا يقل عن كونـه ركنـاً من أركان الإسلام[2]، وخلاصة القول أن سلاطين المماليك استفادوا من الجهود التراكمية التي سـبقتهم وبنـوا عليها وجددوا الدعوة للجهاد وتحرير أراضي المسلمين من المشاريع الغازية المغولية والصليبية.

١٠ ـ الاستعانة بالعلماء واستشارتهم:كانت مـن القـيم الراسـخة في دولـة المماليـك، قيمـة العلوم الشرعية وعلماء الدين، فطول أيام الايوبيين في مصر، ومنذ أن رسخ صـلاح الـدين المـذهب السني في مصر بعد قضائه على الدولة الفاطمية، وقيمة العلماء مرتفعة في أعـين النـاس والحكـام على السواء، حتى أنه لما صعدت شجرة الدر إلى كرسي الحكم، وقـام العلـماء بإنكـار ذلـك وكتابـة الرسائل المعادية للملكة وتحفيز الناس على رفض هذا الأمر، ما استطاعت شجرة الدر ولا أحد من أعوانها أن يوقفوا هذه الحركة الجريئة من العلـماء[3]، وكـان مـن طبيعـة العلـماء في ذلـك الـعصر

١ من أجل فلسطين صـ١٠٢.

٢ جهاد المماليك صـ٢٩٠.

٣ قصة التتار صـ٣٦٠.

النزول في ساحات القتال وتحريض الناس على الجهاد كما حدث في الحملة الصليبية السابعة عام ٦٤٨هـ وكان من أشهر هؤلاء العلماء العز بن عبد السلام، وكان مقرباً ومحبباً لسيف الدين قطز، وأخذ بترشيده وفتاويه ونفذ ذلك وخصوصاً تلك الفتوى الشهيرة المتعلقة بوجود المال اللازم للإعداد ما يلزم الحرب، فعقد سيف الدين قطز مجلساً للمشورة في قلعة الجبل وحضر قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان السؤال حول أموال العامة ونفقتها في العساكر، فقال ابن عبد السلام: إذا لم يبق في بيت المال شيء وأنفقتم الحوائص الذهبية ونحوها من الزينة وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبق للجندي إلا فرسه التي يركبها ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء، إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم[1]، وانقضى الاجتماع ويفهم مما تقدم أن المسلمين لم يكونوا يوافقون على فعل شيء أو دفع ضريبة إلا إذا أقرها علماء الإسلام، وأصدروا الفتاوى بجوازها، وهذا يعني الخضوع للشريعة، ومن جهة أخرى فإن السلطان ملتزم بما صدر عن إفتاء العلماء، بل راح الأمراء ورجال الدولة يقدمون ما يملكون وأحضروا ما في بيوتهم من حلي نسائهم وأموالهم، وأقسموا لم يتركوا شيئاً، وذلك طواعية دون إرغام أو تهديد وإنما إستجابة لرأي الشريعة، ولما كانت هذه الأموال لا تقوم بالمطالب إستعان السلطان قطز بالرعية بعد أن تساووا جميعاً، وفرض إجراءات من أجل توفير المال اللازم للحرب، ومن ثم كانت الأموال التي أنفقها المسلمون في حرب التتار في موقعة عين جالوت أموالاً طيبة ساهمت في تحقيق الإنتصار[2]، وكان السلطان سيف الدين قطز يحترم ويقدر وينفذ فتاوى العلماء وكان يستعين بهم ويطلب مشورتهم في النوازل وكان العلماء والفقهاء يقومون بدورهم الكبير في توعية الشعب بالأخطار المحيطة به ويحرضون الناس على طلب الشهادة، والإستجابة لنداء الجهاد، فقد حدث تكامل بين أمراء المماليك والعلماء في مقاومة التتار، فكان ذلك الإنسجام والتعاون المستمر من أسباب النصر في عين جالوت، فبين العلماء أحكام الله تعالى في الجهاد، كيف يتعامل مع أموال

١ الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول د. فايد صـ١٢٠.
٢ المصدر نفسه صـ١٢١.

العامة، حتى تصبح حلالاً لا ظلم ولا عدوان فيها، مع الإستعداد النفسي لدى السلطان قطز في تنفيذ حكم الله وأثر ذلك على شعور الناس بقيمة العدل التي ساهمت في جعل روح جديدة تسري في كيان الشعب تحت قيادة قطز.

١١ ـ الزهد في الدنيا: لما تحدثنا عن أسباب سقوط الدولة الخوارزمية، ذكرنا منها، حب الدنيا وكراهية الموت، وكيف كان حب الدنيا مهيمناً على القيادة والشعب في ذلك الوقت، وقد دبت الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين وتعلقوا بدنياهم الذليلة تعلقاً ورضوا بأن يبقوا في قراهم ومدنهم ينتظرون الموت على أيدي الفرق المغولية، وقد رأينا، محمد بن خوازم، وجلال الدين بن خوارزم والناصر لدين الله، والحليفة العباسي المستعصم بالله، وبدر الدين لؤلؤ، والناصر الأيوبي، كيف كانت نهايتهم أما قطز وشعبه، فقد فطنوا لهذا المرض، وزهدوا في الدنيا وكان سيف الدين قطز قدوة ومثلاً حياً بين الناس، فقد باع ما يمتلكه ليجهز جيوش المسلمين المتجهة لحرب التتار، ولم يطمع في كرسي الحكم، بل عرض القيادة على الناصر يوسف الأيوبي على قلة شأنه، إذا قبل بالوحدة بين مصر والشام، ولم يطمع في استقرار عائلي أو إجتماعي أو أمن أو أمان، فكرس حياته للجهاد والقتال، على صعوبته وخطورته، ولم يطمع في أن يمتد به العمر، فخرج على رأس الجيوش بنفسه ليحارب التتار في حرب مهلكة، ولا شك أنه يعلم أنه سيكون أول المطلوبين للقتل، ولا شك أنه يدرك كذلك أنه إذا لم يخرج بنفسه، وأخرج من ينوب عنه فإن أحداً لن يلومه؛ لأنه الملك الذي يجب أن يحافظ على نفسه لأجل مصلحة الأمة لكنه اشتاق بصدق إلى الجهاد وتمنى الموت بين صليل السيوف وأسنة الرماح فزهد في هذه الدنيا الفانية وكانت حياته تطبيقاً عملياً كاملاً لكلماته[١]، فكانت تلك الكلمات قد سرت روحها في أركان حربه وجنوده وشعبه وتحركوا لأحد الحسنين فكان النصر الكبير في معركة عين جالوت.

١٢ ـ صراعات داخل بيت الحكم المغولي: وصلت الأخبار إلى هولاكو بوفاة أخيه الأكبر منكو خان وتنازع أخوية الآخرين "قوبيلاي" "واريق بوقا" على ولاية عرش المغول فوجد نفسه مضطراً إلى العودة إلى مقره الرئيسي مدينة مراغة ليكون قريباً من

---

١ قصة التتار صـ٣٥٩.

مجرى الحوادث في منغوليا، ليسهل عليه التحرك إلى منغوليا إذا دعته الحاجة إلى ذلك، وبالرغم من أن هولاكو هو الابن الرابع لتولوي خان من حقه أن ينافس أخويه في تولي ذلك المنصب، غير أنه لم يولي ذلك المنصب اهتماماً، ولعل ذلك راجع إلى ما تهيأ له من النجاح والظفر في ايران والعراق والشام[1]، فضلاً عن خوفه من ازدياد هوة الخلاف وتعقيد الأمور ولكنه في الوقت نفسه كان يرى أن أخاه قوبيلاي أجدر بتولي العرش من أخيه الآخر ارقيق بوقا وحرص على أن يحضر الانتخابات ليزكي ترشيح أخاه قوبيلاي خاناً أعظم للمغول ومن ناحية أخرى لاننسى ما كان من ازدياد العلاقات سوءا بين هولاكو وابناء عمومته خانات القبيلة الذهبية "القبجاق"[2]، الذين باتوا يهددون ممتلكاته ـ وهذا صرفه عن مدّ الامدادات اللازمة للمغول في بلاد الشام، وكذلك لم يستطع قيادة جيش كبير للانتقام من هزيمة معركة عن جالوت ورد الاعتبار والهيبة للمغول ـ إذ أن بركة خان زعيم القبيلة الذهبية كان يميل إلى المسلمين في الوقت الذي كان هولاكو وحاشيته يعملون جاهدين على ارضاء المسيحيين واستمالتهم إليهم وتطور الأمر ببركة إلى أن اعتنق الدين الإسلامي، وتعرض هولاكو للتقريع والتأنيب من قبله وصار بركة يتهدده بالانتقام منه بسبب ما اقترفه من مذابح راح ضحيتها ألوف من المسلمين، وما أنزل بهم من دمار وخراب، فضلاً عما تعرض له الخليفة العباسي من الهوان وتجرئه على قتله، لذلك كثيراً ما وقع الاحتكاك بينهما عند جبال القوقاز التي تفصل بين نفوذهما، بل ذهب بركة خان إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث قام باضهاد القبائل المسيحية التي كانت تسكن تلك المناطق وذلك رداً على ما سلكه هولاكو من سياسية تعسفية تجاه المسلمين بقصد اذلالهم، ويبدو أن هولاكو أراد أيضاً حداً لتصرفات التهكم والانتقام التي مارسها بركة ضده، فحاول أن يفرض سلطانه على الجانب الشمالي لجبال القوقاز، ولكن بركة أعد لذلك الأمر عدته، واستطاعت جيوشه أن تنزل بجيوش هولاكو هزيمة ساحقة[3]، وهناك أسباب أخرى ذكرت في دفع هولاكو للعودة إلى عاصمته بالمشرق فإن الذي يهمنا قوله هو أن

١ المغول في التاريخ للصايد صـ١٩٨.

٢ القبجاق: فرع من الترك مساكنهم الأصلية حوض النهر ارتش وقد تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر ارتل "الفلجا" في جنوب روسيا الحالية فعرفت تلك الجهة باسم القبجاق، كما عرفت به أيضاً دولة المغول المسماه القبيلة الذهبية.

٣ جهاد المماليك صـ١١٣.

ذلك الحدث المفاجيء كان تحولاً خطيراً، غير مجرى سياسة المغول التوسعية التي جعلت هولاكو لم يعد إلى فارس بمفرده، بل عاد ومعه جموع من عساكره[1]، وهذا مما ساهم في تحقيق النصر في معركة عين جالوت.

١٣ ـ سنة الله في أخذ الظالمين والطغاة: قال تعالى:"ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون" "ابراهيم، آية: ١" وقال تعالى:"إن ربك لبالمرصاد" "الفجر، آية:١٤" إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، لقد عاش التتار في الأرض فساداً، وتحقق لهم الفوز في غالب معاركهم، واجتاحوا الشرق بأكمله، وتصوروا بعد أن سقطت الشام أمام جحافلهم، أنه ليس أمامهم إلا مصر وبعدها يكونون قد ملكوا أزمة الأمور[2]، وقد انتابهم غرور عظيم مع ظلم وطغيان وأنذر إلى ما جاء في رسالتهم لقطز: .. فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرفق لمن أشتكى، وقتلنا معظم العباد فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب فأي أرض تأويكم، وأي طريق تنجيكم وأي بلاد تحميكم؟ فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقتالنا لا تنفع ودعاؤكم علينا لا يسمع[3]. وهذا يعني الغرور الذي لاحد، وحان وقت الخلاص منهم بقدرة السميع العليم وأراد أن تكون هزيمتهم بل مصرعهم وإنهاء ملكهم في الشام على يد السلطان سيف الدين قطز[4].

إن الأسباب في انتصار المسلمين في عين جالوت متشابكة ومتداخلة، ويؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالنجاح السياسي، ويؤثر في الجانب الاقتصادي، ويتأثر به وهكذا وما ذكرنا من الأسباب لا يمكننا أن نقول هذه فقط لا مزيد عليها فقد يأتي غيرنا ويزيد عليها، ومطلوب منا التفكر والتأمل والتدبر لنستخرج الدروس والعبر والسنن والقوانين في قيام الدول وسقوطها، وانتصار الشعوب وهزيمتها، ومعرفة صفات قيادة التمكين، وفقهاء النهوض وعوامل صناعة التاريخ لنستخدمها لنصرة

---

١ المغول للعريني صـ٢٥٧، جهاد المماليك صـ١١٤.
٢ الطريق إلى بيت المقدس صـ١٤١.
٣ السلوك للمقريزي (٥١٤/١).
٤ الطريق إلى بيت المقدس صـ١٤١.

الـلـه عز وجل، ودينه القويم قال تعالى:"لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كـان حـديثاً يفـترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون" "يوسف، آية:١١١".

سابعاً: نتائج وآثار معركة عين جالوت:

ترتب على انتصار المسلمين على المغول في معركة عين جالوت نتائج وآثار كثيرة منها:

١ ـ تحرير بلاد الشام من المغول:كان لوصول خبر انتصار الإسلام في عين جالوت أثـر عـلى أهـل دمشـق وهرب نواب التتار وأصبحت دمشق بدون حكومة لضبط الأمن، وما قام بـه المسـلمون في دمشـق من قتل الخونة والعملاء ومن كاد للإسلام وللمسلمين أثنـاء وجـود حكـم التتـار للمدينـة، لم يكـن عملاً متطرفاً أو تعصباً ضد النصارى أو اليهود، بدليل أن العقوبات الشعبية لحقـت بكـل العنـاصر حتى المسلمين وكما قال المقريزي: ثار أهل دمشق بجماعة من المسـلمين كـانوا مـن أعـوان التتـار وقتلوهم[١]، وهذا دليل على أن ثورة المسلمين كانت ضـد الخونـة ومـن تعـاون مـع الأعـداء وهـذا الأمرمن حق المسلمين تأديب من بغى على أهل الإسلام، وبالفعـل تـمّ تطهـير دمشـق مـن المغـول واذنابهم والخونة معهم، وواصل الأمير بيبرس البندقداري مطاردة فلـول التتـار بعـد عـين جـالوت، واستمر المسلمين في تطهير بلاد الشام وفلسطين وشرق تركيا مـن المغـول، ولم يُسـمع عـن التتـار في هذه المنطقة لعشرات السنين، بعد ذلك واختفى القهر والظلـم والـبطش والتشريـد، وأمـن النـاس على أرواحهم وأموالهم وأرضهم وأعراضهم[٢].

٢ ـ تحقق الوحدة بين الشام ومصر:ومن أهم نتائج هذه المعركة، إعادة الوحـدة بـين شطري الجبهة الإسلامية، مصر وبلاد الشـام، وهـي الوحـدة التـي تعرضـت لمحنـة التمـزق والانقسـام منـذ مقتـل الملـك المعظـم تورانشـاه في المحـرم سـنة ٦٤٨هــ والمعلومات التاريخية تفيد أن المظفر قطز كان يدرك أن انتصار المسـلمين في عـين

١ الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول د.فايد صـ١٢٣،١٢٢.

٢ قصة التتار صـ ٣٤٥، التتار والمغول د.محمود السيد صـ١٣٢.

جالوت لن يؤتي ثماره إلا بتحرير الشام من سيطرة المغول، ومن ثم فإنه جعل هذه الغاية شغله الشاغل، فبمجرد أن تحقق له النصر في عين جالوت، بعث برسالة عاجلة إلى أهل دمشق، يخبرهم ويطمئنهم، وبذل جهده في توحيد الشام بمصر[1]، وعادت الوحدة من جديد وليس ثمة غير الوحدة من طريق في ماضينا وفي حاضرنا، إنه السير على منهج قادة الجهاد، كعماد الدين ونور الدين وجاء صلاح الدين وبنى على جهدهم انتصاراته الحاسمة ضد الصليبيين وحرر القدس وها هي معركة عين جالوت تشد الآصرة مرة أخرى وتمنح المسلمين الأرضية التي سيتحركون عليها عبر العقود القادمة لمجابهة الخصوم، ودفعهم إلى إحدى اثنتين، الإذعان لكلمة الإسلام، أو العودة من حيث جاؤوا.. لقد ملأت المعركة الفراغ المخيف الذي كان يمكن أن يتمخض عن سقوط الخلافة العباسية وتفتت الدويلات الإسلامية كالزنكية والايوبيين والخوارزمية، والسلاجقة، فأتاحت للقيادة المملوكية الشابة أن تقوم بتوحيد الشام ومصر[2].

٣ ـ خمود القوى المناوئة للمماليك:قضى المماليك على ما تبقى من الايوبيين الذين كانت لهم بعض الزعامات داخل المملكة، فقد ارسل السلطان بيبرس في ربيع الآخر سنة ٦٥٩هـ / شباط ١٢٦٠م جيشاً إلى الشوبك فاحتلها[3]، وبعد عدة أشهر أرسل جيشاً آخر إلى الكرك لإظهار قوته[4]، وفي شهر ربيع الآخر سنة ٦٦١هـ /شباط١٢٦٢م توجه الملك الظاهر إلى دمشق وأرسل في طلب المغيث ملك الكرك في حيلة إستطاع على أثرها أن يقبض عليه ويسجنه في سجن القاهرة ثم قتله[5]، وسار بنفسه إلى الكرك مع جيش يحتوي على جميع صنوف الأسلحة بما فيها الصناع والوحدات الفنية والهندسية وضرب الحصار على المدينة، فاستسلمت وأعادها إلى حكم المماليك[6]، وقد حدثت ثورات في الكرك ضد الحكم المملوكي

١ الجبهة الإسلامية د.حامد غنيم صـ ٤٢٤، دراسات في تاريخ الايوبيين والمماليك د.نعمان جبران صـ٢٧٨.
٢ دراسات تاريخية صـ٩١.
٣ الروض الزاهر صـ٤٨، معركة عين جالوت صـ٣٩٤.
٤ معركة عين جالوت صـ٣٩٤.
٥ المصدر نفسه صـ٣٩٤، ذيل مرآة الزمان (٢ ـ ٣٠٠).
٦ معركة عين جالوت صـ٣٩٥.

إستطاع الظاهر القضاء عليها، ولم يكتف الظاهر بملاحقة الأيوبيين، وسلاطينهم، بل طاردهم وتعقب فلولهم حتى على مستوى جندي في القوات المسلحة، وذلك بتسريح كل أمراء وضباط وجنود وخدم الأيوبيين، وذلك إعتقاداً منه في توظيف الجيش، وجعله مختصراً فقد على أولئك الضباط والجنود الموالين، فأحال على التقاعد الجندي فخر الدين، وتخلص من الأمير سيف بين نجم الأيوبي[1]، وضايق على الدولة البدرية التي كانت تقع في الجزء الشرقي من سوريا، وتضم الموصل، والجزيرة ونصيبين وماردين، وكان على الموصل الملك الصالح ابن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ، وفي نهاية المطاف قضى الملك الظاهر بيبرس على الدولة البدرية وضمها إلى الدولة المملوكية وضغط الجيش المملوكي بشدة على قوى الإسماعيلية الذين كانوا يسكنون في مصياف المنطقة الغربية في حمص وحماه وكانت هذه المنطقة تتميز بالقلاع والحصون، وقبل أن يتهيأ الإسماعيليون للحرب فاجأهم بيبرس بهجوم إستولى في نهايته على مصياف ثم توالت هجماته حتى إستولى على قلاعها، وانتصر عليهم إنتصاراً ساحقاً[2].

٤ ـ إنتصار الإسلام على الوثنية: ليس من المبالغة القول إن عين جالوت شهدت معركة حاسمة على المستويات العسكرية، والسياسية والعقيدية والحضارية عموماً، لقد كان إنتصار المسلمين يعني إنتصار الإسلام على الوثنية، والتحضر على الجاهلية، والقيم على الإنفلات[3]، وفي معركة عين جالوت نشهد المعادلة الواضحة التي لا تمنح جوابها العادل إلا إذا تجمع طرفاها في تكافؤ مقابل، الأخذ بالأسباب، والإيمان الواثق العميق بالله، وبعدالة القضية التي يجاهد المسلمون من أجلها، وبدون تحقق هذا التقابل، فلن يكون نصر أو توفيق، ولن يحتاج الأمر إلى مزيد شواهد أو نقاش، فإن مجرى التاريخ الإسلامي الطويل يعرض علينا عشرات بل مئات وألوفاً من الشواهد على هذا الذي تعرضه علينا واقعة عين جالوت[4]، وهذه شهادة المؤرخ الإنجليزي المعاصر ستيفن رنسيمان في كتابه تاريخ الحروب

---

١ المصدر نفسه صـ٣٩٦.

٢ معركة عين جالوت صـ٣٩٦.

٣ دراسات تاريخية صـ٨٩.

٤ المصدر نفسه صـ٩٠.

الصليبية يقول: تعتبر معركة عين جالوت من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ، ومن المحقق لـو أن المغول عجلوا بإرسال جيش كبير عقب وقوع الكارثة لتيسير تعويض الهزيمة، غير أن أحكام التاريخ حالت دون نقض ما يتخذ في عين جالوت من قرار، فما أحرزه المماليك من إنتصار إنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرض له، فلو أن المغول توغلـوا إلى داخـل مصر لمـا بقـي للمسـلمين في العـالم دولـة كبيرة شرقي بلادي المغرب، ومع أن المسلمين في آسيا كانوا من وفرة العدد مـا يمنـع مـن إستئصـال شأفتهم، فأنهم لم يعودوا يألفون العنصر الحاكم ولو إنتصر كتبغا المسـيحي، لإزداد عطـف المغـول على المسيحيين، ولأصبح للمسيحيين في آسيا السلطة لأول مرة منذ سيادة المحـن الكبـيرة في الـعصر السابق عن الإسلام[1]، لقد كانت موقعة عين جالوت أول صدمة في الشرق لجيوش المغول وخانـاتهم الذن ظن المعاصرون أنهم قوم لا يغلبون[2].

٥ ـ حدث حاسم في تاريخ البشرية: إن إنتصار المسلمين في معركـة عـين جـالوت ومـا أعقبـه مـن طـرد المغول نهائياً من بلاد الشام يعتبر بحق من الحوادث الحاسمة ليس في تاريخ الشام ومصر فحسب، ولا في تاريخ الأمم الإسلامية بمفردها وإنما في تـاريخ العـالم بـأسره، إذ أن ذلـك الإنتصـار العظـيم لم ينقذ العالم الإسلامي وحده، بل أنقذ العالم الأوربي والمدينة الأوربية مـن شر ذلـك الغـزو، فلـو تـم للمغول، إكتساح الأراضي المصرية والنفاذ إلى الشمال الأفريقي لتمكنوا بسهولة من سلوك الطريـق التقليدي إلى أوربا عبر صقلية وجبل طارق، لذا فإنه لا يختلف إثنان في أن هذه المعركـة تفـوق في أهميتها المعارك الحربية الحاسمة في العصور الحديثة[3].

٦ ـ روح جديدة في الأمة: كان لإنتصار المسلمين في معركة عـين جـالوت مـن العوامـل التي ساهمت على إنتشار الإسلام وقتئذ،فقد بعث هذا الإنتصار روحـاً جديـدة في المسلمين لا سيما مسلمي فارس الذين إرتفعت روحهم المعنوية وأخذوا يصـمدون أمام مناورات المسيحيين وينافسـونهم في تبـوء مركـز الصـدارة في دولـة المغـول في

١ المصدر نفسه صـ٤، عين جالوت فتحي شهاب الدين صـ٣٤.
٢ نهر التاريخ الإسلامي صـ٤٥٦.
٣ جهاد المماليك صـ٣٥٦، مصر في العصور الوسطى محمود محمد صـ٢٤٦.

إيران، وصاروا يشرحون للمغول تعاليم الدين الإسلامي حتى كللت متاعبهم بنجاح باهر، أثمر إعتناق المغول في غرب آسيا الدين الإسلامي، بعد أن ثبت لهم صلاحيته لكل زمان ومكان وشموله لكل نواحي الحياة من خلال معاشرتهم لأهله، ولبعده كل البعد عن الخلافات الجوهرية التي إبتلى بها الدين المسيحي وذلك لكون الإسلام خاتم الأديان تكفل الله بحفظه إلى أن يرث الأرض ومن عليها[١].

وسيأتي الحديث عن دخول المغول في الإسلام مفصلاً بإذن الله تعالى في كتابنا القادم عن الملك الظاهر بيبرس.

٧ ـ إنحسار المد المغولي: بعد هزيمة عين جالوت حاول المغول عدة محاولات لإستعادة مجدهم، ورد إعتبارهم وإرجاع سمعتهم الحربية التي تلطخت بالعار مع الجيش المملوكي، فقد شنو عدة غارات وسيروا الحملات العسكرية لكي ينالوا من المماليك، فالحقد يملأ قلوبهم، والانتقام يتميز غضباً في نفوسهم، أنهم كانوا اقوى جيوش العالم، والآن أصيبوا بالضعف والوهن وزالت هيبتهم[٢]، وإستطاع المسلمون أن يتغلبوا في عين جالوت على الهزيمة النفسية التي كانوا يعانون منها، وخروج من الإحباط الشديد وعلموا أن الأمل في الله لا ينقطع أبداً، وأنه مهما تعاظمت قوة الكافرين فإنها بلا شك إلى زوال[٣]، قال تعالى : "لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد" (آل عمران ، آية : ١٩٦ ـ ١٩٧).

٨ ـ فشل التحالف بين الصليبيين والتتار: ترتب على إنتصار المماليك في عين جالوت أن ضعف أمل الصليبيين في التعاون مع المغول ضد المسلمين وذلك بسبب ظهور قوة دولة المماليك الإسلامية التي تمكنت من إبعاد الخطر المغولي إلى حدود العراق، بل حاول المماليك غزو العراق وإستخلاصه من التتار[٤].

---

١ المصدر نفسه صـ٣٥٧.

٢ معركة عين جالوت صـ٣٨١.

٣ قصة التتار صـ٣٤٤.

٤ الجها الإسلامي ضد الصليبيين والمغول د. فايد صـ١٢٦.

٩ ـ إضعاف الوجود الصليبي: كان لإنتصار المماليك في معركة عين جالوت دور كبير في إضعاف بقايا الوجود الصليبي على ساحل بلاد الشام، فالذي لا شك فيه أن الصليبيين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة بعد ذلك النصر العظيم والذي حققه المسلمون ضد المغول في هذه المعركة، فسارع زعماؤهم ـ بعد أن أدركوا أن نهايتهم آتية لا محالة ـ بالتقرب إلى السلطان بيبرس، وطلب مراحمه، فعقد معهم معاهدات أملى شروطها بنفسه وقام في الوقت نفسه بإبرام سلسلة من المعاهدات والإتفاقات الودية مع الدول الأجنبية القريبة من بقايا الصليبيين في بلاد الشام، وتمكن من أحكام العزلة على الصليبيين وذلك بحرمانهم من أي معونة خارجية، الأمر الذي عجل بإقتلاع جزورهم نهائياً من ساحل بلاد الشام[١].

١٠ ـ مدينة القاهرة: لم تقتصر عين جالوت على النواحي السياسية بل تعدت إلى النواحي الحضارية، حيث جنبت مصر ويلات الغزو المدمر القاهرة لما تعرضت له بغداد ودمشق، وغيرهما من مدن إيران والعراق والشام من الخراب والدمار الذي عطل ما كانت تزخر به هذه المدن الإسلامية من الآداب والعلوم والفنون والمعالم الحضارية، وبقية القاهرة مكاناً هادئاً آمناً يهرع إليه العلماء والأدباء والفنانون حتى إكتسبت عاصمة المماليك مكانة ممتازة في هذا المجال إلى جانب مكانتها السياسية، التي برهنت على ما إكتسبه المماليك المسلمون من هيبة وقدرة في شئون السياسة والحرب، وإتضحت في علاقاتهم الخارجية والدولية الواسعة الإنتشار وفي إصلاحاتهم وإداراتهم الداخلية الحازمة[٢].

١١ ـ ميلاد دولة المماليك الفتية: في الوقت الذي كانت قوات الحملة الصليبية السابعة تنزل على شاطيء البحر المتوسط أمام دمياط، كانت جحافل التتار بقيادة هولاكو تطوي بلدان المشرق الإسلامي وتقترب من عاصمة الخلافة العباسية الواهنة في بغداد، وإذا كانت إنتصارات المماليك في المنصورة وفارسكور سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م هي صرخة الميلاد للدولة المملوكية، فإن معركة عين جالوت ـ التي حسرت المد المغولي ـ كانت تأكيداً للدور التاريخي الذي ينتظر دولة سلاطين

١ جهاد المماليك صـ٣٥٧، المظفر قطز العسيلي صـ١٢٦.
٢ جهاد المماليك صـ٣٥٧.

المماليك، وهو دور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامي[1]، وتمكنت الدولة الجديدة ـ بقيادة السلطان الظاهر بيبرس ـ أن تغير مصير المنطقة في أكثر من إتجاه إذ طاردت فلول المغول وقضت على بقايا الأيوبيين، كما أحاطت بالمستوطنات الصليبية من كل إتجاه، وعلى الرغم من الضجة التي أحدثها المغول في تاريخ المنطقة إلا أن خطرهم على العالم الإسلامي لم يكن كبيراً مثل خطر الصليبيين الذين كان الصراع ضدهم صراع وجود، ويتأكد هذا القرض من خلال الحقيقة القائلة: أن المغول الذين غزو المشرق الإسلامي لم يلبثوا أن إعتنقوا الإسلام، وصاروا من أكثر المدافعين عنه حماسة بعد جيلين فقط من هزيمة عين جالوت.

١٢ ـ الدور الرمزي للخلافة العباسية: تأكد الدور الرمزي والعاطفي للخلافة العباسية، فقد كان إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م بمثابة الحل السعيد الذي وجده السلطان الظاهر بيبرس لإضفاء الشرعية على دولته العسكرية التي قامت بدور هائل في تصفية الوجود الصليبي، وقد أثبتت الأحداث طوال عصر سلاطين المماليك أن الخلفاء العباسيين في القاهرة لم يكن لهم من الخلافة سوى إسمها، كما تحددت إقامة معظمهم بحيث كانت أقرب إلى الإعتقال[2].

١٣ ـ تطوير الجيش المملوكي وتحديث عتاده وأنظمته: إزداد حجم الجيش بعد معركة عين جالوت وتعددت تشكيلاته القتالية، ففي أعقاب المعركة وفي زمن الملك الظاهر كان هناك ثلاث جيوش، أحدهما في مصر وثانيهما في دمشق وثالثهما في حلب، ولقد أطلق على الجيش الذي يقوده القائد الأعلى جيش الزحف، ويبلغ عدده أربعين ألف مقاتل، وبلغت إحدى التجريدات في عهد الملك الناصر مائة وخمسين ألف مقاتل ثم تطور هذا الجيش، فأصبح يضم قوات مركزية في مصر وقوات إحتياطية ودخل في قوامه جيوش القبائل العربية والتركمان والأكراد، ووصل حجمه إلى ثلاثمائة وسبعة وخمسين ألفاً ، وكذلك فإنه طرأ تطوير كبير

١ ماهية الحروب الصليبية صـ١٩٢.

٢ المصدر نفسه صـ١٩٣.

على نوعية الأسلحة والاختصاصات المتعددة في الجيش، وتم بناء الجسور والقناطر والترع، كما كان سلاح النفط والنيران في مقدمة الأسلحة التي أصابها التطوير، إذ تنوعت المواد الخارقة وإستخدمت على نطاق واسع وغير ذلك من أنواع الأسلحة.

هذه أهم نتائج وآثار معركة عين جالوت على العالم الإسلامي والإنسانية.

وبعد هذا ما يسره الله لي من جمع وترتيب وتحليل تضمنتها فصول هذا الكتاب الذي سميته "المغول عوامل الانتشار، وتداعيات الانكسار" وهو حلقة مهمة في موسوعة الحروب الصليبية، والتي صدر منها، السلاجقة، وعصر الدولة الزنكية، وصلاح الدين، والأيوبيون بعد صلاح الدين، وقد إهتم الكتاب بالوقوف على أسباب سقوط الدول، كالذي حدث في الدولة الخوارزمية وشرح أسبابها والتي كان من أهمها، فشل الدولة الخوارزمية في إيجاد تيار حضاري، وكره الشعب لنظام الحكم وعدم ولائه له، والنزاع الداخلي في الأسرة الحاكمة وضعف النظام الحربي، وحب الدنيا وكراهية الموت، وترك الاتحاد والوقوع في ظلم العباد، وأنانية محمد علاء الدين الخوارزمي وهزيمته النفسية، وشخصية جلال الدين منكبرتي، وقصر نظر الخليفة العباسي الناصر لدين الله، كما كانت هناك وقفات تحليلية في أسباب زوال الدولة العباسية والتي كان من أهمها؛ غياب القيادة الحكيمة، وإهمال فريضة الجاهد، وانعدام الوحدة السياسية، وضعف الجيش العباسي، ضعف عصبية الدولة، ضعف قيمة العهود ضعف همم ملوك الأطراف، تنازلات سياسية دلت على الوهن العباسي، وتعدد مراكز القوى واحتلال خطوط الدفاع الأولى، ودور النصارى في سقوط الدولة العباسية، ودور المسلمين في إسقاط الدولة العباسية وإبعاد الكفاءات النادرة ومنافسة العلويين، والترف وأثره في زوال الدولة العباسية والوصول إلى آخر نقطة من الانحلال والتدهور، وتدهور الأوضاع الاقتصادية والصراع الداخلي في بغدادي، وخيانات الشيعة كالوزير ابن العلقمي وتمرس فرسان التتار وقوة الإمبراطورية المغولية، كما أهتم الكتاب بجهود المماليك في التصدي للمشروع المغولي، وأنصفهم، وترجم لسيف الدين قطز، ترجمة مفصلة اهتمت بفقه في إدارة الصراع مع المشروع المغولي وقفت مع أسباب انتصار المسلمين في عين جالوت مع نوع من التحليل، واستخرج السنن، واستلهام العبر، والدروس، والتي كان من أهمها، القيادة الحكيمة، ووضح الرؤية

والهدف ونقاء الهوية والحرص على الشهادة، وعدم موالاة أعداء الأمة وتوسيد الأمر إلى أهله، والجيش القوي، وأحياء روح الجهاد والأخذ بسنة الأسباب، كملازمة التدريب العقائدي مع التدريب القتالي، والتدريب بشكل متواصل وعبقرية التخطيط وبعد نظر سيف الدين وسياسته الحكيمة وتوفر صفات الطائفة المنصورة في الجيش المملوكي وسنة التدرج ووراثة المشروع المقاوم والاستعانة بالعلماء واستشارتهم والزهد في الدنيا وصراعات داخل بيت الحكم المغولي، وسنة الله في أخذ الظالمين والطغاة سنواصل بإذن الله تعالى دراسة عهد المماليك دراسة شاملة وسيلحق هذا الكتاب، بعض الكتاب حتى نغطي عهد المماليك بإذن الله تعالى، فما كان في هذه المباحث من صواب فهو محض فضل الله علي فله الحمد المنة، وما كان فيه من خطأ فاستغفر الله تعالى، وأتوب إليه، والله بريء منه وحسبي أني كانت حريصاً أن لا أقع في الخطأ وعسى أن لا أحرم الأجر، وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين، وأن يذكرني من يقرؤه في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى، وأختم هذا الكتاب بقوله تعالى:(ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) (الحشر، آية:١٠) وبقول الشاعر الذي عاصر عهد المماليك (ابن الوردي):

واتق الله فتقوى الله ما

جاوزت قلبَ إمريء إلاَّ وصل

ليس من يقطع طرقاً بطلاً

إنما من يتقِ الله البطل

واهجر الخمرة إن كنت فتىً

كيف يسعى في جِنون من عقل

صـــــــدّقِ الشرع ولا تـــــــركن إلى

رجـــــل يرصـــــد بالليــــــل زحـــــل

حـــــارت الأفكـــــار في قـــــدرة مـــــن

قـــدْ هـــــدانا سُـــــبُلنا عـــــز وجـــــل

كتـــب المـــوت عـــلى الخلـــق فكـــم

فـــلَّ مـــن جمـــع وأفنـــى مـــن دول

أيـــــن نمـــــرود وكنعـــــان ومـــــن

ملـــــك الأمـــــر وولّيَّ وعـــــزل

أيـــــن عـــــادٌ أيـــــن فرعـــون ومـــن

رفـــع الأهـــرام مـــن يســـمع يخـــل

أيـــن مـــن ســـادوا وشـــادوا وبنـــوا

هلـــــك الكـــــلُّ ولم تغنـــــى القلـــــل

أيـــن أربـــاب الحجـــا أهـــل النّهـــى

أيـــــن أهـــــل العلـــــم والقـــــوم الأُول

ســـــيعيد اللـــــــه كـــــلاً مـــــنهم

وســـيجزي فـــاعلا مـــا قـــد فعـــل

أيْ بنـــي اســـمع وصـــايا جمعـــت

حكـــماً خُصَّـــت بهـــا خـــير الملـــل

أطلـــب العلـــم ولا تكســـل فـــما

أبعـــد الخـــير عـــلى أهـــل الكســـل

واحتفـــــل للفقـــــه في الـــــدين ولا

تشـــــتغل عنـــــه بمـــــال أو خَـــــوَل

واهجـــر النـــــومَ وحصِّـــله فمـــن

يعـــرف المطلـــوب يحقـــر مـــا بـــذل

لا تقـــل قـــد ذهبـــت أربابـــه

كـــل مـــن ســـار عـــلى الـــدرب وصـــل

في ازديـــاد العلـــم إرغـــام العِـــدى

وجـــمال العلـــم يـــا صـــاحِ العمـــل

أنـــا لا أختـــار تقبيـــلَ يـــدِ

قطعهـــا أجمـــل مـــن تلـــك القبـــل

واتـــرك الـــدنيا فمـــن عادتهـــا

تخفـــض العـــالي وتعـــلي مـــن ســـفل

قيمـــة الإنســـان مـــا يحســـنه

أكـــثر الإنســـان منـــه أو أقـــل

إن نصـــف النـــاس أعـــداء لمـــن

ولي الأحكـــام هـــذا إن عـــدل

قصِّرِ الآمـــــال في الـــــدنيا تفـــــز

فـــــدليل العقـــــل تقصـــــير الأمـــــل

غِـــــبْ وزُرْ غبّـــاً تـــزد حبـــاً فمـــــن

أكـــــثر الـــــترداد أضـــــناه الملـــــل

حبـــــك الأوطـــــان عجـــــز ظـــــاهر

فـــاغترب تلْـــقَ عـــن الأهـــل بـــدل

فبمكـــــثِ المـــــاء يبقـــــى آســـــناً

وسُرى البـــدرِ بـــه البـــدر اكتمـــل[1]

" سبحانك اللـهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك"

---

١ ديوان ابن الوردي صـ٢٧٧ إلى ٢٨٠.

أهم المراجع والمصادر

١ ـ تاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الإعلامي بيروت.

٢ ـ تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، محمد أحمد النظر، دار البداية، عمان الأردن، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م ـ١٤٢٦هـ

٣ ـ تاريخ المغول والمماليك، د.أحمد عودات، جميل بيضون، شحادة الناطور،دارالكتدي ،إربد ، ١٩٩٠.

٤ ـ قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام، أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، بيروت لبنان.

٥ ـ كتاب الروضتين في اخبار الدولتين، لأبي شامة عبد الرحمن اسماعيل، تحقيق د.حلمي أحمد القاهرة سنة 1956م.

٦ ـ الفخري في الآدب السلطانية، لابن طباطبا، محمد بن علي، القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ بيروت دار صادر، ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٦م.

٧ ـ المواعظ والاعتبار للمقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر ط القاهرة ١٢٧٠.

٨ ـ تاريخ ايران بعد الإسلام، عباس إقبال، نقله إلى العربية د.محمد علاء منصور، نشر دار الثقافة العربية ١٤١٥ هـ ١٩٩٤م.

٩ ـ دولة آل سلجوق للأصفهاني، للبنداري، القاهرة طبعة قديمة ١٩٠٠م.

١٠ ـ جنكيز خان قاهر العالم غروسية نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى، دمشق ١٩٨٢م.

١١ ـ صبح الأعش في صناعة الإنشا للقلقشندي.

١٢ ـ أخبار الدولة السلجوقية، تصحيح محمد إقبال لاهور.

١٣ـ الملك الصالح وانجازاته السياسية والعسكرية، فاطمة زبار الحمداني، كلية الآداب، جامعة بغداد رسالة ما جستير عام ١٩٩٥م.

١٤ ـ في التاريخ الأيوبي والمملوكي د.أحمد مختار العبادي مؤسسة شباب الجامعة الإسكنرية.

١٥ ـ الأيوبيون بعد صلاح الدين أو الحملات الصليبية، الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، على محمد الصلابي.

١٦ ـ قصة التتار من البداية إلى عين جالوت د.راغب السرجاني مؤسسة اقرأ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٧ ـ أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، د.إبراهيم علي شعوط، المكتب الاسلامي، الطبعة السادسة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م.

١٨ ـ منهج الرسول في غرس الروح الجهادية د.سيد نوح.

١٩ ـ مصر في عهد بناة القاهرة، ابراهيم شعوط.

٢٠ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان نقله إلى العربية نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت طبعة ١٤ يناير ٢٠٠٠م.

٢١ ـ دولة المماليك سمير فراج، مركز الراية للنشر والإعلام.

٢٢ ـ السلطان المظفر سيف الدين قطز، قاسم عبده، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٣ ـ صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام سليم عيد الهلالي، دار ابن الجوزي الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠م.

٢٤ ـ العز بن عبد السلام للزحيلي، دار القلم دمشق الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٥ ـ بيت المقدس والمسجد الأقصى دراسة تاريخية موثقة، محمد محمد حسن شُراب، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٦ ـ تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، محمد سهيل طقوش، دار النفائس الطبعة الولى ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٧ ـ تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد عمران، دار النهضة الطبعة الثانية ١٩٩٩م.

٢٨ ـ الشرق الأدنى في العصور الوسطى الأيوبيين د.السيد الباز العريني، دار النهضة العربية.

٢٩ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، نشر لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٧١م دار الكتب القاهرة ١٩٧٢م.

٣٠ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة المؤسسة المصرية العامة لتأليف والترجمة، ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف.

٣١ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب أحمد عبد الوهاب النويري الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٣٩٥هـ

٣٢ ـ الجواري والغلمان في مصر في العصرين الفاطمي، والأيوبي نجوى كمال كيرة، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، مصر الولى ٢٠٠٧م.

٣٣ ـ كنز الدرر وجامع الغرر، أبو بكر بن عبد الله الدوادراي تحقيق صلاح الدين المنجد القاهرة ١٩٦١م.

٣٤ ـ مذكرات جوانفيل، جان جوانفيل، ترجمة د.حسن حبشي، دار المعارف، مصر ١٩٦٨م.

٣٥ ـ الحروب الصليبية بين الشرق والغرب د.محمد مؤنس عوض، الطبعة الأولى ١٩٩٩/٢٠٠٠م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية.

٣٦ ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لأحمد إبراهيم الحنبلي، مكتبة الثقافة الدينية، طبعة سنة ١٩٩٦م،١٤١٥هـ

٣٧ ـ في تاريخ الأيوبيين والمماليك قاسم عبده قاسم طبعة ٢٠٠٧م مزيدة ومنقحة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية.

٣٨ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور إبن أبي أياس أبي البركات الناصري محمد بن أحمد بن إياس الحنفي الطبعة الأولى ١٩٧٥م.

٣٩ ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي القاهرة الطبعة ١٩٥٨م.

٤٠ ـ الدولة الأيوبية تاريخها السياسي والحضاري د. عرب دعكور، دار المواسم طبعة سنة ٢٠٠٦م بيروت لبنان.

٤١ ـ في التفسير الإسلامي للتاريخ، نعمان السامرائي مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٩٥م.

٤٢ ـ أيعيد التاريخ نفسه، محمد العبده، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٤٣ ـ هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس د. ماجد عرسان الكيلاني، الدار السعودية للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، جدة.

٤٤ ـ الجبهة الإسلامية لمواجهة المخططات الصليبية، جبهة الشام وفلسطين ومصر د. ماجد غنيم أبو سعيد، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٤٥ ـ السنن الإلهية د. عبد الكريم زيدان، دار الرسالة.

٤٦ ـ الدولة الأموية عوامل الإزدهار، وتداعيات الإنهيار د. على محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٤٧ ـ التفسير الكبير لفخر الدين الرازي.

٤٨ ـ الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الخامسة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٤٩ ـ رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية.

٥٠ ـ تفسير الألوسي روح المعالي في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، إدارة الطباعة بالهند، بدو ذكر سنة الطبع.

٥١ ـ في التأصيل الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل.

٥٢ ـ نظام الحكم في الإسلام بين النظرية والتطبيق د. أحمد عبد اللـه مفتاح، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٥٣ ـ صحيح البخاري، عبد اللـه بن محمد بن إسماعيل البخاري أعني به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٥٤ ـ الضعف المعنوي، وأثره في سقوط الأمم، د. حمد بن صالح السحيباني، كتاب المنتدى، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٥٥ ـ دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية د. آسيا سليمان نقلي، مكتبة العبيكان الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٥٦ ـ تاريخ مصر الإسلامية، زمن سلاطين بني أيوب د. أحمد فؤاد سيد، مكتبة مدبولي القاهرة، ٢٠٠٢م.

٥٧ ـ صلاح الدين الأيوبي للصَّلاَّبي، دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٥٨ ـ السلاطين في المشرق العربي، معالم دورهم السياسي والحضاري د. عصام محمد شباور، دار النهضة العربية طبعة ١٩٩٤م.

٥٩ ـ شجرة الدُّر قاهرة الملوك، نور الدين خليل دار الكتب المصرية.

٦٠ ـ موسوعة تاريخ مصر، لأحمد حسين.

٦١ ـ شجرة الدُّر، د. يحي الشامي، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

٦٢ ـ ولاية المرأة في الفقه الإسلامي، إعداد حافظ محمد أنور، دار بلنسية، السعودية.

٦٣ ـ تدوين الدستور الإسلامي، أبو الأعلى المودودي.

٦٤ ـ جامع البيان، للطبري، محمد بن جرير الطبري، المكتبةالتجارية، مكة المكرمة ١٤٠٨هـ

٦٥ ـ قيام دولة المماليك الأولى للعبادي، أحمد مختار العبادي طبعة ٢٠٠٢م، مؤسسة شباب الجامعة.

٦٦ ـ العدوان الصليبي على بلاد الشام، د. جوزيف نسيم دار النهضة عام ١٩٨١م بيروت.

٦٧ ـ العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، د. منذر الحايك، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م الأوائل دمشق سوريا.

٦٨ ـ معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، د. يوسف حسن غوانمة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، دار الفكر.

٦٩ ـ تاريخ القبائل العربية، محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة.

٧٠ ـ تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء، يوسف العظم.

٧١ ـ سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة ١٩٩٠م بيروت، لبنان.

٧٢ ـ نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، لصارم الدين إبراهيم بن محمد بن أبدر العلائي الملقب بأبي دقماق، دراسة وتحقيق سمير طبارة، المكتبة العصرية لبنان.

٧٣ ـ التحفة الملوكية في الدولة التركية بيبرس المنصوري، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٧٤ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد دار ابن كثير دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

٧٥ ـ المغول د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٧٦ ـ سقوط الدولة العباسية د. سعد الغامدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٧٧ ـ العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل الخالدي مكتبة صلاح الدين، مكتبة الفلاح الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٧٨ ـ الحياة السياسية في العراق، د. محمد صالح القزاز، مطبعة القضاء في النجف ١٩٧٠م.

٧٩ ـ المغول في التاريخ، للدكتور الصياد، دار النهضة العربية، بيروت لبنان.

٨٠ ـ البدايةوالنهاية للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية بدار هجر طبعة أولى.

٨١ ـ الدعوة إلى الإسلام، أرنولد.

٨٢ ـ المغول والأوربيون والصليبيون، محمود عمران دار المعرفة الجامعية قناة السويس مصر طبعة ٢٠٠٥م.

٨٣ ـ سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، حمص الناشر: محمد السيد.

٨٤ ـ فتح القسطنطينية، ترجمة الدكتور حسن حبشي.

٨٥ ـ تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تحقيق عبد العزيز غنيم ومحمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم مطبعة الشعب، القاهرة، مصر.

٨٦ ـ تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، د. شوقي.

٨٧ ـ مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري.

٨٨ ـ الغزو المغولي لديار الإسلام، الفريق ركن د. محمد فتحي أمين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٨٩ ـ جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله، دار النفائس.

٩٠ ـ حروب المغول، د. أحمد حطيط، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٩١ ـ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي، د. عبد الجبار ناجي، صلاح عبد الهادي، د. إسماعيل النعيمي، د.مهين مجيد، مركز أسكندرية للكتاب طبعة ٢٠٠٣م.

٩٢ ـ تاريخ المغول عباس إقبال.

٩٣ ـ دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ج ٧ العدد الرابع في ١٣٧ مادة جنكيز خان المغول صـ٣٤٣.

٩٤ ـ العرب والتتار، إبراهيم أحمد العدوي، المكتبة الثقافية، القاهرة ١٩٦٣م.

٩٥ ـ تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدي ترجمة إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواري القاهرة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

٩٦ ـ تاريخ العراق بين إحتلالين، عباس العزاوي بغداد ١٣٥٣هـ/١٩٣٥م.

٩٧ ـ قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته النبراوي، محمد نصر مهنا، منشأة المعارف الأسكندرية، الطبعة ١٩٨٣م.

٩٨ ـ الدولة الخوارزمية د. نافع العبود.

٩٩ ـ معجم البلدات، شهاب الدين أبي عبد اللـه ياقوت الحموي، بيروت، دار صادر ١٩٧٩م.

١٠٠ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين محمد سالم بن واصل.

١٠١ ـ الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي دار الفكر العربي.

١٠٢ ـ الأتراك الخوارزميون، صبري سليم، مكتبة الثقافة الدينية، مصر طبعة ١٤١٩هـ/٢٠٠٠م.

١٠٣ ـ دولة السلاجقة، حسنين عبد المنعم مكتبة الأنجلو ١٩٧٥م.

١٠٤ ـ السلاجقة في التاريخ والحضارة، أحمد حلمي، دار السلاسل، الكويت، الطبعة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٠٥ ـ العبر في أخبار من غبر للذهبي.

١٠٦ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير، بيروت، دار الكتاب العربي، دار صادر سنة ١٩٧٩.

١٠٧ ـ عودة الروح للخلافة الإسلامية، د.محمد صالح محي الدين، دار طويق، السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

١٠٨ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الطبعة الثانية سنة ١٩٥٩م.

١٠٩ ـ تاريخ مختصر الدول، الطبعة الثانية، المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م.

١١٠ ـ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، محمد أحمد النسوي، تحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، مصر سنة ١٩٥٣م.

١١١ ـ كيف دخل التتار بلاد المسلمين، د. سليمان العودة، دار طيبة للنشر، السعودية الطبعة الثانية ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١١٢ ـ تاريخ بخارى، للنرشخي، أبو بكر محمد بن جعفر، عرّبه عن الفارسية وحققه د. أمين بدوي نصر اللـه الطرازي دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.

١١٣ ـ الإعلام للزركي، خير الدين الزركلي، دار العلم، بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ

١١٤ ـ هارولدلام جنكيز خان، نقله إلى العربية لواء بهاء الدين نوري، باسم: جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم، بغداد سنة ١٩٤٦م.

١١٥ ـ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، حسين بن محمد البكري، طبعة مصر ١٢٨٣هـ

١١٦ ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، الطبعة الأولى حيدر آباد الهند، سنة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢م.

١١٧ ـ الدولة المستقلة في المشرق الإسلامي د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، دار الفكر العربي، القاهرة مصر ١٤٢٠هـ/١٩٩٩.

١١٨ ـ جامع التواريخ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني، دراسة وترجمة الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠.

١١٩ ـ العراق بين سقوط الدولة العباسية والعثمانية، عبد الأمير الرفيعي، الفرات الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

١٢٠ ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن ندوي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٩٩٩/١٤٢٠.

١٢١ ـ بنو أمية بين السقوط والإنتحار، د. عبد الحليم عويس، دار الصحوة، دار الوفاء، الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

١٢٢ ـ الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند، د. سعد حذيفة الغامدي، مركز دار إشبيلية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

١٢٣ ـ تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان، حتى قيام الدولة التيمورية، عباس إقبال، ترجمة عبد الوهاب عاشوب، المجمع الثقافي أبو طيب ١٤٢٠هـ

١٢٤ ـ الحوادث الجامعة لابن الغوطي.

١٢٥ ـ جهاد المماليك ضد المغول والصليبين، د. عبد الله سعيد محمد سافر الغامدي، جامعة أم القرى، رسالة دكتوراه.

١٢٦ ـ تاريخ مصر لابن ميسر.

١٢٧ ـ دولة السلاجقة للصَّلاَّبي، دار المعرفة، بيروت لبنان.

١٢٨ ـ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي محمد ماهر حمادة، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٢٩ ـ دول الإسلام للذهبي، لأبي عبد الله محمد الذهبي، دار صادر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٩.

١٣٠ ـ المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماه، بيروت بدون تاريخ طبع.

١٣١ ـ تاريخ ابن خلدون المسمى، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ط ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

١٣٢ ـ مجالس المؤمنين للششتري، نور الله بن شريف، طهران ١٢٩٩هـ

١٣٣ ـ مآثر الأنافة في معالم الخلافة، للقلقشندي، تحقيق عبد الستار أحمد الفرج، عالم الكتب، بيروت لبنان.

١٣٤ ـ بغداد مدينة السلام وغزو المغول، سلمان التكريتي، مكتبة الشرف الجديد، بغداد ١٩٨٨م.

١٣٥ ـ تاريخ دولتي المرابطين والموحدين للصَّلاَّبي، على محمد الصَّلاَّبي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧.

١٣٦ ـ دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، عبد القادر أحمد أبو صيني رسالة دكتواره معهد التاريخ العربي للتراث العلمي في الدراسات العليا.

١٣٧ ـ الدولة العباسية للخضري، محمد الخضري بك، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت لبنان ١٩٨٩م.

١٣٨ ـ ذيل مرآة الزمان لليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكة.

١٣٩ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، بيروت ط ١١، ١٤٠٢هـ

١٤٠ ـ مجلة لواء الإسلام العدد الخامس، أبو زهرة.

١٤١ ـ الترف وأثره في الدعاة والمصلحين، محمد موسى الشريف دار الأندلس الخضراء، جدة السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

١٤٢ ـ أمير المؤمنين المستعصم بالله العباسي، رؤية تصحيحية، يحي محمود بن جنيد، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م/١٤٢٦هـ

١٤٣ ـ طبقات الشافعية للسبكي، عبد الوهاب علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلول وزميله، دار إحياء الكتب العربية القاهرة.

١٤٤ ـ فتاوي ابن تيمية، جمع عبد الرحمن قاسم، طبعة الرئاسة العامة للحرمين الشريفين.

١٤٥ ـ منهاج السنة، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة.

١٤٦ ـ الوافي بالوفيات، تأليف صلاح الدين آيبك الصفدي، تحقيق: هملوت ريتر ـ طبع: دار النشر فرانز ستانير ((ألمانيا)) ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.

١٤٧ .الحروب الصليبية، أرنست باركر، نقله إلى اللغة د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت.

١٤٨ ـ النظم الإسلامية، حسن إبراهيم حسن.

١٤٩ ـ نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي، عبد العظيم الديب، دار الوفاء، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ

١٥٠ ـ أصداء الغزو المغولي مأمون جرّار، مكتبة الأقصى الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١٥١ ـ الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، على محمد الصَّلاَّبي، دار الإيمان الأسكندرية، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

١٥٢ ـ الإغداق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ١٩٥٣م.

١٥٣ ـ عقيدة الجمان في تاريخ أهل الزمان، البدر محمود بن أحمد بن موسى، تحقيق محمد أمين وزارة الثقافة القاهرة ١٩٩٢م.

١٥٤ ـ أخبار الأيوبيين لابن العميد، مكتبة الثقافة الدينية بورسعيد ـ بلا.

١٥٥ ـ المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتمكين، د.عبد الحليم عويس، دار العبيكان، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦م.

١٥٦ ـ دراسات تاريخية عماد الدين خليل، دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ /٢٠٠٥م، دمشق، بيروت.

١٥٧ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني.

١٥٨ ـ نيل الأوطان، للإمام الشوكاني.

١٥٩ ـ الروض الزاهر في سيرة السلطان الظاهر، محي الدين عبد الله بن رشيد الدين بن عبد الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٣٩٦هـ /١٩٧٦م.

١٦٠ ـ الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، جودت الركابي دار الفكر المعاصر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م.

١٦١ ـ الملك المظفر قطز بن عبد الله المعزي، رحاب عكاوي دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.

١٦٢ ـ مصر والشام في عصر الايوبيين، سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية بيروت، لبنان.

١٦٣ ـ زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩، بيبرس الدوادار تحقيق زبيدة عطا.

١٦٤ ـ معركة عين جالوت، دراسة في الجيش المملوكي والمغولي، محمد ضاهر وتر، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ /١٩٨٩م.

١٦٥ ـ الفتوح الإسلامية عبر التاريخ، د.عبد العزيز ابراهيم العمري، مركز الدراسات والإعلام، درا اشبيليا، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ /١٩٩٧م.

١٦٦ ـ من أجل فلسطين، حسني ادهم جرار، مؤسسة الزيتونة للنشر، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ /١٩٩٨م الأردن، عمان.

١٦٧ ـ تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، دار الجيل بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٨م.

١٦٨ ـ أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، محمد راغب الحلبي، المطبعة العلمية الأولى ١٣٤٢هـ /١٩٢٤م.

١٦٩ ـ تاريخ ابن الوردي، نعمة المختصر في أخبار البشر، زين الدين عمر بن الوردي، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٣٨٩هـ /١٩٧٠م.

١٧٠ ـ تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ماجد عبد المنعم، مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ١٩٦٣م.

١٧١ ـ صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبع دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ /١٩٥٥م.

١٧٢ ـ تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، علي محمد الصلابي، دار الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى.

١٧٣ ـ سنن سعيد بن منصور.

١٧٤ ـ تاريخ مصر، اسكندر عمون، مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر، الطبعة السادسة ١٣٤٢هـ /١٩٢٣م.

١٧٥ ـ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور محي الدين عبد الظاهر، الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦١م.

١٧٦ ـ صفة الغرباء، سلمان العودة، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ /١٩٩١م المملكة العربية السعودية.

١٧٧ ـ الطائفة المنصورة، سلسلة تصدر عن مجلة البيان.

١٧٨ ـ الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، ابراهيم النعمة، طبعة ١٤٢٥هـ /٢٠٠٤م، مطبعة الزهراء الحديثة.

١٧٩ ـ الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في عهد العصر المملوكي، د.فايد حمّا محمد عاشور، جرّوس برس، طرابلس، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٥م /١٤١٥هـ

١٨٠ ـ الطريق إلى بيت المقدس، د.جمال عبد الهادي محمد، د.وفاء محمد رفعت، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر القاهرة.

١٨١ ـ نهر التاريخ الإسلامي منابعه العليا وفروعه العظمى، د.ابراهيم أحمد العدوي، دار الفكر العربي، القاهرة.

١٨٢ ـ ماهية الحروب الصليبية د.قاسم عبده قاسم، ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الثانية ١٩٩٣م.

١٨٣ ـ الفقيه والدولة، الفكر السياسي الشيعي، فؤاد ابراهيم، دار الكنوز الأدبية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

١٨٤ ـ التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، د.عبد العزيز الحميدي، دار الدعوة، الإسكندرية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ /١٩٩٨م

١٨٥ ـ تاريخ الدولة المغولية في إيران، فهمي عبد السلام عبد العزيز، القاهرة ١٩٨١م.

١٨٦ ـ تاريخ فاتح العالم، عطا ملك الجويني، نقله عن الفارسية محمد التونجي، دمشق ١٩٨٥م.

١٨٧ ـ الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي، محمد نصر مهنا، الطبعة الأولى ١٩٩٠ ـ ١٩٩١م، المكتب الجامعي الحديث.

١٨٨ ـ العراق سياقات الوحدة والانقسام، بشير نافع، دار الشروق، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦م.

١٨٩ ـ أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، د.ناصر القفاري، دار الرضا الجيزة مصر، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ /١٩٩٨م.

١٩٠ ـ جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك لابن إياس، تحقيق د.محمد زينهم، الدار الثقافية الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ٢٠٠٦م.

١٩١ ـ عصر الدولة الزنكية، علي محمد الصّلاّبي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ /٢٠٠٧م.

١٩٢ ـ خلفاء بني العباس والمغول أسقطوا بغداد، تأليف السيد حسن شبّر، دار الملاك، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ /٢٠٠١م.

١٩٣ ـ دراسات في تاريخ الايوبيين والمماليك د.نعمان محمود جبران، د.محمدحسن العمادي، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

١٩٤ ـ الظاهر بيبرس، بيتر توراو، ترجمة محمد جديد.

١٩٥ ـ الطريق إلى القدس د.محسن محمد صالح مركز الإعلام العربي، القاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م.

١٩٦ ـ مصر في العصور الوسطى، محمود محمد الحويري، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات سنة ٢٠٠٢م.

١٩٧ ـ التتار والمغول د.محمود السيد مؤسسة شباب الجامعة طبعة ٢٠٠٤م.

١٩٨ ـ موسوعة تاريخ العرب، عصر المماليك والعثمانيون، عبد المنعم الهاشمي، دار البحار بيروت ٢٠٠٦م.

١٩٩ ـ إدارة الجودة الشاملة في المؤسسات الإعلامية، بالتطبيق على قناة الجزيزة، دار العرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ /٢٠٠٨م. الشيخ فيصل بن جاسم بن محمد آل ثاني.

٢٠٠ ـ المظفر قطز، ومعركة عين جالوت، بسام العسلي، دار النفائس، الطبعة السادسة ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م.

٢٠١ ـ دراسات في تاريخ مصر في العصرين الايوبي والمملوكي، سحر السيد عبد العزيز سالم الطبعة ٢٠٠٥م، مؤسسة شباب الجامعة.

٢٠٢ ـ مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك د.سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية.

٢٠٣ ـ تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوي، دار الشروق الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ /٢٠٠٥م.

٢٠٤ ـ أبطال ومواقف، أحمد فرح عقيلان دار المعراج الدولية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ /١٩٩٧م.

٢٠٥ ـ عين جالوت، فتحي شهاب الدين دار البشير، طنطا، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ /١٩٩٨م.

٢٠٦ ـ الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية، أنور الجندي، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ /١٩٩٨م.

٢٠٧ ـ ديوان ابن الوردي زين الدين عمر الوردي، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦م مدينة نصر القاهرة.

المحتويات

يتحدث هذا الكتاب عن المشروع المغولي وعوامل الانتشار وتداعيات الانكسار، فيبدأ بتعريف المغول وظهور جنكيز خان، وتوسع دولتهم حتى سقوط بغداد. ثم ينتقل إلى قيام دولة المماليك وجهودهم في دحر الحملة الصليبية السابعة، ومعركة عين جالوت الخالدة وانكسار المغول.

مركز الكتاب الأكاديمي

عمّان-وسط البلد-مجمع الفحيص التجاري

ص . ب : 11732 عمّان (1061) الأردن

تلفاكس: 96264619511+ موبايل: 962799048009+

الموقع الإلكتروني: www.abcpub.net

A.B.Center@hotmail.com / info@abcpub.net





9789957352080